ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

رواية في اربعة مجلدات

المجلد الرابع



دار «رادوغا» موسكو

ترجمة علي الشوك
امجد حسين
غانم حمدون
مراجعة غائب طعمة فرمان

М. Шолохов
ТИХИЙ ДОН
Роман в четырех книгах
Книга 4
На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار «رادوغا» ١٩٩٠

طبع فى الاتحاد السوفييتى

ISBN 5-05-002868-X
ISBN 5-05-002872-8

الجزء السابع

١

عمل تمرد قوزاق الدون الأعلى ، بعد أن اضطر الحمر الى سحب قوات كبيرة من الجبهة الجنوبية ، على تمكين «جيش الدون» من اعادة تجميع قواته المتاخمة فى نوفوتشيركاسك دون عائق ، وتحشيد قوة ضاربة جبارة تتألف من أكثر كتائبه خبرة واثتماناً (وعلى الأخص قوزاق الدون الأسفل والكالميكيين) فى منطقتى كامنسكايا وأوست — بيلوكاليتفنسكايا . وكانت مهمة هذه القوة الضاربة الانضمام فى اللحظة المناسبة الى وحدات الجنرال فتشالوروف ، ومن ثم انزال ضربة قاصمة بالفرقة الثانية عشرة التابعة للجيش الأحمر الثامن ، ثم تطويق جناح فرقتيه ، الأوراليةوالثالثة عشرة ، ثم القيام بعملية اختراق فى اتجاه الشمال للانضمام الى القوزاق المتمردين .

وكانت خطة تحشيد القوة الضاربة قد صممها ، قبل ذلك بوقت طويل ، الجنرال دنيسوف ورئيس هيئة أركانه الجنرال بولياكوف أيام كانا فى قيادة «جيش الدون» . ولم يكد شهر أيار ينصرم حتى كانت الخطة قد وضعت موضع التنفيذ بصورة تكاد تكون تامة . فقد نُقل الى كامنسكايا حوالى ١٦٠٠٠ من حملة الحراب والسيوف مع ٣٦ مدفع ميدان و١٤٠ مدفعاً رشاشاً . وكانت وحدات الخيالة الأخيرة والافواج الممتازة لما يدعى بـ«الجيش الفتى» ، الذى شُكل فى صيف ١٩١٨ ممن هم فى سن الخدمة العسكرية من القوزاق ، فى طريقها الى مواقع التحشد .

وفى غضون ذلك ، ظل المتمردون ، وقد حوصروا من جميع الجهات ، يصدون عنهم هجمات قوات الحمر الرادعة . ففى الجنوب ، وعلى الضفة اليسرى للنهر ، ظلت فرقتان من المتمردين صامدتين فى خنادقهما دون أن تدعا العدو يعبر النهر على الرغم من أن بطاريات لا حصر لها تابعة للجيش الأحمر كانت تصب عليهم من مواقعها على امتداد الجبهة نار مدافعها بسيل طاغ لا يكاد ينقطع . أما الفرق الثلاث الأخرى ، فقد كانت تدافع عن منطقة التمرد فى الغرب والشمال والشرق ، وهى تتكبد خسائر فادحة وعلى الأخص فى القطاع الشمالى-الشرقى ، لكن دون أن تبدى أية بادرة للتقهقر ، بل ظلت صامدة لا تلين على طول حدود اقليم الخوبر . أما سرية قوزاق تتارسكى التى كانت تدافع عن ضفة النهر المقابلة لقريتها ، فقد أتت عملا أثار شيئاً من الفزع فى قوات الحمر : فقد حدث أن قام القوزاق ، بعد أن تملكهم الملل من حالة الكسل المفروضة عليهم ، بالعبور بهدوء الى الضفة اليمنى للدون فى جنيبات ، متسترين بظلام الليل ، وفاجأوا نقطة أمامية حمراء بالهجوم عليها ، فأجهزوا على أربعة من رجالها ، واستولوا على مدفع رشاش . وفى اليوم التالى ، استقدم الحمر بطارية من جنوبى فيشنسكايا فصبت ناراً حامية على خنادق القوزاق . وما ان شرع المنثار يتفجر خلل الأشجار حتى تركت السرية خنادقها وارتدّت من جانب النهر الى قلب الغابة . وبعد ذلك بيوم ، سحبت البطارية من موقعها ، فأعاد قوزاق تتارسكى احتلال مواقعهم . وكانت السرية قد تكبدت بعض الخسائر جراء نيران المدافع : فقد قُتل بشظايا المنثار يافعان تابعان لتعزيزات شكلت مؤخراً ، وجرح مراسل آمر السرية ، وكان قد قدم فى اليوم السابق من فيشنسكايا .

ثم تبع ذلك فترة هدوء نسبى وعادت الحياة فى الخنادق تأخذ مجراها الاعتيادى . وكانت زوجات القوزاق يترددن كثيراً على رجالهن ، فيجلبن فى الليل معهن الخبز والفودكا المنزلية ، على الرغم من أن القوزاق لم يكونوا بحاجة الى المؤن لأنهم كانوا قد ذبحوا حملين تائهين ، كما أنهم اعتادوا على الذهاب كل يوم لصيد السمك فى البرك . وكان كريستونيا يعتبر رئيس شعبة السمكيات . كان يستعمل شبكة ثقيلة طولها سبعون قدماً ، لا بد أن لاجئا تركها على الشاطئ ، وكان يلجأ فى صيده عادة الى القاء الشبكة فى أعمق مكان فى البركة ، مباهياً بأنه لن يترك بركة فى جميع المروج الواقعة على جانب النهر دون أن يخوضها .

وفى غضون أسبوع من صيد دائب للسمك ، أمسى قميص كريستونيا وبنطاله مشبعين بالرائحة النفاذة لزفر السمك ، حتى أن أنيكوشكا سرعان ما أعلن رفضه للمبيت معه فى حفيرة واحدة :

— «ان رائحتك أشبه برائحة قرموطة * ميتة ! واذا بقيت يوماً آخر معك فلن أستطيع أن أمس سمكة بعد اليوم !»

وكان أنيكوشكا يحب النوم فى العراء رغم كثرة البعوض . فكان يلجأ كل مساء ، قبل أن يتمدد خارج الحفيرة ، الى كنس الأرض الرملية وتنظيفها من جلد السمك وأحشائه الزنخة ، وهو بادى التقزز ثم يأتى كريستونيا فى الصباح عائداً من صيد السمك فيجلس قريباً من مدخل الحفيرة بمهابة وهدوء ، ويباشر عمله الاعتيادى فى تنظيف صيده من الشبوط واخراج أحشائه ، فيتهافت عليه ذباب النفيخة ، بلونه الضارب الى الخضرة ،

---

* القرموط : نوع من السمك . **المترجمون** .

وتزحف نحوه جيوش من النمل الأصفر القارص . فيهرع أنيكوشكا راكضاً وهو يلهث ويصيح من مبعدة :

— ألا تستطيع أن تجد لك مكاناً آخر ؟ عساك أن تختنق يوماً بعظام سمك ! قم من هنا ، بحق المسيح ! فهنا أنام أنا ، وأنت تنشر أحشاء السمك يمنة ويسرة ، وها قد جذبت اليك جيشاً من النمل وجعلت المكان جيفة مثل استراخان !

فيمسح كريستونيا بينطاله سكينه الذى صنعه بيديه ، ويلقى على وجه أنيكوشكا الأمرد الغاضب نظرة فاحصة تنمُّ عن تفكير عميق ، ثم يقول بهدوء :

— ان كنت لا تستطيع احتمال رائحة السمك ، فلا بد أن لديك دودا فى بطنك ، يا أنيكوشكا . لِـمَ لا تجرب أكل الثوم وأنت خاوى المعدة ، ها ؟

فينصرف أنيكوشكا مبتعداً ، وهو يقذف البصاق والسباب .

ومضت الأيام ، لا يمر منها يوم دون أن يشهد عراكا من هذا القبيل ، غير أن السرية ، على وجه العموم ، عاشت أيامها هادئة خلية . فقد كانت لديها وفرة من الغذاء ، وكانت روح المرح سائدة بين القوزاق جميعاً ، الا ستيبان أستاخوف .

فقد بدا أنه سمع من قوزاق آخرين ، أو أن قلبه هو الذى أنبأه ، بأن أكسينيا كانت تلتقى بغريغورى فى فيشنسكايا . ومهما يكن ، فقد شرع الأسى فجأة يستبد به ، وصار يشتم آمر الرعيل بلا سبب ، حتى أنه رفض أداء واجبه فى الربيئة .

وكان يستلقى طوال النهار فوق خرقة زحافة ذات علامة سوداء ، لا يكف عن نفث الحسرات وحرق سكائر من التبغ المحلى . ثم صادف أن تناهى الى سمعه أن آمر السرية سيرسل أنيكوشكا الى فيشنسكايا فى طلب الخراطيش ، فزحف الى

خارج حفيرته لأول مرة منذ يومين . فانبهرت عيناه الدامعتان المتورمتان من السهاد بنور الشمس وهو يلقى نظرة مضطربة على الورق الأشعث ذى اللمعان الباهر للأشجار المتمايلة ، وعلى الغيمات ذات الأعراف البيض تسوقها الرياح ، وأصغى الى همهمة الغابة . ثم مضى الى جانب الحفائر باحثاً عن أنيكوشكا .

لم يفضل أن يحدثه أمام القوزاق الآخرين ، بل انتحى به جانباً وسأله قائلا :

— فتش عن أكسينيا فى فيشنسكايا حتى تجدها وقل لها عن لسانى ان عليها أن تأتى الى هنا لترانى . قل لها ان القذارة تتأكلنى وان قمصانى وبنطالى لم تغسل منذ أمد بعيد ، وكذلك قل لها . . . وغرق ستيبان فى الصمت لحظة ، وهو يكتم ابتسامته المحرجة تحت شاربه ، ثم قال : «قل لها اننى بأمس الحاجة اليها واننى آمل أن أراها عما قريب» .

بلغ أنيكوشكا فيشنسكايا ليلا واستطاع أن يجد مقر أكسينيا . اذ انها كانت قد عادت ، بعد خصامها مع غريغورى ، لتعيش مع خالتها . فأبلغها أنيكوشكا بما أخبره ستيبان حرفياً ، لكنه أضاف لكى يعطى لكلماته وزناً أكبر ، بأن ستيبان قد هدد بالقدوم الى فيشنسكايا بنفسه ان لم تذهب اليه .

استمعت اليه أكسينيا الى أن فرغ من حديثه ، ثم شرعت تعد العدة للمضى معه . وهرعت خالتها لعمل الفطائر والكيك ، ولم تمض ساعتان حتى كانت أكسينيا ، الزوجة الوفية ، ماضية مع أنيكوشكا فى اتجاه الموضع الذى كانت سرية تتارسكى تعسكر فيه .

حيا زوجته بانفعال مكتوم . ومضى يتفحص وجهها عن كثب ، فوجد أنه غدا أكثر نحافة ، فسألها عن سبب ذلك

باحتراس ، دون أن يقترف خطأ سؤالها عما اذا كانت قد التقت بغريغورى . ولم يسألها الا مرة خلال الحديث ، وقد أسبل عينيه وأشاح بوجهه :

— ولكن ، لم ذهبت الى فيشنسكايا عن ذلك الطريق ؟ لِـمَ لم تعبرى النهر مقابل تتارسكى ؟

فأجابته باقتضاب أن الفرصة ما كانت لتواتيها لعبور النهر مع الغرباء ، كما أنها لم تشأ أن تسأل آل ميليخوف ذلك . وما ان نطقت بجوابها حتى أدركت أن كلماتها تضمنت معنى أن آل ميليخوف لم يكونوا غرباء ، بل أصدقاء . وحسبت أن ستيبان هو الآخر قد يفهم كلامها على ذلك النحو ، فأصابتها البلبلة . أما ستيبان فقد حمل كلامها ذلك المحمل فعلا ، فمرت رعشة خاطفة من تحت حاجبيه ، وبدا شيء كالظل يسرى فى وجهه .

رفع عينيه اليها مستفهماً ، فأدركت سؤاله الصامت ، واستبد بها الاضطراب والغيظ من نفسها واحمر وجهها .

ولكى يخلصها ستيبان من حرجها ، تظاهر بأنه لم يلاحظ أى شيء ، وأدار الحديث شطر شؤون الحقل ، فسألها عن أى من حوائجهما أفلحت فى اخفائها قبل الجلاء عن القرية وهل أخفتها فى مكان أمين .

ولم تفتها ملاحظة سماحة زوجها وشعوره بعزة النفس . فمضت تجيب على أسئلته ، ولكن دون أن يبارحها الشعور بالانحباس . ولكى تقنعه أن كل ما حدث لم يكن شيئاً ذا بال ، ولكى تخفى انفعالها هى أيضاً ، صارت تعمد الى التحدث ببطء ودقة وحذر شديد .

لبثا يتحدثان جالسين فى الحفيرة . وكان القوزاق الآخرون

لا يكفّون عن مقاطعتهما . فدخل أولهم ، ثم جاء ثان . ثم قدم كريستونيا ، ولم يلبث أن شرع يعد فراشه . ولما وجد ستيبان أنه لن يجد فرصة للتحدث معها منفردين ، خلد الى الصمت على مضض .

فشعرت أكسينيا بالغبطة لذلك وتنفست الصعداء ، وقامت فحلّت صرتها وأتحفت زوجها بالكيك الذى جلبته اليه ، ثم أخرجت الملابس القذرة من حقيبة ميدان ستيبان ، وخرجت لتغسلها فى البركة الآسنة القريبة .

وفى سكون الفجر ، كان ثمة ضباب رمادى يمامى عالق فوق الغابة . وكان العشب قد انحنى الى الأرض ، ينوء بثقل قطرات الندى ، والضفادع فى المستنقعات تنق نقيقاً ناشزاً ، ومن مكان ما قريب من الحفرة ، وراء أجمة أسفندان يانع ، كان طير صفرد يطلق صرخات زاعقة .

مضت أكسينيا الى جانب الأجمة ، فاذا بخيوط العنكبوت عالقة بها ، من تاجها الى ساقها ، وقد توارت تحت غطاء كثيف من الحشائش . وكانت الخيوط مزدانة بقطرات ندى بالغة الرقة تتألق كاللؤلؤ . ثم خلد الصفرد الى الصمت لحظة لكنه ، وقبل أن يجد الحشيش متسعاً من الوقت ليستقيم من جديد ، رفع عقيرته ثانية ، فأجابه زقزاق كان يعلو وراء المستنقع بصوت أسيان .

خلعت أكسينيا قميصها ومشدها لتكون أكثر قدرة على الحركة ، وخاضت فى ماء البركة الدافئ حتى ركبتيها ، وطفقت تغسل الملابس . وكان الذباب يحوم حولها والبعوض يرسل طنينه . فلوّحت بذراعها الأسمر الملئ أمام وجهها لتطرد عنه البعوض . وكانت طوال الوقت تفكر بغريغورى وخصامها معه قبل رحيله الى سريته .

— «لعله شرع فى البحث عنى !» وعقدت مع نفسها عزماً لا يرد : «سأعود الى فيشنسكايا هذه الليلة بالذات !» . وابتسمت حين مر بخاطرها أنها سترى غريغورى ، وان الوفاق سيتخذ طريقه اليهما عما قريب .

فى الأيام الأخيرة ، كانت كلما فكرت فى غريغورى ، تجد نفسها عاجزة عن استحضار صورته الحقيقية . وكان هذا أمراً غريباً . اذ لم يكن يمثل أمام بصيرتها غريغورى كما هو آنئذ ، ذلك العملاق القوزاقى الممتلئ رجولة ، والذى خبر الدنيا وعرك صروفها ، وقد ذبلت عيناه اعياء ، وحال لون ذؤابتى شاربه الأسود ، وتزاحف الشيب الى صدغيه قبل الأوان ، وارتسمت على جبينه غضون عميقة — بكل ما تحمل قسماته من قساوة التجربة فى سنى الحرب ، — بل كان الذى أمامها غريشا ميليخوف ، غريشا الأيام الخوالى ، الفتى العنيف ذو المداعبات الفجة ، بعنقه المدور القوى ، وثنية اللامبالاة المرتسمة على شفتيه دائمتى الابتسام . وبسبب هذا كله ، كانت أكسينيا تشعر بحبها له يغدو أكبر من أى يوم مضى ، وبعاطفة ، تقرب من الأمومة ، تهفو اليه .

وهكذا ، اذ كانت تستعيد بكل وضوح كل واحدة من قسماته العزيزة الى قلبها بما لا يقاس ، صارت تجر أنفاساً ثقيلة ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ، فشدت قامتها ، وألقت بقميص زوجها الذى لم تتم غسله عند قدميها ، وأحست بغصة حارقة فى بلعومها فيما ترقرقت الدموع الحلوة فجأة فى مآقيها ، فهمست فى دخيلتها : «اللعنة عليك يا غريشا ، لقد استوطنت فى أحشائى الى الأبد !» .

كانت الدموع متنفساً لها ، ولكن الدنيا من حولها فى ذلك

الصباح الأزرق الشاحب ، بدت ، فيما بعد ، وكأنها تمسى كالحة لا لون لها ، فمسحت خديها بظهر يدها ، ورفعت شعرها عن جبينها المبلل ، وظلت زمناً طويلا تراقب بعينين مضببتين وذهن شارد نعيج ماء ، صغيرا رمادى اللون ، ينزلق على الماء ليختفى داخل الخيوط الوردية للضباب المزبد مع الريح .

أتمت غسل الملابس ، فعلقتها على الشجيرات ، ثم عادت الى الحفيرة .

كان كريستونيا قد استيقظ ، فجلس ازاء مدخل الحفيرة يلوى أصابع قدميه المعقدة المعوجة ، لا يثنى عن محاولة جر ستيبان الى الحديث معه ، وكان هذا متمددا على بساطه ، يدخن صامتاً ، دون أن يجيب على أسئلة كريستونيا مطلقاً .

— اذن ، فأنت تعتقد بأن الحمر لن يعبروا النهر الى هذا الجانب ؟ أراك لا تجيب ؟ حسناً ، لا تجب ! أما أنا فأعتقد أنهم سيحاولون العبور من ناحية المخاضات . . . أى نعم ، من ناحية المخاضات . فليس أمامهم موضع آخر يستطيعون العبور منه . أم لعلك تعتقد أنهم سوف يرسلون خيالتهم ليعبروه سباحة ؟ لم لا تنطق بشىء ، يا ستيبان ؟ ظواهر الأمور تدل على أن المعركة الأخيرة تقترب من موقعنا هذا ، وأنت هامد فى موضعك كجلمود من الخشب !

فاستوى ستيبان قليلا ورد عليه حانقاً :

— فيم تزعجنى ؟ ما أنتم جميعاً الا شرذمة سخيفة ! هى ذى زوجتى جاءت لتزورنى ، فلا أستطيع أن أتخلص منكم ! وأنت لا تنفك تصب كلامك السخيف فوق رأسى دون أن تدع المجال لرجل كى يتبادل كلمة واحدة مع امرأته .

— «حسبتك تأخذ وتعطي !» ثم نهض كريستونيا مستاء ،

واحتذى صندله المرقع فى قدميه العاريتين ، وخرج ضارباً رأسه بقمة الباب ضربة مؤلمة .

فقال ستيبان : «انهم لن يدعونا نتحدث ما دمنا هنا ، فلنذهب الى الغابة» .

ومن غير أن ينتظر موافقة أكسينيا ، مضى الى باب الحفيرة . فتبعته أكسينيا باستكانة . ثم عادا الى الحفيرة عند الظهر . وكان قوزاق من الرعيل الثانى متمددين فى الفيء البارد لأجمة حور رومى ، واذ لاحظوا أكسينيا وستيبان ، ألقوا بأوراق اللعب جانباً وخيم عليهم الصمت ، وجعلوا يتبادلون الغمزات ذات المغزى ، ويتضاحكون ، ويطلقون حسرات جياشة .

فمرت أكسينيا بهم ، وهى تزم شفتيها بازدراء ، وتسوى عصابة رأسها البيضاء ، مخرمة الأطراف ، المدعوكة . فأفسحوا المجال لها لتمر دون أن يسمعوها تعليقاً . أما ستيبان ، الذى كان يمشى وراءها ، فما كاد يحاذى القوزاق حتى نهض أنيكوشكا وترك جماعته متوجهاً اليه . فانحنى لستيبان انحناءة خفيضة متصنعاً الاحترام وقال بصوت عال :

— فطرت بعد صومك . . . تهانينا بالعيد !

وسرعان ما ابتسم ستيبان . فقد شعر بالسرور لأن القوزاق رأوه عائداً من الغابة مع زوجته . فان ذلك سيساعد على ايقاف الشائعة القائلة بأنه وأكسينيا على غير وفاق . حتى أنه هز كتفيه بحركة صبيانية ، وعرض عليهم ، ببشاشة ، ظهر قميصه المندى بالعرق الذى لم يجف بعد .

وآنذاك انطلق القوزاق ، وقد شجعهم سلوك ستيبان ، يتضاحكون ويتبادلون التعليقات اللاذعة :

— اذن ، فهى حامية ، أيها الأولاد ! باستطاعتكم أن

تعصروا قميص ستيبان . . . انه لاصق بكتفيه .

— لقد ركبته أى ركوب . انه يزبد من جميع أطرافه .

ولبث أحد الفتيان يحدق وراء أكسينيا بعينين والهتين مضيبتين حتى دخلت الحفيرة ، ثم تهاوى على الأرض فاقداً زمام نفسه وقال : «فى جميع أرجاء العالم الفسيح ، لن تجد جمالا كهذا . غفرانك يا رب !» .

فعلّق أنيكوشكا على ذلك متعقلا بقوله : «ماذا ، هل شرعت فعلا بالبحث عن واحدة ؟» .

وبينما كانت أكسينيا تتسمع الى الكلام البذىء ، انحسر اللون عن وجهها قليلا . فنزلت الى الحفيرة مقطبة الوجه مما كانت تشعر به من تقزز لذكرى التواد الأخير مع زوجها ولتعليقات رفاقه القذرة . فأدرك ستيبان فى الحال ما كان يخامرها من شعور ، فقال بلهجة معتذرة :

— لا تغضبى من هذه الخيل الهائجة ، يا أكسينيا ! انهم لا يفعلون ذلك الا بسبب الملال .

فردت عليه بفتور فيما كانت تنبش حقيبتها الخيش ، وتخرج على عجل كل الأشياء التى كانت قد جلبتها اليه :

لست غاضبة من أحد . وأردفت بنبرة أكثر هدوءاً : «يجب أن أغضب من نفسى ، لكن لم يعد لدى قلب يتحمل . . .»

وبعد ذلك لم يجدا ما يتحدثان به . ومرت عشر دقائق أو نحوها ، ثم نهضت أكسينيا وهى تحدث نفسها : «سأخبره أننى عائدة الى فيشنسكايا» ، ثم تذكرت أنها لم تعد بملابسه الجافة من الخارج .

لبثت جالسة وقتاً طويلاً عند باب الحفيرة ترتق قمصان زوجها وسراويله التى تأكّلها العرق ، وهى لا تنفك تلقى نظرات

الى الشمس التى شرعت بالميلان عن السمت .

ومع ذلك ، فانها لم تبارح المكان ذلك اليوم . فقد كان ينقصها التصميم الكافى . ولكن ما ان أطل الصباح التالى ، والشمس لم تكد تبزغ ، حتى شرعت تعد العدة للرحيل ، فحاول ستيبان أن يبقيها ، ورجاها أن تظل معه نهاراً آخر لا غير ، لكنها رفضت رجاءه رفضاً باتاً جعله يتخلى عن المحاولة معها ، ولم يزد على القول حينما افترقا :

— أتنوين البقاء فى فيشنسكايا ؟

— نعم ، فى الوقت الراهن على الأقل .

— لعلك تستطيعين البقاء معى هنا ؟

— ليس من الحكمة وجودى هنا . . . بين القوزاق .

فوافقها ستيبان قائلا : «لعلك على حق» ، غير أن وداعه كان فاتراً .

كانت ثمة ريح جنوبية شرقية شديدة ، ما لبثت أن استنفدت قواها فى أثناء الليل لأنها قادمة من بعيد . ولكنها عادت ، وشيك الصباح ، لتحمل حرارة صحارى الخزر الى الدون ، واذ انحدرت على المروج المخضلّة بالمياه على امتداد الضفة اليسرى ، بخرت الندى وهزمت الضباب وغلّفت الرؤوس الكلسية للتلال الواقعة على جانب الدون بغبار وردى خانق .

خلعت أكسينيا صندلها ، ورفعت طرف تنورتها بيدها اليسرى — اذ كان لا يزال ثمة ندى فى الغابة ، — ومضت تغذ السير فى درب غير مطروق . واستشعرت قدماها العاريتان برودة لذيذة على الأرض الرطبة ، فيما كانت الريح الجافة تلثم بشراهة عنقها وربلتى ساقيها المكتنزتين العاريتين .

وحين بلغت موضعا مكشوفا من الممر ، جلست لتستريح

الى جانب أجمة مزهرة من «عليق الكلب» . وفى مكان ما قريب منها ، كان بط برى يخشخش بين عيدان القصب فى بركة أوشكت على الجفاف . وأطلق ذكر بط صيحة مبحوحة ينادى بها أنثاه . وفيما وراء الدون ، كانت مدافع رشاشة تلعلع ببطء ولكنها لا تتوقف ، وكانت قذائف مدافع تسمع بين فترات طويلة ، وأصوات انفجار القذائف على هذا الجانب من النهر تهدر كالأصداء .

ثم طالت الفترات بين رمية وأخرى ، فتكشفت الأرض أمام أكسينيا بكل نأماتها الخفية : أوراق أشجار الدردار الخضر ذوات الحواف البيض وأوراق البلوط المتغضنة ذوات الأشكال الهندسية تخشخش مرتعشة فى مهب الريح ، وهزيز مكتوم ينبعث من أجمة حور يافعة ، ومن البعيد البعيد ، كان وقواق يحصى لأحد ما ، بصوت واهن أسيان ، السنوات التى سيفقدها ! وفيما كان زقزاق منفوش الرأس يطير عبر البركة ، جعل ينادى بلا انقطاع : «زق — زق ، زق — زق» ، وحط طير رمادى اللون صغير على مبعدة خطوتين من أكسينيا ليشرب الماء من حفرة فى الدرب ، فجعل يقذف برأسه الصغير الى الوراء ويرمش عينيه فى حبور . ومضت طيور النحل الكبيرة المنفوشة المغبرة ترسل طنينها الموصول ، وجعلت نحلات برية دكناء اللون تتأرجح على تيجان أزهار المرج ، ثم اختفت ، حاملة حبوب اللقاح المعطرة الى الأفياء الباردة لجذوع الأشجار الجوفاء . وكان العصير يتقطر من أغصان الحور . ومن تحت أجمة من الدغل الشوكى فاحت الرائحة الحريفة المعتقة للأوراق المتعفنة .

وجعلت أكسينيا تعب عطور الغابة المنوعة ساكنة الحركة . وكانت الغابة ، وقد امتلأت بضجيجها القوى الرائع ، تعيش

فى أوج عنفوانها وكمالها . وكانت تربة البقعة المكشوفة من ممر الغابة ، وقد أشبعت بفيض من رطوبة الربيع ، مزدانة بحشد تر من الأعشاب حتى أن عينى أكسينيا ذهلتا ازاء تلك الجدائل الرائعة من الأزهار والحشائش .

فعلا الابتسام ثغرها ، وجعلت شفتاها تتحركان بصمت ، ومدت أصابعها بحذر لتلمس سيقان أزهار صغيرة شاحبة الزرقة لا تعرف لها اسماً ، ثم ثنت خصرها المكتنز لتشمها ، وفجأة تناهى الى أنفها الشذى العبق لزنابق الوادى . فراحت تنبش بيديها حتى عثرت على النبتة . كانت نابتة على مقربة منها تحت شجيرة ظليلة منيعة . وكانت الأوراق العريضة ، التى كانت خضراء ذات يوم ، لا تزال تمنع الشمس ، وهى غيرى ، عن الساق المائل فى نموه الخفيض ، وقد توجته كؤوس الورد البيضاء المتهدلة . لكن الأوراق ، وقد غشاها الندى والجفاف الأصفر ، كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكأن الموت قد شرع يعض بنابه أطراف الزهرة نفسها . كان الكأسان الأسفلان متغضنين ومسودين ، ولم يكن سوى الكأس الأعلى ، وقد خضلته دموع الندى ، ليومض فى ضياء الشمس ببياض باهر فتان .

وفيما كانت أكسينيا تنظر فى تلك اللحظة الوجيزة الى الزهرة وتعب من أريجها الحزين ، عادت بها الذاكرة ، لسبب ما ، الى صباها والى حياتها الطويلة والفقيرة بالسعادة . اذن ، فلا بد أنها دخلت مرحلة الشيخوخة . . . والا ، فهل تعمد امرأة لما تزل شابة الى البكاء لكل ذكرى عابرة تمس شغاف قلبها ؟

وهكذا لفّها النعاس ودموعها لما تزل تنهمر ، مخفية وجهها المبلل بالدموع بين يديها ضاغطة وجنتها الرطبة المتورمة على عصابة رأسها المدعوكة .

والريح ما انفكت تشتد ، حتى جعلت تيجان الحور والصفصاف تنحنى صوب الغرب . وأخذ جذع شجرة الحور الكالح يترنح ، وقد تلفع بدوامة فوارة بيضاء من الأوراق المتدافعة . واندفعت الريح حول أجمة «عليق الكلب» المزهرة حيث كانت أكسينيا مستلقية تحت أفيائها . ثم هبّت الأوراق عالياً ، مثل سرب من طائر عجيب أخضر استبد به الرعب ، فانبعثت منها خشخشة قلقة ، واندفعت صعداً أوراق الزهر الوردية الشبيهة بالريش . ومضت أكسينيا فى اغفاءتها تلك ، وقد تناثرت عليها أوراق زهر عليق الكلب الذاوية ، لا تتسمع الى ضجيج الغابة الكئيب ولا الى أصوات القذائف وقد استؤنف اطلاقها من الجانب الآخر للدون ، ولا أحست بالشمس فى سمتها تلسع رأسها الحاسر . لكنها أفاقت حينما سمعت صوتاً بشرياً وزنخرة حصان فوقها ، وأسرعت تستوى قاعدة .

كان يقف الى جانبها قوزاقى شاب ذو شارب أبيض وأسنان بيض ، يمسك بزمام حصانه المسرج ذى الخطم الأبيض . كان يبتسم ابتسامة عريضة وهو يهز كتفيه ويوقّع على الأرض بقدمه ويترنم بكلمات أغنية مرحة بصوت جهورى لطيف وان كان مبحوحا بعض الشىء :

كبوت فى الأرض كبوا خطير
أدرت عينى فى امتداد الهجير
هل من يقيل عثرتى ، هل من مجير ؟
لا أحد ، أواه ، ما أتعسنى
ثم التفت ، والأسى يخنقنى
اذا ورائى قوزاقى قدير !

فابتسمت أكسينيا وقالت : «لكننى سأنهض بنفسى» ،

2—1410

ونهضت بخفة وهى تسوى تنورتها المدعوكة . فحياها القوزاقى المرح قائلا :

— مرحباً ، يا عزيزتى ! هل خانتك ساقاك ، أم تكاسلت عن المشى ؟

فردت عليه أكسينيا وقد اعتراها شىء من الخجل :

— أخذتنى غفوة .

— أذاهبة الى فيشنسكايا ؟

— أجل !

— أتحبين أن أنقلك الى هناك ؟

— وعلى أى شىء تنقلنى ؟

— تمتطين الحصان ، وأنا أمضى على قدمى ، وستكافئيننى بـ . . . — وغمز القوزاقى الشاب غمزة مرحة ذات مغزى .

— كلا . اذهب على حصانك فى عناية الله . وسأمضى أنا على قدمى .

بيد أن القوزاقى كشف عن شىء من الخبرة فى مطارحة الغرام ، وعن شىء من العناد كذلك . فاستغل فرصة انشغال أكسينيا بعصابة رأسها ، فاحتضنها بذراع قصيرة ، ولكنها قوية ، وجذبها اليه ، وحاول أن يقبلها . فصرخت به أكسينيا : «لا تكن أحمق !» ولكزته بمرفقها فى جسر أنفه .

فرد عليها هامساً وهو يضيق عينيه الضاحكتين ، ويدغدغ رقبتها بشاربيه :

— يا حبيبتى ، لا تقاومى ! أنظرى أية روعة تحيط بنا . فكل كائن يجد أليفاً . . . فلنجد أيضاً موضعاً نمارس فيه خطيئتنا . . .

فرفعت أكسينيا يديها ، دونما غضب كبير ، وجعلت تدفع

براحتيها وجه القوزاقى الأسمر العرقان فى محاولة لتخليص نفسها من قبضته . الّا أنه ظل ممسكاً بها بقوة . فراحت تتوسل اليه :

— يا أحمق ! ان بى داءاً معيياً . . . دعنى ! — وهى لا تنفك تلهث ، وقد ظنت أن حيلة ساذجة كهذه سوف تنقذها من لجاجته .

لكن القوزاقى تمتم خلال أسنانه :

— آه . . . ولكن ، اى دائينا أقدم عمراً ؟ — وعلى حين غرة رفعها عن قدميها بحركة خفيفة .

وآنذاك أدركت أكسينيا على نحو ما أن وقت المزاح قد انقضى ، وأن الأمر صار يتخذ وجهة خطرة ، فسددت بقبضتها الى أنف القوزاقى الملفوح لطمة جمعت فيها كل قواها ، واستطاعت أن تنتزع نفسها من ذراعيه المتشبثين .

— أنا زوجة غريغورى ميليخوف ! اياك ان تقترب منى يا ابن العاهرة . . . فلسوف أخبره ، وسيعرف كيف يتصرف معك . . .

واذ شعرت أن كلماتها قد لا تؤدى مفعولها فيه ، التقطت عصا قوية يابسة . غير أن القوزاقى ما لبث أن هدأت سورته . فجعل يمسح عذاريه بكم قميصه الخاكى من الدم الذى كان ينهمر غزيراً من منخريه معا ، وهتف بنبرة متألمة :

— أيتها الحمقاء ! يا لك من امرأة حمقاء ! لِمَ لم تقولى ذلك من قبل ؟ أف ، يا لغزارة الدم ! كأننا لم نرق منه الكفاية فى محاربة العدو ، حتى صارت نساؤنا القوزاقيات أنفسهن يسفحنه . . .

ثم استحال وجهه بغتة قاتماً لا ألفة فيه . وبينما كان يغتسل بماء جعل يغرفه من بركة على قارعة الطريق أسرعت أكسينيا بالابتعاد ، واجتازت الموضع المكشوف على عجل .

وما ان مضت خمس دقائق حتى لحق بها القوزاقى . فحاول النظر اليها ، وهو يبتسم بصمت ، وسوى سير بندقيته عبر صدره بحركة دقيقة ، ثم انطلق فى خبب سريع .

٢

فى تلك الليلة على مقربة من مزرعة صغيرة ، عبرت الدون وحدة من الجيش الأحمر على أطواف صنعت من ألواح وقرم خشبية .

فأخذت السرية القوزاقية المكلفة بالدفاع عن تلك المزرعة على حين غفلة ، حيث كان أغلب رجالها غارقين فى نوبة من السكر والمجون . اذ حدث أن بدأت زوجات القوزاق يفدن منذ المساء الباكر الى المقرات لزيارتهم ، فجلبن معهن الزاد والفودكا المقطرة فى المنازل وقد عبأنها فى الدلاء والسطول . وما ان انتصف الليل حتى كانت الفودكا قد لعبت برؤوس الجميع . وكانت الأغانى تسمع منطلقة من داخل الحفائر ، وصيحات النسوة السكرانات وضحكات الرجال وصفيرهم . . . وانضم الى حفلة السكر كذلك القوزاق العشرون المكلفون بحراسة الربيئة ، عاهدين بالمدفع الرشاش الى مدفعيين اثنين وبرفقتهم سطل من الفودكا .

وانطلقت الأطواف المحملة برجال الجيش الأحمر من الضفة اليمنى للدون فى هدوء تام . ثم نزل الرجال فى الجانب الآخر ، وانتشروا صفاً واحداً ، وتحركوا بهدوء باتجاه الحفائر الواقعة على مبعدة مائتى خطوة من النهر تقريبا .

أما المهندسون العسكريون الذين صنعوا الأطواف ، فقد عادوا بها يجذفون ليعبروا عليها وجبة أخرى من رجال الجيش الأحمر .

لم يكن ثمة شىء يسمع على الجانب الأيسر طوال خمس دقائق ، سوى غناء القوزاق المتنافر . ثم شرعت القنابل اليدوية تنفجر بدوى ، وتأتأ مدفع رشاش ، وانطلقت فى الحال اطلاقات بنادق متنافرة الوقع ، وخرق الليل البهيم نداء : «هورا ! هورا ! هورا !» *

وانكسحت السرية القوزاقية ، ولم تفلح فى النجاة من الابادة التامة الا لأن مطاردتها خلل الظلام الاصم كان أمراً مستحيلاً . ولهذا لم تتكبد السرية خسائر فادحة ، فاندفعت تهرع ، قوزاقاً وزوجاتهم ، عبر المروج ميممين صوب فيشنسكايا ، وقد اكتنفهم الذعر وفرقتهم الفوضى شذر مذر . بيد أن الأطواف كانت قد جلبت من الجانب الأيمن ، وفى الوقت نفسه ، جيء بوجبات جديدة من رجال الجيش الأحمر ، وكان نصف سرية من الفوج الأول التابع للكتيبة ١١١ ، مجهز بالمدافع الرشاشة الخفيفة ، قد شرع فعلا بالهجوم على جناح سرية بازكى المتمردة .

واندفعت تعزيزات أخرى تتدفق خلل الثغرة هذه . الا أن تقدمها كان بطيئاً ، فلم يكن بين رجال الجيش الأحمر من له دراية بالمنطقة ، ولم يكن للوحدات أى ادلاء ، فكانوا خلال زحفهم العشوائى فى الظلام لا ينفكون يتخبطون فى البرك ومسارب مياه الفيضان العميقة التى يستحيل عبورها خوضاً .

فقرر آمر الفوج الذى كان يدير دفة الهجوم التخلى عن فكرة ملاحقة الهاربين وتأجيلها حتى طلوع النهار ، على أن يعمل فى الوقت نفسه على استقدام قوات احتياطية وتحشيدها فى الطرق المؤدية الى فيشنسكايا ، ومن ثم اصدار الأوامر باحراز تقدم

---

* صيحة تطلق عند القتال . **المترجمون** .

آخر بعد أن تمهد المدفعية لذلك .

أما فى فيشنسكايا ، فما لبث المتمردون أن شرعوا باتخاذ اجراءات عاجلة لسد الثغرة التى أحدثها الحمر . اذ لم يكد أحد السعاة يصل هرباً على صهوة جواده وينقل اليهم نبأ عبور الحمر ، حتى أرسل الضابط المسؤول فى مقر الأركان فى طلب كودينوف وميليخوف . واستدعيت سرايا كتيبة كاركينسكايا من مواقعها فى قرى تشورنى وكورخوفكا ودوبروفكا وتولّى غريغورى ميليخوف مهمة الادارة العامة لدفة العمليات . فقذف بثلاثمائة من حملة السيوف باتجاه قرية يرنسكى بقصد تعزيز الجناح الأيسر ومساعدة قوزاق تتارسكى وليبياجى على الصمود أمام ضغط العدو اذا ما حاول الاستيلاء على فيشنسكايا ، من ناحية الشرق . وأرسل غرباً ، حدر الدون ، متطوعى فيشنسكايا «الاغراب» واحدى سرايا «تشير» الراجلة لاغاثة سرية بازكى ، كما وضع ثمانية رشاشات فى القطاع المهدد بالخطر ، واتخذ هو نفسه ، تصحبه سريتان راكبتان ، موقعاً فى طرف الغابة منذ حوالى الساعة الثانية صباحاً ، فى انتظار بزوغ الفجر ليشن ، بفرسانه ، هجوماً على الحمر .

لم تكن نجمة الدب الأكبر قد اختفت بعد عن الأنظار حينما التقت وحدة متطوعى فيشنسكايا ، التى شقت طريقها خلال الغابة الى عطفة النهر عند بازكى ، برجال بازكى المتقهقرين ، فحسب المتطوعون أنهم التقوا بالعدو ، ففتحوا عليهم النار بضع ثوان ثم لاذوا بالفرار . وحين بلغوا البحيرة الواسعة التى تفصل فيشنسكايا عن أرض المروج ، قذفوا ، لفرط عجلتهم ، بجزمهم وملابسهم عند حافتها وعبروها سباحة . وسرعان ما اكتُشف الخطأ ، غير أن نبأ اقتراب الحمر من فيشنسكايا كان قد انتشر بسرعة

مذهلة . وانطلق اللاجئون ، الذين كانوا يخفون أنفسهم فى السراديب ، هاربين من القرية باتجاه الشمال ، حاملين معهم فى كل مكان شائعة أن الحمر قد عبروا الدون واخترقوا الجبهة ، وأنهم يزحفون على فيشنسكايا .

كان ضوء النهار لما يزل غير شديد حينما انطلق غريغورى بحصانه الى اعالى الدون بعد أن بلغته أنباء هروب المتطوعين ، وكان هؤلاء قد أدركوا آنئذ الخطأ الذى ارتكبوه ، فشرعوا يعودون أدراجهم الى الخنادق وهم لا ينفكون يثرثرون . فتقدم غريغورى من جماعة منهم وسألهم بلهجة لاذعة :

— هل غرق الكثير منكم حينما عبرتم البحيرة سباحة ؟

فرد عليه حامل بندقية بلهجة قانطة ، وكان مبللا عن آخره وهو يعصر قميصه أثناء سيره :

— كنا نسبح مثل سمك الكراكى . فلماذا نغرق ؟

وقال آخر بلهجة حادة ، وكان لا يستره غير سرواله :

— لا يوجد انسان معصوم عن الخطأ . آمر رعيلنا أوشك بالفعل أن يغرق . أحجم عن خلع جزمته ، لأنه ظن أن لفاف الساق سيستغرق منه وقتاً طويلاً ، وهكذا انطلق يسبح ، وما لبث لفاف ساقه أن انحل داخل الماء ، والتف حول ساقيه . . . ليتك سمعت زعيقه ! كان بالامكان سماعه من بعد فرست !

ثم مضى غريغورى عنهم ، وحين عثر على آمر المتطوعين أصدر اليه أمراً بأن يقود رجاله الى طرف الغابة ويعيد تنظيمهم حتى اذا دعت الضرورة هجموا على صفوف الحمر من جناحهم ، ثم انطلق عائداً الى سريته .

وفى الطريق التقى به مراسل أركان . فشد هذا على عنان جواده ، الذى دلت خاصرتاه المضطربتان أن راكبه قد أرهقه

بالركوب ، وتنفس الصعداء قائلا :

— لقد تعبت فى البحث عنك !

— لماذا ؟ ما الذى حدث ؟

— لقد كلفت من لدن الأركان باخبارك بأن سرية تتارسكى قد تخلت عن خنادقها . انهم يخشون أن يحاصروا ، وهم الآن يتراجعون باتجاه البقاع الرملية . وكودينوف نفسه طلب مني أن أخبرك أن تتوجه الى هناك فى الحال .

فجمع غريغورى نصف رعيل من القوزاق مع أفضل الخيل ، وانطلق يشق طريقه خلال الغابة ومنها الى الطريق العام . وما ان مضت زهاء عشرين دقيقة حتى اقترب من بحيرة «كولى ايلمن» . عن شماله كان رجال تتارسكى يتراكضون بلا انتظام عبر المرج . وكان أولئك الذين خبروا القتال فى الجبهة يشقون طريقهم ، مع بعض القوزاق الشيوخ ، بلا عجل دون أن يبتعدوا عن البحيرة بغية الاحتماء بأشجار السمار القائمة على الشاطئ . أما الغالبية العظمى منهم فقد كانوا يهرعون الى أمام بلا ابطاء ، وليس فى أذهانهم الا فكرة واحدة ، هى بلوغ الغابة بأسرع ما يمكن ، دون أن يأبهوا للاطلاقات المتقطعة التى كانت توجهها اليهم المدافع الرشاشة .

فصرخ غريغورى وقد احولّت عيناه من الغضب : «تعقبوهم ! اعملوا السوط فيهم !» . وكان هو أول من انطلق بحصانه متعقباً أبناء قريته .

كان كريستونيا يمضى متمهلاً فى مؤخرة جماعته ، وهو يتقافز فى حركات راقصة شنيعة . فقد حدث أن قطع عقبه بقصبة حينما كان يصطاد السمك فى المساء السابق ، فلم يعد قادراً على الركض بالسرعة الاعتيادية لساقيه الطويلتين . فأدركه

غريغورى رافعاً سوطه عالياً فوق رأسه . واذ سمع كريستونيا وقع سنابك الحصان ، التفت الى الوراء ثم ضاعف سرعته بشكل ملحوظ .

فجعل غريغورى يصرخ فيه بلا طائل : — الى أين تعدو ؟ قف قلت لك قف !

بيد أن كريستونيا لم يكن ليفكر بالتوقف ، فزاد من سرعته وجعل يعدو على نحو غريب أشبه بجمل يقزل .

وآنذاك هدر غريغورى بسيل أبح من السباب المقذع ، ولفح حصانه ، وحين حاذى كريستونيا هوى بسوطه على ظهره العرقان وهو يستشعر راحة كبيرة . فخطا كريستونيا خطوة هائلة الى جانب ، مثل ارنب ينط ، ثم اقتعد الأرض ومد يده ببطء وحذر ليتحسس ظهره .

اما القوزاق الآخرون الذين جاءوا بصحبة غريغورى فقد انطلقوا بجيادهم الى أن سبقوا الرجال الهاربين ، فأوقفوهم من غير أن يلجأوا فى ذلك الى سياطهم .

فزعق فيهم غريغورى بصوت أجش وهو يلوح بسوطه المرصع : «أجلدوهم ! . . اجلدوهم ! . .» . وجعل حصانه يترنح تحته ، ثم تراجع وحرن . فبذل غريغورى جهداً شاقاً للسيطرة عليه ، ثم انطلق به نحو مقدمة الهاربين . وبينما كان يمرق الى جانبهم وقعت عينه خطفاً على ستيبان أستاخوف واقفاً الى جانب شجيرة وهو يبتسم فى هدوء . ورأى انيكوشكا ينطوى على نفسه من شدة الضحك ويكور كفيه على شكل بوق ليصيح بصوت أنثوى نفاذ : «ايها الاخوان ! كل عليه بنفسه ! الحمر ! آه ! امسكوا بهم !» .

وجرى غريغورى نحو قروى آخر يرتدى دراعة لبادية ، وكان

يعدو بسرعة وثبات . وبدا لغريغورى شكل الرجل بكتفيه المكورين مألوفاً الى حد الغرابة ، غير أن غريغورى لم يتسن له أن يعمل ذهنه ليعرفه ، فشرع يزعق به وهو لما يزل على مبعدة منه :

— قف ، يا ابن القحبة ! قف والا شطرتك بسيفى !

وفجأة تباطأ الرجل ذو الدراعة اللبادية ، ثم توقف . ثم أدار رأسه ، بحركة خاصة كان غريغورى يعرفها منذ طفولته ، حركة تنم عن منتهى الحنق ، فأدرك غريغورى ، حتى قبل أن يقع بصره على وجه الرجل ، أنه كان أباه .

وكانت وجنتا بانتلاى تلمعان بعصبية . فصرخ بنبرة عالية زاعقة :

— اذن ، فأبوك ابن قحبة ، ها ؟ وأنت تهدد بشطر أبيك بسيفك ، ها ؟

وقدحت عيناه بجنون متفجر ألفه غريغورى ، حتى أن غضبه هو سرعان ما انطفأ أواره ، فهتف وهو يكبح جماح حصانه بقوة :

— لم أميز ظهرك ، فلماذا تزعق يا ابى ؟

— ماذا تعنى بأنك «لم تميز ظهرى» ؟ ألم تميز أباك ؟

وكان هذا الغضب الكهولى من السخافة والنشاز مما جعل غريغورى يضحك ويقول بلهجة مصالحة وهو يحاذى أباه :

— لا تغضب ، يا أبى ! انت ترتدى سترة لم أرها من قبل ، ثم انك كنت تعدو مثل خيل السباق دون أن تعرج بساقك . فكيف لي ، والحالة هذه ، أن أميزك ؟

ومن جديد ، وكما كانت الحال فى البيت دائماً فى الأيام الخوالى ، هدأت سورة بانتلاى ، وقال موافقاً ابنه ، وهو لما يزل يلهث بشدة ، وان عاد اليه زمام عواطفه بعض الشىء :

— أنت على حق ، فالسترة جديدة . قايضتها بالفروة . . . فالفروة أثقل من أن أحملها حيثما أشاء . . . أما بخصوص عرجى . . . فليس هذا الوقت بوقت عرج ! لا مجال للعرج هنا ، يا بنى . . . عجباً ، الموت ازاءنا وجها لوجه وأنت تهذر عن ساق عرجاء . . .

— الموت ما يزال على مسافة بعيدة منا . ارجع ، يا أبى ! لعلك لم تتخل عن خراطيشك ؟

فاحتج العجوز محنقاً :

— ولكن الى أين يمكن أن نرجع ؟

وهنا رفع غريغورى صوته . فأمره وهو يؤكد بنبرته على كل كلمة :

— انى آمرك بالرجوع . أتعرف بما تنص الأنظمة من عقوبات اذا ما رفضت اطاعة آمرك فى ميدان القتال ؟

وسرعان ما تركت الكلمات مفعولها فى نفس بانتلاى ، فقوّم بندقيته على كتفه ، وتراجع الى وراء على مضض . وحين حاذى شيخاً آخر كان يسير ببطء ، قال له متنهداً :

— هذه هى الشاكلة التى عليها أبناؤنا هذه الأيام ! فبدلاً من أن يظهر احترامه لأبيه ، أو كما قد يقال ، أن يعفيه من القتال ، فانه يحاول القاءه فى قلب المعمعة ! ايـ . . . ـيه ! كان ولدى بيوتر — رحمة الله عليه — أفضل منه بكثير . كان ولداً هادئ الطبع ، أما هذا المخبول ، أعنى غريشا ، فعلى الرغم من كونه قائد فرقة ، وهو أهل لذلك . . . الى آخره . . . الا أنه ذو طبع مختلف . انه سريع الانفعال كالقنفذ ! ولم العجب ، فلسوف يدفعنى فى شيخوختى الى الموقد نخساً بمخرز اسكافى !

شرح غريغورى الموقف لقوزاق تتارسكى ، فاعاد اليهم صوابهم دونما مشقة كبيرة . فقد جمع السرية بكاملها على عجل ومضى بها الى مكان آمن ، ومن غير أن يترجل عن حصانه عرض عليهم جلية الحال باقتضاب :

— الحمر عبروا النهر وهم يحاولون الآن الوصول الى فيشنسكايا . وقد بدأت رحى القتال تدور على امتداد الدون ، وليس فى الأمر مجال للمزاح ، ولهذا فلا جدوى من الهروب . واذا هربتم مرة أخرى فسوف أصدر أوامرى الى الخيالة فى يرنسكى ليقتلوكم كخونة ! ثم جال بعينيه فى حشد أبناء قريته وفى ملابسهم الملونة ، ثم ختم كلامه بازدراء جلى :

— سريتكم تضم عدداً كبيراً من مختلف الحثالات يعملون على بث الفزع فى قلوبكم . هربوا وتغوطوا فى سراويلهم ! . . ويحسبون انفسهم قوزاقاً ! أما أنتم ، أيها الشيوخ ، فالويل لكم لو تجرأتم على الهرب . لقد قلتم انكم ستقاتلون ، اذن فلا مجال لكم الآن لاخفاء رؤوسكم بين سيقانكم . والآن . . . انتظموا رعائل مزدوجة ، هيا الى تلك الأدغال ، ومنها الى الدون ! ثم سيراً بمحاذاة الدون الى سرية سميونوفسكى . وحينما توحدون قوتكم بهم ، انزلوا ضربتكم بالحمر من جناحهم . عادة ، سر ! ارفعوا صدوركم !

استمع قرويو تتارسكى الى غريغورى بصمت ، وبالصمت ذاته شقوا طريقهم نحو الأدغال . وجعل الشيوخ يدمدمون قانطين ، وهم يلتفتون الى وراء ليلقوا نظرة على غريغورى وجماعته من القوزاق فيما كانوا يبتعدون عنهم مسرعين . وعلّق أوبنيزوف العجوز بنبرة اعجاب ، وكان يمشى الى جانب بانتلاى بروكوفتش :

— صحيح ، لكن البارئ عز وجل رأى أنك أهل بابن

بطل . صقر حقيقى ! اى جلدة الهب بها ظهر كريستونيا بسوطه ! جعلت الجميع يلوذون بالفرار فى الحال !

وعملت كلمات أوبنيزوف على اشاعة الزهو فى أحاسيس بانتلاى بروكوفتش الأبوية ، فهز رأسه موافقاً وقال :

— لا حاجة بك لاخبارى بهذا ! فلو شئت أن تجد ابناً مثله لو بحثت فى الدنيا كلها ! امتلاء صدره بالاوسمة ليس بالهزل ، ما رأيك ؟ أما بيوتر ، رحمة الله على روحه ، فلم يكن على هذه الشاكلة ، مع أنه ابنى ، من لحمى ودمى ، أضف الى أنه ابنى البكر . كان هادئاً أكثر من اللزوم ، ينقصه شىء ما ، لعنة الله على روحه ! كانت نفسيته أشبه بنفسية النساء . أما هذا الثانى ، فهو مثلى تماماً ! بل هو أصلب منى عوداً !

• • •

أفلح غريغورى فى التسلل مع نصف رعيله حتى بلغوا مخاضة «الكالميك» . ظنوا أنهم أصبحوا فى موضع آمن حينما وصلوا الى الغابة ، الا أن احدى نقاط المراقبة القائمة على الجانب الآخر للنهر سرعان ما اكتشفتهم ، ففتحت النار عليهم جماعة من المدفعيين . فانطلقت القذيفة الأولى عبر ذؤابات الصفصاف ثم وقعت فى موضع أجوف من أرض المستنقع دون أن تنفجر . بيد أن القذيفة الثانية سقطت فى مكان ليس ببعيد عن الطريق بين العروق الجرد لشجرة حور سوداء ، فانقدح نارها وانفجرت ، فصم هديرها آذان القوزاق وأصابت وجوههم كتل من التراب الرطب وشظايا من خشب الأشجار المتعفن .

وبحركة غريزية انحنى غريغورى الى أمام ، وقد صم

سمعه . واذ أحس بشيء ثقيل رطب يهوى على كفل الحصان رفع ذراعه ليقى عينيه .

ارتجت الأرض لوقع الانفجار ، فوقعت خيل القوزاق ، ثم قامت وانطلقت الى أمام مرة واحدة وكأنها تصدع لايعاز صدر اليها . لكن حصان غريغورى شبّ بعنف من تحته ، ثم وقع على ظهره وطفق يتدحرج على مهل . فوثب غريغورى من على السرج بسرعة وأمسك بالحصان من شكيمته . وفى هذه الأثناء انطلقت فوقه قذيفتان أخريان ، ثم خيم سكون على حدود الغابة أعاد للنفوس بعض سكينتها . كان دخان البارود قد استقر على العشب ، وانبثقت رائحة من التراب المقلوب تواً ، ومن شظايا خشب الأشجار ، ومن الأشجار شبه المتعفنة ، فى حين كانت العقاعق تثرثر فى دغل بعيد وقد شاب ثرثرتها القلق .

أطلق حصان غريغورى زنخرة ، وجعلت قائمتاه الخلفيتان تخوران وهناً ، وكشّر ، فى حركة تنم عن ألم ، عن خط أسنانه الأصفر واشرأبّ برقبته . وبقبق على خطمه الرمادى المخملى زبد شاب بياضه لون وردى . واهتز جسم الحيوان برعدة قوية ، وسرت الرعشات خلل اهابه الأحمر فى دفقات هائلة .

وتساءل بصوت عال قوزاقى جاء هذباً نحو غريغورى :

— انتهى المسكين ؟

فحدق غريغورى فى عينى الحصان الخابيتين دون أن يجيب ، حتى أنه لم يلق نظرة الى الجرح ، واكتفى بالابتعاد قليلاً حينما شرع الحصان فى محاولة متخبطة للنهوض والانطلاق ، فرفع نفسه الى أعلى ثم ما لبث أن انهار فجأة على ركبتيه ، وقد تدلى رأسه ، وكأنه يستميح سيده المغفرة لذنب ما . وبحشرجة جوفاء انقلب الحيوان على جنبه ، ثم حاول كرة أخرى أن يرفع

رأسه ، بيد أنه كان من الواضح أنه قد استنفد آخر ما فيه من حول ، وشيئاً فشيئاً تلاشت الرعدة من جسمه ، وتحجرت عيناه ، وتفصد العرق على رقبته . ولم يعد فيه من أمارات الحياة الا نبض ضعيف أخير عند فواصله القريبة من حوافره ، كما أن دفة السرج المتآكلة كانت ترتعش قليلاً .

ألقى غريغورى نظرة من طرف عينه الى حقو الحيوان الأيسر ، فألفى جرحاً عميقاً مفتوحاً يتدفق منه دم أسود حار مثلما يتدفق الماء من العين ، فقال للقوزاقى ملعثماً ومن غير أن يمسح الدموع من عينيه ، بينما كان هذا يترجل عن حصانه :

— اجهز عليه برصاصة واحدة ! وقدم للقوزاقى بندقيته الماوزر .

ثم امتطى غريغورى حصان القوزاقى ، وأسرع الى حيث كان قد ترك سريته ، فوجد القتال قد احتدم فعلاً .

كانت قطعات الجيش الأحمر قد استأنفت الهجوم منذ الفجر . فقامت صفوفهم ، متلفعة بجداول الضباب ، وتقدمت بهدوء نحو فيشنسكايا . لكن أخدوداً مليئاً بمياه الفيضان أعاق جناحهم الأيمن فترة قصيرة ، فقرروا خوضه حتى بلغ الماء صدورهم ، رافعين حقائب عتادهم وبنادقهم فوق رؤوسهم . وما لبثت أربع بطاريات أن شرعت ترسل رعيدها المهيب من التلال المحاذية للدون . وبينما كان منثار القذائف ، يجتاح الغابة ، شرع المتمردون باطلاق النار . وكان رجال الجيش الأحمر فى هذه الأثناء قد تحولوا من المسير البطىء الى الركض وهم يمسكون بنادقهم امام صدورهم . وانفجرت قذيفة منثار بصوت جاف فى الغابة على مبعدة نصف فرست منهم تقريباً . فأصاب المنثار الأشجار ، فانهارت هذه محطمة على الأرض ، وارتفع

الدخان سحائب بيضاً . وانطلق صوت رشاشتين قوزاقيتين فى دفقات قصيرة . فبدأ رجال من الصف الأول للقطعات الحمر يتساقطون . وازداد اقتناص الرصاص للرجال ذوى المعاطف المكومة على أجسادهم ، ليطرحهم أرضاً على صدورهم أو على ظهورهم . بيد أن الآخرين لم يبدوا أية محاولة للانبطاح ، وانحسرت المسافة التى تفصلهم عن الغابة أكثر فأكثر .

وكان فى مقدمة الصف الثانى آمر مديد القامة حاسر الرأس يعرج متقدماً دونما تهيب ، وقد أحنى جسمه قليلاً وعلق أذيال معطفه الى أعلى . وتباطأ الصف لحظة عن تقدمه ، الا أن الآمر استدار اليهم ، دون أن يتوقف عن ركضه ، وهتف نحوهم بشىء ، فاندفع الرجال يركضون من جديد ، وتعالت منهم صيحة «هورا» مبحوحة ، فظيعة ، مغضبة .

وحينذاك أخذت رشاشات القوزاق تنطق كلها ، بينما راحت طلقات البنادق تتعالى من أطراف الغابة دونما انقطاع . ومن مكان ما وراء غريغورى ، الذى كان واقفاً مع سريتيه على الطريق المؤدية الى خارج الغابة ، شرع المدفع الرشاش الثقيل لسرية بازكى يصب ناره فى صليات طويلة . فاختل نظام صفوف الحمر ، ثم انبطحوا على الأرض وشرعوا يردون على النار بالمثل . واستمر القتال زهاء ساعة ونصف الساعة ، بيد أن نار المتمردين كانت من القوة بحيث لم يستطع الصف الثانى مواجهتها ، فقاموا وفروا عائدين ليختلطوا بالصف الثالث الذى كان يتقدم فى سلسلة من الغارات القصيرة . وما لبثت المروج أن تناثر عليها رجال الجيش الأحمر وهم يلوذون بالفرار دونما انتظام . وآنذاك قاد غريغورى سريتيه الى خارج الغابة خبباً ، ثم شكّلهما وفق خطة الهجوم ، وانطلق بهما ليطارد العدو الهارب . وفى تلك

الأثناء كانت سرية «تشير» قد تقدمت هذباً وقطعت طريق العودة على القوات المتراجعة نحو أطوافها ، فاندلعت رحى معركة ، وجهاً لوجه ، خارج الغابة وعلى ضفة النهر تماماً .

ولم يفلح الا عدد ضئيل من رجال الجيش الأحمر فى بلوغ الأطواف ، فتجمهروا عليها حتى لم يعد فيها مجال لقدم وانطلقوا بها ، أما الآخرون الذين حوصروا عند حافة النهر تماماً فقد شرعوا يدافعون عن أنفسهم .

ترجل غريغورى عن حصانه ، وأمر القوزاق المكلفين بمراقبة الخيل بعدم الخروج من الغابة ، ثم قاد الآخرين صوب ضفة النهر ، وتقدموا نحو النهر شيئاً فشيئاً وهم يركضون من شجرة الى أخرى . كان هناك حوالى مائة وخمسين جندياً أحمر يردون مشاة المتمردين المهاجمين بالقنابل اليدوية ونيران المدافع الرشاشة . وكانت الأطواف قد اندفعت من جديد صوب الضفة اليسرى ، غير أن قوزاق بازكى استطاعوا أن يقتنصوا كل الجاذفين تقريباً بنيران بنادقهم ، أما أولئك الذين تركوا على هذه الضفة فقد ختم على مصيرهم بالفناء . وحين فقدوا الأمل طرحوا بنادقهم أرضاً وألقوا بأنفسهم فى الماء محاولين العبور سبحاً . بيد أن المتمردين انبطحوا فى الفجوات القائمة على ضفة النهر وشرعوا فى اقتناصهم ، كما أن العديد منهم غرق لشدة خورهم ازاء عنفوان تيار الماء السريع ، ولم يفلح فى العبور الا اثنان منهم فقط . كان أحدهما يرتدى صدرية بحار مقلمة ، وقد تبين أنه سباح ممتاز ، فألقى بنفسه من الضفة ، شديدة الانحدار ، الى النهر وغاص تحت الماء ، ولم يظهر على السطح ثانية الا بعد أن بلغ منتصف النهر تقريباً .

وبينما كان البحار يجتاز النهر نحو جانبه الآخر بضربات

3—1418

قوية منتظمة من ذراعيه ، لبث غريغورى يراقبه من مكمنه خلف صفصافة ذات جذور متشعبة جرداء ، وأفلح رجل آخر فى العبور سباحة بسلام ، وحينما توقف والماء يغمره حتى الصدر أطلق كل ما تبقى لديه من خراطيش ، ثم زعق بشىء ما وهو يهز قبضته باتجاه القوزاق ، وانطلق يسبح متخذاً لذلك خطاً مائلاً . فانهار الرصاص عليه مثيراً الماء من حوله ، ولكن من غير أن تصيبه واحدة . وحينما بلغ موضعاً تورد فيه القطعان جعل يخوض حتى خرج من الماء ، فنفض نفسه ثم يمم صوب الضفة صعداً من غير ما استعجال متوجها الى أفنية القرية القائمة هناك .

أما الحمر الذين تخلّفوا فى الجانب الآخر فقد انبطحوا خلف كثيب رملى ، ومضى مدفعهم الرشاش يتأتئ حتى غلى الماء فى غلافه للتبريد .

وما ان خيم الصمت على المدفع الرشاش حتى أصدر غريغورى أمره بهدوء : «اتبعونى !» . وانطلق صوب الكثيب وقد امتشق حسامه . ومن ورائه تقاطر القوزاق منقطعى الأنفاس .

وحين لم تبق غير مائة خطوة تفصلهم عن رجال الجيش الاحمر ، انطلقت ثلاث صليات ثم ظهر من وراء الكثيب آمر مديد القامة أسمر الوجه أسود العذارين . وكانت ثمة امرأة ترتدى سترة جلدية تقدم له العون . وتبين أن الآمر كان مصاباً بجرح . فجرجر ساقه المهشمة ونزل عن الرابية وأطبق يده بشدة وثبات على بندقيته وحربتها المثبتة بها ، وأصدر أمراً بصوت أجش :

— أيها الرفاق ! الى الأمام ! اسحقوا البيض !

ثم ارتفع النشيد الأممى من تلك العصبة الصغيرة من الرجال الشجعان واقدموا لشن هجومهم المقابل ، أى تقدموا نحو حتوفهم .

ان المائة والستة عشر رجلاً الذين كانوا آخر من خروا صرعى على ضفة الدون تلك ، كانوا جميعاً شيوعيين من صفوف «السرية الأممية» .

٣

فى الهزيع المتأخر من تلك الليلة عاد غريغورى من مقر الأركان الى مأواه فألفى بروخور زيكوف عند البوابة . توجه اليه غريغورى بالسؤال محاولا أن يضفى عليه مسحة من اللامبالاة :

— لا خبر عن أكسينيا ؟

فأجاب بروخور متثائباً :

— كلا ، لقد تبددت فى الهواء ، بيد أنه حدّث نفسه قلقاً : «اللهم لا تدعه يقسرنى على الخروج للبحث عنها من جديد ! لقد حلت بى طواعين كل شياطين الكون !

لكن غريغورى قال له منزعجاً :

— هات شيئاً اغتسل به ، فالعرق يغمرنى من رأسى الى قدمى . هيا تحرك !

فمضى بروخور وعاد بكوز ، وظل وقتاً ليس بالوجيز يصب الماء فى كفى غريغورى المضمومتين كالقدح . وكان بيناً أن غريغورى ارتاح لاغتساله أيما ارتياح ، فخلع قمصلته التى كانت تفوح عرقاً وقال : «صب شيئاً منه على ظهرى» ، فلسع الماء البارد ظهره العرق حتى صار يجمجم ويزنخر . ثم فرك كتفيه المتقشرتين وصدره الأشعر ، ونشف جسمه بمرشحة خيل نظيفة ، وقال لبروخور بلهجة أكثر مرحاً : «سيجلبون حصاناً لى فى الصباح . استلمه منهم ، ثم حسه حساً جيداً وأطعمه قمحاً . واياك أن

توقظنى ، فاننى أريد أن أنام قدر ما أستطيع ، ولا تضايقنى الا اذا جاء أحدهم علىّ من مقر الأركان . فاهم ؟» .

ثم مضى تحت أفريز المأوى واضطجع فى عربة ، وفى الحال غاب فى نوم هنىء . وعند الفجر استشعر برودة ، فدثر ساقيه وتلفع بمعطفه الرطب بندى الصبح . لكن ، ما ان ارتفعت الشمس حتى عاد الى اغفاءته من جديد ، ولم يستيقظ الا حوالى الساعة السابعة على صوت قذائف المدافع الثقيلة . كانت ثمة طائرة بلون الفضة تحوم فى سماء القرية الصاحية الزرقاء . وكانت المدفعية والرشاشات تطلق نيرانها من الجانب الآخر من النهر .

فتمتم بروخور بينا كان يحس بهمة جواداً كميتاً طويل السيقان مشدودا الى عمود :

— وى ، يكادون يصيبونها ! أنظر يا بانتلاييفتش ، أنظر الى الشيطان الذى أرسلوه اليك ! فحصب غريغورى الجواد بعينيه وسأل بلهجة رضية :

— كم ترى عمره ؟ خمسة أعوام ، حسب مظهره ؟

— أجل ، له خمسة أعوام .

— عظيم ! سيقانه بديعة ، وجميعها شعراء . ابن حلال حقاً ! حسن ، أسرجه ، فاننى ماض لاستطلاع القادم .

فتمتم بروخور فيما كان يشد أحزمة السرج :

— ان مرآه يوحى بجودته فعلا . فكيف سيكون عند الركوب ؟ ان أماراته كلها تنم عن نشاط وافر .

وانفجرت قذيفة منثار أخرى بدخانها الأبيض على مقربة من الطائرة . واختار الطيار موضعاً ملائماً للهبوط ، ثم نزل الى الأرض بحركة سريعة . فانطلق غريغورى على جواده مجتازاً

البوابة وميمماً صوب اسطبلات القرية حيث هبطت الطائرة خلفها .

كانت الاسطبلات ، وهى بناية حجرية مستطيلة ، استعملت سابقاً لايواء جياد القرية ، تقع فى الضواحى ، وقد حشر فيها الآن ما يزيد على ثمانمائة أسير أحمر . ولم يكن الحراس المكلفون بهم ليسمحوا لهم بالخروج لقضاء حاجاتهم ، كما خلا المكان من أيما شىء يُقتعد ، فكانت ترتفع حول البناية ، كالجدار ، رائحة قوية ثقيلة لبراز الرجال ، كما زحفت جداول جائفة من البول من تحت الباب ، وكانت تحوم فوقها أسراب مائجة من الذباب الأخضر .

ولم يكن الأنين المكتوم لينقطع من سجن الهالكين ، لا ليلاً ولا نهاراً . وكان المئات منهم ينازعون جراء الانحلال أو التيفوس أو الدوسنطاريا المتفشية بينهم . وفى بعض الأحيان كانت جثث الموتى تظل بينهم أياماً بطولها دون أن تنقل الى الخارج .

مضى غريغورى حول الاسطبلات ، وكان على وشك الترجل عن جواده حينما أرعد مدفع ثانية من الجانب الآخر للدون . وانطلق زعيق القذيفة المقبلة يتضخم ، حتى انقطع بهدير انفجارها الصخاب .

وكان الطيار والضابط اللذان قدما بالطائرة ينزلان آنذاك من القمرة ، والتف القوزاق حول الطائرة . ولكن ، فى تلك اللحظة بالذات ، انطلقت جميع مدافع البطارية تنطق فى آن واحد . وصارت القذائف تتهاطل قريبة من الاسطبلات . فهرع الطيار يتشبث صاعداً الى القمرة من جديد ، بيد أن الماكنة أبت أن تشتغل . فصرخ الضابط الذى رافقه فى الرحلة بصوت جهورى : — «ادفعها دفعاً !» . وكان هو أول من شرع يدفعها من

أحد جناحيها . فمضت الطائرة تتمايل بيسر نحو مجموعة من أشجار الصنوبر ، بينما ظلت البطارية ترافقها بنار متعقبة . وسقطت احدى القذائف على الاسطبلات المزدحمة بالأسرى ، فتحطم ركن منها وسط سحائب من الدخان وغبار الكلس المتعالى . واهتزت الاسطبلات للزئير الوحشى الذى انبعث من الأسرى الذين صعقهم الرعب . ومرق ثلاثة منهم الى الخارج خلل الفجوة ولكنهم أثخنوا برصاص القوزاق الذين سددوا اليهم نيران بنادقهم عن كثب .

وانطلق غريغورى هذباً الى أحد الجوانب . فصرخ به قوزاقى مصعوق الوجه جاحظ العينين اذ مرّ به :

— سوف يصيبونك ! امض نحو الصنوبر !

فحدث غريغورى نفسه :

— وقد يفلحون فعلاً ، من يدرى ! ثم عاد متمهلا الى مأواه .

فى ذلك اليوم دعا كودينوف الى عقد مؤتمر سرى للغاية فى مقر هيئة الأركان دون أن يدعو اليه غريغورى . وفى ذلك المؤتمر أفاد الضابط الذى وصل بالطائرة من لدن «جيش الدون» بأن القوة الضاربة المحتشدة فى طريق كامنسكايا سوف تخترق جبهة الحمر فى أى يوم ، وبأن فرقة من الخيالة تابعة لـ «جيش الدون» سوف تتقدم بقيادة الجنرال سكريتيف لاقامة اتصال مع المتمردين . واقترح الضابط أن تعد وسائط لعبور النهر حالاً لكى يصبح فى امكان كتائب خيالة المتمردين أن تقذف عبر النهر الى جانبه الأيمن وذلك بعد اقامة الاتصال مع فرقة سكريتيف . كما أنه نصح بتحريك قطعات الاحتياط الى مواضع قريبة من النهر . وعند نهاية المؤتمر ، وبعد أن تم الاتفاق على خطة

نقل القطعات عبر النهر والعمليات التى ستقوم بها بعد ذلك ، تساءل الضابط :

— ولكن ، فيم عساكم تحتفظون بالاسرى فى فيشنسكايا ؟

فرد أحد ضباط الأركان قائلا :

— لأنه ليس لدينا مكان آخر نضعهم فيه . فليس هناك أية بنايات ملائمة فى القرى الأخرى .

فمسح الضابط باعتناء رأسه الحليق العرقان بمنديله ، ثم فك أزرار قمصلته وقال متنهداً : «أرسلوهم الى كازانسكايا» .

فرفع كودينوف حاجبيه دهشة وتساءل :

— ومن ثم ؟

فرد الضابط شارحاً الأمر عن طيب خاطر وهو يضيق عينيه الزرقاوين الباردتين :

— ومن ثم تعودون بهم الى فيشنسكايا . وفى الواقع ، أيها السادة ، اننى لا اجد أبداً سبباً لالتزامكم بالأصوليات مع هؤلاء . وما كنت لأحسب أن الظرف ملائم لمثل هذا الموقف . ان هؤلاء الحثالة الذين ينشرون أنواع الأمراض ، البدنية منها والاجتماعية ، يجب أن يقضى عليهم . فلا معنى لأن تلعبوا دور المربيات معهم . وهذا ما كنت سأفعله أنا لو كنت فى محلكم .

وفى اليوم التالى سيقت أول مجموعة من الأسرى نحو الرمال ، وكانت حوالى مائتين . وراح رجال الجيش الأحمر ، وقد هدهم الهزال وحال لونهم حتى حاكى لون الموتى ، يتحركون كما تتحرك الأشباح ، لا يكادون يفلحون فى تحريك أرجلهم ، بينما أحاطت بهذا الحشد المضنى جماعة من الحرس الراكب احاطة القيد بالمعصم . وحينما طوت القافلة زهاء سبعة فرسخات خارج القرية ، تم الاجهاز على المائتى أسير عن بكرة أبيهم .

وفى عصر ذلك اليوم سيقت مجموعة ثانية الى خارج القرية ، واوعز الى الحرس المرافق ألا يضرب المتخلفين فى السير الا بالسيف ، وألا يصار الى اطلاق النار الا كحل أخير . ومع ذلك فلم يبلغ كازانسكايا حياً من بين هؤلاء الأسرى المائة والخمسين سوى سبعة عشر أسيراً . وحدث أن أصابت اللوثة عقل أحد هؤلاء ، وكان جندياً فتياً من رجال الجيش الأحمر تبدو عليه سيماء الغجر ، فمضى على مدى الدرب يغنى ويرقص وينتحب ، وهو يشد الى صدره باقة من السعتر العطر . . . وكان لا ينى بين الحين والحين يهوى على وجهه فوق الرمل اللاهب ، فتعبث الريح بمزق قميصه القطنى القذرة ، فتقع عيون الحرس على ظهره الهزيل وقد التصق عليه الجلد بشدة ، وعلى أخمصى قدميه المتشققتين . فيقيمونه على قدميه يرشون عليه الماء من قارورة ، فيفتح عينيه السوداوين المتلامعتين بمخايل الجنون ، ويضحك بهدوء ، ثم يمضى فى طريقه مترنحاً ذات اليمين وذات الشمال .

وحينما بلغوا احدى المزارع الواقعة على الطريق ، أحاطت بالاسرى جماعة من النسوة الرقومات ، وتوجهت احداهن ، وكانت عجوزاً مهيبة كبيرة الجرم ، بالكلام المغضب الى المسؤول عن جماعة الحرس المرافق :

— اطلق سراح هذا الاسير قاتم السحنة ! انه مخبول ، فهو الآن أقرب الى الله ، وستكون ، لعمرى ، خطيئة كبرى منك لو أنك أدنيت مثله من نهايته .

غير أن رئيس الحرس ، وكان نائب ضابط متهوراً ذا عذارين أحمرين ، أرسل ضحكة ساخرة وأجاب :

— نحن لا نخاف من انزال خطيئة أخرى على أرواحنا ،

أيتها العجوز . فلقد أوغلنا فى الخطايا الى غير رجعة !

بيد أن العجوز أصرت على طلبها :

— لا عليك ، أطلق سراحه ولا ترفض رجائى . فالموت يرفرف بجناحيه فوقكم جميعاً . وتلقت تأييداً قوياً من بقية النسوة ، فرضخ نائب الضابط لهن قائلا :

— لا مانع لديّ ، خذيه . فلا خوف منه بعد الآن . ولكن ما دمتم قد رأيتم طيبة قلوبنا فلا أقل من اعطاء كل واحد منا قارورة من اللبن الطازج .

أخذت العجوز الأسير المجنون الى كوخها الصغير ، وهيأت له سريراً فى غرفة الاستقبال . فنام يوماً كاملاً بلا انقطاع ، ثم استيقظ ، ونهض وظهره الى الشباك ، وشرع يغنى بهدوء . فجاءت العجوز الى الغرفة : وحطت راحتها على خدها ، وجعلت تطيل التأمل فى وجه الفتى الهزيل ، ثم قالت بصوت عميق :

— يقولون ان ديارك ليست بعيدة . . .

فران الصمت على المخبول لحظة ، ثم ما لبث أن استأنف الغناء من جديد ، ولكن بصوت أهدأ من ذى قبل .

فقالت العجوز فى لهجة صارمة :

— كف عن ألاعيبك ، يا بنى ، ولا تحسب أنك تستطيع استغفالى . لقد عشت طويلا ، ولن تستطيع خداعى ، فما أنا بالبلهاء ! ان عقلك على أتم ما يرام ، أعلم ذلك . . . فقد سمعتك تتكلم فى نومك ، وكان كلامك متزناً معقولاً .

بيد أن الجندى الأحمر مضى فى غنائه ، وان شرع صوته ينخفض أكثر فأكثر . فاستأنفت العجوز كلامها :

— لا تخف منى ، فلست اخمر لك سوءاً . . . فقد فقدت اثنين من أبنائى فى الحرب الالمانية ، وسقط أصغرهم

صريعاً فى تشيركاسك فى هذه الحرب . لقد حملتهم جميعاً تحت فؤادى . سقيتهم اللبن وأطعمتهم الغذاء ، وسهرت عليهم الليالى حينما كنت لا أزال شابة . . . ولذلك ترانى حزينة من أجل كل الفتية الذين يعملون فى الجيش ويشتركون فى الحرب .

ثم خلدت الى الصمت فترة من الوقت .

وران الصمت على الجندى الأحمر هو الآخر ، فأغمض عينيه ، واكتست وجناته السمراوان حمرة لا تكاد العين تتبينها . وجعل عرق أزرق ينبض بقوة فى رقبته النحيلة العجفاء .

وبدا فى صمته لحظة كمن يتوقع شيئاً ما ، ثم فتح عينيه السوداوين نصف فتحة ، فلاحت نظرتهما ذكية ، واتقدتا ببريق من الترقب المضنى ، حتى أن العجوز ابتسمت قليلاً وسألته : — أتعرف طريقك الى شوميلنسكايا ؟ فرد الرجل وهو لا يكاد يحرك شفتيه :

— كلا ، يا أماه .

— اذن فكيف ستصل الى هناك ؟

— لا أدرى . . .

— تلك هى المشكلة ! والآن ، ما عساى أن أفعل بك ؟

ثم لبثت طويلاً تنتظر اجابته ، فلما لم يجب سألته :

— أتستطيع السير الآن ؟

— سأسير على مهل .

— لا ينفعك على مهل . فان عليك أن تسير خلال الليل ، وبسرعة ، أوه ، بأسرع ما تستطيع ! أمكث هنا يوماً آخر ، ثم سأزودك بالطعام ، وبحفيدى ليدلك على الطريق ، ومن ثم — فى عناية الله ! ان الحمر جماعتك هم الآن فى ضواحى شوميلنسكايا تماماً ، اعلم ذلك علم اليقين . فما عليك

الا أن تذهب وتلتحق بهم . على أنه يجدر بك ألا تمضى على الطريق العام ، بل تضرب عبر السهب والوديان والغابات بعيداً عن الطرق ، والا ظفر بك القوزاق وحلت بك بليّة . وهذا هو القول الفصل ، يا بطتى !

وفى اليوم التالى ، ما ان حل الغسق ، حتى قامت العجوز فرسمت اشارة الصليب على حفيدها ذى الاثنى عشر عاماً وعلى الجندى الأحمر الذى ألبسته سترة قوزاقية ، وقالت بلهجة صارمة :

— والآن ، هيا امض ، فى رعاية الله ! ولكن حذار من الوقوع فى أيدى جنودنا . . . مهما كلفك الامر ، يا بطتى ، مهما كلفك الامر ! لا تنحن لى ، بل لله القدير . فلست أنا الام الصالحة الوحيدة ، فكلنا أمهات صالحات . . . ونحن حزينات من أجلكم أيها المنكوبون المساكين ، حزينات حزناً قتالاً ! والآن هيا ، هيا ، امض ، رعاك الله وحفظك ! .

ثم صفقت باب كوخها الأصفر المائل الملطخ بالطين .

٤

كانت ايلينشنا تستيقظ مع البصيص الأول لفجر كل يوم ، فتحلب البقرة ثم تأخذ باداء اشغالها اليومية . ولم تكن توقد النار فى الموقد الداخلى ، بل كانت تضرم النار فى المطبخ الخارجى وتعد الغداء ، ثم تدلف الى البيت ثانية لتعنى بالطفلين .

أما ناتاليا فقد كانت تتماثل للشفاء من التيفوس ، ولكن ببطء شديد . وصادف أول قيامها من الفراش اليوم التالى لاحد الثالوث ، فمضت تتمشى من غرفة الى أخرى ، لا تكاد تقوى على تحريك ساقيها الهزيلتين . وقضت وقتاً طويلاً تفلى رأسى الطفلين ، كما أنها جربت أن تغسل بعضاً من الملابس بينا

هى جالسة على مقعد واطئ . بيد أن وجهها السقيم كان لا ينى يتألق بابتسامة ثابتة ، ووجنتيها الغائرتين تكتسيان لوناً ورديا ، وعينيها ، اللتين اتسعتا بسبب المرض ، تتلامعان بذلك الوميض الراعش الذى يعقب الولادة عادة .

وتساءلت بصوت واهن وهى تجرجر الكلمات جرجرة ، وتمسد بيدها شعر ابنتها الفاحم :

— بوليوشكا ، يا حبيبتى ! لعل ميشاتكا لم يضايقك أبداً طيلة مرضى ، ها ؟

فأجابت الطفلة هامسة : «كلا ، يا مامى . ضربنى مرة واحدة فقط ، لكننا كنا نلعب معاً كثيراً . ودست رأسها بين ركبتى أمها .

واستأنفت ناتاليا أسئلتها والابتسامة على محياها :

— وجدك ، هل كان يرعاك ؟

— كثيراً ، كثيراً !

— والغرباء ، الجنود الحمر ، هل مسوك ؟

فرد ميشاتكا بصوته الصغير العميق ، وكان يشبه أباه شبها عجيباً : «لقد قتلوا عجلنا الصغير ، يلعن أبوهم !» .

فقالت له ناتاليا لائمة ، وهى تكتم ابتسامتها :

— لا يجوز أن تشتم ، يا ميشاتكا ! انت تتكلم مثل الرجال ! لا يجوز أن تسب الكبار أبداً أبداً .

فرد الميليخوفى الصغير عابساً ليبرر نفسه :

— ولكن هذا ما قاله جدى فيهم ، اسألى بوليا !

— صحيح ، مامى ، وذبحوا دجاجنا الى آخره .

وتحمست بوليا ، وشرعت ، وعيناها السوداوان الصغيرتان تشعان وميضاً ، تقص كيف جاء الجنود الحمر الى الفناء ،

وكيف أمسكوا بالدجاج والبط ، وكيف رجتهم الجدة ايلينشنا أن يبقوا على ديك أصفر اللون ذى عرف مصاب بلسعة ثلج ، وكيف أجابها جندى احمر فكه وهو يؤرجح الديك بيده :

— هذا الديك ، أيتها السيدة العجوز ، اطلق صيحة معادية للنظام السوفياتى ، ولهذا حكمت عليه بالاعدام ! ومهما قلت ، فاننا سنعد به حساء لنا وسنترك لك بدلا منه جزمنا اللبادية العتيقة .

وأضافت بوليا الصغيرة ناشرة ذراعيها :

— بهذا الحجم كانت الجزم اللبادية التى تركوها . كبيرة جداً ، جداً . ومليئة كلها بالثقوب .

فضمت ناتاليا الطفلين اليها وجعلت تلاطفهما وهى تضحك وتبكى فى آن واحد ، وهمست والغبطة تغمرها وعيناها المشوقتان لا ترتفعان عن ابنتها :

— آه يا ابنة حبيبى غريغورى ! يا ابنة غريغورى الحقيقية ، أنت مثل أبيك تماماً ، حتى آخر قطرة من دمك .

فتساءل ميشاتكا والغيرة تخزه :

— ولكن ، ألست أنا مثله أيضاً ؟ — وانكفأ على حضن أمه خجلا .

— بلى ، انك مثله أيضاً . ولكن ، تذكر دائما . حينما تكبر ، لا تكن سيئاً كأبيك .

فتساءلت بوليا : ولكن ، أهو سيئ حقاً ؟ كيف ؟

فهوى ظل من الأسى على وجه ناتاليا ، ولم تجب ، بل نهضت من على المصطبة وهى تتحامل على نفسها .

أما ايلينشنا ، التى كانت فى الغرفة الأخرى ، فقد أشاحت بوجهها عابسة . ووقفت ناتاليا ازاء النافذة ، ولم تعد تنصت

الى حديث الطفلين ، وراحت تحدق فى صفاقات شبابيك بيت أستاخوف ، وهى تصعد النهدات وتعبث بخيوط صدريتها الداخلية الكالحة بأصابع منفعلة .

وفى اليوم التالى استيقظت عند الفجر ، فقامت من فراشها بهدوء لكى لا تقطع على الطفلين نومهما ، ثم اغتسلت وأخرجت من الصندوق تنورة نظيفة وصدرية داخلية وعصابة رأس بيضاء . وكان التأثر بادياً عليها ، فخمنت ايلينشنا من طريقة لبسها ومن صمتها الحزين المتجهم أن كنتها كانت تعتزم زيارة قبر جدها غريشاكا .

فتساءلت العجوز عن قصد للتأكد من صدق ظنها :

— الى اين ذاهبة ؟

فأجابت ناتاليا كمن يدافع عن موقفه ، ومن غير أن ترفع رأسها مخافة أن تنفجر بالدموع :

— ذاهبة لزيارة قبر جدى .

وكانت قد علمت بمصرع جدها ، وبأن ميشا كوشيفوى قد أضرم النار فى بيتهم ومزرعتهم .

— انت ضعيفة ، ولن تقدرى أن تصلى الى هناك .

— سأتدبر ذلك ، على مراحل . اطعمى الطفلين ، يا أماه ، فقد يطول مكوثى هناك .

— ولكن ، علام ذلك ؟ ما الذى يطيل مكوثك هناك ؟ أهذا وقت زيارة الموتى ؟ غفرانك يا رب ! ما كنت لاذهب لو كنت فى مكانك ، يا عزيزتى ناتاليا .

— لا ، أنا ذاهبة .

وغام وجه ناتاليا ، وأمسكت بمقبض الباب .

— انتظرى لحظة ، لماذا تذهبين جائعة ؟ تناولى شيئاً .

أتودين أن أعطيك شيئاً من اللبن الحامض ؟

— كلا يا أماه ، لا اريد وحق المسيح . . . سأتناول شيئاً من الطعام حينما أعود .

واذ أدركت ايلينشنا عزم كنتها على الذهاب ، توجهت اليها بالنصح :

— اسلكى الدرب العالى المحاذى للدون ، عبر الحدائق . فلا يقع عليك بصر أحد كثيراً .

كان ثمة غطاء خفيف من الضباب معلق فوق الدون ، ولم تكن الشمس قد ارتفعت بعد ، بيد أن أفق السماء ، وقد اختبأ وراء أشجار الحور من ناحية الشرق ، كان يتوهج بنور الفجر الرمادى ، وكان نسيم الصباح الباكر يهب قارساً ، من تحت السحب .

عبرت ناتاليا الى بستانهم من فوق سياج الاسفندان المطروح على الأرض ، بعيدانه المتسلقة المتشابكة ، ثم توقفت بحذاء كومة صغيرة من التراب المقلوب حديثاً ، وهى تضغط بيديها على قلبها .

كان البستان تغطيه نباتات القريض والنجيل ، وتنبعث منه رائحة الارقطيون المرشوش بالندى ، والتراب الرطب والضباب . وعلى شجرة التفاح الهرمة ، التى احرقتها النار وأحالتها فحما ، وكر زرزور منفوش الريش . وكانت حدبة القبر قد نزلت . فهنا وهنالك ، ومن بين كتل الطين الجاف ، كانت نصال الأعشاب المندفعة الى أعلى قد بدت ظاهرة للعيان .

واجتاحت ناتاليا لجة من الذكريات ، فهوت بصمت على ركبتيها وأدنت وجهها الى الأرض القاسية التى ما برحت تفوح برائحة العدم والخراب .

ومضت ساعة ، ثم زحفت ناتاليا ، بحذر ، الى خارج البستان ، والتفتت ، والأسى يعتصر فؤادها ، لتلقى نظرة أخيرة على الربع الذى شهد تفتح شبابها . كانت الساحة المهملة تبكى العين بعوارض مآويها المتفحمة من أثر النار ، وخرائب المواقد المسودة ، وأسس بناء الدار الظاهرة . ثم ما لبثت ناتاليا أن اتخذت طريق ايابها ، بهدوء ، حذر منعطف جانبى .

• • •

ومع توالى الأيام ، غدت صحة ناتاليا أحسن عافية ، فعادت القوة الى ساقيها ، وتكور كتفاها ، وغمر جسدها امتلاء الأصحاء . ولم ينقض أجل طويل حتى شرعت تساعد حماتها فى شؤون المنزل . فتروح المرأتان تتبادلان أحاديث طويلة كلما جمعهما العمل حول الموقد . وفى ذات صباح ، قالت ناتاليا بصوت مشوب بالغضب :

— ومتى سينتهى هذا روحى كلها تتوجع !

فأجابت ايلينشنا فى لهجة الواثق :

— سترين . . . لن يمضى وقت طويل حتى يفلح رجالنا فى عبور الدون ثانية .

— ولكن ، أنى لك أن تعرفى ذلك يا أماه ؟

— قلبى يحدثنى به .

— عسى أن يسلم رجالنا من كل مكروه ! اللهم ادرأ عنهم الموت أو الجراح . . . لكن غريشا . . . لكم هو طائش . . .

وانبعثت زفرة من صدر ايلينشنا :

— لا أعتقد أن مكروهاً سيصيبهم ، ليس الله بلا شفقة . وقد وعدنى عجوزنا بأنه سيحاول عبور النهر لزيارتنا ، بيد أننى

أحسب أن عائقا حال دون ذلك . فاذا قدّر له أن يأتى ، تستطيعين أن تعودى معه لرؤية زوجك . ان رجال قريتنا متخذون مواقعهم على الشاطئ المقابل للقرية . وحينما كنت راقدة على الفراش ، فاقدة الوعى ، خرجت ذات صباح ، فجراً ، لجلب الماء من الدون ، فاذا بى أسمع أنيكوشكا يصيح عبر النهر : «تحياتنا ، سيدتى العجوز ! تحية عجوزك اليك !»

فتساءلت ناتاليا فى حذر :

— ولكن أين هو غريشا ؟

فأجابت ايلينشنا فى توكيد ساذج :

— فى المؤخرة ، يقودهم جميعاً .

— ولكن من أين يقودهم ؟

— لا بد أن يكون من فيشنسكايا . فليس ثمة مكان آخر غيرها يمكنه أن يفعل ذلك منه .

خلدت ناتاليا الى الصمت ، فألقت ايلينشنا نظرة عليها وتساءلت فى قلق :

— ولكن ، ما بك ؟ لماذا تبكين ؟

ولم تجب ناتاليا ، بل أطبقت وزرتها المتوسخة على وجهها وطفقت تنشج بهدوء :

— كفاك بكاء ، عزيزتى ناتاليا ، فما جدوى الدموع الآن ؟ اذا شاء البارى ، فسنراهم مرة أخرى ، أحياء سالمين . أما أنت ، فعليك أن تعتنى بنفسك . لا تخرجى الى الفناء الا عند الضرورة ، والا فستقع أعين أعداء المسيح عليك ويشرعون بمغازلتك .

وفجأة غدا المطبخ أشد ظلاماً . فى الخارج ، كان هيكل رجل يغطى النافذة . فالتفتت ايلينشنا صوبها وزعقت بصوت نائح :

— انهم هم ! الحمر ! ناتاليا ، يا حبيبتى ! ارتمى على السرير بسرعة ، وتظاهرى بأنك مريضة . . . لا أحد يدرى أية خطيئة سيـ . . . غطى نفسك بهذا الخيش .

فمضت ناتاليا الى السرير وهى ترتعد فرقاً ، وما كادت تلقى نفسها عليه حتى قعقعت سقاطة الباب ودخل الى المطبخ جندى أحمر طويل القامة ، وهو يحنى رأسه ليجتاز الباب . فتعلق الطفلان بتنورة ايلينشنا ، واستحال وجه العجوز شاحباً ، ثم ألقت نفسها على المصطبة حيث كانت تقف ، فقلبت جرة من الحليب المغلى .

ألقى الجندى الأحمر نظرة سريعة فى أرجاء المطبخ ، ثم قال بصوت مرتفع :

— لا تخافوا ! فلن آكلكم ! طاب يومكم !

فسحبت ناتاليا غطاء الخيش فوق رأسها ، وهى لا تنفك تتأوه وكأنها مريضة فعلاً . أما ميشاتكا . فانه عبس بوجه الزائر ، ثم حدّث جدته بصوت يخالطه الجذل :

— جدتاه ! هو الذى قتل ديكنا ، أتذكرين ؟

فرفع الجندى قبعته الخاكى ، وطق لسانه وابتسم .

— شخصنى الخبيث ! تصورى أنه تذكر ذلك الديك ! وعلى أية حال ، يا ربة الدار ، فان ما جئت من أجله هو هذا . هل تستطيعين اعداد شىء من الخبز لنا ؟ لدينا طحين .

فأجابت ايلينشنا متأتئة ، دون أن تنظر الى الزائر ، فيما كانت تمسح الحليب المسكوب من على المصطبة : «نعم . . . بلا شك . . . سأخبزه لكم . . .» .

فجلس الجندى بحذاء الباب ، وأخرج كيس تبغه من جيبه ، وحاول أن يتبادل الحديث معها ، وهو يلف لنفسه سيكارة :

— هل يمكنك أن تنجزى الخبز مع حلول المساء ؟

— أجل ، اذا كنت على عجل .

— فى زمن الحرب ، يا جدتى ، نحن دائما على عجل ، ولكن ، أرجو ألا يسيئك موضوع الديك .

فردت ايلينشنا باستغراب :

— لست مستاءة ، هذا الطفل أحمق ، يتذكر الأشياء المنسية .

فابتسم الزائر الثرثار ببشاشة ملتفتا نحو ميشاتكا :

— ومع ذلك ، فالظاهر أنك بخيل نوعا ما ، يا ولدى . ثم ما الذى يجعلك تحملق فيّ مثل ذئب صغير ؟ تعال هنا وسوف نتحدث ما شئت عن ديكك .

فهمست ايلينشنا وهى تدفع حفيدها بركبتها :

— امض اليه ، يا بليد !

بيد أن ميشاتكا انتزع نفسه من تنورة جدته وحاول أن ينسل الى خارج المطبخ ، وهو يسير منحرفاً صوب الباب . لكن الجندى الأحمر مد ذراعه الطويلة ، وسحبه اليه وسأله :

— هل أنت غضبان منى ؟

فأجاب ميشاتكا همساً :

— لا .

— عال ! فالسعادة لا تعتمد على ديك . أين أبوك ؟ أهو فى الجهة الأخرى من الدون ؟

— نعم .

— اذن فهو يحارب ضدنا ؟

فتشجع ميشاتكا بلهجة الرجل الملاطفة ، وأجاب فى الحال :

— يقود جميع القوزاق .

— اوه ، أنت تكذب يا ولدى !

— سل جدتى ، اذن !

لكن جدته لم تزد على أن ضربت يداً بيد وانفجرت تتأوه ، وقد استبد بها القلق من انسياق حفيدها فى ثرثرته .

ثم تساءل الجندى متحيراً :

— يقودهم جميعاً ؟

فأجاب ميشاتكا متردداً ، وهو مندهش لنظرات جدته البائسة :

— ربما ليس جميعهم . . .

وخلد الجندى الأحمر الى الصمت هنيهة ، ثم تساءل وهو يلقى نظرة على ناتاليا :

— اذن ، فالزوجة الشابة مريضة ، أهى كذلك فعلا ؟

فأجابت ايلينشنا متلعثمة :

— مصابة بالتيفوس .

ثم جاء جنديان أحمران يحملان زكيبة من الطحين الى داخل المطبخ ، وأنزلاها قرب العتبة . وقال أحدهما :

— اوقدى الموقد ، يا ربة الدار ، سنعود لأخذ الأرغفة قبل حلول المساء . اهتمى بالخبز ، والا فالويل لك .

فردت ايلينشنا قائلة : «سأخبزه كأفضل ما أعرف الخبز» ، والارتياح يملأ صدرها لأن مجىء الجنديين قطع حبل الحوار الخطر ولأن ميشاتكا هرب الى خارج المطبخ .

وتساءل أحد الجنديين وهو يهز رأسه باتجاه ناتاليا :

— تيفوس ؟

— أجل .

ثم تبادلوا فيما بينهم حديثاً خفيضاً ، وما لبثوا أن غادروا المطبخ . ولم يكد آخرهم يعبر المنعطف حتى انطلقت طلقات بنادق من الجانب الآخر من الدون .

فأحنى الرجال هاماتهم بشدة ، وهرعوا الى حائط الحظيرة الصخرى الذى تهدم نصفه ، وانبطحوا وراءه ، وشرعوا يردون على النار مقعقعين بنادقهم بعنف شديد .

واشتد الفزع والرعب بايلينشنا ، فخرجت تعدو الى الفناء بحثاً عن ميشاتكا . فصاح بها الرجال الرابضون خلف الحائط : «أنت يا جدتى ، ادخلى الى البيت ! لسوف تقتلين !» .

فصاحت العجوز والدموع فى صوتها : «ان ابننا فى الفناء . ميشاتكا ! يا حبيبى !»

وركضت نحو وسط الفناء ، فتوقف فى الحال اطلاق النار من الضفة الأخرى للدون . وكان جلياً أن القوزاق قد رأوها وعرفوها . ثم جاء ميشاتكا عدوا . وما ان أمسكت به من يده ودلفت معه الى المطبخ حتى استؤنف اطلاق النار ، واستمر الى أن جلا الجنود الحمر عن فناء آل ميليخوف .

وشرعت ايلينشنا تعد العجين وهى تحدّث ناتاليا همساً . بيد أنه لم يعد من الضرورى لها أن تخبزه . ففى حوالى الظهر ، تخلى بلا ابطاء جنود الجيش الأحمر ، حاملو الرشاشات ، عن مواقعهم الأمامية الكائنة فى أفنية المنازل ، واتخذوا طريقهم مرتقين منحدرات التل ، وهم يجرجرون رشاشاتهم وراءهم . أما رجال السرية التى كانت تتخذ الخنادق لها موقعاً ، فقد انتظموا صفوفاً ويمموا ، فى مسيرة مترنحة ، صوب طريق «هتمان» العام .

وفى لمح البصر ، خيم سكون عميق فوق الأرض الواقعة

على جانبى الدون . وأسكتت البنادق والمدافع الرشاشة . وعلى امتداد الطرق ، وفوق المسالك الصيفية التى نما عليها العشب فغطاها ، ومن كل قرية ، امتدت قوافل الأمتعة والبطاريات فى خطوط لا نهاية لها متجهة صوب طريق «هتمان» العام ، فيما مضى المشاة والخيالة يسيرون طوابير فى مشية عسكرية .

ومن خلل النافذة ، رأت ايلينشنا آخر جندى أحمر يزحف صاعداً التنوءات الكلسية للتل ، فمسحت يدها بالستارة ورسمت اشارة الصليب على نفسها بارتياح .

— فرّج الله حلمنا ، يا عزيزتى ناتاليا . فالحمر يتراجعون .

— آه يا ماما ، انهم يغادرون القرية ليستقروا فى الخنادق ، سوف يعودون قبل حلول المساء .

— لماذا يركضون اذن ؟ أرغمهم رجالنا على الانسحاب ، فهم يتراجعون ، أولاء الأبالسة ! أعداء المسيح يولون الأدبار ! . .

وتهللت أسارير ايلينشنا باعتزاز لكنها ما عتمت أن عادت الى عجن العجين .

خرجت ناتاليا الى السقيفة ، وتوقفت على العتبة ، ثم وضعت يدها فوق عينيها وجعلت تحدّق طويلاً فى التل الكلسى المغمور بالشمس ، وفى التنوءات السمر التى حرقتها حرارة الشمس .

وفى خلل السكون المهيب الذى يسبق زوبعة رعدية ، ارتفعت ذؤابات سحائب بيض متدحرجة من وراء التل . وكانت شمس الظهيرة تصفع الأرض بسياط أشعتها ، والسوالق ترسل صفيرها على أرض المرعى ، فيمتزج على نحو عجيب صوتها الخافت ، والأسيان الى حد ما ، بغناء القبرات الجذل . لكم كان عزيزا على فؤاد ناتاليا ذلك السكون الذى هبط على المكان غب اطلاق النار ، حتى أنها مكثت بلاحراك تتسمع بلهف

الى غناء القبرات المنطلق بلا قيود ، والى صرير دولاب البئر ، والى حفيف الريح المضمخة بعطر الشيح .

حريفة ومعطرة ، ريح السهب تلك ، الشرقية المجنحة . كانت تزفر الأنفاس الحارة للأرض السوداء التى لسعتها الشمس بلهيبها ، والعطور المسكرة لجميع الاعشاب الذاوية تحت الشمس . ومع ذلك ، فلقد كان هناك حس بمقدم المطر ، ثمة رطوبة منعشة تتصاعد ، زحفا ، من جهة النهر ، وطيور السنونو تنسج تشكيلات فى الهواء وهى تكاد تمس الأرض بأذنابها ذوات الأطراف المزدوجة ، وفى البعيد البعيد ، فى أعماق الفضاء الأزرق ، كان عقاب السهب يضرب بجناحيه مبتعداً عن الزوبعة المقتربة .

مضت ناتاليا تتمشى عبر الفناء . وعلى العشب المتغضن النابت بازاء الجدار الحجرى ، كانت كومات ذهبية من أغلفة الطلقات الفارغة . وتثاءبت نوافذ الدار وجدرانه المبيضة عن ثقوب خلّفتها رصاصات المدافع الرشاشة . وحين وقع نظر احدى الفراخ التى سلمت من الموت على ناتاليا ، هبت الى سقف مخزن الحبوب ، مطلقة صيحة .

لم يدم السكون المهيب على القرية طويلاً . اذ شرعت الريح تهب ، والأبواب والشبابيك غير المسمرة تصطفق فى البيوت المهجورة . وحجبت الشمس غيمة بردية بيضاء ، ثم انحدرت صوب الغرب .

أمسكت ناتاليا بشعرها كى لا تعبث به الريح ، ومشت حتى بلغت المطبخ الصيفى ، ومن هناك ألقت نظرة أخرى باتجاه التل . كان فى الأفق جنود يهذبون على خيولهم أو فى عربات عسكرية ذوات عجلتين ، وقد تلفّعوا بضباب ليلكى .

فاستنتجت وهى تتنفس الصعداء : «اذن فالأمر صحيح . انهم يتراجعون» .

وقبل أن تدلف الى الفناء ، شرع رمى المدافع يرسل رعيده المندفع المكتوم ، من مكان ما وراء التل ، ومن كنيستى فيشنسكايا ، طوف عبر النهر قرع النواقيس البهيج ، كأنه يتبادل النداءات مع المدافع .

ومن الجانب الآخر للنهر ، بدأ القوزاق يندفعون خارج الغابة كتلة كثيفة ، مجرجرين أو حاملين جنيبات نحو النهر . ثم أنزلوها فيه ، واندفع الجذافون يجذفون بحماسة وقوة ، فيما وقف الآخرون عند المؤخرة . وتسابق نحو القرية ما يقارب من ثلاثين زورقاً ، فى عجالة واندفاع .

وهتفت ايلينشنا ، وعيناها تصبان الدموع ، فيما هرعت خارج المطبخ :

— ناتاليا ! حبيبتى ! أوه ، يا رب . . . رجالنا قادمون !

فأمسكت ناتاليا بميشاتكا ورفعته عالياً . وتألقت عيناها بحرارة ، بيد أن صوتها جاء ضعيفاً حينما قالت لاهثة :

— انظر يا حبيبى ، ان بصرك قوى . . . لعل والدك قادم مع القوزاق . . . أيمكنك رؤيته ؟ انه ليس فى القارب الأول ، ها ؟ أوه ، لكنك لا تنظر فى الاتجاه الصحيح . . .

فى المرسى ، لم يلقوا سوى بانتلاى بروكوفتش المنهك . وكان أول شىء استفسر عنه العجوز هو ما اذا كانت الثيران وأملاك الحقل والحبوب سليمة جميعها ، ومن ثم ذرف دمعة واحتضن حفيديه . لكنه حين مضى الى فناء داره ، يستحث خطاه العرجاء ، اكتسى وجهه الشحوب ، وهوى على ركبتيه ، ورسم اشارة الصليب على نفسه بحركات واسعة من ذراعه ، وظل زمناً

طويلاً ، محنى الهامة تجاه الشرق ، لا يرفع رأسه عن الأرض الساخنة التى حرقتها الشمس .

٥

فى العاشر من حزيران ، قامت فرقة الخيالة التابعة لـ«جيش الدون» . بقيادة الجنرال سكريتيف ، والتى يبلغ تعدادها ثلاثة آلاف رجل ، تصاحبها ست مدافع تجرها الخيل وثمانية عشر مدافع رشاشة ، بتسديد ضربة قاصمة ، وأفلحت فى النفاذ خلال الجبهة فى موضع قريب من مركز منطقة أوست-بيلوكالتفنسكايا . ثم تحركت القوة بمحاذاة خط السكة الحديد فى اتجاه مركز منطقة كازانسكايا . وفى غداة اليوم الثالث ، استطاعت دورية استطلاع من ضباط كتيبة الدون التاسعة أن تقيم اتصالاً مع نقطة ميدان أمامية للمتمردين تقع على مقربة من الدون . وقد حدث حين شاهد القوزاق رجالاً ممتطين خيلاً أن هرعوا الى داخل الأخاديد . بيد أن النقيب القوزاقى المسؤول عن الدورية استطاع أن يميز المتمردين من ملابسهم ، فلوح لهم بمنديل عقده فى سيفه ، وهتف بصوت عال :

— نحن من جانبكم . . . لا تهربوا ، أيها القوزاق . . .

ثم مضت الدورية الى حافة الاخدود ، دونما اتخاذ أية احتياطات ، وكان أول من تقدم آمر النقطة الأمامية ، وكان عريفاً عجوزاً أشيب اللحية ، فاقترب وهو يزرر معطفه المرشوش بقطر الندى . وترجل الضباط الثمانية ، ومضى النقيب الى العريف ، وخلع قبعته الخاكية وشارة الضباط البيضاء فيها ظاهرة أمام أعين عصبة القوزاق ، وابتسم قائلا :

— تحياتنا ، أيها القوزاق ! وكما هى العادة القديمة

المحبية عندنا فلتتبادل القبل — وقبّل وجنتى المتمرد ، ثم مسح شفتيه وشاربه بمنديله . وحين أحس بنظرة زملائه المتلهفة مسمرة عليه ، قال متغثغاً وعلى فمه ابتسامة ذات مغزى :

— اذن ، ثبتم الى رشدكم أخيراً ؟ وأثبت أهلوكم أنهم خير من البلاشفة ؟

— تماماً ، يا صاحب السعادة ! كفرنا عن خطايانا . مضت علينا ثلاثة أشهر ونحن نقاتل ، طال اشتياقنا لرؤيتكم .

— حسناً فعلتم أن أعدتم النظر فى موقفكم ، وان جاء ذلك متأخراً . صفحة الماضى طويت ، وسنعتبر كل ما فات فات . من أية منطقة أنتم ؟

— من كازانسكايا ، يا صاحب السعادة .

— وهل وحدتكم فى الجانب الآخر من الدون ؟

— تماماً .

— أى طريق سلك الحمر من الدون ؟

— صعد النهر . نحو موطن الدونيتس ، ربما .

— ألم تعبر خيالتكم النهر ، بعد ؟

— أبداً .

— ولم لا ؟

— لا أدرى ، يا صاحب السعادة . فنحن كنا أول من أرسل الى هذه الضفة .

— هل كانت مع الحمر أية مدفعية هنا ؟

— بطاريتان .

— متى سحبتا ؟

— خلال الليل .

فقال النقيب لائماً :

— كان الواجب ملاحقتهم . . . آه ، تركتم الفرصة تفلت من أيديكم !

ثم مضى الى حصانه وأخرج من حقيبته كراساً وخريطة .

ظل العريف واقفاً وقفة استعداد ، ويداه ممددتان على طيات بدلته ، فيما تزاحم القوزاق وراءه بخطوتين ، تختلط فى صدورهم مشاعر الفرح والقلق الغامض ، وهم يتفحصون الضباط والسروج والخيل الأصائل التى أنهكها الطريق . أما الضباط الذين كانوا يلبسون قمصلات بريطانية أنيقة الصنع ومزينة بشارات للكتف ، وبنطلونات واسعة لركوب الخيل ، فقد كانوا يتنقلون من قدم الى أخرى متململين حول خيلهم ، وهم يلقون بين الفينة والفينة نظرات جانبية على القوزاق . ولم يكن فيهم من يحمل على كتفه شارات من النوع الذى كان يصنع محليا بالقلم الثابت ، تلك الشارات التى شاع استعمالها كثيراً فى خريف عام ١٩١٨ . بل ان جزمهم وسروجهم وحمائل سيوفهم ونظارات الميدان والغدارات المعلقة بسروجهم كانت ، كلها ، جديدة ومن صنع أجنبى . ولم يكن سوى أكبرهم سناً ، كما بدا ذلك من سيمائه ، مرتدياً معطفاً شركسياً من قماش أزرق اللون زاه ، وطاقية كوبانية مدورة من صوف استراخان «بخارى» النفيس ، ومحتذياً جزمة أهل الجبال التى لا كعب لها . وكان هذا أول من اقترب من القوزاق ، فخطا نحوهم خطوات خفيفة ، وأخرج من حقيبة ميدانه علبة لطيفة للسكائر مزينة بصورة الملك ألبرت ، ملك بلجيكا ، وعرضها على القوزاق قائلاً :

— أتودون التدخين ، أيها الاخوة ؟

فمد القوزاق أيديهم الى السكائر بنهم . كما تقدم الضباط الآخرون أيضاً ، وتساءل ضابط ذو رأس كبير ومنكبين عريضين :

— حسن ، وكيف وجدتم الحياة تحت ظل البلاشفة ؟

فرد قوزاقى يرتدى معطفاً فلاحياً عتيقاً ، فى حذر : «لم تكن كلها عسلاً» ، وهو يعب أنفاس سيكارته عباً ، مسمراً عينيه على الجرموق الطويل المزركش بالأشرطة حتى الركبتين ، والذى كان يلف ، بشدة ، ربلتى الضابط القويتين .

أما صندل القوزاقى البالى ، فقد كان عالقاً بقدميه بأعجوبة ، وكان جوربه الصوفى الأبيض المرقع وبنطلونه المدسوس فيه ممزقين شر تمزيق ، ولهذا لم يستطع الرجل أن يحوّل نظرته المفتونة عن جزمة الضابط البريطانية بنعلها الجسيم المذهل وثقيباتها النحاسية ذوات اللمعان الباهر . ولم يقدر أن يضبط نفسه ، فقال معبراً عن اعجابه بسذاجة :

— لديك زوج بديع من الجزم !

غير أن الضابط لم يشعر برغبة فى الدخول فى حديث ودى معه ، فقال ، وفى صوته تهكم وتحدّ : «أنتم أردتم أن تستبدلوا عدتكم الأجنبية بصنادل موسكو الليفية ، فلا تحسدون على ما نرتدى !» .

فأجاب القوزاقى فى لهجة مشوشة ، مجيلاً نظره فى القوزاق الآخرين سعياً وراء تأييدهم له :

— اقترفنا خطأ . قذفنا بأنفسنا فى غير . . .

بيد أن الضابط استمر فى محاضرته هازئاً :

— اظهرتم أن عقولكم عقول ثيران . فالثور على هذه الشاكلة دائماً . يتحرك أولاً ، ثم يقف ليفكر بعد ذلك . «اقترفنا خطأ !» . اذن ، ما الذى كنتم تفكرون به حينما انسحبتم من الجبهة فى الخريف ؟ أردتم أن تصبحوا قوميسارية ! نعم المدافعين عن أرض الآباء كنتم !

وهنا همس فى أذن الضابط المحتد آمر سرية فتى السمات :

— كف عن ذلك ، كفى ! فداس الضابط بقدمه على سيكارته ، وبصق ، ثم مضى الى ناحية الخيل .

سلّمه النقيب ورقة مكتوبة واسرّ فى أذنه بشىء . فقفز الضابط ذو القامة المتينة الى حصانه فى خفة غير متوقعة وأدار الحصان بشدة وانطلق هذباً ناحية الغرب .

أما القوزاق فقد أخلدوا الى صمت قلق . ثم تقدم النقيب منهم وتساءل فى صوت جهورى مرح :

— كم هى المسافة الى قرية فارفانسكى ؟

فأجابه عدة قوزاق فى مزيج من الأصوات :

— خمسة وثلاثون فرستاً .

— عال ! والآن ، أيها القوزاق ، اذهبوا واخبروا آمركم بأن على قوات الخيالة أن تعبر الى هذا الجانب دون أدنى تأخير ، وسيذهب أحد ضباطنا معكم الى المعبر ليتولى قيادة الخيالة . أما المشاة فباستطاعتهم أن يواصلوا التقدم نحو كازانسكايا فى مسيرة منتظمة . فاهمون ؟ حسن ، وكما نقول ، الى الوراء در ، عادة سر .

فمضى القوزاق ، جمهرة ، حدر التل ، وقطعوا زهاء مائتى خطوة فى صمت ، وكأن بينهم اتفاقاً على ذلك . ثم هز قوزاقى أليف المظهر يرتدى معطفاً فلاحياً ، هو ذات الرجل الذى تلقّى محاضرة من الضابط المحتد ، رأسه ونفث نهدة نائحة وقال :

— اذن ، اتحدنا من جديد اذن ، أيها الاخوة . . .

فأجاب ثان فى الحال :

— فجل الخيل ليس أحلى طعماً من الفجل !
وقذف من فمه سباباً مقذعاً .

٦

ما ان بلغت فيشنسكايا الأنباء عن تراجع قوات الحمر ، حتى عبر غريغورى ميليخوف وكتيبتان من الخيالة الدون بخيولهم ، وأرسلوا دوريات قوية ، وتحركوا جنوباً .

كان القتال محتدماً وراء التلال الواقعة على جانب الدون ، وكان فى مقدورهم أن يسمعوا الزئير المكتوم لرمى المدافع الهادر وكأنه يتفجر داخل الأرض .

واقترب من غريغورى آمر على حصانه وقال بلهجة اعجاب :

— الكاديت لا يبخلون بالقذائف ، على ما يبدو ؟ ها هم يقيمون حاجزاً من النار .

فلبث غريغورى صامتاً . كان يمضى على حصانه فى مقدمة الطابور ، مجيلاً النظر فيما حوله باحتراس . وعلى امتداد ثلاثة فرسخات من الدون الى قرية بازكى كانت آلاف العربات الخفيفة والشاحنات التى خلّفها المتمردون وراءهم مبعثرة على الطريق . وقد تناثرت الأمتعة فى كل موضع من الغابة : صناديق محطمة ، كراس ، ملابس ، عدة خيل ، أوعية ، مقال ، مكائن خياطة ، زكائب حبوب ، وجميع ما كان مالكوها قد خطفوه معهم من بيوتهم ، فى حومة حرصهم وحدبهم عليه ، وحملوه قدر ما استطاعوا أثناء تراجعهم صوب الدون . وفى بعض المواضع ، كان الطريق مغطى بالقمح الذهبى الى علو ركبة ، وهنا وهنالك ، انطرحت جثث الثيران والخيل ، منتفخة ، زنخة ، مشوهة على نحو مرعب من أثر التفسخ .

فهتف غريغورى ، وقد أذهله ما رأى :

— هكذا كانت رعايتهم لممتلكاتهم !

وخلع قبعته ، محاولاً ألا يتنفس ، ومضى فى حذر منعطفاً حول كومة صغيرة من قمح عفن انطرحت فوقها جثة عجوز يرتدى طاقية قوزاقية وسترة ملطخة بالدم . فقال أحد القوزاق متعاطفاً :

— ظل يحرس متاعه أطول مما ينبغى ، هذا العجوز ! لا بد أن الشياطين وسوست له بالبقاء هنا .

— لم يشأ أن يترك قمحه وراءه . . .

فانبعثت صرخات غضبى من الصفوف الخلفية :

— هيا ، ارحل بسرعة ! رائحته منتنة جداً . هيا ، تحركوا !

فانطلقت السرية خبباً ، وانقطع الحديث شيئاً فشيئاً . ولم يعد يسمع فى الغابة سوى قعقعة سنابك لا حصر لها وجلجلة عدة الخيل القوزاقية المحكمة .

كان القتال يدور ليس ببعيد عن ضيعة ليستنتسكى ، كان جنود من الجيش الأحمر يركضون فى صفوف متراصة داخل واد خال من الماء نحو جانب من ياغودنويه . وكانت قنابل المنشار تتفجر فوق رؤوسهم ، والمدافع الرشاشة تتعقب ظهورهم ، وسيل من رجال كتيبة كالميكية يتدفقون على التل لقطع خط الرجعة عليهم .

وحينما وصل غريغورى مع كتيبته كانت المعركة قد انتهت . وكانت سريتا الجيش الأحمر ، العاملتان على تغطية انسحاب القوات المحطمة وقوافل الأمتعة التابعة للفرقة الرابعة عشرة ، قد تلقتا ضربة قاصمة من الكتيبة الكالميكية ، وقضى عليهما

تماماً . وفى الأعالى المطلة على الوادى ، سلم غريغورى القيادة الى يرماكوف قائلاً :

— لقد استطاعوا تدبير أمورهم بدوننا . اذهب أنت وأقم اتصالاً معهم ، أما أنا فسأعرج قليلاً على هذه الضيعة .

فتساءل يرماكوف مستغرباً :

— ولأى غرض ؟

— يصعب علىّ القول ، لكن الواقع هو أننى عملت هنا حينما كنت صبياً ، وثمة شىء يجذبنى اليها لالقاء نظرة على الربوع القديمة . . .

ونادى غريغورى بروخور ، ثم انطلق صوب ياغودنويه . وكانا قد قطعا ربع فرست حينما التفت غريغورى الى الوراء فرأى غطاء أبيض يخفق فى الريح فى مقدمة السرايا ، وكان أحد القوزاق قد حرص على جلب هذا الغطاء معه .

فحدث غريغورى نفسه قلقاً :

— يبدو وكأنهم كانوا ينوون الاستسلام ! — ، وجعل يراقب الطابور ، وفى قلبه لهفة غامضة ، وهو ينحدر داخل الوادى ، ببطء يكاد يبلغ حد التردد ، متجهاً صوب جماعة من خيالة سكريتيف كانوا يتقدمون خبباً عبر المروج لملاقاته .

وحينما عبر غريغورى خلل بوابة الفناء المهدمة ، استقبله جو من التأسى والنسيان . كان نبات رجل الاوزة يغطى الفناء . ولم يعد فى الامكان تمييز ياغودنويه . ففى كل موضع كانت عينه تقع على دلائل الاهمال والخراب الفظيعين ، وبدت الدار ، التى كانت رمزاً للاناقة ذات يوم ، قاتمة وكأنها غاصت فى أسسها . وعلى السقف غير المصبوغ فترة طويلة ظهرت رقع صفر من الصدأ ، وتدلت من رفارف السطح مزاريب محطمة ، واعوجت

درف النوافذ منحرفة عن محاورها ، وانسلت الريح تصفر خلل الشبابيك المكسرة ، بينما انبعثت من داخل الغرف تلك الرائحة الحريفة العفنة التى تفوح بها الأماكن المهجورة .

كانت زاوية الدار الشرقية ، والسقيفة معا ، قد محتهما من الوجود قذيفة مدفع ذى ثلاث بوصات . وثمة رأس شجرة غرب قصمته قذيفة عن أصله وقذفت به خلال نافذة المجاز «الفينيسية» * المهشمة . فترك هناك حيث هو ، وقد دفن طرفه الغليظ تحت كومة من الطابوق المنتزع من الأسس . وعلى امتداد أغصانه الذاوية كانت كرمة برية نشطة تتسلق وتلتف ، متخطية بشكل عجيب ، لوحات الزجاج التى لم تزل سليمة ، حتى بلغت طنف البناء .

كان الزمن والجو قد فعلا فعلهما . فقد تعفنت بنايات الفناء وبدت وكأنها لم تمسها يد بشرية منذ سنوات . وكان جدار الاسطبلات الحجرى قد انهار وفتّته أمطار الربيع . كما انتزعت عاصفة سقف منزل الحوذى ، ولم يبق هنا وهناك سوى حفنات من التبن الآخذ فى التعفن ، ملقاة على العوارض الخشبية الكالحة .

وعلى عتبة منزل الخدم اضطجعت ثلاثة كلاب بورزوية ، غدت الآن فى غاية التوحش . وحين وقع نظرها على كائنين بشريين قفزت واختفت داخل السقيفة ، مطلقة نباحاً غليظاً . فمضى غريغورى على حصانه الى النافذة المفتوحة على مصراعيها فى جناح الخدم ، ومال بجسمه من على سرجه ، وهتف :

— هل من انسان حى هنا ؟

---

* نسبة الى مدينة فينيسيا «البندقية» الايطالية . **المترجمون** .

وتبع ذلك سكون مديد ، ولكن فى النهاية رد صوت امرأة منهك :

— انتظر لحظة ، اكراماً للمسيح ! سأخرج بعد لحظة .

وخرجت الى العتبة لوكيريا التى دب فيها الكبر ، وهى تجرجر قدميها العاريتين . ووقفت تحدق فى غريغورى ، مضيقة عينيها اتقاء الشمس .

فتساءل غريغورى فيما كان يترجل عن حصانه :

— ألا تعرفيننى ، يا عمة لوكيريا ؟

وحينذاك فقط سرت اختلاجة فى وجه لوكيريا المجدور ، وزال عنه مظهر اللامبالاة ليحل محله سيماء الانفعال العنيف . وما عتمت أن انفجرت بالدموع ، ومضت فترة طويلة دون أن تستطيع أن تنبس ببنت شفة . فربط غريغورى حصانه ، ولبث ينتظر متصابراً . ثم شرعت لوكيريا تندب ، ماسحة خديها بوزرة وسخة من الخيش :

— المصائب التى عانيتها ! عسى الله ألا يريني‌ها ثانية ! حسبت فى البدء أنهم ، هم ، قد عادوا ثانية . . . آه يا غريشا ، يا للامور التى حصلت هنا . لن تصدق ! اننى الوحيدة التى بقيت حية . . .

— ولكن أين الجد ساشكا ؟ هل تراجع مع السادة ؟

— لو فعل ذلك ، لكان حياً حتى يومنا هذا . . .

— لعله لم يمت ، ها ؟

— قتلوه . انه ممدد فى القبو منذ ثلاثة أيام . . . يجب أن يدفن ، لكننى مريضة . . . كدت لا أستطيع القيام للرد عليك . . . وأنا اخاف حتى الموت من الذهاب اليه ، الى جثة . . .

فتساءل غريغورى بصوت غليظ دون أن يرفع عينيه من الأرض :

— ولماذا فعلوا ذلك به ؟

— بسبب الفرس . . . كان السادة قد غادروا الضيعة على عجل ، ولم يأخذوا معهم سوى نقودهم ، وخلّفوا وراءهم معى جميع ما يملكون تقريباً .

وانخفض صوت لوكيريا حتى غدا همساً :

— حافظت على كل شىء ، على كل شىء مهما كان صغيراً . ولا يزال مدفوناً الى يومنا هذا . ولم يأخذوا معهم من الخيل سوى ثلاثة جياد «أورلوفية» وتركوا الباقى فى عهدة الجد ساشكا . وحينما بدأت الانتفاضة ، اشترك القوزاق والحمر فى أخذ الخيل ، فالجواد الأدهم «زوبعة» — أظنك تذكره ؟ — أخذه الحمر فى الربيع . لقد عانوا مشقة فى محاولة وضع السرج عليه . فأنت تعلم بأنه لن يرضخ لأيما سرج . المهم ، أنهم لم يستطيعوا الانتفاع به . فقد وصل هنا بضعة قوزاق من كاركينسكايا بعد مضى أسبوع وأخبرونا بما حصل . فعلى التل ، التقوا بالحمر وشرعوا باطلاق النار عليهم . وكان لدى القوزاق فرس صغيرة حمقاء وفى تلك اللحظة تماماً جعلت تصهل . فانطلق «زوبعة» كالنار الهائجة صوب الفرس ، ولم يستطع الرجل الذى كان يمتطيه أن يوقفه بأية حال ، ولما رأى أنه غير قادر على ايقاف الجواد ، حاول أن يقفز عنه وهو منطلق بسرعة . فقفز بالفعل ، ولكن قدمه علقت بالركاب ، وهكذا سحبه «زوبعة» الى أن أبلغه أيدى القوزاق .

فهتف بروخور متحمساً :

— عمل بديع !

ثم استأنفت لوكيريا قصتها بلا توقف :

— ويمتطى الجواد الآن حامل علم من كاركينسكايا . وقد وعدنى بأنه حالما يعود السيد فانه سيعيد «زوبعة» الى الاسطبل . اذن ، فقد أخذوا جميع الخيل ، ولم يتركوا سوى الفرس الخبابة «سهم» . كان فى بطنها مهر ، ولهذا لم يمسسها أحد . وقد ولدت المهر مؤخراً ، فأبدى ساشكا العجوز عناية بالمهر الصغير ، وأية عناية ، انك لن تصدق ! كان يحمله بذراعيه هنا وهناك ويسقيه اللبن وبعض العقاقير النباتية بواسطة قرن بغية تقويته فى الوقوف على سيقانه . ثم نزلت المصيبة على رؤوسنا ! قبل ثلاثة أيام جاءنا ثلاثة رجال على خيولهم فى أواخر النهار . كان ساشكا يحش العشب فى البستان ، فصاحوا عليه :

— تعال هنا ، يا ابن الكذا والكيت !

فألقى بمنجله أرضاً ، ومضى اليهم وحياهم :

— طاب يومكم .

لكنهم ما كانوا ليأبهوا له ، بل جعلوا يشربون اللبن ، وسألوه :

— هل لديكم خيل ؟

فقال لهم :

— لدينا واحدة ، ولكنها لا تصلح لعملياتكم العسكرية . انها فرس ، وهى ترضع مهراً ! فصرخ أكثر الثلاثة شراسة :

— ليس هذا من شأنك ! اجلب الفرس هنا ، أيها الشيطان العجوز ! لقد تقرح ظهر فرسى ، ولا بد لى من استبدالها . كان على ساشكا أن يرضخ ، لا أن يعاند بسبب الفرس ، لكنك تعرف أى عجوز غريب كان هو . . . كان يحدث فى كثير من الأحيان أن السيد نفسه لا يقدر على ايقاف لسانه عند حده .

وأظن أنك تذكر ذلك .

فتدخل بروخور فى القصة :

— واذن ، فهو لم يسلم الفرس لهم ؟

— كيف يستطيع أن يوافق على تسليمها لهم ؟ لم يزد على أن قال لهم :

— قبل أن تأتوا ، جاءنا لا أدرى كم من الفرسان وأخذوا خيلنا ، ولكنهم جميعاً أشفقوا على هذه . اذن ، فلماذا تقومون أنتم . . .

وكان هذا ما أجج غضبهم فصرخوا به :

— انت ، يا لاعق البصاق ، أنت تحاول أن تحتفظ بها من أجل سيدك .

اه ، ثم جروه . . . وساق أحدهم الفرس الى الخارج وبدأ يسرجها ، فاندس المهر تحتها ليرضع من ضرعها . فجعل ساشكا يستعطفهم :

أبقوا فى قلوبكم رحمة ! لا تأخذوها ! ماذا سيكون مصير المهر ؟

فأجابه أحدهم :

— سأريك ذلك !

وانتزع المهر من أمه ، ثم أنزل بندقيته من على كتفه ، وأطلق النار عليه . فانفجرت دموعى . . . ركضت اليهم وتوسلت ، وأمسكت بساشكا محاولة أن أثنيه عن الدخول فى مشاكل معهم ، ولكنه حينما نظر الى المهر بدأت لحيته الصغيرة ترتعش . واستحال لونه أبيض كالحائط وقال :

— اذا كان الأمر كذلك ، فأطلق النار علىّ أيضاً ، يا ابن القحبة !

واندفع نحوهم وأمسك بهم كى لا يدعهم يسرجون الفرس . فاجتاحهم الغضب وقتلوه فى الحال . وأوشكت أنا على الجنون حينما أطلقوا النار عليه . . . والآن ، لا أستطيع أن أرى ما باستطاعتى أن أفعل به . يجب أن يعد له نعش ، ولكن هل هذا من عمل النساء ؟

فقال غريغورى :

— اجلبى لنا مجرفتين وقطعة من الخيش .

فتساءل بروخور مستفهماً :

— هل تفكر بدفنه ؟

— نعم .

— فكرة بديعة أن تأخذ هذا العمل على عاتقك ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! اسمح لى ان أذهب وأستدعى بعض القوزاق فى الحال . هم سيصنعون له نعشاً ويحفرون قبراً لائقاً . . .

وكان واضحاً أن بروخور لم يكن راغبا فى تحمل مشقة دفن عجوز مجهول ، بيد أن غريغورى رفض اقتراحه باصرار :

— سنقوم نحن بحفر القبر ودفنه . كان ساشكا انساناً طيباً . اذهب الى البستان وانتظرنى بجانب البحيرة بينما أذهب أنا لألقى نظرة عليه .

تحت شجرة الحور ذاتها ، بجذورها المنتشرة على الأرض ، الى جانب البركة المقصوصة حيث قام ساشكا ذات مرة بدفن ابنة غريغورى وأكسينيا الصغيرة ، لقى العجوز مهجعه الأخير . لفعا جسده الذاوى بغطاء نظيف كان يستعمل لتغطية الخميرة وتنبعث منه رائحة الكروم ، وأنزلاه فى القبر ، وأهالا عليه التراب حتى ملآه . والى جانب قبر الطفلة قام قبر آخر ، ديس ترابه فى عناية بجزم قوزاقية ، وهو يتألق جذلاً بطيتته المبللة الجديدة .

تمدد غريغورى على العشب ليس ببعيد عن هذه المقبرة العزيزة الى فؤاده ، وقد خدرته الذكريات ، ولبث يحدق طويلاً فى الامتداد المهيب للسماء الزرقاء من فوقه . كانت الرياح تجوب فى مكان ما فى ذرى ذلك الفضاء اللامتناهى ، والغمائم الباردة تطفو على نور الشمس الألق . أما فى الأرض ، التى ضمت اليها تواً ساشكا ، ذلك السائس السكير المرح ، فلا زالت الحياة تضطرم ، غضبى أبداً . ومن السهب الذى تزاحف ، مثل طوفان من الخضرة ، حتى حافة البستان تماماً ، وفى تشابك الكتان البرى المنعقد حول حوافى ساحة درس الحبوب العتيقة ، كان فى مستطاع غريغورى أن يستمع الى صياح طيـــور السمان ، النابض المتواصل ، وكانت السوالق ترسل صفيرها ، والنحل الزفاف يبعث طنينه ، والعشب يخشخش تحت مداعبات الريح ، والقبرات تنشد أغانيها فى غمرة نور الغروب . . . ولتأكيد مكانة الانسان فى الطبيعة ، كانت تنبعث من مكان ما من الوادى ، بعيد ، تمتمة غضبى متواصلة لمدفع رشاش .

٧

استقبل الجنرال سكريبتيف لدى وصوله فيشنسكايا ، بصحبة ضباط هيئة أركانه وسرية من القوزاق لحمايته الشخصية ، استقبالاً ترحيبياً بالخبز والملح ، ويقرع أجراس الكنيستين . وقد ظلت أجراس كلتا الكنيستين تقرع طيلة اليوم ، وكأن اليوم عيد الفصح ، وراح قوزاق من الدون الأسفل يقطعون الشوارع على خيولهم «الدونية» النحيلة وقد ضمرت أجسامها جراء المسيرات الطويلة ، وظهرت فوق أكتافهم الشارات الزرق ، فى تحد ظاهر . وفى الساحة الكائنة بالقرب من بيت التاجر الذى اتخذه الجنرال مقراً له

وقف جماعة من المراسلين يمضغون بذور عباد الشمس ويتجاذبون أطراف الحديث مع فتيات القرية اللواتى ارتدين أفضل حللهن .

وعند انتصاف النهار ، جاء ثلاثة فرسان كالميكيين الى مقر هيئة الأركان يحوالى خمسة عشر أسيراً من جنود الجيش الأحمر . وجاءت خلفهم عربة يجرها حصانان ، محملة بآلات موسيقية . كان جنود الجيش الأحمر يرتدون بزات غير مألوفة تتألف من بنطلونات رمادية فضفاضة وقمصلات ذوات شرائط حمر عند الأكمام . فمضى أحد الحرس الكالميكيين ، وكان متقدماً فى العمر ، نحو المراسلين المتجمهرين عند البوابة ، ودس غليونه الطينى فى جيبه وقال :

— لقد جاء رجالنا بعازفى الأبواق الحمر . فاهمون ؟

فرد مراسل شحيم الوجه بلهجة كسول ، باصقاً بذور عباد الشمس على جزمة الكالميكى المغبرة :

— ثم ماذا ؟

— خذهم الى الداخل . أنت تتفوه بكلام أخرق من رأسك الشحيم .

فانتهره المراسل مستاء :

— مهلاً ، مهلاً . كف عن ذلك ، يا ذيل الخروف !

لكنه مضى الى الداخل ليعلن وصول الأسرى . ثم ظهر من البوابة ضابط برتبة نقيب ، بدين ، بادى الترهل ، يرتدى «بشمتا» بنى اللون ضيقاً عند الخصر . فوقف مباعدا ما بين ساقيه ومتخذاً هيئة مسرحية ، وجال عينيه على مجموعة الجنود الحمر . ثم أرعد مزمجرا :

— اذن ، كنتم تطربون أسماع القوميسارية بالموسيقى ، أليس كذلك ، يا كشكول تامبوف ؟ ! من أين حصلتم على

بزاتكم الرمادية هذه ؟ انتزعتموها من الألمان ؟

فأجاب جندى أحمر واقف فى مقدمة جماعته ، وعيناه ترمشان بسرعة :

— لا ، أبداً .

ثم أوضح الامر متعجلاً :

جوقنا أعطى هذه البزة فى عهد كيرنسكى ، قبل هجوم حزيران . ونحن نرتديها منذ ذلك الوقت . . .

— ستظلون ترتدونها ! سأحرص على أن ترتدوها فى المستقبل !

ودفع النقيب طاقيته الكوبانية المفلطحة الى مؤخرة رأسه كاشفاً عن ندبة أرجوانية اللون ، فجة ، فى رأسه الحليق ، واستدار نحو الحارس الكالميكى :

— ولماذا جئتم بهم الى هنا ، أيها الخنازير الكفرة ؟ ! لماذا ، بحق ابليس ، لم تقضوا عليهم فى الطريق ؟

فشد الكالميكى نفسه ، على نحو لا يشعر به أحد ، وصفّ كعبيه معاً ، وأجاب ويده مسمرة على ذروة طاقيته :

— آمر السرية أوعز الينا بسوقهم الى هنا .

فعقّب الضابط المتأنق مقلداً الكالميكى ، ولاوياً شفتيه استخفافاً :

أوعز الينا بسوقهم الى هنا .

ثم خطا ، وعجزه الثقيل يهتز ، ليتفحص الأسرى . وليث يتفحصهم فترة طويلة ، كما يتفحص بائع خيل حصاناً . وأطلق المراسلون قهقهات مكتومة ، فى حين حافظت وجوه الحرس الكالميكى على جمودها المعتاد .

ثم أصدر النقيب أمره :

— افتحوا البوابات . ادفعوهم الى داخل الفناء .

فأدخل الجنود الحمر والعربة ، بكومة الآلات الموسيقية المبعثرة عليها ، ثم توقفوا عند السقيفة . وتساءل النقيب مشعلاً سيكارة لنفسه :

— من هو قائد الجوق ؟

فردت عدة أصوات معاً :

ليس لدينا قائد .

— أين هو ؟ هل هرب ؟

— كلا ، بل قتل .

— نعم المصير . ستدبرون حالكم بدونه . والآن ، استعدوا بآلاتكم .

فمضى الجنود الحمر الى العربة . وبدأت تنبعث ، فى تهيب ، أصوات الأبواق النحاسية فى أرجاء الفناء مختلطة بقرع أجراس الكنيستين المتواصل .

— مستعدون ؟ اعزفوا «حفظ الله القيصر» .

فجعل أعضاء الجوق ينظر أحدهم الى الآخر فى صمت . ولم يعزف أحد منهم . وخيم صمت ثقيل برهة ، ثم نطق أحدهم ، وكان حافى القدمين ، لكن ساقيه كانتا ملفوفتين بلفاف ، وقال وعيناه تحدقان فى الأرض :

— لا أحد بيننا يعرف السلام القيصرى القديم . . .

— لا أحد بينكم ؟ رائع جداً ، فعلاً . . . يا أنتم ، يا مراسلون ، شكلوا نصف فصيل من بينكم ، مع البنادق !

وأخذ النقيب يحسب الوقت بايقاع طرف جزمته . واصطف المراسلون فى المجاز ، مقعقعين بنادقهم . ومن داخل شجيرات الاكاسيا الكثيفة بجانب السياج ، انبعثت سقسقة سنونو . وكان الفناء مختنقاً برائحة السقوف الحديدية الساخنة والعرق البشرى

الحريف . وحينما تراجع النقيب الى ناحية الظل ، ألقى الموسيقى الحافى نظرة يائسة على رفاقه ، ثم قال بهدوء :

— يا صاحب السعادة ! نحن جميعا عازفون ناشئون . ولم يحدث أن عزفنا الموسيقى القديمة . . . كانت ، فى الأغلب ، موسيقى مسير ثورية ، يا صاحب السعادة !

فعبث اصبع النقيب بطرف سير سيفه ، ساهياً ، ولم يجب . أما نصف الفصيل فقد لبث مصطفاً خارج السقيفة ، ينتظر الأوامر . ثم شرع أحد العازفين ، وكان رجلاً كهلاً ذا عين جاحظة ، يشق طريقه الى جماعته ، وسأل وهو يتنحنح :

— هل تسمح لى ؟ أنا أستطيع عزفه .

ومن غير أن ينتظر السماح ، وضع نايه الكالح من أثر الشمس على شفتيه المرتعشتين .

وعملت النبرات النائحة النادبة التى ارتفعت ، منفردة ، فوق فناء بيت التاجر الفسيح ، على استجلاب العبوس الغاضب الى جبهة النقيب فصاح ملوحاً بذراعه ضجراً :

— اخرس ! أوقف نواح الشحاذين هذا . . . أهذا ما تسميه موسيقى ؟

وأطلت من النوافذ وجوه ضباط الأركان والمساعدين يعلوها الابتسام . وهتف ملازم ، مرحاً ، وهو يميل بجسمه على حافة الشباك :

— اجعلهم يعزفون موسيقى جنائزية مثيرة .

وفى تلك الأثناء توقف قرع نواقيس الكنيسة برهة من الزمن ، فتساءل النقيب وهو يعقد حاجبيه ، فى لهجة خطيرة :

— على أية حال ، آمل أن يكون فى مقدوركم عزف النشيد الأممى ؟ هيا ، لا تخشوا شيئا ! هيا ، لقد أصدرت أمرى اليكم !

وفى السكون الذى خيم على الفناء ، وتحت وطأة قيظ الظهيرة الخانق ، انطلقت من الأبواق فجأة نفخات النشيد الأممى المتحدية ، فى انسجام مهيب ، وكأنها نداء يدعو الى الوغى .

وليث النقيب واقفاً ، مباعداً ما بين قدميه ، ومدلياً رأسه كما يفعل الثور حين يقف بحذاء جدار . وما انفك واقفاً يتسمع ، بينما اصطبغت بالدم رقبته الغليظة وبياضا عينيه نصف المغمضتين ، المائلان الى الزرقة .

كان الأمر فوق احتماله .

فأطلق زئيراً مخبولاً :

قفوا !

فتوقف الجوق معاً ، سوى بوق فرنسى تأخر لحظة ، فبقيت نغمته العاطفية المخنوقة عالقة ، بعض الوقت ، فى الهواء الحارق .

لعق العازفون شفاههم الجافة ، ومسحوها بأكمامهم وراحاتهم الوسخة . كانت وجوههم تعبة منهكة . وكان ثمة خد مصفر بان عليه أثر دمعة .

وفى تلك الأثناء ، كان الجنرال سكريتيف قد تناول طعامه مع عائلة ضابط زميل له ممن خدموا معه فى الحرب الروسية-اليابانية ، فخرج الى الساحة مترنحاً ، يسنده مساعده الثمل . وعند الزاوية المقابلة لبناية المدرسة الثانوية ، تعثر الجنرال ، موهن القوى ، وقد استخفته الحرارة والفودكا ، ثم هوى على وجهه فوق الرمل اللاهب . فحاول المساعد ، باضطراب ، أن يرفعه ، الا أن ذلك كان بلا جدوى . وجاء العون من الجمع الذى كان يقف على مبعدة . فتقدم قوزاقيان كهلان ، ورفعا الجنرال من ذراعيه بمنتهى الاحترام ، واستؤنف سير الجنرال

ليظهر ، على الملأ ، أنه على غير ما يرام . بيد أنه حاول ، فى الفترات التى كانت تتخلل نوبات قيئه ، أن يهتف بشىء ، وجعل يهز قبضتيه متوعداً فى حركة عسكرية . وأخيراً ، أقنع ، على نحو ما ، أن يعتكف فى مقره .

أما القوزاق الذين كانوا واقفين على مبعدة ، فقد شهدوا ترنّحه فى نظرات مستطيلة ، وجعلوا يتهامسون فيما بينهم :

— هوهو ! صاحب سعادتنا منتش ! لا يستطيع السيطرة على نفسه ، رغم أنه جنرال !

— الخمور المنزلية لا تستشعر أى احترام تجاه الرتب العالية ، ها ؟

— أى نعم . لم تكن هناك حاجة لشرب كل ما يوضع على المائدة .

— ولكن ، ليس بمقدور كل رجل أن يقاوم الاغراء ، أيها الأخ . فكم من رجل سكر سكرة معيبة ثم أقسم ألا يشرب ثانية ، أبداً . كل خنزير يستطيع أن يعد بعدم الأكل حينما لا يوجد طعام أمامه .

— نعم ، هذا صحيح تقريباً . ولكن ، هلا صرخت بالفتية أن يبتعدوا عنه . ما بالهم يحدقون فيه هكذا ، يا للاوباش ، وكأنهم لم يروا سكيراً فى حياتهم من قبل .

ظلت نواقيس الكنيستين تقرع والفودكا تشرب فى فيشنسكايا حتى حلول الظلام . وفى المساء أقامت قيادة المتمردين مأدبة على شرف القادمين الجدد ، وذلك فى الدار التى خصصت لطعام الضباط .

كان سكريتيف ، ذو القامة المديدة القوية ، القوزاقى ابن القوزاقى ، ابن احدى قرى منطقة كراسنوكوتسك ، شغوفاً جداً

بركوب الخيل . كان راكباً ممتازاً ، وجنرالاً خيالاً مقداماً . لكنه لم يكن خطيباً مفوهاً قط . ولهذا كانت الخطبة التى ألقاها فى المأدبة مليئة بالتفاخر المخمور ، كما أنها تضمنت لوما وتهديداً صريحين موجهين الى قوزاق الدون الأعلى .

استمع غريغورى ، الذى كان حاضرا فى المأدبة ، الى كلمات سكريتيف فى غضب وتوتر . كان الجنرال واقفا ، وقد أسند أصابعه الى المائدة — اذ لم يكن قد صحا من سكرته تماماً — والخمرة المنزلية العطرة تترشرش من كأسه ، وهو يشدد ، بلا داع ، على كل عبارة يتفوه بها .

— . . . كلا ، ليس علينا ، نحن ، أن نشكركم على المساعدة ، ولكن عليكم أنتم أن تشكرونا . أنتم ، وأنتم فقط . ويجب أن يقال هذا بوضوح . فبدوننا ، كان الحمر سيبيدونكم . أنتم تعرفون ذلك جيداً . أما نحن ، فقد كان بمستطاعنا أن نسحق تلك الحثالة بدونكم . وها نحن الآن نقوم بسحقهم ، وسنستمر فى سحقهم — احفظوا هذا فى أذهانكم — حتى نكون قد طهرنا روسيا بأكملها . لقد تخليتم عن الجبهة فى الخريف . سمحتم للبلاشفة أن يدخلوا أرض القوزاق . أردتم أن تعيشوا معهم بسلام ، لكنكم لم تستطيعوا ! ولهذا انتفضتم ، لانقاذ أملاككم وأرواحكم . أقولها صريحة ، انكم خفتم على أنفسكم وعلى جلود مواشيكم . اننى أستعيد الماضى لا للومكم على خطاياكم . لا أقول هذا لجرح شعوركم . اذ ان اقرار الحقائق لا يؤذى . لقد غفرنا لكم خيانتكم . فقد جئناكم ، كأخوة ، فى وقت شدتكم ، جئنا لمساعدتكم . لكن ماضيكم المخجل يجب أن تكفروا عنه فى المستقبل . اتفهمون أيها السادة ؟ يجب أن تكفروا عنه بمآثركم وبخدمتكم الخالصة لنهرنا الرحيم ، الدون ، أتفهمون ؟

فقال ضابط قوزاقى كهل برتبة عقيد ، جالس قبالة غريغورى ، دون أن يوجه كلامه الى أحد على وجه الخصوص وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تلحظ :

— حسن ، لنشرب نخب التكفير !

وبدون أن ينتظر استجابة من الآخرين ، كان أول من شرب النخب . وكان ذا وجه رجولى مجدور قليلاً ، وعينين ساخرتين بلون بنى غامق . وخلال خطبة سكريتيف ، التوت شفتاه ، أكثر من مرة ، فى ابتسامة مبهمة خفية ، ثم غامت عيناه وبدتا حالكتى السواد . ولاحظ غريغورى ، بينما كان يراقب هذا الضابط ، أنه كان يتصرف مع سكريتيف بلا رسميات ، بينما كانت علاقاته مع الضباط الآخرين تتسم بالبرود والتحفظ . وكان الوحيد الذى يحمل شارات كتف خالية مخاطة على قمصلته الخاكية وشرائط كورنيلوف على كميه . فحدّث غريغورى نفسه .

«لا بد أنه رجل ذو مبادئ عليا ! ربما ، متطوع !»

وكان الضابط القوزاقى يعب الشراب كحصان . ولم يكن يأكل شيئاً ، الا أنه لم يثمل رغم ذلك ، وكل ما فى الأمر أنه كان يرخى نطاقه البريطانى العريض من حين لآخر .

فهمس غريغورى لبوكاتيريوف الذى كان جالساً الى جانبه :

— من هو هذا الذى يجلس قبالتى . . . الرجل المجدور ؟

فرد بوكاتيريوف بدون تفكير ، وكان قد قطع شوطاً بعيداً نحو السكر :

— الشيطان يدرى !

لم يكن كودينوف ليبخل بالفودكا على ضيوفه . وسرعان ما ظهرت على المائدة مشروبات روحية صرف . أما سكريتيف ، الذى واجه مشقة فى اختتام خطبته ، فقد فتح سترته الخاكية

وهوى بشدة على كرسيه ذى المسندين . فمال عليه آمر سرية شاب ، له وجه مغولى السمات . وهمس فى أذنه شيئاً .

فأجابه سكريتيف ، ولون وجهه يزرق :

— اذهب الى الشيطان . — وأطاح بكأس الشراب الذى كان كودينوف قد صبه له تكرماً .

وعاد غريغورى يسأل بوكاتيريوف :

— ومن هو هذا ، ذو العينين المائلتين ؟ مساعد ؟

فرد رفيقه ، وهو يغطى فمه براحته :

— كلا . انه ابن سكريتيف بالتبنى . جاء به صبياً من منشوريا أثناء الحرب مع اليابان . فأنشأه وأرسله الى مدرسة عسكرية من مدارس الكاديت وأبدع الصبى أيما ابداع . انه محارب جسور . أمس ، استولى على صناديق خزينة الحمر بالقرب من ماكييفسكايا . وضع يده على مليونين من الأوراق المالية . أنظر ، باستطاعتك أن ترى رزم الأوراق المالية بارزة من جميع جيوبه . الشيطان أصاب حظاً سعيداً ! خزينة بكاملها ! ولكن ، فيم تراك تجيل النظر حواليك ؟ اشرب ، اشرب !

وألقى كودينوف خطبة جوابية لم يكد ينصت اليها أحد .

كانت الحفلة قد اشتد ضجيجها شيئاً فشيئاً . وخلع سكريتيف سترته ، وجلس بقميصه الداخلى . وتألق رأسه الحليق بحبات العرق ، وكشف قميصه الكتانى الناصع عن وجهه الأرجوانى ورقبته التى لفحتها الشمس فكاد لونها يستحيل بلون الزيتون . وأسر كودينوف فى أذنه بشىء ، بيد أنه أجاب باصرار ومن غير أن ينظر اليه :

— لا ، اسمح لى ! عليك أن تسمح لى ! نحن نثق بكم ، ولكن الى حد . . . لن يكون بالمستطاع نسيان خيانتكم

بسرعة . فلينقشْ هذا فى ذاكرتهم جميع الذين تعاونوا مع الحمر فى فصل الخريف .

فحدث غريغورى نفسه فى حنق مكظوم : «حسن ، وسنكون نحن كذلك . لن نخدمكم الا الى حد . . .» . ثم قام على قدميه .

وخرج الى السقيفة دون أن يعتمر قبعته ، وملأ رئتيه بهواء الليل المنعش مستشعراً نشوة وراحة لذلك .

الى جانب الدون ، كانت الضفادع تنق ، وخنافس الماء ترسل طنيناً كئيباً ، كما هى العادة قبل هطول المطر . وعلى لسان رملى ممتد فى الماء ، كانت طيور الشنقب تنادى بعضها البعض فى حزن ، وثمة فى موضع بعيد خلل عيدان القصب النابتة على جانب النهر ، كان مهر قد تاه من أمه يصهل فى شهقات طويلة رفيعة النبرات .

مضى غريغورى نازلاً الدرجات ، وهو يتلمس طريقه صوب البوابة الصغيرة ويحدث نفسه :

— هى الحاجة المريرة التى جمعتنا معا ، والا فما كنا لنرغب حتى فى شم رائحتكم . يا للخنزير اللعين ! انه ينتفخ مثل قطعة من خبز الزنجبيل ويوجه اللوم لنا ، ولن يمضى أسبوع حتى يبدأ بالدوس على أعناقنا . . . لقد جرى ما جرى . . . كل شىء كما توقعته أنا . . . كان حتماً أن يكون كذلك . لكن القوزاق ، الآن ، سيشمخون بأنوفهم . لقد تخلصوا من عادة تأدية التحية والوقوف وقفة استعداد أمام أصحاب السعادة أولاء .

كانت الكحول قد فعلت فعلها به هو الآخر ، فأمسى رأسه يسبح ، واتسمت حركاته بالثقل والتردد . وبينما كان يجتاز البوابة الصغيرة أصابه ترنح ، فخبط قبعته على رأسه ،

ثم مضى حدر الشارع مجرجراً قدميه .

وحينما بلغ الدار الصغيرة العائدة لخالة أكسينيا ، توقف لحظة متردداً ، ثم خطا ، فى ثبات وعزمة نحو الباب . كان الباب الداخلى المؤدى الى السقيفة غير مزلج . فمضى داخلاً الى غرفة ضيوف دون أن يطرق الباب ، فاذا به وجهاً لوجه مع ستيبان أستاخوف جالساً الى المائدة . وكانت خالة اكسينيا مشغولة عند الموقد ، والمائدة مغطاة بغطاء نظيف ، وعليها قنينة من الفودكا المنزلية ما زالت فيها بقية ، وصحن احتوى على بضع قطع من سمك مجفف وردى اللون .

كان ستيبان قد أفرغ قدحه تواً ، وهم أن يأكل شيئا ، لكنه حينما رأى غريغورى ، نحى صحنه جانباً ومال الى الخلف على الحائط . وعلى الرغم من حالة غريغورى المخمورة ، فانه لاحظ وجه ستيبان يستحيل شاحباً شحوب الموتى ورأى عينيه تتقدان شرراً كعينى ذئب . لكن غريغورى ، رغم انعقاد لسانه لهذا اللقاء المفاجئ ، استطاع أن يجد فى نفسه القوة لأن يقول بصوت أجش :

— هنيئاً مريئاً !

فأجابت ربة الدار مذهولة :

— سبحانك يا رب ! — وهى مدركة ، من غير ما ريب ، علاقة غريغورى بابنة أختها ، ومتوجسة شراً من هذا اللقاء الطارئ بين الزوج والعشيق .

جعل ستيبان يمسد عذاريه بيده اليسرى ، صامتاً ، وعيناه اللاهبتان مسمرتان على غريغورى .

الا أن غريغورى ، الذى كان لا يزال واقفاً عند العتبة مباعداً ما بين قدميه ، تبسم ابتسامة شوهاء وقال :

— حسن ، أردت أن أراكم . . . أعذرونى .

لم يجب ستيبان . واستمر الصمت المتوتر الى أن استجمعت ربة الدار شجاعتها لتدعو غريغورى الى الدخول قائلة :

— أدخل واجلس ! . .

لم يعد لدى غريغورى ما يخفيه ، بعد . لقد أبان مجيئه الى بيت أكسينيا ما فيه الكفاية لستيبان . فمضى قدماً نحو النقطة الحاسمة :

— ولكن ، أين هى زوجتك ؟

فتساءل ستيبان بصوت خفيض ، انما واضح :

— أنت . . . جئت لتراها ؟ وأسبل أهدابه المرتعشة فوق عينيه .

فأجاب غريغورى مقراً ، وهو يطلق نهدة :

— نعم ، هذا صحيح !

كان مستعداً لأيما شىء فى تلك اللحظة ، واذ بدأ يستعيد صحوه أعد نفسه للدفاع . بيد أن ستيبان فتح عينيه نصف فتحة فاذا بلهيبهما السابق قد ذوى ، وقال :

— أرسلتها فى طلب شىء من الفودكا . ستعود بعد قليل . اجلس وانتظرها .

حتى أنه قام ، بقامته الطويلة المتناسقة ، ودفع كرسياً باتجاه غريغورى . ومن غير أن ينظر الى ربة المنزل ، قال لها :

— خالتى ، اجلبى لنا قدحاً نظيفاً ! وتوجه بالكلام الى غريغورى : — ستشرب قدحاً معى ، أليس كذلك ؟

— قدحاً واحداً فقط !

— حسن ، اجلس !

فجلس غريغورى الى المائدة . وصب ستيبان بقية الفودكا

نصفين متساويين فى القدحين ، ثم رفع عينيه المضببتين على نحو غريب الى غريغورى :

— نخب الجميع !

— وصحتهم !

وقرعا قدحيهما معاً . وشربا . ولم ينبسا بشيء . وناولت ربة البيت ، النشطة كالفأر ، الضيف صحناً وشوكة ذات مقبض متآكل ، قائلة :

— كل شيئاً من السمك . انه ليس شديد الملوحة .

— شكراً .

واستحثته المرأة ، وكان السرور قد ملأها آنئذ :

— هيا . ضع شيئا منه فى الصحن واستمتع به .

وكانت فرحة الى اقصى حد ، لأن الأمور سارت على ما يرام دون عراك أو تحطيم للاوانى الفخارية ، أو صراخ . كما أن تبادل العبارات المنذرة بالويل كان قد توقف . وها هو الزوج يجلس فى صفاء الى مائدة واحدة مع عشيق زوجته ، وهما الآن يتناولان الطعام فى هدوء ، دون أن ينظر أحدهما الى الآخر . وأخرجت ربة البيت الحصيفة من الصندوق منشفة نظيفة ووضعت طرفيها على ركبهما ، جامعة بينهما بشكل ما .

ثم تساءل غريغورى ، وعيناه تتأملان السمكة :

— لماذا لست مع سريتك ؟

فرد ستيبان بعد فترة وجيزة :

— جئت زائراً أيضاً .

وكان من المستحيل تماما أن يستشف المرء من لهجته ما اذا كان جاداً أم ساخراً .

— يخيل اليّ أن السرية بكاملها عادت الى القرية .

— انهم يمتعون أنفسهم فى القرية . حسن ، هل سنفرغ قدحينا ؟

— لا بأس .

— نخب صحتك !

— بكل خير !

ومن السقيفة انبعثت قعقعة سقاطة الباب . استرق غريغورى ، وقد صحا الآن تماماً ، نظرة الى ستيبان من تحت حاجبيه فلاحظ موجة من الاصفرار تكتسح وجهه .

دخلت أكسينيا ، ملفعة الرأس بعصابة مطرزة . ومن غير أن تلحظ غريغورى ، تقدمت من الطاولة ثم نظرت اليه من طرف عينها . فانبجس الرعب فى عينيها السوداوين المائلتين ، وتلاحقت أنفاسها ، ثم جاهدت حتى استطاعت أن تقول :

— مرحباً ، غريغورى بانتلايفتش !

وبدأت يدا ستيبان الكبيرتان المعقدتان ترتعشان حيث هما على المائدة . فانحنى غريغورى لاكسينيا دون أن ينبس بكلمة .

وضعت قنينتين من الفودكا المنزلية على المائدة ، وعادت فألقت نظرة أخرى على غريغورى مشحونة بالقلق والفرح المكتوم ، ثم استدارت وانزوت فى ركن الغرفة المظلم واقتعدت الصندوق ، وجعلت تسوى شعرها بيدين راعشتين . أما ستيبان ، الذى كان يستعيد سيطرته على انفعاله ، فقد فتح زر ياقة قميصه التى بدت وكأنها تخنقه ، وملأ القدحين حتى حافتيهما ، والتفت الى زوجته قائلاً :

— خذى قدحاً واجلسى الى المائدة .

— لا أريد .

— تعالى واجلسى هنا !

— لكننى لا أشرب الفودكا ، يا ستيبان .

فقال ستيبان راعش الصوت :

— كم مرة يجب عليّ أن أعيد كلامى لك ؟

وهنا ابتسم غريغورى مشجعاً ، وقال :

— اجلسى يا جارتنا .

فأرسلت اليه نظرة متوسلة ومرقت الى الدولاب . وأسقطت صحناً من على الرف فتحطم على الأرضية .

فضربت ربة البيت يداً بيد متأسية ، وقالت :

— آه ، خسارة .

وانحنت أكسينيا تلم شظايا الصحن المهشم وهى صامتة . ملأ ستيبان قدحها حتى الحافة ، وعادت عيناه من جديد تقدحان شوقاً وكراهية . وشرع يقول :

— حسن . . . فلنشرب . . . ثم سكت .

وخلل السكون المخيم ، كانت أنفاس أكسينيا المضطربة المتشنجة تُسمع بوضوح وهى تهم بالجلوس الى المائدة .

— سنشرب ، يا زوجتى ، نخب فراق طويل . ألا ترغبين ؟ ألا تشربين ؟

— لكنك تعرف . . .

— أنا أعرف كل شىء الآن . . . حسن اذن ، لن نشرب نخب أى فراق . لنشرب نخب صحة ضيفنا العزيز غريغورى بانتلاييفتش .

فقالت أكسينيا فى صوت رنان : «أجل ، سأشرب نخب صحته !» — وكرعت قدحها جرعة واحدة .

فتمتمت ربة الدار وهى تهرع الى داخل المطبخ : «رعناء مغلوبة !» — وتكومت فى زاوية منه وشدت يديها الى صدرها

متوقعة أن تُقذف المائدة فتتحطم ، أو أن تلعلع طلقة فتصم الآذان . . . لكن غرفة الضيوف ظلت ساكنة سكون المقابر . وكان الصوت الوحيد المسموع هو صوت الذباب يطن تحت السقف وقد أزعجه الضياء ، بينما كانت الديوك ، خارج النافذة ، تتبادل الصياح عبر القرية ، مرحبة بمقدم منتصف الليل .

٨

حالكة ليالى حزيران على الدون . وخلل السكون الثقيل ، يرسل البرق الصيفى الذهبى وميضه فوق السماء السوداء كالاردواز* ، وتتهاوى النجوم فتنعكس صورتها على صفحة النهر المسرع . ومن السهب تحمل ريح جافة الى البيوت العطر المعسل للزعتر المزهر . فوق الشاطئ الخفيض ، تنبعث رائحة رقيقة من العشب الندى ، ومن الطين المترسب ، ومن الرطوبة الباردة . وتظل طيور الصفرد تزعق بلا توقف ، وتتلفع غابة الشطئان بديباج فضى من الضباب ، كما فى قصص الجن .

استيقظ بروخور من نومه عند منتصف الليل . فسأل رب الدار التى اتخذوها مقراً لهم .

— ألم يعد رجلنا بعد ؟

— لا . انه يمتع نفسه مع الجنرالات .

فأطلق بروخور تنهيدة وقال وفى قلبه شىء من الحسد : «أحسب أنهم يقضون وقتا هانئاً مع الفودكا» ثم بدأ يرتدى ملابسه وهو يتثاءب .

— أين ذاهب ؟

---

* الاردواز : حجر أسود اللون . **المترجمون** .

— ذاهب لأورد الحصانين وأطعمهما شيئاً من القمح .
قال بانتلاييفتش اننا سننطلق الى تتارسكى مع شروق الشمس . سنقضى النهار هناك ، ثم سيتعين علينا الالتحاق بوحداتنا .

— ما زال أمامك وقت طويل حتى شروق الشمس . لم لا تنام بعض الوقت ؟

فأجاب بروخور فى نبرة متضايقة :

— ان أى امرئ له نصف عين يستطيع أن يرى بأنك لم تمكث يوماً فى الجيش ، أيها العجوز ، أيام شبابك ! ففى الخدمة الفعلية ، ان لم نطعم خيلنا ونعتن بها ، فقد لا نبقى على قيد الحياة . انك لن تقدر أن تنطلق على دابة نحيلة جائعة ، ها ؟ فكلما كان الحيوان الذى تمتطيه أحسن حالاً كانت فرص نجاتك من العدو أكبر ! فأنا لا أخوض الميدان لاقتناصهم . لكننا اذا وجدنا أنفسنا محاصرين فى زاوية ضيقة ، كنت أنا أول من يلوذ بالفرار ! هذا أنا ! لقد عرّضت وجهى للرصاص عدداً من السنين حتى أصابنى الملل منه ! أضىء الغرفة ، ايها الجد ، والا فلن أعثر على لفافات ساقى مطلقاً ! شكراً ! أى نعم ، أما صاحبنا غريغورى بانتلاييفتش ، فقد استحق بجدارة كل الأوسمة والرتب ، وألقى بنفسه فى الجحيم ، رأسه قبل جسمه . لكننى لست على هذه الشاكلة من الحماقة ، فلا حاجة لى بها . ها ، ها هو قد وصل . وأحسب أنه قد شرب حتى سكر .

وانبعثت طرقة خفيفة من على الباب . فصاح بروخور :

— أدخل .

فدخل قوزاقى يحمل شرائط ضابط صف على كتف قمصلته الخاكية ويعتمر قبعة مدببة ذات شريط . أدى تحية واتخذ

وقفة استعداد عند الباب ، وقال :

— أنا مراسل من هيئة أركان الجنرال سكريتيف . هل أستطيع أن أقابل صاحب السعادة السيد ميليخوف ؟

فرد بروخور ، وقد أذهله منظر وسلوك المراسل المدرب تدريباً حسناً :

— انه غير موجود . ولكن ، لا تتنصب بهذا الشكل ! فى شبابى ، كنت أحمق مثلك . اننى مراسله . لماذا تطلبه ؟

— أمرنى الجنرال سكريتيف بمقابلة السيد ميليخوف . يرجى منه الحضور حالاً الى دار مطعم الضباط .

— ذهب الى هناك منذ العصر .

— كان هناك فعلاً ، بيد أنه غادر المكان عائدا الى مقره .

فأطلق بروخور صفيراً من فمه ، وغمز بعينه لصاحب الدار الجالس على السرير .

— أفهمت هذا ، أيها الجد ؟ انسل ، أى أنه ذهب الى حبيبته . . . حسن ، أيها الجندى تستطيع أن تذهب . سأجده وأرسله الى هناك حالاً .

وبعد أن طلب بروخور من العجوز أن يورد الحصانين ويطعمهما قمحاً ، انطلق نحو خالة أكسينيا .

كانت فيشينسكايا نائمة وسط ظلام منيع . وعلى الجانب الآخر من الدون ، كانت طيور العندليب تتبارى فى الصفير فيما بينها داخل الغابة . يمم بروخور صوب الدار الصغيرة التى يعرفها جيداً ، فدخل المجاز ، ولم يكد يضع يده على سقاطة الباب حتى تناهى الى سمعه صوت ستيبان العميق . فحدث بروخور نفسه :

— ها أنا أوقعت نفسى الآن فى ورطة ! سيسألنى عما

أريد . ولن يكون لدىّ جواب . ايه ، لا مفر . سأقول خرجت لابتياع الفودكا ، الجيران دلونى على بيته .

ثم استجمع قوته ودلف الى غرفة الضيوف . وصعقته المفاجأة ، فوقف عند الباب فاغراً فمه لا ينبس ببنت شفة : كان غريغورى جالساً الى طاولة واحدة مع أستاخوف — كأن لم يكن بينهما خصام أبداً — وهما يرتشفان من قدحيهما فودكا منزلية ، لونها مشوب بالخضرة .

نظر ستيبان الى بروخور ، وعلى وجهه ابتسامة مفتعلة ، وقال :

— فيم وقوفك هناك فاغر الفم ، ومن غير أن تقول «مساء الخير» ؟ هل صادفت غولاً ؟

فأجاب بروخور ، وهو لا يزال مصعوقاً ولا ينفك يتنقل من قدم الى أخرى :

— شيئاً من هذا القبيل !

فدعاه ستيبان قائلاً :

— حسن ، لا تخف . أدخل واجلس .

— لن يتسع الوقت لجلوسى . جئت فى طلبك ، يا غريغورى بانتلاييفتش . أنت مكلف بالذهاب الى الجنرال سكريتيف حالاً .

وكان غريغورى ، حتى قبل وصول بروخور ، قد همّ بالرحيل عدة مرات . فكان ينحى قدحه جانباً وينهض ، ثم ما يلبث أن يجلس ثانية مخافة أن يعتبر ستيبان رحيله مظهراً من مظاهر الجبن فلم يكن كبرياؤه ليدعه يهجر أكسينيا ، ويخلى مكانه لستيبان . فاستمر يشرب ، غير أن الفودكا فقدت أثرها فيه . وحين أدرك ، فى كامل صحوه ، موقفه الحرج ، لبث جالساً

ينتظر الفرج . وقد مرت لحظة شعر خلالها بأن ستيبان سيلطم أكسينيا حينما شربت نخب صحته هو ، صحة غريغورى . الاّ أن هاجسه كان خاطئاً . اذ ان ستيبان رفع راحته المتقرنة ، ومسح جبهته الملفوحة ، وبعد برهة وجيزة ألقى نظرة اعجاب على أكسينيا وقال :

— انك فتاة رائعة يازوجتى ! أنا أحبك لجرأتك !

ثم كان دخول بروخور . وبعد لحظة أمعن غريغورى خلالها فكره ، قرر ألا يذهب ، ظاناً بأنه سيعطى ستيبان الفرصة ليبوح بما فى رأسه . فالتفت الى بروخور وقال :

— اذهب وأخبرهم بأنك لم تستطع أن تجدنى . فاهم ؟

— فاهم تماماً . ولكن الأفضل أن تذهب يا غريغورى بانتلاييفتش .

— هذا ليس من اختصاصك . هيا ، أغرب عنى !

فاتجه بروخور ناحية الباب . لكن أكسينيا تدخلت فى تلك اللحظة على حين غرة . وقالت ، فى جفاف ، دون أن تنظر الى غريغورى :

— ولكن ما معنى هذا ؟ من الأفضل أن تذهب معه ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! شكراً لزيارتك وقضائك بعضاً من وقتك معنا . . . لكن الوقت متأخر الآن ، وقد أطلق الديك الثانى صيحته ، وسرعان ما يطل الفجر ، كما أن علينا ، أنا وستيبان ، أن نرحل الى القرية مع شروق الشمس . . . أضف الى ذلك ، أنك شربت ما فيه الكفاية ! لا تشرب أكثر !

لم يحاول ستيبان ، من جانبه ، أن يستبقيه ، فنهض غريغورى . وبينما كانا يتصافحان ، أبقى ستيبان يد غريغورى فى يده الخشنة الباردة ، كما لو أنه أراد ، أخيراً ، أن يقول

شيئاً ما لكنه ، وحتى فى تلك اللحظة ، لم ينطق بشىء ، بل لبث ينظر الى غريغورى حتى بلغ الباب . ثم مد يده ، على مهل ، الى القنينة التى لم تفرغ بعد .

وفى اللحظة التى وجد غريغورى فيها نفسه فى الشارع ، أحس بكلال فظيع يستحوذ عليه . فسار ، محركاً ساقيه بصعوبة ، حتى بلغ أول تقاطع طرق ، ثم طلب من بروخور الذى كان يسير وراءه مباشرة :

— اذهب واسرج الحصانين واجلبهما الى هنا . لن أذهب ماشياً . . .

— أتريدنى أن أذهب وأخبرهم بأنك فى طريقك اليهم ؟

— كلا .

— حسن ، انتظر لحظة . سأعود اليك بعد قليل .

وفى هذه المرة انطلق بروخور ، المتمهل فى عادته ، يركض هذبا نحو مقرهما .

جلس غريغورى الى جانب السياج وأشعل سيكارة . وبينما كان يستعيد فى ذهنه لقاءه بستيبان ، قال فى سره فى لامبالاة :

— حسن ، فهو يعلم الآن ، فليكن ، ما دام لا يضرب أكسينيا .

ثم ما عتم أن دفعه الى الاضطجاع كلاله والانفعال العاطفى الذى كان قد تعرض له . وأخذته سنة من النوم . ثم ما لبث بروخور أن وصل .

عبرا الى الجانب الآخر من الدون على عبّارة ، ثم انطلقا على حصانيهما خبباً .

بلغا تتارسكى مع الفجر . وحين بلغا بوابة فناء آل ميليخوف ، ترجل غريغورى عن حصانه وألقى بالعنان الى بروخور ، وأسرع ،

منفعلاً ، صوب الدار .

وصادف أن كانت ناتاليا قد خرجت ، غير مكتملة اللبس ، الى السقيفة لحاجة ما ، وحين وقعت عيناها الناعستان على غريغورى ، اتقدتا بضياء باهر دافق بالفرحة ، حتى أن ضربات قلبه تسارعت ، واخضلت عيناه ، لحظة وعلى غير ما توقع . احتضنت ناتاليا حبيبها فى صمت ، ضاغطة كل جسمها على جسمه ، وأدرك غريغورى من ارتجاف كتفها أنها كانت تبكى .

ثم دخل الى الدار ، وقبّل العجوزين وطفليه النائمين فى غرفة الضيوف ، ثم وقف فى وسط المطبخ وتساءل ، وأنفاسه تتلاحق بانفعال :

— حسن ، كيف حالكم بعد هذه الشدة ؟ الجميع على ما يرام ؟

فأجابت ايلينشنا متعجلة : «الحمد لله ، يا ولدى ، رأينا الكثير من الرعب ، و لكن ليس بالشكل الذى لا يحتمل» . وحين ألقت نظرة من طرف عينها على ناتاليا الباكية ، صرخت بها فى غلظة : «يجب أن تكونى سعيدة ، بينما أنت تبكين يا حمقاء ! هيا ، لا تقفى هكذا بلا نفع ! امضى واجلبى حطباً ، واشعلى الموقد !»

وبينما كانت هى وناتاليا تعدان الفطور على عجل ، جاء بانتلاى بروكوفتش بمنشفة نظيفة ، واقترح عليه قائلاً :

— استحم . أنا سأصب الماء عليك . الفودكا تفوح منك . لا بد انكم شربتم لأمر ما يوم أمس ؟

— فعلاً . ولكن غير واضح ، حتى هذه اللحظة ، ما اذا كان لفرح أو لغم .

فاستبد الاستغراب بالعجوز أيما استبداد ، وتساءل :

— ما معنى هذا ؟

— ماذا ، ان سكريتيف حانق علينا .

— أوه ، ليس هذا مصيبة . معقول أنه لم يشرب معكم ؟

— بلى ، شاركنا .

— شارككم الشرب فعلاً ؟ ! أليس هذا شرفاً لكم ، يا غريشا ! تجلس الى المائدة نفسها مع جنرال حقيقى ! حسبى أن أتصور المنظر !

وطق بانتلاى لسانه مبتهجاً ، وهو ينظر الى ولده فى حنان . فابتسم غريغورى . ولم يكن يشارك اباه شعوره الساذج بالاعتزاز . وفيما راح غريغورى يسأل العجوز باهتمام عن القطيع والاملاك وعن كمية الحبوب التى أصابها التلف ، لاحظ أن أباه لم يكن مهتماً ، كالسابق ، فى الحديث عن الحقل . اذ كان ثمة شىء آخر أهم يثقل صدر العجوز ، شىء ما يخنقه . ولم يلبث بانتلاى أن افصح عن مخاوفه :

— ما الذى سيحدث الآن ، يا غريغورى ؟ معقول اننا سنخدم فى الجيش من جديد ؟

— ولم ؟

— الشيوخ ، أعنى . أنا مثلاً .

— لا أحد يدرى بعد .

— اذن ، يجب الذهاب مرة أخرى ؟

— يمكنك أن تبقى .

فهتف بانتلاى مغتبطاً :

— حقاً ؟ — وجعل يدور فى المطبخ ، على ساقه العرجاء لشدة فرحه .

فزعقت ايلينشنا فى حزم :

— اجلس ، أيها الشيطان الأعرج ! لا تنشر طين جزمتك فى أرجاء البيت كله . انك تتراكض هنا وهناك من شدة فرحك مثل كلب مسعور .

بيد أن العجوز لم يأبه لزعيقها . بل مضى يقزل ، ذهاباً ومجيئاً ، بين المائدة والموقد ، مبتسماً وفاركاً يداً بيد . ثم ساورته الشكوك :

— ولكن ، هل تستطيع أن تعفينى ؟

— طبعاً ، أستطيع .

— تكتب لى أمرا بذلك ؟

— طبعا .

فجعل العجوز يتأتى رغم ارادته ، حتى استطاع أخيراً أن يخرج هذه الكلمات :

— وأى أمر سيكون ؟ . . بدون ختم ؟ أم تراك تحمل ختماً معك ؟

فقال غريغورى مبتسماً :

— سيكون وافياً بالغرض ، على نحو جيد ، بدون ختم .

فانتعش العجوز ثانية :

— حسن ، اذن ، فلا معنى للتحدث عنه . ليمنحك الرب الصحة والعافية ! ومتى تتصور أنك سترحل ثانية ؟

— غداً .

— وهل سبقتك وحدتك ؟

— نعم . ولكن لا تقلق حول مصيرك ، يا أبـي . فعلى أية حال ، سوف يسمح لجميع الشيوخ ممن هم على شاكلتك بالعودة الى أهليهم عما قريب . لقد خدمتم بما يناسب عمركم .

— عسى أن يستجيب الرب !

ورسم بانتلاى بروكوفتش اشارة الصليب على نفسه . كان جليا أنه قد اطمأن تماماً .

استيقظ الطفلان ، فأخذهما غريغورى فى ذراعيه واجلسهما على ركبتيه ومضى يقبلهما ، بالتناوب ، وعلى شفتيه ابتسام ، وظل يستمع طويلاً الى لغوهما المرح .

ما أزكى رائحة شعر هذين الطفلين ! . . لقد ضمخته بعطرها الشمس ، والأعشاب ، والوسائد الدافئة ، وشىء آخر قريب الى قلبه ومحبب اليه الى ما لا يحد . وهما ، لحمه ودمه ، كانا أشبه بطيور السهب الصغيرة . آه ، لكم بدت يداه السوداوان الجسيمتان سمجتين حينما كانتا تضمان الطفلين ! وكم بدا هو غريباً عن هذا المشهد الوادع . . . هو ، هذا الفارس الذى ترجل عن حصانه يوماً واحداً فقط ، والذى تشرب جسمه برائحة عرق الجند والخيل اللاذعة ، بزناخة رحى المعارك والعدة الجلدية !

تضببت عينا غريغورى بالدموع ، وارتعشت شفتاه من تحت عذاريه . ولم يستطع أن يرد على أسئلة أبيه ، فى مرات ثلاث ، ولم يقم الى المائدة الا حينما مسته ناتاليا من كم قمصلته .

حقاً ، لم يعد غريغورى ذلك الرجل الذى كانه من قبل ! لم يكن فيما مضى من حياته مرهف الحس على نحو شديد ، ولا بكى الا نادراً ، حتى فى طفولته . أما الآن ، فهذه الدموع ، وهذه الضربات المتسارعة المكتومة التى تضج فى قلبه ، وكأنها جرس صغير يدق بلا صوت فى بلعومه . . . ومهما يكن ، فقد يكون مرد هذا كله الى الكمية الكبيرة من الشراب التى تناولها فى الليلة السابقة والى أنه لم يذق النوم خلالها .

عادت داريا بعد أن ساقت البقرات الى المرعى . فرفعت

شفتيها المبتسمتين الى غريغورى ، فمسد ، مداعبا ، عذاريه ، وحين أدنى وجهه من وجهها ، أغمضت عينيها . فلاحظ ارتعاش أهدابها ، وكأنها تخفق فى الريح ، وتشمم ، لحظة ، الرائحة العفنة للقشدة منبعثة من وجنتيها اللتين لا تعرفان الذبول .

اذن ، فها هى ذى داريا ، لم تتغير قط . وما من حزن فى الأرض بقادر على ما يبدو على كسر شوكتها ، بل تحطيمها . كانت تعيش فى الدنيا كعود من الصفصاف الأرجوانى . مرن ، جميل ، دانى القطوف .

وسألها غريغورى :

— أما تتفتحين ؟

فأجابته داريا ، وعلى شفتيها ابتسامة آسرة ، وهى تغمض عينيها المتلامعتين نصف اغماضة :

— كزهرة السيكران البرية . — وفى الحال مضت الى المرآة لتسوى شعرها الذى انفلت من عصابة رأسها ، وتزين نفسها .

لكن داريا لم تكن الا كذلك طيلة حياتها ، ذلك أمر ثابت لا زحزحة فيه .

كأن موت بيوتر لم ينل منها الا قليل ، وحين أفاقت من ذلك حتى تعطشت الى الحياة أكثر ، وغدت أكثر اهتماماً بمظهرها .

أيقظوا دونيا التى كانت تنام فى مخزن الغلال . وبعد أن رسموا اشارات الصليب على أنفسهم ، جلست العائلة بكاملها الى المائدة . وقالت دونيا بتحنان :

— أوه ، يا أخى ، كم شخت ! لقد شاب رأسك حتى صرت بلون الذئب .

فأرسل غريغورى نحوها عبر المائدة نظرة صامتة لا ابتسام فيها ، ثم قال :

— هذا ما يفترض فيّ . اشيخ ، وأنت تدخلين مرحلة الشباب ، لتبحثي عن زوج . . . لكنني أقول لك : عليك ، من اليوم فصاعداً ، أن تنسى كل ما يتعلق بميشا كوشيفوى ، حتى مجرد التفكير به . فاذا سمعت ، اعتباراً من اليوم بأنك تحنين اليه ، فلسوف أطأ برجلي احدى قدميك وأمسك الاخرى بيدى ، وأشقك نصفين كضفدعة صغيرة . فاهمة ؟

فالتهبت وجنتا دونيا ، حتى غدتا كالجزر لوناً ، وجعلت تحدق فى غريغورى خلل دموعها .

ولم يحوّل عينيه الغاضبتين عن وجهها . ومن خلال ملامحه الفظة ، وفى أسنانه البادية من تحت شاربه ، وفى عينيـــــه المضيقتين ، برزت السمات الميليخوفية الحيوانية الموروثة .

بيد أن دونيا كانت من السلالة نفسها . فما ان استعادت رباطة جأشها مما أصابها من حرج وخزى ، حتى قالت فى هدوء ، وفى تصميم أيضاً :

— ألا تدرى ، يا أخى ، أنك لا تستطيع أن تأمر القلب ؟

فرد عليها غريغورى فى نصح بارد :

— القلب الذى لا ينصاع لك يجب أن يمزق .

فحدثت ايلينشنا نفسها : — ليس لمثلك أن يقول هذا ، يا بنى .

الا أن بانتلاى بروكوفتش انضم الى الحوار فى تلك اللحظة . فهوى بقبضته على المائدة ، وزأر بصوته :

— اعقلى لسانك ، يا ابنة الكلبة ! والا جلدتك بحيث لا تبقى شعرة برأسك ! يا سفيهة ، سأشدك بعنان حالاً . . .

لكن داريا تدخلت ، وعلى محياها نظرة أنيسة :

— لكننا يا أبى لم نعد نملك أى زوج من الأعنة ،

أخذوها جميعها .

فاطلق بانتلاى بروكوفتش نظرة حانقة صوبها ، ثم استمر منفّساً عما فى صدره ، دون أن يخفض صوته .

— سآتى بحزام سرج ، وسوف أطرد به كل الابالسة التى حلت بك . . .

وتدخلت داريا من جديد ، وبصوت أعلى ، ولكن دون أن تحيد عينيها ، بنظرتهما البريئة ، عن حميها :

— الحمر استولوا على أحزمة السروج ، أيضاً .

بيد أن ذلك كان أكثر من أن يتحمله بانتلاى بروكوفتش ، فحملق فى كنته لحظة ، وقد ازرق وجهه بغيظ صامت ، وانفغر فمه دون أن ينبس بشىء (وبدا فى هذه اللحظة أشبه بسمكة كراكى سحبت من الماء) ، ثم زعق فى صوت أجش :

— اخرسى ، عليك اللعنة ! عسى أن يأخذ روحك مائة شيطان ! لن يدعونى أقول كلمة . ماذا تسمى هذا ؟ لكن اسمعى ، يا دونيا . لن يحدث قط . اننى أكلمك بصفتى والدك . وغريغورى كان على حق اذا بقيت تفكرين فى مثل ذلك السافل ، فسيكون القتل أيسر ما يصيبك . نِعْمَ الخطيب خطيبك ! لقد حلت فى نفسها روح مجرم يستحق الشنق ! أتسمين هذا رجلاً ؟ أو تظنين أننى أقبل بمثل هذا اليهوذا نسيباً لى ؟ آه ، لو وقع فى يدى يوماً ، لاجهزت عليه بنفسى . ولو رددت علىّ بكلمة ، فلسوف آتى بعود صفصاف ولسوف ألقنك . . .

فقالت ايلينشنا متنهدة :

— ايه ، تستطيع أن تبحث فى كل أرجاء الفناء ، وبيدك مشعل وفى ضوء النهار ، لن تعثر على عود صفصاف . وتستطيع

أن تنقب فى كل زاوية من الفناء ، ولن تجد حتى حطبة واحدة لايقاد النار . هذا ما آلت اليه حالنا !

لكن بانتلاى بروكوفتش استشعر قصداً سيئاً حتى فى هذه الاشارة العفوية . فسمر عينيه على العجوز ، وما لبث أن قفز ، كالمجنون ، وهرع الى الفناء .

فالقى غريغورى ملعقته وغطى وجهه بمنشفته ، وجعل يختض ضحكاً . كان غضبه قد انحسر ، فمضى يضحك كما كان يفعل فى الايام الخوالى . واشترك الجميع فى الضحك الا دونيا . ومن ثم سادت على المائدة روح أكثر مرحاً . ولكن ما ان سمعت خطوات بانتلاى بروكوفتش تضرب على درجات السقيفة ، حتى كسا الجد وجوه الجميع . واندفع العجوز داخلاً كالعاصفة المدمرة جاراً وراءه غصناً طويلاً جداً من أغصان شجرة حور رومى .

— ها هى ذى ! انها كافية لزمرتكن جميعاً ، يا ذوات الالسن الطويلة اللعينات ! يا ثعلبات طويلات الاذيل ! ليست هناك أية عيدان ؟ اذن فما هذه ؟ وأنت الأخرى ستذوقين طعمها أيضاً ، أيتها الشيطانة الحيزبون ! ستذوقين طعمها . . .

كان الغصن أكبر من أن يستطيع ادخاله الى المطبخ ، وبعد أن قلب به وعاء ، قذفه فى المجاز بعنف ، ثم جلس الى المائدة مبهور الأنفاس .

كان الانزعاج الشديد جلياً عليه . فطفق يأكل دونما كلمة ، وأنفاسه متحشرجة . وخلد الآخرون الى الصمت أيضاً ، ولم ترفع داريا عينيها عن المائدة مخافة أن تنفجر بالضحك . أما ايلينشنا فجعلت تطلق الحسرات وتهمس فى صوت لا يكاد يسمع :

— يا رب ، يا رب ! ثقيلة وفظيعة هى خطايانا !

ولم تكن سوى دونيا محجمة عن الابتسام ، وناتاليا ، التى كانت قد رسمت على وجهها ابتسامة غريبة مفتعلة أثناء وجود العجوز فى الخارج ، عادت فامست شاردة اللب حزينة .

وكان بانتلاى بروكوفتش يجأر بين الحين والحين متوعداً :

— هات الملح ! هات الخبز ! — وهو يجيل عينيه اللاهبتين فى عائلته .

وانتهى الخصام العائلى على نحو عجيب تماماً . ففى غمرة الصمت المطبق ، تسبب ميشاتكا فى خلق اساءة جديدة الى جده . كان غالباً ما يسمع جدته تكيل لجده شتى أصناف السباب حينما يتعاركان ، والآن ، واذ أزعجت فؤاده الطفولى تهديدات جده بجلد جميع من فى الدار وصراخه الذى ملأ البيت ، فانه قال على حين غرة وفى صوت مرنان ، بينما كان منخراه يرتعشان :

— تباً لتصرفك هذا ، أيها الشيطان الأعرج ! انك بحاجة الى عصا تنزل على رأسك ، لكى تتوقف عن بث الخوف فى قلبى وقلب جدتى .

— هل قلت هذا لى . . . لجدك ؟

فأجاب ميشاتكا فى جرأة :

— أجل ، لك !

— ولكن كيف تجرؤ على التلفظ بمثل هذه الكلمات على جدك ؟

— فلماذا تثير كل هذا الضجيج اذن ؟

— يا لك من ابليس صغير !

ومسد بانتلاى بروكوفتش لحيته ، وجال بعينيه مذهولاً فى

أرجاء الغرفة ، واستأنف قوله :

— كل هذه الألفاظ التقطها منك ، أيتها الساحرة الحيزبون ! أنت التى تعلمينه !

فدافعت ايلينشنا عن نفسها مغضبة :

— من يعلمه ؟ وهل يستطيع أحد أن يسيطر عليه ؟ انه ، فى ذلك ، مثلك ومثل أبيه .

فقامت ناتاليا وضربت ميشاتكا على مؤخرته ، وهى تلقنه فى غضون ذلك : «اياك أن تكلم جدك هكذا ! أتسمعنى ؟»

وشرع ميشاتكا يجأر ، ودفن وجهه فى حضن غريغورى . لكن بانتلاى بروكوفتش ، الذى كان يحب حفيديه من صميم فؤاده ، قفز من جانب المائدة ، وهتف فى لهجة فرحة ، والدموع تنهمر من عينيه ، ومن غير أن يأبه لمسحها من لحيته :

— غريشا ! يا ولدى ! ايه ، عليّ اللعنة ! العجوز صادقة . انه مثلنا فعلاً ! هو دم ميليخوف ! هوذا دمنا يبين عليه . لا أحد بقادر على اسكاته ! يا حفيدى الصغير ! يا حبيبى ! هيا ، اضرب الأحمق العجوز بأيما تشتهى . اسحبه من لحيته !

وانتزع العجوز ميشاتكا من غريغورى ، ورفعه عالياً فوق رأسه .

أنهوا الفطور وتركوا المائدة . وبدأت النسوة غسل الأطباق ، بيد أن بانتلاى بروكوفتش أشعل سيكارة وقال محدثاً غريغورى :

— من المحرج نوعاً ما أن أسألك شيئاً ، اذ انك هنا فى زيارة قصيرة ، ولكن ما عساى افعل غير ذلك ؟ هلا ساعدتنى على اقامة السياج ، وتسييج ساحة درس الحبوب ، اذ ان كل شىء كان قد تهدم ، وليس بمستطاعك أن تسأل الغرباء مساعدتك هذه الأيام . فكلهم فى الهم سواء .

فوافق غريغورى راضيا ، وانطلق الاثنان يعملان فى الفناء ، وما ان حان وقت الغداء حتى كانا قد أقاما السياج من جديد .

وبينما كانا يحملان عموداً معاً الى الداخل ، قال العجوز :

— هذا أوان الحش ، لكننى لا أدرى : هل أشترى شيئاً من العشب أم لا ؟ وهل ذلك يستحق الجهد ؟ ففى غضون شهر ، قد يجتاحنا الحمر من جديد ، ويومذاك يؤول كل شىء الى هؤلاء الشياطين كرة أخرى .

فأقر غريغورى بصراحة :

— لا أدرى ، يا أبى . أنا لا أدرى أى اتجاه ستتخذ الأحداث ، ومن هو الذى سينتصر . اعمل الى الحد الذى لا تبقى فيه وراءك شيئاً ، سواء فى صناديق الغلال أو فى الفناء . ففى مثل هذه الأوقات ، كل جهد يؤول الى لا شىء . خذ والد زوجتى مثلاً ، لقد ظل يكدح طوال حياته ، جمع ثروة ، فصد الدم من نفسه ومن الآخرين ، وما الذى بقى من كل ذلك ؟ لا شىء سوى جذوع محروقة فى الفناء .

فوافق العجوز على كلامه ، كاتماً حسرة :

— هذا بالضبط ما كنت أفكر به ، يا بنى .

ثم لم يجرب أن يتحدث عن الحقل أكثر من ذلك . غير أنه ، بعد الظهر ، لاحظ أن غريغورى كان يجهد نفسه فى تثبيت البوابة لساحة درس الحبوب ، فقال له فى لهجة متألمة ومرارة واضحة :

— افعلها كيفما اتفق ! فيم ترهق نفسك ؟ انها لن تقف مدى العمر .

وبدا أن العجوز لم يدرك ، سوى انئذ ، عبث جهوده فى تنظيم حياته على النمط السابق .

قبيل الغروب ، توقف غريغورى عن العمل ودخل الى البيت . كانت ناتاليا فى غرفة الضيوف وحدها ، وقد تأنقت فى ملبسها وكأن اليوم عيد . ولقد اتسقت عليها تنورتها الصوفية ذات اللون الأزرق الغامق وسترتها البوبلين بأزرقها الفاتح وتطريز صدرها وكميها المخرمين . وكان وجهها متورداً ناعماً ، يلمع قليلاً من أثر غسله بالصابون . وحين دخل غريغورى ، كانت تنقب عن شيء فى الصندوق ، ولكن ما ان رأته حتى أسقطت الغطاء ، واستقامت وعلى وجهها ابتسام .

فاقتعد غريغورى الصندوق وقال :

— اجلسى قليلاً ، فأنا راحل غدا وقد لا نجد فرصة للحديث معاً .

فجلست الى جانبه فى انصياع . وهى لا تنفك تسترق النظر اليه من طرف عينيها ، وقد خامرها شيء من الدهشة . بيد أنه أخذ يدها فجأة وقال ملاطفاً :

— لكنك ناعمة الملمس ، كما لو أنك لم تمرضى قط .

فأجابت ، وهى تبتسم خجلاً وتطأطئ رأسها :

— شفيت منه . . . نحن النساء كالقطط صلابة !

ولاحظ غريغورى شحمة أذنها الوردية المزغبة والجلد المصفر لمؤخرة عنقها خلل جدائل شعرها ، وسألها :

— هل شعرك يتساقط ؟

— يكاد يسقط كله . سأصبح صلعاء عما قريب !

فاقترح عليها قائلاً :

— دعينى أحلق رأسك .

فهتفت مذهولة :

— ماذا ! وكيف سيكون منظرى آنذاك ؟

— الأفضل أن يحلق ، والا فلن ينمو الشعر ثانية .

فقالت ناتاليا مبتسمة فى غمرة شعورها بالحرج :

— وعدتنى الوالدة بقص شعرى بالمقص ، — وألقت على رأسها ، فى حركة حاذقة ، عصابة ناصعة البياض .

هى ذى أذن ، زوجته وأم ميشاتكا وبوليوشكا ، الى جانبه ، ومن أجله جمّلت نفسها وغسلت وجهها . وقد تلفعت بالعصابة على عجل ، لكى لا تقع عينه على شعرها الذى قبح منظره منذ مرضها . وقد بدت فى جلستها تلك الى جانبه ، ورأسها محنى قليلاً الى أحد الجانبين ، مثيرة للشفقة ، قبيحة ، ولكنها ، فى الوقت نفسه ، كانت جميلة ومتألقة بشيء من جمال داخلى صاف . كانت ترتدى دائماً ياقات عالية لكى تخفى وراءها الندبة التى شوهت عنقها . كان كل ذلك من أجله . . . فاجتاحت قلب غريغورى موجة غامرة من الحنان . وأراد أن يقول لها شيئاً ما ، رقيقاً وعطوفاً ، لكنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة ، فأدناها منه ، بصمت ، وقبل جبهتها البيضاء العالية وعينيها الأسيانتين .

لم يسبق له ، قط ، أن تودد اليها ملاطفاً . طيلة حياتها ، كانت أكسينيا تقف فى طريقها . والآن ، وقد حرك عواطفها اظهار زوجها لمشاعره ، تناولت يده ، والانفعال يلهبها ، ورفعتها الى شفتيها .

لبثا صامتين لحظة . كانت شمس الغروب تلقى أشعة زرقاء داخل الغرفة ، والطفلان يلعبان على درجات العتبة . وبينما هما جالسان سمعا داريا تخرج الجرار من الموقد وتقول لحماتها فى لهجة حانقة :

ألا تستطيعين حتى حلب البقرتين يومياً ؟ يبدو أن كبراهما تدر لبنا أقل .

وعاد القطيع من المرعى ، وانبعث خوار البقر ، وصفعات أسواط الشعر يهوى بها الصبيان عليها . وبين آونة وأخرى ، كان ثور القرية يطلق خواراً أجش . وكان ذباب الخيل قد أدمى ، بلسعاته ، صدر الثور الناعم كالحرير وظهره المائل المتشقق ، والثور لا ينفك يهز رأسه حانقاً ، وحينما مر بسياج آل أستاخوف الاسفندانى ، نطحه بقرنيه القصيرين المتباعدين ، فمزقه وألقاه أرضا ، ثم داس عليه . فنظرت ناتاليا خلل الشباك وقالت :

— أتعلم ، أن الثور تراجع عبر الدون هو الآخر . قالت الوالدة انه ما ان بدأ اطلاق النار فى القرية حتى انفلت هو من مربطه وعبر النهر سباحة واختفى فى القصب على الضفة الأخرى طيلة الوقت .

لم يقل غريغورى شيئاً ، اذ كان غارقاً فى دوامة من الأفكار . لِمَ كانت عيناها أسيانتين على هذا النحو ؟ كان فيهما شىء كتوم ، متخف ، لا ينفك يبرز ثم يختفى . لقد كانت ، حتى فى لحظات سعادتها ، حزينة ، وعلى صورة ما ، نائية عن متناول ادراكه . . . أتراها سمعت أخبار زياراته لاكسينيا فى فيشنسكايا ؟ وأخيراً سألها :

— فيم كآبتك اليوم ؟ ما الذى يثقل على صدرك يا ناتاليا ؟ ستخبرينى ، أليس كذلك ؟

وكان يتوقع دموعاً وملامة ، الا أن ناتاليا أجابت بلهجة خائفة :

— لا ، لا ، انك تتخيل أشياء ، أنا بخير ، بخير . . . صحيح أننى لم أتعاف تماماً ، فرأسى لا زالت تدور ، واذا انحنيت أو التقطت شيئاً من الأرض ، أحس بكل شىء يمسى ظلاماً فى عينى .

فحدّق غريغورى فيها مستجلياً ، وما لبث أن أعاد سؤاله :

— هل كنت على ما يرام بدونى ؟ هل تحرش بك أحد ؟

— كلا ، ما الذى تقول ؟ كنت مريضة فى فراشى طيلة الوقت .

وحدجته فى عينيه مباشرة ، كما أنها استطاعت أن ترسم على فمها ابتسامة واهنة . وبعد برهة صمت ، تساءلت :

— هل سترحل مبكراً ؟

— عند الفجر .

— ولكن ، ألا تستطيع أن تمضى يوماً آخر هنا ؟

وكان فى صوتها أمل حيى متعثر . بيد أنه هز رأسه نفياً ، فقالت متنهدة :

— كيف ستكون الحال . هل سيكون عليك حمل شارات الكتف ؟

— نعم .

— حسن اذن ، اخلع قمصلتك وسأخيطها عليها قبل أن يحل الظلام .

فخلع غريغورى قمصلته متأففاً . كانت لا تزال ندية بعرقه . وحيثما كانت سيوره العسكرية قد حكت القماش ، بانت قطع لامعة على الظهر والكتفين . وأخرجت ناتاليا من الصندوق زوجاً من الشارات الخاكية الحائلة ، وتساءلت :

— هل هاتان هما ؟

— نعم ، اذن فقد احتفظت بهما ؟

فأجابت ناتاليا بصوت غير واضح فيما أدخلت الخيط فى ثقب الابرة :

— دفنا الصندوق .

ورفعت ، متلصصة ، القمصلة المصفرة الى وجهها وتشمت بشوق بالغ رائحة عرقه المالح العزيزة على قلبها .

فسألها غريغورى مستغرباً : لم فعلت هذا ؟

فأجابت ، وعيناها تتلامعان :

— انها تفوح برائحتك . وطأطأت رأسها لتخفى حمرة الخجل التى علت وجنتيها ، وشرعت تخيط بمهارة .

ثم ارتدى غريغورى قمصلته فغام وجهه وهز كتفيه . فقالت ناتاليا وهى ترمق زوجها باعجاب جلى :

— انك تبدو أفضل بهما !

فحول عينيه صوب كتفه الأيسر ، وقال متنهداً :

لن يضيرنى ألا أراهما ثانية ! أنت لا تفهمين شيئاً !

ولبثا جالسين وقتاً طويلاً على الصندوق فى غرفة الضيوف ، متشابكى الايدى ، سابحين فى افكارهما الخاصة فى صمت .

ومع الشفق ، وحينما أخذت الظلال الليلكية الثقيلة للبنايات تستطيل فوق الأرض المتبردة ، مضيا الى المطبخ لتناول العشاء .

وهكذا انقضت الليلة . ظل البرق الصيفى يخفق فى السماء حتى طلوع الشمس ، وظلت طيور العندليب حتى انبلاج الصبح تملأ الليل ضجيجاً فى بستان الكرز . استيقظ غريغورى ، ولبث متمدداً مغمض العينين وهو يتسمع الى ثرثرة طيور العندليب الحلوة . ثم نهض بهدوء محاولا الا يوقظ ناتاليا ، وارتدى ملابسه وخرج الى الفناء .

كان بانتلاى بروكوفتش قد أطعم حصان غريغورى . وبيصيرة الجندى اقترح على غريغورى سائلاً :

— اتريدنى أن أمتطيه وأحممه فى النهر قبل بدئك الرحلة ؟

فأجاب غريغورى وهو يتمطى فى رطوبة الصباح الباكر :

— انه يستطيع أن يدبر أموره بدون ذلك .

ثم سأله والده :

— هل نمت جيداً ؟

— جيداً جداً . لكن طيور العندليب أيقظتنى ! عجباً لنشاطها طوال الليل .

نزع بانتلاى بروكوفتش المخلاة من الحصان وابتسم :

— ليس لديها شىء آخر تفعله ، يا بنى . ثمة أوقات يغبط المرء فيها هذه الطيور السماوية . انها لا تعرف شيئاً عن الحرب والدمار . . .

ثم وصل بروخور وتوقف عند البوابة . كان قد حلق وجهه جيداً ، وكان ، كعادته ، مرحاً ثرثاراً فشد حلقة عنان حصانه الى عمود وتقدم من غريغورى . كان قميصه الخيش قد كوى حتى غدا ناعم الملمس . وعلت كتفيه شارات ظاهرة الجدة .

وهتف بينما كان يقترب :

— اذن حملت شارات الكتف أيضاً ، يا غـــريغورى بانتلايفتش ؟ كانت فى انتظارنا ، عليها اللعنة . وها نحن الآن نحملها . لكننا لن نفنيها . لسوف تخلفنا . قلت لزوجتـــى : — لا تخيطيها بحيث لا يمكن انتزاعها ، أيتها الحمقاء . ثبتيها ، فقط ، بحيث لن تطيرها الريح ، وسيكون هذا كافياً . أنت أدرى بالصورة التى عليها حالنا . فاذا وقعنا فى الاسر فانهم سيرون فى الحال بأننى — وان لم أكن ضابطاً — ضابط صف أقدم . وعندها سيقولون : هاها ، أنت تعلمت كيف تحصل على ترقية لك ، فتعلّم الآن كيف تهيئ رأسك لأنشوطة المقصلة ! أترى كيف هى عالقة بـى ؟ انها مهزلة .

كانت شارات بروخور قد ثبتت فعلاً على أوهن ما يمكن ،

لا تكاد تستقر فى موضعها .

وانفجر بانتلاى بروكوفتش هادراً بالضحك كاشفاً عن أسنان لم يتلفها الزمن ، تتألق وسط لحيته الشائكة :

— هذا جندى أصيل ! يعنى اذا ظهرت فى الأفق أدنى بادرة لأيما شىء ، فستهرع الى نزعها عن كتفك ؟

فأجاب بروخور ضاحكاً :

— والا ، فماذا تظن ؟

فقال غريغورى لوالده مبتسماً :

— أترى أى مراسل ابن حلال استطعت أن أحصل عليه ؟ فحتى لو وقعت فى مشكلة ، سأكون بخير ما دام هو الى جانبى .

فقال بروخور مبرراً نفسه :

— هذا صحيح تماما ، يا غريغورى بانتلايفتش ، لكنك تدرى واقع الحال . أنت تموت اليوم ، وأنا أموت غداً .

وفى سرور بالغ انتزع شارات كتفه ودسها فى جيبه ، وهو يقول :

— حينما نقترب من الجبهة ، أستطيع أن أخيطها ثانية .

تناول غريغورى فطوراً سريعاً ، ثم استأذن للرحيل عن عائلته . فهمست ايلينشنا بحرارة وهى تقبل ابنها :

— عسى أن تحفظك ملكة السماء . أنت الوحيد الذى بقى لنا . . .

فقال غريغورى بصوت راعش :

— حسبك الآن . لا دموع تذرف على رحلة طويلة . الى اللقاء .

ومضى نحو حصانه .

وألقت ناتاليا على رأسها عصابة رأس ايلينشنا المثلثة السوداء

ومضت الى أبعد من البوابة وتعلق الطفلان بتنورتها . وكانت بوليوشكا تنشج فى اكتئاب وتوسلت الى أمها وهى تكبح دموعها :

— لا تدعيه يذهب ! لا تدعيه يذهب يا مامى ! سوف يقتلونه فى الحرب ، بابا ، لا تذهب الى الحرب !

وكانت شفتا ميشاتكا ترتعشان ، الا أنه لم يبك . وقد سيطر على زمام نفسه ، برجولة . وقال لاخته الصغيرة مغضباً :

— لا تقوقى ، أيتها الاوزة ! ليس جميع من يذهب الى الحرب يقتل !

واستعاد بثبات كلمات جده بأن القوزاق لا يبكون مطلقاً ، وبأن بكاء القوزاق عار وأى عار لكنه لاحظ ، حينما رفعه أبوه وهو ممتط الحصان الى السرج وقبله أن أهداب أبيه كانت منداة ، فاستبد به الاستغراب . وآنذاك لم يعد فى استطاعة ميشاتكا أن يقاوم أكثر فانهمرت الدموع ، مدراراً ، من عينيه وخبأ رأسه فى صدر أبيه ، على السيور الجلدية ، وجعل يجأر :

— ليذهب جدى ويقاتل ! نحن لا نحتاج اليه هنا . . . أنا لا أريدك أن . . .

بحذر انزل غريغورى ولده الى الأرض ، ومسح الدموع من عينيه بظهر يده ، فى صمت ، ثم همز حصانه وانطلق .

كم مرة أثار حصانه الغبار أمام درجات عتبة بيته عند انطلاقه من ثمة خبباً ! كم مرة حمله ، قدماً ، على امتداد المسالك وفوق السهب الذى لا درب عليه ، الى الجبهة ، الى حيث يستهدف الموت الزؤام أرواح القوزاق ، الى حيث يوجد — كما تقول اغنية قوزاقية — الفزع والحزن كل يوم ، كل ساعة ! — لكن ، لم يحدث له قط أن رحل عن قريته بقلب مثقل بالهم مثل رحيله فى هذا الصباح اللطيف .

فمضى ، وعنانه على قربوس السرج ، ينوء بتوجسات غامضة ألقت عليه بأثقال القلق والهواجس . حتى تشعب الدرب متجهاً صوب الطاحونة ، فأدار رأسه ثانية . لم تكن سوى ناتاليا واقفة عند البوابة ، ونسيم الصباح الباكر المنعش ينتزع من يديها عصابة الحداد السوداء .

• • •

الريح تلفح السحب بسياطها ، فتزبد هذه ، وتنطلق عائمة على بركة السماء الراكدة الزرقاء . وثمة غبش يرتعش على حافة الأفق المتموجة . ومضى الحصانان على مهل : بروخور غاف ، يتمايل على السرج ، وغريغورى لا ينفك ينظر الى الخلف مرة تلو المرة ، وأسنانه تصر حنقاً . وكان فى استطاعته بعضاً من الوقت ، أن يرى الى أجمات الصفصاف الخضر ، والى شريط الدون الفضى المتلوى كيفما شاء ، والى أذرع الطاحونة تدور ببطء . ثم انحرف الدرب جنوباً . وأخذت ضفة النهر المغطاة بالبردى ، والدون ، والطاحونة تختفى وراء حقول القمح المداسة . . . وشرع يصفر لحناً ما ، مسمراً عينيه على رقبة الحصان السمراء المذهبة وحبات العرق الرقيقة المتفصدة عليها . ولم يعد يستدير الى الخلف على سرجه . . . الى السعير بها ، بهذه الحرب ! لقد احتدم القتال على امتداد نهر «تشير» . ثم اندلع على امتداد «الدون» ولسوف يرعد الآن فوق نهر «خوبر» ، و«مدفديتسا» و«بوزولوك» . وحدث نفسه : وماذا يغير فى الأمر الموضع الذى ستنطلق منه رصاصة معادية لترديه أرضاً ؟

كان القتال مستمراً حوالى مركز منطقة أوست–مدفديتسكايا . وحينما انحرف غريغورى عن الدرب الصيفى ميمماً صوب طريق هتمان العام ، بلغت — أول ما بلغت — مسامعه الأصوات المكتومة لرمى المدافع .

وعلى امتداد الطريق العام ، كانت آثار تقهقر قوات الحمر السريع واضحة بينة . وصادف غريغورى عدداً عديداً من العربات ذوات العجلتين وعربات «البريتزكا» مهجورة ، ولمح داخل أخدود يقع خلف أكمة مدفعا تحطم محوره بقذيفة والتوت ماسورته . كما أن أعنة محور مقدمته كانت قد قطعت قطعاً معوجاً . وفى المستنقعات السبخة ، الواقعة على بعد نصف فرست من الأخدود ، تكومت على العشب النجيل الذى حرقته الشمس جثث جنود بقمصان وبنطلونات خاكية ، ولفافات ساق وجزم منعلة بالحديد ، ثقيلة . كان هؤلاء جنود الجيش الأحمر الذين ظفر بهم خيالة القوزاق وأجهزوا عليهم تقطيعاً بالسيوف .

كان يسيراً على غريغورى أن يدرك ذلك ، وهو مار بهم ، من الدم الغزير الذى جف على قمصانهم المدعوكة ومن وضعية جثثهم . كانوا متمددين ثمة مثل أعشاب قصها منجل . ولم يكن القوزاق قد جردوهم من ملابسهم ، ولعل ذلك كان لضرورة الاستمرار بالملاحقة .

كان هناك قوزاقى مطروح بالقرب من أجمة زعرور برى . وكانت آثار الشطب الحمراء الصدئة بادية على سافيه المتباعدتين ، وعلى مبعدة قليلة منه ارتمى حصان كميت ، فاتح السمرة ، يعلوه سرج عتيق خلق وقد طلى قربوساه بلون ترابى .

بدأ التعب يحل بحصانى غريغورى وبروخور وقد آن الأوان

لاطعامهما ، بيد أن غريغورى لم يكن ليميل الى التوقف فى موضع كان ميدانا للقتال مؤخراً ، فطوى فرستاً آخر تقريباً ، ثم انحدر الى أخدود فى الأرض وسحب عنان حصانه . وعلى مبعدة يسيرة رأى بركة يحيط بها سد متداع حتى أساساته . فمضى بروخور على حصانه صوب الحواف المتهدمة المتشققة للبركة . غير أنه كر راجعاً على حين غرة . فتساءل غريغورى :

— ماذا بك ؟

— اذهب الى هناك وانظر !

فامتطى غريغورى حصانه صوب السد . كانت هناك امرأة مقتولة ملقاة على الوحل . وكان وجهها مغطى بالطرف الأسفل لتنورتها الغامقة ، وقد فجّت ساقاها البيضاوان الممتلئتان ، بربلتيهما الملفوحتين وركبتيهما ذواتى الغمازات ، على نحو معيب ومريع . وكانت ذراعها اليسرى مطوية تحت ظهرها .

هرع غريغورى يترجل عن حصانه ، وخلع قبعته وانحنى وسحب تنورة المرأة الميتة فوق جسدها . كان وجهها الفتى الأسمر جميلاً رغم الموت . وكانت عيناها نصف المغمضتين ترسلان شعاعاً خافتاً من تحت حاجبيها المعقودين تألماً . ومن خلل ابتسامة فمها الرقيق كانت أسنانها المتراصة تومض كالصدف . وتدلت خصلة من الشعر على وجنتها اللصيقة بالعشب . وعلى هذه الوجنة التى شرع الموت يصبغها بظلال دايرة صفر بلون الزعفران ، كان النمل يتزاحف بلا كلل .

فجمجم بروخور قائلاً :

— يا للجمال الذى أتلفه أبناء العواهر أولاء !

وصمت بعض الوقت . ثم بصق فى حنق :

— لو ظفرت بهؤلاء . . . بهؤلاء الحثالة ، لرميتهم بالرصاص !

دعنا نذهب ، بحق المسيح ! أنا لا أتحمل النظر اليها . ان منظرها يقلب قلبى رأساً على عقب .

فتساءل غريغورى :

— ألا تظن أن من المناسب دفنها ؟

الا أن بروخور اعترض على ذلك :

— ايه ، هل يتوجب علينا أن ندفن جميع الموتى الذين نصادفهم ؟ دفنا عجوزاً ما فى ياغودنويه ، والآن هذه المرأة . . . لو أننا سنقوم بدفنهم جميعاً ، فلن يبقى فى أيدينا قمح كاف . ثم بم نحفر قبراً ؟ لن تقدر أن تفعل ذلك بسيفك ، أيها الأخ ! فالأرض هنا قد أحالتها الحرارة فخاراً الى عمق قدمين .

واستبدت به الرغبة فى الابتعاد عن المكان ، حتى أنه كاد لا يستطيع وضع رأس جزمته فى الركاب .

ومن جديد مضيا على حصانيهما صعد التل ، وكان بادياً على بروخور سيماء التفكير العميق ، وما لبث أن سأل غريغورى :

— ما رأيك ، يابانتلايفتش ، ألم نسفح دماء كافية على الأرض ؟

— كافية تقريباً .

— ولكن ، ما رأيك ، هل ستحل نهاية ذلك عما قريب ؟

— ستحل النهاية حينما يكونون قد دمرونا تماماً .

— هه ، انها لحياة مرحة ، هذه التى دخلناها ، الحمد للشيطان ! ربما كلما أسرعوا فى تدميرنا كان ذلك أفضل . أثناء الحرب الألمانية كان الجندى يطلق النار على اصبعه فيفقده ، فيعفونه من الخدمة . أما الآن ، فمزق ذراعك ان شئت ، لكنهم لن يكفّوا عن اجبارك على الخدمة . انهم يجندون المقعدين والعجزة والعميان . يجندون المصابين بالفتق ، وجميع أنواع

الحثالات ، ما داموا قادرين على الحبو على أرجلهم . أبهذه الطريقة يكون انهاء الحرب ؟ اللعنة عليهم جميعاً !

قال بروخور ذلك فى قنوط ، ثم حاد عن الطريق وترجل عن حصانه متمتماً بشىء ، وشرع يرخى سير سرج حصانه .

• • •

حل المساء ، وعندذاك بلغا قرية صغيرة ليست ببعيدة عن أوست–مدفديتسكايا . فأوقفتهما ربيئة تابعة للكتيبة الثالثة اتخذت لها موقعاً فى ضواحى القرية ، ولكن ما ان ميز القوزاق قائد فرقتهم من صوته حتى أخبروه بأن هيئة أركان الفرقة كانت معسكرة فى القرية نفسها وبأن رئيس هيئة الأركان ، الرئيس كوبيلوف ، كان ينتظر مقدمه فى أية لحظة . وأوعز آمر الربيئة المهذار لقوزاقى بايصال غريغورى الى مقر الأركان ، ثم أضاف كلمة أخيرة :

— استولوا على مواقع مهمة ، يا غريغورى بانتلايفتش . ولن نستطيع الاستيلاء على أوست–مدفديتسكايا قبل مرور وقت طويل ، كما اتصور . وبعدها ، لا شك أن لا أحد يدرى ؟ . . كما أن لدينا قوات كثيرة . يقولون ان قوات بريطانية ستصل من موروزوفسكايا . هل سمعت شيئاً عن ذلك ؟

أجاب غريغورى وهو ينخز حصانه :

— كلا .

كانت أباجورات الدار التى نزلت فيها هيئة الأركان مغلقة باحكام . فظن غريغورى أن لا أحد فى الداخل ، لكنه سمع ، أثناء مروره فى المجاز ، حديثاً متحمساً مكتوماً . وحين دخل غرفة الضيوف فاجأ عينيه ضوء المصباح الكبير المعلّق فى السقف

ووخزت منخريه رائحة دخان التبغ الثقيلة القوية .

وجاء صوت كوبيلوف جذلاً ، وهو يبرز من خلل سحابة الدخان الزرقاء المائجة فوق المنضدة :

— اذن ، فهذا أنت أخيراً ، لقد كنا فى انتظارك زمناً طويلاً ، أيها الأخ !

فحيا غريغورى الجميع ، وخلع قبعته ومعطفه ، ثم مضى الى المنضدة . وقال والعبوس يعلو وجهه :

— ملأتم المكان دخاناً ! لا هواء يستنشق بعد هذا ! ألا تستطيعون فتح احدى النوافذ ؟

فرد خارلامبى يرماكوف ، الذى كان يجلس بجوار كوبيلوف ، مبتسماً :

— اعتادته أنوفنا ، حتى لم نعد نلاحظه .

ودفع لوحة من ألواح النافذة بمرفقه فانخلعت وفتح أباجوراً . اندفع هواء الليل العليل الى داخل الغرفة ، فتألقت شعلة المصباح ثم انطفأت . فقال كوبيلوف متذمراً ، وهو يخبط بيديه على المنضدة باحثاً عن شىء :

— هاه ، أسلوب جميل للمحافظة على المكان ! لم خلعت اللوحة ؟ من لديه عيدان كبريت ؟ حذار ، فهناك محبرة بجوار الخريطة تماماً .

أضاءوا المصباح ، وسدوا فتحة الشباك ، ثم شرع كوبيلوف يشرح الأمور على عجل :

— الوضع فى الجبهة فى الوقت الحاضر ، أيها الرفيق ميليخوف ، كما يلى : يسيطر الحمر الآن على أوست–مدفديتسكايا ، ويحمونها من ثلاث جهات بقوات يناهز تعدادها أربعة آلاف جندى . ولديهم مدفعية ومدافع رشاشة كافية . وقد حفروا الخنادق

حول الدير وفى عدة أماكن أخرى كما أنهم يحتلون المرتفعات القائمة على ضفة الدون . أما بالنسبة لمواقعهم ، حسن ، أنا لن أقول انها منيعة ، لكن الاستيلاء عليها ، أمر صعب بدون شك . ولدينا فى صفوفنا ، بالاضافة الى الفرقة التى يقودها الجنرال فتشالوروف ومفرزتى ضباط الصاعقة ، وصل لواء بوغاتيريوف السادس بالكامل وفرقتنا الأولى . ولكن الفرقة ليست بكامل قوتها ، فكتيبة المشاة غير موجودة ، اذ لا زالت فى مكان ما بالقرب من أوست–خوبرسكايا . لكن الخيالة وصلوا جميعاً ، ولو أن السرايا أبعد عن أن تكون فى كامل قوتها .

فقال آمر الكتيبة الرابعة ، ملازم دوداريف :

— مثال ذلك ، أن تعداد السرية الثالثة فى كتيبتى هو ثمانية وثلاثون قوزاقياً فقط .

فسأله يرماكوف :

— كم كان عددهم فى السابق ؟

— واحداً وتسعين .

فتساءل غريغورى متجهم الوجه وهو ينقر على المنضدة :

— ولم سمحت للسرية أن تتشتت ؟ أى نمط من الآمرين تدعو نفسك ؟

— حسن ، ومن ذا الذى سيمنعهم من التشتت ؟ لقد انتشروا فى القرى ، ومضوا ليروا أهليهم . لكنهم سيتقاطرون عائدين عما قريب . عاد ثلاثة منهم اليوم .

ودفع كوبيلوف الخريطة صوب غريغورى . وأشار بسبابته مبيناً لغريغورى مواقع القطعات ، واستأنف كلامه :

— لم نقم بشن أى هجوم بعد . أمس ، تقدمت الكتيبة الثانية نحو هذا القطاع سيراً على الأقدام ، ولكن دون أن تحرز أى نجاح .

— وهل وقعت خسائر فادحة ؟

— استناداً الى تقرير آمر الكتيبة ، فانها كانت ستة وعشرين ، ما بين قتيل وجريح . والآن ، نأتى الى مقارنة وضعية القوات . اننا نتفوق عددياً عليهم ، لكننا لا نملك مدافع رشاشة كافية لدعم هجوم المشاة . كما أن مؤونتنا من القذائف شحيحة . لقد وعدنا ضابط العتاد بأربعمائة قذيفة ومائة وخمسين ألف طلقة حالما تصل . ولكن هذا لن يتوافر الا حينما تصل ، بينما يتوجب علينا شن الهجوم غداً ، حسب أوامر الجنرال فتشالوروف . وهو يقترح بأن علينا أن نخصص كتيبة لدعم مفرزتى الصاعقة . وقد قاموا بأربع هجمات أمس وكانت النتيجة أنهم تكبدوا خسائر فادحة . وأجد لزاماً علىّ أن أقر بأنهم قاتلوا قتال الأبالسة ! أى نعم . ويقترح فتشالوروف بأن علينا أن نقوى الجناح الأيمن وننقل الهجوم الى هذه النقطة ، هنا . أترى ؟ المجال هنا يسمح بالتقدم الى مسافة تتراوح ما بين مائتى وثلاثمائة خطوة من خطوط العدو . والواقع ، أن مساعده قد انصرف توا ، بعد أن حمل الىّ تعليمات شفهية تقضى بذهابنا الى مقر الجنرال فتشالوروف فى الساعة السادسة من صباح غد لعقد مؤتمر يستهدف تنسيق العمليات . وهو وأركانه ، الآن ، فى قرية «بولشوى سينين» . وتنطوى المهمة على العمل فى الحال على ضرب العدو قبل أن يحصل على التعزيزات من محطة سبرياكوفو . أما قواتنا فى الجانب الآخر للدون ، فانها لا تبدى نشاطاً كبيراً . . . لقد عبرت الفرقة الرابعة نهر الخوبر ، الا أن الحمر قذفوا بقوات حماية قوية وهم يدافعون بعناد عن مواقعهم فى الطرق المؤدية الى المحطة . لكنهم فى الوقت نفسه مدوا جسر زوارق عبر الدون وشرعوا بتحويل المعدات والاحتياط من أوست–مدفديتسكايا بأسرع ما يستطيعون .

— يقول القوزاق ان الحلفاء فى طريقهم الينا . هل هذا صحيح ؟

— هناك شائعة بأن عدداً من البطاريات والدبابات الانكليزية فى طريقها من تشيرنيشفسكى . بيد أن السؤال هو كما يلى : كيف ستعبر هذه الدبابات الدون ؟ فى رأيى ، ان موضوع الدبابات لا يعدو كونه لغواً . ونحن نسمع هذا الكلام منذ زمن . . .

وخيمت فترة صمت طويلة على الغرفة .

فك كوبيلوف أزرار قمصلة الضباط البنية التى يرتديها ، وأسند على يديه خديه المترهلين غير الحليقين ، وراح زمناً طويلاً يمضغ ، متفكراً ، سيكارة محروقة . كانت عيناه السوداوان المستديرتان المتباعدتان نصف مغمضتين كلالاً ، وقد شوهت وجهه الوسيم آثار الليالى التى لم يعرف النوم خلالها .

ذات يوم ، كان هذا الرجل معلماً فى مدرسة دينية . وفى أيام الآحاد كان تجار المنطقة يستضيفونه ، وكان يلعب الورق ، على مراهنات صغيرة ، مع التجار وزوجاتهم ، وكان شاباً اجتماعياً مرحاً ، يعزف على الغيتار عزفاً جيداً . ثم اقترن بمعلمة شابة ، وكان ممكناً أن يظل مقيماً فى مركز المنطقة ، ومؤكداً أن يستمر فى عمله الى أن يحال على التقاعد ، غير أنه استدعى للخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية . وبعد أن تلقى تدريبه فى احدى الكليات العسكرية ، أرسل الى الجبهة مع احدى كتائب القوزاق . ولم تستطع الحرب قط أن تغير شخصيته أو مظهره . كان ثمة شىء مسالم ، مدنى أساساً ، يبدو على قامته القصيرة المليئة ، وعلى وجهه الأليف ، والطريقة التى كان يحمل بها سيفه ، والأسلوب الذى يوجه به كلامه الى مرؤوسيه . وكان صوته يفتقر الى لهجة الآمر القاسية التى تتسم

بها طريقة كلام العسكرى عادة . وكان يرتدى بزة الضابط وكأنه يرتدى زكيبة . وعلى الرغم من مضى ثلاث سنوات عليه فى الجبهة ، فانه لم يكتسب المظهر والأسلوب العسكريين . وتشير كل سيمائه الى أنه رجل وجد فى معمعان الحرب صدفة . كان يبدو أقرب الى ابن مدينة قوى البدن فى بزة ضابط ، منه الى ضابط حقيقى ، ومع ذلك فقد كان القوزاق يكنون له احتراماً كبيراً ويصغون الى حديثه أثناء مؤتمرات الأركان ، وكان قادة التمرد يجلّون ذكاءه الرزين وشخصيته السلسة وشجاعته غير المتظاهرة ، والتى كان غالباً ما يقيم عليها الدليل خلال المعارك .

أما رئيس هيئة أركان غريغورى السابق ، فقد كان الأمى الجاهل أنسين كروجيلين . ولقد قتل كروجيلين فى معركة على نهر «تشير» . وحينما خلفه كوبيلوف ، أدى مهامه بذكاء وحصافة ونجاح . وحينما كان يرسم الخطط للعمليات ، كان يبذل من الجهد والوقت ما كان يبذلهما حينما كان يجلس لتصحيح دفاتر تمارين التلاميذ . ومع ذلك ، فاذا دعت الضرورة ، وبكلمة من غريغورى ، فانه كان يترك مقر الأركان ويمتطى حصاناً ، ويتسلم أمرة كتيبة وينطلق بها صوب المعركة .

فى البداية ، كان غريغورى متحاملاً بعض الشىء ضد رئيس هيئة الأركان الجديد ، بيد أنه ، وفى غضون شهرين ، تعرّف عليه بشكل أفضل ، حتى أنه أخبره بصراحة ذات يوم بعد انتهاء القتال :

— كانت فكرتى عنك سيئة الى حد ما ، يا كوبيلوف ، لكننى الآن أشعر بأننى كنت مخطئاً فى حقك . وأنا أسألك أن تنسى موقفى ذاك منك ، ان كان هذا ممكناً !

فابتسم كوبيلوف ولم يجب ، غير أنه كان من الجلى

أن ذلك الاعتراف غير المنمق أشاع فى نفسه الزهو .

كان يفتقر الى أية رغبة فى الشهرة ، كما أنه لم تكن لديه آراء سياسية محددة ، أما موقفه تجاه الحرب فهو أنها شر لا بد منه ، كان يتشوق الى حلول نهايتها بأسرع ما يمكن . ولهذا ، فهو فى هذه الاثناء لم يكن يمعن فكره فى كيفية تطوير العمليات بغية الاستيلاء على أوست–مدفديتسكايا ، بل كان يستعيد ذكريات أهله فى بيته ، وقريته الأصلية ، ويحدث نفسه بأن من الممتع أن يمتطى حصانه وينطلق هذباً الى أهله فى اجازة أمدها ستة أسابيع ! . .

ظل غريغورى يحدق طويلاً فى كوبيلوف ، ثم قام على قدميه قائلاً :

— حسن . أيها الاخوة والأتمانات ، لنذهب الى مقراتنا وننم . لا معنى فى جلوسنا هنا وارهاق أدمغتنا بموضوع الاستيلاء على أوست–مدفديتسكايا . سيقوم الجنرالات بالتفكير واتخاذ القرار بدلاً عنا ! سنمضى الى فشالوروف غداً . فليعلمنا ، نحن معشر الشياطين البائسة ، شيئاً من الحكمة ! أما بخصوص الكتيبة الثانية ، فان فكرتى كما يلى : نحن لا زلنا نملك السلطة ، وأنا أعتقد أن من الأفضل أن ننزل درجة آمر الكتيبة دوداريف ونجرّده من رتبته وألقابه .

وتدخل يرماكوف قائلاً :

— ومن حصته من العصيدة !

بيد أن غريغورى استأنف كلامه :

— لا ، اننى لا أمزح . يجب أن ننزل رتبته ، اليوم بالذات ، الى رتبة آمر سرية وأن نعين خارلامبى آمراً للكتيبة . اسمع يا يرماكوف ، اذهب الآن ، وفى الحال ، واستلم أمرة

الكتيبة ، وانتظر تعليماتنا غداً صباحاً . وسيقوم كوبيلوف بتحرير أمر النقل فوراً ، وتستطيع أن تأخذه معك . فأنا أرى أن دوداريف ليس بقادر على قيادة كتيبة ، أبداً . لا عقل له مطلقاً ، وأخشى أن يعرّض أرواح القوزاق الى ضربة ماحقة تنزل بهم . وأنتم تعرفون ما هو قتال المشاة . . . فليس أسهل من تبديد أرواح الرجال ، اذا كان الآمر لا يدرى ما هو فاعل !

فقال كوبيلوف مؤيداً غريغورى :

— هذا حق . اننى أؤيد تنزيل رتبة دوداريف .

وتوجه غريغورى بالسؤال الى يرماكوف ، وهو يلاحظ سيماء عدم الرضا على وجهه :

— حسن يا يرماكوف ، أتعارض ذلك ؟

— لا ، أبدا ، أنا لم أقل شيئا . ألا أستطيع أن أرفع حاجبى ؟ !

— هذا حسن . يرماكوف لا يعارض . سيتسلم ريابتشيكوف كتيبة خيالته فى الوقت الحاضر . كوبيلوف ، أكتب الأمر ، ثم نم حتى الفجر . وانهض ثانية فى الساعة السادسة . سنمضى لنرى هذا الجنرال . اننى سأصحب معى أربعة مراسلين !

فرفع كوبيلوف حاجبيه دهشاً :

— وما حاجتك بهم جميعاً ؟

— للمفاخرة ! فلسنا ممن لا قيمة لهم ، نحن نقود فرقة بكاملها !

وأطلق غريغورى ضحكة ، ثم شد كتفيه وألقى بمعطفه عليهما واتجه نحو الباب .

استلقى تحت أفريز مأوى ، ملفعاً نفسه بمرشحة خيل ، دون أن يخلع جزمته أو معطفه . وظلت أصوات المراسلين تنبعث

زمناً طويلاً من ناحية الفناء . وعلى مقربة يسيرة كانت خيل لا تنفك تزنخر وتلوك لجامها . وفاحت رائحة جل طرى وتراب لم يبترد بعد غب حرارة النهار . وخلل نعاسه ، تسمع غريغورى الى أصوات وضحكات المراسلين ، وسمع أحدهم ، وكان فتيا ، كما بدا ذلك من صوته ، يسرج حصانه ويقول متنهداً :

— آه ، أيها الاخوة ، لسوف أنفجر سأماً ! الوقت الآن منتصف الليل ، ويتعين على أن أنطلق بهذه الرزمة . لا نعرف طعم النوم ولا الراحة . . . هوو ، هوو ، قف مكانك ، أيها الشيطان ! حافرك ، أقول لك ارفع حافرك !

وتمتم رجل ثان فى صوت عميق أجش :

— يا حياة الجندية سثمناك ، سثمناك حتى أضراسنا ! لقد أتلفت خيلنا الجيدة . . .

ثم استحالت لهجته خفيفة مستعطفة :

— صب لنا من التبغ ما يكفى لسيكارة . آه انك صديق صدوق ! يبدو أنك نسيت جزمة الجيش الأحمر التى أعطيتك اياها حينما كنا فى بليافين ، ها ؟ أيها الخنزير ! لو كنت قد أعطيت الجزمة لغيرك لظل يتذكرنى بها الى الأبد ، بينما لا أستطيع أن أحصل منك ، حتى تملقاً ، على شىء من التبغ لسيكارة واحدة !

جلجلت شكيمة اللجام بين أسنان الحصان . وجر الحصان نفساً طويلاً وعميقاً ، ثم مضى خبباً ، وسنابكه تقعقع على الأرض اليابسة الصلبة كالصخر . حدث غريغورى نفسه :

— الجميع يتحدث عن الشىء نفسه .

وكرر كلمات الجندى ، مبتسماً :

— يا حياة الجندية سثمناك ، سثمناك حتى أضراسنا !

وما لبث أن لفه النوم فى الحال . وما ان أغفى حتى رأى حلما كان قد رآه عدة مرات من قبل . . . على الحقول السمر ، وفوق جذامة الحنطة العالية ، كانت صفوف من جنود الجيش الأحمر تتقدم . وقد امتد الصف الأول الى حيث تستطيع العين أن تمتد . وتقدمت خلف الصف الأول ستة أو سبعة صفوف أخرى . وكان الرجال يقتربون أكثر فأكثر خلل الصمت الكئيب . وكبرت الهياكل السوداء الصغيرة ، وازداد حجمها ، وصار فى مستطاعه الآن أن يراهم يخطون ، سريعين ، متعثرين ، متقدمين الى الأمام ، الى الأمام ، الى الأمام ، بالغين مدى النار ، راكضين وبنادقهم امامهم ، بخوذهم القماشية الهادلة ، وأفواههم الفاغرة فى صمت . كان غريغورى متمدداً فى خندق ضحل ، وهو يسحب ترباس بندقيته ، بعصبية ، مطلقاً النار المرة تلو المرة ، وجعل جنود الجيش الأحمر يتعثرون ، تحت وطأة ناره ، ينكفئون على رؤوسهم . فدس مشطاً جديداً من الطلقات ، ثم نظر الى جانبيه ، فرأى القوزاق يقفزون خارجين من الخنادق المجاورة ، ثم يستديرون ويهربون ، بوجوه شوهها الرعب . وكان بمستطاعه أن يسمع ضربات قلبه الفظيعة ، وصرخ :

— أطلقوا النار ! أيها الخنازير ! أين تذهبون ؟ قفوا ، لا تهربوا !

وصرخ بأعلى صوته ، لكن صوته كان ضعيفا الى درجة مخيفة ، لا يكاد يسمع . وأمسك الرعب بتلابيبه . فقفز هو أيضاً ، وبينا هو واقف أطلق رصاصة أخيرة على جندى أحمر ، قاتم السحنة ، كان يركض ، فى صمت ، متوجهاً نحوه مباشرة . ورأى أنه قد أخطأه .

لم يكن الجندى شاباً ، وكانت قسماته مهيبة ، متوترة ،

لا أثر للخوف عليها . وكان يعدو بخفة ، قدماه لا تكادان تلمسان الأرض ، حاجباه معقودان ، قبعته فى مؤخرة رأسه ، وأذيال معطفه مرفوعة الى أعلى . حدق غريغورى لحظة فى العدو المتقدم ، فرأى عينيه المتألقتين ، ووجنتيه الشاحبتين وقد علتهما لحية قصيرة مجعدة ، ورأى فتحتى جزمته الواسعتين ، والعين الصغيرة السوداء لماسورة بندقيته المنخفضة قليلاً ، وفوقها نقطة الحربة السوداء ، تعلو وتنخفض فى ايقاع منتظم . فأخذ بخناقه ذعر يفوق الوصف . شد ترباس بندقيته ، لكن الترباس لم يتحرك ، اذ انحبس . وفى غمرة يأسه ، ضرب الترباس على ركبته ، بدون جدوى . لكن الجندى الأحمر صار ، الآن ، على مبعدة خمس خطوات منه ، فقط . فاستدار غريغورى ولاذ بالفرار . كان الحقل الأسمر الممتد أمامه مرشوشاً بقوزاق هاربين . وفى أعقابه سمع مطارده يجر أنفاساً مبهورة ، وسمع ضربات جزمته تلطم الأرض لطماً أجوف . لكنه لم يستطع أن يعدو أسرع . وتعين عليه أن يبذل جهدا فظيعاً ليجبر ساقيه المتراخيتين على الاسراع . وأخيراً بلغ مقبرة كئيبة شبه مهدمة ، فقفز عبر السور المنهار وعدا بين القبور الخاسفة والصلبان المعوجة والقباب الصغيرة . ومع ذلك ، فقد كان عليه أن يبذل مجهوداً آخر قبل أن يستطيع النجاة . لكن رعيد الأقدام من ورائه قد زاد وغدا أشد هديراً . وأخذت أنفاس مطارده اللاهبة تحرق رقبته . وفى تلك اللحظة أحس بأنه قد أمسك بذيل وحاشية معطفه . فانطلقت منه صرخة مكتومة . ثم أفاق من نومه .

كان مستلقياً على ظهره . قدماه تخدرتا فى جزمته الضيقة ، وعلى جبهته عرق بارد ، وجسمه موجع كله وكأنه قد ضرب بالسياط . فقال بغظاظة :

— أوه ، جحيم ! !

وانتصت الى صوته فى ارتياح دون أن يستطيع ، بعد ، أن يصدق أن ما كان قد عاشه تواً لم يكن سوى حلم . ثم انقلب على جنبه ولف جسمه حتى رأسه بمعطفه الثقيل ، وحدث نفسه :

— كان علىّ أن أدعه يقترب ، وأتفادى ضربته ، ثم أضربه بعقب البندقية ، ومن ثم أهرب . . .

لبث لحظة يستعيد الحلم الذى عاوده عدة مرات ، مستشعراً فرحاً وراحة لادراكه بأنه لم يكن سوى كابوس مزعج وأنه فى واقع الحال لم يكن ثمة خطر دان منه قط .

«عجباً أن يكون الحلم أفظع عشر مرات من واقع الحياة . لم أعرف مثل هذا الرعب طوال حياتى ، حتى فى أحرج الأزمات» .

وغفا ، ماداً ساقيه الخدرتين فى رضى وارتياح .

١٠

أيقظه كوبيلوف عند الفجر :

— انهض ! حان وقت الاستعداد والذهاب . لقد أمرنا بالمثول هناك فى الساعة السادسة !

كان رئيس هيئة الأركان قد حلق ذقنه تواً ولمع جزمته وارتدى قمصلته الدهينة ، والنظيفة معاً . كان بادى الاستعجال ، وقد علا خديه الممتلئين جرحان من أثر الموسى . بيد أن مظهره العام اتسم بأناقة كان يفتقر اليها فى السابق .

أجال غريغورى نظرة ناقدة فيه ، وقال فى سريرته :

— عجباً ! أنظر كيف أتنق نفسه ! لا يريد أن يبدو خشن المنظر حينما يمثل أمام الجنرال . . .

وقال كوبيلوف ، وكأنه استشف ما كان يجرى فى ذهن غريغورى :

— لا يحسن أن يذهب المرء قدر المظهر . نصيحتى اليك أن تجعل مظهرك مقبولاً ، أيضاً .

فتمتم غريغورى ، متمطياً :

— سأذهب كما أنا . هل قلت انه أمرنا بالمثول هناك فى الساعة السادسة ؟ اذن فقد شرعوا فعلاً باصدار الأوامر لى ولك ؟

فضحك كوبيلوف وهز كتفيه :

— لكل حال لبوسها ! وبما أنه أعلى منا رتبة ، فلزام علينا الطاعة . ثم ان فتشالوروف جنرال ، وليس لمثله أن يأتى الينا .

فقال غريغورى :

— انت على حق . فقد حصلنا على ما شئناه .

وخرج ليغتسل عند البئر .

ثم دخلت ربة الدار مسرعة ، وأخرجت منشفة مطرزة نظيفة ، وناولته اياها وهى تركع . فمسح بطرفها ، وفى حركة عنيفة ، وجهه الذى استحال لونه كالقرميد من أثر الماء البارد ، وقال لكوبيلوف :

— أنت على حق تماماً ، لكن هؤلاء الجنرالات يجب ألا يغيب عن بالهم شىء واحد بالذات . وهو أن الناس قد تغيروا منذ نشوب الثورة . لقد ولدوا من جديد ، كما قد تعبر أنت عن ذلك . بيد أن الضباط لا يزالون يقيسون بياردة القياس القديمة ذاتها . وأنا أخشى أن ياردة قياسهم هذه ستنكسر عما قريب . . . ان مفاصل الضباط متيبسة . وهم فى حاجة الى

وضع شىء من شحم المحاور فى عقولهم ، لايقاف صريرها !

فتساءل كوبيلوف شاردا ، فيما نفخ أثراً من وساخة كان على كمه :

— ما الذى تستهدف من كلامك ؟

— أستهدف حقيقة كونهم ما زالوا ينتهجون الأسلوب القديم نفسه . مثلاً ، أنا غدوت ضابطاً منذ الحرب الألمانية . لقد حصلت على هذه الرتبة بدمى ! لكننى حينما أكون فى صحبة الضباط أشعر وكأننى خارج ، بسروالى الداخلى فقط ، من داخل كوخ الى حيث الثلج والبرد ! أستطيع أن أحس ببرودتهم تجاهى حدر ظهرى !

تلامعت عينا غريغورى حنقاً ، وارتفع صوته دون أن يدرى . فتلفت كوبيلوف من حوله متضايقاً ، وهمس قائلاً :

— لا تتكلم بصوت عال هكذا . سيسمعنا المراسلون .

فاستأنف غريغورى كلامه خافضاً صوته :

— وأنا أسألك ، لِـمَ يحدث ذلك ؟ لماذا ؟ لأننى بالنسبة لهم شحرور أبيض * . ان لهم أيادى لكن يدىّ تصلبتا حتى غدتا كالحوافر . يستطيعون ان يتحركوا بالنعومة والاناقة اما انا فما ان ألج فى غرفة حتى أرتطم بكل شىء فيها . منهم ، تنبعث عطور صابون الزينة وجميع أصناف الدهانات النسوية ، بينما تنبعث منى رائحة عرق الخيل وبولها . هم ، جميعاً ، متعلمون ، فى حين أننى كدت ألا أنهى دراستى فى مدرسة الكنيسة . اننى غريب بالنسبة لهم ، من رأسى حتى أخمص قدمى . هذا هو سبب هذه الوضعية ! وحينما أتركهم ، يخامرنى

---

* الشحرور : طير أسود اللون عادة . **المترجمون** .

دائماً شعور بأن بيتاً للعنكبوت قد استقر على وجهى . فاذا بحساسية تكتنف جسمى كله وينتابنى شعور بعدم الارتياح ، وأصبح لا أريد شيئاً سوى تنظيف جسمى .

ثم قذف بالمنشفة على حافة البئر وشرع يمشط شعره بمشط مكسور . فبانت جبهته ، التى لم يمسها لفح الشمس ، بيضاء ناصعة فى أعلى وجهه الأسمر . واستأنف كلامه فى لهجة أهدأ :

— انهم لا يريدون أن يدركوا بأن نهج الحياة القديم قد تحطم تماماً وراح الى سَقَرْ ! انهم يعتقدون بأننا مجبولون من عجينة أخرى ، وبأن الرجل غير المتعلم ، أى الرجل العادى ، انما هو صنف من أصناف الماشية . وهم يعتقدون بأننى ، أو من هو على شاكلتى ، يفهم فى الأمور العسكرية أقل مما يفهمون . ولكن ، من هم قادة الحمر ؟ هل بوديونى ضابط ؟ كان عريفاً فى أيام ما قبل الحرب ، ولكنه هو الذى أذاق جنرالات أركاننا طعم السوط ! غوسلشتشيكوف أشهر محارب من بين الجنرالات القوزاق ، لكنه هرب من أوست–خوبرسكايا فى الشتاء الماضى وليس يستره سوى سرواله الداخلى ! وهل تعرف من جعله يلوذ بالفرار ؟ صانع أقفال موسكوفى ، آمر كتيبة حمراء . كان الأسرى يتحدثون عنه فيما بعد . عليك أن تفهم هذا ! وماذا عنا ، نحن الضباط غير المتعلمين ؟ هل قمنا بقيادة القوزاق قيادة فاشلة أثناء الانتفاضة ؟ هل قدم الجنرالات مساعدات كبيرة لنا ؟

فقال كوبيلوف مؤكدا :

— نعم ، قدموا مساعدات كبيرة .

— حسن ، ربما قدموا مساعدات لكودينوف ، أما أنا فقد عملت بدون مساعدتهم ودحرت الحمر دون الاصغاء الى نصائح الآخرين .

— حسن ، وماذا فى ذلك ؟ ألا تعتقد بضرورة تطبيق العلم فى الشؤون العسكرية ؟

— بلى . ولكن ، ما هذا بالشىء الرئيسى فى الحرب ، أيها الأخ .

— حسن ، فما هو اذن ، يا بانتلايفتش ؟

— القضية التى تحارب من أجلها .

فقال كوبيلوف وهو يكتم ابتسامته :

— حسن ، انما هذا موضوع آخر . . . وهو مما لا نقاش عليه . . . الفكرة ، فى هذه الحرب ، هى الشىء الرئيسى . المنتصر هو الذى يعرف من أجل أى شىء يحارب وهو الذى يؤمن بقضيته . هذه حقيقة قديمة قدم العالم نفسه ، ولا جدوى فى محاولتك التلويح بها وكأنها اكتشاف من بنات أفكارك . اننى أؤمن بالقديم ، بالأيام الخوالى الرضية . ولو كانت الأمور ستستحيل الى شكل جديد لما رفعت اصبعاً وذهبت الى أيما مكان أو حاربت لأيما سبب . ان جميع الذين هم فى صفنا انما يدافعون عن امتيازاتهم القديمة ، ويقمعون الشعب الثائر بقوة السلاح ، وما أنا وأنت الا من بين أولئك المقموعين . لقد كنت أدرس شخصيتك ، يا غريغورى بانتلايفتش ، منذ أجل طويل ، لكننى لا زلت غير قادر على فهمك .

فرد غريغورى وهو يمضى صوب المأوى :

— ستفهمنى فيما بعد . لنذهب الآن .

وكانت ربة الدار فى غضون ذلك تراقب كل حركة من غريغورى . ثم سألته والرغبة تحدوها لكسب مرضاته :

— أترغب فى شىء من اللبن ؟

— شكراً لك ، أيتها الأم ، ولكن لم يعد أمامى وقت لشرب اللبن . سأشرب منه شيئاً فيما بعد .

• • •

كان بروخور زيكوف واقفاً بجوار مأوى يعب اللبن الحامض من وعاء فى نهم شديد . ولم تطرف له عين فيما كان يراقب غريغورى يحل حصانه . فمسح شفتيه بكمه وتساءل :

— أذاهب الى مكان بعيد ؟ أتريدنى أن أصطحبك ؟

فاهتاج غريغورى وقال فى حنق شديد :

— علام تتعابث ، يا جرب ! ألا تعرف واجبك ؟ لِمَ لا يزال حصانى مربوطاً ؟ من المفروض أن تأتينى بحصانى ، أيها الشيطان النهم ! انك لا تنفك تلوك شيئاً ! والآن ، ارم تلك الملعقة من يدك . أين ضبطك ؟ يا جحراً لا قرار له !

فتمتم بروخور مستاء وهو يقتعد السرج فى استرخاء :

— وعلام هياجك ؟ أصرخ ما شئت ، ولكن بلا داع ! ومهما يكن من أمر فما أنت بذلك الشخص ذى السطوة والنفوذ ! أفلا أستطيع أن أتناول عضة أو رشفة قبل رحلة ؟ ففيم صراخك ؟

— لأنك تخذلنى ، يا مصارين الخنزير ! كيف تجرؤ على التحدث اليّ بهذه الصورة ؟ نحن ماضون فى الحال لمقابلة جنرال ، فابق عينيك مسلوخة الجلد ! لقد اعتدت أكثر مما ينبغى على التبسط على رؤسائك ! ما أنا بالنسبة لك ؟

ثم أصدر اليه غريغورى أمراً فيما كان يبتعد عنه نحو البوابة :

— كن على مبعدة خمس خطوات خلفى !

فتراجع بروخور والمراسلون الثلاثة الآخرون . وحين حاذى غريغورى كوبيلوف استأنف حديثه ، فسأله بلهجة ساخرة :

— حسن ، ما الذى لا تفهمه فى ؟ لعلى أستطيع توضيحه لك ؟

ومن غير أن يلاحظ كوبيلوف نبرة السخرية فى صوت غريغورى ولا صيغة سؤاله ، أجاب :

— الواقع أننى لا افهم موقعك فى هذه الشغلة ، هذا كل ما فى الأمر . فمن ناحية ، أنت تحارب فى صف النظام القديم ، ولكنك من الناحية الأخرى — واعذرنى ان كنت سأقولها بلا مجاملة — أشبه ما تكون ببلشفى .

فغامت سحنة غريغورى وتململ فى سرجه :

— بأى شىء تظهر بلشفيتى ؟

— أنا لا أقول انك بلشفى ، ولكنك أشبه ما تكون ببلشفى .

— وأنا أسألك : كيف ؟

— حسن ، خذ مثلاً طريقة كلامك عن الضباط وموقفهم تجاهك . ماذا تريدهم أن يفعلوا ؟ بل ، ماذا تريد أنت ، على وجه العموم ؟

قال كوبيلوف ذلك فى ابتسام وطيبة وهو يعبث بسوطه . واستدار ليلقى نظرة على المراسلين ، فوجدهم منهمكين فى مناقشة ما ، فرفع صوته :

— أنت مستاء لأنهم لا يعتبرونك نداً لهم ، لانهم يتعالون عليك . لكنهم على حق ، من وجهة نظرهم هم ، وعليك أن تدرك ذلك . صحيح أنك ضابط ، ولكنك بلغت هذه الرتبة عن طريق الصدفة ، فحسب . وحتى حين تكون مرتدياً بزة الضابط فانك تظل — واسمح لى ان أقولها بصراحة — قوزاقياً جامحاً فظاً . لا قواعد للسلوك لديك . تعبر عما فى نفسك بفظاظة وسوء . انك تفتقر الى جميع الصفات التى تعتبر

طبيعية لدى الرجل المتعلم . فمثلاً ، بدلاً من استعمال منديلك ، كما يفعل جميع المتعلمين ، تلجأ الى التمخط فى سبابتك وابهامك . وحينما تأكل ، تمسح يديك بساق جزمتك أو بشعرك . بعد الاغتسال ، لا تجد ضيراً فى التمسح بمرشحة خيل . وحين تقلم أظافرك ، اما أن تفعل ذلك قرضاً بأسنانك أو قطعاً بنصل سيفك . وأنكى من ذلك : فى الشتاء الماضى ، فى كاركينسكايا ، رأيتك تتكلم الى احدى النساء المثقفات ، وكان زوجها قد وقع أسيراً بأيدى القوزاق ، فكنت واقفاً تزرر أزرار بنطلونك أمام عينها .

فتساءل غريغورى وعلى فمه ابتسامة كظيمة :

— اذن كان من الأفضل أن اترك بنطلونى غير مزرر ؟

كان حصاناهما يسيران جنباً الى جنب ، واسترق غريغورى نظرة من طرف عينه الى كوبيلوف ، الى وجهه الطيب ، واستمع الى كلماته بشىء من التألم . وقال كوبيلوف مقطباً ومتضايقاً :

— ليس هذا المهم . انما ، كيف يتسنى لك أن تواجه امرأة حينما لايسترك سوى بنطلونك ، وأنت حاف ؟ حتى أنك لم تنشر سترتك على كتفيك ، اننى أتذكر ذلك جيداً . لا شك أن هذه أمور تافهة ، لكنها بمجموعها تكون شخصيتك كرجل . . . كيف أعبر لك عما أعنى ؟

— بأبسط ما تستطيع !

— حسن ، كرجل فى منتهى الفظاظة . ثم خذ طريقتك فى الكلام ! فظيعة ! بدلاً من «مقر» تقول «مقور» ، بدلاً من «جلاء» تقول «جلاع» ، بدلاً «من الواضح» تقول «يبدو كما لو أنه» . ثم ، كشأن جميع الأميين ، لديك رغبة جامحة فى استعمال الكلمات الأجنبية الرنانة . تستعملها بمناسبة وبدون

مناسبة ، وتشوهها بشكل يأبى على التصديق . وحينما يأتى ذكر المصطلحات العسكرية أثناء مؤتمرات هيئات الأركان — ككلمات «انفكاك» ، «تحويلات» ، «تحشدات» وما شاكل — فانك تحملق فى المتكلم باعجاب وأستطيع أن أقول بل بحسد .

فهتف غريغورى ، وقد علت وجهه سيماء المرح :

— ها انك بدأت تهذى !

ثم قال فيما كان يمسد على حصانه فيما بين أذنيه ويحك اهابه الحريرى الدافئ فيما تحت العرف :

— حسن ، امض فى حديثك . وبخ آمرك ما شئت !

— لا . اسمع ! لماذا أكون أنا ، بالذات ، من يوبخك ؟ يجب ان يكون واضحاً لديك تماماً انك لا أكثر من كونك سيئ طابع فيما يتعلق الامر بمثل هذه الاشياء . ثم تستاء لأن الضباط لا يعاملونك معاملة الندّ . وبقدر ما يتعلق الأمر بقواعد السلوك والثقافة فأنت لا أكثر من بليد !

خرجت كلمة الاهانة من فم كوبيلوف عفواً ، حتى ان كوبيلوف نفسه ذهل . كان يدرك مدى جموح غريغورى ساعة غضبه ، فبات يخشى ان ينفجر به . لكنه استرق نظرة سريعة اليه فاطمأنت نفسه فى الحال . كان غريغورى قد مال الى الخلف على سرجه ، وهو يضحك بلا صوت كاشفاً عن صف ناصع من الأسنان المتألقة من تحت شاربيه . فاستبدت الدهشة بكوبيلوف للأثر الذى تركته كلماته . وكانت ضحكة غريغورى معدية بحيث انفجر كوبيلوف ، هو الآخر ، ضاحكاً وهو يقول :

— انظر الى نفسك ! لو سمع مثل هذا التوبيخ رجل حصيف ، مكانك ، لجعل يبكى ، بينما انت تصهل ضحكاً فى لامبالاة . . . ما انت الا لغز محير !

وحين توقف غريغورى عن الضحك ، قال :

— تدعونى بليداً ؟ اذن ، عليك اللعنة ! أنا لا أريد أن أتعلم قواعد سلوككم وعاداتكم . فهى لن تكون ذات نفع لي حينما أسوق ثيرانى . ولكن اذا شاء الله وبقيت حياً ، فلسوف أعامل ثيرانى بطريقتى الخاصة ، ولن يجدينى شيئاً الانحناء لها قائلاً :

— آه ، استعطفك الا تحزن ، ياأصلع الرأس ! استميحك العفو ، يا ارقش ! اسمح لي أن أشد النير على عنقك ! يا سيدى العزيز ، يا ثور ، اننى اتوسل اليك ، بكل تواضع ، ألا تعيث فساداً فى سواقى الحرث ! ان عليك ان تكون أكثر حزماً معها : ها ها ها — هوب !» هذا كل ما تفهمه الثيران من تحميلاتك .

فصححه كوبيلوف بقوله :

— ليست «تحميلات» بل «تحويلات» .

— حسن ، تحويلات . لكن هناك شيئاً واحداً لا اتفق معك عليه .

— ما هو ؟

— من اننى بليد . فقد أكون بليداً بالنسبة اليك ، ولكن مهلاً ! أمهلنى وقتاً حتى انتقل الى جانب الحمر ، وحينما أكون معهم يصبح وزنى أثقل من الرصاص . وآنذاك ، يحسن بكم ألا تقعوا فى يدى ، أنتم أيها الطفيليون المهذبون ! فلسوف انتزع مصارينكم ، وأرواحكم معها كذلك !

قال غريغورى ذلك نصف هازئ ، نصف جاد . ثم لفح حصانه وانطلق به هذباً سريعاً .

كان الصباح فوق الاراضى الواقعة على جانب الدون يقدم متلفعاً بغلالة رقيقة من الصمت ، بحيث كان أى صوت ، حتى أصغر الأصوات ، خليقاً بافساد ذلك السكون واثارة جميع الأصداء . وفى السهب ، لم تكن سوى القبّرات وطيور السمان حرة طليقة ، اما فى القرى الصغيرة القريبة ، فكان يسمع ذلك الارعاد الخافت الموصول الذى يصاحب دائماً حركة قوات عسكرية كبيرة . عجلات عربات المدافع وعربات العتاد كانت تقعقع فوق نتوءات الطريق ، والخيول تصهل بجوار الابار ، وخطوات كتائب مشاة القوزاق المارة مكتومة خافتة ، وعربات «البريتزكا» وقوافل من العربات المدنية تحمل المؤن والعتاد الى الجبهة . وكانت ثمة رائحة طيبة تنبعث من مطابخ الميدان لدخن مسلوق ولحم معلب مطيب بأوراق الغار وخبز طازج .

وعلى مقربة من أوست–مدفيدسكايا نفسها ، كان تبادل اطلاق نار البنادق لا ينقطع ، ومن حين لآخر كان هدير رمى المدافع ينبعث كسولاً لا رنين له . كانت المعركة قد بدأت تواً .

كان الجنرال فتشالوروف يتناول طعام افطاره حينما دخل عليه مساعد متقدم فى السن بادي التعب ، وقال :

— قائد فرقة الثوار الاولى ، ميليخوف ، ورئيس هيئة اركان فرقته ، كوبيلوف .

— أطلب منهما الدخول الى غرفتى .

وبيد جسيمة كثيرة العقد نحّى صحنه بقشور البيض ، وشرب قدحاً من الحليب الطازج على مهل ، ثم قام عن المائدة وهو يطوى منشفته بحركة أنيقة .

وحينما نهض بدا ، بقامته الطويلة جداً وجسمه الهائل البدين من أثر الكبر ، جسيم الجرم الى حد يفوق التصور فى

تلك الغرفة القوزاقية الصغيرة برفارف بابها المائلة ونوافذها الصغيرة المعتمة .

ومضى الجنرال الى الغرفة الثانية وهو يتنحنح بصوت أجوف ويسوى الياقة العالية لبزته المحكمة عليه بشكل لا يقبل النقد . وانحنى انحناءة مقتضبة لكوبيلوف وغريغورى حينما قاما لمقدمه ، ومن غير أن يصافحهما أشار اليهما أن يجلسا الى المائدة .

فجلس غريغورى ، متهيباً ، على طرف المقعد وهو يعدل وضع سيفه بيده ، وألقى نظرة جانبية على كوبيلوف .

انهدّ فتشالوروف ، ثقيلاً ، على الكرسى الفيينـــي * ، فصرّ هذا من تحته ، وطوى ساقيه ووضع يديه الكبيرتين على ركبتيه ، وقال فى صوت خفيض غليظ :

— لقد دعوتكما الى الحضور هنا ، أيها السيدان ، بغية تسوية بضع قضايا . . . لقد انتهت حرب الثوار الأنصار . وعليه ، فسوف ينتهى اعتبار قواتكما وحدة مستقلة ، وهى — فى واقع الحال — لم تكن أبداً وحدة مستقلة . حديث خرافة ! لسوف تدغم مع «جيش الدون» . وسوف ننتقل الآن الى شن هجوم مخطط . لقد حان الوقت لكى تدركا ذلك ، وعليكما ان تخضعا ، بلا قيد أو شرط ، للأوامر الصادرة من القيادات العليا . هلا تفضلتما باعلامى عن السبب الذى جعل وحدة مشاتكما لا تساند هجوم فوج الصاعقة يوم امس ؟ لماذا رفضت الوحدة الاشتراك فى الهجوم ، على الرغم من أوامرى ؟ من هو قائد ما يسمى بفرقتكما ؟

أجاب غريغورى بصوت خفيض :

— أنا هو .

* نسبة الى فيينا ، عاصمة النمسا . المترجمون .

— هلا تفضلت بالاجابة عن السؤال ، اذن ؟

— أنا لم اعد الى الفرقة الا امس .

— واين امضيت وقتك الطيب قبل ذلك ؟

— كنت ازور اهلى .

— قائد فرقة يبيح لنفسه زيارة أهله أثناء العمليات الحربية ! ان فرقتك عبارة عن مجموعة دهماء ! فوضى مطبقة ! حالة منفرة !

وارتفع رعيد صوت الجنرال الجهورى أكثر فأكثر داخل الحيز المحدود للغرفة الصغيرة . وفى الخارج ، جعل المراسلون يمضون على رؤوس اصابعهم ، متهامسين ، متبسمين . وشحب اللون فى خدى كوبيلوف ، اما غريغورى فقد احس ، فيما كان يحملق فى وجه الجنرال وقبضتيه المنتفختين المضمومتين ، بغيظ جامح يستيقظ فى داخله هو الآخر .

وثب فتشالوروف قائماً ، فى خفة غير متوقعة ، وصرخ وهو يمسك بظهر كرسيه :

— ان من تقودهم ليسوا قوات حربية ، بل دهماء «الحرس الاحمر» ! ليسوا قوزاقاً ، بل حثالة البشرية ! أنت ، يا سيد ميليخوف ، لا تصلح كقائد فرقة ، بل يجب ان تعمل مراسلاً ! يجب ان تكون منظفاً للجزم ! اتسمعنى ؟ لم لم ينفذ الأمر ؟ لأنك لم تستطع ان تعقد اجتماعاً ولم يتسع لك الوقت لمناقشته ؟ افتح عينيك ! نحن لسنا «رفاقاً» ، هنا ، ولن نسمح بدخول الأساليب البلشفية . لن نسمح !

فقال غريغورى فى صوت غليظ :

— أجد لزاماً علىّ ان اطلب منك الا تزعق فى وجهى !

وقام ، دافعاً المقعد بقدمه .

فصرخ فتشالوروف فى صوت اجش ، وهو يلهث بانفعال ويميل عبر المنضدة :

— ماذا قلت ؟

وكرر غريغورى كلماته فى صوت اعلى :

— اجد لزاما علىّ ان اطلب منك ألا تزعق فى وجهي . لقد ارسلت فى طلبنا لكى نقرر . . . — وصمت ثانية ، وأنزل عينيه ، من غير ان يحيد بصره عن يدى فتشالوروف ، قال فى صوت يقرب من الهمس :

— اذا حاولت ، يا صاحب السعادة ، ان تضع مجرد اصبعك الصغيرة علىّ ، فلسوف اشطرك بسيفى فى الحال !

خيم على الغرفة صمت مطبق ، حتى لقد كان بالمستطاع سماع انفاس فتشالوروف اللاهثة بوضوح . ولبث الصمت زهاء دقيقة . ثم انبعث صرير من الباب . وأطل مساعد مرتعب خلل الخصاص . ثم أغلق الباب بحذر . ظل غريغورى واقفاً ويده ممسكة بمقبض سيفه . كانت ركبتا كوبيلوف ترتعشان ، وعيناه تجولان على الحائط . ثم قذف فتشالوروف بجسمه على الكرسى ، واطلق سعلة تنم عن كهولته ، وجمجم قائلاً :

— عمل رائع ! — ثم قال فى منتهى الهدوء ، لكن دون ان ينظر الى غريغورى :

— اجلس . لقد انفعلنا بعض الشىء ، وها قد زال الانفعال الآن . فهلا تفضلت بالاصغاء . انى آمرك بأن تنقل فى الحال جميع وحدات الخيالة . . . ولكن ، هلا جلست ؟

فجلس غريغورى . وبكمه مسح العرق الغزير الذى كان قد تفصد فجأة على جبينه .

— لنستمر . يجب ان تنقل جميع وحدات الخيالة الى

القطاع الجنوبى الشرقى وان تشرع بشن هجوم على الفور . ومن جناحك الأيمن ستكون على اتصال بالفوج الثانى تحت قيادة مقدم تشوماكوف . . .

فقاطعه غريغورى قائلاً بصوت كليل :

— لن أمضى بالفرقة الى هناك .

وأخرج من جيب بنطلونه منديله المقصب الذى اعطته اياه ناتاليا ، ومسح به من جديد العرق من جبهته ، وكرر قوله :

— لن أسير بالفرقة الى هناك .

— ولم لا ؟

— ان اعادة تجميع القوات ستستغرق وقتاً طويلاً . . .

— هذا ليس من اختصاصك . انا المسؤول عن نتيجة العملية .

— ولكن الأمر يتعلق بى ، ولن تكون انت المسؤول الاوحد .

فسأله فتشالوروف بصوت اجش وهو يكبح جماح غضبه فى مشقة :

— اذن فأنت ترفض تنفيذ الأوامر ؟

— نعم .

— فى هذه الحالة ، هلا تفضلت بتسليم قيادة الفرقة فى الحال . صرت ، الآن ، أفهم لماذا لم ينفذ الأمر أمس . . .

— تستطيع أن تفسر ذلك وفق ما يحلو لك ، لكننى لن اتنازل عن قيادة الفرقة .

— وكيف افسر ذلك ؟

— كما قلت أنا .

وابتسم غريغورى ابتسامة لا تكاد تلحظ .

فقال فتشالوروف رافعاً صوته :

— سأعزلك من القيادة !

بيد ان غريغورى قام على قدميه حالا :

— أنا غير خاضع لك ، يا صاحب السعادة !

— فلمن خاضع اذن ؟

— أنا خاضع لقائد القوات الثائرة ، كودينوف . ويدهشنى أن أسمع مثل هذا الكلام منك . . . ان لكلينا ، فى الوقت الحاضر على الأقل ، حقوقاً متساوية . أنت تقود فرقة ، وأنا أقود فرقة . وعليه ، يجدر بك — والحالة هذه — ألا تصرخ فى وجهى . أما حينما تنزل درجتي الى مرتبة آمر سرية ، فلك مطلق الحرية آنذاك ! ولكن ، حتى فى ذلك الوقت . . .

ورفع غريغورى سبابته المتسخة ، وأنهى جملته قائلاً ، وهو لا ينفك يبتسم حتى حينما ظلت عيناه تقدحان هياجاً :

— حتى فى ذلك الوقت ، لن ادع أحداً يتحارش بى !

فنهض فتشالوروف ، وسوّى ياقته الضيقة ، وقال منحنياً انحناءة خفيفة :

— اذن ، فلم يعد بيننا ما يمكن مناقشته . تصرف كما تشاء . اما انا فسوف ارفع على الفور تقريراً عن سلوكك الى هيئة اركان الجيش ، واستطيع أن أؤكد لك ، بان النتائج لن يتأخر ظهورها بأية حال . ان محكمتنا العرفية العسكرية العاملة فى الميدان تؤدى عملها فى الوقت الحاضر فى منتهى السرعة .

ومن غير ان يعير غريغورى نظرات كوبيلوف اليائسة أى اهتمام ، حط قبعته على رأسه واتجه نحو الباب . وعند العتبة ، توقف وقال :

— تستطيع أن ترفع عني تقريراً الى أية جهة تشاء ،

لكنك لن تستطيع اخافتى ! لست من مهتزى الأعصاب . . . وفى الوقت الحاضر ، يجدر بك الا تمسنى . . .

ولبث لحظة متفكراً ، ثم أضاف قائلاً :

— لأننى أخشى أن يخضك رجالى خضة خفيفة . . .

ورفس الباب بقدمه فانفتح ، ثم مضى يخطو خطوات متأرجحة نحو السقيفة ، وسيفه يجلجل .

لحق به كوبيلوف المنفعل عند درجات العتبة ، وقال هامساً وهو يعتصر يديه قانطاً :

— أنت مجنون ، يا بنتلاييفتش !

فهتف غريغورى فى صوت مرنان :

— الخيل ! — ويداه تسحقان سوطه . فانطلق بروخور ، كالشيطان ، الى الدرجات . وبينما كان غريغورى يسير على حصانه خلال البوابة ، نظر الى الخلف . كان ثلاثة مراسلين يضجون حول الجنرال فتشالوروف ويعينونه على امتطاء السرج الأنيق لحصانه العالى .

قطع غريغورى وكوبيلوف زهاء نصف فرست صامتين . خلد كوبيلوف الى الصمت لأنه أدرك أن غريغورى لم يكن ميالاً للحديث ، وأن من الخطر فى تلك اللحظة مناقشته . وأخيراً ، لم يستطع غريغورى أن يكبح نفسه أكثر من ذلك ، فسأله محتداً :

— علام سكوتك ؟ لم جئت معى ، اذن ؟ لتكون شاهداً ؟ لقد تعمدت السكوت ، أليس كذلك ؟

— أنت ، يا أخ ، لعبت لعبتك .

— الم يفعل هو الشىء نفسه ؟

— لنفرض انه لم يكن على حق . طريقة كلامه معنا كانت طريقة مثيرة ، على كل حال .

— لا يمكننى أن أقول انه تحدث الينا . مطلقاً . فمن البداية راح يطلق زعيقاً ، وكأن أحداً قد ثبت ابرة فى فتحة شرجه !

— مهما يكن من أمر ، فلقد اقترفت عملاً لا تحسد عليه ! عدم الانصياع لضابط أقدم . . . وفى ظروف العمليات الحربية ، يا صديقى ان . . .

— هذا لا قيمة له ! اسفى الوحيد انه لم يحاول مهاجمتى . والا لهويت بسيفى عليه حتى شطرت له جمجمته .

فقال كوبيلوف مستاء :

— لن تستطيع ، والحالة هذه ، ان تتوقع خيراً من هذا .

وأبطأ سير حصانه حتى غدا يمشى وئيداً :

— كل الدلائل تشير الى انهم سيتشددون فى تطبيق الضبط ، فيحسن بك ان تأخذ حذرك .

ومضى حصاناهما جنباً الى جنب يزنخران ويهشان الذباب بذيليهما . أجال غريغورى نظرة ساخرة فى كوبيلوف وسأله :

— لم تأنقت فى ملبسك على هذه الصورة ؟ أحسب أنك ظننت أنه سيدعوك لتناول قدح من الشاى ؟ ظننت انه سيأخذك الى المائدة بيده الرقيقة هو ؟ حلقت ذقنك ونظفت قمصلتك ولمعت جزمتك . . . رأيتك تبصق على منديل جيب وتزيل به بقعاً من على ركبتيك !

فاحمر وجه كوبيلوف وقال :

— كف عن هذا الكلام ، ارجوك .

بيد ان غريغورى استمر ساخراً :

— ثم ذهبت كل جهودك عبثاً . وليس هذا فقط ، بل انه لم يصا فحك باليد .

فتمتم كوبيلوف عجلاً :

— بوجودك ، كان محتملاً ان تؤول الأمور الى أسوأ من ذلك .

— ثم ضيق عينيه وهتف بمزيج من الدهشة والفرح :

— انظر ! هؤلاء ليسوا من جماعتنا . انهم الحلفاء .

كانت مجموعة تتألف من ستة بغال تجر مدفعاً انكليزياً تتقدم باتجاههم فى الشارع الضيق . وبجانب المدفع كان ضابط انكليزى يسير على حصان أشقر معقود الذيل . وكان راكب البغل الأمامى مرتدياً الزى الانكليزى كذلك ، الا أنه كان يحمل شارة ضابط روسى على شريط قبعته ، وكان يحمل على كتفه شارات ملازم .

وحينما كان الضابط لا يزال على مبعدة عدة خطوات من غريغورى ، رفع اصبعين الى رفرف خوذته الفلينية ، وطلب الى غريغورى ، بحركة من رأسه ، ان يفسح الطريق . كان الشارع ضيقاً الى حد انه لم يكن بالمستطاع المرور الا بصف الخيول بحذاء الجدار الحجرى .

ارتعشت العضلات فى وجنتي غريغورى . فمضى متجهاً صوب الضابط مباشرة ، وأسنانه تصر حنقاً . فرفع الضابط حاجبيه دهشة ، وتنحى جانباً بعض الشىء . فمروا بصعوبة ، حتى انه تعين على الانكليزى ان يضع ساقه اليمنى ، الملفوفة بشداد جلدى ضيق ، على الكفل المطمر* المتألق لفرسه الاصيلة .

فاجال واحد من فريق المدفعية ، كان يبدو ضابطا روسيا ، نظرة مغضبة فى غريغورى وقال :

---

* المطمر : الممشط بمطمار ، وهو مشط خاص بالحيوانات . المترجمون .

— كان بمستطاعك ان تتنحى قليلا على ما أظن . ام تريد أن تعرض فظاظتك ؟

فقال له غريغورى ناصحاً فى صوت يكاد يكون مرتفعاً :

— مُرّ بلا كلام ، يا ضرع الكلبة ، والا نحيتك الى الابد !

فانهض الضابط قامته على مقعده ، واستدار ، وهتف :

— ايها السادة ! اقبضوا على هذا الصعلوك !

فواصل غريغورى سيره الوئيد وهو يؤرجح سوطه فى حركة ذات مغزى . فالقى عليه المدفعيون التعبون المغبرون نظرات ساخطة ، وكانوا جميعاً ضباطاً شباناً لا شوارب لهم ، بيد انهم لم يحاولوا قط ان يوقفوه .

ثم اختفت البطارية ذات المدافع الستة وراء منعطف ، فمضى كوبيلوف على صهوة حصانه الى جانب غريغورى وهو يعض شفتيه :

— أنت تلعب دور الاحمق ، ياغريغورى بنتلاييفتش . أنت تتصرف مثل طفل صغير .

فرد عليه غريغورى بحدة :

— ماذا ، هل الحقوك بي بصفتك معلماً ؟

فقال كوبيلوف هازاً عارضيه :

— أنا استطيع أن أفهم سبب غضبك على فتشالوروف ، ولكن ما علاقة هذا الانكليزى بذلك ؟ لم تعجبك خوذته ؟

— لم تعجبنى ، ان اراها هنا ، على مقربة من اوست — مدفيتسكايا . . . كان بمقدوره أن يلبسها فى مكان آخر . . . حينما يتناهش كلبان ، ليس لثالث ان يتدخل بينهما . اتفهمنى ؟

— آها ! اذن فأنت ضد فكرة التدخل الاجنبى ؟ ولكنك ، فى اعتقادى ، حينما يضيق الخناق على بلعومك ،

ستسر لأية مساعدة تأتيك .

— حسن ، بامكانك أن تبتهج ، بيد اننى ما كنت لأدعهم يضعون اقدامهم على ترابنا .

— الم تر الصينيين يحاربون الى جانب الحمر ؟

— ثم ماذا ؟

— أليس هذا الشىء نفسه بالضبط ؟ انهم أيضاً يمثلون معونة اجنبية ، كما لا يخفى عليك .

— هذا غير وارد . فالصينيون قد تطوعوا لمساعدة الحمر .

— وهل تظن ان الآخرين قد اجبروا على المجيء هنا ؟

ولم يدر غريغورى بما يجيب ، ولبث وقتاً طويلاً يقلب الفكر فى سؤال كوبيلوف . ثم قال ، وفى صوته ألم ظاهر :

— أنتم ، المثقفين ، دائماً على هذه الشاكلة . تلفون وتدورون كما تفعل الأرانب فى الثلج . أنا أشعر بأن وجهة نظرك خاطئة فى موضع ما ، لكننى لا أدرى كيف أفحمك . فلنؤجل بحث الموضوع . لا تشوش فكرى ، فأنا المشوش قبل أن تتدخل فى الموضوع .

فخلد كوبيلوف الى الصمت مستاء ، ولم ينبسا بشىء بقية المسيرة . غير أن بروخور اقترب منهما بحصانه وتساءل والفضول يستحثه :

— ياغريغورى بانتلاييفتش . . . يا صاحب السعادة . . . هل لك ان تخبرنى اى نوع هى تلك الحيوانات التى كان «الكاديت» قد ربطوها الى المدافع ؟ ان لها آذانا كآذان الحمير ، لكن بقية جسمها كالخيل الحقيقية . كدت لا اتحمل مجرد رؤيتها . فما هى ، بحق الشيطان ؟ هل تتكرم باخبارى ، فلقد تراهنا على ذلك . . .

وظل بروخور ما يزيد على خمس دقائق ماضياً وراءهما ، ولكن دون ان يحصل على جواب . ثم عاد ادراجه ، وحينما حاذاه المراسلون الآخرون ، اخبرهم همساً :

— ليس لديهما ما يقولانه ، أيها الاخوة . وأحسب أنهما ، أيضاً ، يمعنان الفكر فى كيفية خروج هذه الحيوانات النجسة الى هذه الدنيا !

١١

مرة رابعة ، قامت سرايا القوزاق من الخنادق الضحلة ، ثم انبطحوا فيها من جديد تحت وطأة نيران رشاشات الحمر الفتاكة . فمنذ الفجر الباكر ، كانت بطاريات الجيش الأحمر المخبأة فى الغابة على الضفة اليسرى تمطر بقنابلها ، دون توقف ، مواقع القوزاق والقوات الاحتياطية المتجمعة فى الأخاديد .

واندلعت فوق المرتفعات القائمة على جانب الدون سحائب قنابل المنثار ، ذائبة ، بيضاء كالحليب . ومن أمام الخط المنكسر لخنادق القوزاق ، ومن ورائها ، كان الرصاص المنهمر يثير غباراً بنى اللون .

ومع اقتراب الظهر ، اشتدت حومة القتال ، وراحت الريح الغربية تحمل هدير المدفعية مسافات بعيدة حدر الدون .

ظل غريغورى يراقب سير المعركة خلل نظارات الميدان من نقطة مراقبة تابعة لبطارية متمردين . وكان فى مقدوره ان يرى الى سرايا الضباط تقتحم المعركة بعناد ، رغم خسائرها ، فى سلسلة من الاندفاعات القصيرة . وحينما اشتدت عليهم النار انبطحوا على الأرض ، يتخندقون ، ثم قاموا ليتقدموا ، فى سلسلة أخرى من

الاندفاعات ، نحو نقطة جديدة . أما من ناحية اليسار البعيدة ، فى اتجاه الدير ، فلم يكن مشاة المتمردين يبدون أية علامة من علامات الفاعلية مطلقاً . فكتب غريغورى ملاحظة وأرسلها بيد ساع الى يرماكوف .

بعد نصف ساعة ، جاء يرماكوف على صهوة حصانه ، هائجاً ، فترجل بحذاء مربط البطارية وشق طريقه نحو خندق نقطة المراقبة مبهور النفس . وهتف وهو لما يزل على مبعدة يسيرة ، ملوحاً بيديه :

— أنا عاجز عن اجبار القوزاق على التقدم . لن يتقدموا ! لقد خسرنا حتى الآن ثلاثة وعشرين رجلاً ، راحوا وكأنهم لم يكونوا . هل رأيت كيف حصدهم الحمر برشاشاتهم ؟

فصر غريغورى من بين أسنانه قائلاً :

— الضباط يتقدمون ، وأنت تخبرنى بانك عاجز على انهاض رجالك ؟

— ولكن ، ألا ترى ؟ لكل فصيل منهم رشاشة خفيفة ، وهم متدججون بالرصاص الى حواجبهم . وماذا عندنا ؟

— لا تختلق الأعذار ! أجبرهم على شن الهجوم على الفور والا قطعنا رأسك .

فقذف يرماكوف شتيمة بذيئة وهرع حدر الربوة . فتبعه غريغورى ، عازماً على قيادة كتيبة المشاة الثانية بنفسه الى المعركة . وعلى مقربة من مدفع الجناح الذى كان قد أخفي بمهارة تحت اغصان الزعرور البرى ، استوقفه آمر البطارية قائلاً :

— تعال ياغريغورى بنتلاييفتش ، وتأمل فى عمل اليد البريطانية . انهم على وشك فتح النار على الجسر . فلنذهب الى قمة المرتفع .

ومن خلال نظارات الميدان استطاعا ان يميزا جسر الزوارق الذى مده المهندسون الحمر عبر الدون ، وكان يبدو مثل شريط رفيع ، وعربات النقل تندفع عبره فى سيل لا ينقطع .

بعد حوالى عشر دقائق ، شرعت البطارية تطلق النار من موضعها فى اخدود يقع وراء حيد صخرى . وما ان انفجرت القذيفة الرابعة حتى تحطم الجسر فى وسطه تقريباً . فتوقف سيل العربات . وهرع جنود الجيش الأحمر يقذفون العربات المحطمة والخيل القتيلة فى النهر .

انطلقت أربع جنيبات من الضفة اليمنى محملة بالمهندسين ، بيد انه ما ان أفلحوا فى اصلاح الألواح المكسورة للجسر ، حتى ارسلت البطارية البريطانية حزمة أخرى من القذائف نحـــو الجسر . فأصابت واحدة منها المعبر المنحدر الواقع على الضفة اليسرى وأرسلته شظايا فى الهواء ، وارتفع ، اثر القذيفة الثانية ، عمود أخضر من الماء بحذاء الجسر تماماً ، ومن جديد توقف سيل العربات .

فقال آمر بطارية غريغورى فى اعجاب :

— هدافون رائعون ، ابناء العواهر اولاء ! لن يدعوهم يعبرون النهر قبل حلول الليل . لن يظل هذا الجسر كاملاً لحظة واحدة .

فتساءل غريغورى دون أن يرفع عينيه عن نظارة الميدان :

— ولكن لماذا مدافعك ساكنة ؟ الواجب ان تدعم مشاتكم . لا ريب انك تستطيع أن ترى اوكار رشاشات الحمر بوضوح كاف .

— يسرنى لو استطعت دعم مشاتنا ، لكننا لم نعد نملك ولا قذيفة واحدة . مضت نصف ساعة منذ أن أطلقت قذيفتى الأخيرة وبعدها شرعت بالصيام .

— اذن فيم وقوفك هنا ؟ ضع العدة على خيلك واتخذ طريقك .

— لقد أرسلت الى الكاديت فى طلب القذائف .

فرد غريغورى حاسماً :

— لن يدعوك تحصل على اية قذيفة .

— رفضوا مرة ، فارسلت طلباً ثانياً . قد يعطفون على حالنا هذه المرة . قد يدعوننا نحصل على دزينتين لتدمير هذه المدافع الرشاشة بالذات فقط . ليس هزلاً أن يصرعوا ثلاثة وعشرين من رجالنا . وكم سيحصدون فوق هذا العدد ؟ انظر اليهم كيف ينسلون !

فادار غريغورى بصره ناحية خنادق القوزاق . فى المنحدر القريب ، كان الرصاص لايزال يرفس التراب الجاف . وحيثما مر خط نار الرشاش ، ارتفع شريط من الغبار ، وكأن يداً خفية كانت ترسم خطا رمادياً رفيعاً فوق الخنادق . فبدت خنادق القوزاق بكاملها وكأنها ترسل دخاناً فوقها ، اذ كان الغبار يلبث عالقاً كالسحاب .

لم يعد غريغورى يتابع نار البطارية البريطانية . ولبث لحظة يتسمع الى الهدير المتواصل للمدفعية والرشاشات ، ثم خطا هابطاً من الربوة ولحق يرماكوف قائلاً :

— لا تشن الهجوم الا بعد أن تتسلم منى الأوامر . لن نستطيع أن نزيحهم من غير اسناد المدفعية .

فقال يرماكوف لائماً ، وهو يمتطى حصانه الجامح بسبب الركض والرمى :

— الم اقل لك هذا ؟

وراقب غريغورى يرماكوف فيما انطلق هذا بلا وجل على حصانه هذباً تحت سيل النار ، وقال محدثاً نفسه :

— لماذا ، بحق ابليس ، اتخذ الطريق المباشر ؟ لسوف يحصدونه برشاشة . كان يجدر به ان يهبط داخل الاخدود ويتبع مجرى الماء دائراً حول التل حتى يبلغ رجاله .

وفى سرعة جنونية انطلق يرماكوف صوب الاخدود ثم غاص فيه ولم يظهر ثانية فى الجانب الابعد .

— اذن فهم . الآن سيصل سالماً .

وتنفس غريغورى الصعداء ، واضطجع تحت المرتفع وهو يلف سيكارة على مهل .

وفجأة تملكه شعور غريب من اللامبالاة . لا ، لن يقوم بقيادة القوزاق الى المعركة تحت نار المدافع الرشاشة . لا معنى فى ذلك . ليشن ضباط سرايا الصاعقة الهجوم . ليقوموا باحتلال أوست–مدفيتسكايا .

وثمة ، حيث اضطجع تحت المرتفع ، ولأول مرة فى حياته ، نحى عن ذهنه ، بشكل مباشر ، فكرة الاشتراك فى معركة . ولم يكن ما تحكم فى قراره فى تلك اللحظة جبن او خوف من الموت او من الخسائر اللامجدية . فلم يكن قد مضى زمن طويل منذ كان يسترخص حياته وحياة القوزاق الموكلة اليه قيادتهم . أما الآن ، فيبدو وكأن شيئاً ما قد انكسر . . . لم يحدث قط فى السابق أن أدرك بمثل هذا الوضوح عبث ما كان يدور حوله . فلعل حديثه مع كوبيلوف ، او صدامه مع فتشالوروف ، او كلتا الحادثين معا ، قد أثار فيه هذه الحالة النفسية التى تملكته على غير ميعاد . مهما يكن من امر ، فقد قرّ عزمه على الا يعرّض نفسه للنار مطلقـــــاً . وخطر له بغموض ، أن ليس من اختصاصه أن يقوم بدور الموفق بين القوزاق والبلاشفة ، فهو نفسه كان أنأى من أن يستطيع التوفيق معهم . لكنه ، فى الوقت نفسه ، شعر بانه لم يعد قادرا ، ولن يعمل فى المستقبل ، على الدفاع عن كل هؤلاء الناس الذين كانوا يعمل فى المستقبل ، على الدفاع عن كل هؤلاء الناس الذين كانوا غرباء فى الروح عنه ، معادين له — كل هؤلاء الفتشالوروفيين الذين كانوا

يحتقرونه احتقارا فظيعا ، والذين كان هو يحتقرهم بما لا تقل عن فظاعة احتقارهم له . ومرة أخرى وجد نفسه وجهاً لوجه مع التناقضات القديمة بكل انغلاقها وامتناعها على الفهم .

— دعهم يقاتلون . لسوف اقف واتفرج . وحالما أعفى من قيادة الفرقة ساطلب منهم ارسالى الى المؤخرة . لقد حصلت على كفايتى .

وعاد ذهنه الى جدله مع كوبيلوف ، ووجد انه كان يحاول ان يعثر على مبرر لصالح الحمر .

— لقد جاء الصينيون صفر الايدى . ينضمون اليهم ويخاطرون بحياتهم كل يوم لقاء ما يتلقاه الجنود من راتب بائس . ثم ، ما علاقة الراتب بالأمر ؟ ما الذى تستطيع ابتياعه به ، بحق الشيطان ؟ لا تستطيع الا خسرانه على مائدة القمار . . . اذن ، فالمسألة ليست الحصول على النقود ، بل شىء آخر . ومع ذلك ، فالحلفاء يرسلون ضباطاً ودبابات ومدافع ، حتى انهم ارسلوا بغالاً ! لكنهم سيطالبون فيما بعد بكومة محترمة من الروبلات . هذا هو الفرق ، أجل ، لسوف نتناقش فى الموضوع كرة اخرى هذا المساء . حالما أصل الى مقر الأركان ساستدعيه جانباً وأقول : بل ان هناك فرقاً ، ياكوبيلوف . . . فلا تحاول أن تستغفلنى .

لكن . . . لم يقدر له ان يجدد نقاشه مع كوبيلوف . ففى ظهيرة ذلك اليوم ، انطلق كوبيلوف على صهوة حصانه نحو الكتيبة الرابعة ، التى كانت قد اودعت الى الاحتياط ، وفى الطريق صرعته رصاصة طائشة . ولم يعلم غريغورى بمصرعه الا بعد مرور ساعتين .

فى الصباح التالى استولت الفرقة الخامسة ، بقيادة الجنرال فتشالوروف ، على اوست–مدفيتسكايا بهجوم مباغت .

١٢

بعد رحيل غريغورى عن تنارسكى بثلاثة أيام ، ظهر فيها ميتكا كورشونوف * . لم يكن وحيداً . كان يصطحبه زميلان من المفرزة التأديبية التى كان يعمل فيها . كان احدهما كالميكيا كهلاً ، والثانى قوزاقياً قميئاً تافهاً . وكان ميتكا يوجه كلامه الى الكالميكى فى ازدراء ، فى حين كان لا ينفك يبجل القوزاقى ، وكان هذا سكيراً خبيثاً وضيعاً يدعى سيلانتى بتروفتش .

وكان جلياً ان ميتكا لم يقصر فى خدمة «جيش الدون» خلال نشاطاته فى المفرزة التأديبية . وكان قد رقي خلال الشتاء الى رتبة رئيس عرفاء ثم الى حامل علم ، فلما بلغ القرية كانت تحف به كل مظاهر العظمة التى تضفيها بزة الضابط عليه . وبدا أنه كان قد عاش عيشة رضية أثناء حركة التراجع عن الدون . كانت قمصلته الخاكية الفاتحة مشدودة على منكبيه العريضين ، وطيات وردية دهينة من الجلد جاثمة على ياقته العالية الضيقة ، وبنطلونه الأزرق المقلم قد ضاق عليه حتى كاد يتمزق عند الردفين . وبهذه الصفات الظاهرية كان يمكن لميتكا ان يكون من بين الحرس الخاص للأتمان ** ، وان يعيش فى القصر مدافعاً عن قداسة شخص صاحب الجلالة الامبراطورية . . . هذا لو لم توجد هذه الثورة اللعينة . ومع ذلك ، فلم يكن لديه ما يشكو منه فى هذه الحياة . لقد أفلح فى الوصول الى رتبة ضابط ، ليس كغريغورى ميليخوف عن طريق

---

* اخو ناتاليا ، زوجة غريغورى . **المترجمون** .

** الاتمان هو الزعيم او الرئيس ، والمقصود بالحرس الخاص للاتمان هنا : الحرس القيصرى الخاص . **المترجمون** .

المخاطرة برأسه والاندفاع فى بطولات طائشة . فلقد كانت الخدمة فى المفرزة التأديبية تستدعى صفات أخرى . وقد كان ميتكا يتمتع بما يفيض عن الحاجة من هذه الصفات . ولما كان لا يثق كثيرا بالقوزاق الآخرين فانه اخذ على عاتقه ، نفسه ، مهمة تصفية الحساب مع كل من اشتبه به بلشفياً . ولم يكن يضيره ان يعالج أمر الجنود الفارين بيديه هو ، مستعملاً سوطه أو مدك بندقية . أما فى الاستجواب ، فلم يكن فى المفرزة من يضاهيه ، وكان الآمر نفسه يهز كتفيه ويقول :

— قولوا ما شئتم ، أيها السادة . فليس هناك من يغلب كورشونوف . انه ليس من البشر ، انه تنين !

كما ان ميتكا كان يتميز بصفة بارزة أخرى . فحيثما لم يكن من المستحسن قتل الأسير رمياً بالرصاص ، وفى الوقت نفسه لم يكن مناسباً اطلاق سراحه ، يحكم عليه بالضرب بالعصا ، فكان يعهد الى ميتكا بتنفيذ العقاب . وكان يؤدى المهمة بشكل حاذق بحيث ما ان يكون المحكوم قد تلقى الضربة الخامسة عشرة حتى ينكفئ ويتقيأ دماً ، وبعد الضربة المائة يقوم القوزاق الاخرون بلف المحكوم بالخيش ، على نحو ينم عن ثقتهم بموته حتى دون الحاجة الى الكشف عن دقات قلبه . ولم يحدث قط ان أفلت رجل صدر عليه حكم كهذا من يدى ميتكا حياً . ولقد صرح ميتكا نفسه ، اكثر من مرة ، متضاحكا :

— لو ان البنطلونات والتنورات اخذت من جميع الحمر الذين جلدتهم ، لاستطعت ان أكسى بها قرية تنارسكى عن آخرها» .

لقد وجدت القساوة المميزة لطبع ميتكا منذ طفولته خير مرتع لها فى المفرزة التأديبية ، ولما لم يكن ثمة ما يلجمها نمت على

نحو خارق للعادة . وبحكم طبيعة عمله ، صار على اتصال بحثالات طبقة الضباط ، بمدمنى المخدرات وهتكة الأغراض والنهابين وبقية الفصائل الدنيا ، وقد تعلم ، طوعاً وبالمثابرة المعهودة فى الفلاح ، كل ما كان فى استطاعة اولئك تعليمه — بحكم بغضهم للجمر — ، ولم يصعب عليه أن يتفوق على اساتذته فى عملهم . وحيثما كان ضابط ضعيف الأعصاب ، أنهكه دم الآخرين المسفوح وعذاباتهم ، يعجز عن المضى فى التعذيب ، لم يكن ميتكا يزيد على أن يضيّق عينيه الصفراوين المتلامعتين ويتولى انهاء المهمة عن آخرها .

هوذا ميتكا اذن وقد ترك وحدته القوزاقية ووجد حياة هنيئة فى المفرزة التأديبية التابعة للعقيد بريانيشنكوف .

وحينما بلغ القرية ، راح يمضى على حصانه متباطئاً نحو بيته ، فى اعتزاز وأنفة ، لا يكاد يتنازل للرد على انحناءات النسوة العابرات . وترجل عن حصانه عند البوابات التى كانت النار قد التهمت معظمها ولطخت بقاياها بالدخان ، وناول الكالميكى العنان وخطا ، افخج الساقين ، نحو الفناء . سار صامتاً ، يصحبه سيلانتى ، حول أسس الدار . وبطرف سوطه مس كتلة من زجاج النوافذ خضراء اللون كانت قد ذابت اثناء اندلاع النيران ، وقال بصوت ابحه الانفعال :

— أحرقوه عن آخره . وكان بيتاً غنياً ، أحسن ما فى القرية . أحرقه واحد من ابناء قريتنا ميشا كوشيفوى . وقتل جدى ، أيضاً . حسن ، يا سيلانتى بتروفيتش ، لقد زرت بيتى ومربعى . . .

فتساءل سيلانتى فى الحال :

— هل بقى أحد من آل كوشيفوى ؟

— لا بد . لكننا سنراهم فيما بعد . . . لنذهب الآن الى نسيبنا .

وفى الطريق الى بيت ميليخوف صادف ميتكا كنّة بوكاتيريوف فسألها :

— هل رجعت أمى من الجانب الآخر للدون ؟

— لا أظن ، يا ميترى ميرونوفتش * .

— حسن ، فهل ميليخوف فى داره ؟

— تقصد العجوز ؟

— أجل .

— فى داره . العائلة كلها هناك ما عدا غريغورى . بيوتر قتل فى الشتاء الماضى ، هل سمعت بذلك ؟

فأومأ ميتكا برأسه ايجاباً ، وأطلق لحصانه العنان .

مضى فى الشارع المهجور ، وعيناه الصفراوان الشبيهتان بعينى القط باردتان هامدتان لا أثر فيهما لتأثره السابق . وبينما كان يتوجه نحو فناء آل ميليخوف قال فى صوت خفيض ، دون أن يوجه كلامه الى اى من رفيقيه على وجه التخصيص :

— هكذا تستقبلك قريتك . يتعين علىّ ان اذهب الى أقارب طلباً للغذاء . . . حسن ، لسوف تكون لنا وقفة أخرى .

كان بانتلاى بروكوفييتش يصلح ماكنة حصاد تحت مأوى . وحينما أحس بمقدم رجال على خيل وميّز بينهم كورشونوف ، قام وسار باتجاه البوابة . وقال مستضيفاً وهو يفتح البوابة الصغيرة :

— تفضلوا على الرحب والسعة . يسرنا أن نستقبل ضيوفاً . مرحباً بعودتك .

— هلو ، أيها الأب ! هل الكل أحياء يرزقون ؟

— الحمد لله ، يرزقون حتى الآن ! ولكن ، هل تراك

---

* اسم ميتكا الكامل هو : ميترى ميرونوفتش كورشونوف . **المترجمون.**

ستمضى هنا وهناك ببزة الضابط هذه ؟

فرد ميتكا فى لهجة واثقة وهو يمد يده الطويلة القوية لمصافحة العجوز :

— عجبا ، هل تظن بان ولديك هما الوحيدان الجديران بحمل الشارات البيض ؟

فأجاب بانتلاى بروكوفييتش متبسماً :

— لم يكن ولداي متلهفين للحصول عليها !

ومضى متقدماً ليدل القادمين الجدد الى حيث يربطون خيولهم .

قدمت ايلينشنا المضيافة غداء للضيوف ، ثم عرجوا للحديث . فاستفسر ميتكا بالتفصيل عما يخص عائلته ، وكان خلال ذلك جامد التعبير ، لا ينمّ وجهه عن غضب أو حزن . وسأل عرضاً ، عما اذا بقي أحد من عائلة ميشا كوشيفوى فى القرية ، وحين علم بأن أمه وأطفالها ما زالوا فى كوخهم ، غمز لسيلانتى بعينه غمزة سريعة دفينة .

وسرعان ما استعد الضيوف للرحيل . فخرج بانتلاى لتوديعهم ، وتساءل قائلاً :

— اعازمون على البقاء مدة طويلة فى القرية ؟

— الواقع . . . أجل . . . يومين او ثلاثة . . . ربما .

— هل سترى والدتك ؟

— هذا يعتمد على الظروف .

— وهل أنت ذاهب الآن الى مكان بعيد ؟

— اثـ . . اثـ . . سنرى بعض الناس فى القرية . وسنعود بعد قليل .

وقبل أن يتسنى لميتكا ورفيقيه أن يعودوا الى بيت ميليخوف ، كانت الشائعة قد انتشرت فى القرية كلها بان كورشونوف قد وصل

بصحبة كالميكيين وبأنه قد قتل جميع عائلة كوشيفوى .

لم يسمع بانتلاى الخبر . كان قد ذهب الى الحداد ، ثم عاد ، وكان يعالج ماكنة الحصاد من جديد حين استدعته ايلينشنا :

— اسمع ، بروكوفييتش ! أسرع !

وكانت فى صوت العجوز نبرة هلع واضح ، فاتجه بانتلاى دهشاً نحو البيت فى الحال .

كانت ناتاليا واقفة بجانب الموقد ، شاحبة ، مخضلة الوجه بالدموع . واشارت ايلينشنا بعينيها الى زوجة أنيكوشكا ، وسألته بصوت خفيض :

— هل بلغك الخبر ، يا أب ؟

وفى الحال ضجت الفكرة فى رأس بانتلاى :

— لقد اصاب شىء ما من غريغورى . ارحمه يا رب ، واحمه !

واستحال لون وجهه شاحباً . ولما لم ينطق احد بشىء استبد به الغضب والخوف ، فصرخ :

— ابصقوا النبأ ، عليكم اللعنة ! ماذا حدث ؟ شىء له علاقة بغريغورى ؟

وكأن صرخته كشفت عن يأسه ، فتهاوى على المصطبة وجعل يمسد ساقيه المرتعشتين .

وكانت دونيا أول من أدرك بأن والدها كان يخشى انباء سيئة عن غريغورى ، فقالت على عجل :

— لا يا ابتاه ، ليس الخبر عن غريغورى . لقد قتل ميتكا عائلة كوشيفوى .

وانزاح الثقل ، فى الحال ، عن قلب بانتلاى :

— ماذا تقصدين بـ«قتل» ؟

وكان لا يزال غير مستوعب لما قالته دونيا ، فاستفسر من جديد :

— عائلة كوشيفوى ؟ ميترى ؟

وشرعت زوجة انيكوشكا ، التى كانت قد هرعت بالنبأ الى آل ميليخوف ، تتأتئ بالقصة :

— كنت ابحث عن عجلنا ، ايها الشيخ ، وصادف ان كنت مارة بكوخ آل كوشيفوى ، ورأيت ميترى وجنديين يمضون على خيلهم الى الفناء ثم يدخلون الكوخ . وكنت افكر هكذا : العجل لن يسرح الى ابعد من الطاحونة . كان دورى فى رعى العجول . . .

فقاطعها بانتلاى مغضبا :

— فيم عساى ، بحق الشيطان ، اريد أن أسمع قصة عجلك ؟

فاستأنفت المرأة حديثها ناشجة :

— . . . ودخل الكوخ ، ووقفت أنا أنتظر . وقلت فى نفسى ، انهم ينوون شراً . وسمعت صراخاً من الداخل ، وكنت استطيع سماع الضربات . كنت خائفة حتى الموت . اردت أن اهرب ، لكننى ما كدت اخطو خطوة واحدة من السياج حتى سمعت وقع اقدام ورائى . ادرت عينى . فاذا بميتكاكم هناك وقد القى حبلاً حول عنق العجوز ، وكان يجرها على الارض وكأنها كلبة ، غفرانك يارب ! جرها الى المأوى وهى — المسكينة — لا تنبس بشىء . لا بد انها كانت غائبة عن الوعى . ثم ارتقى الكالميكى الذى كان معه عارضة خشبية فى السقف . . . وبينما كنت اراقبهم القى ميتكا بطرف الحبل اليه وصرخ : «اسحبه الى اعلى واعقده !» . أواه ، لكم عانيت آنئذ ، وأمام بصرى خنقوا العجوز المسكينة ، ثم قفزوا الى خيلهم ومضوا فى الشارع ، نحو الادارة كما أظن . وخفت من الذهاب الى داخل الكوخ . . . لكننى رأيت دما يسيل من السقيفة ، تحت الباب وعلى درجات العتبة . عسى

الله الا يرينى فظائع مرعبة كهذه مرة أخرى !

وعلقت ايلينشنا قائلة ، وهى تنظر الى زوجها متحدية :

— اى ضيوف كرام ارسلهم الله لنا !

ظل بانتلاى يستمع الى القصة فى انفعال فظيع ، وحينما أتت زوجة انيكوشكا على نهايتها خرج الى السقيفة دون أن يفوه بحرف .

وما لبث ميتكا ومساعداه أن ظهروا عند البوابة . فاسرع بانتلاى يقزل باتجاههم . وصرخ ، وهو لما يزل على مبعدة منهم :

— قفوا ! لا تدنو خيلكم من هذا الفناء !

فتساءل ميتكا دهشاً :

— ما الامر ، يا نسيبى ؟

فخطا بانتلاى نحوه مباشرة ، وقال فى عزم وهو يحدق فى عينى ميتكا الصفراوين المتلامعتين :

— ارجعوا ! لا داعى الى الغضب ، يا ابن العم ، لكننى لا أريد بقاءكم فى بيتى . الأفضل أن تمضوا فى سبيلكم .

فقال ميتكا متغثغاً بلهجة من يفهم ، وقد شحب لونه :

— آه ! اذن فأنت تطردنى ؟

فأجاب العجوز ثابت العزم :

— أنا لا أريدك أن تلوث بيتى . واياك ان تطأ بقدمك عتبتى ثانية . نحن ، آل ميليخوف ، لا قربة لنا بالجلادين ، اعلم هذا !

— أنا فاهم . بيد انك رحيم قلب اكثر من اللزوم ، يا ابن العم !

— يبدو أنك لا تفهم ما هى الرحمة ، حين تشرع بقتل النساء والأطفال . آه يا ميتكا ، انها لمهنة حقيرة هذه التى امتهنتها . . . لو قدر لوالدك ان يراك الآن لما ارتاح قلبه .

— أيها العجوز الأخرق ، هل تريدنى أن أدللهم ؟ قتلوا أبي ،

قتلوا جدى ، وهل علىّ أن أتبادل القبل المسيحية معهم ، ها ؟ اذهب الى الجـ . . . أنت تعرف الى أين !

وأرخى ميتكا العنان فانطلق حصانه عبر البوابة الصغيرة .

— لا تسب يا ميتكا ، فانت فى مثل عمر ابنى . وليس هناك ما يربط بينى وبينك ، فاذهب فى أمان الله .

فازداد شحوب وجه ميتكا ، وصرخ فى صوت غليظ وهو يهز سوطه متوعداً :

— لا تجبرنى على ارتكاب خطيئة ، لا تضطرنى عليها . أسفى على ناتاليا ، والا لكنت اريتك ، أيها الرحيم . . . اننى أعرفك ! اننى أرى ما فى باطنك ، وأرى النفس الذى تزفره ! أنت لم تتراجع عبر الدونيتس ، ها ؟ انما انضممت الى الحمر ، ها ؟ هذا هو الواقع بالضبط ! يجب أن تعاملوا ، جميعاً ، كما عاملت آل كوشيفوى ، يا ابناء العواهر ! هيا ، يا أولاد ! ايه ، ايها الكلب الهجين الاعرج ، اياك أن تقع بين يدى ! فلو وقعت ، لن تستطيع الخلاص منى ! ولسوف اذكر كرم ضيافتك لي . لقد سبق لي أن رفعت قبضتى فى وجه أقربائى قبل اليوم .

فأغلق بانتلاى البوابة بيدين راعشتين وأزلجها ، ثم مضى يعرج الى داخل البيت . وقال لناتاليا دون أن ينظر فى وجهها :

— طردت أخاك .

ولم تجب بشىء ، وان كانت متفقة فى قرارة نفسها مع خطوة حميها . غير أن ايلينشنا أسرعت ترسم شارة الصليب على نفسها وقالت فى لهجة أسعد :

— والحمد لله ! ذهب الى غير رجعة . أعذرينى ، يا عزيزتى ناتاليا ، ولكن أخاك تكشف عن سافل حقيقـــى . لقد اتخذ لنفسه مهنة رائعة . أنظرى اليه : لا يخدم ، مثل القوزاق

الآخرين ، بالقطعات الفعلية . انما انضم الى المنكلين . فهل هى مهمة جديرة بالقوزاق ، ان يكونوا جلادين ، أن يشنقوا النساء العجائز وان يشطروا الأطفال الابرياء بسيوفهم ؟ فهل هؤلاء مسؤولون عن أعمال ميشا ؟ لو صح ذلك ، لكان من حق الحمر أن يقتلونى ويقتلوك وميشاتكا وبوليوشكا ، جزاء ما عمله غريشا . لكنهم لم يفعلوا ذلك . كانت فى قلوبهم رحمة . كلا ، فأنا لا أوافق — لا سمح الله — على تهورات كهذه .

ولم تزد ناتاليا على القول :

— ولا أنا ادافع عن أخى ، يا امي — وهى تمسح دموعها بطرف عصابة رأسها .

غادر ميتكا القرية فى اليوم نفسه . وانطلقت الشائعات بأنه انضم الى مفرزته التأديبية فى مكان ما بالقرب من كاركينسكايا ومضى معها لاقرار النظام فى القرى الأوكرانية فى اقليم الدونيتس ، وكان اهلوها قد اتهموا بمساعدة الحمر فى القضاء على انتفاضة الدون الأعلى .

وبعد رحيله ، ظل ميتكا مدار النقاش فى القرية أسبوعاً كاملاً . وقد استنكر أغلبية الناس مجزرته الجائرة على عائلة كوشيفوى . ودفنت جثثهم بتبرعات عامة ، كما جرت محاولات لبيع الكوخ الصغير الا أن أحداً لم يتقدم لشرائه . فسمرت ألواح على نوافذه بأمر أتمان القرية . وظل الأطفال زمناً طويلاً بعد ذلك يتهيبون من اللعب حول البقعة المخيفة ، وحينما كان الشيوخ والعجائز يمرون بالكوخ كانوا يرسمون شارات الصليب على انفسهم ويدعون الله أن ينعم بالراحة على أرواح الضحايا .

ثم حل اوان الحش وتجفيف العشب ، فطوى النسيان تلك الأحداث الأخيرة .

كانت القرية مشغولة ، كالسابق ، فى العمل وفى تناقل شائعات الجبهة . وكان أولئك الفلاحون ، الذين كانوا قد أفلحوا فى انقاذ حيوانات عملهم ، يتوجعون ويقذفون السباب وهم يقدمون عرباتهم وحيواناتهم للخدمة العامة . وكان على الخيل والثيران أن تؤخذ كل يوم تقريباً من الحقول وترسل الى مركز المنطقة . وكان الشيوخ كلما حلوا رباط الخيل عن مكائن الحش يطلقون الشتائم ضد الحرب التى طال أمدها . لكن القذائف وطلقات وبكرات الاسلاك الشائكة والمواد الغذائية ، كان يجب نقلها على العربات الى الجبهة . وكانوا ينقلونها فعلاً . اما الان ، فقد حلت أيام مشمسة رائعة ، وكأنها تستهدف أغاظتهم ، حتى لم يعودوا يرغبون فى شىء سوى حش وجرف الحشيش اليانع .

استعد بانتلاى للحش ، لكن الحنق قد استبد به على داريا . كانت قد خرجت بزوج الثيران لنقل العتاد . وكان من المفروض أن تكون قد عادت من نقطة التوزيع ، لكن أسبوعاً مضى ولم يصل عنها خبر . ولم يكن فى المستطاع العمل فى السهب بدون زوج الثيران الأصيلين القويين .

والواقع ، انه ما كان يجب أن يرسل داريا . . . لقد امتلأ قلبه بالهواجس حينما عهد اليها بالثورين لأنه كان يدرك كم كان يطيب لها تزجية الوقت مرحاً ، وكم كانت تهمل الحيوانات . غير انه لم يكن ثمة غيرها يمكن ارساله . فما كان بمقدور دونيا ان تذهب ، اذ ليس يليق بالعذارى أن يذهبن بصحبة قوزاق غرباء فى رحلة طويلة . وكان على ناتاليا أن تعتنى بالطفلين ، أما العجوز نفسه فما كان بالتأكيد ليصطحب تلك الاعتدة اللعينة . لكن داريا استجابت للنداء ، شوقاً وطواعية . فقد سبق لها ان شاركت ، بمنتهى الغبطة ، فى رحلات الى شتى الاماكن : الى الطاحونة ، او فى أية

مهمة أخرى تتعلق بالحقل ، لا لشىء الا لأنها كانت تشعر بحرية اوسع خارج المنزل . كانت كل رحلة مجلبة للمتعة واللـذة لها . كانت تهرب من مراقبة حماتها ، فتروح تتناقل القيل والقال ملء قلبها مع النسوة الأخريات ، وتستطيع — على حد قولها — أن «تتعاطى شيئاً من الحب على الطريق» مع اى قوزاقى ماجن يصدف أن ينظر ناحيتها . اما فى البيت فلم تكن ايلينشنا المتزمتة لتتيح لها أى قدر من الحرية ، حتى بعد وفاة بيوتر ، فكأن داريا التى خانت زوجها حياً كانت ستخلص له ميتاً .

كان بانتلاى يدرى أن داريا لن تعتنى بالثورين بشكل سليم ، ولكن لم تكن فى اليد حيلة . وها قد ارسل كبرى كنتيه فى هذه الرحلة . ومع ذلك ، فقد قضى الأسبوع الذى تلا ذلك ، كله ، فى قلق واضطراب ذهنى عميقين . وكان يردد فى نفسه :

— قضوا على ثوريّ — ويستيقظ من نومه فى منتصف الليل فيطلق حسرات ونهدات عميقة .

عادت داريا فى اليوم الحادى عشر من رحيلها . كان بانتلاى قد عاد من الحقول تواً ، كان يحش مع زوجة انيكوشكا ، ثم تركها مع دونيا فى السهب عائداً الى القرية فى طلب الماء والزاد . وكان العجوزان وناتاليا يتناولون طعام الافطار حينما تناهت عبر النافذة القعقعة المألوفة لعجلتى عربة البريتزكا . فهرعت ناتاليا الى النافذة ورأت داريا ، معصوبة الى حد عينيها ، تدخل الثورين المتعبين الى الفناء .

فسأل العجوز وهو يكاد يختنق بلقمة تعجل فى بلعها :

— هى ؟

— أجل .

فتمتم العجوز وهو يرسم اشارة الصليب على نفسه ويتجشأ فى ارتياح :

— لم اتوقع قط ان تقع عيناى على الثورين ثانية . حسن ، الحمد لله ! يا للداعرة اللعينة ! وأخيراً انجرفت عائدة الى البيت .

رفعت داريا النير عن الثورين ثم دلفت الى المطبخ ، ووضعت كسوة الخيل الملفوفة على العتبة والقت بالتحية على الآخرين .

فقال بانتلاى غضباً وهو ينظر الى داريا من تحت حاجبيه دون أن يرد على تحيتها :

— فيم هذا التبكير ، ياعزيزتى ؟ كنت تستطيعين قضاء اسبوع آخر فى الطريق !

فردت عليه بحدة مزيحة عصابة رأسها المغبرة :

— كان يجب أن تذهب أنت بنفسك .

فانضمت ايلينشنا الى الحوار لكى تزيل جفوة استقبال داريا :

— لماذا طالت غيبتك ؟

— لم يدعونى أرجع ، فلم تكن بيدى حيلة .

فهز بانتلاى رأسه هزة تنم عن عدم الثقة وسأل :

— سمحوا لزوجة كريستونيا بالرجوع ، فلماذا لم يسمحوا لك ؟

فانقدت عينا داريا غضباً وقالت :

— حسن ، لم يسمحوا لى ، ثم ماذا ؟ ان كنت لا تصدقنى فاذهب على حصانك واسأل الشخص المسؤول عن العربات .

— لا سبب يدعونى للذهاب والسؤال عنك ، ولكنك فى المرة القادمة ستبقين فى البيت ! الموت هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن ترسلى اليه .

— ها انك الآن تتوعدنى ! اى نعم ! لن اذهب بأية حال من الأحوال . حتى لو أرسلتنى ، لن اذهب !

فتساءل بانتلاى فى لهجة اكثر وداً :

— هل الثوران بخير ؟

فأجابت داريا مترددة :

— نعم لم يحدث لثوريك شىء . . . — واستحال وجهها اقتم من الليل .

فحدثت ناتاليا نفسها :

— لا بد أنها اضطرت الى الافتراق عن أحد عشاق الطريق ، وهذا سبب حدتها . — وكانت دائماً تشعر بالشفقة والنفور تجاه داريا ومغامراتها العاطفية المشبوهة .

انتهى الفطور ، فاستعد بانتلاى للخروج . وفى تلك اللحظة وصل أتمان القرية . وقال :

— كان بودى أن أتمنى لك سفرة سعيدة ، ولكن مهلاً لحظة ، يابانتلاى بروكوفييتش ، لا تذهب !

فقال العجوز فى لهجة مستسلمة ، على نحو مبالغ فيه ، وبالرغم من أن الحنق كان قد بدأ يضيق الخناق عليه :

— ربما جئت تطلب عربة من جديد ، ها ؟

— كلا ، انه شىء آخر هذه المرة . ان قائد «جيش الدون» كله ، الجنرال سيدورين ، قادم الى هنا اليوم . فاهم ؟ استلمت التو كتاباً من أتمان المنطقة بواسطة ساع يأمر فيه جميع الشيوخ والنساء ، عن بكرة ابيهم ، بالتجمع لعقد اجتماع .

فهتف بانتلاى :

— اليس لديهم عقل ؟ من سيقوم بتنظيم اجتماع للقرية فى وقت حافل بالأعمال كهذه ؟ هل سيقوم جنرالك سيدورين بتموينى بالقش لفصل الشتاء ؟

— سيمونك بقدر ما سيمونى . اننى افعل ما أؤمر به . فك العنان عن حيواناتك . يجب أن تستقبله بالكرم والضيافة . ويقال ،

بالمناسبة ، ان جنرالات من الحلفاء فى معيته .

فلبث بانتلاى واقفاً الى جانب العربة مدة قصيرة من الزمن ، يقلب الرأى ، ثم شرع يفك عدة ثوريه . واذ لاحظ الاتمان ان كلامه ترك مفعوله فى نفس بانتلاى ، انتعشت روحه وتساءل :

— هل هناك مجال لاستعارة فرسك ؟

— ماذا تريد أن تفعل بها ؟

— لقد اصدروا الينا — عساهم ان يجلسوا على قنفذ ! — بارسال عربتى ترويكا • حتى اخدود «دورنوى» لاستقبالهم ، ولكن من أين اجىء بالترانتاسات •• والخيل ، لا أدرى ! منذ الفجر ، استيقظت ورحت الهث هنا وهناك حتى بللت خمسة قمصان بالعرق ، وللآن لم أستطع أن أضع يدى الا على أربعة خيول . فالكل خارج الى الحقول ، وتستطيع أن تصرخ بقدر ما ترغب ولن يرد عليك أحد . . .

كانت سورة بانتلاى قد هدأت ، فوافق على اعارة فرسه للاتمان ، حتى انه عرض عليه «ترانتاسه» الصغيرة ذات النوابض . فالأمر ذو شأن . اذ ان القائد العام للجيش هو القادم ، فضلاً عن أن جنرالات أجانب فى صحبته ، وبانتلاى لا ينفك يشعر باحترام مشوب بالتهيب تجاه الجنرالات .

آلت جهود الاتمان أخيراً الى جمع عربتين «ترويكا» فأرسلتا الى أخدود «دورنوى» لملاقاة الضيوف المعززين . وتجمع الناس فى الساحة ، وقد ترك العديد منهم عمله فى حش الأعشاب فى السهب .

• عربة تجرها ثلاثة خيول . **المترجمون** .

•• الترانتاس : عربة سفر روسية . **المترجمون** .

أدار بانتلاى ظهره للعمل ، وتأنق فى ملبسه ، فارتدى قميصاً نظيفاً وبنطلوناً من قماش مقلم ، واعتمر قبعة كان غريغورى قد جاء بها هدية له . ثم مضى يعرج بوقار الى ساحة السوق بعد ان أمر زوجته العجوز بارسال الماء والطعام الى دونيا .

وسرعان ما بدت سحابة كثيفة من الغبار تدوم على الدرب المؤدى الى القرية . ومن خلل الغبار كان ثمة شىء معدنى يتألق ، ومن بعيد تناهى صوت بوق سيارة . كان الضيوف راكبين فى سيارتين جديدتين تتلامعان بلون أزرق غامق . وحين كان الموكب يمر بالحاشين العائدين من السهب ، كانت عربتا الترويكا الخاليتان تتوثبان خلفه على مسافة بعيدة ، وأجراس البريد ، التى كان الاتمان قد حصل عليها لهذه المناسبة الجليلة ، تدندن فى اكتئاب تحت النيرين . وتململ الحشد المتجمع فى الساحة ، وارتفعت همهمة كلمات ، وصيحات الأطفال الجذلى . وانطلق الاتمان المضطرب يمرق هنا وهناك وسط الجمع منتقياً الشيوخ الأجلاء الذين سيعهد اليهم بمهمة تقديم الخبز والملح . فوقعت عينه على بانتلاى ، فأمسك به فرحاً :

— انقذنى ، اكراماً للمسيح ! أنت رجل ذو خبرة ، وأنت تعرف الاصوليات . . . تعرف كيف يجب مصافحتهم وما الى ذلك . . . هذا بالاضافة الى انك عضو فى الادارة الاقليمية ، ثم ان ولدك . . . أرجوك ، خذ الخبز والملح فأنا ، طوال حياتى ، مضطرب الاعصاب ، وركبتاى الآن ترتجفان .

وعلى الرغم من شدة الزهو الذى شعر به بانتلاى ، الا أنه تمنع فى البدء تدللاً . ثم بدا وكأنه يطأطئ ، رأسه بين كتفيه ، وما لبث أن رسم اشارة الصليب على نفسه مسرعاً ، وتناول الصحن ، بخبزه وملحه ، والمنشفة المطرزة . وخطا الى أمام وهو يفج طريقه بمرفقيه .

اقتربت السيارتان من الساحة تحف بهما زمرة من شتى أصناف الكلاب وقد بح صوتها نباحاً .

وسأل الاتمان شاحب الوجه بانتلاى :

— كيف تشعر ؟ لعلك غير مضطرب الأعصاب ؟

كانت هذه المرة الأولى التى يرى فيها شخصيات مهمة كهؤلاء . فصوب بانتلاى نظرة سريعة من طرف عينه اليه وقال بصوت أبحه الانفعال :

— اسمع ! أمسك هذه ريثما أمشط لحيتى . خذ !

فتناول الأتمان الصحن فى استكانة ، بينما جعل بانتلاى يمسد شاربه ولحيته ، ورفع صدره ، فى حركة نشطة ، ثم وقف على أطراف أصابع رجله العرجاء لكى يخفى عاهته ، وتناول الصحن من جديد . بيد أن الصحن ارتعش ارتعاشاً عنيفاً فى يديه ، حتى أن الاتمان استفسر منه قلقاً :

— آمل الا تسقطه من يدك ، ها ؟ اوه ، احترس !

فهز بانتلاى كتفيه فى منتهى الاستخفاف . أيسقطه هو ؟ كيف يتسنى لأى امرئ أن يتفوه بمثل هذا الهراء ؟ هو عضو فى الادارة الاقليمية ، طالما صافح الجميع فى قصر الحاكم ، هل يمكن أن يمسى ، على حين غرة ، خائفاً ازاء جنرال ما ؟ لقد فقد هذا الاتمان الصغير البائس رشده تماماً .

وشرع بانتلاى يقول :

— اسمع ، يا أخ ! حينما كنت فى المجلس العسكرى ، تناولت الشاى مع السكر مع نائب الأتمان نفسه . . . — لكن الكلمات جمدت على شفتيه .

توقفت السيارة الأولى على بعد بضع خطوات . وقفز منها سائق حليق الذقن يعتمر قبعة ذات رفرف واسع ويحمل لوحات

الكتف الضيقة غير روسية فوق قمصلته ، وفتح الباب . فترجل منها فى وقار ضابطان فى بزات خاكية ، واتخذا طريقهما صوب الجمع . سارا مباشرة باتجاه بانتلاى ، فوقف وقفة استعداد متصلبة . وخمن أن هذين الرجلين المرتديين بزات متواضعة كانا الجنرالين حتماً ، أما أولئك الذين كانوا يسيرون خلفهما وقد ارتدوا بزات أكثر تأنقاً فلم يكونوا سوى أعضاء من الحاشية . ولكن ، ولكن أين هى شارات كتف الجنرالات المعدنية ؟ اين رمانات الكتف والمداليات ؟ واى صنف من الجنرالات كان هذان ، اذ لم يكن بالامكان تمييزهما عن الكتبة العسكريين العاديين ؟

ظل العجوز يحدق ، دون أن تطرف عيناه ، فى الضيوف المتقدمين ، وكشفت عيناه اكثر فاكثر ، عن دهشته الصارخة . وفجأة ، احس بخيبة مريرة . حتى لقد شعر بالمهانة ، بسبب من استعداده الجدى للقاء ، ولأن هذين الجنرالين كانا عاراً على لقب الجنرالية نفسه . اللعنة ! لو انه علم أن هذا ما كان سيتكشف عنه هذان الجنرالان ، لما كان تأنق فى ملبسه واعتنى ، ولما كان انتظرهما بمثل هذا الاضطراب والتوجس ، ولما كان ، بأية حال من الاحوال ، وقف كألابله ، الصحن فى يديه ، وعليه خبز اعدته ، على نحو سيىء ، عجوز ممخاطية الأنف ! أبداً ، لم يحدث قط أن كان بانتلاى بروكوفييتش موضع تندر فى اعين الناس ، ولكن هذا هو ما حدث الان فعلا . وقبل قليل ، تناهت الى سمعه هأهأة أطفال من ورائه ، حتى ان شيطاناً صغيراً صاح باعلى صوته :

— يا أولاد ، أنظروا كيف يقاصص ميليخوف العجوز نفسه ! يبدو وكأنه ابتلع فرشاة !

آه ، لو كان هناك داع لتحمل كل هذا الهزء ، ولارهاق ساقه العرجاء ! كان كل ما فى احشاء بانتلاى يمور غيظاً . هذا

الاتمان الجبان اللعين كان سبب كل هذا البلاء ! جاء وظل يهرف ويهرف ، ثم اخذ الفرس والترانتاس ، وانطلق يقطع القرية جيئة وذهابا ، مدلى اللسان ، باحثاً عن أجراس لعربتى الترويكا . الحق أن الرجل الذى لم ير فى حياته شيئاً يستحق الرؤية يفرح لمرأى خرقة ! وفى حياته كلها ، لم ير بانتلاى مطلقاً جنرالات كهذين ! خذ الاستعراض الامبراطورى مثلاً . كنت ترى رجلاً يمشى مشية عسكرية وقد غطى صدره بالمداليات ، وارتدى شرائط ذهبية . فكانت رؤيته تبهج القلب . كان ايقونة ، لا جنرالاً ! أما هذان ، الحشوتان الخضراوان ، فكأنهما غرابان من غربان الزرع . أحدهما لم تكن لديه حتى قبعة لائقة ذات رفرف ، كما يتعين عليه أن يعتمر حينما يكون مرتدياً بزته الرسمية ، بل كانت شيئاً يشبه قبعة من نوع «البولر» * مغطاة بشبكة ، وكان وجهه حليقاً اجرد ، وما كان فى مقدورك ان تكتشف شعرة صغيرة واحدة ، حتى لو بحثت عنها بقنديل . . . فغام وجه بانتلاى ، وكاد ان يبصق فى اشمئزاز . لكن أحدهم لكزه فى ظهره بقوة وأمره بصوت عال :

— هيا ، خذه اليهم . . .

فتقدم خطوة الى أمام . وكان الجنرال سيدورين يجيل ، من فوق رأسه ، نظرة سريعة فى الحشد ، ثم نطق فى صوت صاف :

— التحيات ، أيها الشيوخ الأجلاء !

فهتف القرويون ، جوقة متنافرة الأصوات :

— صحة طيبة ، يا صاحب السعادة !

---

* البولر : نوع من القبعات الصلبة ، تشبه القبة ، ذات حافة ضيقة . المترجمون .

وتقبل الجنرال فى وقار الخبز والملح من يدى بانتلاى ، وقال :

— شكراً لك ، — وناول الصحن الى مساعده .

اما العقيد البريطانى النحيف ، الذى كان يعتمر خوذة استوائية منكسة فوق عينيه ، فقد تفحص القوزاق فى اهتمام بارد . وكان قد تسلم اوامر من الجنرال بريجز ، رئيس البعثة العسكرية البريطانية فى القفقاس ، تقضى باصطحاب سيدورين فى جولة تفقدية فى منطقة الدون التى كانت قد طهرت من البلاشفة ، فكان يدرس باهتمام ، يساعده مترجم ، نفسية القوزاق ويطلع ، فى الوقت نفسه ، على الوضع فى الجبهة .

وعلى الرغم مما أصاب العقيد من ارهاق وكلال بسبب صعوبات السفر ، ورتابة مناظر السهول ، والمحادثات المتعبة وجميع المسؤوليات المعقدة التى ألقيت على عاتقه باعتباره ممثلاً لدولة كبرى ، الا انه كان يضع مصالح الملك والبلاد فى المقام الاول . وكان يستمع باهتمام الى خطب الخطباء المحليين ويكاد يفهم كل شىء ، فقد كان ذا معرفة باللغة الروسية رغم اخفائه هذه الحقيقة عن الآخرين .

جعل يتأمل ، بكبرياء بريطانى أصيل ، فى الوجوه المتباينة لابناء السهب اولئك ، ذوى السيماء الدالة على العنف والأقدام ، وقد أذهله ذلك المزيج من الصفات الذى يستلفت نظر كل من تقع عيناه على جمع من القوزاق . فالى جانب قوزاقى أشقر من أصل سلافى كان يقف مغولى نموذجى ، ثم يتلو هذا قوزاقى شاب أسود بلون الغراب يضع يده فى حمالته المتسخة ويثرثر فى صوت خفيض مع بطريرك اشيب الشعر بدا وكأنه قد خرج من بين صفحات الانجيل . وشعر العقيد أن باستطاعته أن يراهن ، بأى شىء ، على

أن ذلك البطريرك الأشيب اللحية ، المتكىء على عكازه والمرتدى سترة قوزاقية ذات خصر قديم الطراز ، كان يجرى فى عروقه أنقى دم لأهل المرتفعات القفقاسية . . .

كان العقيد ملماً ، نوعاً ما ، بالتاريخ ، وبينما كان يتفحص القوزاق بنظره ، حدث نفسه بانه لا هؤلاء البرابرة ولا أحفادهم بقادرين على الزحف على الهند تحت قيادة بلاتوف جديد . فحينما يتم النصر على البلاشفة ، ستظل روسيا ، وقد استنزفت الحرب الأهلية دمها ، مدة طويلة من الزمن بلا كيان بين الدول الكبرى ، وستظل أملاك بريطانيا فى الشرق فى حرز حريز عشرات من السنين المقبلات . كان العقيد واثقاً كل الوثوق من اندحار البلاشفة فى النهاية . كان رجلاً ذا منطق واع ، فقد عاش قبل الحرب فى روسيا عدداً من السنين ، وكان من الطبيعى الا يستطيع أن يدرك كيف كان فى مستطاع الأفكار الشيوعية اليوطوبية ان تنتصر فى هذه الاصقاع شبه الهمجية .

ثم انصرف انتباهه الى النساء يتهامسن فيما بينهن بصوت عال . ومن غير ان يدير رأسه ، جعل يعاين وجوههن التى لفحتها الرياح ، وعلقت على شفتيه المزمومتين ابتسامة مزدرية لا تكاد تلحظ .

تراجع بانتلاى نحو الحشد بعد ان سلم الخبز والملح . ولم يتوقف ليستمع الى خطيب من فيشنسكايا شرع يرحب بالزائرين باسم قوزاق منطقة فيشنسكايا ، بل يمم صوب عربتى الترويكا الواقفتين على مبعدة .

كان الزبد يغطى الخيل ، وقد غارت جوانبها . واقترب العجوز من فرسه ، وجعل يمسح منخريها بكمه وهو يتنهد . واعتملت فى صدره رغبة فى قذف السباب وفى الحال فك العنان عنها ، وقادها

الى البيت . ما أشد خيبته !

وفى غضون ذلك ، كان الجنرال سيدورين يلقى خطابا على اهالى تتارسكى . فقال ، فى معرض مدحه لنشاطهم الجرىء فى مؤخرة الحمر :

— لقد حاربتم باقدام ضد عدونا المشترك . ولن ينسى وطنكم الخدمات التى قدمتموها ، هذا الوطن الذى يتم الآن تحريره من البلاشفة ، من نيرهم الفظيع . وأود أن أقدم هدايا رمزية تنم عن امتناننا لاولئك النسوة من بنات قريتكم اللواتى لعبن — كما تعرف نحن — دوراً بارزاً فى النضال المسلح ضد الحمر . فأرجو من بطلاتنا القوزاقيات اللواتى ستقرأ اسماؤهن بعد قليل أن يتقدمن .

ثم تلا أحد الضباط قائمة قصيرة . وكان أول اسم فيها اسم داريا ميليخوفا ، أما الباقيات فكن أرامل قوزاق قتلوا فى بداية الانتفاضة ونساء شاركن ، كما فعلت داريا ، فى مذبحة الاسرى الشيوعيين الذين سيقوا الى تتارسكى بعد استسلام كتيبة سيردوبسكى .

لم تكن داريا قد خرجت الى الحقول ، تطبيقاً لأوامر بانتلاى . وتبين أنها كانت فى الساحة بين حشد القرويين ، وقد تأنقت فى ثياب العيد . وما ان سمعت اسمها حتى شرعت تشق طريقها بين النساء ، وسارت فى جرأة الى المقدمة وهى تسوى عصابة رأسها البيضاء ذات الاطراف المخرمة فيما كانت تمشى ، نصف مغمضة العينين ، وعلى ثغرها ابتسامة مرحة صغيرة . وعلى الرغم مما كان قد أصابها من تعب من أثر رحلتها ومغامراتها الغرامية ، فقد كان منظرها يسر الناظر ويفتنه . وكانت وجنتاها الشاحبتان ، اللتان لم يمسهما لفح الشمس ، تعكسان الوميض اللاهب لعينيها الفضوليتين ، وكان ثمة شىء يمور ، فى تحدّ وبذاءة ، فى القوسين الصارخين

لحاجبيها المزججتين وفى ثنية شفتيها المبتسمتين .

وأعترض مسيرها ضابط كان ظهره للحشد . فنحته برفق قائلة :

— دع أرملة جندى تمر !

واتجهت مباشرة الى سيدورين . فتناول المدالية المعلقة بشريط سان جورج من المساعد ، وشبكها ، بأصابع متعثرة ، على الصدر الأيسر لسترة داريا ، وهو يحدق مبتسماً فى عينيها :

— اذن فانت أرملة الملازم ميليخوف الذى قتل فى شهر آذار؟

— نعم .

— بعد قليل سوف تعطين مكافأة نقدية . . . خمسمائة روبل . سيقوم هذا الضابط بتقديمها لك . ان الأتمان العسكرى أفريكان بتروفتش بوكايفسكى وحكومة الدون يعبران عن شكرهما لك للشجاعة العظيمة التى أبديتها ، ويرجوانك أن تتقبلى عطفهما . . . انهما يشاركانك الشعور العميق فى مصابك .

ولم تفقه داريا كل ما قال الجنرال . فشكرته بهزة من رأسها ، وتناولت النقود من يد المساعد ، ولبثت تحدق مباشرة ، وهى تبتسم فى صمت ، فى عينى الجنرال الذى لم يزل شابا . كان طولهما متساوياً تقريباً ، وراحت داريا تتفحص وجه الجنرال النحيل دونما تحفظ كبير . وحدثت نفسها ، بسخريتها الاصيلة :

— قيموا بيوترى تقييما رخيصاً ، لا أكثر من قيمة نير ثيران . لكنه ليس قبيحاً ، هذا الجنرال ! شكله مقبول جداً .

ولبث سيدورين ينتظر انصرافها ، بيد أنها لم تتحرك . ورفع المساعد والضباط الآخرون الواقفون الى الخلف حواجبهم دهشة ، وهم يجلبون اهتمام بعضهم البعض الى الأرملة الطروب . وتلامعت أعينهم مرحاً ، حتى العقيد البريطانى دبت فيه الحياة ، فسوى

نطاقه ، ونقل وقفته من قدم الى أخرى ، وطلع على وجهه الناسك شىء يكاد يشبه الابتسام .

وتساءلت داريا :

— هل تسمح لى بالانصراف ؟

فأجاب سيدورين متعجلاً :

— أجل ، بكل تأكيد .

وبحركة مضطربة دست داريا النقود داخل الياقة لقميصها وقفلت راجعة الى الحشد . ولما كان الضباط قد ملّوا الخطب والاحتفالات ، فقد تابعوا مشيتها الخفيفة المنزلقة ، عن كثب واهتمام .

ثم تقدمت أرملة مارتن شامل نحو سيدورين فى تهيب . وحينما شبك المدالية انفجرت باكية بشكل مجاف لروح الاحتفال ومرير فى نواحه النسائى بحيث فقدت أوجه الضباط ، فى الحال ، سيماء السرور وأمست متجهمة حزينة .

وسألها سيدورين ، قاتم الوجه :

— اذن فقد قتل زوجك هو الآخر ؟

فغطت المرأة النائحة وجهها بيديها وهزت رأسها فى صمت .

فهتف قوزاقى بصوت عميق :

— ان لها أطفالاً كثاراً ، حتى انها لن تستطيع جمعهم فى عربة واحدة .

فالتفت سيدورين نحو الانكليزى قائلاً :

— اننا نكافئ النساء اللواتى أبدين شجاعة نادرة فى محاربة البلاشفة . وقد فقد أغلبهن أزواجهن فى بداية الانتفاضة ضد البلاشفة . وانتقاما لمصرع أزواجهن فقد قامت أولاء الأرامل بابادة مفرزة كاملة من الشيوعيين المحليين . وقد قتلت المرأة الأولى التى

قلدتها المدالية بيديها قوميساراً شيوعياً ، «اشتهر بقساوته .

وأسرع المترجم يتحدث بالانكليزية . فاستمع اليه العقيد مخفض الرأس ثم قال :

— اننى معجب بشجاعة هؤلاء النسوة . قل لي ، أيها الجنرال ، هل ساهمن فى المعارك فى نفس ظروف الرجال ؟

فأجاب سيدورين باقتضاب :

— نعم ، — وفى حركة تنم عن نفاد الصبر أشار الى الأرملة الثالثة .

بعد ذلك بوقت قصير ، غادر الضيوف القرية متجهين نحو مركز المنطقة . وأسرع الناس ينصرفون ، متعجلين استئناف الحشّ . وحينما اختفت السيارتان عن الأنظار ، تحف بهما كوكبة من الكلاب النابحة ، لم يبق فى الساحة سوى ثلاثة شيوخ لبثوا واقفين بحذاء سياج الكنيسة .

فقال أحدهم ناشراً ذراعيه على اتساعهما :

— هذا الزمان غريب عجيب ! فى الأيام الخوالي ، حينما كانت هناك حرب ، كانوا يمنحون صليب سان جورج أو مدالية جزاء للفعال الكبرى فعلاً ، جزاء للبطولات . والرجال الذين كانوا يمنحونها لهم أشجع الرجال . أجرأ الرجال ! ولم يكن الكثير يغامر بحياته . ولم يكن عبثاً حين يتحدث الناس عن الموت أو المجد . أما فى هذه الأيام فقد شرعوا يعطون المداليات للنساء . وما كان هذا ليكون عملاً سيئاً لو أن النساء فعلن شيئاً حقاً ، ولكن . . . كل ما فى الأمر ، ساق الرجال الأسرى الى القرية ، وقامت النساء بقتل الأسرى ، أولئك الرجال العزل ، بالخوازيق . فأين البطولة فى هذا ؟ أنا لا أفهم ، غفرانك يارب !

وكان الشيخ الثانى الضعيف النظر ، متداعياً ، فنحى احدى

ساقيه جانباً ، وبحركة بطيئة أخرج كيس تبغ قماشياً ملفوفاً ، وقال :

— ان السلطات فى نوفوتشيركاسك لديها بصيرة أفضل . وأعتقد أنهم فكروا فى الأمر على هذا النحو : يجب ان يعطوا شيئاً للنساء لجذبهن أيضاً ، وذلك بغية رفع معنويات الجميع ، لكى يحاربوا بشكل أفضل . هذه مدالية ، وهذه خمسمائة روبل ، فاين هى المرأة التى تقول «لا» لشرف كهذا ؟ فقد لا يرغب بعض القوزاق فى المضى الى الحرب ، وقد يرغب بعضهم فى البقاء آمناً ، بعيداً عن الحرب ، ولكن هل يستطيعون البقاء فى بيوتهم الآن ؟ لسوف تشوى نساؤهم آذانهم شيّاً . فوقواق الليل يوقوق أعلى من أى وقواق آخر ! وستشرع كل امرأة تفكر :

— لعلهم سيعلقون مدالية على صدرى أنا .

فعارضه الشيخ الثالث :

— انك تهرف ، ياابن العم فيودور ! لقد استحقت النساء المكافأة ، ولهذا كوفئن . لقد أمسين أرامل ، وسيساعدهن المال كثيراً فى حقولهن ، وقد اعطين المداليات لشجاعتهن . كانت داريا ميليخوفا اول من قضى على كوتلياروف ، وعلى حق أيضاً ! الله هو الحكم عليهم جميعاً ، لكنك لا تستطيع أن تلوم النسوة . فالدم اكثف من الماء . . .

وظل الشيوخ الثلاثة يتجادلون ويتبادلون السباب الى أن دق ناقوس الكنيسة داعياً الى صلاة المساء . ففى اللحظة التى قرع فيها السادن الناقوس ، هب ثلاثتهم واقفين ونزعوا قبعاتهم ورسموا اشارة الصليب على أنفسهم ، ثم دخلوا ساحة الكنيسة فى وقار .

عجباً ، لكم تغيرت الحياة فى عائلة ميليخوف . لم يمض أجل طويل منذ كان بانتلاى بروكوفييتش يشعر بأنه سيد الدار الأوحد ، وكان كل من فيها يطيعه بلا قيد أو شرط ، والعمل ينجزه الجميع جماعة ، متشاركين فى السراء والضراء ، وكان ثمة انسجام قوى مقيم يبسط جناحيه على حياتهم ، فكأن العائلة قد التحمت فى واحد . بيد أن كل شىء قد تغير منذ الربيع الماضى . وكانت دونيا أول من أفلت من الطوق . لم تكن تعصى والدها وجها لوجه ، لكنها كانت تؤدى كل عمل يوكل اليها فى فتور جلى ، وكأنها لم تكن تعمل لأجل نفسها ، بل لقاء أجر . وامست فى تصرفها متحفظة جداً ، بعيدة عن الآخرين ، ولم تعد ضحكتها الطليقة تسمع الا نادراً .

وبعد رحيل غريغورى الى الجبهة ، غدت ناتاليا ، هى الأخرى ، أقل انسجاماً مع العجوزين . فراحت تقضى كل وقتها تقريباً مع الطفلين ، لا تنطلق فى الحديث الا معهما ، ولم يعد يشغلها غيرهما ، وكان يبدو أنها كانت تتأسى على شىء ما ، فى عمق وفى صمت معاً . غير أنها لم تشرك أياً من افراد العائلة فى أساها ، ولا بكلمة واحدة . لم تشك لأحد ، بل احتفظت بحملها الثقيل لنفسها .

اما داريا ، فقد تغيرت تماماً غب رحلتها مع العربة والثورين . فاصبحت تعاند حماها أكثر فأكثر ، ولم تعد تعير ايلينشنا اى اهتمام ، وأمست سريعة الغضب مع الجميع لغير ما سبب واضح ، كما أنها تملصت من المساهمة فى حشّ الأعشاب مدعية المرض ، وغدا سلوكها على نحو كأن لم يعد أمامها سوى أيام معدودات تقضيها فى دار ميليخوف .

على مرأى من بانتلاى ، كانت العائلة تتشتت . وتُركا ، هو وزوجته العجوز ، وحيدين . لقد قضى على الروابط العائلية ، فى سرعة وعلى غير ما يتوقع . دفء علاقاتهم زال ، ودب الغضب السريع والبغضاء فى احاديثهم . ولم يعودوا يجلسون الى مائدة واحدة ، كما فى الأيام الخوالى ، عائلة واحدة متآلفة ، بل مثل أناس صادف أن وجدوا أنفسهم معاً على غير ميعاد .

هى الحرب سبب كل ذلك . كان بانتلاى يدرك ذلك جيداً . لقد نفرت دونيا من والديها لأنهما سلباها أمل الاقتران بميشا كوشيفوى ، الرجل الذى أحبته بكل عنفوان عاطفتها البكر . وكانت ناتاليا تقاسى ، فى صمت وعمق ، وكعادتها فى الكتمان بسبب من علاقة غريغورى الأخيرة مع أكسينيا . وكان بانتلاى يرى ذلك بأم عينيه ، بيد أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لاستعادة النسق القديم فى عائلته . فهل كان بمقدوره ، بعد كل ما حدث ، أن يوافق على زواج ابنته من بلشفى ثابت العقيدة ؟ ما كان نفع موافقته ، لو أنه أعطاها فعلاً ، والعريس اللعين لا يقر له قرار فى الجبهة ، والأنكى ، أن يكون مع الحمر على طول الخط ؟ وكان الشىء نفسه ينطبق على غريغورى : فلو لم يكن يرتدى بزة الضباط ، لعالج بانتلاى أمره بما يلزم ! لعالجه بطريقة ما كان غريغورى من بعدها ان يجرؤ حتى على مجرد اختلاس النظر الى فناء آل أستاخوف . غير أن الحرب أفسدت كل شىء وسلبت العجوز امكانية العيش وادارة بيته على هواه . ولقد حطمته الحرب هو الآخر ، وجردته من حماسته السابقة للعمل ، وانتزعت ابنه الأكبر منه ، وأنزلت الشقاق والاضطراب فى عائلته . لقد اجتاحته هذه الحرب كما تجتاح عاصفة حقل قمح ناضج . ولكن القمح يستطيع ، حتى فى اعقاب العاصفة ، أن يستقيم من جديد ويستعيد رونقه تحت نور الشمس ،

بينما لم يعد فى العجوز حول على النهوض . وفى ذهنه ، ترك حبل الأمور على غاربها . وليكن ما يكون !

انتعشت داريا كثيراً بعد استلامها المكافأة من يدى الجنرال سيدورين . فعادت من الساحة جذلة سعيدة . وأرت ناتاليا المدالية وعيناها تتلامعان ، فسألتها ناتاليا دهشة :

— ولأى سبب حصلت على هذه ؟

— هذه بسبب ابن عمنا ايفان اليكسييفتش * ، رحمة الله على روحه ، ابن القحبة ! وهذه من أجل بيوتر .

وفتحت ، فى حبور ، رزمة أوراق الدون النقدية المخشخشة .

ومع ذلك ، لم تخرج داريا الى الحقول . وأراد بانتلاى أن يرسل معها الطعام . لكنها جابهته بالرفض :

— دعنى استريح ، يا أبتاه ، فلقد انهكتنى الرحلة .

فقتم وجه العجوز . فقالت داريا فى لهجة شبه هازلة ، محاولة ان تلطف من رفضها الفظ :

— فى يوم كهذا ، من الخطيئة ان تجبرنى على الخروج الى الحقول . فاليوم عيدى .

فوافقها العجوز :

— سآخذ الطعام بنفسى . حسن ، وماذا عن النقود ؟

فرفعت داريا حاجبيها فى استغراب :

— ماذا عن النقود ؟

— اننى أسألك ، ماذا تنوين أن تفعلى بالنقود ؟

— هذا شأنى . سافعل بها ما أشاء .

— ولكنها . . . ماذا تعنين ؟ ألم يعطوك النقود من أجل بيوتر ؟

* هو ايفان اليكسيفتش كوتلياروف ، الذى قتلته داريا . **المترجمون** .

— لقد اعطوها لى ، وليس لك أن تتصرف بها .

— ولكن ، هل أنت فرد فى هذه العائلة أم ماذا ؟

— وما عساك تريد من هذا الفرد فى العائلة ، يا أبتاه ؟ أن تستحوذ على النقود لنفسك ؟

— أنا لا أقصد المبلغ برمته . ولكن ، هل كان بيوتر ، فى نظرك ، ابننا أم لا ؟ يجب أن أحصل ، أنا والعجوز ، على حصة منه ، اليس كذلك ؟

وجاءت مطالبة العجوز فى لهجة واضحة التردد ، فأمسكت داريا بزمام المبادرة ، وقالت فى صوت هادئ الى حد الاثارة :

— لن أعطيك شيئاً ! لن أعطيك روبلاً واحداً ، لا حصة لك فى هذا ، والا لكان حطّه فى يدك . ثم ، لماذا تثير ضجة حول حصتك ؟ لم يقل أحد شيئاً عن الحصص ، فلا حاجة بك الى مدّ يدك نحو نقودى ، لأنك لن تبلغها !

وهنا ، حاول بانتلاى محاولته الأخيرة :

— أنت تعيشين معنا ، تأكلين خبزنا ، وهذا يعنى أن كل شىء يجب أن يكون مشتركاً فأى نسق من الحياة سيوجد لو أن كل واحد شرع يسيّر شؤونه الخاصة مستقلاً عن الآخرين ؟ لن أسمح بحدوث هذا !

بيد ان داريا ردت هذه المحاولة الاخيرة لأخذ نقودها . واعلنت وهى تبتسم بلا حياء :

— اننى لست زوجتك ، يا ابتاه . اليوم اعيش معكم ، وغداً اتزوج ، ويومئذ ستسعد بوداعى ! ولست ملزمة بدفع المال عن طعامى . لقد عملت عشر سنوات فى خدمة عائلتك دون أن أقيم ظهرى !

فصرخ بانتلاى حانقاً :

— عملت من اجل نفسك ، ايتها السفيهة الآثمة !

وصرخ بشيء آخر ، لكن داريا لم تلبث لتسمعه ، بل رفعت طرف تنورتها ، ومرقت من تحت أنفه مباشرة ومضت الى غرفة الضيوف ، وهي تهمس في ابتسام ساخر :

— لقد اخطأت حين جربت لعبتك معي !

وانتهى الحوار عند هذا الحد . وفي الواقع ، ما كانت داريا بالتي تتنازل عن حقوقها تحت تهديد عجوز غاضب .

استعد بانتلاي للمضي الى الحقول ، غير أنه تبادل الحديث مع ايلينشنا قبل مغادرته الدار ، فأمرها قائلاً :

— لا ترفعي عينيك عن داريا !

فتساءلت ايلينشنا مستغربة :

— لماذا يتوجب عليّ الا أرفع عيني عنها ؟

— مخافة أن تحزم متاعها وتترك الدار ، وتأخذ شيئاً من حوائجنا معها . يبدو لي أنها لا تنفش جناحيها لغير ما هدف . . . واضح انها عثرت على شاب لها ، ولا بد أنها ستتزوج في يوم من الأيام .

فوافقته ايلينشنا :

— قد تكون على حق . انها تحيا كما يحيا أي خوخول * في أطراف القرية . لا شيء يرضيها ، وكل شيء سيئ في نظرها . . . وهي في هذه الأيام منعزلة عنا جميعاً . ومهما حاولت فلن تستطيع أن تلصق قطعة خبز على الرغيف ثانية .

— لا داعي يلزمنا بمحاولة الصاقها ثانية ! لا تفكري بابقائها أن تحدثت عن الرحيل ، أيتها العجوز الحمقاء ! دعيها تترك المنزل . لقد عانيت مافيه الكفاية من معالجة أمرها !

---

* الخوخول : اسم للتحقير يطلقه القوزاق على اهل اوكرانيا . المترجمون .

وارتقى بانتلاي العربة ، وفيما شرع ينخس الثورين قال مختتماً كلامه :

— انها لا تنفك تتملص من العمل كما يتملص كلب من الذباب ، لكنها تحاول على الدوام أن تحصل على أفضل لقمة لها وأن تقضي أوقاتها في طرب ومرح . والآن ، وقد ذهب بيوتر ، رحمة الله على روحه ، فما عدنا نرغب بالابقاء على مثيلاتها في العائلة . انها ليست امرأة ، انها وباء زاحف !

على أن افتراضات العجوزين كانت على خطأ . اذ لم يخطر في بال داريا حتى مجرد فكرة الحصول على زوج آخر . لم تكن تفكر بالحياة الزوجية ، بل كان ثمة حمل ثقيل ينوء به فكرها . . .

ظلت طوال النهار لطيفة المعشر ، ممراحة . حتى المشاحنة حول النقود لم تترك أثراً في نفسها . وقضت وقتاً طويلاً أمام المرآة ، تدور وتتثنى وهي تفحص المدالية من جميع الزوايا . ارتدت وخلعت ملابسها خمس مرات لترى أية سترة تكون أكثر انسجاماً مع شريط سان جورج المقلم ، وحدثت نفسها مازحة :

— والآن ، يلزم ان احصل على أوسمة أكثر .

ثم استدعت ايلينشنا الى غرفة الضيوف ، ودست في راحتها ورقتين من فئة العشرين روبلاً ، وهمست وهي تشد يد العجوز المعقدة الى صدرها بيديها الملتهبتين :

— هذا من أجل الصلوات على روح بيوتر . اطلبي اقامة الصلوات على روحه ، واسلقي شيئاً من العصيد لتوزيعه على الناس في الكنيسة .

وانفجرت باكية . لكنها في اللحظة التالية راحت تلاعب ميشاتكا ، خلل الدموع المتألقة في عينيها ، وتنشر فوقه شال العيد الحريري ، وتضحك وكأنها لم تبك قط ولم تعرف طعم الدموع المالح طوال حياتها .

وغدت أكثر مرحاً حينما رجعت دونيا من الحقول . فأخبرتها كيف منحت المدالية ، وقلدت ، متضاحكة ، لهجة الجنرال الوقور . ثم أكدت لدونيا ، وهى تغمز لناتاليا سراً غمزة متخابثة ، انها هى ، داريا ، أرملة الضابط التى منحت وسام سان جورج ، لسوف ترقى الى رتبة ضابط وتعين آمراً لكتيبة من القوزاق الكهول .

فمضت ناتاليا ترتق قمصان الطفلين ، منصتة لداريا وكاتمة الابتسام ، فى حين أن دونيا استبد بها الذهول ، وتساءلت وهى تشبك بيديها متضرعة :

— داريا ! عزيزتى داريا ! لا تلفقى قصصاً بحق المسيح ! فانا لم أعد أميز بين كذبك وصدقك . خبرينى بكل شىء بلا مزاح !

— ألا تصدقيننى ؟ حسن ، اذن لا بد أنك فتاة غبية ! اننى أخبرك بالحقيقة السافرة . الضباط جميعهم فى الجبهة ، فمن سيقوم بتدريب الكهول على كيفية المسير عسكرياً وجميع الأمور الأخرى التى يلزم أن يتدرب الجندى عليها ؟ حسبك أن تنتظرى حتى يضعوهم تحت امرتى ، وعندئذ سوف أعالج أمرهم ، أولئك الشياطين العجائز ! هكذا سوف اقودهم !

وأغلقت داريا الباب المؤدى الى المطبخ ، كيلا تراها حماتها ، ثم دست بسرعة طرف تنورتها بين ساقيها وأمسكت بها من خلف ، كاشفة عن ربلتى ساقيها العاريتين المتألقتين ، وراحت تؤدى المشية العسكرية داخل غرفة الضيوف ، ثم توقفت على مقربة من دونيا وأصدرت ايعازاً بصوت نابع من الصدر :

— أيها الكهول ، استـ . . . عد ! ارفعوا لحاكم ! الى اليسار در ، عادة سر !

فلم تستطع دونيا أن تسيطر على زمام نفسها ، فانفجرت

ضاحكة وهى تخفى رأسها فى راحتيها . وقالت ناتاليا من خلال ضحكها :

— اوه ، كفى ! لا خير يأتى من ورائه !

— لا خير يأتى من ورائه ، ها ؟ وهل عرفت أى خير فى حياتك ؟ فاذا لا أجعلك تضحكين ، ستمسين قالباً جامداً فى هذا البيت !

لكن انطلاق داريا مرحاً انتهى فجأة كما كان قد بدأ فجأة . فبعد نصف ساعة عادت الى غرفتها الصغيرة ، وانتزعت فى غضب المدالية المشؤومة من صدرها وقذفتها فى الصندوق . ثم جلست عند النافذة زمناً طويلاً ، واضعة خديها فى كفيها . وفى الليل ، انسلت خارجة الى مكان ما ولم تعد الا بعد أن أطلق الديك الأول صياحه .

بعد ذلك ، ظلت أربعة أيام تعمل فى الحقول بجد ونشاط .

كانت عملية الحشّ وتجفيف العشب تجرى بصورة بائسة . اذ كان هناك نقص فى اليد العاملة . ولم يكن بالمستطاع حش أكثر من أربعة فدانات ، أو حوالى ذلك ، فى اليوم الواحد . ثم تنقّع العشب المحشوش بماء المطر ، فاضاف ذلك عبئاً جديداً الى العمل . أصبح لزاماً أن تطرح الحشات أرضاً وتجفف فى الشمس . وما ان جرفت أكواما حتى سقط المطر من جديد واستمر ، كعادته فى الخريف ، من أول المساء حتى الفجر . ثم حل طقس بديع ، وهبت ريح من الشرق ، وشرعت مكائن الحش من جديد تقعقع فى السهب ، وانبعثت رائحة عفن حلوة حريفة من الحشات المسودة ، وتغلف السهب بضبابه ، وبرزت فى غموض خلل الضباب الأزرق الحواف غير المميزة للروابى القائمة كالحراس ، وشقوق الأخاديد المائلة للزرقة ، والذؤبات الخضر لاشجار الصفصاف المشرئبة فوق الغدران البعيدة .

فى اليوم الرابع ، استعدت داريا للذهاب من الحقول مباشرة الى مركز المنطقة ، فأعلنت عن نيتها حينما كانوا جالسين فى مضرب الحقل فى فترة الظهر .

فسألها بانتلاى متجهماً ممتعضاً :

— وفيم كل هذه العجلة ؟ الا تستطيعين الانتظار الى يوم الأحد ؟

— لدى عمل ، ولن يحتمل الانتظار .

— ولا حتى يوماً واحداً ؟

فردت داريا خلل اسنانها المصكوكة :

— كلا .

— حسن ، اذا كان الأمر يقلقك الى حد نفاد الصبر ، فاذهبى . ولكن ، ما هو هذا العمل المستعجل الذى يتوجب عليك انجازه ؟ ألا نستطيع أن نعرف ؟

— لو عرفت كل شىء متَّ قبل أن يحين أجلك !

وكعادتها ، لم تبخل داريا فى كلامها ، فبصق بانتلاى حنقاً وتوقف عن اسئلته .

فى اليوم التالى ، وفى طريق عودتها من مركز المنطقة ، عرّجت داريا على تتارسكى . لم يكن فى الدار سوى ايلينشنا والطفلين . وهمّ ميشاتكا بالعدو نحو خالته ، الا أنها نحته بفتور جانباً وسألت حماتها :

— اين ناتاليا ، يا اماه ؟

— انها فى حديقة الخضار ، تعزق البطاطس . لم تريدينها ؟ هل أرسل العجوز فى طلبها ؟ فليشتوِ ، وأخبريه أننى قلت ذلك !

— لم يرسل أحد فى طلبها . لديّ ما أريد قوله لها .

— هل جئت مشياً ؟

— نعم .

— هل سينهى ربعنا عمله عما قريب ؟

— غداً ، ربما .

ومضت العجوز تضايق داريا بالأسئلة فيما كانت هذه تنزل درجات العتبة :

— مهلاً لحظة . الى أين تراك طائرة ؟ هل اتلف المطر الكثير من التبن ؟

— لا ، ليس كثيراً . حسن ، اننى ذاهبة ، لا وقت لدى . . .

— عرّجى على البيت عند عودتك من الحديقة وخذى قميصاً للعجوز . أتسمعين ؟

فتظاهرت داريا انها لم تسمع وأسرعت نحو الزريبة . وعند المرسى القائم على حافة النهر توقفت وجعلت تحدق ، نصف مغمضة العينين ، فى امتداد النهر الأخضر . وبعث الهواء الرطب المنعش الذى كان يهب فوق النهر القشعريرة فى اوصالها . فسارت على مهل نحو الحدائق متخذة طريقها على ضفة النهر .

كان ثمة نسيم خفيف يتلاعب فوق الدون ، وطيور النورس تدور وتدور . وكانت الأمواج تزحف فى كسل على الساحل المنحدر . ومن التلال الكلسية المتلفعة بضباب ليلكى رقيق ، كان ينبعث ألق خافت تحت نور الشمس ، وبدت الغابة التى اغتسلت بماء المطر فتية يانعة على الضفة اليسرى ، وكأن الوقت غداة الربيع .

خلعت داريا حذاءها من قدميها المتألمتين ، وغسلت ساقيها ، وقعدت زمناً طويلاً على الضفة ، فوق الحصى اللاهب . وراحت تسمع الى نداءات النورس المتشوقة ، وراحتها تظلل عينيها من وهج الشمس ، والى صوت الماء يلعق الساحل مرة تلو المرة .

وصعدت الدموع الى مآقيها أزاء ذلك السكون ، وازاء نداءات النورس التى تمزق نياط القلب . وبدت المصيبة التى حلت بها ، على نحو غير متوقع ، أثقل حملاً وأقسى مرارة .

قومت ناتاليا ظهرها فى مشقة ، وأسندت فأسها الى السياج ، واذ لمحت داريا يممت ناحيتها :

— هل تريدينني ، داريا ؟

— لقد جئتك بمصيبتى . . .

وجلستا جنبا الى جنب . خلعت ناتاليا عصابة رأسها ، وسوّت شعرها ، وتطلعت نحو داريا فى ترقب . فأذهلها التغير الذى أصاب داريا خلال بضعة الأيام الماضية . غارت وجنتاها وأظلمتا ، وانعقد جبينها فى تقطيبة عميقة ، وكان ثمة وميض قلق محموم فى عينيها . فسألتها ناتاليا فى لهجة عطوف :

— ما خطبك ؟ لقد امسى وجهك شديد الاسوداد .

— لو كنت مكانى لاسود وجهك أيضاً .

وانتزعت داريا ابتسامة ، وصمتت . ثم تساءلت :

— هل امامك مزيد من العزق ؟

— سانتهى عند المساء . ولكن ما الذى جرى لك ؟

فبلعت داريا ريقها فى حركة متشنجة ، وأجابت فى تمتمة سريعة :

— سأخبرك . اننى مريضة . لقد اصابنى مرض خبيث . . . اصبت به فى الرحلة الأخيرة . . . عدانى به ضابط لعين !

فضربت ناتاليا يداً بيد فرقاً وكمداً :

— اذن فقد دفعت ثمن لذتك !

— أجل ، دفعت ثمنها . . . وليس هناك ما يقال ، ولا انسان يلام . . . انها نقطة ضعفى ، فحسب . . . لقد تودد الىّ

الخنزير ، وداهننى . . . كان ذا اسنان بيض ، لكنه كان متعفناً فى داخله . . . والآن ، قضى علىّ !

— ياحبيبتى التعيسة ! ما العمل الآن ؟ ما الذى ستفعلينه ؟

وجعلت ناتاليا تحدق فى داريا بعينين جاحظتين ، بينما استعادت داريا رباطة جأشها ، واستأنفت كلامها فى هدوء أكثر من السابق ، وعيناها مسمرتان على قدميها :

— الواقع أننى بدأت الاحظ بعض الأعراض ، خلال طريق العودة . وفى البدء حسبت أنه مجرد . . . أنت تعرفين أن النساء يصبن بشتى أنواع الاضطرابات . فى الربيع الماضى ، مثلاً ، رفعت زكيبة من القمح من الأرض ، فأصبت بنزيف دام ثلاثة أسابيع . حسن ، لكننى أدركت فيما بعد أن الأمر هذه المرة ليس شبيها بذلك تماماً . . . ظهرت الاعراض . . . وأمس ، ذهبت الى الممرض فى مركز المنطقة . كان العار سيميتنى . . . لكن ، انتهى كل شىء الان . . . لقد نالت الفتاة الطيبة جزاءها !

— يجب ان تشفى نفسك منه ، فانه عار وأى عار ! يقال أن هذا النوع من المرض يمكن الشفاء منه .

فابتسمت داريا ابتسامة شوهاء ، ورفعت عينيها الملتهبتين لاول مرة منذ بدء الحديث :

— لا ، يافتاتى ، لا شفاء من مرضى . لقد اصبت بالسفلس ، ولا شفاء منه . ينخلع انفك بذلك الـ . . . مثل الأم العجوز اندرونيخا . . . هل رأيتها فى حياتك ؟

فسألتها ناتاليا بصوت نائح والدموع تملأ عينيها :

— وماذا ستفعلين الآن ؟

لبثت داريا صامتة وقتاً طويلاً . انتزعت زهرة عليق من ساق ذرة ، كانت قد لفت نفسها حوله ، ورفعتها قريبة من عينيها . كان

كأس الزهرة الرقيق ذو الحواف الوردية خفيفاً ، يكاد يكون شفافاً لا وزن له ، يفوح بالعطر الثقيل للأرض المشبعة بنور الشمس . فجعلت داريا تحدق فيها فى لهف وتمعن ، وكأنها لم تر هذه الوردة الشائعة من قبل ، وتشمها بمنخرين يرمعان ، ثم وضعتها باعتناء على التراب المفتت الجاف بفعل الريح ، وقالت :

— تسألنى ماذا سأفعل ؟ فى طريق عودتى من مركز المنطقة كنت أفكر وأرسم الخطط طوال الطريق . . . سأقتل نفسى ، هذا ما سأفعله . انه لأمر مؤلم ، لكن يبدو أنه ليس هناك مخرج سواه . لا فائدة اذا حاولت فعلاً أن أشفى نفسى من مرضى ، فان جميع من فى القرية سيكتشف ذلك . سيشيرون ، جميعاً ، باصابعهم نحوى ، ويولوننى ظهورهم ويضحكون . من سيرغب فيّ على حالتى الراهنة ؟ سيذوى جمالى ، ويذبل جسمى ، وسأتعفن وأنا حية . . . ولست راغبة فى ان يحصل بى هذا !

كانت داريا تتكلم وكأنها تناقش الامر مع نفسها دون ان تأبه لحركة ناتاليا المعترضة .

— قبل ان اذهب الى فيشنسكايا قلت فى نفسى : لو اننى مصابة بمرض خبيث فسوف اعمل على الشفاء منه . ولهذا لم اعط النقود للوالد . حسبت انها ستكون ذات فائدة لدفع اجور الأطباء . . . أما الآن ، فقد غيرت فكرى . ولقد سئمت كل شىء . لا اريد ان اشفى !

وقذفت داريا سباباً مقذعاً مما يستعمله الرجال عادة ، وبصقت ، وبظهر راحتها مسحت دمعة عالقة بأهداب عينها الطويلة ، فقالت ناتاليا بصوت هادئ :

— يا لشناعة ما تتفوهين به ! يجب ان تخافى الله . . .

— الله . . . انه لا ينفعنى الآن . وقد ظلّ يعاكسني طيلة حياتى . . .

وابتسمت داريا ، وفى ابتسامتها الخبيثة الماكرة لمحت ناتاليا ، فى ثانية واحدة ، صورة داريا الأصيلة .

— . . . اياكم ان تفعلوا هذا ، واياكم ان تفعلوا ذاك . الكل يخيفونك من ارتكاب الخطايا بالحديث عن يوم الحساب . . . ولكنك لن تستطيعى ان تفكرى بحساب افظع من هذا الذى سأنزله على نفسى . لقد سئمت كل شىء ، يا ناتاليا . لقد تكشف الجميع عن رهط فظيع . . . وسيكون من اليسير عليّ ان اقتل نفسى . ليس لديّ من هو امامى او ورائى ، ولا من اريد ان انتزعه من فؤادى . . . هذا حق !

لكن ناتاليا ظلت تجادلها بشدة ، متوسلة اليها ان تعيد النظر فى قرارها وان تنحى فكرة الانتحار عن ذهنها . بيد ان داريا ، التى كانت تنصت اليها فى شرود بادئ الأمر ، ما لبثت ان استجمعت قواها وقاطعتها مغضبة :

— كفى عن هذا الكلام ، يا ناتاليا ! انا لم اجئك لكى تثنينى عن عزمى بالكلام وتتوسلى . انى جئت كى اخبرك بمصيبتى وان احذرك بألا تدعى ، من اليوم فصاعداً ، طفليك يقتربان منى . ان مرضي معد ، كما يقول الممرض ، وقد سمعته يقول ذلك بأذني ، فلا أريد أن يصابا به مني . الا ترين ، يا بليدة ؟ ثم اخبري العجوز ، فلست املك الشجاعة لاخبارها بنفسى . . . لكنني . . . لكنني لن اضع رأسى فى الانشوطة حالاً ، لا تظنى ذلك ! لا زال ثمة متسع من الوقت . . . سأظل احيا فى هذا العالم مدة قصيرة أخرى وامتّع نفسى به ، واودعه الوداع الأخير . أنت تعرفين طباعنا نحن النساء . ما دامت قلوبنا خلية ، نسير على غير هدى . . . انظرى الى حياتى كيف عشتها : كنت اشبه بالعمياء ، ولكن حينما كنت عائدة من فيشنسكايا بحذاء

13—1410

ضفة الدون ، وحينما خطر فى ذهنى اننى ساضطر الى مغادرة هذا العالم عن قريب ، احسست وكأن عينى قد تفتحت . فنظرت الى الدون ، وكان يترقرق فى كل شبر منه ، وبدا فى نور الشمس كالفضة الخالصة ، يتراقص ، حتى لقد آلم بصرى النظر اليه . فاستدرت وجعلت انظر . . . رباه ، كم كان كل شىء جميلاً ! ومع ذلك ، فلم يحدث لى قبل ذلك ان لاحظته . . .

وابتسمت داريا حيية الوجه ، وخلدت الى الصمت . ثم شدت قبضتيها ، واستأنفت كلامها فى صوت أعلى واكثر اجهاداً ، وهى تخنق عبرة غص بها بلعومها :

— فى طريقى الى هنا ، بكيت اكثر من مرة . . . وبينما كنت اقترب من القرية ، نظرت فرأيت الاطفال يسبحون فى النهر . . . وبينما كنت انظر اليهم وخزنى قلبى فجأة ، وطفقت ابكى ، كالبلهاء . فارتميت على الرمل ، ولبثت عليه ساعتين حتى اتغلب على نوبة البكاء . . . ليس الأمر يسيراً علىّ حينما افكر فيه . . .

وقامت من الارض ، ونفضت تنورتها ، وسوت ، بحركة معتادة ، عصابتها على رأسها :

— الشىء الوحيد الذى يفرحنى حينما افكر بالموت هو اننى سأرى بيوتر فى العالم الآخر . . . سأقول له :

— حسن ! يا صديقى القديم ، بيوتر بانتلايتش ، خذ ثانية زوجتك الطائشة !

وأضافت ، فى سخريتها اللوذعية المعتادة :

— بيد انه لن يستطيع ضربى فى ذلك العالم ، فهم لا يسمحون بدخول الأشخاص المثيرين للعراك الى الجنّة ، أليس كذلك ؟ حسن ، الى اللقاء يا ناتاليا العزيزة ! لا تنسى ان تخبرى الوالدة بمصيبتى .

فلبثت ناتاليا جالسة وهى تغطى عينيها براحتيها المتربتين ومن بين أصابعها كانت الدموع تتألق كما تتألق مادة الراتينج فى حلقات الصنوبر . وحينما بلغت داريا البوابة المضفورة من سيقان الاسفندان ، استدارت وقالت فى لهجة لا انفعال فيها :

— من اليوم فصاعداً ، سوف اطعم فى صحون منفصلة . اخبرى الوالدة بذلك . آه نعم ، شىء آخر : عليها الا تخبر الوالد بالأمر ، والا فان العجوز سيجن ويطردنى خارج البيت . وهذا ما ينقصنى . أنا ذاهبة الآن الى الحشّ مباشرة . الى اللقاء !

١٤

عاد الحاشون من السهب فى اليوم التالى . وعقد بانتلاى العزم على الشروع بنقل القش فى العربات بعد العشاء . وقادت دونيا الثيران الى الدون لتوردها ، وأسرعت ايلينشنا وناتاليا تعدان المائدة .

كانت داريا آخر من جلس الى المائدة ، فقعدت عن طرفها ، ووضعت ايلينشنا امامها صحناً صغيراً من حساء الكرنب ، وصبت ، كالعادة ، الحساء للآخرين فى صحن كبير واحد .

فحدج بانتلاى زوجته مستغرباً ، وسألها وهو يشير الى صحن داريا بعينيه :

— ما معنى هذا كله ؟ لماذا صببت حساءها منفصلاً ؟ الم تعد على مذهبنا ؟

— ما هذا الذى تريده الآن ؟ كُل !

فألقى العجوز نظرة ساخرة على داريا وابتسم قائلاً :

— ها ها ! فهمت ! ما دامت قد حصلت على مدالية ، فلم تعد ترغب فى الاكل من الصحن المشترك . كيف هذا ،

يا داريا ؟ تترفعين عن مشاركتنا بصحن واحد ؟

فأجابت داريا بصوت مبحوح :

— كلا ، لا أترفع . ولكن لا يجوز .

— ولم لا ؟

— بلعومى ملتهب .

— حسن ، ثم ماذا ؟

— ذهبت الى فيشنسكايا لرؤية الممرض ، وقال عليّ ان آكل فى صحن منفصل .

— انا أيضاً التهب بلعومى مرة ، لكننى لم ابتعد عن الجميع ، كما اننى ، والحمد لله ، لم اعد احداً به . اذن ، فما هو صنف البرد الذى اصابك ؟

فشحب وجه داريا ، ومسحت شفتيها بيدها ووضعت ملعقتها على المائدة . اما ايلينشنا فقد أغاظها تصرف زوجها غير الحصيف ، فصاحت به :

— لِمَ تضايق المرأة ؟ نحن لا نعرف طعم الراحة منك حتى على المائدة ! يلصق كالشوك ، ولا خلاص منه !

فردّ عليها بانتلاى فى حنق :

— ولكن لِمَ كل هذه الضجة ؟ لا يهمنى ، افعلوا ما شئتم !

وفى ثورة حنقه صب ملعقة من الحساء الساخن فى بلعومه ، وحرق حلقه ، فزأر كالمجنون وهو يقذف الحساء فوق لحيته :

— أنت لا تعرفين كيف تقدمين الحساء بشكل صحيح ، اللعنة عليكم جميعاً ! من يقدم الحساء من على النار مباشرة ؟

فقالت ايلينشنا معزية :

— لو قللت كلامك على المائدة لما حرقك الحساء .

وكادت دونيا ان تنفجر ضاحكة وهى تراقب أباها وقد استحال

وجهه ازرق وهو يلتقط الكرنب وفتات البطاطس من ثنايا لحيته . لكن الآخرين جميعاً كانوا متجهمى الوجوه ، فكبحت جماح نفسها وادارت عينيها خشية ان تقهقه فى لحظة حرج كتلك .

بعد العشاء ، خرج العجوز وكتناه فى العربة لجلب العشب . فجعل بانتلاى يقذف العشب فى العربة بمذراة طويلة ، بينما تتناول ناتاليا الكومة عفنة الرائحة وتطأها بقدميها . وبعد ذلك ، عادت مع داريا من الحقول ، بينما كان بانتلاى قد سبقهما بثوريه العجوزين ذوى الخطوات الواسعة .

كانت الشمس تأفل وراء الربوة ، ورائحة الشيح الحادة تنبعث من السهب المحشوش وقد أمست اشد نفاذاً مع حلول المساء ، ولكنها فى الوقت نفسه أصبحت اكثر انعاشاً وأطيب عطراً ، وقد زالت حرافتها الخانقة التى كانت تميزها اثناء النهار . وكانت الحرارة تفتر ، فراحت الثيران تسير طواعية ، والغبار الثقيل الذى تثيره حوافرها على الدرب الصيفى يعلو ويحط على ادغال العوسج على جانبى الدرب . وكانت رؤوس العوسج وتيجانها القرمزية المزهرة تتقد لامعة ، والنحل يحوم فوقها ، وطيور الهدهد محلقة نحو غدير ناء فى السهب ، تنادى بعضها البعض .

ارتمت داريا على بطنها فى العربة المتأرجحة ، متكئة على مرفقيها ، وملقية نظرها على ناتاليا بين الفينة والفينة . وكانت ناتاليا شاردة تحدق فى غروب الشمس ، وعلى وجهها الهادئ الصافى تحوم أشعة قرمزية . «ناتاليا سعيدة . لديها زوج وطفلان ، وليس ثمة شىء آخر تحتاجه : وكل من فى العائلة يحبها . أما أنا ، فقد انتهى أمرى . وحينما اموت ، لن يذرف احد عليّ دمعة» . وفيما كانت داريا تفكر ، حاسدة عديلتها ، استشعرت على حين غرة رغبة تعتمل فى صدرها لايذاء ناتاليا بشكل ما ، لايلامها .

لم كان عليها ، هى داريا ، وحدها ان تصارع غارات اليأس ، ان تفكر بلا انقطاع فى حياتها المحطمة وان تقاسى كل هذه المصائب القاسية ؟ فألقت نظرة سريعة أخرى على ناتاليا وقالت فى صوت حاولت ان تجعله يبدو مخلصاً :

— اريد ان اعترف لك بشىء ، يا ناتاليا .

لم تجب ناتاليا فى الحال . كانت تستعيد ، وهى تحدق فى الشمس الغاربة ، ذلك اليوم البعيد حينما كانت لا تزال خطيبة لغريغورى ، وقد جاء ليراها فى دار اهلها . وحينما غادر الدار خرجت هى الى البوابة لتودعه . فى ذلك اليوم ، كان الغروب يلتهب ، كما الآن ، فى بقايا وهج بلون توت العليق منبسط ناحية الغرب ، وكانت الزيغان تتنادى بين الصفصاف . ابتعد غريغورى على صهوة حصانه ، وجسمه فوق سرجه نصف مستدير ناحيتها ، وقد لبثت هى تحدق خلفه خلل دموع الانفعال الجذلان ، وهجست بيديها المشدودتين على نهديها البكرين النافرين ضربات قلبها عنيفة صاخبة . . . فلم ترتح حينما قطعت عليها داريا حبل التأمل الصامت ، فتساءلت بفتور :

— ما عساك تريدين أن تعترفى به ؟

— ارتكبت اثماً . . . هل تذكرين حين عاد غريغورى من الجبهة فى اجازة ؟ فى مساء ذلك اليوم ، كما أذكر ، كنت أحلب البقرة . وبينما كنت ماضية الى الكوخ سمعت أكسينيا تناديني . حسن ، دعتنى وأعطتنى هذا الخاتم الصغير ، فرضته علىَّ فرضاً (وهنا أدارت داريا الخاتم فى بنصرها) وتملقتنى بغية ارسال غريغورى اليها . على أية حال ، لم يكن ذلك من شأنى . . . فأخبرته . وهو طوال تلك الليلة . . . أتذكرين أنه قال بأن كودينوف قد قدم وأنه قضى الليلة بالحديث معه ؟ كان ذلك كله هراء ! كان مع أكسينيا .

جلست ناتاليا مسلوبة الحواس ، بيضاء الوجه ، تكسر بيديها فى صمت قطعة يابسة من البرسيم .

فقالت داريا فى تواضع ، وهى تحاول أن تنظر فى عينى ناتاليا :

— لا تغضبى منى ، يا ناتاليا . اننى آسفة لاخبارك الآن .

فخنقت ناتاليا عبراتها فى صمت ، كانت المصيبة التى داهمتها ثانية مفاجئة وخانقة ، بحيث لم يعد فيها حول للردّ على داريا ، بل أشاحت لتخفى وجهها العابس .

وفيما كانت العربة تدخل بهما القرية ، كانت داريا تتحدث فى سريرتها حانقة على نفسها : — لا بد أن الشيطان هو الذى استحثنى لاغاظتها ! والآن ، ستظل شهراً كاملاً تذرف الدموع ! كان علىَّ ألا أدعها تعلم . الأفضل للبقرات من مثيلاتها أن يعشن فى عميهن .

ثم قالت ، تحدوها الرغبة فى تخفيف وطأة كلماتها على ناتاليا :

— لكن ، لا داعى لانزعاجك الزائد . ما قيمة ذلك حتى تتنهدى وتتحسرى ؟ مصيبتى أفدح من مصيبتك ، لكننى ، مع ذلك ، أحافظ على ذقنى مرفوعاً . والشيطان يدرى . . . فرغم كل هذا ، من المحتمل ألا يكون قد ذهب اليها ، ولعله ذهب فعلاً لرؤية كودينوف ، أنا لم أتبعه . واذا لم يلق القبض على المرء متلبساً بالسرقة ، فما هو باللص !

فأجابت ناتاليا بهدوء ، ماسحة عينيها بطرف عصابتها :

— حزرت أين ذهب .

— فاذا حزرته ، لِمَ لم تسأليه ؟ آه ، يا عديم النفع ! لو كان بيدى ، ما كان ليفلت منها ! لشددت عليه الخناق حتى أدوخه !

فقالت ناتاليا ، والانفعال يجعل كلامها متعثراً ، فيما التهبت عيناها :

— كنت أخشى اكتشاف الحقيقة . . . أو تظنين الأمر يسير الاحتمال ؟ أنت . . . لعلك كنت تستطيعين . . . العيش مع بيوتر هكذا . . . لكنني حينما أتذكر . . . أتذكر كل ما مر عليّ . . . عليّ من مصائب . . . من الفظاعة احتمالها حتى هذه اللحظة .

فقالت داريا تنصحها في سذاجة :

— حسن ، اذن ، انسيْ كل شيء !

فهتفت ناتاليا بصوت غريب أجش :

— ما هذا بالشيء الذي يمكن نسيانه !

— لو كنت مكانك لنسيته ! جعجعة زائدة على لا شيء !

— اذن فانسي مرضك !

— بودي ذلك ، لكنه لا يريد ان يتخلى عني ، عليه اللعنة ! اسمعي يا ناتاليا ، ان شئت ، اكتشف جلية الأمر كله من أكسينيا . سوف تخبرني حتماً ، فليعاقبني الله ! لكن ، ليس ثمة امرأة على قيد الحياة تستطيع ان تسكت ولا تبوح للآخرين بمن يحبها وكيف يحبها . انا خبيرة بهذه الأمور من تجاربي .

فردّت ناتاليا عليها بجفاف :

— لا اريد خدماتك ! لقد اديتِ لي خدمة واحدة قبل هذه ! أنا لست عمياء ، بل اعرف لماذا اخبرتني بالأمر . ولم يكن اعترافك لي عطفاً على حالي ، كما ادعيت ، انما اردت ان تريني اشد تعاسة . . .

فقالت داريا موافقة وهي تتنهد :

— أنت على حق ! ولكن اترك لك الحكم . هل علي انا وحدي ان اقاسي ، ها ؟ — وترجلت من العربة ، وامسكت بعنان

الثورين ومضت تقود الحيوانين المتعبين حذر التل . وعند منعطف الدرب المؤدي الى دارهم ، اقتربت من العربة وقالت :

— عزيزتي ناتاليا ، هناك شيء واحد اود ان اسألك اياه . . . هل تحبين زوجك كثيراً ؟

فأجابت ناتاليا بصوت غير واضح :

— كما استطيع .

فتنهدت داريا :

— هكذا ، اما انا فلم يصدف قط ان أحببت اي انسان حباً جماً . كنت احب كما تحب الكلبة ، هنا ، وهناك ، وفي كل مكان . ليتني استطيع ان احيا حياتي من جديد ، فقد احياها على نحو مغاير .

ليل حالك السواد عقب الغسق الصيفي القصير . كدسوا التبن في الفناء وسط الظلام . عملت المرأتان دونما كلمة ، حتى ان داريا لم ترد على بانتلاي حينما صرخ فيها .

١٥

ظلت القطعات المتحدة لجيش الدون ومتمردي الدون الاعلى تزحف شمالاً ، مطاردة العدو مطاردة عنيفة فيما كان هؤلاء يتراجعون من أوست–مدفديتسكايا . وفي شاشكين حاولت الكتائب المضعضعة للجيش الأحمر التاسع ان توقف زحف القوزاق ، لكنهم اضطروا الى التخلي عن مواقعهم وتقهقروا ثانية الى مواقع قريبة من خط سكة حديد كريازي — تساريتسين ، دون ان يستطيعوا الصمود بشكل ثابت .

واشترك غريغوري وفرقته في المعركة وأدى مساعدة كبيرة للواء

مشاة الجنرال سوتولوف الذى كان يصد هجوماً شنّ على جناحه . واسرت كتيبة يرماكوف الراكبة ، التى أمرها غريغورى بالدخول الى المعركة ، زهاء مائتين من رجال الجيش الاحمر ، واستولت على أربعة مدافع رشاشة واحدى عشرة عربة عتاد .

وفى عصر ذلك اليوم دخل غريغورى تصحبه ثلة من قوزاق الكتيبة الأولى . وعلى مقربة من المنزل الذى احتلته هيئة اركان الفرقة كان يقف حشد حاشد من الأسرى ، يشعون بياضاً بقمصانهم وسراويلهم الداخلية ، ويقف فى حراستهم نصف سرية من القوزاق . وكان أغلب الأسرى قد جردوا من جزمهم وملابسهم ، ما عدا الداخلية ، ولم تكن ثمة سوى قمصلة خاكية وسخة هنا وهناك ، كصبغة مخضوضرة وسط كتلة البياض الشامل .

فهتف بروخور زيكوف مشيراً الى الأسرى :

— عجباً ، لقد استحالوا بيضاً كالأوز !

فسحب غريغورى عنانه وأدار حصانه جانباً . وبحث عن يرماكوف بنظره وسط حشد القوزاق ، وناداه :

— اقترب . لماذا تختبئ خلف ظهور الآخرين ؟

اقترب يرماكوف ، وهو يسعل فى راحة يده ، وقد تخثر الدم تحت شاربه الخفيف الأسود وعلى شفتيه المشقوقتين ، وتورمت وجنته اليمنى وازرقت من اثر كدمات حديثة . اذ كان حصانه قد تعثر خلال الهجوم وانكفأ على الارض من تحته وهو منطلق فى هذب سريع ، فانطرح عنه مسافة خمس خطوات فى الهواء ثم سقط متزحلقاً على بطنه فوق الارض الخصبة لحقل قمح كان قد ترك ذلك الموسم من غير زرع . ثم وثب هو وحصانه فى آن واحد ، واقفين على اقدامهما . وما هى الا لحظة حتى كان يرماكوف على سرجه ثانية . فانطلق بلا قبعته ، والدم ينهمر مدراراً من وجهه ،

لكنه امتشق سيفه ومضى كالبرق ليلحق بسيل خيالة القوزاق وهم يتدفقون حدر المنحدر .

سأل يرماكوف غريغورى فى دهشة ظاهرة حينما حاذاه :

— ولماذا اختبئ ؟

وكانت عيناه لا تزالان ملتهبتين بوميض المعركة ومشربتين بالدم . لكنه اشاح بنظره عن غريغورى محرجاً .

فقال غريغورى مغمضاً :

— القطة تعرف لحم مَنْ أكلت ! لماذا كنت تسير ورائى ؟

انتزع يرماكوف ابتسامة من شفتيه المتورمتين وألقى نظرة على الأسرى .

— اى لحم تتحدث عنه ؟ لا تلق بأحجياتك الآن ، فلن استطيع حلها بأية حال . لقد سقطت من حصانى على رأسى اليوم . . .

فأشار غريغورى الى الأسرى بسوطه :

— هل هذا من عمل يدك ؟

تظاهر يرماكوف بأنه لم يسبق له ان رآهم ، والبس وجهه استغراباً لا حد له :

— يا لابناء العواهر : يا للأوباش الملاعين ! لقد جردوهم تماماً ! ولكن متى تسنى لهم ذلك ؟ انك لن تصدق ! انا لم اتركهم سوى لحظة ، بعد ان اصدرت اليهم اوامر مشدّدة بألا يمسوهم . والآن انظر ما فعلوا بهم ! لقد جردوا الشياطين المساكين من كل شىء !

— لا تحاول ذر الرماد فى عينى . ما معنى تمثيلك هذا ! هل اعطيتهم أمراً بتجريدهم من ملابسهم ؟

— معاذ الله ! هل هذا كلام عاقل ، يا غريغورى بانتلايتش ؟

— هل تتذكر أمري ؟

— تقصد الأمر المتعلق بـ . . .

— نعم ، الأمر المتعلق بذلك !

— نعم ، لا شك اننى اتذكره . حفظته غيباً . مثل الشعر الذى كنا نحفظه فى المدرسة .

فابتسم غريغورى طواعية . ثم مال عبر سرجه وأمسك بيرماكوف من سير نطاق سيفه :

— خارلامبى ، بلا لف ودوران ! لماذا سمحت بهذا العمل ؟ سيقوم العقيد الجديد الذى عينوه فى الاركان بدلاً من كوبيلوف برفع تقرير عن ذلك وسوف يستجوبونك . ولن يسرك سماع موسيقاهم ، وما هى سوى سؤال وتحقيق تلو تحقيق .

فأجاب يرماكوف جاداً وفى بساطة :

— لم استطع ان احتمل الأمر ، يا بانتلايتش ! كانوا ، كلهم ، فى ملابس جديدة وكاملة ، اذ كانوا قد زوّدوا بملابس جديدة فى أوست–مدفديتسكايا ، بينما جماعتى تنقصهم الملابس . ولم يكن لديهم الكثير منها حتى فى بيوتهم . اما هؤلاء فكان مصيرهم حتماً الى تجريد ملابسهم لو بلغوا المؤخرة . هل نقوم بأسرهم لكى تستولى فئران المؤخرة على ملابسهم ؟ كلا ، فالأفضل ان يستفيد رجالنا من اللباس . فليستجوبونى ، لكنهم لن يستطيعوا ان ينتزعوا الكثير منى ! ولا تشدد علىّ الخنـــاق ! فأنـــا لا اعرف شيئاً عن الموضوع ولـم أكـن مسؤولاً عنـه حتى فى نـومى !

وحاذيا حشد الأسرى ، وسرعان ما تلاشت همهمة الحديث الخفيضة . وافسح من كان فى الجانب المجال للخيالة ، وهم يحدقون فيهم فى خوف عبوس وترقب قلق . وشخص احد رجال

الجيش الاحمر فى غريغورى آمراً ، فاقترب منه وقال ماساً ركابه بيده :

— أيها الرفيق الآمر ! قل للقوزاق ان يعيدوا لنا معاطفنا على الاقل . اعطفوا علينا بهذا القدر فحسب ! الدنيا باردة فى الليل ، ونحن عراة تماماً ، كما ترى بنفسك .

فردّ عليه يرماكوف فى لهجة خشنة :

— لا اظن انك ستصاب بلسعة الجليد فى منتصف الصيف ، أيها السولق !

ثم نحى الرجل جانباً بحصانه ، والتفت ناحية غريغورى :

— لا تخش شيئاً . سوف اصدر أوامرى بارجاع بعض ملابسهم القديمة لهم . والآن ، ابتعدوا ، ابتعدوا ، ايهـــا المحاربون ! كان عليكم ان تقصعوا القمل الموجود فى سراويلكم بدلاً من محاربة القوزاق !

فى غرفة هيئة الاركان ، كان آمر السرية الأسيرة يجرى استجوابه .

كان رئيس هيئة الاركان الجديد ، العقيد اندريانوف ، جالساً وراء منضدة غطيت بغطاء مشمع عتيق . كان اندريانوف متقدماً فى العمر ، افطس الأنف ، أشيب الشعر عند الصدغين ، وله اذنان كبيرتان كآذان الاطفال . وكان الآمر الاحمر يقف امام المنضدة على مبعدة خطوتين . وكانت افادة الأسير يدونها احد الضباط الاركان ، وهو النقيب سولين الذى كان قد نسب للعمل فى الفرقة مع اندريانوف .

كان الآمر الأحمر طويل القامة ، ذا شارب أحمر قصير الشعر الى درجة بدا أشبه بالشوك ، وكان فى وقفته تلك ينتقل من قدم عارية الى أخرى مثلها فوق الأرضية المصبوغة بلون طين المغرة ،

ويلقى ، من حين لآخر ، نظرة خاطفة على العقيد . وكان القوزاق قد أبقوا له قميصه الداخلى المصنوع من قماش قطنى أصفر غير مقصور ، وهو من النوع الذى يستعمله الجنود ، وقد أعطوه فى مقابل بنطلونه بنطالاً قوزاقياً فضفاضاً ذا أقلام كالحة . وبينما كان غريغورى يسير نحو المنصدة شاهد الأسير يقوم بمحاولة سريعة مضطربة لستر جسمه العارى ، ململماً بنطاله الممزّق فى موضع مقعده .

سأله العقيد ، وهو يحدجه بنظرة سريعة من فوق نظارته :

— تقول : قوميسارية أوريل العسكرية الاقليمية ؟

خفض عينيه ثانية ، واستدار ليفحص وثيقة فى يديه وعيناه نصف مغمضتين .

— نعم .

— فى خريف العام الماضى ؟

— فى نهاية الخريف .

— انت تكذب !

— بل اقول الحقيقة .

— اكرر بأنك تكذب !

فهز الرجل كتفيه ولم يقل شيئاً . ونظر العقيد الى غريغورى وقال وهو يشير بازدراء ناحية الأسير :

— تفضل وانظر ! ضابط سابق فى الجيش الامبراطورى ، الا انه الآن ، وكما ترى ، بلشفى . القى القبض عليه ، والآن يود ان يقول لنا بأنه كان مع الحمر عن طريق الصدفة ، بأنه جند مع الآخرين . انه يكذب بسذاجة وسخافة فتاة مراهقة ويظن اننا سنصدقه . غير انه لا يمتلك الشجاعة الكافية للاعتراف بأنه قد خان أرض الآباء . . . انه خائف ، هذا السافل !

فقال الرجل وهو يخرج الكلام بصعوبة :

— أنا افهم ، ايها العقيد ، بأنك تمتلك الشجاعة الكافية لاهانة أسير .

— أنا لا اكلم سفلة !

— لكننى يجب ان أتكلم !

— حذار ! لا تجبرنى على اهانتك بشكل أشدّ !

— ما أيسر ذلك بالنسبة لك وانت فى مركزك ، والأهم من كل ذلك ، انك لا تخشى شيئاً وأنت تفعل هذا !

لم يكن غريغورى قد نطق بشىء ، وجلس الى المنصدة وهو ينظر الى الأسير فى ابتسامة عطوف . كان وجه الرجل قد استحال ابيض من شدة حنقه ، فراح يرد بلا وجل . فحدث غريغورى نفسه وشعور بالرضا يخامره :

— لقد خضّ اعصاب العقيد !

واحس باستمتاع خبيث وهو ينظر الى خدى اندريانوف وقد ازرق لونهما وجعلا يختلجان فى حركات عصبية .

كان غريغورى ، منذ لحظة لقائه الاول مع رئيس هيئة الاركان الجديد ، قد احس بكراهية تجاهه . كان اندريانوف من طبقة الضباط الذين لم يشهدوا الجبهة مطلقاً خلال الحرب العالمية ، بل ابقى نفسه فى المؤخرة بأسلوب ينم عن فطنة ، متحايلاً بالاستناد الى ارتباطات عائلية وعلاقات مع موظفين متنفذين ، فلبث متشبثاً ، بكل قواه ، بمنصب آمن . وحتى خلال الحرب الاهلية ، كان على درجة من الذكاء بحيث استطاع ان يحصل على وظيفة فى المؤخرة ، فى نوفوتشيركاسك ، ولم يجبر على الذهاب الى الجبهة الا بعد ان اقصى الاتمان كراسنوف من منصبه .

ولقد علم غريغورى من فم اندريانوف نفسه ، خلال الليلتين

اللتين قضياهما معاً فى مقر واحد ، بأنه كان متديناً شديد التدين ، وبأنه لم يكن بمقدوره ان يتحدث عن العبادة الالهية دون ان تترقرق الدموع فى عينيه ، وبأن زوجته كانت امثل نموذج للزوجة يمكن تصوره وان اسمها كان صوفيا الكساندروفنا ، وان نائب الاتمان ، فون غرابه ، نفسه ، قد حاول مرة ، دون جدوى ، ان يستميلها اليه . كما اضاف العقيد الى ذلك الكثير من التفاصيل التافهة عن الضيعة التى كان يمتلكها أبوه ، وعن كفاحه هو للوصول الى رتبة عقيد ، وعن الشخصيات البارزة جداً التى كان قد خرج معها للصيد فى عام ١٩١٦ . وأحاط غريغورى علماً كذلك بأنه كان يعتبر لعبة الوست * افضل اللعب ، والكونياك المطيب بأوراق الليمون اكثر المشروبات فائدة ، والخدمة فى القوميسارية العسكرية اكثر المناصب ربحاً .

وكان العقيد اندريانوف يجفل مع كل رمية مدفع قريبة ، ولا يمضى على حصانه الى أبعد مما يحتمل ، متعللاً بحجة ألم فى كبده . وكان دائم الحرص على زيادة عدد الحرس الخاص بمقر الاركان ، ولا يكاد يستطيع ان يخفى بغضه للقوزاق الذين كانوا ، على حد قوله ، خونة جميعاً فى عام ١٩١٧ . ومنذ ذلك الحين ظل يكره جميع «المراتب السفلى» دونما تمييز . قال مرة :

— ليس بمستطاع احد ان ينقذ روسيا سوى النبلاء ، — موحياً ، عرضاً ، بأنه هو ايضاً كان من سلالة نبيلة ، وبأن سلالة اندريانوف كانت من اعرق وانبل السلالات فى كل اقليم الدون .

ولا شك ان نقطة ضعفه الرئيسية كانت ثرثرته . . . ثرثرة الكهول الفظيعة الجامحة التى تتسم بها سنوات الانحطاط لطبقة معينة من

---

* الوست : لعبة ورق . المترجمون .

الناس عرفوا بالهذر والغباء وكانوا ، طوال حياتهم ، معتادين على اصدار احكام سطحية مهزوزة على كل شىء واى شىء .

كان غريغورى قد التقى بعدد كبير ممن كانوا على هذه الشاكلة ، وكان دائماً يبغضهم بغضاً شديداً . فحاول ان يتجنب اندريانوف قدر المستطاع . وافلح فى ذلك الى حد كبير خلال النهار . ولكن ، ما ان كانوا يتوقفون لقضاء الليلة حتى يمضى اندريانوف باحثاً عن غريغورى ليستعجله السؤال :

— هل تود ان نقضى الليلة فى مقر واحد ؟

ثم يقول دون ان ينتظر الردّ :

— تقول : يا صديقى ، انه لا يمكن الاعتماد على القوزاق فى شن هجوم للمشاة ، ولكن ، حينما كنت ضابطاً ملحقاً بصاحب السعادة . . . هى ، يا من هناك ، ليجلب احدكم حقيبتى وفراشى !

وكان غريغورى يستلقى ، ويغمض عينيه ، ويتسمع اليه واسنانه تصر ضيقاً . ثم يدير ظهره ، من غير ما احترام ، الى الثرثار الذى لا يكل ، ويغطى رأسه بمعطفه الثقيل ، ويحدث نفسه فى غيظ مكتوم :

— حالما استلم الأمر بنقلى ، سأضرب رأسه بشىء ثقيل ! فقد يسلبه ذلك قدرته على الكلام لمدة اسبوع على الأقل !

ويأتيه صوت اندريانوف متسائلاً :

— هل غفوت ، ايها النقيب ؟

فيردّ غريغورى بصوت مكتوم :

— نعم .

— عفواً ، لكننى لم أتمم حديثى بعد .

ويستأنف الحكاية . وبينما كان الكرى يزحف على عينى غريغورى كان يفكر :

— لقد ارسلوا اليّ بهذا الببغاء عن عمد . لا بد ان فتشالوروف اتخذ اجراء ما . حسن ، كيف يستطيع أى امرئ ان يعمل مع تفاهة عفنة كهذا ؟

وكان يغفى وصوت العقيد النفاذ الجهير لا يزال ينقر كما ينقر مطر خفيف على سطح من حديد .

ولهذا لم يكن مستغرباً ان يستشعر غريغورى سروراً خبيثاً حينما كان الآمر الأحمر الأسير يضرم النار فى اعصاب رئيس هيئة الاركان المهذار ، على نحو بديع .

لبث اندريانوف صامتاً بعض الوقت ، وعيناه نصف مغمضتين . واستحال لون شحمتى اذنيه البارزتين قرمزياً لامعاً . وكانت يده اللحيمة البيضاء ، وخاتم ذهبى كبير فى سبابته ترتعش وهى حاطة على المنضدة .

ثم قال فى صوت مبحوح من اثر الانفعال :

— اسمع ، ايها الهجين ! انا لم آمر باستقدامك امامى لتنهمك فى الأخذ والردّ . فلا تنس ذلك ! هل تدرك أنك لن تستطيع الافلات ؟

— ادرك ذلك تماماً .

— هذا افضل لك . ومن حيث النتيجة لا يهمنى قط ان تكون قد انضممت الى صفوف الحمر طوعاً او انك جندت تجنيداً . هذا لا يهم . المهم انك ترفض الكلام نتيجة لمفهوم خاطئ لمعنى الشرف .

— واضح ان لدينا ، انا وانت ، مفهوماً مختلفاً لقضايا الشرف . . .

— وذلك لأنه لم يبق لديك شرف قط ، وهذا هو كل ما فى الامر !

— أما أنت ومن الطريقة التى تعاملنى بها ، فمن المشكوك أن تكون قد امتلكت شرفاً فى أحد من الأيام !

— افهم انك تسعى الى نهايتك بسرعة !

— ولماذا يجب عليّ ان استخلصها استخلاصاً ؟ لا تحاول اخافتى . لن تفلح فى ذلك !

ففتح أندريانوف ، بيدين راعشتين ، علبة سكائره ، واشعل سيكارة ، وجر نفسين ، ثم التفت ثانية نحو الأسير :

— اذن فأنت ترفض الاجابة عن الاسئلة ؟

— لقد حدثتك بكل شىء عن شخصى .

— الى الشيطان ! أنا لا اهتم بشخصك القذر . ارجو الجواب على السؤال التالى : اية تعزيزات استلمتم من محطة سيبرياكوفو ؟

— قلت لك لا ادرى .

— لا ، بل أنت تدرى !

— حسن جداً ! ما دام ذلك يسرك ، اذن فأنا ادرى ، لكننى لن اخبرك !

— سوف آمر بضربك بالسفود ، وآنذاك ستخبرنى !

— اشك فى ذلك !

ومس الاسير شاربه بيده اليسرى مبتسماً فى ثقة .

— هل شاركت كتيبة كاميشنسكى فى هذه المعركة ؟

— كلا .

— لكن جناحكم الايسر تحميه خيالة ، فاية كتيبة كانت ؟

— ارح نفسك ! واقول لك مرة اخرى اننى لن اجيب على مثل هذه الاسئلة .

— اختر احد امرين : اما ان تحل عقدة لسانك ، أيها الكلب الهجين ، والا ففى خلال عشر دقائق ستقف امام حائط ! ها ؟

فردّ الأسير فى صوت رنان فتىّ ، عالى النبرة بشىء غير متوقع :

— لقد احتملت الكفاية منك ، ايها الاحمق العجوز ! ايها الرذل ! لو كنت قد وقعت فى يدي لما كنت استجوبك على هذه الصورة . . .

شحب وجه اندريانوف وامتدت يده بسرعة الى جراب مسدسه . بيد ان غريغورى قام على مهل ، ورفع يده محذراً :

— كفى ، كفى ! لقد انهيتما حديثكما ، ويكفى ذلك . انتما ، كلاكما ، سريعا الغضب ، كما ارى . لم تستطيعا ان تصلا الى اتفاق ، غير ان هذا لا يهم ، ولم يعد هناك ما يقال اكثر من ذلك . انه على حق تماما فى رفضه خيانة جماعته . والله ، انه لعلى خلق كريم ! ما كنت اتوقع أنا أيضاً .

نهض اندريانوف محنقا ، وهو يحاول عبثا فك زر الجراب :

— ارجوك ، دعنى !

فقال غريغورى جذلا وهو يمضى الى المائدة ، ويغطى الاسير بجسمه :

— لا ، لن ادعك ! لا معنى فى قتل أسير . الا تخجل من تصفية رجل فى مثل وضعيته ؟ أعزل ، أسير ، مسلوب الملابس ، وأنت ترفع يدك . . .

— تنحّ جانباً ! لقد اهانتنى النذل !

ودفع اندريانوف غريغورى بشدة وسحب مسدسه .

فاستدار الاسير ليواجه النافذة وهو يهز كتفيه كمن يشعر بالبرد . وجعل غريغورى يراقب العقيد مبتسما فيما امسك هذا بعقب المسدس الكبير فى راحته واعده للاطلاق فى حركة غير متسقة ، ثم ما لبث

ان خفض الماسورة واستدار قائلاً بصوت أجش وهو يجرّ انفاسه جراً ويلعق شفتيه بلسانه :

— لا اريد ان الطخ يدى . . .

فقال غريغورى دون ان يحاول اخفاء الضحكة التى شعت بها اسنانه البيض من تحت شاربه :

— ولا كنت تستطيع ذلك ! اذا امعنت النظر ستجد ان مسدسك فارغ . حينما افقت هذا الصباح التقطته من المنضدة والقيت عليه نظرة . لم يكن يحتوى على رصاصة ولم يكن قد نظف منذ اكثر من شهرين . انت لا تعتنى عناية حسنة بعدتك الخاصة .

فاخفض اندريانوف عينيه وادار بكرة المسدس باصابعه ، وابتسم قائلاً :

— اللعنة ! لكنك مصيب . . .

اما النقيب سولين ، الذى كان يراقب الوقائع فى صمت وعلى شفتيه ابتسامة مبهمة ، فقد لف ورقة الافادة التى كان يدونها ، وقال فى دندنة مبهمة :

— اخبرتك اكثر من مرة ، يا سيمون بوليكاربتش ، انك تعامل اسلحتك بطريقة منفرة . ومثال هذا اليوم برهان جديد آخر على اننى محق .

— هى ، يا انتم ، هل هناك احد من المراتب السفلى ؟ تعال هنا !

فدخل مراسلان وآمر الحرس قادمين من الغرفة الامامية ، فاشار اندريانوف الى الاسير : «خذوه !»

فاستدار الرجل وواجه غريغورى ، وفى صمت انحنى له ومضى صوب الباب . وخيل لغريغورى ان شفتيه انفرجتا من تحت عذاريه الاحمرين عن ابتسامة امتنان لا تكاد تُلحظ .

وحينما تلاشت خطى الرجال ، رفع اندريانوف نظارته بحركة كليلة ، ومسح عدستيها فى اعتناء بقطعة من جلد الشاموا ، وقال فى لهجة متألمة :

— لقد دافعت عن هذا القذر دفاعاً ممتازاً ، ولو ان هذا الأمر يخص ضميرك . ولكن ما الذى قصدته من ذكر موضوع مسدسي أمامه ، فوضعتنى فى موقف حرج ؟

فأجاب غريغورى مسترضياً :

— ليست هذه مصيبة .

— ربما ، ومع ذلك فما كان عليك ان تفعله . بالرغم من انه كان من المحتمل ان اقتله فعلا . انه من الصنف الكريه ! كان قد مضى عليّ نصف ساعة وأنا أجاهد معه قبل ان تصل انت . وكان اسلوبه فى الكذب واللف والدوران فظيعاً ، وهو يعطينى ، بشكل واضح ، معلومات كاذبة . وحينما اصطدته فى ذلك ، رفض ان ينطق بشيء . قال ان شرفه العسكرى يأبى عليه ان يكشف للعدو عن اسرار عسكرية . ولم يفكر ابن العاهرة بشرفه العسكرى حينما اجر نفسه للبلاشفة . . . انا اقترح ان يقتل بالرصاص فى هدوء ، هو وآخران من القيادة . فبقدر ما يتعلق الامر بالحصول على المعلومات التى نريدها ، يبدو ان امرهم ميئوس منه تماما . انهم انذال ثابتو العقيدة لا صلاح لهم ، وعليه فلا معنى فى الابقاء عليهم . ما رأيك ؟

فسأله غريغورى دون ان يجيب على سؤاله :

— كيف اكتشفت بانه كان آمر السرية ؟

— احد جنوده كشف عن ذلك .

— أنا اقترح ان يرمى هذا الجندى بالرصاص ويترك الآمرون .

والقى غريغورى نظرة متحدية نحو اندريانوف . فهز العقيد

كتفيه وابتسم كما يبتسم المرء لدى سماعه فكاهة سخيفة :

— كلا ، اننى اسأل جاداً ، ما رأيك ؟

— كما قلت بالضبط .

— استميحك المعذرة ، ولكن على أى أساس ؟

— على أى أساس ؟ على أساس الحفاظ على الضبط والنظام فى الجيش الروسى . حينما آوينا الى الفراش ليلة البارحة ، تحدثت أنت ، ايها العقيد ، حديثاً معقولاً جداً عن النظام الذى يجب ادخاله الى الجيش بعد ان نكون قد قهرنا البلاشفة ، وذلك لكى نستطيع تطهير الشباب من العدوى الحمراء . وقد اتفقت معك تماماً ، أتذكر ؟

ومسد غريغورى شاربه مراقباً تغيّر التعابير على وجه العقيد ، ثم استأنف كلامه متروياً :

— اما الآن ، فانظر الى ما تقترحه ! بهذه الطريقة ستشيع الانحلال فيما بين رجال الجيش . وسيعتقد الجنود ان بامكانهم ان يخونوا ضباطهم ! وهذا لعمرى درس لطيف ! ولكن افرض اننا وجدنا انفسنا ، يوماً ما ، فى حالة مماثلة ، فما العمل آنئذ ؟ استميحك المعذرة ، لكننى لا اوافق على الفكرة .

فقال اندريانوف فى لهجة باردة وهو يحدق فى غريغورى بنظرة فاحصة :

— كما تشاء !

وكان أندريانوف قد سمع بأن قائد فرقة المتمردين كان يؤمن بنمط خاص من المعايير الخلقية وأنه كان ذا أطوار غريبة . ولكنه لم يكن يتوقع شيئاً كهذا يصدر عنه . ولم يزد على قوله :

— كنا فى العادة نتصرف بهذا الشكل مع أمراء الوحدات الحمر الواقعين فى الأسر . ان فكرتك جديدة عليّ . . . وأنا لا

أفهم بالضبط موقفك فى موضوع بادى الوضوح كهذا .

فرد غريغورى ، وقد استحال وجهه أزرق :

— كنا نقتلهم أثناء القتال ان تسنى لنا ذلك ، لكننا لم نقتل الأسرى من غير سبب معقول .

فوافقه آندريانوف قائلاً :

— عال ، لنرسلهم الى المؤخرة ! والآن أمامنا مشكلة أخرى : لقد عبّر بعض الأسرى ، وهم فلاحون مجندون من اقليم ساراتوف ، عن رغبتهم فى الانخراط فى صفوفنا والقتال الى جانبنا . ان تعداد كتيبة المشاة الثالثة يقل عن ثلاثمائة رجل من حملة الحراب . أتظن أن من الممكن تنسيب بعض الأسرى المتطوعين لها ، بعد اجراء عملية انتقاء دقيق لهم . لدينا تعليمات دقيقة فى هذا الموضوع من هيئة أركان الجيش .

فأعلن غريغورى عن رأيه بلا تحفظ :

— لن آخذ فى امرتى فلاحا واحدا . ليسد النقص بقوزاق .

فجاهد آندريانوف ليناقشه الآمر :

— اسمع ، لن نتخاصم . أنا أفهم رغبتك فى ألا تضم الفرقة غير القوزاق ، ولكن الضرورة تلزمنا بألا نشمخ بأنوفنا حتى بالنسبة للأسرى . حتى فى «جيش المتطوعين» ، هناك بعض الكتائب التى عززت قوتها بالأسرى .

فقاطعه غريغورى محتداً :

— لهم أن يفعلوا ما يشاؤون ، أما أنا فأرفض قبول الفلاحين . انتهى !

وبعد ذلك بقليل خرج ليصدر تعليماته الخاصة بارسال الأسرى الى المؤخرة . وأثناء العشاء قال آندريانوف بلهجة مشوبة بشىء من الانفعال :

— واضح أننا لن نستطيع العمل سوية . . .

فأجاب غريغورى بلا مبالاة :

— هذا ما كنت أفكر به .

وبدون أن يعير ابتسامة سولين اهتماماً ما ، خوّض بأصابعه فى صحنه حتى عثر على قطعة من لحم الضأن المسلوق ، فشرع يعالج غضروفها الصلب قضما ومضغا فى شهية تنم عن جوع شديد ، حتى أن سولين قطب حاجبيه لذلك ، وكأن به ألما ، وأغمض عينيه لحظة .

° ° °

غب يومين ، أنيطت مهمة ملاحقة القوات الحمر المتقهقرة بمجموعة الجنرال سالنيكوف . واستدعى غريغورى على عجل الى مقر هيئة الأركان . فأطلعه رئيس هيئة الأركان ، وكان جنرالاً كهلاً لطيف المظهر ، على الأمر الصادر من قائد «جيش الدون» والقاضى بحل تنظيمات قوات المتمردين واعادة توزيعها ، ثم قال من غير مقدمات أخرى :

— خلال حرب الأنصار ضد الحمر ، قدت فرقتك بشكل ناجح . أما الآن ، فليس باستطاعتنا أن نعهد اليك بقيادة كتيبة ، بله فرقة . انك لم تحصل على تعليم عسكرى . وفى الظروف الراهنة ، ظروف جبهة متسعة ووسائل حديثة فى فن الحرب ، فأنت غير كفء لقيادة وحدة عسكرية كبيرة . أتتفق معى ؟

فأجاب غريغورى :

— أجل ، أنا أردت أن أستقيل من قيادة الفرقة على أية حال .

— جميل جداً أنك لا تثمن قابلياتك أكثر مما تستحق . فهذه الصفة يندر وجودها فى الضباط الشباب هذه الأيام . والآن ، بأمر قيادة الجبهة ، لقد عينت آمرا للسرية الرابعة التابعة للكتيبة التاسعة عشرة . الكتيبة الآن ماضية فى سيرها على مسافة خمسة عشر فرستاً من هنا ، فى مكان ما بالقرب من قرية فيازنيكوف . التحق بالكتيبة اليوم ، أو غداً على أبعد تقدير . أظن أن لديك ما تقوله ؟

— كنت أود أن أنسب للعمل فى الوحدة الادارية .

— هذا مستحيل . سيحتاجونك فى الجبهة .

— لقد جرحت ، خلال حربين ، وأصبت بالقذائف أربع عشرة مرة .

— ليس لهذا أية أهمية مطلقا . أنت شاب ، مظهرك لائق ، ولا يزال فى استطاعتك أن تقاتل . أما فيما يتعلق بجروحك ، فكم عدد الضباط الذين لم يجرحوا ؟ تستطيع أن تذهب . حظاً سعيداً !

منعا للتذمر الذى كان قيامه حتماً بين قوزاق الدون الأعلى حينما شتت جيش المتمردين على هذه الشاكلة ، جرت فى أعقاب الاستيلاء على أوست–مدفديتسكايا مباشرة ترقية العديد من الجنود القوزاق الذين أظهروا جدارتهم خلال الانتفاضة الى مرتبة ضباط صف ، وجميع العرفاء تقريباً الى مرتبة حملة أعلام ، كما كوفئ الضباط الذين أسهموا فى الانتفاضة ورقيت رتبهم . ولم يغفل غريغورى . اذ كوفئ برتبة نقيب ، وبأمر عسكرى يذكر خدماته الجلى فى النضال ضد الحمر ويعبر عن امتنان القيادة .

نُفذ قرار تفريق كتائب المتمردين تنفيذاً كاملاً خلال بضعة أيام . واستبدل قواد الفرق والكتائب الأميون بجنرالات وعقداء ، كما

عين ضباط متمرسون آمرى سرايا ، وغيرت قيادات البطاريات وهيئات الأركان كلياً ، بينما نسب الجنود القوزاق الى مختلف كتائب الدون التى كان تعدادها قد انخفض كثيراً عن قواها الكاملة خلال المعارك التى جرت على نهر الدونيتس .

جمع غريغورى قوزاق فرقته عصراً ، وأعلن عليهم قرار تفريق جيش المتمردين ، وقال مودعا :

— لا تحملوا أية ضغينة ضدى ، أيها الاخوة القوزاق ! لقد خدمنا معاً . أجبرتنا الضرورة على ذلك . ولكن ، من اليوم فصاعداً ، سيقوم كل منا بالاهتمام بأحزانه على انفراد . الشىء المهم هو أن تحافظوا على رؤوسكم ، وألا تدعوا الحمر يحفرون ثقوبا فيها . قد تكون رؤوسنا بليدة ، ولكن لا معنى فى انزال رصاصة فيها حيث لا تستدعى الضرورة . سنظل نحتاجها للتفكير ، للتفكير العميق فيما سنعمل فى الخطوة التالية . . .

لبث القوزاق ينصتون اليه فى صمت وخيبة . وحينما انتهى ، شرعوا جميعاً يتكلمون فى الحال بأصوات قسّاها الانفعال :

— اذن ، فالأيام السابقة عائدة الينا من جديد .

— أين سنذهب الآن ؟

— انهم يطبقون أسلوبهم على الناس ، هؤلاء الخنازير !

— لا نريد أن نتفرق ! ما معنى هذا النظام الجديد الذى بدأوه ؟

— آه ، يا أولاد ، اتحدوا للدوس على أعناقنا !

— أصحاب السعادة سيعتصروننا من جديد !

— كونوا على حذر الآن ! لسوف يمطون لنا مفاصلنا بحالتها الراهنة . . .

انتظر غريغورى حتى سكتوا ، ثم قال :

— لا فائدة ترجى من صياحكم وبح أصواتكم . لقد انقضت الأوقات السعيدة حين كان باستطاعتنا مناقشة الأوامر ومعارضة القادة . انصرفوا الى مقراتكم ولا تدعوا ألسنتكم تهتز كثيرا والا فانكم ستجدونها هذه الأيام تؤدى بكم الى محاكم الميدان العرفية والسرايا التأديبية !

وجعل القوزاق يتقدمون منه فى نظام الرعائل ويصافحونه قائلين :

— الى اللقاء ، يا بانتلاييفتش ! لا تظن بنا سوءاً ، أنت الآخر .

— لن يكون يسيرا علينا أن نخدم تحت امرة غرباء .

— ما كان يجدر بك أن تتخلى عنا . ما كان يجدر بك أن تستقيل من قيادة الفرقة .

— سنفتقدك ، يا ميليخوف ! قد يكون القادة الجدد مثقفين أكثر منك ، ولكن ذلك لن يخفف البلوى علينا . سيكون ذلك أصعب علينا وأشقى . وهذه هى المصيبة .

الا أن قوزاقيا واحدا ، وهو ثرثار السرية ومهرجها ، علّق قائلا :

— لا تصدقهم ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! سواء خدمت مع جماعتك أو تحت امرة غرباء ، فالأمر سيان ما دام ضميرك غير راض .

* * *

فى تلك الليلة ، جلس غريغورى يشرب فودكا منزلية مع يرماكوف والقادة الآخرين . وفى الصباح التالى ، انطلق مع بروخور زيكوف للحاق بالكتيبة التاسعة عشرة .

وقبل أن يتسنى له تسلم امرة السرية والتعرف على رجاله استدعى

لمقابلة آمر الكتيبة ، كان ذلك فى بكرة الصباح . ولم يستطع الذهاب الى مقر الآمر الا بعد نصف ساعة ، اذ أعاقته عن ذلك اجراءات فحص الحصان . فتوقع أن يعنفه آمر الكتيبة لذلك ، وكان صارماً مع ضباطه ، لكن الآمر استقبله استقبالاً ودياً ، وتساءل :

— حسن ، ما رأيك بسريتك ؟ جماعة طيبة ، ها ؟

ومن غير أن ينتظر ردا ، استأنف كلامه دون أن ينظر فى عينى غريغورى : حسن ، يا صديقى ، على أن أبلغك نبأ مؤلماً جداً . . . لقد حدثت مصيبة كبيرة فى بيتكم . وصلت برقية ليلة أمس من فيشنسكايا . اننى أمنحك شهرا اجازة لتدبير أمور عائلتك . بمقدورك أن تذهب فى الحال .

فتمتم غريغورى شاحب الوجه :

— أعطنى الرقية .

وتناول الورقة المطوية بيده ، وفتحها وقرأها ، ثم سحقها فى يده التى تبللت فجأة بالعرق . وبشىء من الجهد استعاد رباطة جأشه ، وقال فى تأتأة قليلة لا تكاد تلحظ :

— لم أتوقع هذا . من الافضل أن أذهب الى اللقاء .

— لا تنس أن تأخذ اذن المرور .

— طبعاً . شكراً . لن أنسى .

وخطا فى السقيفة ، ماشيا فى ثبات وثقة ، وهو ممسك بسيفه مستقيما كعادته . ولكن ، ما ان شرع ينزل من العتبة حتى توقف فجأة عن ملاحظة صوت خطواته ، وأحس كأن ألما حادا قد ضربه ، كحربة نفذت الى قلبه .

وتعثر فى الدرجة السفلى . فأمسك بالدرابزين المتداعى بيده اليسرى فيما فك باليمنى زر ياقة قمصلته بسرعة . ولبث قليلاً من الوقت يجر أنفاسا عميقة متلاحقة ، ولكنه فى تلك اللحظة شعر

كأن ألمه قد أسكره ، وحينما انتزع يده من الدرابزين واتجه صوب البوابة الصغيرة حيث كان حصانه مربوطا ، كانت مشيته ثقيلة مترنحة .

١٦

ظلّت ناتاليا عدة أيام ، بعد حديثها مع داريا ، تعانى كمن يعانى فى نومه حينما يخنق صدره حلم مزعج ولا يستطيع الاستيقاظ . فبحثت عن عذر مقبول لزيارة زوجة بروخور زيكوف وبالتالى للوقوف على نوعية الحياة التى كان غريغورى قد عاشها فى فيشنسكايا خلال فترة التقهقر وما اذا كان قد رأى أكسينيا أم لا . كانت تريد أن تقتنع بذنوب زوجها ، اذ انها صدقت ولم تصدق رواية داريا فى آن واحد .

فى ساعة متأخرة من المغرب يممت صوب فناء آل زيكوف ، ملوّحة فى غير ما مبالاة بعسلوج صغير فى يدها . وكانت زوجة بروخور قد أنهت عمل يومها فجلست عند البوابة .

هتفت ناتاليا نحوها :

— كيف الحال ، يا زوجة الجندى ! هل رأيت عجلنا ؟

— الحمد لله يا عزيزتى ! كلا لم أره .

— يا له من شرير ، عليه اللعنة ! لا يستقر فى البيت أبدا ! لا أدرى أين عسانى أبحث عنه .

— تعالى واستريحى . سوف يظهر . هل ترغبين فى شىء من بذور عباد الشمس ؟ فمضت ناتاليا وجلست الى جانبها . وسرعان ما انخرطتا فى حديث نسوى . ثم تساءلت ناتاليا :

— هل من أخبار من جنديك ؟

— ولا كلمة . يبدو أنه تبخر فى الهواء ، عدو المسيح

هذا ! وهل بعث زوجك اليك بأية أخبار ؟

— كلا . وعدنى غريشا بالكتابة ، بيد أنه لم يبعث برسالة للآن . يقال ان قطعاتنا قد تعدّت أوست-مدفديتسكايا ، ولكننى لم أسمع بشىء غير هذا .

ثم غيّرت ناتاليا مجرى المحادثة وجعلت تتحدث عن الانسحاب الأخير عبر الدون وشرعت تسأل ، فى حذر ، عن كيفية الحياة التى عاشها الجند فى فيشنسكايا وما اذا كان أى من أبناء القرية هناك . وسرعان ما حزرت زوجة بروخور الحاذقة السبب الذى قدمت ناتاليا من أجله ، فكانت أجوبتها متحفظة ومقتضبة .

كان زوجها قد باح لها بكل شىء عن غريغورى ، بيد أنها ، وان كان لسانها يحكها ويستحثها على الثرثرة ، كانت تخشى أن تقول شيئاً ، مستعيدة تحذير بروخور لها :

— انقشى هذا الكلام فى رأسك : لو فهت بكلمة مما أخبرتك به فسأضع رأسك على خشبة التقطيع وأسحب باردة من لسانك وأبترها ! فاذا بلغت أية شائعة من هذا الحديث مسامع غريغورى فلسوف يقتلنى دون أن يفكر فى الأمر مرتين . قد أكون سئماً منك ، لكنى غير سئم من حياتى بعد ، فاهمة ؟ اذن فاغلقى فمك .

سألت ناتاليا مباشرة وقد نفد صبرها :

— هل حدث أن رأى بروخور أكسينيا أستاخوفا فى فيشنسكايا ؟

— كيف يمكن أن يراها ؟ وهل لديه متسع من الوقت هناك لمثل هذه الأمور ؟ يشهد الله أننى لا أعرف شيئاً ، يا ميرونوفنا ، ما كان عليك أن تسألينى عن ذلك ، حتى مجرد سؤال . لن تستطيعى أن تفهمي شيئاً من شيطانى ذى الرأس الأبيض . كل ما يستطيع قوله هو : افعلى هذا ، افعلى ذاك .

وحينما تركتها ناتاليا أحست بغيظ وانفعال أكثر . لكنها لم تقدر أن تظل جاهلة أطول مما مضى ، فوجدت نفسها مدفوعة للذهاب الى أكسينيا نفسها .

كانتا خلال السنوات المنصرمة تلتقيان مراراً بحكم جيرتهما . وفى تلك المرات ، كانتا تتبادلان الانحناء الصامت أو ، أحياناً ، بضع كلمات . انقضت الأيام التى كانتا خلالها ترفضان تبادل التحية بل تتراشقان نظرات مشحونة كراهية . لقد فقد عداؤهما المتبادل فظاظته الأصلية ، وحينما مضت ناتاليا لرؤية أكسينيا أملت ألا تطردها وأن تكون راغبة فى التحدث عن غريغورى . ولم تكن مخطئة فى توقّعها .

دعت أكسينيا ناتاليا للدخول الى غرفة الضيوف دون أن تحاول اخفاء دهشتها ، ثم سحبت الستار وأضاءت الفانوس ، وسألت :

— أية أنباء طيبة جاءت بك هنا ؟

— ليس عندى سبب يدعونى الى المجىء بأنباء طيبة لك . . .

— أخبرينى بالانباء السيئة اذن . هل حدث شىء لغريغورى بانتلاييفتش ؟

كان ثمة قلق عميق واضح فى سؤال أكسينيا جعل ناتاليا تدرك كل شىء . لقد كشفت أكسينيا ، بجملة واحدة ، عن نفسها بأكملها ، وعن كل ما كانت تعيش من أجله وعن كل مخاوفها . وبعد ذلك ، لم تكن هناك حاجة ، فى الواقع ، للسؤال عن علاقتها بغريغورى . ومع ذلك ، لم تتصرف ناتاليا ، بل قالت بعد تردد طارئ :

— كلا ، ان زوجى حى يرزق ، فلا تفزعى !

— لست فزعة ، ولماذا تظنين ذلك ؟ لك أنت أن تقلقى

على صحته ، فلدى أنا مصائبى الكافية .

كانت أكسينيا تتحدث بيسر ، الا أنها أحست بالدم يتدفق الى وجهها فانسلّت على عجل نحو المائدة . ولبثت وقتاً طويلاً تضبط فتيل الفانوس ، وظهرها الى زائرتها ، على الرغم من أنه كان يضىء على نحو حسن .

— هل من أخبار عن استيبانك ؟

— بعث الى بتحياته مؤخراً .

— هل هو بخير ؟

— يبدو كذلك .

وهزت أكسينيا كتفيها . ولم تستطع ، هذه المرة أيضاً ، أن تخادع نفسها أو تخفى مشاعرها . كان عدم اهتمامها بمصير زوجها جلياً بحيث لم تستطع ناتاليا الا أن تبتسم :

— بوسعى أن أرى بأنك لست كثيرة القلق عليه . . . ولكن هذا من شؤونك الخاصة . وهذا ما جئت اليك من أجله . ثمة كلام يدور فى القرية مفاده أن غريغورى استأنف علاقته بك ثانية ، وبأنك تلتقين به حينما يأتى لزيارتنا . هل هذا صحيح ؟

فقالت أكسينيا فى لهجة هازئة :

— وجدت مَنْ تسأله ! دعيني أنا أسألك ما اذا كان ذلك صحيحاً ؟

— أتخافين من اخبارى بالحقيقة ؟

— كلا ، لست خائفة من ذلك .

— اذن فاخبرينى ، لكى أعرف ولا أمضى فى ايلام نفسى . لماذا يتعين علىّ أن أضطرب على لا شىء ؟

فاختلج حاجبا أكسينيا الغامقان فيما ضيقت عينيها ، وقالت فى لهجة حادة :

— وبأية حال لن تستدرى الشفقة منى . الوضع بينى وبينك كما يلى : حينما أكون تعيسة تكونين أنتِ سعيدة . وحينما تكونين تعيسة أكون أنا سعيدة . ذلك لاننا نقتسم الرجل نفسه . أليس كذلك ؟ حسن ، سأخبرك بالحقيقة ، لكى تعرفيها فى الوقت المناسب . كل ذلك صحيح ، وليس ما يقولونه هراء . لقد ظفرت بغريغورى ثانية ، وفى هذه المرة سابذل قصارای فلا أدعه ينسل من يدى . والآن ماذا أنت فاعلة ؟ هل ستحطمين نوافذ بيتى ، أم تطعنيننى بسكين ؟

عقدت ناتاليا العسلوج المرن فى يدها ، ثم ألقت به صوب الموقد ، وأجابت بثبات غير طبيعى :

— لن أسىء اليك الآن . سأنتظر حتى يعود غريغورى وأحادثه . وآنذاك سنرى ما سافعله بكما . لديَّ طفلان ، وسوف أعرف كيف أدافع عنهما وعن نفسى ، كذلك !

فابتسمت أكسينيا وأجابت :

— اذن ففى الوقت الحاضر أستطيع أن أعيش دونما خوف من شىء !

ومن غير أن تلمح ناتاليا الهزء فى جواب أكسينيا ، تقدمت منها ومست كمها :

— أكسينيا ، لقد وقفت ، طيلة حياتى ، فى طريقى ، أما الآن فلن أتوسل اليك كما فعلت ذات مرة ، أتذكرين ؟ يومذاك ، كنت أصغر سنا وأكثر غباء . فكرت فى سريرتى : سأتوسل اليها فتحسّ بالشفقة عليَّ ويلين قلبها فتتخلى عن غريغورى . ولكننى لن أفعل ذلك هذه المرة . اننى أعرف شيئا واحدا . أنت لا تحبينه ، انما تتعلقين به لأن ذلك غدا عادة لديك . هل أحببته ، يوماً ، مثلما أحبه أنا ؟ لا يبدو ذلك . تعابثت مع لستنتسكى ،

وأي رجل بقي لم تتعابثى معه ، أيتها اللعوب ؟ حينما تحب امرأة رجلاً لا تفعل ذلك .

استحال وجه أكسينيا شاحبا ، فقامت من على الصندوق منحية ناتاليا عنها :

— هو نفسه لم يوبخني على ذلك ، بينما أنت تفعلين ! وما شأنك أنت فى هذا ؟ طيب ! أنا سيئة وأنت طاهرة ، ثم ماذا ؟

— هذا كل شىء . لا تغضبي أنا ذاهبة الآن . شكراً لاخبارى بالحقيقة .

— لا تكلفى نفسك عناء شكرى . كنت ستكتشفين الأمر بدون مساعدتى . مهلاً لحظة ، أنا خارجة معك لاغلاق الأباجورات .

وحينما صارتا فى السقيفة توقفت أكسينيا وقالت :

— اننى سعيدة لأننا نفترق فى سلام ، دون عراك . لكننى أقول لك ، يا جارتى العزيزة : بقدر ما يتعلق الأمر بالمستقبل ، فانه سيكون كالآتى : اذا كانت لديك القوة ، خذيه . أما اذا لم تكن لديك ، فلا تستائى . لن أتخلى عنه بمرضاتى كما أنك لن تتخلى عنه بمرضاتك . أنا لم أعد شابة كما كنت . وعلى الرغم من أنك دعيتنى باللعوب ، فما أنا مثل داريا . فى حياتى كلها لم أمارس هذه الألعاب . ان لديك طفليك ، لكنه بالنسبة لى — وارتعش صوت أكسينيا ، وأمسى أشد بحة وعمقا — انه كل ما يهمنى فى العالم كله . انه أول دنياى وآخرها . ولكن ، لنقطع الكلام عنه . لو عاد من الحرب حيا . . . لو أن ملكة السماء أنقذته من الموت وعاد ، فانه هو الذى سيختار بنفسه . . .

فى تلك الليلة ، لم تستطع ناتاليا أن تنام . وفى الصباح

التالى خرجت مع ايلينشنا لتنظيف حديقة البطيخ من العشب الضار . فوجدت همومها أيسر حملاً أثناء انهماكها فى العمل . ولم يعد ذهنها أقل انشغالاً وهي تهوى بالفأس ، فى حركات ثابتة ، على كتل الطين الرملى الهشة المجففة بالشمس . ومن حين لآخر كانت تقوّم ظهرها التماسا للراحة ، وتمسح العرق من وجهها وترتشف شيئاً من الماء .

كانت ثمة غمائم بيض ، مزقتها الريح وأطارتها شعاعا ، تمضى طافية ذائبة عبر السماء الزرقاء . وأشعة الشمس تصفح سطح الارض المحرقة ، والمطر قادم من ناحية الشرق . ومن غير أن ترفع ناتاليا رأسها كانت تستطيع أن تستشعر متى كانت غمامة طافية تحجب الشمس ، فكانت تحس ببرودة خفيفة طارئة على ظهرها ، وظل رمادى اللون يسرع فوق الأرض السمراء الساخنة ، فوق شبكة سيقان البطيخ الملتفة على بعضها ، والبطيخ المنتشر على المنحدر ، والأعشاب الرخوة المنبسطة من أثر الحرارة ، وفوق أجمات الزعرور البرى والتوت الشوكى بأوراقها ذات المنظر الكئيب وقد رشت ببراز الطيور . وتعالى هتاف طيور السمان المتشوق . وتناهى الى الاذن غناء القبرات اللطيف أكثر وضوحا مما مضى . حتى الريح ، وهى تحرك الأعشاب الدافئة ، بدت أقل حرارة . ثم سرعان ما كانت الشمس تخترق طرف الغمامة الأبيض الباهر فيما تطوف غربا ، وتحرر نفسها من شبكة الغمامة ، لتشرع من جديد تصب على الأرض سيولاً من الضوء ، ذهبية ، مشعة ، ماثلة . وفى مكان ما ، بعيد ، فوق النتوءات اللازوردية للتلال القائمة على جانب الدون ، كان الظل المبقع للغمامة المبتعدة لا يزال يتلمس الأرض . أما فى حديقة البطيخ ، فقد عاد طوفان الظهيرة الاصفر بلون العنبر يغمر الارض من جديد ، فيما كان الغبش السائل يهتز ويتراقص على الأفق ،

والأرض والأعشاب التى تطعمها تفوح بروائح حريفة أشد .

عند الظهر ، ذهبت ناتاليا الى نبع على جرف النهر وعادت بسطل من الماء المثلج . فشربت هى وشربت ايلينشنا حتى ارتويتا ، وغسلتا أيديهما . ثم جلستا فى الشمس لتتناولا طعام غدائهما . فبسطت ايلينشنا عصابة رأس وقطعت الخبز عليها قطعاً منتظماً . وأخرجت ملعقتين وقدحاً من الحقيبة ، وكوزاً دقيق العنق مليئاً باللبن الحامض من تحت سترتها حيث كانت قد أخفته عن حرارة الشمس .

لم تتناول ناتاليا سوى القليل ، فتساءلت حماتها :

— لقد لاحظت منذ مدة من الزمن أنك قد تغيرت بشكل ما . . . هل حدث ما يسىء بينك وبين غريشا ؟

فارتعشت شفتا ناتاليا الملفوحتان بحرارة الشمس ، فى حركة يائسة :

— عادت علاقته بأكسينيا من جديد ، يا أمي .

— ماذا . . . كيف علمت ؟

— ذهبت لرؤيتها أمس .

— وهل اعترفت السفيهة بذلك ؟

— نعم .

فخلدت ايلينشنا الى الصمت مفكرة ، وقد اتخذ وجهها المجعد تعبيراً صارماً ، وتهدل طرفا شفتيها تجهماً :

— لعلها تقول هذا ادعاء وتفاخراً لا غير ، لعنة الله عليها !

— كلا ، يا أمي ، بل الأمر صحيح . لماذا يتوجب عليها أن . . ؟

فقالت العجوز غير واثقة من كلامها :

— أنت لم تراقبيه جيداً . . . لا يمكنك أن تصرفي بصرك عن مثل هذا الزوج .

— ولكن كيف تستطيع أية امرأة أن تراقبه ؟ لقد اعتمدت على ضميره . . . هل كان على أن أربطه بأشرطة وزرتى ؟

وابتسمت ناتاليا ابتسامة مريرة ، وأضافت بصوت لا يكاد يسمع :

— انه ليس ميشاتكا ، لكى أربيه على الطاعة والنظام . لقد شاب رأسه ، غير أنه لا ينسى الماضى . . .

غسلت ايلينشنا الملعقتين ومسحتهما وخضت القدح وجمعت الاوعية فى الحقيبة ، وحينذاك سألت :

— هل هذه كل المشكلة ؟

— أنت عجيبة ، يا أمي ! ان هذه المشكلة وحدها كفيلة بجعل العمر باثساً .

— وماذا تنوين فعله ؟

— ماذا أستطيع فعله ؟ سآخذ الطفلين وأذهب الى أهلى . لن أعيش معه بعد اليوم . ليأخذها الى بيته ويعيش معها . . . لقد تعذبت حتى الآن بما فيه الكفاية .

فقالت ايلينشنا متنهدة :

— أنا ، أيضاً ، فكرت مثلك حينما كنت شابة . كان زوجى كلبا ، هو الآخر ، لا جدال فى ذلك . لن أستطيع اخبارك بكل ما عانيت بسببه . سوى أن الامر ليس بهذه السهولة ، أن تتركى زوجك . ثم ، ما نفع ذلك ؟ فكرى فى الامر أكثر بقليل وستتوصلين الى النتيجة ذاتها بنفسك . وكيف تستطيعين ابعاد الطفلين عن أبيهما ؟ كلا . انك تنطقين هراء . لا يجدر بك حتى مجرد التفكير بالموضوع . لن أسمح به !

— حسن ، يا أماه ، أنا لن أعيش معه مطلقاً ، فلا تتعبى نفسك .

فاستاءت ايلينشنا من كلامها ، وقالت :

— ماذا تقصدين بـ«لا تتعبى نفسك» ؟ ألست كنتى اذن ؟ ألست أنا حزينة بسببكما ، أيها اللعينان ؟ وكيف يتسنى لك أن تقولي مثل هذا الكلام لى ، لمن تقوم مقام والدتك ، لامرأة عجوز؟ قلت لك اقلعى الفكرة من رأسك ، وكفى ! أف ! تقول : «سأترك البيت» وأين ستذهبين ؟ مَنْ مِنْ أهلك يريدك ؟ لا أب لك ، بيتكم أحرق ، أمك تشكر المسيح لأنها تعيش فى بيت شخص آخر . ومع ذلك فأنت تريدين أن تذهبى وتجرين حفيدى معك ؟ كلا ، يا عزيزتى ، هذا لن يحصل ! ستتدبر ما سنفعله تجاه غريشا حينما يعود . أما الآن ، فليس عليك أن تذكرى الموضوع أمامى أبداً . لن أقبل به ، ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى حوله !

فانفجرت فجأة كل الآلام التى كانت تتجمع منذ أمد طويل فى قلب ناتاليا ، فى نوبة عصبية من النشيج . انبعث منها نواح أليم وانتزعت عصابتها من رأسها ، وانكفأت على وجهها فوق الارض القاسية الجافة ، وراحت تنشج وتنشج بلا دموع وهى تضغط صدرها على الأرض .

لم تتحرك ايلينشنا من مجلسها ، وهى العجوز الحكيمة الشجاعة . وبعد قليل ، لفت بسترتها الكوز بما يحتويه من بقايا اللبن ووضعته جانباً فى موضع بارد ، وصبت شيئا من الماء فى القدح وقعدت الى جانب ناتاليا . كانت تدرك أن الكلمات لن تجدى نفعا مع مثل هذا الحزن ، وكانت تدرك أيضا أن الدموع خير من العينين الناشفتين والشفتين المزمومتين . فتركت ناتاليا تبكى حتى لم يعد فى طاقتها البكاء ، وآنذاك وضعت يدها المخشوشنة جراء العمل على رأس كنتها . وقالت بلهجة صارمة ، وهى تمسد شعر ناتاليا الأسود اللماع :

— كفى ، كفى ! لا تسكبي كل دموعك . ابقى على بعضها الى وقت آخر . هاك جرعة ماء !

هدأت سورة ناتاليا ، غير أن كتفيها ظلا يختلجان من حين لآخر . وتملكت جسدها رعشة خفيفة . وعلى حين غرّة ، قفزت قائمة على قدميها ونحّت ايلينشنا جانباً ، وأدارت وجهها ناحية الشرق مطبقة راحتيها المبللتين بالدموع للدعاء ، وصرخت فى عجالة ونشيج :

— رباه ! لقد عذب روحى حتى الموت ! لا طاقة لى على الاستمرار فى حياتى على هذا النحو . رباه ، عاقبه ، العنه ! انزل عليه الموت ! عساه ألا يعيش بعد اليوم ، ألا يعذبنى بعد اليوم !

ومن الشرق زحفت سحابة متلولبة سوداء . وهدر الرعد هديرا أجوف . وتلوّى فى السماء ، ثم انحدر ، وميض برق باهر البياض ، نافذا خلل كتل الغيوم الهوجاء . وأحنت الريح الحشيش المتمتم باتجاه الغرب ، مثيرة غباراً حريف الرائحة من على الدرب ، ونكّست تيجان عباد الشمس ببذورها حتى كادت تلامس الأرض ، وجعلت تعبث بشدة فى شعر ناتاليا المشعث ، وجففت وجهها ولفت تنورة العمل الرمادية حول ساقيها .

لبثت ايلينشنا ، بضع ثوان ، تحملق فى كنتها برعب خرافى . كانت ناتاليا تبدو ، ازاء خلفية الغيمة الرعدية السوداء التى صعدت الى السمت ، مثل مخلوق غريب مريع .

ونزل المطر محتدما . ولم يدم الهدوء الذى يسبق الزوبعة الرعدية سوى لحظة . وطفق باشق يطلق صيحات قلقة وهو يهوى على نحو مائل ، وسولق يصفر قريباً من جحره ، وقذفت الريح غباراً رملياً خفيفاً على وجه ايلينشنا وتولت ، معولة ، حدر السهب .

وجاهدت العجوز للثبات على قدميها . وكان وجهها شاحباً شحوب الموتى حينما صرخت ، خلل هدير العاصفة المقبلة :

— ماذا أنت قائلة ؟ غفر الله لك ! موت مَنْ تستنزلين ؟

فزعقت ناتاليا :

— رباه ، عاقبه ! رباه !

وعيناها المجنونتان مسمّرتان فى الغيوم المتجمعة فى جلال وعنف ، وقد كومتها الريح كتلاً وأضاءتها ومضات البرق الباهرة .

انفجر الرعد فوق السهب أشبه بصوت حطام جاف . فرسمت ايلينشنا اشارة الصليب ، والفزع مطير صوابها ، وتقدمت فى خطوات مترددة من ناتاليا وأمسكت بكتفها :

— اركعى على ركبتيك ! أتسمعين ، يا ناتاليا ؟

فنظرت ناتاليا الى حماتها بعينين تائهتين وهوت على ركبتيها متخاذلة . وأمرتها ايلينشنا بقولها :

— اطلبى المغفرة من الله ! توسلى اليه ألا يستجيب لدعائك . موت من تطلبين ؟ والد طفليك ؟ أوه ، انها لخطيئة قاتلة . . . ارسمى الصليب عليك ! انحنى الى الأرض ! قولى :

— يا رب ، اغفر لى اثمى ، رغم أننى اثمة .

فرسمت ناتاليا اشارة الصليب على نفسها وهمست شيئا بشفتين بيضاويتين ، وانطوت على جنبها متشنجة وأسنانها تصطك .

* * *

غدا السهب ، بعد أن اغتسل بشآبيب المطر ، أخضر ، رائع الاخضرار . وارتمى قوس قزح متألق من البركة البعيدة حتى الدون تماما . وفى ناحية الغرب ، كان الرعد لا يزال يهدر جافاً متكسراً .

ومياه التلول الطينية تنهمر مغرغرة حدر المسارب . وسارت جداول مزبدة نحو الدون فوق المنحدر ، وفوق بقاع البطيخ ، حاملة معها أوراقا انتزعها المطر وحشيشاً اقتلعه مع جذوره من تربته ، وسنابل شيلم مكسورة . وزحف غرين رملى خصب نحو بقاع البطيخ ليتراكم على سيقان البطيخ ، أحمره وأصفره . وعلى امتداد المسالك الصيفية ، سال الماء المبتهج ، مكتسحا الحفر العميقة . وكانت ثمة حزمة من العشب اليابس تلتهب على نتوء بارز من أخدود بعيد ، بعد أن أضرمت صاعقة فيها النار . وارتفع عمود الدخان الليلكى وتعالى ، حتى كاد أن يمس سفح قوس قزح الممتد فوق الأفق .

اتخذت ايلينشنا وناتاليا طريقهما المنحدر صوب القرية ، حذرتين فى ايجاد مواضع لأقدامهما العارية فى الطريق الموحل الزلق ، رافعتين تنورتيهما عن الأرض . وفيما هما سائرتان ، قالت ايلينشنا :

— أنتم ، أيها الشباب ، سريعو الانفجار بشكل فظيع . أى والله ! أقل شىء ويستبد بكم الجنون . لو عشت أنت مثلما توجّب علىَّ أنا أن أعيش ، فما كنت ستفعلين ؟ طوال حياته ، لم يرفع غريشا اصبعاً واحدة عليك ، ومع ذلك فأنت غير راضية ، اقمت هذه المناحة . تريدين أن تلقى به عرض الحائط ، وتنتابك نوبة ، ولا أدرى ما الذى لم تفعليه علاوة على ذلك ! حتى لقد أدخلت الله فى شغلتك القذرة ! . . حسن ، أخبرينى ، أيتها البائسة ، هل هذا شىء حسن ؟ أما أنا ، فحينما كنت شابة ، كان معبودى الاعرج يجلدنى حتى أكاد أموت ، كل ذلك لا لشىء ، ولا بسبب أى شىء . لم أقترف أدنى ما يجعلنى أستحقه . أما سلوكه هو فكان مقززا ، ومع ذلك فقد اعتاد على التنفيس عن

غضبه بى . كان يعود الى البيت مع الفجر ، فكنت أصرخ وأعول وأقذف بالملامة عليه ، وكان هو يطلق العنان لقبضته . . . فأظل شهراً زرقاء الجسم كالحديد ، ومع ذلك عشت وتحملت ذلك وأنشأت الأولاد ولم أحاول أبدا ، ولا مرة واحدة ، أن أهجر البيت . لن أمتدح غريشا ، لكن بمقدورك على الاقل أن تعيشى مع انسان مثله . ولولا تلك الافعى لكان زوجا مثلما تشتهين أن يكون . لقد سحرته تلك ، من دون شك !

فمضت ناتاليا تسير بعضاً من الوقت صامتة ، تقلب فكرها فى شىء ما ، ثم قالت :

— أنا لا أريد أن أتحدث عن الموضوع بعد الآن ، يا أمي . حينما يعود غريغورى ، سنرى ما سيتعين علىَّ أن أفعل . ربما أترك البيت باختيارى أو ربما يطردنى هو . أما فى الوقت الحاضر فلن أترك بيتكم للذهاب الى أى مكان آخر .

فابتهجت ايلينشنا وقالت :

— هذا ما كان يجب أن تقوليه منذ زمان ! عسى الله أن يحل كل شىء الى ما فيه الخير . انه لن يطردك مطلقاً ، وما كان لك أن تفكرى بذلك قط ! انه يحبك ويحب الطفلين كثيرا ، فهل تظنين أنه سيقبل بسماع مثل هذا الكلام ؟ أبدا ! لن يهجرك لأجل أكسينيا . لن يستطيع ذلك ! أما الخصام فيحصل فى أحسن العائلات ! المهم أن يعود حيا . . .

— أنا لا أريده أن يموت . قلت ذلك فى سورة غضبى . فلا تلوميني على ذلك . . . أنا لا أستطيع أن أخرجه من قلبى ، ومهما يكن من أمر ، فالحياة قاسية بما فيه الكفاية .

— يا عزيزتى ، يا ابنتى ! أتحسبين أننى لا أدرى ؟ ولكن ، عليك ألا تفعلى شيئا فى عجل . أنت محقة ، لنقطع الحديث

عن الموضوع . وأرجوك ، بالله ، ألا تقولى شيئا للعجوز . فالامر لا يخصه بأى شكل .

— هناك شىء واحد يجب أن أخبرك به . . . ليس واضحاً الآن ما اذا كنت سأعيش مع غريغورى أم لا . لكننى لا أريد انجاب مزيد من الأطفال منه . حتى بوجود الطفلين ، هناك شك فى احتمال بقائى . . . لكننى حامل بآخر يا أماه . . .

— منذ متى ؟

— أنا فى شهرى الثالث .

— ولكن كيف تستطيعين الخلاص منه ؟ عليك أن تحمليه سواء شئت أم أبيت .

فأجابت ناتاليا بعزم :

— لن أحمله ! سأذهب اليوم ، بالذات ، الى كابيتونوفنا العجوز . ستخلصنى منه . . . لقد فعلت الشىء نفسه لنساء أخريات .

فتوقفت ايلينشنا الغضبى فى وسط الطريق وضربت يدا بيد وصاحت :

— ماذا ؟ أتريدين قتل النطفة ؟ وتستطيعين أن تتحدثى بالامر على هذه الشاكلة ، أيتها السفيهة الصفيقة ؟

وكانت على وشك أن تضيف الى قولها شيئا آخر ، بيد أن فرقعة عجلات انبعثت من ورائهما ، وصوت حوافر خيل تغوص فى الوحل وصياح رجل على حصانه .

فتنحّت ايلينشنا وناتاليا عن الطريق منزلتين تنورتيهما المرفوعتين . كان الشيخ بسخليبنوف عائداً من الحقول ، وحينما حاذاهما جرّ عنان مهرته الصغيرة الجموح ، وقال :

— اصعدا ، أيتها المرأتان . سأوصلكما الى الدار . لا أظن أنكما تريدان عجن الوحل عبثاً .

فقالت ايلينشنا فى رضى :

— نشكرك ، يا آجفيتش . لقد أتعبنا الانزلاق .

وكانت هى أول من صعدت الى العربة الواسعة .

* * *

بعد العشاء ، أرادت ايلينشنا أن تحادث ناتاليا لتشرح لها خطل فكرتها فى اجهاض نفسها . وفكرت ، فيما كانت تغسل الصحون ، فى النقاش الذى سيدور بينهما ، وبحثت عن الحجج الأقصى اقتناعاً وحتى أنها فكرت فى اخبار بانتلاى بقرار ناتاليا طالبة منه مساعدتها فى اقناع كنتهما ، التى أطار الأسى صوابها ، لتعدل عن خطوتها الطائشة . ولكن ، وبينما كانت ايلينشنا تعالج بعض الشؤون المنزلية ، هيأت ناتاليا نفسها بهدوء وغادرت البيت .

وبعد ذلك بقليل ، كانت ايلينشنا تسأل دونيا :

— أين ناتاليا ؟

— جمعت لها صرة وخرجت .

— الى أين ؟ ماذا قالت ؟ ما شكل الصرة ؟

— كيف لى أن أعرف ، يا أمي ؟ وضعت تنورة نظيفة وشيئا آخر فى عصابة رأس وخرجت دون كلمة .

— يا للطفلة البائسة !

وانفجرت ايلينشنا فى بكاء مرّ أثار دهشة دونيا ، وجلست على المصطبة .

— ما الأمر ، يا أمي ؟ كان الله فى عونك ، ما الذى يبكيك ؟

— لا تتدخلى فى شؤون غيرك ، أيتها الوباء ! لا شأن لك

فيه ! ولكن ، ما الذى قالته ؟ ولم لم تخبرينى حينما كانت تستعد للخروج ؟

فأجابت دونيا فى لهجة محنقة :

— أوه ، انك فظيعة ! كيف كان بامكانى أن أعرف أنه كان على أن أخبرك ؟ لعلها لم تخرج الى غير رجعة ، ها ؟ لا بد أنها ذهبت لرؤية أمها ، أما سبب بكائك ، فلا أفهمه مطلقاً .

لبثت ايلينشنا تنتظر عودة ناتاليا فى منتهى القلق . وقررت ، خوفا من تعنيف زوجها وملامته ، ألا تخبره بالامر .

مع الغروب ، عاد القطيع من السهب . وأفل الغسق الصيفى القصير ، وتوهجت الأضواء هنا وهناك فى القرية ، لكن ناتاليا لم يبن لها أثر . جلست عائلة ميليخوف لتناول العشاء . وبوجه شاحب أعدت ايلينشنا الشعرية المنزلية مع البصل المقلى بالزيت النباتى . التقط العجوز ملعقته ، وسحق كسرات من الخبز البائت فيها ، وصبّها فى فمه الملتحى ، ثم أجال بصره ساهما فى الجالسين الى المائدة وتساءل :

— أين ناتاليا ؟ لم لا تدعونها الى المائدة ؟

فردت ايلينشنا بصوت خفيض :

— هي فى الخارج .

— أين فى الخارج ؟

— لا بد أنها ذهبت لترى أمها ثم قررت البقاء .

فتمتم بانتلاى فى غير رضى :

— تأخرت . حان لها أن تعرف الأصول . . .

وكعادته ، تناول عشاءه فى نهم وشهية ، واضعاً ملعقته بين حين وآخر على المائدة فى وضع مقلوب ، ليلقى نظرة راضية من طرف عينه على ميشاتكا الذى كان جالساً بجواره ، ويقول له فى لهجة قوية :

— استدر قليلاً ، يا بنى ، دعنى أمسح شفتيك . أمك جوالة ولا أحد يعتنى بك . . .

ويمسح شفتى حفيده الورديتين الرقيقتين الصغيرتين براحته السوداء المتقرنة الكبيرة .

تناولوا عشاءهم صامتين ، ثم قاموا عن المائدة . وأصدر بانتلاى أمره :

— اطفئوا الضوء . ليس لدينا زيت كثير ، فلا معنى فى تبديده .

فتساءلت ايلينشنا :

— هل أزلج الباب ؟

— نعم .

— فكيف الحال مع ناتاليا ؟

— ستدق الباب ان عادت . لعلها ستظل تتجول حتى الصباح . سلوك لطيف ! يجدر بك ألا تدعيها تتصرف وفق هواها بعد الآن ، أيتها الساحرة الشمطاء ! تقوم بزياراتها فى الليل كما تهوى . . . سأقول لها هذا فى الصباح . انها تتبع خطى داريا . . .

استلقت ايلينشنا دون أن تخلع ملابسها . ولبثت نصف ساعة تتقلب على الفراش وتطلق الحسرات فى صمت . وكانت على وشك أن تنهض وتخرج لرؤية كابيتونوفنا حينما تناهى الى أذنها وقع خطوات متعثرة متثاقلة من تحت النافذة . فقفزت بخفة ، غريبة على من فى عمرها ، وهرعت خارجة الى الممر وفتحت الباب .

كانت ناتاليا شاحبة شحوب الموتى ، تصعد الدرجات ببطء ، ممسكة بالحاجز . كان البدر المكتمل يضيء وجهها الغائر وعينيها الفارغتين وحاجبيها المعقودين فى ألم ، وهى تختض فى مشيتها ،

مثل حيوان مصعوق . وحيثما وضعت قدميها كانت تخلف بقعة دم قاتمة .

فلفتها ايلينشنا بذراعها فى صمت ومشت بها الى السقيفة . فاتكأت ناتاليا بظهرها على الباب وهمست بصوت مبحوح :

— هل الجميع نائمون ؟ أماه ، امسحى الدم المتخلف ورائى . . . أنظرى ، لقد تركت آثاراً . . .

فتساءلت ايلينشنا هامسة ، وهى تخنق غصات نشيجها :

— ماذا فعلت بنفسك ؟

فحاولت ناتاليا أن تبتسم ، غير أن تكشيرة بائسة شوهت وجهها :

— لا ترفعي صوتك ، يا أمي ، والا فستوقظين الآخرين . . . حسن ، لقد خلصت نفسى . . . الآن ، هدأ قلبى . . . سوى أن هناك دما كثيراً . انه ينهمر منى ، وكأننى شطرت . . . أعط يدك ، أمي ، ان رأسى يدور .

فأزجلت ايلينشنا الباب . ثم ظلت زمناً طويلاً تتلمس بيد راعشة ، وكأنها فى بيت غريب ، دون أن تستطيع العثور على مقبض الباب الداخلى فى الظلمة . وعلى رؤوس أصابعها ، قادت ناتاليا الى غرفة الضيوف الواسعة . فأيقظت دونيا وأخرجتها من الغرفة ، واستدعت داريا وأضاءت الفانوس .

كان الباب المؤدى الى المطبخ مفتوحاً ، ومن خلاله انبعث شخير بانتلاى المرتفع المنتظم وكانت بوليوشكا الصغيرة تتلمظ شفتيها وتتمتم فى نومها بشىء ما . ما أعمق نوم الطفل الهانئ الخلى !

وفيما كانت ايلينشنا تنفش الوسادة وتعد الفراش ، جلست ناتاليا على المصطبة ووضعت رأسها ، فى ضعف بالغ ، على حافة

المائدة . وأرادت دونيا أن تدخل الى الغرفة بيد أن ايلينشنا قالت لها فى لهجة خشنة :

— ابتعدى من هنا ، أيتها السفيهة الصفيقة ! ولا تنظرى هنا ! ليس الأمر مما يجدر ان تدسى أنفك فيه !

تناولت داريا ، متجهمة الوجه ، خرقة مبللة وخرجت بها الى السقيفة . ورفعت ناتاليا رأسها ، متألمة وقالت :

— ارفعى الغطاء النظيف عن السرير . . . افرشى لى قطعة خيش . . . سأوسخه بالتأكيد . . .

فأمرتها ايلينشنا قائلة :

— صه ! اخلعى ملابسك وتمددى ! أتشعرين بألم كبير ؟ أتريدين أن آتيك بشىء من الماء ؟

— اننى أشعر بضعف فظيع . . . اجلبى لى قميص نوم نظيفاً وماء . . .

وبجهد جهيد قامت، ناتاليا ومضت الى السرير .

ولم تلاحظ ايلينشنا الا لحظتئذ بأن تنورتها كانت منقعة بالدم وأنها كانت سائبة من حولها ومتشبثة بساقيها . وحدقت فى ناتاليا والرعب مستبد بها فيما انحنت ناتاليا وعصرت تنورتها وكأنها كانت قد أمضت وقتاً تحت المطر ، ثم بدأت تخلع ملابسها .

فقالت ايلينشنا ناشجة :

— لكنك تنزفين نزيفاً قتالاً !

فنضت ناتاليا ملابسها وأغمضت عينيها ، وهى تجر أنفاساً مختلجة متلاحقة . فألقت العجوز نظرة عليها ثم مضت الى المطبخ فى هيئة من استقر على أمر . وأفلحت بعد لاى فى أن توقظ العجوز ، وقالت له :

— ناتاليا مريضة . . . حالتها خطرة ، وقد تموت . . . أعد

خيلك على الفور وانطلق الى فيشنسكايا واجلب الممرض .

— شيء شيطاني بديع ! ماذا حدث لها ؟ ما مرضها ؟ من الأفضل لها أن تخرج تحوم فى الليل أقل . . .

فشرحت العجوز له باختصار ما حدث . فقفز بانتلاى من سريره كالمجنون ، وخطا نحو غرفة الضيوف وهو يزرر سرواله :

— آه ، أيتها السفيهة القذرة ! آه ، يا ابنة العاهرة ! ما الذى فعلت ، ها ؟ الضرورة أجبرتها على ذلك ! حسن ، لسوف ألقنها . . .

— أمجنون أنت ، عليك اللعنة ؟ أين تراك ذاهباً ؟ لا تدخل هناك ، فهى لا تريدك . . . ستوقظ الطفلين . أخرج الى الفناء وأعد الخيل سريعاً !

وحاولت ايلينشنا أن توقف العجوز . بيد أنه لم يأبه لها ، بل مضى الى باب غرفة الضيوف ورفسه برجله لينفتح . وزأر قائلاً ، وهو يتوقف عند العتبة :

— لقد عملت فعلاً بديعاً ، يا ابنة الشيطان !

فصرخت ناتاليا فى زعيق نفاذ :

— لا تدخل ، يا أبتاه ! يجب ألا تدخل ! لا تدخل بحق المسيح !

فقذف بانتلاى سباباً مقذعاً ، ثم بحث عن معطفه وقبعته وعدة الخيل . وقد استغرق ذلك منه وقتاً طويلاً ، حتى أن دونيا لم تستطع أن تكبح جماح نفسها . فاندفعت الى المطبخ وانفجرت فى أبيها ، فيما شرعت الدموع تترقرق فى عينيها :

— انطلق فى الحال ! ماذا عساك تنقب كما تنقب خنفساء فى الروث ! ناتاليا تموت ، وهو يقضى ساعة كاملة فى التهيؤ ! ويسمى نفسه أباً ! ان كنت لا تريد الذهاب ، فلِمَ لا تقول ذلك ؟

سأعد الخيل بنفسى وأنطلق الى فيشنسكايا !

— أنت مخبولة ! ما معنى جنونك هذا ؟ من سيأخذ الأوامر منك ، يا جرباً لصيقاً ! دونك واحدة أخرى منهن تصرخ فى وجه أبيها ، يا للداعرة !

واهوى بانتلاى عليها بمعطفه فى حركة حانقة ، ثم خرج الى الفناء مهمهماً بسيل من سباب .

بعد مغادرته البيت ، أصبح الجميع أقل تحفظاً . فغسلت داريا الأرضية ، مزحزحة الكراسى والمصطبة بعنف ، وسمحت ايلينشنا لدونيا بالدخول الى غرفة الضيوف . فجلست الفتاة عند رأس ناتاليا ، تسوى وسادتها وتسقيها الماء . وبين الفينة والأخرى ، كانت ايلينشنا تدلف ، بهدوء ، الى الغرفة الجانبية حيث كان الطفلان نائمين ، ثم تعود الى غرفة الضيوف لتحدق فى ناتاليا واضعة خدها فى راحتها ، وهى تهز رأسها فى مرارة .

لبثت ناتاليا مضطجعة ، صامتة ، ورأسها ، بخصلات الشعر المتشابكة المبللة بالعرق ، يتقلب على الوسادة . وفى كل نصف ساعة ، كانت ايلينشنا ترفعها برفق وتسحب الغطاء المشبع بالدم من تحتها وتبسط غطاء نظيفاً .

ومع كل ساعة تطوى كانت ناتاليا تمسى أشد ضعفاً ووهناً . وحدث فى ساعة ما بعد منتصف الليل أن فتحت عينيها وسألت :

— هل سينبلج الضياء عما قريب ؟

فقالت العجوز تهدئها :

— لا علامة للضياء بعد .

وفى نفسها قالت :

— هذا يعنى أنها لن تجتاز الأزمة حية . انها تخشى أن ترحل دون رؤية الطفلين .

وقالت ناتاليا ، وكأنها تؤكد ما دار بخاطر ايلينشنا :

— أماه ، أيقظي ميشاتكا وبوليوشكا . . .

— ولماذا ، يا عزيزتى ؟ فيم عساك تريدين ازعاجهما فى منتصف الليل ؟ سيفزعان ان وقع نظرهما عليك ، ويبدآن بالبكاء . . . فيم ايقاظهما ؟

— أود أن أراهما . . . ان وضعى سيىء جداً .

— رحماك يا رب . . . ما الذى تقولين ؟ بعد قليل يصل الوالد مع الممرض ، وسيعينك على الشفاء . عليك أن تحاولى أن تنامى قليلاً ، يا عزيزتى ، ألا ترتئين ذلك ؟

فردّت ناتاليا ومسحة من التضايق تشوب صوتها :

— وأين هو النوم ؟

ثم مضى وقت لم تقل خلاله شيئاً ، وأمسى تنفسها أكثر انتظاماً .

فانسلت ايلينشنا فى هدوء خارجة الى درجات العتبة وأطلقت لدموعها العنان . ثم عادت الى الغرفة بوجه أحمر منتفخ حينما كان الفجر قد شرع يظهر ، بصيصاً خافتاً ، من ناحية الشرق . وحين صرّت الباب ، فتحت ناتاليا عينيها وأعادت السؤال :

— هل سينبلج الضياء عما قريب ؟

— الفجر يطلع الآن .

— غطي قدمىّ بفروة .

فألقت دونيا فروة على قدميها ودثرت جنبيها بالبطانية الدافئة . فشكرتها ناتاليا بعينيها ، ثم طلبت من ايلينشنا أن تقترب منها وقالت :

— اجلسى بجانبى ، يا أماه . وأنتما ، يا دونيا ودارياً ، أخرجا بعضاً من الوقت . أريد أن أتحدث على انفراد مع الأم . . .

ثم تساءلت دون أن تفتح عينيها :

— هل خرجتا ؟

— نعم .

— الوالد لم يعد بعد ؟

— سيعود عما قريب . أتشعرين أسوأ مما كنت ، اذن ؟

— كلا ، هذا لا أهمية له . . . اليك ما أردت قوله ، أماه . اننى سأموت عما قريب . أحس بذلك فى قلبى . لقد فقدت دماً كثيراً ، انه لأمر فظيع ! أطلبى من داريا أن تضع ماء كثيراً حينما تشعل الموقد . أغسلونى بأنفسكم . لا أريد غرباء . . .

— ناتاليا ! ارسمى الصليب عليك ، يا حبيبتى ! فيم حديثك عن الموت ؟ الله رحيم ، وسوف تتحسن صحتك .

وبايماءة موهنة طلبت ناتاليا من حماتها السكوت ، وقالت :

— لا تقاطعينى . تكفينى مشقة الحديث بالشكل الذى أستطيعه ، وأود أن أقول . . . آه ، رأسى يدور من جديد . هل أخبرتك عن الماء ؟ على أن أكون قوية . . . فعلته كابيتونوفنا فى وقت مبكر جداً ، حالما وصلت هناك بعد العشاء . . . لقد استبد بها الفزع مما حصل ، يا للمرأة المسكينة ! فقدت كمية فظيعة من الدم . . . آه لو استطعت أن أظل حية حتى الصباح . . . سخنوا ماء كثيرا . أريد أن أكون نظيفة حينما أموت . . . أماه ، ألبسينى تنورتى الخضراء ، تلك المطرزة فى حاشيتها . كان غريشا يحب حينما ألبسها . . . وسترتى البوبلين . . . انها فى الصندوق ، فوق ، فى الجهة اليمنى ، مباشرة تحت شال . . . وحينما أموت ، تستطيعين ارسال الطفلين الى أهلى . . . قد يكون مناسباً أن ترسلى فى طلب أمى . لتأت على الفور . . . يجب أن أودعها . اسحبى الغطاء من تحتى . لقد تنقع كله . . .

فسحبت ايلينشنا الغطاء وهى ترفع ناتاليا بيد من تحت ظهرها ، واستطاعت بشكل ما أن تدس غطاء آخر تحتها . فهمست ناتاليا بمشقة :

— اقلبينى . . على جنبى .

وغابت عن الوعى .

أطل الفجر من الشباك ، رماديا بلون الحمام . غسلت دونيا سطلاً وخرجت الى الفناء لتحلب البقرات . وفتحت ايلينشنا الشباك فاذا بغرفة الضيوف ، التى اختنقت برائحة الدم الجديد والكيروسين المحروق ، تنعشها برودة الصباح الصيفى ، حادة منشطة . واكتسحت الريح قطرات الندى على أوراق الكرز المتمددة على حافة الشباك الخارجية . وتناهت ، خلل الشباك ، أصوات الطيور المبكرة ، وخوار البقر ، وضربات السوط الثقيلة يهوى بها راعى القطيع على ظهور البقر .

فتحت ناتاليا عينيها ، ولعقت بطرف لسانها شفتيها اليابستين الصفراوين ، وطلبت شيئا تشربه . ولم تعد تسأل فى طلب الطفلين أو أمها . كان كل شىء ينسل منها ، ينسل الى الأبد .

أغلقت ايلينشنا الشباك واقتربت من السرير ، يا للفظاعة ! لكم تغيرت ناتاليا خلال ليلة واحدة ! بالأمس كانت مثل شجرة تفاح مزهرة ، جميلة ، معافاة ، قوية . أما الآن ، فوجنتاها كانتا أكثر بياضاً من كلس التلال القائمة على جانب الدون ، وأنفها مستدقاً ، وشفتاها فقدتا نضارتهما الأخيرة فأمستا رفيعتين ، وبدتا كأنهما تنكمشان بعيداً عن أسنانها المنفرجة . سوى أن عينيها ظلتا محتفظتين بألقهما السابق ، وان كانت تعابيرهما قد تغيرت هى الأخرى . فأصبحت تنبعث منهما نظرة جديدة غريبة مفزعة كلما رفعت ، من حين لآخر ، جفنيها المزرقين ، وكأنها تذعن لارادة

مبهمة ، وأجالت بصرها فى الغرفة ليستقر بعد ذلك على ايلينشنا ثانية من الزمن .

عاد بانتلاى مع شروق الشمس ، فتمطى الممرض ، ذو العينين اللتين أثقلتهما ليال لم يعرف النوم خلالها ومتاعب لا متناهية مع المصابين بالتيفوس والجرحى ، وترجّل من عربة الترانتاس متناولاً صرّة من على المقعد ، ثم دلف الى داخل البيت . وعلى درجات العتبة خلع معطفه المشمع الواقى من المطر ، وقضى فترة طويلة يغسل يديه المشعرتين وهو منحن على الحاجز ، ناظراً الى دونيا من تحت حاجبيه ، فيما كانت تصب على راحتيه الماء من قارورة ، حتى أنه غمز لها . ثم مضى الى غرفة الضيوف وبقى زهاء عشر دقائق مع ناتاليا بعد أن أخرج الجميع من الغرفة . فجلس بانتلاى وايلينشنا فى المطبخ .

سألها العجوز همسا حالما خرجا من غرفة الضيوف :

— كيف هى الآن ؟

— فى حال سيئة . . .

— فعلت ذلك من تلقاء نفسها ؟

فتملّصت ايلينشنا من السؤال بقولها :

— كانت فكرتها هى .

وجاء صوت الممرض آمراً وهو يدس رأسه الاشعث خارج الباب :

— ماء ساخن ، بسرعة !

وبينما كانوا يسخنون الماء ، جاء الى المطبخ . فلوح بيده يائساً ، جواباً لسؤال العجوز غير المنطوق :

— لن يطول أجلها أبعد من وقت الغداء . لقد فقدت كمية

فظيعة من الدم . لا شيء يمكن عمله ! هل أرسلتم الخبر الى غريغورى بانتلاييفتش ؟

ومن غير أن يجيب ، هرع بانتلاى خارجاً الى السقيفة وهو يعرج . فرأت داريا العجوز يمضى الى ما تحت أفاريز المأوى ، الى حيث ماكنة الحش ، فيضع رأسه على كومة من الجل من السنة الماضية ويبكى فى صوت مسموع .

لبث الممرض نصف ساعة أخرى ، وقضى بعضاً من الوقت جالساً على درجات العتبة ، غافيا تحت أشعة الشمس المشرقة . وحينما شرع السماور* يغلى عاد الى غرفة الضيوف وزرق ناتاليا بابرة كافور ، ثم خرج وطلب شيئاً من اللبن . فشرب قدحين منه ليخمد تثاؤبه ، وقال :

— عد بى على الفور . لدى مرضى وجرحى فى فيشنسكايا ، وليس ثمة ما أستطيع عمله هنا . الأمر ميئوس منه تماماً . بودى أن أفعل أى شيء لأجل غريغورى بانتلاييفتش ، لكننى أقول لك بصراحة اننى لا أستطيع عمل أى شيء . فى أفضل الحالات ، لا نستطيع فعل ما هو قليل قليل . لا نستطيع سوى شفاء المرضى ، لكننا لم نتعلم بعد كيف نبعث الموتى . أما امرأتكم الصغيرة فقد قطّعت بشكل خطير بحيث لم يبق لديها ما تعيش به . . . الرحم ممزق تمزيقاً فظيعاً . لم يبق منه شيء . أخال أن الشيخة استعملت معها خطافاً حديدياً . انه الجهل ، جهلنا ، لن نستطيع الخلاص منه !

فقذف بانتلاى تبناً فى الترانتاس وقال لداريا :

— عودى أنت به . لا تنسى أن تسقى الفرس حينما تنزلين الى الدون .

* وعاء لغلى الماء . المترجمون .

وكان بصدد تقديم نقود الى الممرض ، الا أن الرجل رفض رفضا قاطعاً :

— يجب أن تخجل من مجرد التفكير بذلك ، يا بانتلاى بروكوفتش ! أنتم أهلى وتعرضون علىّ النقود ! كلا ، لا تقترب منى بها ، كيف يتسنى لك أن تكافئنى ؟ لا حاجة بك للسؤال . لو استطعت أن أقيم كتلك على قدميها لاختلف الأمر .

فى حوالى الساعة السادسة صباحاً ، شعرت ناتاليا بتحسن كبير لحالتها وطلبت أن تغتسل ، ومشطت شعرها أمام مرآة أمسكت بها دونيا . وأجالت بصرها باحثة عن طفليها العزيزين ، وعيناها متألقتان ، وانتزعت من نفسها ابتسامة :

— حسن ، أنا الآن فى طريقى الى الشفاء ! ولكن ما كان أشد خوفى ! حسبت أننى انتهيت ! . . ولكن ، لم تأخر الطفلان فى نومهما ؟ دونيا ، اذهبى وانظرى ما اذا كانا لم يستيقظا بعد .

ثم وصلت أمها ، لوكينيشنا ، مع شقيقتها الصغرى ، أغريبينا . وحينما وقع نظر العجوز على ابنتها انفجرت بالدموع ، بيد أن ناتاليا قالت ، المرة تلو المرة ، فى صوت منفعل :

— لماذا تبكين ، يا أمى ؟ أنا لست فى حالة سيئة جدا الآن . . . ربما جئتِ لدفنى ، أم ماذا ؟ أوه ، حقيقة ، تخبرينى ، لماذا تبكين ؟

فلكزت أغريبينا أمها ، فأدركت لوكينيشنا السبب وأسرعت تمسح عينيها وقالت فى لهجة مهدئة :

— لماذا ، يا ابنتي ، دموعي طفرت من شدة حمقي . اعتصرنى قلبى حينما نظرت اليك . لقد تغيرت كثيرا . . .

توهّج تورد خفيف فى وجنتى ناتاليا حينما سمعت صوت ميشاتكا وضحكة بوليوشكا . فقالت طالبة :

— اجلبوهما هنا ! ادعوهما بسرعة ! يستطيعان ارتداء ملابسهما فيما بعد .

فدخلت بوليوشكا أولا وتوقفت عند الباب تدعك بقبضتها الصغيرة عينيها الناعستين ، فقالت ناتاليا مبتسمة :

— ماماتك أصبحت مريضة . تعالى الىّ ، يا كنزى !

فنظرت بوليوشكا مستغربة الى الكبار الجالسين فى وجوم على المصاطب ، وقالت فى لهجة مغضبة وهى تمضى الى أمها :

— لماذا لم توقظونى ؟ ولماذا جاءوا جميعا ؟

— جاءوا ليرونى . . . ولكن لأي شيء نوقظك ؟

— كنت آتيك بشيء من الماء وأجلس معك . . .

— حسن ، اذهبى واغتسلى ومشطى شعرك واتلى صلاتك ، وبعد ذلك تستطيعين أن تأتى وتجلسى معى .

— ولكن هل ستنهضين لتناول الفطور ؟

— لا أدرى . لا أظن .

— حسن ، اذن فسأجلب لك فطورك هنا . هل ترغبين فى ذلك يا مامى ؟

فقالت ناتاليا بابتسامة واهنة :

— انها صورة طبق الأصل عن أبيها . سوى أن قلبها ليس كقلبه ، قلبها أرق . . .

وتركت رأسها يهوى الى وراء ، وسحبت البطانية حول ساقيها كما لو أصابها برد .

بعد ذلك بساعة ، عادت حالتها تسوء . فأشارت للطفلين أن يقتربا منها . احتضنتهما . رسمت اشارة الصليب عليهما . قبلتهما . وطلبت من أمها أن تأخذهما لديها . فعهدت لوكينيشنا بالطفلين الى أغريبينا ، وبقيت مع ابنتها .

أغمضت ناتاليا عينيها ، وقالت ، وكأنها تهذى :

— اذن ، فلن أستطيع أن أراه . . .

ثم ، وكما لو أنها تذكرت شيئا ما ، رفعت نفسها بقوة على السرير وقالت :

— أعيدوا ميشاتكا الى هنا .

فدفعت أغريبينا ، مخضلة الوجه بالدموع ، بالطفل الى داخل الغرفة وبقيت هى فى المطبخ تئن فى صمت .

تقدم ميشاتكا من السرير فى حياء ، ووجهه متجهم ، يحمل سيماء آل ميليخوف القاسية .

كان التغيير الحاد الذى أصاب وجه أمه قد جعلها تبدو غريبة ، غير مميزة . فأدنت ناتاليا ولدها منها وأحست بفؤاده الصغير يدق عنيفا ، كقلب سنونو واقع فى فخ . فقالت له :

— مل علىّ يا ولدى الصغير ! اقترب !

وهمست شيئاً ما فى أذنه ، ثم نحته عنها ، وسددت الى عينيه نظرة مستفهمة ، وزمت شفتيها المرتعشتين ، وقالت وهى تغتصب ابتسامة معذبة بائسة :

— لن تنسى ؟ ستخبره ؟

— لن أنسى .

وقبض ميشاتكا على اصبع أمه الوسطى ، واعتصره فى قبضته الصغيرة الساخنة ، ولبث ممسكاً به بقوة ثانية من الوقت ، ثم أرخاه . وحينما كان يخطو مبتعداً عن السرير ، جعل يسير ، لسبب ما ، على رؤوس أصابعه ، موازناً نفسه بذراعيه .

راقبته ناتاليا حتى بلغ الباب ، ثم استدارت فجأة نحو الحائط .

عند الظهر ، ماتت .

١٧

عديدة كانت أفكار غريغورى وذكرياته خلال رحلة اليومين من الجبهة الى قريته . اصطحب بروخور زيكوف معه خشية أن ينفرد فى السهب مع أحزانه وأفكاره الدائمة فى ناتاليا . وما ان خلّفا القرية التى كانت السرية تعسكر فيها ، حتى شرع غريغورى يتحدث عن الحرب ، مستعيداً خدمته مع الكتيبة الثانية عشرة فى الجبهة النمساوية ، وكيف زحفوا على رومانيا وكيف حاربوا الألمان . وظل يتكلم ويتكلم دونما توقف ، مستحضراً شتى صنوف الحوادث السخيفة التى وقعت لرفاق كتيبتهم ، وهو لا ينفك يتضاحك . . .

وكان بروخور الساذج يلقى ، فى البدء ، نظرات استغراب من طرف عينه على غريغورى ، وقد أذهلته ثرثرته غير الاعتيادية . الا أنه أدرك فيما بعد أن غريغورى كان يحاول أن ينفس عن كربة صدره بالحديث عن ذكريات الأيام السالفة ، فجعل يعينه على ادامة الحديث ، فى جهد لعله لم يكن ضرورياً . وبينما كان يتحدث عن الفترة التى أمضاها فى مستشفى تشيرنيكوف ، صادف أن نظر بروخور الى غريغورى فرأى الدموع تنهمر على خديه الأسمرين . فتباطأ بروخور ، عمداً واحتراماً ، ولبث يمضى على حصانه على مبعدة خطوات وراء غريغورى زهاء نصف ساعة . ثم حاذاه من جديد وحاول أن يتحدث عن أمور تافهة عابرة . بيد أن غريغورى لم يبادله الحوار . فمضيا يهذبان حتى حلول الظهر ، صامتين ، جنباً الى جنب ، ركاباً الى ركاب .

ظل غريغورى منطلقا بسرعة جنونية . وعلى الرغم من شدة الحرارة ، فانه جعل حصانه يعدو هذباً سريعاً ، ثم يخفف السرعة الى جبب ولا يبطئها الى سرعة المسير الا من حين لآخر . ولم يتوقف الا عند الظهيرة ، وذلك حينما شرعت اشعة الشمس العمودية

تحرق الرأس حرقاً لا يحتمل . وآنذاك توقف داخل مسرب ورفع السرج من على حصانه وأطلقه يرعى . ومضى هو الى الظل ، وتمدد على بطنه ، ولبث على وضعه هذا الى أن انحسرت موجة الحر . فأطعما الحصانين شوفاناً ، لكن غريغورى لم يلاحظ أوقات اطعامهما بشكل صحيح . ولهذا فقد غارت جوانب الحصانين بعد اليوم الأول على الرغم من أنهما كانا معتادين على قطع المسافات الطويلة ، ولم يعودا قادرين على الحركة بمثل الاندفاع الذى انطلقا فيه صباحا . فحدّث بروخور نفسه محنقاً :

— نحن فى الطريق الى هلاك الحصانين . من فى الدنيا ينطلق بهذا الشكل ؟ هذا الشيطان ، لا يهمّه شىء تماماً ! يرهق حصانه ويزهق روحه ، ثم يستطيع أن يحصل على غيره فى أى وقت يشاء . أما أنا ، فمن أين يمكن أن أحصل على مركوب ؟ انه يدفع الحصانين حثيثاً نحو حتفهما ، ثم سيتعين علينا أن نقطع بقية الطريق الى تتارسكى على أقدامنا ، أو نجرجر أنفسنا فى عربة معارة .

فى الصباح التالى لم يستطع على السكوت صبراً ، فقال أخيراً لغريغورى :

— سيظن أى امرئ بأن هذا الحصان لم يكن ملكاً لك مطلقاً ! من فى الدنيا يهذب بحصانه هكذا ، ليلاً ونهاراً ، بلا استراحة ؟ أنظر كيف أُرهق الحصانان ! لنعطهما طعاماً مناسباً حين يحل الليل بأية حال .

فأجاب غريغورى ، شارد الذهن :

— حافظ على سرعتك ، ولا تتباطأ !

— أنا لا أستطيع أن ألحق بك . حصانى كلّ . ألا نستريح ؟

فلم يجبه غريغورى . ولبثا نصف ساعة يهذبان دون أن

يتبادلا كلمة واحدة ، ثم أعلن بروخور عازما : لندعهما يجران نفسا على الأقل ! أنا لن أمضى على هذه الشاكلة اتسمعنى ؟

— ألفحه بسوطك ! الفحه بسوطك !

— ولكن ، الى متى نظل نلفحه بالسوط ؟ الى أن ينفق ؟

— لا تناقش !

— كن رحيما ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! أنا لا أريد أن أسلخ حصانى ، ولكن الأمر سائر الى ذلك . . .

— حسن ، توقف اذن ، عليك اللعنة ! ابحث عن موضع فيه عشب جيد .

° ° °

كانت البرقية قد جالت فى جميع مناطق اقليم الخوبر بحثا عن غريغورى ، فبلغته متأخرة جدا . فوصل الدار فى اليوم الثالث بعد دفن ناتاليا . ترجّل عند البوابة الصغيرة ، فهرعت دونيا خارجة من البيت وانفجرت تنشج . فاحتضنها عجلا وقال عاقدا حاجبيه :

— امشى بالحصان مسافة طويلة . . . لا تجأرى !

واستدار نحو بروخور آمرا :

— اذهب الى بيتك ! اذا احتجت اليك سارسل من يخبرك .

وخرجت ايلينشنا الى الدرجات لاستقبال ابنها وهى ممسكة بأيدى ميشاتكا وبوليوشكا .

فاختطف غريغورى الطفلين فى ذراعيه وقال بصوت راعش :

— لا ، لا تبكيا ! بلا دموع ! يا حبيبى ! اذن ، صرتما بلا أم ؟ كفى ، كفى . . . مامانكا تركتنا فى مأزق . . .

بيد أنه ، هو نفسه ، عانى صعوبة فى خنق نشيجه وهو

يمضى الى داخل الدار ويحيى أباه . فقال بانتلاى :

— لم نستطع انقاذها . . .

ثم مضى فى الحال الى الممر .

اخذت ايلينشنا بيد غريغورى الى غرفة الضيوف وأخبرته عما حدث لناتاليا ، الا أنها لم تبح له بكل الحقيقة ، فسألها غريغورى :

— ولماذا قررت ألا تبقى على الجنين ؟ أتعرفين ؟

— نعم ، أعرف .

— أى ؟

— زارت عشيقـ . . . ـتك . . . فى اليوم السابق . فأخبرتها أكسينيا بكل شىء .

فاحمر وجه غريغورى غضبا وأسبل عينيه قائلاً :

— آها ! اذن فهذا هو السبب !

ثم خرج من غرفة الضيوف وقد بدا أكبر سنا ، شديد شحوب الوجه . فجلس الى المائدة ، محركاً شفتيه المرتعشتين المزرقتين دون أن تندّ عنهما نأمة ، وأقعد الطفلين على ركبتيه ، وقضى بعض الوقت يلاطفهما . ثم أخرج من حقيبة الميدان قطعة من السكر القاتم المغبر ، وقطعها بسكينة على راحته ، وابتسم ابتسامة من يشعر بالاثم :

— هذا كل ما استطعت أن أجلبه لكما . . . هذه شاكلة أبيكما . . . حسن ، أركضا الى الفناء وناديا جدكما .

تساءلت ايلينشنا :

— هل ستزور القبر ؟

— فيما بعد ، حينما تسنح لى الفرصة . . . الأموات لا يستاؤون مطلقا . . . كيف حال ميشاتكا وبوليوشكا ؟ هل هما بخير؟

— بكيا كثيراً فى اليوم الأول ، وبالأخص بوليوشكا . . . أما الآن فيبدو وكأنهما توصلا الى اتفاق ، فلم يعودا يتحدثان عنها أمامنا . لكننى سمعت ميشاتكا يبكى بكاء مكتوما . كان قد وضع رأسه تحت الوسادة لكى لا يسمعه أحد . . . فذهبت اليه وسألته :

— ما الأمر ، يا حبيبى ؟ أتحب أن تأتى وتنام معى ؟

بيد أنه أجاب :

— كل شىء على ما يرام يا جدتى . لا بد أننى كنت أبكى فى نومى . . .

حادثهما أنت ، اشفق عليهما . أمس صباحا سمعتهما يتحدثان فى الممر . كانت بوليوشكا تقول :

— ستعود الينا . انها شابة ، والشبان لا يموتون . — انهما لا يزالان أحمقين ، لكن قلبيهما الصغيرين يشعران بالألم مثل الكبار . . . لا بد أنك جائع . اجلس وسأعد لك شيئا . . . فيم جلوسك مطبق الفم ؟

مضى غريغورى الى غرفة الضيوف . كان تصرفه على نحو من وجد نفسه هناك لأول مرة فى حياته : فجعل يمعن النظر فى الجدران ثم أراح بصره على السرير . كان معدا ، ووساداته منفوشة . على هذا السرير ماتت ناتاليا ، ومن هذا السرير انبعث صوتها للمرة الأخيرة . وتخيلها وهى تودع الطفلين ، تقبلهما ، ولربما ترسم اشارة الصليب عليهما . ومن جديد ، وكما حدث لحظة تلا البرقية تخبره بوفاتها ، أحس بألم حاد ، كالطعنة ، فى قلبه ، ورنين مكتوم يضج فى أذنيه .

كان كل شىء فى الدار يذكّره بناتاليا . كانت ذكرياته عنها مستديمة لا تفنى ، مؤلمة لا ترحم . وجعل ، لغير ما سبب واضح ، ينتقل من غرفة الى أخرى ، داخلا الى جميع الغرف ، ثم خرج

الى الخارج مسرعاً حتى كاد أن ينقلب على درجات العتبة ، وهو يضغط راحته ، وجلاً ، على صدره الأيسر ويقول فى سريرته :

— هذا الحصان الاشيب العجوز صعد تلاً أو تلين شديدى الانحدار !

كانت دونيا تسير بالحصان داخل الفناء . وحينما بلغا مخزن الحبوب ، توقف الحصان مقاوما العنان ، وجعل يتشمم الأرض ، باسطا عنقه وقالباً شفته العليا ليكشف عن صفائح أسنانه الصفر . ثم زنخر وطوى ساقيه الأماميتين على نحو غير متسق ، فأخذت دونيا تجر العنان ، بيد أن الحيوان لم يأبه لها وشرع يتمدد .

فهتف بانتلاى من الاسطبل :

— لا تدعيه ينقلب ! ألا ترين أنه مسرج ؟ لم لـــم ترفعى عنه السرج ، أيتها الحمقاء الصغيرة ؟

فمضى غريغورى الى الحصان ، على مهل ، وهو لا يزال يستمع الى ضربات صدره ، وأزاح السرج ، وقال لدونيا مغتصباً ابتسامة :

— الوالد لا يزال يصيح ؟

فأجابت دونيا بابتسامة مقابلة :

— كالعادة !

— دورى به فترة أخرى قصيرة ، يا أخت !

— جف عرقه تماماً ، الا أننى سأدور به اذا أردتنى أن أفعل ذلك .

— دعيه يتقلب ان شاء ذلك ، لا تمنعيه .

— مهلاً ، مهلاً يا أخى . . . هل أنت حزين جدا ؟

فأجاب غريغورى والغصات تخنقه :

— وماذا تتوقعين غير ذلك ؟

فرّق قلبها تعاطفاً ، وطبعت قبلة على كتفه ، وحينما أحست أنها على وشك البكاء استدارت بسرعة ومضت بالحصان الى الزريبة .

سار غريغورى الى حيث كان أبوه يجرف الروث من اسطبل فى همة ونشاط . فقال العجوز :

— أنا أعد المكان لحصانك .

— لماذا لم تخبرنى ؟ كنت أنا أنظفه بنفسى .

— فكرة بديعة ! ولماذا ، هل أصبحت أنا عاجزا ؟ يا ولدى ، اننى مثل بارودة ذات صوانة ، لا شىء يتلفنى ! اننى أفكر بالخروج غداً لبذر الذرة . هل ستبقى معنا مدة طويلة ؟

— شهراً .

— عظيم ! هل سنخرج معاً الى الحقول ، اذن ؟ ستجد احتمال الوطأة أيسر حينما تعمل فى الحقول . . .

— فكرت بالأمر فى نفسى .

فألقى العجوز بالمذراة أرضاً ، ومسح العرق من وجهه بكمه ، وقال فى لهجة مخلصة :

— لندخل الى الدار ونتناول شيئاً من الطعام . انك لن تقدر على الخلاص منه ، أعنى الحزن . لا حاجة بك للهرب منه ولا فائدة فى محاولة اخفاء نفسك عنه . هكذا هى الحال . . .

أعدت ايلينشنا المائدة وناولت غريغورى منشفة نظيفة . وآنذاك أيضا تذكر غريغورى : «فى الأيام الخوالى ، كانت ناتاليا تقوم بخدمتى» .

ولكى يغطى على مشاعره ، اندفع نحو الطعام اندفاعا . وحينما جلب العجوز من القبو كوزاً مليئاً بالفودكا المنزلية مسدود العنق بحزمة من قش ، رفع الى أبيه نظرة امتنان . وقال بانتلاى فى لهجة ثابتة :

— سنشرب نخب ذكرى الميتة . . . عسى أن ترقد فى كنف الله ورحمته !

وتقارعا بالأقداح . ومن غير أن ينتظر ملأ العجوز قدحين آخرين وقال متنهدا :

— اثنان من العائلة رحلا فى سنة واحدة . . . الموت أحب بيتنا .

فطلب غريغورى من أبيه قائلاً :

— دعنا لا نتحدث عن ذلك ، يا أبي !

وشرب قدحه الثانى جرعة واحدة ، وجعل يمضغ ببطء قطعة من السمك المجفف ، ولبث ينتظر صعود الشراب الى رأسه ليخمد أفكاره الثقيلة .

قال بانتلاى متفاخرا :

— الذرة رائعة هذا العام . وبذارنا أفضل بكثير من بذار الآخرين !

ومع ذلك ، ففى تفاخر أبيه هذا بالذات ، وفى لهجته ، استشعر غريغورى نغمة مفتعلة مغتصبة .

— ولكن ، ماذا عن القمح ؟

— القمح ؟ قرضه الصقيع بعض الشىء ، ولكنه ليس سيئاً جداً . سيكون حصاده متوسطاً . ثم نأتى الى موضوع الحنطة الصلبة . الآخرون توقفوا بها ، ولكن شاء الحظ ألا نكون قد بذرنا منها شيئا . الا أننى غير مبال كثيراً . ففى وسط كل هذا الدمار الذى تراه من حولك ، ماذا بوسعك أن تفعل بالحبوب ؟ أنت لا تستطيع بيعها ، ولا تقدر أن تحفظها فى الصوامع . وحينما تعود الجبهة الى هذه الناحية ، سيأخذها الرفاق كلها ، ويخلّفون المكان قاعاً صفصفاً . ولكن لا عليك . لنصرف النظر عن حصاد هذا العام ، لدينا من

الحبوب ما يكفى سنتين . الحمد لله ، صوامعنا مليئة الى حد الغطاء ، ولدينا كميات اخرى فى مكان آخر . . . (وغمز العجوز غمزة شطارة) . . . اسأل داريا كم دفنا ليوم مطير ! الحفرة فى طولك عمقاً ، وعرضها يساوى نصف ذراعيك ممدودتين الى الجانبين ، وقد ملأناها الى حافتها !

لقد جعلتنا هذه الحياة اللعينة فقراء ، وكنا فى بحبوحة من العيش ذات يوم كما لا يخفى عليك . . .

وضحك العجوز ضحكة السكير ، ولكنه ما لبث ان مسد لحيته فى وقار وقال بلهجة جادة :

— لعلك تفكر بامرأة عمك ، فدعنى اخبرك بأننى لم انسها ، وباننى ساعدتهم وقت حاجتهم . وقبل ان تقول هى شيئاً كنت قد ملأت عربة بالحبوب ، حتى دون ان التفت لقياس سعتها ، واخذتها اليها . وكم بعث ذلك السرور فى ناتالياك الراحلة ، حتى انها بكت حينما علمت بالامر . . . أتود ان نفرغ قدحا ثالثا ، يا بنى ؟ انت المسرة الوحيدة التى بقيت لى فى هذه الحياة .

فوافق غريغورى دافعاً قدحه عبر المائدة :

— حسن ، افرغه !

وفى تلك اللحظة قدم ميشاتكا فى خطى حيية ، متخذا طريقه منحرفا نحو المائدة . وصعد الى ركبة ابيه ، ووضع ذراعه اليسرى فى اضطراب حول عنق غريغورى وطبع على شفتيه قبلة حارة .

فسأله غريغورى وقد هاجت مشاعره بعنف :

— ولأي شيء هذه القبلة ، يا ولدى ؟

ونظر فى عينى الطفل المغرورقتين بالدموع ، وحاول ان يبعد انفاسه الفائحة بالفودكا عن وجه ولده .

فأجاب ميشاتكا بصوت واطئ :

— حينما كانت مامى نائمة فى غرفة الضيوف . . . حينما كانت لا تزال حية ، نادت علىَّ وقالت :

— حينما يعود ابوك ، قبله عنى واطلب منه ان يشفق عليكما . — وقالت شيئاً آخر ايضاً ، لكننى نسيت . . .

فوضع غريغورى قدحه على المائدة ، واشاح بوجهه صوب النافذة . وخيم على الغرفة صمت مديد ثقيل .

ثم تساءل بانتلاى فى نبرة خفيضة :

— هل سنفرغ قدحينا ؟

— لا ارغب فى المزيد .

وانزل ولده من على ركبته ، ونهض واسرع متجها الى السقيفة . فهتفت ايلينشنا وهى تمرق الى الموقد :

— انتظر لحظة يا ولدى . ماذا عن اللحم الذى اعددته لك ؟ لدينا دجاج مسلوق وفطائر حلوة !

الا ان غريغورى كان ، آنئذ ، قد صفق الباب وراءه .

ظل يروح ويجيء ، بلا هدف ، بين الزريبة والاسطبل . وحينما وقع بصره على حصانه ، قال فى نفسه :

— يجب ان آخذه للاستحمام .

ثم مضى الى ما تحت افاريز المأوى . فرأى ، بجوار الحاصدة المعدة للحش ، شظايا ونشارة صنوبر ولوحاً معوجاً على الارض . فاستنتج فى ذهنه :

— والدي هو الذى صنع تابوت ناتاليا . — واسرع عائداً الى درجات عتبة المنزل .

استعد بانتلاى بسرعة ، استجابة لطلب ابنه ، وشد الحصانين الى الحاصدة ، وملأ برميلا صغيرا بالماء ووضعه على دكة المأكنة . وفى تلك الليلة خرج وغريغورى الى الحقول .

١٨

كان غريغورى يعانى العذاب ليس فقط لأنه أحب ناتاليا ، بطريقته الخاصة ، وغدا معتاداً عليها خلال السنوات الست التى عاشاها معاً ، بل ولأنه ، علاوة على هذا وذاك ، كان يعتبر نفسه مسؤولاً عن وفاتها . . . ولو كانت قد نفذت وعيدها بأخذ الطفلين والعيش مع امها ، فماتت هناك ، كارهة زوجها الخائن ، دون أن تقبل معه صلحا ، لما كان غريغورى يحس بوطأة شعوره بالضياع على هذا النحو العنيف ، ولما عانى ، بلا شك ، الفداحة بمثل هذه القساوة . ومع ذلك ، فقد أخبرته أمه بأن ناتاليا قد غفرت له كل شىء ، وأنها ظلت باقية على حبها له ، تلهج بذكره حتى آخر لحظة من حياتها . ولكن هذا العلم زاد فى طين عذابه بلّة ، وأثقل ضميره بتعنيف مقيم ، وألزمه على أن ينظر الى السنين السابقة ، الى مجموع سلوكه ، على ضوء جديد .

لقد كان ، فيما مضى ، ولحين من الوقت ، لا يستشعر بغير اللامبالاة الباردة ، وأحياناً بالعداء ، تجاه زوجته . غير أن مشاعره تجاهها تغيرت تغيراً كبيراً خلال السنوات الأخيرة . ويعزى ذلك الى الطفلين بصورة رئيسية .

لم يكن غريغورى يشعر دائماً بأحاسيس الأبوة العميقة نحوهما ، كتلك التى نمت لديه خلال الفترة الأخيرة . كان ، حينما يعود الى أهله من الجبهة لفترات قصيرة ، يلاعبهما ويلاطفهما ، ولكن كمن يحس أن ذلك واجب ، ولادخال البهجة فى قلب أمهما . بيد أنه لم يكن قادراً على مشاهدة ناتاليا ومظاهر حبها الأمومى العنيف دون أن تنتابه دهشة شكوك . ما كان بمقدوره أن يدرك كيف يمكن لأيما انسان أن يحب تلك المخلوقات الصغيرة الصاخبة بنكران الذات ذاك ، ولقد قال لناتاليا أكثر من

مرة ، وبنبرة يشوبها الألم والهزء ، حينما كانت لا تزال ترضعهما من ثديها :

— ما الذى يجعلك تقفزين من نومك كالمجنونة هكذا ؟ تصبحين على قدميك حتى قبل أن يتسنى لهما البكاء . دعيهما يرفسان ويزعقان قليلاً . لا أحسب أن دموعهما من ذهب !

ولم يكن الطفلان أقل مبالاة منه ، غير أنهما كلما كانا ينموان كان تعلقهما بأبيهما ينمو هو الآخر . فاستثار حبهما استجابة فى داخله ، وامتد شعوره نحوهما ليشمل أمهما أيضاً .

وبعد انفصاله عن أكسينيا ، لم يفكر غريغورى بشكل جاد فى هجر زوجته ، ولم يخطر فى باله قط ، حتى بعد استئناف علاقتهما ، أن تحتل أكسينيا محل أم طفليه . لم يضره أن يعيش معهما فى آن واحد ، يحب كلا منهما بطريقة مغايرة . أما الآن ، وقد فقد زوجته ، فقد أحس بشكل ما أنه غريب عن أكسينيا ، وضج صدره فجأة بغضب أبكم تجاهها لانها كشفت عن علاقتهما وبالتالى ساقت ناتاليا الى حتفها .

وبينما كان يعمل فى الحقول فى محاولة لنسيان آلامه ، كانت هذه الآلام لا تنفك تقتحم ذهنه . فأنهك قواه عملاً ، ولم يترجل عن مقعد الحاصدة ساعات متواصلة ، ومع ذلك فقد كان فكره يستعيد ناتاليا . كانت ذاكرته تلح فى بعث شتى الحوادث التافهة التى غطّى عليها الدهر مما وقعت خلال حياتهما معا ، وأحاديثهما معا . وما كان عليه سوى أن يزيح اللثام عن ذاكرته المريدة لحظة ، حتى تبرز أمامه من جديد ناتاليا ، حية ، مبتسمة . استعاد هيكلها ، مشيتها ، طريقة تصفيفها شعرها ، ابتسامتها ، نبرة صوتها .

فى اليوم الثالث ، شرعا يحصدان الشعير . وعند منتصف النهار ، وحينما أوقف بانتلاى الحصانين للراحة ، ترجّل غريغورى عن مقعد الحاصدة ووضع المذراة القصيرة على ألواح الأرضية وقال :

— أريد أن أذهب الى الدار ساعة أو بعض الساعة ، يا أبي .

— لماذا ؟

— لأرى الطفلين ، وحسب . . .

فوافقه الرجل راضياً :

— حسن ، هيا بك . وفى الوقت نفسه ، سنبدأ بالتكويم .

حل غريغورى حصانه من الحاصدة فى الحال ، وامتطاه ، ومضى عليه بطيئا فوق الهشيم الأصفر الخشن متجهاً صوب الطريق العام . وكان صوت ناتاليا يرن فى أذنيه :

— أطلب منه أن يشفق عليكما !

فأغمض عينيه ، وأسقط العنان ، وترك الحصان يتخذ طريقه ، فيما غمرته موجة الذكريات من جديد .

فى السماء عميقة الزرقة ، كانت سحابات قليلة مبعثرة عالقة تكاد لا تتحرك ، وفوق الهشيم تتقافز زيغان مشرعة الأجنحة حتى النصف ، وكانت تحط على الكومات أسراباً ، فتطعم الكبار منها ، منقاراً بمنقار ، صغارها التى لم يمض زمن طويل على ظهور الريش عليها ، فكانت ترتفع على أجنحتها فى تردد واضطراب . وفوق القطع المحصودة من الأرض ، اختلط نعيق الزيغان فى نواح متصل .

حاول حصان غريغورى أن يتخذ طريقه على امتداد جانب الطريق ، منتزعاً من حين لآخر ، كومات من البرسيم يلوكها أثناء

سيره ، وشكيمته السائبة تجلجل . وحدث مرتين أن توقف ، حينما وقع نظره على خيل على مبعدة ، وأطلق صهيلاً ، وآنذاك كان غريغورى ينتبه من شروده ، ويستحث الحيوان على المضى ، وهو يحدق ، بعينين ساهمتين ، فى السهب ، والطريق المعفر ، ونقاط الكومات الصفر ، وبقاع الدخن الناضج ، البنية المخضرة .

ما ان بلغ الدار حتى ظهر كريستونيا ذو المظهر النكد . كان مرتدياً ، رغم الحرارة الشديدة ، قمصلة انكليزية القماش ، وسروالاً عريضاً لركوب الخيل . فدخل متكئاً على عصا كبيرة مشذّبة حديثاً من خشب شجر الدردار ، وحيا غريغورى قائلاً :

— عرّجت على داركم لأراك . سمعت بمصيبتك . اذن فقد دفنت ناتاليا ميرونوفنا ؟

فسأله غريغورى ، متظاهراً بأنه لم يسمع سؤاله :

— كيف عدت من الجبهة ؟

وراحت عيناه تتفحصان باستمتاع قامة كريستونيا بهيكلها غير المتناسق وانحناءتها الخفيفة .

— أرسلونى الى أهلى للاستشفاء بعد اصابتى بجرح . أصابتنى رصاصتان فى وقت واحد عبر بطنى . وهما لا تزالان لصيقتين هناك ، بالقرب من أمعائى كما يبدو ، عليهما اللعنة ! وهذا هو سبب استعمالى عصا ، ألا ترى ؟

— وأين هرسوك على هذه الشاكلة ؟ !

— بالقرب من بالاشوف .

— هل استوليتم عليها ؟ وكيف حصل لك ما حصل ؟

— كنا نشن هجوماً . تم الاستيلاء على بالاشوف ، وعلى بوفورينو كذلك . أنا كنت هناك .

— حسن ، أخبرنى فى أية كتيبة كنت ، ومن غيرك من

رجال قريتنا معك ؟ اجلس . أتريد أن تدخن ؟

كان سرور غريغورى كبيراً لدى رؤيته وجهاً جديداً ، وسنوح الفرصة للتحدث مع شخص من خارج العائلة ولم يكن ذا علاقة بمأساته . وتكشف كريستونيا عن شيء من الفهم وخمن أن غريغورى لم يكن بحاجة لمواساة . فشرع يقص ، عن رضى ولكن ببطء ، كيف تم الاستيلاء على بالاشوف وكيف جرح . وقال بصوته العميق الغليظ ، وهو يدخن سيكارة هائلة الحجم :

— كنا نتقدم مشاة خلل عباد الشمس . كان الحمر يطلقون علينا النار من رشاشاتهم ومدفعيتهم ، وبلا شك من بنادقهم أيضاً ، فهذا شيء بديهي . أنا ، من السهل اصطيادى . فأنا وسط الآخرين كالاوزة وسط الفراخ . ومهما انحنيت يستطيع أى امرئ أن يرانى . وهكذا وجدنى — أعنى الرصاص — بسهولة . ومن هذه الناحية ، فكونى رجلاً ذا طول كامل شغلة مربحة . فلو كنت أقصر قامة لأصابونى فى رأسى تماماً ! يبدو أنهما لم تكونا رصاصتين في حدة انطلاقهما ، ولكن فى اللحظة التى أصابتانى ، بدأ كل ما فى بطنى يحمحم . وكانتا شديدتى السخونة ، اللعنة عليهما ، وكأنهما قد خرجتا من موقد توا . وضعت يدى على الموضع ، فاستطعت أن أحس بهما فى داخلى تدوران تحت جلدى مثل زوج من الحويصلات ، احداهما قريبة من الأخرى . حسن ، شرعت أتحسسهما بأصابعى ، فاذا بهما تغوران . فقلت فى نفسى : «هذه نكتة سخيفة ! الى الجحيم بأمثال هذه النكات ! الأفضل أن أظل بلا حراك والا فقد تأتى ثالثة طائشة ، أحدّ من الأخريين ، وتنفذ الى أعمق أعماقى» . حسن ، بقيت متمدداً هناك . وكنت أتحسسهما — أعنى الرصاصتين — من وقت لآخر . كانتا لا تزالان هناك ، واحدة بالقرب من الأخرى . وبدأ الخوف يتملكنى ،

لأننى تصورت بأنهما ستتخذان طريقهما الى بطنى ، وآنذاك ما الذى سيحدث ؟ ستتدحرجان فيما بين مصارينى ، وآنذاك كيف سيكون فى مقدور الأطباء أن يعثروا عليهما ؟ أضف الى ذلك أنهما لن تكونا مصدر متعة بالنسبة لى ! فجسم كل انسان ، حتى جسمى ، رخو فى الداخل . واذن ، ستظل الرصاصتان تتجولان كما يحلو لهما الى أن تدخلا أمعائى ، وآنذاك ستنبعث منى أثناء السير جلجلة مثل جرس ساعى البريد . وسيجعل ذلك منى مخلوقاً شاذاً ، وأى شذوذ ! فلبثت متمدداً واقتطعت زهرة عباد شمس وأكلت بذورها ، ومع ذلك لم أستطع التغلب على مخاوفى . . . كان صفنا قد تقدم . حسن ، وحينما تم الاستيلاء على بالاشوف ، أفلحت فى الوصول الى هناك على صورة ما ، ثم وضعونى فى مستشفى الميدان فى تيشانكا . كان الطبيب هناك كالسنونو وقاحة . ظل يسألنى : «هل نستأصل الرصاصتين ؟» . لكننى فكرت فى الأمر من جميع وجوهه وأنا متمدد على السرير . . . ثم سألته : «يا صاحب السعادة ، هل يمكن لهما أن تتيها فى داخلى ؟» . فقال : «كلا ، لا يمكن لهما» . فقلت فى نفسى : «اننى لن أدعهم يستأصلونهما ! أعرف تلك اللعبة ! سوف يعيدوننى الى كتيبتى» . فقلت : «لا ، يا صاحب السعادة ، لا أريد استئصالهما . أفضل أن تبقيا فى أحشائى . أريد أن أحملهما الى بلدى لأريهما لزوجتى ، وهما لا تزعجانى قط ، كما أن وزنهما ليس ثقيلا» . فسبنى سباباً كثيراً ومقذعاً ، لكنه سمح لى بالذهاب الى أهلى فى اجازة مرضية أمدها أسبوع .

فابتسم غريغورى فيما كان ينصت للحكاية الساذجة ، وتساءل :

— فى أية كتيبة كنت ؟

— الرابعة .

— ومن غيرك من رجال القرية معك ؟

— عدد كبير : أنيكوشكا ، بسخليينوف ، آكيم كولوفايدين ، سيومكا ميروشنيكوف ، تيخون كورباتشيف .

— حسن ، وكيف هم القوزاق ؟ يشكون من شئ ؟

— يتضايقون من الضباط ، كما يبدو . عينوا علينا خنازير قذرين بحيث تستحيل الحياة معهم . ويكادون يكونون جميعا من الروس . ليس بينهم قوزاقى واحد !

وفى أثناء كلامه سحب كريستونيا كم قمصلته القصير وجعل يتفحص ويمسّد القماش الفاخر لسروال ركوب الخيل الانكليزى ، وكأنه لا يكاد يصدق أنه كان مرتدياً ، فعلاً ، قماشاً جيداً كهذا . وقال متأملاً :

— ولكن ، أتدرى . . . لم أستطع العثور على جزمة تناسب قدمى . يبدو أن الناس الذين يعيشون فى البلاد الانكليزية ليست لهم أقدام كبيرة كهذه . . . نحن نبذر ونطعم الحنطة ، بيد أننى أظن أن الحال فى انكلترا مثلها فى روسيا . لا طعام لديهم غير الدخن . فكيف ، والحالة هذه ، يتسنى أن تكون لهم أقدام كبيرة كقدمى ؟ ألبسوا كل السرية ونعّلوها ، وأرسلوا الينا سكاتر معطرة . ومع ذلك ، فالأحوال سيئة .

تساءل غريغورى مهتماً :

— ما السيئ فى الأمر ؟

ابتسم كريستونيا وقال :

— يبدو كل شىء حسناً من الخارج ، أما من الداخل فسئ . أنت تدرى . . . يريد القوزاق من جديد أن يتركوا القتال . لن نجنى شيئاً من هذه الحرب . وهم الآن يقولون بأنهم لن يمضوا الى أبعد من اقليم الخوبر .

وبعد أن ودّع غريغورى كريستونيا ، فكر لحظة ثم عقد عزمه :

— سأبقى أسبوعا وبعده أعود الى الجبهة . لسوف يقتلنى البؤس هنا .

لبث فى الدار حتى المساء . تذكر أيام طفولته ، فصنع لميشاتكا طاحونة هوائية من القصب ، وابتكر مصيدة للسنونو من شعر الخيل ، كما صنع لابنته عربة صغيرة دقيقة ذات عجلات تدور وعريش صبغه بألوان غريبة ، حتى أنه جرب أن يصنع دمية من خرق ، لكنه لم يفلح ، فساعدته دونيا على اتمامها .

فى البداية كان الطفلان غير واثقين من نواياه ، اذ لم يكن غريغورى قد أبدى لهما اهتماماً كبيراً قط فى الماضى . لكنهما بعدئذ ، لم يعودا يتركانه لحظة . وعند مغرب ذلك اليوم ، وبينا كان غريغورى يستعد للعودة الى الحقول ، قال ميشاتكا والدموع فى عينيه :

— أنت دائماً هكذا ! لا تكاد تكون معنا حتى تتركنا من جديد . . . خذ مصيدتك والطاحونة وعربة القعقعة معك ! خذها جميعاً ، أنا لا أريدها .

فاحتوى غريغورى يدى ولده الصغيرتين فى كفيه الكبيرتين وقال :

— اذا كان هذا شعورك ، فلنتصالح على هذه الصورة . أنت رجل ، ولهذا سوف تخرج معى الى الحقول . سنقوم بحش الشعير وتكديسه . تجلس مع جدك على الحاصدة ، وتسوق الخيل . ثم هناك الجنادب التى ستعثر عليها فى الحشيش ، وما أكثرها ! والطيور التى سترى فى الأخاديد ! أما بوليوشكا ، فانها ستبقى فى البيت مع جدتها . لن يضيرها ذلك . فهى بنت ، وعملها كنس الأرض وجلب الماء الى الجدة من الدون فى سطل صغير ، فللنساء مختلف

صنوف الأعمال يؤدينها فى البيت . والآن ، هل ستأتى معى ؟

فهتف ميشاتكا فى لهفة :

— أوه ، نعم !

وتألقت عيناه بخيال الفكرة . الا أن ايلينشنا حاولت أن تعترض :

— أين ذاهب به ؟ لا أدرى ما الذى يجول فى فكرك ! أين تراه سينام ؟ ومن سيعتنى به هناك ؟ رحماك يا رب ، فقد يقترب من الخيل فترفسه ، أو تلدغه أفعى .

والتفتت ناحية حفيدها :

— لا تذهب مع أبيك ، يا حبيبى . ابق فى الدار !

غير أن عينى ميشاتكا الضيقتين ومضتا فجأة بوميض ينذر بالشؤم (مثل جده تماما حين يفقد زمام نفسه غضبا) وضم قبضتيه الصغيرتين ، وصاح فى نغمة عالية النبرة مشوبة بالدموع :

— اسكتي ، يا جدتى ! سوف أذهب ، مهما حدث ! لا تستمع اليها ، أبي !

فرفع غريغورى ولده بذراعيه ضاحكا ، وقال مطمئنا ايلينشنا :

— سينام معى . وسأجعل الحصان يسير متمهلاً طيلة الطريق . لن أدعه يسقط . أعدى ملابسه ، يا أماه ، ولا تخشى شيئاً . سأحرص على راحته وأمنه . سأعود به سليماً معافى غداً فى المساء .

وهكذا انعقدت أواصر الصداقة بين غريغورى وميشاتكا .

خلال الأسبوعين اللذين قضاهما غريغورى فى تتارسكى ، لم يقع بصره على أكسينيا سوى ثلاث مرات ، وفى تلكم المرات لم تزد رؤيته لها على لمحات قصار . وقد تجنبت هى ، مدفوعة بحسها وحذقها الأصيلين ، أى لقاء معه ، مدركة بأن من الخير لها ألا تكون على مرأى منه . فكأية امرأة أخرى ، فطنت الى

حالته النفسية ، وأدركت أن أى تعبير عن عواطفها تجاهه ، لا يتسم بالحذر وملاءمة الظرف ، قد يضعه ضدها ويلقى سحابة فوق علاقتهما . فلبثت تنتظر أن يكلمها هو . ثم حل الوقت المناسب فى اليوم السابق لرحيله الى الجبهة . كان يقود عربة محملة بالحبوب فى طريق عودته من الحقول ، وقد تأخر النهار ، وفى غبشة الشفق التقى بأكسينيا على مقربة من الزقاق القريب من السهب . فانحنت له ، وهى لما تزل على مبعدة منه ، وابتسمت ابتسامة واهنة . فردّ على انحناءتها ، لكنه لم يستطع أن يمر بها من غير ما كلام . فسألها ، وهو يجر العنان جرة لا تكاد ترى ، فتباطأت الخيل المسرعة :

— كيف حالك ؟

— بخير ، شكرا يا غريغورى بانتلاييفتش .

— كيف حصل أننا لم نرك مطلقاً ؟

— كنت فى الحقول . لدى الكثير مما أعمله وحدى .

كان ميشاتكا جالساً مع غريغورى فى العربة . ولعل غريغورى ، بسبب ذلك ، لم يوقف الحصانين ولم يتوقف هو لتبادل المزيد من الحديث . فمضى بضع خطوات ، فاذا به يسمعها تناديه ، فاستدار اليها . كانت أكسينيا واقفة ازاء السياج . فسألته ، وهى تقطع أوراق وردة أقحوان فى حركة منفعلة :

— هل ستبقى فى القرية مدة طويلة ؟

— راحل بعد أيام قليلة .

وترددت ثانية ، وكان جلياً أنها أرادت أن تقول شيئاً آخر . بيد أنها ، ولسبب ما ، لم تفعل ، بل لوّحت بيدها وأسرعت تستأنف سيرها نحو الأرض المشاعة دون أن تلتفت الى الخلف أبداً .

١٩

كانت السماء مدلهمة بالغيوم ، وثمة مطر خفيف يرذ وكأنه ينزل خلل غربال . ومن الحشة والنجيل وأجمات الشوك البرى المتباعدة فى السهب ، كان ينبعث ألق متلامع .

مضى بروخور على صهوة حصانه صامتا ، وقد أحنقه أيما حنق رحيله المبكر عن القرية ، فقطع المسافة كلها الى الكتيبة لا يكاد يتحدث الى غريغورى . وقد حدث بعد أن اجتازا احدى القرى أن التقيا بثلاثة قوزاق راكبين . كانوا يسيرون فى صف واحد ، يستحثون خيلهم بأعقابهم ، ويتحدثون بحماس فيما بينهم . فشخّص أحدهم غريغورى ، وكان يرتدى سترة فلاحية رمادية من نسيج بيتى ، وقال لرفيقيه بصوت عال :

— هذا ميليخوف ، يا أخوى !

وحينما حاذوا غريغورى أوقف القوزاقى كميته طويل السيقان ، وهتف قائلاً :

— تحياتنا ، يا غريغورى بانتلاييفتش !

فرد غريغورى :

— تحياتى !

وهو يحاول عبثا أن يتذكر أين التقى بهذا القوزاقى ذى اللحية الحمراء والوجه العبوس . وكان من الواضح أنه لم يرقّ الى رتبة ضابط الا مؤخراً ، ولكى لا يحسب قوزاقياً نفراً فانه كان قد خاط شرائط الكتف على سترته الفلاحية .

وتوجه بالسؤال الى غريغورى وهو يقترب منه عن كثب ، مادّاً ذراعه وزافراً الفودكا فى وجهه :

— ألم تعرفنى ؟

وشعّ فى وجه الضابط الغر وميض من الرضا عن النفس ،

وتألقت عيناه الزرقاوان الصغيرتان والتوت شفتاه بابتسامة من تحت شاربه الأحمر . فأحس غريغورى بالاستمتاع لمرأى هذا الضابط ذى السترة الفلاحية . ومن غير أن يحاول كتمان ابتسامته أجاب :

— لا ، لم أعرفك . لا بد أننى التقيت بك حينما كنت لا تزال نفرا . هل جعلوك ضابطاً مؤخرا ؟

— أصبت الهدف ! لم يمض سوى أسبوع منذ أن رقونى الى رتبتى الحالية . لكننا تقابلنا فى احدى اجتماعات هيئة أركان كودينوف ، فى وقت ما حوالى «عيد السيدة» كما أظن . أنقذتنى ، حينئذ ، من ورطة صغيرة ، هل تذكر ؟

ثم صاح بالقوزاقيين الآخرين اللذين كانا قد توقفا على مبعدة يسيرة :

— هى ، تريفون ! امضيا على مهل ، وسوف ألحق بكما !

وبعد لأى تذكر غريغورى لقاءه السابق بالضابط الأحمر الشعر هذا وتعليق كودينوف عليه :

— لا يخطئ قط حينما يطلق النار . يستطيع أن يصيب الأرانب وهى لائذة بالفرار ببندقيته . وهو شيطان أثناء القتال ، كشاف ماهر ، لكنه طفل فى ذكائه .

وكان الرجل آمرا لسرية خلال الانتفاضة ، وقد ارتكب خطأ ما ، فأراد كودينوف أن يعالج أمره بصرامة ، بيد أن غريغورى كان قد تدخل فى الأمر فصفح عنه وأبقى على رتبته آمر سرية .

سأله غريغورى :

— قادم من الجبهة ؟

— نعم . أنا قادم من نوفوخوبرسك فى اجازة . انحرفت مائة فرست عن طريقى الأصلى لزيارة أقربائى . عندى ذاكرة قوية ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! لا تحرمنى من متعة استضافتك . لدى

فى حقيبتى قنينتان من شراب نقى مائة فى المائة . لنفتحهما حالا ، ما رأيك ؟

فرفض غريغورى رفضا باتاً ، غير أنه قبل بالقنينة التى قدمها الرجل اليه هدية . وقال الضابط متفاخراً :

— آه ، لو كنت هناك ! قوزاق وضباط حُملوا عن آخرهم بالسلع ! أنا كنت فى بالاشوف أيضاً . استولينا على المكان ثم اتجهنا مباشرة نحو المحطة ، حيث وجدنا جميع الخطوط مزدحمة بالشاحنات . شاحنة مليئة بالسكر ، ثانية مليئة بالبزات ، وثالثة بشتى أنواع الحاجيات . بعض القوزاق حمل ما يقارب من أربعين طقماً من الملابس . وبعد ذلك ، وحينما ذهبنا لترهيب اليهود ، أوه ، كنت ستضحك ملْ شدقيك ! فى نصف سريتى ، استطاع أحد قناصة اليهود الحاذقين أن يجمع ثمانى عشر ساعة ، عشر منها ذهبية . علقها جميعاً على صدره ، كما لو كان أغنى تاجر على الأرض . ثم هناك الخواتم والأساور التى حصل عليها . . . ما كان بمقدورك أن تحصيها ! لبس خاتمين أو ثلاثة فى كل اصبع . . .

فأشار غريغورى الى خرجى الرجل المنتفخين :

— وما هذا الذى لديك ؟

— ماذا . . . كل صنوف الأشياء طبعاً .

— اذن فقد شاركت أنت فى النهب كذلك ؟

— لا حاجة بك لاطلاق هذه الصفة على العملية . . . نحن لم ننهبها ، بل فزنا بها شرعياً . قال آمر الكتيبة لنا : «استولوا على البلدة فتكون حلالاً لكم مدة يومين» . فهل أنا أسوا من الآخرين ؟ أنا أخذت أشياء محللة ، كل ما صادفنى . أما الآخرون فقد كانوا أسوأ بكثير .

فحدج غريغورى الضابط باحتقار ، وقال :

— مقاتلون رائعون ! ان أمثالك يحومون تحت الجسور فى الطرق الخارجية ، لا يحاربون ! لقد قلبتم الحرب الى غارة نهب وسلب . آه ، يا حثالة ! لقد اتخذتم تجارة جديدة لكم ! ولكن ألا تظن بأنك ، وآمرك كذلك ، ستجلدان فى يوم من الأيام حيين بسبب ذلك ؟

— لأى سبب ؟

— لكل ذلك .

— ولكن من الذى سيقوم بالجلد ؟

— ضابط أعلى رتبة .

فابتسم الرجل ابتسامة لاذعة وقال :

— لكنهم جميعاً على شاكلة واحدة ! نحن لم نأخذ أشياء الا فى خرجنا وعرباتنا ، اما هم فانهم يرسلون قطرا من الاحمال الى اهليهم .

— وكيف ، هل رأيتهم انت ؟

— هه ، هل رأيتهم انا ! أنا نفسى رافقت قطار سلع من هذا النوع الى ياريزنسكايا . كانت هناك عربة مشحونة حتى حافتها بصحون واقداح وملاعق فضية . وقد زعق بعض الضباط فى وجوهنا قائلين : «ما هذا الذى عندكم ؟ هيا ، اكشفوه !» لكننى حينما قلت بانها المتاع الشخصى للجنرال فلان ابن علان انصرفوا صفر الايدى .

فسأله غريغورى ، مضيقاً عينيه ومنقراً باصبعه على العنان نقراً عصبياً :

— ومن هو هذا الجنرال ؟

فابتسم الرجل ابتسامة ماكرة واجاب :

— لقد نسيت اسمه . ما كان اسمه ؟ رباه اعنىّ على

تذكره ! لا ، لقد امحى عن عقلى . لا استطيع تذكره ! ولكن لا معنى لشتائمك يا غريغورى بانتلايتش . يشهد الله ان الجميع يفعلون الشيء نفسه ، واذا قورنت انا بهم فما انا الا حمل بين ذئاب . لم آخذ الا القليل ، اما الآخرون فقد جردوا الناس من ملابسهم فى وسط الشارع واغتصبوا الفتيات اليهوديات حيثما صادفوهن . انا لم اتماد الى هذا الحد . فعندى زوجتى الشرعية ، واية زوجة ! انها جواد فحل ، وليست امرأة ! لا ، أبداً ، لا مبرر لغضبك علىّ . مهلاً ، انتظر . اين ذاهب ؟

لكن غريغورى هز رأسه ببرود مودعا الرجل واطلق العنان لحصانه خببا وهو يقول لبروخور :

— هيا امش !

وفى الطريق صادفا عدداً متزايداً من القوزاق الذاهبين فى اجازة ، افراداً وازواجاً وجماعات . كما مرا بعدد كبير من العربات يجرها زوج من الخيل ، وقد غطيت احمالها بالقماش المشمع او البطانيات المربوطة من اسفل باعتناء . وكان يخب وراءها ، واقفين على ركائب سروجهم ، قوزاق يرتدون قمصلات صيفية جديدة وسراويل خاكية مما كان يرتديها جنود الجيش الأحمر . وكانت وجوههم المغبرة الملفوحة ناضحة بالحيوية والبهجة . ولكن ما ان كانت عيونهم تقع على غريغورى حتى كانوا يغذون السير باسرع ما يستطيعون ، صامتين ورافعين ايديهم الى رفاف قبعاتهم وكأن بأمر ، ولا يستأنفون حديثهم الا بعد ان يكونوا قد ابتعدوا عن غريغورى بمسافة مناسبة .

قال بروخور مازحا حينما رأى عن بعد خيالة يرافقون عربة محملة بالاسلاب :

— ها قد جاء التجار !

بيد انه ما كان كل الرجال الذين صادفاهم ذاهبين فى اجازة محملين بالأسلاب . اذ حدث حينما توقفا ليوردا الحصانين من بئر فى احدى القرى ان سمع غريغورى غناء منبعثاً من الفناء المجاور . فاستنتج من الاصوات الفتية الصافية ان المغنين كانوا جماعة من القوزاق الشباب . فقال بروخور وهو يسحب سطلاً من الماء :

— احسب انهم يقيمون حفلة وداع الجندى .

وكانت قنينة الشراب ، التى قد اتيا عليها فى المساء السابق ، قد وضعته فى حالة تستحثه على الاستمرار فى السكر ، ولهذا اسرع يورد الحصانين ويقترح متضاحكاً :

— ما رأيك ، يا بانتلايتش ؟ هل نمضى ونشاركهم ؟ لعلنا نحصل على قنينة اخرى للطريق أيضاً . الكوخ سقفه من قصب ، الا انك تستطيع ان تستنتج بانهم اغنياء .

فوافق غريغورى على الذهاب ليشاهد كيفية توديع القوزاقى الشاب . فربطا الحصانين الى السياج ومضيا الى داخل الفناء . كان ثمة اربعة خيول واقفة ازاء معالف دائرية تحت افاريز مأوى . وخرج من مخزن الحبوب صبى يحمل مكيالاً حديدياً طافحاً بالشوفان ، فألقى نظرة على غريغورى ثم مضى الى الخيل الصاهلة . وتناهت اغنية كانت تطوف حول ركن الكوخ . وكان صوت صادح مرتفع متماوج ينشد :

على ذلك الطريق لم تطأ قدم .

لم تطأ قدم . . .

فيردد المقطع الأخير صوت جهير غليظ ، ويأتلف مع الصوت الصادح ، ثم تشترك أصوات اخرى فى انسجام ، فتنساب الاغنية

مهيبة ، ترن ، حزينة . ولم يشأ غريغورى ان يقاطع المنشدين ، فلمس كم بروخور وهمس قائلاً :

— انتظر لحظة ، لا تجعلهم يرونك . دعهم يكملون .

فقال بروخور :

— ليست هذه حفلة وداع . ان قوزاق يلانسكايا هم الذين يغنون على هذه الصورة دائماً .

وأضاف معجباً :

— بيد انهم فعلاً مغنون رائعون !

وبصق محنقاً . اذ بدا ان آماله فى الحصول على الشراب لن تتحقق . ومضى المغنى الصادح يروى ، حتى النهاية ، قصة القوزاقى الذى سها فى الحرب :

على ذلك الطريق لم تطأ قدم ،
ولم تقع عين على اثر لسنابك خيل ،
لكن ، حدث مرة ان مرت على ذلك الطريق
كتيبة قوزاقية على خيولها ،
وكان يُجرى خلفها جواد جموح اصيل ،
وقد تدلى من جانبه سرج فاخر ،
وكان عنانه الحريرى ، ولجامه ، وكل شىء عليه سائبا .
ووراءه كان قوزاقى شاب يركض ،
وبينما هو يركض ، كان يصرخ :
«مهلا ، اواه مهلا ، يا جوادى الوفي ،
لا تتركنى ، لا تتركنى فى محنتى ،
والا فسوف اقع فى يد التشيتشينيين» * .

---

* التشيتشينيون : قوم يسكنون السفوح الشمالية لجبال القفقاس . المترجمون .

فلبث غريغورى واقفاً وهو متكىء على اساس الكوخ الابيض ، وقد اطربه الغناء ايما طرب ، فلم يعد يسمع صهيل الخيل ولا صرير العربات المارة فى الشارع .

وحينما انتهت الاغنية ، تنحنح احد المغنين وقال :

— هذا هو الغناء الحقيقى . احسن ما غنينا . وعليكن ، ايتها النسوة ، ان تزدن فى العطاء للجنود ليبتلعوا به فى الطريق . لقد اكلنا كفايتنا . والشكر للمسيح ، لكننا لا نملك قضمة او مصة لنأخذها معنا اثناء الطريق . . .

فأيقظ غريغورى نفسه من حلم اليقظة الذى اكتنفه ، وسار حول الركن . كان ثمة اربعة قوزاق شباب يجلسون على العتبة السفلى تحت الباب ، وكانت النسوة والاطفال الذين هرعوا من الاكواخ المجاورة قد احتشدوا حولهم . وكان جمهور المتفرجات يبكين ويتمخطن ويمسحن دموعهن باطراف عصابات رؤوسهن . وبينما كان غريغورى يقترب من الدرجات كانت امرأة عجوز ، مديدة القامة سوداء العينين لا يزال وجهها المغضن يحمل آثار جمال صارم شبيه بجمال الايقونات ، تقول بلهجة بطيئة متعثرة :

— ما اجمل غناءكم ، وما احزنه ، يا اعزائى ! ولا بد ان لكل منكم اماً ، ولا بد انها حينما تفكر بولدها وكيف انه يذوى فى هذه الحرب تحرق عينيها بكاء عليه .

وحينما حيّا غريغورى الجمع ، قالت فجأة وبلهجة غضبى ، وبياضا عينيها الاصفران يومضان نحوه :

— وانت ، يا صاحب السعادة ، انت تسوق هذه الورود الى حتفها ، أليس كذلك ؟ انت تسوقهم لكى يقتلوا فى الحرب !

فاجاب غريغورى منقبض النفس :

— نحن نُقتل ايضا ، ايتها العجوز .

اما القوزاق فقد فوجئوا بوصول ضابط غريب . فوثبوا بسرعة واقفين ، وهم ينحون جانباً الصحون وبقايا الطعام التى كانت موضوعة على الدرجات ، ويسوون قمصلاتهم وسيور بنادقهم واحزمتهم ، اذ كانوا يغنون حتى دون ان ينزلوا البنادق من على اكتافهم . ولم يكن يبدو على اكبرهم سناً انه قد تجاوز الخامسة والعشرين .

سأل غريغورى وهو يجيل بصره فى وجوه الرجال الغضة الفتية :

— من اين انتم ؟

فأجاب فتى افطس الانف ذو عينين باسمتين من غير ما تفكير :

— من كتيبة . . .

— اعنى ، اين ولدتم ، ما هى منطقتكم الاصلية ؟ انتم لستم من هذه الديار ، أليس كذلك ؟

— نحن من يلانسكايا . نحن ذاهبون فى اجازة ، يا صاحب السعادة .

فعرف غريغورى المغنى المنفرد من صوته ، فسأله مبتسماً :

— انت كنت المغنى المنفرد ، صحيح ؟

— نعم .

— الواقع ، ان لك صوتاً بديعاً . ولكن ، ما كان سبب غنائكم ؟ طرباً ؟ لا يبدو عليكم الثمل !

فألقى فتى منهم ، مديد القامة ، أشقر ، ذو ناصية شاردة مغبرة ، نظرة من طرف عينه على العجائز ، وقد كست خديه الأسمرين حمرة قانية ، وأجاب متردداً وعلى شفتيه ابتسامة محرجة :

— أى طرب تظنه لدينا ؟ ان الحاجة هى التى تجعلنا نغنى . الحياة ليست على ما يرام فى هذه الاصقاع ، فهم لا يطعمونك جيداً . . . قضمة من الخبز ، هذا كل شىء . ولهذا خطرت على

بالنا فكرة الغناء . وحالما نبدأ ، تهرع جميع النسوة للاستماع الينا . فننشد اغنية من الاغانى الحزينة ، وسرعان ما ترق قلوبهن فيجلبن لنا قطعة من الزبدة او قارورة لبن ، او شيئاً آخر مما يصلح للاكل . . .

وقال المغنى المنفرد وهو يغمز لرفاقه الآخرين وتضيق عيناه الساخرتان ابتساماً : — نحن اشبه ما نكون بالقسس ، ايها النقيب !

وأخرج احد الجنود ورقة دهينة من جيب الصدر ، ومدها الى غريغورى قائلاً :

— هذه هى ورقة اجازتنا .

— وما الذى أريده بها ؟

— لعلك تظن اننا هاربون .

فقال غريغورى ، مغتاظاً بعض الشىء :

— تستطيعون ان تظهروها حينما تصادفكم احدى المفارز التأديبية .

لكنه ، مع ذلك ، توجه اليهم ناصحاً قبل ان يتركهم :

— سافروا ليلاً ، وانزووا فى مكمن ما فى النهار . ان ورقتكم غير ذات نفع . حذار من الوقوع فى مشكلة بسببها . هل هى مختومة ؟

— ليس لدى سريتنا ختم .

— اذن ، خذوا بنصيحتى اذا اردتم الا يسومكم الكالميكيون عذاب الجلد بالسفاد .

وعلى مبعدة ثلاثة فراسخ تقريباً خارج القرية ، وعلى مسافة غير بعيدة من غابة تمتد حتى حافة الطريق ، شاهد غريغورى من جديد فارسين قادمين باتجاهه . فوقفا وليثا يحدقان فيه لحظة ، ثم استدارا بحدة صوب الغابة .

فعلل بروخور ذلك بقوله :

— ليست لديهما اية اوراق . هل رأيت كيف استدارا الى داخل الاشجار ؟ لماذا يسافر هذان الشيطانان فى وضح النهار ؟ !

وفى اثناء ذلك النهار ، استدار العديد من الرجال وهرعوا يختبئون حينما وقع بصرهم على غريغورى وبروخور . وحدث ان كان قوزاقى كهل يغذ السير على قدميه الى قريته على نحو متلصص ، وحينما رأى غريغورى قذف بنفسه داخل عباد الشمس وتقرفص ، مثل ارنب ، على حافة الحقل . وبينما كانا يمران به ، قام بروخور على ركابه وهتف :

— انت ، ايها المواطن ، ما هكذا يختبئ المرء . انك تخفي رأسك ولكنك تظهر دبرك .

وصاح مصطنعاً الغضب :

— حسن ، هيا اخرج ! دعنا نرى اوراقك !

قفز القوزاقى وانطلق هارباً خلل اشجار عباد الشمس وقد احنى ظهره احناءة قوية فشرع بروخور يضحك ضحكاً صاخباً وكان على وشك ان يهمز حصانه لملاحقة الرجل ، لكن غريغورى اوقفه قائلاً :

— لا تتعابث ! دعه يذهب الى الشيطان ! سيظل يركض ويركض الى ان تنقطع انفاسه وقد يموت من الفزع . . .

— ما هذا القول ! انك لن تستطيع اللحاق بهذا الرجل حتى ولو طاردته بكلاب البورزوى ! لن يتوقف عن الخبب الا بعد ان يقطع عشرة فراسخ محترمة . أرأيت كيف انطلق خلل عباد الشمس ؟ بودى ان أعرف من اين يأتى المرء بكل هذه الطاقة فى مثل هذه الاوقات .

وعبر عن جملة آراء فى الجنود الفارين عموما ، ليست فى

صالحهم البتة ، ثم قال :

— انظر كيف يسافرون جماعات : مثل حبات تتساقط من زكيبة . حاذر ، يا بانتلايتش ، والا فلن يمضى وقت طويل حتى تخلو الجبهة الا من كلينا ، انا وانت فقط !

وكلما اقتربا من الجبهة ، رأى غريغورى علامات اكثر لتدهور معنويات «جيش الدون» . فلقد حل انهيار المعنويات فى اللحظة التى استطاع فيها الجيش ، وقد عززه المتمردون ، ان يحقق اعظم انتصاراته فى الجبهة الشمالية . فامست قواته عاجزة تمام العجز عن شن هجوم محكم لضرب مقاومة العدو ، بل انها لم تستطع حتى مجابهة اى هجوم قوى عليها .

وفى مراكز المناطق وقراها ، حيث عسكرت القوات الاحتياطية القريبة ، كان الضباط يواصلون حفلات السكر بلا انقطاع . وكانت قوافل البضاعة من جميع الاصناف تئن تحت وطأة احمالها من الاسلاب التى لم ترسل بعد الى الموءخرة . ولم تكن ايما وحدة تضم اكثر من ستين بالمائة من قوتها الكاملة . كان القوزاق يمضون فى اجازات دون الحصول على اذن بها ، ولم تكن مفارز الكالميكيين التأديبية ، التى كانت تجوب ارجاء السهب ، من القوة بحيث تستطيع ايقاف طوفان الفارين . وفى القرى المحتلة فى اقليم ساراتوف ، كان القوزاق يتصرفون وكأنهم فاتحون فى ارض اجنبية . كانوا يسلبون السكان ويهتكون اعراض النساء ويدمرون مخازن الحبوب وينحرون الماشية . وكان الفتيان الاغرار والرجال الذين تجاوزوا الخمسين يجندون فى الجيش بغية تعزيزه . وكان الحديث يدور صريحاً فى اوساط السرايا المتقدمة عن عدم الرغبة فى القتال ، بينما كان القوزاق فى القوات الزاحفة باتجاه فورونيج يرفضون ، علانية ، اطاعة أوامر الضباط . وسرت الشائعات بان حوادث اغتيال

الضباط فى المواقع الامامية آخذة فى الازدياد .

كان الغسق قد حل حينما توقف غريغورى فى قرية صغيرة لا تبعد كثيراً عن بالاشوف لقضاء الليلة فيها . وكانت سرية الاحتياط الرابعة ، المكونة من قوزاق سحبوا من بين المجندين الاوائل ، وسرية هندسة تابعة لكتيبة تاكانروك ، قد احتلتا جميع اماكن السكن فى القرية فقضى غريغورى وقتاً طويلاً يبحث عن مأوى له . وكان من الممكن ان يمضيا ليلتهما فى الحقول كما اعتادا ان يفعلا ، لكن المطر بدأ يهطل وكان بروخور يرتجف ، اذ عاودته احدى نوبات الملاريا ، ولهذا كان عليهما ان يقضيا الليلة تحت غطاء ما . فى مدخل القرية ، كانت هناك سيارة مصفحة عطلتها قذيفة عن العمل ، وكان موقعها الى جوار بيت واسع تحيط به اشجار حور . وحينما مر بها غريغورى استطاع ان يقرأ على جانبها الاخضر كتابة لا تزال واضحة : «الموت للحثالة البيضاء !» وتحتها لقب الكاتب «الغضب» . كانت الخيل تزنخر عند المرابط فى الفناء ، واصوات بشرية تسمع . وفى الحديقة الكائنة خلف البيت ، كانت نار معسكر تضطرم والدخان ينساب فوق تيجان الاشجار الخضر . وكانت اجسام قوزاقية تتحرك حول النار ، وقد أضاءها الوهج . وعلقت فى الهواء رائحة القش المحترق وشعر خنازير محروق .

ترجل غريغورى ومضى داخلاً الى البيت . وسأل فيما ولج الى غرفة واطئة السقف مليئة بالناس :

— من السيد هنا ؟

فاستدار فلاح مكتنز البدن صوب غريغورى واجاب دون ان يغير وضعيته :

— انا . ماذا تريد ؟

— هل نستطيع ان نقضى الليلة هنا ؟ نحن اثنان .

فنبح قوزاقى كهل ، كان مضطجعاً على مصطبة ، فى لهجة حانقة :

— نحن محشورون ، مثل الحب فى البطيخة !

فقال غريغورى فى اصرار :

— سنجد موضعاً لنا بشكل او آخر . نحن لا نستطيع قضاء الليلة تحت المطر ، أليس كذلك ؟ ثم ان مراسلي مريض .

فحمحم القوزاقى المضطجع على المصطبة وانزل قدميه على الارض ، وقال فى لهجة مغايرة وهو يحدق فى غريغورى :

— يا صاحب السعادة ، نحن اربعة عشر فى غرفتين ، ناهيك عن العائلة ، وقد أخذ الغرفة الاخرى ضابط بريطانى ، ومراسلاه ، وبصحبتهم كذلك احد ضباطنا .

وقال قوزاقى ثان بلهجة ودود :

— لعلك تستطيع تدبير حالك معهم بشكل ما .

وكان هذا قوزاقياً رشت لحيته بنثار من الشيب ، ضابط صف كما بدا ذلك من شرائط كتفه .

— كلا . اننى افضل البقاء هنا . لن يلزمنى موضع فسيح . فسوف استلقى على الارض . لن ازحمكم .

وخلع غريغورى معطفه الثقيل ، ومسد شعره براحة كفه وجلس الى المنضدة . اما بروخور ، فانه خرج ليعتنى بالحصانين . ولا بد ان اصواتهم سمعت فى الغرفة المجاورة ، اذ ان الباب فتح بعد خمس دقائق واطل منه ملازم انيق صغير . وتوجه بالسؤال الى غريغورى :

— أتراك تبحث عن موضع لتنام فيه ؟

ثم ابتسم حين لاحظ بنظرة خاطفة شارات كتف غريغورى ، وقال متأدباً :

— هلا شاركتنا نصفنا ، يا آمر السرية . انا والملازم كامبل ، وهو من الجيش البريطانى ، ندعوك . ستجد المكان اكثر راحة معنا . اسمى شتشيكلوف . واسمك ؟

وصافح غريغورى وسأله :

— هل جئت من الجبهة ؟ آه ، قد كنت فى اجازة ! تفضل ، تفضل سنكون مسرورين بصحبتك . لا بد انك جائع ، وباستطاعتنا ان نعطيك ما تطعم به .

وعلى قمصلة الملازم الخضراء الناصعة تدلى صليب القديس غيورغى ، وكان فرق شعره دقيقاً لا يقبل النقد ، وجزمته نظيفة لامعة ، وكانت وجنتاه الحليقتان السمراوان ، وقامته المتناسقة ، بل كل ما فيه ، يفوح بالنظافة وماء الكلونيا .

تنحى جانباً ليفسح المجال لغريغورى كى يمر ، وقال :

— الباب الى الشمال . حاذر ، فثمة صندوق فى الطريق .

نهض ليستقبل غريغورى ملازم شاب ذو قامة متينة وعينين رماديتين متقاربتين وشارب اسود منفوش يكاد يخفى الندبة العميقة على شفته العليا . فقدم الملازم الروسى أحدهما للاخر ، متفوهاً ببعض الكلمات الانكليزية . فصافح الانكليزى غريغورى ، وقال بضع كلمات ، وهو ينقل نظراته بينه وبين مترجمه ، ثم أشار عليهما بالجلوس .

كانت ثمة اربعة اسرة معسكر مصفوفة فى وسط الغرفة ، وفى زاوية منها كومت حقائب معدات جلدية ، وعلى صندوق كبير وضعت رشاشة خفيفة من نوع لم يألفه غريغورى ، بالاضافة الى حافظة نظارة ميدان وصناديق عتاد وقربينة ذات حاضن قاتم اللون وماسورة جديدة تلمع لمعاناً خافتاً .

قال الملازم شيئاً بصوت خفيض انيس ، وهو يلقى نظرة على

غريغورى . فلم يقدر غريغورى ان يفهم كلمة من اللغة الاجنبية الغريبة ، لكنه احس بشىء من الحرج حينما ادرك انه كان موضع الحديث . وكان الملازم الروسى يصغى الى الانكليزى مبتسماً ، وفى غضون ذلك أدخل يده منقباً فى احدى الحقائب وقال :

— يقول الملازم كامبل انه يكن احتراماً كبيراً للقوزاق ، وانه يعتبرهم فرساناً مهرة ومحاربين ممتازين . أتود ان تأكل شيئاً ؟ هل تشرب ؟ يقول ان الخطر يقارب بين الناس . . . اوه حسن ، انه يقول شتى انواع السخافات !

وأخرج الملازم من الحقيبة عدداً من العلب وقنينتين من البراندى ، وانحنى عليها ثانية وهو لا يكف عن الترجمة :

— يقول انه لقى ترحيباً طيباً لدى الضباط القوزاق فى اوست-مدفديتسكايا . شربوا برميلاً هائلاً من خمرة الدون . حتى كان الجميع فى غاية السكر ! وقضوا وقتاً مرحاً جداً مع بعض فتيات المدارس . انت تدرى كيف تكون هذه الاوقات ! ولهذا فانه يعتبر مقابلة كرمهم بالمثل واجباً مسراً بالنسبة له . وانت ستكون الضحية . حسن ، اننى آسف لك . . . هل تشرب ؟

فأجاب غريغورى : — شكراً . نعم .

وهو يسترق النظر الى يديه اللتين اسودتا بوسخ غبار الطريق وجلد عدة حصانه . وضع الملازم العلب على المنضدة وفتحها بسكين فتحة خبير .

— أتدرى ، انه يوشك ان يزهق روحى ، ايها النقيب ، هذا الخنزير الانكليزى ! يشرب من الصبح الى الليل . لا ينفك يصب فى جوفه . لا ضير فى الشرب بالنسبة لى ، ولكن ليس

بهذا المعدل الهوميروسى * — والقى نظرة صوب الانكليزى مبتسماً ثم ، ولدهشة غريغورى ، أطلق كفراً فظيعاً . — اما هذا فيشرب حتى وهو خاوى المعدة .

فهز الملازم الانكليزى رأسه بابتسام وقال فى روسية ركيكة :

— نعم ، نعم ، لازم نشرب نخبك .

فضحك غريغورى ودفع ناصيته الى الوراء . لقد احس بميل تجاه هذين الرجلين . اما الملازم الانكليزى ، بابتسامته الخرقاء وطريقته المضحكة فى التحدث بالروسية ، فقد كان رائعاً .

قال الملازم وهو يمسح الاقداح :

— مضى عليّ اسبوعان وانا لصيق به ، ما رأيك فى هذه الحالة ؟ انه يدرب رجالنا على كيفية قيادة الدبابات التى الحقت بفيلقنا الثانى ، ولقد عينونى مترجماً له . المصيبة اننى اتكلم الانكليزية بطلاقة ، وهذه هى مأساتى . . . ان جماعتنا يشربون ولكن ليس على هذه الشاكلة . سوف ترى بنفسك قابليته ، انه يستطيع ان يفرغ اربع او خمس قنان من البراندى فى اليوم على فترات . ولن يثمل . ويستطيع ان يعمل حتى بعد شربه كمية كهذه . لقد أزهق روحى ! لا بد انه يوجد خلل ما فى معدتى ، فانا استيقظ كل يوم بحالة نفسية فظيعة واكون مشبعاً بالكحول الى درجة أخشى معها الجلوس بجوار فانوس مشتعل . . . ذلك شىء لا يدرك كنهه الا الشيطان !

وبينما كان يتحدث ، ملأ قدحين حتى الحافة وصب لنفسه شيئاً قليلاً . فنظر الانكليزى الى الاقداح ، وجعل يتكلم بحماسة وهو يتضاحك ، وكان الملازم الروسى يجيب ويده تتلمس موضع

---

* نسبة الى الشاعر الاغريقى هوميروس . **المترجمون** .

قلبه ، ولا تومض عيناه العطوفان السوداوان بالغضب ونفاد الصبر الا من حين لآخر .

قرع غريغورى الاقداح مع مضيفيه الكريمين وشرب البراندى جرعة واحدة . فهتف الانكليزى معجباً : «اوه !» ونظر الى مترجمه بازدراء ، وهو يرتشف من قدحه .

كانت يدا الملازم الانكليزى الكبيرتان ، مثل ايدى العمال ، موضوعتين على المنضدة . وكانت هناك آثار من شحم المكائن فى مسامات جلده الذى اخشوشن من اثر استعمال البنزين والندب القديمة . غير ان وجهه كان ممتلئاً ، ناعماً ، أحمر . وكان التضاد بين الوجه واليدين كبيراً الى درجة ان غريغورى كاد ان يحسب الملازم واضعاً قناعاً على وجهه .

قال الملازم الروسى ، وهو يملأ قدحى صاحبيه حتى الحافة :

— انك تنقذنى !

فتساءل غريغورى :

— الا يشرب بمفرده ؟

— تلك هى المصيبة ، يشرب بمفرده فى الصباح ، لكنه لا يستطيع ذلك فى المساء . حسن ، لنشرب .

— مشروب قوى . . .

ورشف غريغورى من قدحه قليلاً ، لكنه حينما أحس بنظرة الانكليزى المستغربة أفرغ البقية فى فمه .

— يقول انك رجل طيب . يحب طريقتك فى الشرب .

فقال غريغورى مبتسماً :

— لن يضيرنى ان نتبادل مأمورياتنا ، انا وانت !

— اننى واثق من انك ستهرب منه خلال اسبوعين .

— من عمل خفيف كعملك ؟

— سوف أهرب انا من هذا العمل الخفيف باية حال .

— الامر أدهى فى الجبهة .

— هنا جبهة أيضا . قد تصيبك رصاصة أو شظية قنبلة هناك ، ولكن ذلك ليس شيئاً محتماً ، بينما سأصاب هنا بهذاء السكارى * حتماً . ذق شيئاً من هذه الفاكهة المعلبة . أترغب فى شىء من القديد ؟

— شكراً ، لدى شىء منه .

— البريطانيون حاذقون فى مثل هذه الأعمال . انهم لا يطعمون جيشهم كما نطعم نحن جيشنا .

— وهل نطعم نحن جيشنا أصلاً ؟ ان جيشنا يعتاش على البلاد كلها .

— صحيح تماماً ، لسوء الحظ . انه النظام الذى يطعم رجالك دون أن يحملك بعيداً ، خصوصاً اذا كنت تدعهم يسلبون الناس فى الوقت والطريقة التى يشاؤون .

فنظر غريغورى باهتمام الى الملازم الروسى وسأله :

— وهل تتوقع الذهاب بعيداً ؟

— اننا جميعاً ماضون فى الطريق نفسها . لماذا تسأل ؟

ولم يلاحظ الملازم الروسى أن صاحبه الانكليزى تناول القنينة وملأ قدحه حتى حافته . فابتسم غريغورى وقال :

— والآن عليك أن تشربه .

فنظر الملازم الى قدحه وتأوه :

— أوه ، يا وآلهى !

---

* هذاء السكارى : هذيان مع ارتجاف شديد يصيبان شارب الكحول بكميات كبيرة أو لمدة طويلة . **المترجمون** .

وكست وجنتيه حمرة خفيفة .

وتقارع الثلاثة بالأقداح فى صمت وشربوا .

واستأنف غريغورى الحديث وقد قطّب جبينه وهو يحاول ، عبثاً ، التقاط مشمشة زلقة بشوكته :

— أجل ، اننا جميعاً ماضون فى الطريق نفسه . . . سيحيد بعضنا عنه آجلاً ، وبعضنا عاجلاً ، كما هو الأمر حينما نكون فى قطار . . .

— ألا تتوقع أن تمضى بالرحلة حتى المحطة الأخيرة ؟

أحس غريغورى أنه كان فى طريقه الى السكر ، ولكن المشروب لم يكن قد غلبه بعد . فأجاب ضاحكاً :

— لن يكون لدى من المال ما يكفى لشراء تذكرة للطريق كله . ماذا عنك ؟

— أنا فى موقف مغاير . فانا حتى لو طردت منه طرداً ، فلسوف أمشى بقية الطريق على قدمى .

— حظاً سعيداً لك ، اذن . لنشرب .

— سنشرب ، فاول الغيث قطر . . .

وقرع الملازم البريطانى قدحه مع غريغورى ومترجمه ، وشرب فى صمت ، يكاد لا يأكل شيئاً . وكان وجهه قد استحال أحمر كالقرميد ، وعيناه غدتا أكثر التماعاً ، واتسمت حركاته ببطء وفتور . وقبل أن يجهز على القنينة الثانية ، قام ، باذلاً شيئاً من الجهد ، وخطا بثبات نحو الحقائب وعاد حاملاً ثلاث قنان أخر من البراندى . فوضعها على المنضدة وابتسامة تلوح فى زاويتى شفتيه وقال شيئاً ما بصوته العميق .

— يقول الملازم كامبل اننا يجب أن نطيل متعتنا . عسى ان يزهق الشيطان روحه ! كيف تشعر ؟

فأجاب غريغورى :

— انا بخير .

— أية طاقة لدى هذا الرجل ! ان فى جسده الانكليزى روح تاجر روسى . يبدو أننى سكرت . . .

فقال غريغورى كاذباً :

— لا يبدو عليك .

— لا يبدو على ، بالله عليك ! اننى ضعيف مثل عذراء . . . لكننى لا أزال متمكناً من زمام مسؤولياتى . أجل ، ومتمكناً منها جيداً .

وظهر السكر على الملازم الروسى بشكل ملحوظ بعد أن شرب قدحاً مملوءاً . وأصبحت عيناه السوداوان زيتيتين ومحولتين بعض الشىء ، وانبسطت عضلات وجهه ، وأبت شفتاه أن تطاوعاه ، وسرت ، كالنبض ، ارتعاشات عصبية فى وجنتيه الناعمتين . لقد ترك البراندى مفعولاً مدمراً فيه . ولاح على وجهه ما يظهر على بوز ثور عند الذبح بعد أن تنزل على جمجمته مطرقة من زنة عشرة أرطال .

واكد غريغورى كلامه قائلاً :

— لا زلت على أفضل هيئة . لقد اعتدت عليه ولا يبدو أنه يؤثر فيك مطلقاً .

وكان غريغورى ، هو الآخر ، قد ظهر عليه السكر ، بيد أنه شعر أنه لا يزال فى مستطاعه شرب المزيد من البراندى .

وتساءل الملازم الروسى منتعشاً :

— أأنت جاد ؟ أجل ، كنت فى البداية أشعر بشىء من المرارة ، أما الآن فاننى مستعد لأيما شىء ! أيما شىء ! اننى أميل اليك ، أيها النقيب . ان فيك شيئاً من القوة والاخلاص .

وأنا أحب ذلك . حسن ، فلنشرب نخب بلاد هذا الأحمق الكبير . أنا أدرى أنه حيوان ، لكن بلاده مكان رائع . «بريطانيا ، يا بريطانيا ، ابسطى سيطرتك على الأمواج !» هل سنشرب ؟ ولكن ، ليس حتى الثمالة . نخب بلادك ، يا مستر كامبل !

وقطب الملازم الروسى وجهه على نحو بائس وشرب ، ثم تناول قضمة من اللحم القديد . واستأنف كلامه :

— بلاد رائعة ، يا آمر السرية . انك تعجز عن تصورها ، أما أنا فقد عشت هناك . . . حسن ، لنشرب .

— مهما كان شكلها ، فان أرضك الأم أعز على القلب دائماً من أرض غيرك .

— لن نتجادل حول هذا ، لنشرب .

— لنشرب .

— ان على بلادنا أن تحرق عفنها بالنار والسيف ، غير أننا لا حول لنا ولا قوة . ولقد كشفت الحوادث عن حقيقة أننا بلا وطن . سحقا ، ليذهب الوطن الى الشيطان ! ان كامبل لا يعتقد بأننا قادرون على مقارعة الحمر .

— صحيح ؟

— أى ، نعم . ان فكرته عن جيشنا سيئة ، وهو يمتدح الحمر .

— هل شارك فى المعارك ؟

— أى ، طبعاً . كاد الحمر أن يأسروه . اللعنة على هذا البراندى !

— مشروب قوى . قوى كالكحول ، أليس كذلك ؟

— ليس تماماً . الخيالة أنقذت كامبل ، ولولاهم لوقع فى قبضة الحمر . كان ذلك فى قرية جوكوف . استولى الحمر

على احدى دباباتنا . . . يبدو عليك الحزن . ما السبب ؟

— ماتت زوجتى منذ أمد ليس ببعيد .

— أمر فظيع . هل خلّفت أطفالاً ؟

— نعم .

— نخب صحة أطفالك . ليس لدى أطفال ، أو ربما لدى . فاذا كان عندى أطفال ، فمن المرجح أنهم يبيعون الصحف الآن فى الشوارع فى مكان ما . . . لكامبل خطيبة فى انكلترا . يكتب لها فى انتظام ، مرتين فى الأسبوع . لا بد أنه يكتب لها الكثير من الترهات . انى أكاد أكرهه . ماذا قلت ؟

— أنا لم أقل شيئاً . لماذا يحترم الحمر ؟

— من قال انه يحترمهم ؟

— أنت قلت .

— مستحيل . انه لا يحترمهم . أبداً ، انت مخطئ . لكننى سأسأله .

واستمع كامبل باهتمام الى سؤال الملازم السكران الشاحب ، ثم شرع باعطاء جواب مطول بالانكليزية . ومن غير أن ينتظر غريغورى اكمال جوابه ، سأل :

— ما الذى يثرثر به ؟

— رأى مشاتهم يهاجمون الدبابات وأحذية لبفية فى أقدامهم . هل هذا كاف ؟ يقول ان الشعب لا يمكن قهره . يا للأحمق ! لا تصدق بكلامه .

— ولمَ لا ؟

— ان الفكرة برمتها خاطئة .

— ولماذا ؟

— انه سكران ، وينطق هراء . ماذا يعنى . . . الشعب

لا يمكن قهره ؟ بعضهم يمكن أن يفنى والبقية يجبرون على الطاعة . كم قنينة شربنا حتى الآن ؟

وتهاوى الملازم الروسى على المنضدة ، قالباً علبة فاكهة ، ولبث جالساً زهاء عشر دقائق ووجهه فوق ذراعيه وهو يجر أنفاساً ثقيلة .

فى الخارج ، كانت الليلة حالكة السواد ، والمطر يضرب الأباجورات . ومن بعيد ، كان هدير يتناهى الى الأسماع ، ولم يستطع غريغورى أن يتبين ما اذا كان ذلك هدير رعد أو قذائف مدافع . فى حين لبث كامبل جالساً وهو يرتشف البراندى وقد تلفّع بغلالة من دخان السيكار . فهز غريغورى المترجم وقال وهو يقوم ، متمايلاً ، على قدميه :

— هيا ، اسأله لماذا سيهزمنا الحمر ؟

فجمجم الملازم الروسى محنقاً :

— عليك اللعنة !

— هيا ، اسأله .

— عليك اللعنة ! اذهب الى الشيطان !

— اقول لك ، اسأله .

فنظر الملازم الروسى الى غريغورى لحظة بعينين متوحشتين ، ثم تمتم بشىء الى الانكليزى المتيقظ ، وأهوى رأسه من جديد فوق ذراعيه . فنظر اليه كامبل بابتسامة مزدرية ، ومس كم سترة غريغورى وحاول ان يوضح الجواب بصمت . فدفع نواة مشمشة الى وسط المنضدة ووضع راحته الكبيرة الى جانبها ، ثم طق لسانه فجأة وغطى النواة براحته .

فتمتم غريغورى فى سريرته متفكراً :

— ذكى انت ، ها ؟ كان بمستطاعى ان اقول الشىء نفسه . . .

وتقدم من الملازم المضياف ، وهو يترنح على قدميه ، ومد ذراعه فوق المنضدة وانحنى قائلاً :

— شكراً لضيافتك . الى اللقاء . أتدرى ما اريد ان اقوله لك ؟ عد الى بلادك بسرعة قبل ان يطاح برأسك هنا . هذه هى الحقيقة الخالصة . أتفهمنى ؟ لا داع لديك للتدخل فى شؤوننا . أتفهمنى ؟ ارجوك ، عد الى بلادك ، يا فتاى ، والا فستحصل على زوج من العكازات هنا !

فوقف الملازم وانحنى ، وشرع من جديد يتكلم بحماسة ، وهو يرمق مترجمه النائم فى يأس ويربت بيشاشة على ظهر غريغورى .

عثر غريغورى بصعوبة على اكرة الباب ، ومضى الى السقيفة مترنحاً ، فلفح وجهه مطر خفيف مائل السقوط . واضاءت ومضة برق الفناء الواسع والسياج المبلل والاوراق المتلامعة لاشجار البستان . بينما كان غريغورى ينزل الدرجات ، انزلق وسقط على الارض ، وحينما أنهض نفسه سمع اصواتاً . كان احدهم يتساءل وهو يشعل عود ثقاب فى المجاز :

— اولئك الضباط لا يزالون يشربون ؟

فرد صوت اجش :

— سيشربون . . . ويشربون حتى يختنقوا .

٢٠

كما فى عام ١٩١٨ ، عاد جيش الدون ، بعد ان اجتاز حدود منطقة الخوبر ، ففقد زخمه الهجومى . اذ كان قوزاق الدون الاعلى المتمردون ، والعديد من قوزاق نهر الخوبر ايضاً ، لا يزالون غير راغبين فى القتال خارج اقليم الدون . كما أنهم

كانوا يجابهون مقاومة أقوى من وحدات الجيش الأحمر التى كانت قد عززت وكانت تعمل آنذاك فى أرض يتعاطف سكانها المحليون معهم . ومن جديد عاد القوزاق يميلون الى التحول لاتخاذ موقف الدفاع ، وما كان باستطاعة قيادة الجيش الأبيض ، مهما استعملت من دهاء ، أن تجبرهم على القتال بمثل العناد الذى كانوا قد أظهروه مؤخراً فى اقليمهم هم ، على الرغم من أن ميزان القوى فى ذلك القطاع كان فى صالحهم ، اذ كان الجيش الأحمر التاسع المشتت بقوته المؤلفة من ١١٠٠٠ حامل حربة و٥٠٠٠ حامل سيف و٥٢ مدفعاً يجابه قطعات القوزاق المؤلفة من ١٤٤٠٠٠ حامل حربة و١٠٦٠٠ حامل سيف و٥٣ مدفعاً .

وجرت أكثر العمليات فعالية فى أجنحة الجبهة ، وخصوصاً حيث كانت تعمل وحدات جيش متطوعى الكوبان الجنوبى . وفى الوقت نفسه كان جزء من جيش المتطوعين بقيادة الجنرال فرانجل يمارس ، بعد تقدمه الناجح داخل أوكرانيا ، ضغطاً قوياً على الجيش الأحمر العاشر ، محاولاً اجباره على التراجع ، وحينما جابه مقاومة عنيفة تحرك باتجاه ساراتوف . وفى ٢٨ تموز ، استولت خيالة الكوبان على بلدة كاميشين وأسروا عدداً كبيراً من القوة المدافعة . وشنّ الجيش الأحمر العاشر هجوماً مضاداً ، غير أنه ردّ . ولما كان الجناح الأيسر للجيش الأحمر العاشر مهدداً بفرقة خيالة كوبانية لا تنفك تكرّ عليه بجرأة ، فان الجيش برمّته انسحب الى محور بورزنكوفو–لاتيشيفو–كراسنى يار–كامنكا–بانويه . وآنذاك كان الجيش العاشر مؤلفاً من ١٨٠٠٠ حامل حربة و٨٠٠٠ حامل سيف و١٣٢ مدفعاً ، فى حين كان جيش متطوعى الكوبان يتألف من ٧٦٠٠ حامل حربة

و١٠٧٥٠ حامل سيف و٦٨ مدفعاً . وبالاضافة الى ذلك ، فقد كان البيض مسندين بوحدات دبابات وبعدد كبير من الطائرات التى كانت تستعمل لأغراض الاستطلاع والهجوم معاً . ولكن ، لم تستطع طائرات فرانجل الفرنسية ولا دباباته ومدافعه البريطانية أن تساعده ، فلم يتقدم الى أبعد من كاميشين . وقد أدى القتال الطويل العنيد الذى استمر فى هذا القطاع الى احداث بضعة تغييرات فى خط الجبهة .

فى نهاية تموز ، بدأت الجيوش الحمراء تستعد لشن هجوم واسع النطاق على القطاع الجنوبى من الجبهة الجنوبية . وجمع الجيشان التاسع والعاشر ليكوّنا قوة ضاربة تحت قيادة شورين . أما بالنسبة لقوتهما الاحتياطية ، فقد تقرر أن تسحب فرقتان من منطقتى الدفاع فى كازان وساراتوف فى الجبهة الجنوبية ، على أن تجرى تقوية القوة الضاربة نفسها بقوات من احتياطى الجبهة وفرقة المشاة السادسة والخمسين . كما تقرر أيضاً انزال ضربة مساعدة بواسطة قوات الجيش الثامن تساندها فرقتان اضافيتان .

جرى انتقال للهجوم على أساس الشروع به الأيام العشرة الأولى من شهر آب . وكانت خطة القيادة العليا للجيش الأحمر أن يكون هجوم الجيشين الثامن والتاسع مصحوباً بحركات التفاف على الأجنحة ، وأن يعهد الى الجيش العاشر بمهمة معقدة وحيوية بشكل خاص ، هى الاشتباك مع العدو فى الجانب الأيسر من الدون وفصل قواته الرئيسية عن القفقاس الشمالى . وفى الغرب ، تقرر أن يستخدم جزء من الجيش الرابع عشر للقيام بزحف للخديعة باتجاه محور تشابلينو–لوزوفايا .

وبينما كان الجيشان التاسع والعاشر ينفّذان عملية اعادة التجميع المقترحة ، كانت القيادة البيضاء تكمل تكوين فيلق

الجنرال مامونتوف ، لغرض تقويض هجوم الحمر ، وكانت تأمل أن تنفذ بهذا الفيلق خلال الجبهة وتشن غارة قوية على مؤخرة الجيوش الحمراء . وقد أدى نجاح جيش فرانجل فى ناحية تساريتسين الى توسيع جبهة فرانجل من الجانب الأيسر ، وبالتالى الى تضييق جبهة جيش الدون بحيث أصبح فى الامكان سحب عدة فرق خيالة منها . وفى السابع من آب ، حشد فى منطقة أورويوبنسكايا ٦٠٠٠ حامل سيف و٢٨٠٠ حامل حربة وثلاث بطاريات من ذوات الأربعة مدافع . وفى العاشر منه ، دقّ فيلق الجنرال مامونتوف اسفيناً بين الجيشين الأحمرين الثامن والتاسع وضرب باتجاه تامبوف .

وكانت نية القيادة البيضاء الأصلية دعم غارة مامونتوف على مؤخرة الجيوش الحمراء بفيلق خيالة الجنرال كونوفالوف ، غير أن القتال العنيف الذى نشب فى قطاع الجبهة الذى يسيطر عليه كونوفالوف جعل من المستحيل عليه سحب فيلقه لهذا الغرض . وهذا هو العامل الذى يفسر الصفة المحدودة للمهمة التى كلّف بها مامونتوف الذى صدرت اليه الأوامر بالامتناع عن التوغل مسافة بعيدة داخل المؤخرة أو التفكير بالزحف على موسكو ، وأن يعود للالتحاق بالجيش الأبيض الرئيسى حالما يكون قد فرغ من تحطيم مواصلات وخدمات مؤخرة العدو . وكانت التعليمات الأصلية التى أعطيت لمامونتوف وكونوفالوف تقضى بأن يسددا ضربة قاصمة الى جناح ومؤخرة الجيوش الحمراء المركزية ، ثم يمضيان ، فى مسيرات اجبارية ، باتجاه أعماق روسيا ، ويكملان قواتهما برجال من فصائل السكان المعادية للسوفييت ، ثم يشقان طريقهما نحو موسكو .

أفلح الجيش الأحمر الثامن فى استعادة موقعه على جناحه

الأيسر باستدعاء قواته الاحتياطية . غير أن جناح الجيش التاسع الأيمن أصيب بأضرار أفدح . ونجح قائد القوة الضاربة الرئيسية ، شورين ، فى سد الثغرة ما بين الجيشين من الداخل ، الا أنه لم يستطع ايقاف تقدم خيالة مامونتوف . وأصدر شورين أمره الى فرقة الاحتياط السادسة والخمسين بسد الطريق على مامونتوف . وقد قضى على أحد أفواج هذه الفرقة ، الذى كان قد نقل على عربات وأرسل سلفاً الى محطة سامبور ، أثناء صدام رأسى مع مفرزة جناح من فيلق مامونتوف . وقد لقى المصير ذاته لواء الخيالة التابع لفرقة المشاة السادسة والثلاثين الذى كان قد نقل لحماية سكة حديد تامبوف — بالاشوف . وقد تمّ القضاء على هذا اللواء بعد اشتباك قصير مع خيالة مامونتوف برمتها .

فى الثامن عشر من آب ، اندفع مامونتوف الى داخل تامبوف . لكن هذا الحدث لم يمنع قوة شورين الضاربة من شنّ هجومها ، بالرغم من أنه تعين تخصيص فرقتى مشاة بكاملهما تقريباً لمقارعة مامونتوف . وفى الوقت نفسه ، شرع بشن هجوم على القطاع الاوكرانى من الجبهة الجنوبية .

وبدأت الجبهة تتسع ، وكانت آنذاك قد امتدت فى الشمال والشمال الشرقى فى خط يكاد يكون مستقيماً من ستارى أوسكول الى بالاشوف مع امتداد باتجاه تساريتسين . وانسحبت كتائب القوزاق تحت ضغط قوات متفوقة عليها ، باتجاه الجنوب ، وهم يشنون هجمات مضادة متتالية ويعملون على اعاقة تقدم العدو فى كل نقطة قوية . وحينما حطوا أقدامهم على أرض قوزاقية استعادوا قابليتهم القتالية التى كانوا قد فقدوها حينما ابتعدوا عن أرضهم . فانقطعت حوادث الفرار بشكل حادّ ، وتدفقت التعزيزات من مناطق الدون الأوسط . وكلما كانت قوة

شورين الضاربة تنفذ الى داخل اقليم جيش قوزاق الدون ، كانت مقاومة القوزاق تشتدّ عنفواناً وضراوة . وفى اجتماعات القرى ، دعا قوزاق المناطق المتمردة فى الدون الأعلى بأنفسهم الى التعبئة العامة ، وأقاموا الصلوات فى الكنائس ثم انطلقوا الى الجبهة رأساً .

وفيما كانت قوة شورين تشق طريقها باتجاه الخوبر والدون ، قاهرة مقاومة البيض المريرة ونافذة أعمق فأعمق داخل الأرض التى كان سكانها المحليون أعداء مكشوفين للجيش الأحمر ، بدأت تفقد زخم اندفاعها الأولى شيئاً فشيئاً . وفى الوقت نفسه ، كانت القيادة البيضاء فى كاتشالينسكايا ومحطة كوتوليان قد أعدّت مجموعة قوية للمناورات مؤلفة من ثلاثة فيالق كوبانية وفرقة المشاة السادسة بغية شن هجوم على الجيش الأحمر العاشر الذى كان يمضى فى هجومه بنجاح ساحق .

٢١

فى غضون اثنى عشر شهراً ، تقلصت عائلة ميليخوف الى النصف . كان بانتلاى محقاً حينما قال ذات يوم بأن الموت قد افتتن بدارهم . فلم يكادوا يفرغون من دفن ناتاليا حتى عادت رائحة البخور وأزهار الذرة تملأ غرفة الضيوف الفسيحة فى دار آل ميليخوف . فبعد عودة غريغورى الى الجبهة بزهاء عشرة أيام ، أغرقت داريا نفسها فى الدون .

ففى يوم السبت ، وبعد العودة من الحقول ، ذهبت مع دونيا للاستحمام . فخلعتا ملابسهما فى الحدائق الواقعة تحت المطبخ ولبثتا زمناً طويلاً جالستين على الحشيش الناعم المداس .

كانت داريا منذ الصباح الباكر منحرفة المزاج ، تشكو من صداع الرأس والانحلال ، وانخرطت عدة مرات فى بكاء مرير . وقبل أن تنزل دونيا فى الماء ، عقدت شعرها بعصابة رأس مثلثة ، وقالت فى اشفاق وهى تنظر الى داريا بطرف عينها :

— لكم أمسيت نحيلة يا داريا . لقد بانت كل عروقك .

— سأتحسن عما قريب .

— وهل زال صداعك ؟

— أجل . حسن ، لنستحم ، فالوقت متأخر .

وركضت داريا نحو الماء . فغطست فيه ، ثم ارتفعت فوقه ، دافعة الماء خلل أنفها وفمها ، وجعلت تسبح نحو وسط النهر . وتلقفها التيار السريع وبدأ يحملها بعيداً .

خاضت دونيا حتى بلغ الماء خصرها ، وهى تراقب داريا فى إعجاب فيما كانت تنطلق الى أمام بضربات رجولية قوية ، ثم اغتسلت وبللت صدرها وذراعيها القويين الملفوحين والمكورين على نحو أنثوى بديع . وكانت زوجتا ولدى أوبينيزوف تسقيان الكرنب فى حديقة مجاورة ، وسمعتا دونيا تنادى داريا ضاحكة :

— عودى ، يا داريا ، والا ستأكلك قرموطة ! *

فاستدارت داريا ، وسبحت مسافة قصيرة أخرى ، ثم دفعت نفسها فجأة خارج سطح الماء الى حد خصرها ، ولوت ذراعيها خلف رأسها وهتفت :

— وداعا ، أيتها النسوة !

وهوت الى داخل الماء كما يهوى حجر .

بعد زهاء خمس عشرة دقيقة ، لم تضع دونيا على جسدها

---

* قرموطة : نوع من السمك . المترجمون .

غير قميصها الداخلى ، وقد استحال وجهها ابيض ، وهرعت الى الدار . ولهثت بالكلمات :

— داريا غرقت ، يا ماما !

لم يعثروا على جثة داريا الا فى اليوم التالى ، وبواسطة شباك الصيد . ففى فجر ذلك اليوم ألقى أرخيب بسكوفاتسكوف ، أكبر صيادى تتارسكى سناً وأغناهم خبرةً ، بأطراف شباكه الست عبر التيار تحت الموضع الذى غرقت فيه داريا ، وعاد مع بانتلاى فيما بعد ليفحص الخيوط . وكان ثمة حشد من الأطفال والنساء متجمع على الشاطئ ، بينهم دونيا . وحينما كان يرفع الخيط الرابع بمقبض مجذافه ، وكان قد ابتعد عن الشاطئ بحوالى ستين قدماً ، سمعته دونيا بوضوح وهو يتمتم :

— يبدو أن هذا هو المطلوب .

وشرع يسحب الشبكة بمزيد من الحذر ، باذلاً جهداً واضحاً فى جر الخيط الذى كان متجهاً الى الأعماق بشكل شاقولى . ثم ظهر شىء أبيض من الجهة المقابلة للجانب الأيمن للنهر ، فانحنى كلا العجوزين فوق الماء ، فضرب الماء حافة ظهر القارب ، وتناهى الى آذان الحشد الصامت صوت ارتطام الجثة حينما ألقيت فى القارب . فسرت فيهم جميعاً قشعريرة مفاجئة . وأجهشت احدى النساء تنشج بصمت . زعق كريستونيا فى الأطفال ، وكان يقف على مبعدة قليلة :

— هيا ، انقشعوا !

ورأت دونيا خلل دموعها أرخيب يقف فى مؤخرة القارب ويجذف بمهارة وصمت بمجذاف واحد تجاه الشاطئ . وانسحب القارب على حصى الشاطئ الكلسى محدثاً خشخشة وصريراً . كانت داريا ممدّدة وقد طويت ساقاها كالجماد ، وخدها لصيق

بقعر القارب . وكان جسدها الأبيض قد شرع يستحيل أزرق ، وبانت فى اللحم حفر عميقة من أثر الصنارات . وعلى ربلة ساقها السمراء اللدنة ، تحت الركبة مباشرة ، وبجانب ربطة الساق الكتانية التى لا بد أنها قد نسيت أن تخلعها قبل نزولها الى الماء ، كان ثمة جرح وردى جديد ينزف قليلاً . وكان رأس صنارة قد حفر ساقها فى خط متعرج مشقوق .

كانت دونيا أول من اقترب من داريا ، وهى تدعك وزرتها فى حركة تشنجية ، وغطت الجثة بزكيبة شُقت حتى أسفل درزاتها . وشمّر بانتلاى أطراف بنطلونه فى عجالة منتظمة ، وسحب القارب فوق الجرف . وبعد دقيقة أو دقيقتين جىء بعربة ونُقلت داريا الى دار ميليخوف .

وتعاونت دونيا مع أمها ، وهى تحاول أن تسيطر على خوفها وشعورها بالتقزز ، فغسلتا الجثة الباردة التى كانت لا تزال تحتفظ ببرودة تيار الدون العميق . كان ثمة شىء ما غريب وصارم فى وجه داريا المتورم قليلاً ، وفى الألق الباهت لعينيها اللتين غدتا كالزجاج بعد بقائهما مغمورتين بالماء يوماً كاملاً . وفى شعرها كانت تتوهج ذرات رمل فضية ، وعلى وجنتيها التصقت خيوط بليلة من الأعشاب المائية ذات لون أخضر باهر ، وفى ذراعيها المنبسطتين والمتدليتين من المصطبة ، فى بؤس ووهن ، كانت صورة الهمود المطبق مريعة بحيث ما ان ألقت دونيا نظرة عابرة عليهما حتى انكفأت الى وراء بسرعة ، وقد أذهلها وأرعبها الانعدام الكلّى لأى شبه بين هذه المرأة الميتة وداريا الساخرة الضحوك التى كانت تعشق الحياة أيما عشق . وصارت دونيا زمناً طويلاً ، غب ذلك ، كلما تذكرت الهمود الصخرى لثديى داريا وبطنها وتوتر أطرافها المتصلبة ، تختض فى تشنج عصبى

وتحاول ما فى وسعها لنسيان ذلك كله . وغدت تخشى أن تراودها المرأة الميتة أثناء نومها فى الليل ، فلبثت أسبوعاً كاملاً تنام فى سرير ايلينشنا ، وتدعو من الله قبل أن تأوى الى الفراش :

— رباه ، لا تجعلنى أحلم بها . احمنى ، يا آلهى !

لو لم تسمع زوجتا ولدى أوبنيزوف داريا تهتف : «وداعا ، أيتها النسوة !» ، لدفنوها فى صمت ومن غير ما ضجة . لكن الأب فيساريون ، حينما سمع بنبأ تلك الصيحة الأخيرة التى أبانت بوضوح أن داريا كانت عازمة على الانتحار ، أعلن باصرار أنه لن يقوم بدفن المنتحرة . فاستبد الهياج ببانتلاى :

— ماذا تقصد ، من أنك لن تدفنها ؟ ألم تعمّد ، أم ماذا ؟

— أنا لا أستطيع أن أدفن المنتحرين . القانون لا يبيح ذلك .

— اذن ، فكيف تدفن ، فى رأيك ؟ كما يدفن كلب ؟

— فى رأيى ، تدفنها كيفما شئت وحيثما شئت ، الا فى المقبرة حيث يدفن المسيحيون الشرفاء .

فحاول بانتلاى بروكوفتش أن يقنعه :

— كن شفيقا بعض الشىء . نحن لم نعرف عاراً كهذا فى عائلتنا من قبل .

الا أن القس أصرّ على موقفه بعناد :

— لا أقدر . اننى أكنّ لك احتراماً كبيراً ، يا بانتلاى بروكوفتش ، باعتبارك مثالاً يحتذى فى خدمة الكنيسة ، لكننى لا أقدر . يصل الخبر الى رئيس الشمامسة ، ولن أستطيع تجنب العواقب .

كان ذلك عاراً . جرّب بانتلاى كل وسيلة لاقناع القس

20—1410

العنيد ، فوعده بدفع المزيد له ، وبروبلات قيصرية معتمدة ، وعرض عليه اهداءه حملاً صغيراً . وحين أدرك أن نقاشه لم يجد نفعاً ، لجأ الى التهديد :

— لن أدفنها خارج المقبرة . انها ليست مخلوقاً سائباً بالنسبة لى ، فهى زوجة ابنى . زوجها سقط اثناء المعارك ضد الحمر وكان فى مرتبة ضابط ، وهى نفسها مُنحت وسام القديس غيورغي ، ورغم ذلك أراك تلغط بالترهات أمامى ! لا ، أيها الأب ، لن يجدى ذلك معى . ستقوم بدفنها مثلما أخبرك تماماً . لتظل الآن ممددة فى غرفة الضيوف عندنا فى الوقت الراهن ، وسأقوم باخبار أتمان المنطقة حول الموضوع . سيكلمك هو.

وغادر بانتلاى دار القس بلا كلمة وداع ، وفى غمرة هياجه صفق الباب بشدة . غير أن التهديد أجدى . فبعد نصف ساعة قدم ساع من القس ليقول بأن الأب فيساريون سيصل بعد قليل لتلاوة الصلوات .

دفنوا داريا باللياقة المناسبة فى المقبرة بجوار بيوتر . وحينما كانوا يحفرون القبر ، احب لنفسه هذا الموضع . ففيما كان يعمل بمجرفته ، أجال ببصره فيما حوله وحدّث نفسه بأنه لن يجد موضعاً أفضل لنفسه ؛ ولم يكن من الجدير البحث عن غيره . ففوق قبر بيوتر كانت شجرة حور زرعت مؤخراً تخشخش بأغصانها الطرية . كان الخريف المقبل قد صبغ أوراق قمتها بصبغة الذبول الصفراء المريرة . وكانت حملان قد حادت عن دربها وولجت عبر السياج المهدوم الى ما بين القبور . وكان الطريق المؤدى الى الطاحونة يمر بحذاء السياج ، والأشجار التى شتلتها الأيدى المشفقة لأقارب الموتى — أشجار غرب وحور وأكاسيا ، والأشواك البرية — تقف ثمة مرحبة ، خضراء يانعة . ومن حولها

كانت النباتات المتسلقة ملتفة فى كثرة وحيوية ، والشلغم المتأخر مصفراً ، والشوفان البرى ظهرت سنابله بنجم مثقل بالحب . ووقفت الصلبان ملفوفة ، من أسافلها حتى أعاليها ، بمتسلقات زرقاء اللون ، أليفة . كان الموضع ، بما لا يقبل الشك ، بهيجاً ، وأرضه جافة . . .

كان الشيخ يحفر القبر وكثيراً ما يترك مجرفته ويجلس على الارض الطينية الرطبة وهو يدخن ويفكر عن الموت . ولكن ، كما يبدو ، لم يحن الوقت ليستطيع الشيوخ ان يموتوا بهدوء وسلام فى ضياعهم ويرقدوا فى مثاويهم الاخيرة بجانب ابائهم واجدادهم . . .

داريا دُفنت ، فأضحى بيت ميلخوف أكثر صمتاً من قبل . نقلوا الحبوب بالعربات ، درسوها ، وجمعوا حاصلاً كبيراً من مزرعة البطيخ . كانوا يتوقعون ورود أنباء من غريغورى ، ولكن لم يأت منه خبر منذ أن غادرهم الى الجبهة . وقالت ايلينيشنا أكثر من مرة :

— الشيطان لا يرسل حتى تحيات الى طفليه . ماتت زوجته ، فلم يعد بحاجة الى أى منا . . .

ثم شرع قوزاق عاملون بالخدمة الفعلية يعودون بأعداد متزايدة لزيارة أهليهم فى تتارسكى . وانتشرت شائعات بأن القوزاق قد دحروا فى جبهة بالاشوف وأنهم يتقهقرون باتجاه الدون حيث يحتمون خلف خط الدفاع المائى وأنهم يتخذون موقف الدفاع حتى حلول الشتاء . أما ما الذى سيحدث فى الشتاء ، فان جميع رجال الخطوط الأمامية تحدثوا عن ذلك بلا أدنى محاولة لكتمانه :

— حينما يتجمد الدون ، سيدفع الحمر بنا الى البحر .

أما بانتلاى ، فلم يبد عليه أى اهتمام معين بالشائعات الحائمة فوق أراضى الدون ، بل ظل يعمل فى دأب وحماس على آلة الدرس . ومع ذلك ، فما كان بمقدوره أن يظل بمنأى عما كان يحدث . فغدا يزعق فى وجه ايلينشنا ودونيا أكثر من أى وقت مضى ، وصار سريع الهياج على نحو أشد كلما سمع بأن الجبهة كانت تقترب من ناحية تتارسكى . كان غالباً ما يشرع فى عمل ما من الأعمال التى تهم الحقل ، ولكنه لا يلبث العمل أن يخرج سيئاً من بين يديه ، فيقذفه على الأرض مهتاجاً ، وينطلق نحو ساحة درس الحبوب باصقاً ولاعناً ، حيث ينفّس عن هياجه ، فيبرد . وكانت دونيا ، أكثر من مرة ، شاهدة على مثل هذه النوبات .

حدث ذات يوم أنه شرع يصلح نيراً . لم يسر العمل على ما يرام ، ولغير ما سبب مطلقاً التقط العجوز فأساً وأعمل بالنير تكسيراً حتى لم تبق منه سوى شظايا . وحدث الشىء نفسه لطوق حصان . ففى ذات مساء برم خيطاً شمعياً وبدأ يخيط بطانة الطوق المفتوقة . ولربما كان الخيط تالفاً ، أو العجوز نفسه متحركاً أكثر مما هو فى العادة ، غير أن الخيط انقطع مرتين على التوالى . وكان فى ذلك الكفاية ، فأطلق بانتلاى سباباً مقذعاً وقفز ، ورفس مقعده ، فطار هذا فى الهواء باتجاه الموقد ، وجعل يعمل أسنانه ممزقاً بطانة الطوق الجلدية وهو يحمحم كالكلب . ثم قذف بالطوق على الأرض وشرع يتقافز عليه كالديك . واذ سمعت ايلينشنا الجلبة ، وكانت قد آوت الى فراشها مبكرة ، قفزت من السرير فزعة . بيد أنها ، حينما رأت ما كان يحدث ، فقدت زمام أعصابها وانطلقت تعنفه .

— هل جننت ، عليك اللعنة ، فى أواخر أيامك ؟ ما

هى جناية الطوق عليك ؟

فحملق بانتلاى فى زوجته بعينين مخبولتين ، وهدر قائلاً :

— اخرسى ، يا كذا وكيت !

والتقط قطعة من الطوق الممزق وقذفها على الزوجة العجوز . وغصّت دونيا بالضحك ، فاندفعت كالرصاصة خارجة الى السقيفة . لكن العجوز ما لبث أن هدأ بعد هياج قصير ، وطلب الغفران من زوجته للكلمات التى كان قد أطلقها فى غضبه ، وظل زمناً طويلاً يحك مؤخرة رأسه وهو يحدّق فى شظايا الطوق المنكود ، ويفكر فيما عسى أن تصلح له هذه الشظايا . وتكررت أمثال نوبات الجنون هذه أكثر من مرة ، لكن ايلينشنا ، وقد علمتها الخبرة المريرة ، وجدت طريقة مغايرة للتدخل . ففى اللحظة التى يشرع فيها بانتلاى بقذف الشتائم وتحطيم حاجة منزلية ما ، تنبرى العجوز قائلة ، بتواضع لكنما بصوت مرتفع بما فيه الكفاية :

— حطّمها ، يا بروكوفيتش ! اكسرها ! سنعمل أنا وأنت على توفير المال لشراء المزيد منها !

حتى أنها كانت تحاول مساعدته فى التهشيم . وآنذاك ، تهدأ سورة بانتلاى فى الحال ، فيحدق فى زوجته لحظة بعينين فارغتين ، وينبش بيديه فى جيوبه حتى يعثر على كيس تبغه ، فيجلس مصعوقاً فى ركن من الأركان يدخن ويهدئ أعصابه المتوترة ، وهو يلعن فى دخيلته طبعه المتفجّر ، متذكراً الخسائر التى ألحقها بنفسه فى غمرة انفعاله .

وحدث مرة أن وقع خنزير عمره ثلاثة شهور ، كان قد دخل الى الفناء ، ضحية لهياج بانتلاى الكهولى الجامح . فقصم ظهره بوتد ، ثم ذبحه ، وبعد ذلك بخمس دقائق ،

وبينما كان يجز شعره بمسمار ، علا وجهه الشعور بالاثم وقال لزوجته المتجهمة ، متملقاً :

— أنت تدرين أن هذا الخنزير لم يجلب لنا غير المتاعب . كان سيموت بأية حال . الخنازير دائماً تصاب بالوباء فى هذا الوقت من السنة ، أما الآن فاننا ، على الأقل ، سنأكله ، والا لكنا فقدناه تماماً . هذا حقّ ، أليس كذلك ، أيتها السيدة العجوز ؟ حسن ، لماذا تنظرين الىّ وكأنك غيمة رعدية ؟ اللعنة عليه مضاعفة ثلاث مرات ، هذا الخنزير ! وليته كان خنزيراً كاملاً . لم يزد على فخذ فقط ! لم تكن هناك حاجة فى الواقع لاستعمال وتد للاجهاز عليه ، فمجرد البصق عليه كان كفيلاً بانجاز المهمة ! ولكم كان فضولياً ، يدس فنطيسته فى كل مكان ! لقد نبش زهاء أربعين غرسة من البطاطس .

فصححت ايلينشنا كلامه فى هدوء :

— لو كان قد أتلف جميع غرسات البطاطس فى الحديقة لما بلغ عددها مجتمعة أكثر من ثلاثين .

فأجاب بانتلاى بروكوفتش بلا تفكير :

— ربما . ولكن ، لو كان هناك أربعون لأتلف الأربعين برمتها . انه على هذه الشاكلة . احمدى الله عنا أننا تخلصنا منه ، من هذا العدو !

والطفلان أيضاً ، سرى اليهما التمرد بعد رحيل والدهما الى الجبهة . ولم تعد ايلينشنا تستطيع أن توليهما الاهتمام الكافى وهى مشغولة بشؤون المنزل ، فتركتهما لشأنهما ، فكانا يقضيان ساعات لا حصر لها يلعبان فى البستان أو ساحة درس الحبوب . وحدث ذات يوم أن اختفى ميشاتكا بعد الغداء ولم يعد الا عند الغروب . وحينما سألته ايلينشنا أين كان ، أجاب بأنه كان

يلعب مع الصبية الآخرين على شاطئ الدون . بيد أن بوليوشكا سرعان ما فضحته :

— انه يكذب ، يا جدتى . كان عند الخالة أكسينيا .

فسألتها ايلينشنا وقد استغربت وتضايقت للخبر :

— وكيف عرفت ؟

— رأيته يتسلق السياج من فنائهم .

— هل كنت حقا هناك ؟ هيا ، أنطق ، يا ولد . لماذا يحمر وجهك ؟

فحدّق ميشاتكا فى عينى جدته مباشرة ، وأجاب :

— كنت أخدعك ، يا جدتى . صحيح أننى لم أنزل الى شاطئ الدون ، انما كنت عند الخالة أكسينيا .

— ولماذا ذهبت هناك ؟

— طلبت منى هى أن أدخل ، فدخلت .

— ولماذا اخبرتنى أنك كنت مع الأولاد ؟

فلبث ميشاتكا صامتاً بعضاً من الوقت ، ثم رفع اليها عينين صادقتين وهمس قائلاً :

— كنت أخاف أن تغضبى منى .

— ولماذا أغضب منك ؟ كلا . . . ولكن ، ما الذى أرادته هى منك ؟ ماذا عملت هناك ؟

— لا شىء . رأتنى فصاحت : — تعال هنا ! فاقتربت منها ، وأخذتنى الى داخل البيت وأجلستنى على كرسى . . .

فتساءلت ايلينشنا نافدة الصبر ، وهى تحاول أن تخفى انفعالها المتزايد :

— حسن ؟

— أعطتنى فطائر باردة ، أكلتها ، ثم أعطتنى هذه .

وأخرج ميشاتكا قطعة من السكر من جيبه ، وعرضها متفاخراً ، ثم خبأها فى جيبه ثانية .

— ولكن ، ماذا قالت لك ؟ هل طلبت منك شيئاً ؟

— قالت يجب أن أذهب لزيارتها دائماً ، لأنها وحيدة تماماً ، ووعدت أن تتحفنى بشىء . . . قالت يجب ألا أخبر أحداً بأننى كنت عندها . قالت انك ستغضبين منى لو عرفت .

فتمتمت ايلينشنا بغضب مكتوم :

— هكذا ! حسن ، وهل سألتك عن شىء ؟

— نعم .

— ماذا سألت ؟ هيا أخبرنى ، يا حبيبى . لا تخف .

— سألتنى ان أشتاق الى أبى . قلت نعم . وسألتنى متى سيعود وما هى أخباره ، فقلت اننى لا أدرى وانه يقاتل فى الحرب . ثم أجلستنى على ركبتها وحكت لى حكاية عن الجن (وتألقت عينا ميشاتكا وابتسمت شفتاه) ، كانت حكاية حلوة . عن شخص اسمه فانيا ، وكيف حملته البجعات على أجنحتها ، وعن بابا ياغا الساحرة .

زمت ايلينشنا شفتيها فيما كانت تستمع الى اعتراف ميشاتكا . وأخيراً ، قالت له فى لهجة صارمة :

— انك لن تذهب هناك بعد الآن ، يا حفيدى . ولا تأخذ منها أية هدايا . عليك ألا تفعل ذلك ، والا فسيسمع بذلك جدك ويضربك بالسوط . أرجو من الله ان لا يجعل جدك يكتشف ما فعلت اليوم ، والا فانه سيسلخ لك جلدك . لا تذهب مرة أخرى ، يا طفلى العزيز .

بيد أن ميشاتكا ، وبالرغم من أمر الحظر المشدد ، زار دار أستاخوف ثانية بعد ذلك بيومين . واكتشفت ايلينشنا أمر

هذه الزيارة حينما وقع بصرها على قميص ميشاتكا . كان كمه الممزق ، الذى لم تستطع رتقه فى الصباح ، قد رُتق بشكل دقيق ، كما كان هناك زرّ جديد من الصدف يشع بياضاً على ياقته . وكانت ايلينشنا تعلم أن دونيا كانت مشغولة بدرس الحبوب فلم يتسنّ لها خلال النهار أن ترتق ثياب الطفلين ، فسألت ميشاتكا لائمة :

— زرت الجيران من جديد ؟

فأجاب ميشاتكا بالايجاب فى غمرة اضطرابه ، وما لبث أن أضاف :

— لن أفعل ذلك مرة أخرى ، يا جدتى ، لا تغضبى منى .

عقدت ايلينشنا العزم على محادثة أكسينيا فى الموضوع والطلب اليها أن تترك ميشاتكا لشأنه وألا تستميل رضاه سواء عن طريق الهدايا أو حكاية القصص . وقالت العجوز فى سريرتها :

— لقد دفعت بناتاليا بعيداً عن هذه الأرض ، والآن تحاول هذه الشيطانة أن تشق طريقها خلل طوايا الطفلين الطيبة ، لكى تصطاد غريغورى بواسطتهما . يا للأفعى ! تسعى لكى تصبح كتنى ، وزوجها لا يزال حياً ! لن يجدى ذلك شيئاً قط . ثم ، هل سيقبلها غريغورى بعد كل هذه المصائب ؟

ولم تكن نظرتها النفاذة الغيور ، نظرة أم حريصة ، قد غفلت عن حقيقة أن غريغورى كان قد تجنب الالتقاء بأكسينيا طيلة وجوده فى القرية . وأدركت أن غريغورى لم يتصرف على هذا النحو خشية كلام الناس ، بل لأنه اعتبر أكسينيا مسؤولة عن مصرع زوجته . وأمّلت ايلينشنا فى سرها أن تؤدى وفاة ناتاليا الى انفصال غريغورى عن أكسينيا نهائياً ، وألا تغدو أكسينيا فى يوم ما فردا فى عائلة ميليخوف .

فى المساء نفسه ، وقع نظر ايلينشنا على أكسينيا عند المرسى على الدون ، فنادتها :

— اسمعى ، تعالى هنا لحظة ، أريد أن أحدثك . . .

فأنزلت أكسينيا سطليها وسارت نحو ايلينشنا بهدوء وحيتها . فشرعت ايلينشنا تتحدث ، وهى تجيل بصرها فى وجه جارتها الجميل الممقوت :

— اسمعى ، يا عزيزتى . لماذا تحاولين سلب أطفال غيرك من الناس ؟ لماذا تدعين الصبى وتتقربين اليه ؟ من طلب منك رتق قميصه واعطاءه الهدايا ؟ ما الذى فى ذهنك ؟ . . تظنين أن أحداً لا يرعاه ، بعد أن توفيت والدته ؟ أم أننا لا نستطيع تدبير أمورنا بدونك ؟ أليس لديك ما يكفى من الضمير ، لا انت ولا عينيك الوقحتين ؟

فتساءلت أكسينيا ، والغضب يتّقد فى صدرها :

— ماذا فعلت من سوء ؟ لماذا تشتمين ، يا جدة ؟

— كيف هذا : ماذا فعلت من سوء ؟ هل لديك حق فى مس ابن ناتاليا ، وأنت التى دفعت بها الى القبر ؟

— ما هذا ، ياجدة ! عودى الى صوابك ! من دفع بها الى القبر ؟ هى التى قتلت نفسها .

— أولم يكن ذلك بسببك ؟

— أنا لا علم لى بذلك مطلقاً .

فصرخت ايلينشنا بانفعال :

— لكننى ، أنا ، أعلم .

— لا تصرخى ، يا عجوز ! لست كنتك ، كى تصرخى فى لدى زوج ، وهو الذى يتولى مهمة الصراخ !

— انا أرى ما فى داخلك ! وأستطيع أن أرى حتى ما

تأملين ! انت لست كنتى ، لكنك ترغبين فى أن تكونيها ! تريدين فى البدء أن تكسبى الطفلين الى جانبك ، ثم تتقربين الى غريشا . صحيح أم لا ؟

— ليست عندى أية نية فى أن أصبح كنتك . أتراك سائرة نحو الجنون ، يا عجوز ؟ لى زوج ما يزال على قيد الحياة .

— فعلاً وبالضبط . تحاولين أن تتخلصى من زوج حى وتربطى نفسك بآخر !

فاستحال وجه أكسينيا شاحباً ، على نحو ملحوظ ، وقالت :

— أنا لا أعرف لماذا تلصقين التهم بى وتسيئين اليّ . أنا لم أربط نفسى بأى رجل مطلقاً ، ولا نية لى فى ذلك أبداً . أما بخصوص مودّتى لحفيدك ، فأى ضرر فى هذا ؟ أنت تعرفين تمام المعرفة أننى بلا أطفال ويسعدنى أن أرى أطفال الآخرين ، ولهذا دعوته . أما فيما يتعلق باعطائى الهدايا له ، فقد أعطيته قطعة من السكر ، ان كانت هذه ما تسمينها هدايا ! ثم ، ماذا لو أهديت له شيئا ؟ انت تهرفين بما لا يدرى به غير الله !

— لم يحصل ان دعوته الى بيتك حينما كانت أمه على قيد الحياة . ولكن ، ما ان توفيت ناتاليا حتى غدوت فجأة طيبة عطوفاً .

فأجابت أكسينيا وشبح ابتسامة يتخايل على شفتيها :

— كان يزورنى حتى حينما كانت ناتاليا على قيد الحياة !

— لا تكذبى ، أيتها السفيهة الصفيقة !

— اسأليه ، ثم اهرفى ما شئت !

— حسن ، أنا لا أهتم بما كان . ولكن ، حذار من دعوته الى بيتك بعد اليوم . ولا تتصورى أنك ستنالين رضى

غريغورى بهذه الوسيلة . لن تصبحى زوجته مطلقاً ، اعلمى هذا !

فقالت أكسينيا ، وقد شوّه الغضب وجهها :

— أخرسى ! انه لا يستشيرك ! ثم لا تدسى أنفك فى شؤون الآخرين !

وكانت ايلينشنا على وشك أن ترد بشىء ، لكن أكسينيا استدارت بصمت ومضت الى سطليها ، ورفعت النير الى فوق كتفيها وراحت تخطو بسرعة صاعدة فى الممشى والماء يطشّ فى السطلين .

ومنذ ذلك اليوم ، غدت أكسينيا اذا التقت بأحد من آل ميليخوف ، لا تنبس بكلمة تحية له ، بل تمر بأنفة شيطانية ومنخرين موسعين . بيد أنها حين كانت ترى ميشاتكا بمفرده ، تجيل بصرها حولها فى استيحاء ، فاذا لم تجد أحداً فى الجوار ، ركضت اليه ومالت عليه وضمته الى صدرها . وتظل تهمس همسات متقطعة وهى تضحك وتبكى ، وتقبّل جبينه الملفوح وعينيه الميليخوفيتين التركيتين ، السوداوين ، الصارمتيـــن :

— يا عزيزى الصغير غريغوريفتش ! يا حبيبى ! لكم اشتقت لك ! ان خالتك أكسينيا حمقاء . . . آه ، وأية حمقاء !

وعيناها الدامعتان تشعان سعادة مثل فتاة يافعة .

فى نهاية آب ، جُند بانتلاى . وخرج الى الجبهة أيضا مثل كل القوزاق القادرين على حمل السلاح فى تتارسكى . ولم يبق من الذكور فى القرية سوى جرحى الحرب والصبيان والعجزة . وشملت التعبئة الجميع حتى آخر رجل . ولم تعف اللجان الطبية الا ذوى العاهات البدنية البارزة .

وحين تسلم بانتلاى الأمر من أتمان القرية للحضور فى منطقة التجمع ، ودّع على عجل عجوزه وحفيديه ودونيا ، وركع

على ركبتيه محمحماً . فحنى رأسه الى الأرض مرتين ، وقال وهو يرسم اشارة الصليب أمام الأيقونات :

— وداعا يا أعزائى . يبدو ان احدنا لن يرى الآخر بعد الآن فقد جاءت الساعة الاخيرة . ونصيحتى لكما هى : ادرسا الحبوب فى الليل والنهار معاً ، وحاولا أن تنتهيا منها قبل هطول الأمطار . واذا دعت الحاجة ، أجّرا رجلا لمساعدتكما ، واذا لم أعد فى الخريف ، قوما بالأعمال بدونى ، أحرثا الحقول الخريفية بكل ما فيكما من قوة . وابذرا ذرة ، على الأقل فدانين منها . افتحى عينيك ، يا عجوز ، وقومى بالعمل على النحو المطلوب ، ولا تعوّدى يديك على الكسل ! فاذا عدنا ، أنا وغريغورى ، أو لم نعد ، فستحتاجون الى الحبوب أكثر من أى شىء آخر . الحرب حرب ، ولكن الحياة بلا خبز حياة بائسة . طيب ، ليحفظكم الله !

رافقت ايلينشنا زوجها الى الساحة ، ولبثت تراقبه آخر مرة فيما مضى يعرج الى جانب كريستونيا ، مسرعين وراء العربة ، ثم مسحت بوزرتها عينيها المنتفختين واتخذت طريقها عائدة الى البيت دون أن تلقى نظرة الى الخلف . كانت ثمة كومة من الحنطة فى انتظارها فى ساحة درس الحبوب ، واللبن على الموقد والطفلان لم يطعما شيئاً منذ الصباح ، وغير ذلك من الأعمال التى يجب أن توليها العجوز اهتمامها . فأسرعت نحو البيت دونما توقف ، ودون الانخراط فى أحاديث مع النسوة الأخريات ، واكتفت بهز رأسها ايجاباً حينما كانت واحدة من معارفها تسأل فى تعاطف واشفاق :

— اذن ، فقد ودّعت جنديّك ؟

ثم مرت بضعة أيام . وذات يوم ، كانت ايلينشنا قد

حلبت البقرات فى الفجر ، ثم قادتها الى الزقاق ، وكانت بصدد أن تعود الى الفناء حين تناهى الى أذنيها رعد مكتوم مقبض . فأجالت بصرها فى السماء . غير أنها لم تستطع أن ترى غيمة على صفحتها . وبعد قليل ، عاد الرعد من جديد .

فسألها راعى القطيع المسنّ وهو يجمع البقرات :

ـــ أتسمعين تلك الموسيقى ، أيتها العجوز ؟

ـــ أية موسيقى ؟

ـــ عجباً ! كل تلك الموسيقى ذات النغمات الواطئة .

ـــ أسمعها فعلاً ، لكننى لا أستطيع أن أجزم ما هى .

ـــ ستجزمين عما قريب . حينما تضرب القرية من هناك ، ستجزمين فى الحال ! ذلك رمى مدافع . انهم ينتزعون مصارين كهولنا . . .

فرسمت ايلينشنا اشارة الصليب عليها ودلفت فى صمت خلل البوابة الصغرى .

ظل رمى المدافع يرسل هديره أربعة أيام متواصلة . وكان القصف عالياً بشكل بارز فى الفجر والغسق . ولكن ، حينما كانت تهب ريح شمالية شرقية ، كان فى الامكان سماع رعود المعارك البعيدة فى منتصف النهار أيضاً . فكان العمل يتوقف لحظة فى ساحات درس الحبوب ، وترسم النسوة اشارات الصليب على أنفسهن ويتنهدن نهدات عميقة وهنّ يتذكّرن أعزاءهن بالدعاء . ثم تعود الدارسات الصخرية تهدر من جديد فوق ساحات درس الحبوب ، والصبية السائقون يستحثون الخيل والثيران ويزاول يوم الكدح حقوقه التى لا تنفصم . وكانت آخر أيام آب لطيفة جافة على نحو عجيب . وراحت الريح تحمل غبار قشور الحبوب خلل القرية ، فعلقت فى كل مكان رائحة تبن الذرة الحلوة ، وبالرغم

من أن الشمس كانت لا تزال شديدة الوطأة ، الا أن مقدم الخريف غدا بادياً فى مكان ، وانعكست أوراق الشيح الذابلة الرمادية ، بلون الحمام ، على أرضية المرعى فبدت مشوبة ببياض خفيف ، واستحالت ذؤابات الحور القائمة وراء الدون صفراء اللون ، واشتد فواح عطر تفاح الخريف فى البساتين ، وغدت الآفاق النائية واضحة للعيان كما هو شأنها فى الخريف ، وشوهدت الأسراب الأولى لطيور الكراكى المهاجرة فى الحقول المحصودة .

وعلى طريق «هتمان» العام كانت قوافل الحمل تنطلق من الشرق الى الغرب حاملة المؤن العسكرية الى حيث المعابر على الدون ، وشرع اللاجئون يصلون الى القرى الواقعة على ضفة الدون . قالوا ان القوزاق كانوا يتراجعون ، وهم يقاتلون أثناء تراجعهم . وأفاد بعضهم أن هذا التقهقر كان متعمداً ، الغرض منه جرّ الحمر الى الداخل ثم الاحاطة بهم وافناؤهم . وبدأ البعض من أهالى تتارسكى يعدون العدّة سراً للهرب . فأشبعوا ثيرانهم وخيلهم ، ودفنوا داخل حفر ، ليلاً ، حبوبهم والصناديق الحاوية الثمن ممتلكاتهم . أما رمى المدافع ، الذى كان قد انقطع وقتئذ ، فقد استؤنف فى الخامس من أيلول بقصف أشدّ ، وغدا الآن أوضح رعيداً وأرهب وعيداً . كان القتال يدور على مبعدة حوالى أربعين فرستا من الدون ، الى الشمال الشرقى من تتارسكى . وفى اليوم الثانى ، سُمع رمى المدافع من جهة المجرى الأعلى ، ومن الغرب أيضاً . كانت الجبهة تقترب باطراد من النهر .

حينما سمعت ايلينشنا بأن أغلب القرويين كانوا يعدون العدّة للهرب ، اقترحت على دونيا أن تتهيآ هما أيضاً للرحيل . وتملّكها شعور بالذهول والحيرة ، ولم تدر ما الذى ينبغى عليها

أن تفعل بشأن الحقل ، والبيت : هل تترك كل شيء وتخرج مع الآخرين ، أم تبقى فى البيت . لقد تحدّث بانتلاى قبل رحيله عن درس الحبوب والحرث والمواشى ، لكنه لم ينطق بكلمة عمّا يمكن أن تفعلاه حينما تقترب الجبهة من تتارسكى . وأخيراً ، قررت ايلينشنا ، أن تسفّر دونيا والطفلين مع أغلى ممتلكاتهم بصحبة أحد القرويين ، وأن تبقى هى فى الدار حتى ولو احتل الحمر القرية .

وفى ليلة السابع عشر من أيلول وصل بانتلاى الى الدار دون ان يتوقعه أحد . كان قد قدم ماشياً على قدميه من مكان ما على مقربة من مركز منطقة كازانسكايا ، وكان منهوك القوى ، سيئ المزاج . وبعد أن استراح زهاء نصف ساعة ، جلس الى المائدة وشرع يأكل بصورة لم تكن ايلينشنا قد شهدت مثلها خلال كل حياتهما معاً . حشا ما مقداره نصف سطل من حساء الكرنب الخفيف فى بلعومه ، ثم انكب على عصيدة الدخن . فصفقت ايلينشنا كفيها مذهولة ، وقالت :

— يا آلهى ! أتدرى كيف تأكل ، يا بروكوفييفتش ! أستطيع أن أجزم بأنك لم تأكل شيئاً لمدة ثلاثة أيام !

— حسن ، وهل تظنين أننى أكلت شيئاً ، أيتها الحمقاء العجوز ؟ فى الثلاثة أيام السابقة لم يدخل حلقى مقدار قطرة ندى .

— لماذا ؟ ألا يطعمونكم فى الجيش اذن ؟

فأجاب بانتلاى وهو يموه كالقطة وفمه محشو حتى شفتيه :

— أطعمهم الشيطان ! كل ما يستطيع المرء وضع اليد عليه ، يلتهمه . لكننى لم أتعلم السرقة بعد . هذا كله سهل بالنسبة للفتيان اذ لم تعد لهم بقية من ضمير . عودتهم هذه الحرب اللعينة على النهب والسلب بشكل يبعث الرعدة فى أوصالى .

لكننى تغلبت على الصدمة أخيراً . انهم يختطفون كل ما تقع عليه عينهم وينتشلونه . . . هذه ليست حرباً بل هى غضب من عند الله !

— من الأفضل ألا تلتهم كل هذا الطعام دفعة واحدة . فقد يحدث لك شيء . أنظر كيف انتفخت مثل عنكبوت .

— اسكتى ! اجلبى شيئاً من اللبن ، أكبر كوز لديك .

فانفجرت ايلينشنا باكية فيما كانت ترى الى زوجها الجائع . وسألته حينما تنحّى أخيراً عن صحنه :

— هل عدت نهائيا ؟

فأجاب متململاً :

— سنرى !

— أحسب أنهم سمحوا لكم ، أنتم الشيوخ ، بالعودة الى أهاليكم ؟

— لم يسمحوا لأى امرئ بالعودة الى أهله . كيف يستطيعون ذلك حينما يتقدم الحمر باتجاه الدون ؟ كل ما فى الأمر أننى تركت وحدتى .

فتساءلت ايلينشنا فزعة :

— ولكن ، ألا تتحمل المسؤولية عن ذلك ؟

— قد أتحمل اذا أمسكوا بى .

— كيف ؟ أتنوى اخفاء نفسك اذن ؟

— وهل كنت تظنين أننى سأذهب لزيارة الأصدقاء أو للرقص والغناء فى ساحة القرية ؟ أف ، يا لك من بليدة حمقاء .

وبصق بانتلاى فى خضم حنقه ، غير أن العجوز لم تتوقف عن مضايقته :

— أوه ، يا الهى ، يا الهى ! كأن أحزاننا لا تكفينا ،

والآن سيلقون القبض عليك .

فقال بانتلاى فى كلال :

— حسن ، قد يكون السجن أفضل من أن يجرجر المرء نفسه وبندقيته على السهب . أنا لست شابا بينهم حتى أقطع مسيرة أربعين فرستا فى اليوم ، أحفر الخنادق ، حانياً ظهرى ، وأزحف على الأرض متحاشياً الرصاص . الشيطان نفسه لا يستطيع ذلك ! لى رفيق من كريفايا رتشكا أصابته رصاصة تحت عظم الترقوة الأيسر تماماً ، ومات فى الحال دون أن يرفس رفسة واحدة . هذا عمل قليل المتعة !

ثم حمل العجوز بندقيته وكيس طلقاته وخبأهما فى مأوى التبن . وحينما سألته ايلينشنا عن سترته ، أجاب مكتئباً ومتردّداً :

— أتلفتها ، أو بالأحرى ، رميتها . فعلى مبعدة من شوميلنسك كان ضغط الحمر علينا شديداً بحيث ألقى الجميع بكل شىء ولاذوا بالفرار كالمجانين . ولم يكن هناك متسع من الوقت للاهتمام بالسترة وما شاكلها . . . كان لبعض الرجال فروات ، وألقوا بها هى أيضاً . ثم ، لماذا بحق ابليس تفكرين بتلك السترة ؟ وليتها كانت سترة جيدة . . . لم تكن تليق حتى بشحاذ .

وفى واقع الحال ، كانت السترة جيدة ، لكن كل ما تخلى العجوز عنه لا ينفع لشىء ، حسب قوله . فتلك كانت طريقته فى تعزية نفسه . وكانت ايلينشنا تدرك ذلك ، ولهذا لم تشأ أن تجادل فى نوعية السترة وقيمتها .

فى تلك الليلة اتخذوا قراراً ، فى اجتماع عائلى ، بأن يظل بانتلاى وايلينشنا مع الطفلين فى الدار حتى اللحظة الأخيرة ، لرعاية ممتلكاتهم ودفن الحبوب التى كانت قد دُرست ، وتذهب دونيا مع الثورين العجوزين وصناديق العائلة الى أقرباء لهم فى

قرية لاتيشيف الواقعة على نهر تشير .

على أن هذه الخطة لم يكتب لها أن تتحقق كاملة . ففى صباح اليوم التالى ودّعوا دونيا ، ولكن ما ان حل الظهر حتى دخلت تتارسكى مفرزة تأديبية من الكالميكيين . ولا بد أن أحد قرويى تتارسكى كان قد شاهد بانتلاى ميمماً صوب بيته ، اذ لم تمض ساعة على وصول الكالميكيين حتى هذبوا الى فناء ميليخوف . وحينما وقع بصر بانتلاى على الفرسان أسرع يرتقى الى العلية بخفة ونشاط فائقين . وخرجت ايلينشنا لمقابلة الطارقين . فسألها كالميكى متقدم فى السن ، متين البنية ، يحمل شرائط رئيس عرفاء ، وهو يترجل وينفذ خلل البوابة الصغيرة متخطيا ايلينشنا :

— أين عجوزك ؟

فأجابته ايلينشنا بخشونة :

— فى الجبهة . وأين يمكن أن يكون ؟

— سيرى أمامنا الى البيت . سنفتشه .

— ولماذا ؟

فقال عريف ، فتى المظهر ، وهو يهز رأسه ، لائماً وكاشفاً عن أسنان بيض متراصة :

— لنبحث عن العجوز . آه ، يا للعار ! عجوز مثلك ، وتكذبين !

— لا تكشر ، أيها الكافر الدنس ! قلت انه ليس هنا ، وهذا يعنى ليس هنا !

فقال الكالميكى المستاء بلهجة صارمة :

— كفاك ثرثرة ! سيرى أمامنا الى البيت ، والا فسندخل بأنفسنا .

وخطا بثبات نحو السقيفة على قدميه الفحجاوين .

فتشوا الغرف تفتيشاً دقيقاً ، ثم تحدثوا باللغة الكالميكية ، فمضى اثنان منهم ليفتشا الفناء الخلفى ، فيما شمر آخر بنطاله الفضفاض ، وكان قصيراً قاتم السمرة ، يكاد يكون أسود السحنة ، ذا وجه مجدور وأنف أفطس ، وخرج الى السقيفة . ومن خلل الباب المشرع ، شاهدت ايلينشنا الكالميكى يقفز ويتعلق بلوح السقف بيديه ويرفع نفسه بحركة حاذقة . وبعد ذلك بخمس دقائق ، قفز الى الأرض ثانية ، ومن ورائه كان بانتلاى ينزل فى حذر محمحماً وقد تلطخ وجهه بالطين واشتبك نسيج عنكبوت بلحيته . وحين وقع نظره على زوجته التى كانت تقف مزمومة الشفتين ، قال :

— اذن ، فقد عثروا علىّ . لعنة الله عليهم ! لا بد أن أحداً قد أخبرهم . . .

واقتيد تحت حراسة الى مركز منطقة كارغينسكايا ، حيث كانت تُعقد جلسات محكمة الميدان العرفية . فبكت ايلينشنا قليلاً ، وما لبثت ، حين بلغ سماعها من جديد رمى المدافع وثرثرة الرشاشات الواضحة تأتى من وراء الدون ، أن دخلت الى مخزن الحبوب لكى تخفى بعضاً من الحبوب على الأقل .

٢٢

كان أربعة عشر هارباً ينتظرون محاكمتهم . وكانت المحاكمات تجرى بصورة مختصرة وقاسية . فكان رئيس المحكمة المتقدم فى السن ، وهو برتبة نقيب ، يسأل المتهم عن اسمه وكنيته

ويكتشف المدة التى قضاها هارباً ، ثم يتبادل بضع كلمات خافتة مع العضوين الآخرين — وكان أحدهما برتبة ملازم وقد فقد احدى ذراعيه ، والثانى عريفاً ملتحياً مكتنز الوجه والجسم من أثر حياة لم يعرف خلالها التعب — ويصدر الحكم . وكان معظم الهاربين يتلقون أحكاماً بالضرب بالعصا ، فينفذ الحكم كالميكيون فى بيت مهجور أفرد خصيصاً لهذا الغرض . وكان الهرب من «جيش الدون» المحارب قد اتسع نطاقه الى حد لم يعد سليماً القيام بعملية الجلد على مرأى ومسمع من الناس ، كما كانت الحال عام ١٩١٨ .

كان بانتلاى سادس من أُستدعى للمثول أمام المحكمة . فوقف أمام منصة الحكام منفعلاً ، شاحب الوجه ، ويداه مهدولتان حذر طيات بنطلونه .

سأل النقيب ، دون أن ينظر الى المتّهم :

— لقبك ؟

— ميليخوف ، يا صاحب السعادة .

— اسمك الأول واسم أبيك ؟

— بانتلاى بروكوفتش ، يا صاحب السعادة .

فرفع النقيب عينيه عن أوراقه وسمّر نظرته على العجوز وسأله :

— من أين أنت ؟

— من قرية تتارسكى فى منطقة فيشنسكايا ، يا صاحب السعادة .

— ألست والد آمر السرية غريغورى ميليخوف ، ها ؟

— بلى ، يا صاحب السعادة .

واستعاد بانتلاى فى الحال معنوياته ، شاعراً بأن العصا بدأت تبتعد عن جسمه الكهل .

وسأله النقيب ، دون أن يحوّل عينيه الشائكتين عن وجهه الغائر :

— اسمع ، ألست خجلاً من نفسك ؟

وعند ذلك ، حط العجوز يده اليسرى على صدره ، مخالفاً بذلك الأصول وقال فى لهجة باكية :

— يا صاحب السعادة ! يا حضرة النقيب ! اجعلنى أدعو لك بقية عمرى ! لا تحكم علىّ بالجلد ! كان لدىّ ولدان متزوجان . أكبرهما قتله الحمر . . . لدىّ أحفاد ، وهل من الضرورى جلد عجوز نكد الطالع مثلى ؟

فقاطعه الملازم الأقطع ، وزاويتا فمه تختلجان بعصبية :

— يجب علينا أن نعلم الكبار والصغار معاً كيف يخدمون . هل حسبت أنك ستكافأ بالأوسمة جزاء هربك من الجيش ؟

— لا حاجة لى بوسام . . . ارسلنى الى كتيبتى ولسوف أخدم باخلاص وصدق . . . أنا نفسى لا أدرى كيف هربت . لا بد أن روحا نجسة حلت بى .

ومضى بانتلاى يتمتم كلاماً عن الحبوب غير المدروسة ، وعرجه ، وعن الحقل المهمل . بيد أن النقيب أسكته بحركة من يده ، ثم مال على الملازم وهمس بشىء فى أذنه . فهز الملازم رأسه موافقاً ، والتفت النقيب الى بانتلاى :

— بديع ! هل قلت كل ما شئت أن تقول ؟ انا أعرف ولدك ، وأستغرب ان يكون والده على هذه الشاكلة . متى هربت من الجيش ؟ قبل أسبوع ؟ حسن ، فهل تود أن يحتل الحمر قريتك ويسلخوا لك جلدك ؟ أهذه هى القدوة التى تظهرها للقوزاق الشباب ؟ بحكم القانون ، يجب أن ندينك ونصدر عليك حكماً بالعقاب البدنى . ولكن ، تقديراً لرتبة ولدك باعتباره

ضابطاً ، فانا أعفيك من هذا العار . هل كنت ضابط صف ؟

— نعم ، يا صاحب السعادة .

— بأية رتبة ؟

— كنت نائب عريف ، يا صاحب السعادة .

فرفع النقيب صوته وقال آمراً :

— تنزل الى رتبة جندى نفر ! التحق بكتيبتك فوراً ! بلغ آمر سريتك بأنك قد جرّدت من رتبة نائب عريف بقرار من محكمة الميدان العرفية . هل حصلت على أية أوسمة فى هذه الحرب أو الحرب السابقة ؟ . . أغرب عن وجهى !

فخرج بانتلاى ، يكاد يطير من الفرح ، ورسم اشارة الصليب على نفسه أمام كنيسة ، ثم اتخذ طريقاً مستقيماً عبر التلال باتجاه قريته . وفيما كان يقزل عبر حقل الحصيد وقد تكاثرت عليه أعشاب المروج ، كان يحدث نفسه :

— حسن ، لسوف أختبئ هذه المرة بشكل أفضل بكثير ! لسوف يحتاجون الى الأبالسة أنفسها كى يعثروا علىّ . وليرسلوا ثلاث سرايا من الكالميكيين للبحث عنى !

وحينما بلغ السهب ، قرر أن من الأفضل له أن يسير على الطريق العام لكى لا يجتذب اهتمام العابرين ركوباً . فقال لنفسه ، بصوت عال :

— لا بد أنهم سيحسبوننى هارباً . واذا صادفت جنوداً فانهم سينزلون علىّ السوط دون أن يستجوبونى أولاً .

وانعطف عن الأرض المحروثة واتخذ مسلكاً صيفياً مهملاً يغطيه نبات الطلح . ولسبب ما لم يعد يعتبر نفسه هارباً من الجيش .

صار كلما يقترب من الدون يلتقى بأعداد أكبر من عربات

اللاجئين . كانت مشاهد التقهقر ، التى كانت قد حدثت فى الربيع ، تتكرر الآن من جديد . فقد امتدت فى شتى الاتجاهات فوق السهب عربات حمل وعربات بريتزكا ، محملة بشتى الأمتعة المنزلية ، وقطعان من الماشية الخائرة ، وكأنها خيالة تمضى فى مسيرة عسكرية ، وقطعان أغنام تثير سحائب من غبار . وامتلأت أرجاء السهب الساكنة بضجيج متصل مزعج من صرير العجلات وصهيل الخيل والصيحات البشرية ووقع سنابك لا تحصى وثغاء الأغنام وبكاء الأطفال .

هتف قوزاقى معصوب الرأس من على عربة عابرة :

— الى أين ذاهب يا جد ؟ ارجع ، فالحمر فى أعقابنا تماماً !

فتوقف بانتلاى فزعاً ، وقال :

— يكفيك من الكذب ! أين الحمر الآن ؟

— فى الجانب الآخر من الدون . انهم يقتـــربون من فيشنسكايا . هل أنت ذاهب لملاقاتهم ؟ !

فلما استعاد بانتلاى انفاسه ، واصل رحلته ، حتى اذا اقترب المساء كان قد شارف على بلوغ تتارسكى . وفيما كان ينزل حدر التل ظل يجول بعينيه حوله . فأذهله أن يرى القرية تبدو وكأنها مهجورة تماماً . لم يكن فى شوارعها أحد ، ونوافذ البيوت مغلقة ، والبيوت ساكنة . ولم تندّ أصوات بشرية من أيما مكان ولا انبعث خوار ماشية . غير أن ثمة حركة ما كانت تجرى عند النهر وحينما اقترب بانتلاى ، لم يجد صعوبة فى تمييز هياكل قوزاق مسلحين يسحبون جنيبات من النهر ويحملونها الى القرية . فخمن أن تتارسكى قد هجرت تماماً من ساكنيها . فانعطف محترساً الى زقاق جانبى ، ومضى صوب بيته . وكانت

ايلينشنا والحفيدان آنذاك جالسين فى المطبخ .

فهتف ميشاتكا فى فرحة غامرة وهو يطوّق رقبة العجوز بذراعيه :

— هو ذا جدى !

فانفجرت ايلينشنا تسكب دموع الفرح ، وقالت خللها :

— لم يكن لدى أمل فى أن أراك ثانية ! حسن ، يا بروكوفنش ، افعلْ كما تشاء لكننى لا أرغب فى البقاء هنا بعد الآن . فليحترق كل شىء عن آخره ، لكننى لن أقوم بحراسة بيت فارغ . لقد ترك القرية كل الباقين تقريباً ، ولكن ها اننى أجلس كالحمقاء مع الطفلين . أعدّ الفرس فى الحال ، ولنمض عليها الى حيث نستطيع . هل أطلقوا سراحك ؟

— نعم .

— نهائياً ؟

— نهائياً ، ما داموا لا يعثرون علىّ !

— حسن ، انك لا تستطيع الاختفاء هنا . هذا الصباح ، حينما كان الحمر يطلقون النار من الضفة المقابلة ، كان الأمر فظيعاً . أخذت الطفلين الى داخل القبو طوال مدة اطلاق النار . أما الآن ، فقد أبعدوا . جاء بعض القوزاق يطلبون اللبن ، وقد نصحونا بالجلاء من هنا .

فتساءل بانتلاى مهتماً ، وهو يتفحص عن كثب ثقباً حديثاً أحدثته رصاصة فى اطار النافذة :

— قوزاق ؟ لعلهم ليسوا من أبناء قريتنا ؟

— كلا . انهم غرباء . من الخوبر ، كما أظن .

فقال بانتلاى متنهداً :

— اذن ، يجب أن نذهب .

وفى ساعة متأخرة من المغرب ، حفر تحت كومة الجل ،

ودحرج فيها سبع زكائب من القمح ، ثم وارى عليها التراب على نحو متقن ، وكوم فوقها طابوقاً من الجل . وما ان حل الغسق حتى وضع العدة على الفرس وربطها بالعربة الصغيرة ووضع عليها فروتين وزكيبة من الدقيق ، والدخن ، وخروفاً معقول الأرجل ، وربط كلا البقرتين الى الخلف ، وأجلس ايلينشنا والطفلين فوق الزكائب وقال :

— حسن ، والآن فلنسر فى حفظ الله ورعايته !

وساق العربة الى خارج الفناء ، ثم سلّم الأعنة لزوجته العجوز ، وترجل ليغلق البوابات ، ومضى يسير الى جانب العربة متنشقاً وماسحاً دموعه بكم سترته ، حتى بلغوا التلال .

٢٣

فى ١٧ أيلول ، بلغت ضفة الدون وحدات متقدمة من الجيش الأحمر بقيادة شورين ، بعد أن قطعت مسافة ثلاثين فرسخا فى مسيرة عسكرية خفيفة القيود . وفى صباح ١٨ أيلول ، فتحت البطاريات الحمراء نيرانها على امتداد الخط ما بين أول مدفديتسا ومنطقة كازانسكايا . وأفلح المشاة ، بعد قصف قصير من المدفعية ، فى احتلال قرى ومراكز مناطق بوكونوفسكايا وبيلانسكايا وفيشنسكايا الواقعة على الضفة اليسرى ، ومع غروب شمس ذلك اليوم كان أكثر من مائة وخمسين فرسخا على الشاطئ الأيسر قد أخليت من البيض . وانسحبت سرايا القوزاق بانتظام الى مواقع كانت قد أعدت فى السابق . وكانت جميع وسائل عبور النهر فى أيديهم ، عدا جسر فيشنسكايا الذى كان الحمر قد أوشكوا آنذاك على الاستيلاء عليه . بيد أن القوزاق كانوا قد

كوموا أكداساً من القش حوله ونقعوا ألواحه الخشبية بالنفط الأبيض بغية احراقه عند تراجعهم . وكانوا على وشك أن يضرموا النار فيه حينما وصل مراسل ، مسرعاً على حصانه ، لينقل نبأ أن احدى سرايا الكتيبة السابعة والثلاثين كانت تتراجع من قرية بيريغورنى الى جسر فيشنسكايا . ثم تدفقت السرية المتأخرة فى سرعة جنونية نحو الجسر فى اللحظة التى كان المشاة الحمر يدخلون الى المكان . وعلى الرغم من وطأة نيران المدافع الرشاشة ، استطاع القوزاق عبور الجسر وأضرموا النار فيه وراءهم ، وقد بلغت خسائرهم فى هذه العملية أكثر من عشرة رجال ، ما بين قتيل وجريح ، وعدداً مماثلاً من الخيل .

ظلت كتائب الفرقتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين التابعتين للجيش الأحمر التاسع مسيطرة على الضفة اليسرى للدون حتى نهاية شهر أيلول . كانت القوات المتقابلة يفصلها نهر لم يتجاوز عرضه فى تلكم الأيام مائتى ياردة ، وفى أماكن منه سبعين ياردة ، ولم يظهر الحمر أية محاولات قوية لعبوره ، غير أنهم حاولوا ، هنا وهناك ، عند المخاضات ، فردّوا على أعقابهم . ولمدة أسبوعين ، استمر قصف المدفعية واطلاق نيران الأسلحة الصغيرة بشكل قوى على امتداد قطاع الجبهة . كان القوزاق يسيطرون على المرتفعات الهامة وكان فى مقدورهم قصف تجمعات أعدائهم فى المسالك المؤدية الى الدون ، فيحولون دون بلوغهم ضفة النهر خلال النهار . ولكن ، حيث أن سرايا القوزاق فى هذا القطاع كانت تتألف من أضعف القطعات (من شيوخ وفتية بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة) ، فانهم لم يحاولوا من جانبهم عبور الدون أو شن هجوم على الضفة اليسرى لرد الحمر .

ومنذ اليوم الأول لتراجع القوزاق الى الضفة اليمنى ، ظلوا

يتوقعون رؤية ألسنة اللهيب ترتفع من القرى التى استولى عليها الحمر ، ولكن العجب استبد بهم حين مضت الأيام دون أن تلوح نفثة دخان على الضفة اليسرى ، بل ان القرويين الذين عبروا الى صوبهم أثناء الليل أخبروهم أن جنود الجيش الأحمر لم يكونوا يصادرون أية ممتلكات ، بل كانوا يدفعون النقود بسخاء لقاء ما يأخذون من طعام ، بما فى ذلك البطيخ ، وبعملة سوفييتية . ولقد أثار ذلك موجة كبيرة من الذهول والاستغراب فى صفوف القوزاق . فقد كان يخيل اليهم أن الحمر من الممكن بعد انتفاضة القوزاق ان يدكوا جميع قرى ومراكز مناطق التمرد حتى تمسى تراباً يباباً . وكانوا يتوقعون أن يقوم الحمر بابادة جميع السكان الذين تخلّفوا أثناء التراجع ، أو ابادة الذكور منهم على أقل تقدير ، لكن المعلومات الموثوقة أفادت بأن الحمر لم يؤذوا مواطناً مسالماً واحداً ودلّت جميع الدلائل على أنه لم يكن فى نيتهم الانتقام أبداً .

فى ليلة التاسع عشر ، قرر قوزاق الخوبر المعسكرون قبالة فيشنسكايا التأكد من ذلك المسلك الغريب من جانب العدو . فضم قوزاقى ، له صوت كالبوق ، راحتيه على هيئة قدح ووضعهما حول فمه وهتف صائحاً :

— أنتم ، أيتها الكروش الحمراء ! لماذا لا تحرقون بيوتنا ؟ أليس لديكم عيدان ثقاب ؟ تعالوا سباحة الى هنا وسوف نعطيكم بعضاً منها !

فرد عليه صوت جهير من العتمة :

— لم نظفر بكم فى بيوتكم ، والا لكنا حرقناكم وبيوتكم معاً !

فأجابه القوزاقى بانفعال :

— أمسيتم فقراء ، ها ؟ لا شىء تحرقون به ؟

وعاد الجواب الهادئ المرح يرد عليه :

— تعال أعبر الينا ، أيها النغل الأبيض ، وسنضع بضع جمرات حارة فى سروالك الداخلى تجعلك تحك وتحك جلدك بقية حياتك !

وتبادل الموقعان الأماميان الشتائم وصرخات الهزء ، وبضع صليات من النار ، ثم خلدا الى الصمت .

فى أوائل تشرين الأول ، تحولت الى الهجوم القوات الرئيسية لجيش الدون المتكونة من فيلقين عسكريين متجمعين فى قطاع كازانسكايا–بافلوفسك . أما فيلق الدون الثالث ، الذى بلغ تعداده ٨٠٠٠ حامل حربة وأكثر من ٦٠٠٠ حامل سيف والذى كان معسكراً على جانب الدون على مسافة ليست ببعيدة عن بافلوفسك ، فقد أفلح فى رد فرقة الجيش الأحمر السادسة والخمسين ، وشرع يتقدم بنجاح فى اتجاه الشرق . وما لبث الفيلق الثانى ، بقيادة الجنرال كونوفالوف ، أن عبر الدون الى الضفة اليسرى . واستطاع ، بغالبية تعداده المتكونة من الخيالة ، أن يتوغل بعيداً داخل مواقع العدو وأن يسدد له عدداً من الضربات القاصمة . فاستدعيت فرقة المشاة الحمراء الحادية والعشرون ، التى كانت حتى ذلك الوقت احتياطية ، وأفلحت فى ايقاف تقدم فيلق الدون الثالث بعض الوقت ، غير أنها أجبرت على التراجع تحت الضغط الموحد لكلا فيلقى الدون . وفى اشتباك مرير فى الرابع عشر من تشرين الأول ، أباد الفيلق الثانى ، عملياً ، فرقة مشاة الحمر الرابعة عشرة . وما ان انقضى أسبوع حتى ردّ الحمر عن منطقة الضفة اليسرى حتى فيشنسكايا . ولما غدا رأس الجسر الواسع هذا فى حوزة فيلقى الدون ،

واصلا ضغطهما لاجبار الجيش الأحمر التاسع عـــــلى التراجع .

وفى الوقت الذى عبر فيه الفيلق الثانى نهر الدون ، قام فيلق الدون الأول ، الذى كان موقعه فى منطقة كلتسكايا ، بعبور النهر أيضاً .

وغدت فرق الجناح الأيسر التابعة للجيش الأحمر التاسع مهددة بخطر التطويق ، فأصدر قائد الجبهة الجنوبية الشرقية أمراً بالانسحاب من جديد الى خط يمتد من مصب نهر ايكوريتس الى كوميلزنسكايا . بيد أن الجيش التاسع لم يكن قادراً على الصمود على هذا الخط أيضاً . فقد عبرت من الضفة اليمنى للنهر سرايا قوزاقية عديدة شكلت على نحو عشوائى أثناء التعبئة العامة ، والتحقت بالوحدات النظامية لفيلق الدون الثانى ، وواصلت رد القوات الحمراء باتجاه الشمال . وما ان حل التاسع والعشرون من تشرين الأول حتى كان البيض قد احتلوا محطتى فيلونوفو وبوفورينو وبلدة نوفوخوبرسك . ومع ذلك ، وعلى الرغم من الانتصارات التى أحرزها جيش الدون فى تشرين الأول ، الا أن القوزاق لم تعد لديهم تلك الثقة التى رفعت معنوياتهم فى الربيع ، خلال تقدمهم المكلل بالانتصارات صوب الحدود الشمالية للاقليم . وأدرك معظم رجال الخطوط الأمامية أن هذا النصر كان نصراً موقتاً وأنهم لن يفلحوا فى الصمود الى أبعد من الشتاء .

وسرعان ما تغير الوضع فى الجبهة الجنوبية بشكل مفاجئ . وتقررت نتيجة الصراع باندحار «جيش المتطوعين» فى اشتباك عام فى جبهة أورل — كرومى وبالعمليات الرائعة التى أبداها خيالة بوديونى فى قطاع فورونيج . وفى تشرين الثانى ، انكفأ «جيش

المتطوعين» باتجاه الجنوب ، فكشف بذلك الجناح الأيسر لجيش الدون وجره معه الى التقهقر هو الآخر .

٢٤

عاش بانتلاى مع عائلته فى أمان مدة أسبوعين فى قرية لاتيشيف الصغيرة . لكنه ما ان سمع أن الحمر قد تراجعوا عن الدون ، حتى استعد للعودة الى قريته .

وحينما بلغوا موضعاً يبعد حوالى خمسة فرستات عن تتارسكى ترجل عن العربة الصغيرة فى عزم وتصميم وقال :

— انا لا أطيق هذا الخطو البطيئ ! ولا يمكن الانطلاق خببا بهاتين البقرتين اللعينتين ! لماذا ، بحق الشيطان ، جئنا بهما ؟ دونيا ، أوقفى ثوريك ! وأربطى البقرتين بعربتك ، وسوف أنطلق الى القرية . ربما لم يبق من بيتنا سوى الرماد .

وبهمة همزها نفاد صبره ، نقل الطفلين من عربته الصغيرة الى عربة دونيا الكبيرة ، كما وضع فيها جميع الحمل الفائض ، وانطلقت عربته ، التى غدت خفيفة آنذاك ، تقعقع على الطريق كثير النتوءات . وما ان قطع فرستا حتى غمر العرق جسم الفرس . لم يحدث قط أن عاملها سيدها بمثل هذه القساوة . وظل يلفحها بسوطه بدون توقف ودون أن ينحّيه جانبا قط .

فصرخت ايلينشنا ، متشبثة بدعائم العربة الصغيرة ، ووجهها يتلوى عذاباً من الارتجاج :

— ستهلك الفرس ! لمَ كل هذه السرعة الجنونية ؟

فأجاب بانتلاى من خلال أسنانه المصكوكة :

— على أية حال ، لن تأتى هذه الفرس الى قبرى لتبكى علىّ . . . والآن ! ها ! أيتها الشيطانة ! تعرقين ، ها ؟ سأجعلك

تعرفين صدقاً ! ربما لم يبق من بيتنا غير الأعقاب . . .

غير أن مخاوفه لم تتحقق . كان البيت لا يزال قائماً . لكن نوافذه كلها تقريباً كانت مهشمة ، كما انتزع الباب من مفاصله ، والجدران مثقبة بالرصاص . وكان كل ما فى الفناء يفصح عن الاهمال والخراب . وكان ركن من الاسطبل قد شطرته قذيفة ، بينما حفرت قذيفة ثانية تجويفاً غير عميق بالقرب من الجدار ، محطمة اطار البئر ، وشاطرة رافعته الى نصفين . لقد جاءت الحرب بنفسها الى دار بانتلاى ، وهى التى كان قد رحل هرباً منها ، وولت مخلّفة آثار الدمار البشعة . ومع ذلك ، فقد كان الخراب الذى أنزله بالحقل قوزاق الخوبر الذين كانوا معسكرين فى تنارسكى ، أفظع وأوسع . ففى الزريبة كانوا قد قذفوا بالاسيجة أرضاً وحفروا خنادق بعمق قامة . ولكى يتجنبوا مزيداً من العمل ، كانوا قد هدموا أحد أسيجة مخزن الغلال وقطعوه واستخدموا عواميده لدعم خنادقهم ، كما أسقطوا حجارة من الجدار الحجرى ليصنعوا بها مكمناً لرشاشة . وأتلفوا نصف كومة من التبن فى اطعام خيلهم بلا أدنى احتراس ، وأضرموا النار فى أسيجة الاسفندان وهدموا التنور .

وحينما تفحّص بانتلاى البيت والمرافق الخارجية ، أمسك برأسه بين يديه . وفى هذه المرة ، لم تعاوده عادته فى التقليل من قيمة خساراته . اللعنة ، فما كان بمستطاعه أن يقول ان كل ما فقده لم يكن قد كلفه شيئاً وانه لم يكن ذا منفعة الا كحطب ! فمخزن الحبوب ليس سترة ، ولم تكن كلفة بنائه بالشىء الزهيد !

وقالت ايلينشنا متنهدة :

— يبدو وكأنما لم يكن هناك مخزن للغلال فى يوم ما .

فقال بانتلاى بسرعة :

— لم يكن ذا . . .

لكنه لم يكمل جملته ، بل لوح بيده ومضى الى ساحة درس الحبوب .

كانت جدران البيت المجدورة ، وقد ترك الرصاص وشظايا القذائف ندباً عليها ، تبدو مهملة الى حدّ فظيع . وكانت الريح تصفر خلل الغرف ، والغبار متراكماً على الموائد والمصطبات . لكم ستستغرق من الوقت اعادة كل شىء الى حالته الاعتيادية !

وفى اليوم الثانى ذهب بانتلاى على صهوة فرسه الى فيشنسكايا ، واستطاع ، بعد شىء من المماحكة مع صديقه الممرض ، أن ينتزع منه وثيقة تقر بأن القوزاقى بانتلاى بروكوفتش ميليخوف ، نظراً لاصابته فى ساقه ، غير قادر على السير ، وأنه يحتاج الى دورة علاجية . فأنقذت هذه الوثيقة العجوز من خطر اعادته الى الجبهة . فقدمها الى الأتمان ، وصار كلما ذهب الى ادارة القرية يميل بانحناءة أشد على عصاه ويقزل على كل ساق بالتناوب .

لم تشهد الحياة فى تنارسكى من قبل مثل تلك الفوضى التى شهدتها بعد العودة من التراجع . جعل الناس يتنقلون من فناء الى فناء لتشخيص ممتلكاتهم التى كان قوزاق الخوبر قد بعثروها . وهاموا فى السهب وخلل المسارب بحثاً عن بقراتهم السائبة . وقد حدث أن اختفى ، فى اليوم الأول الذى تعرضت فيه تنارسكى لقصف المدفعية ، قطيع يتكون من ثلاثمائة رأس من الأغنام من طرف القرية الأعلى . واستناداً الى أقوال الراعى ، فان احدى القذائف انفجرت أمام القطيع الراعى مباشرة ، فلاذت الأغنام بالفرار نحو السهب ، وهى تلوح بمؤخراتها الثقيلة ، واختفت من يومئذ . ثم عثر عليها على مبعدة حوالى أربعين فرسخا بعد

مضى أسبوع على عودة السكان الى قريتهم المهجورة . على أنه تبين ، بعد اعادتها الى القرية وفرزها ، أن أكثر من نصف القطيع كان غريباً ، اذ كانت هذه الأغنام تحمل مشابك غير معروفة فى آذانها ، بينما كان أكثر من خمسين رأساً من أغنام تتارسكى لا يزال مفقوداً .

وعثر على ماكنة خياطة تعود لآل بوغاتيريوف فى حديقة ميليخوف ، بينما اكتشف بانتلاى السقف الحديدى لمخزن غلاله ملقى فى ساحة درس الحبوب فى فناء أنيكوشكا . وقد حدث الشىء نفسه فى جميع القرى المجاورة . ولبث أهالى القرى القريبة والبعيدة الواقعة فى منطقة ضفة الدون ، زمناً طويلاً ، يؤمون تتارسكى ، وظلت ، فيما بعد ذلك أمداً مديداً ، الأسئلة تتناقل على الألسن :

— لعلك شاهدت بقرتى ، وهى حمراء ذات غرة بيضاء على جبهتها ، وقرنها الأيسر قصير ، مكسور ؟

— ثور صغير ، أشهب ، هل حدث أن شاهدته تائهاً فى قريتكم ؟

وليس ثمة ريب فى أن أكثر من ثور صغير كان قد سلق فى قزانات ومطابخ سرايا القوزاق . بيد أن الأمل ظلّ يستحث أصحابها على التجول فى أرجاء السهب بحثاً عنها ، حتى اقتنعوا بأنهم لن يعثروا قطّ على كل ما كانوا قد فقدوه .

الآن ، وقد أعفى بانتلاى من الخدمة ، انطلق يصلح المرافق الخارجية والأسيجة . لكن حزماً فوق حزم من الحبوب غير المدروسة ظلت مكومة فى ساحة درس الحبوب دون أن يشرع العجوز بدرسها ، وأنّى له ذلك والحقل بلا سياج ، ومخزن الغلال بلا وجود ، وكل شىء فى الحقل ينبئ عن فوضى معيبة ؟

يضاف الى ذلك ، أن الخريف أتى بطقس لطيف ، فلم تعد هناك حاجة للاسراع بالدرس .

قامت ايلينشنا ودونيا بطلاء الدار بالكلس من جديد وتبييضه ، كما ساعدتا بانتلاى فى اقامة سياج مؤقت وأداء أعمال أخرى . وأفلحوا ، بطريقة ما ، فى العثور على زجاج ، فأعادوا تزجيج النوافذ ، وأزاحوا الركام من المطبخ الصيفى والبئر . وقد نزل العجوز بنفسه فى البئر ، فأصيب جراء ذلك بزكام ولبث أسبوعاً يسعل ويعطس بينما كان قميصه منقعاً بالعرق . ولكن ، ما كان عليه سوى أن يشرب قنينتين من الفودكا المنزلية فى جلسة واحدة ، ثم يستلقى بعضاً من الوقت على الموقد الحار ، حتى تلاشت اصابته تماماً ، وكأن سحراً مسها .

ظلت أخبار غريغورى منقطعة ، حتى أواخر تشرين الأول حينما علم بانتلاى بالصدفة أن ولده كان سالماً معافى ، وأنه وكتيبته فى مكان ما فى اقليم فورونيج . استقى بانتلاى هذه المعلومات من جندى جريح من كتيبة غريغورى مرّ بالقرية . فطار العجوز من الفرح ، وشرب — فى غمرة فرحه — قنينة الفودكا الطيبة الاخيرة ، المقطرة مع الفلفل الأحمر . وفى أعقاب ذلك ، جعل يثرثر طيلة ذلك اليوم ، متفاخراً كأنه ديك . وصار يوقف كل عابر فى الطريق ليقول له :

— هل بلغك الخبر ؟ استولى ولدنا غريغورى على فورونيج . بلغتنا شائعات بأنه قد رقّى ، وهو الآن قائد فرقة من جديد ، ربما قائد فيلق . ستتعب نفسك حتى تعثر على جندى مثله ! أنت تعرف ذلك بنفسك . . .

وهكذا ، مضى العجوز يغزل القصص ، وهو يستشعر بحاجة لا تقهر الى من يشاركه فرحته وثرثرته .

وكان القرويون يقولون له :

— ان ولدك لبطل .

فيجيبهم :

— وكيف يستطيع ألا يكون بطلاً وأنتم تعلمون ابن من هو ؟ . . حينما كنت شاباً ، لم أكن — وأقول هذا بدون تفاخر — لم أكن أقلّ منه ! ان ساقى تمنعنى ، والا ما كنت أدعه يفضلنى ، حتى الآن ! ليس فرقة ، ربما ، لكننى كنت أعرف كيف أعالج أمور سرية . لو كان فى الجبهة عدد أكثر منا ، معشر الشيوخ ، لكنا قد استولينا على موسكو منذ أمد طويل . لكننا الآن نحسب الوقت وحسب ، ولا نستطيع معالجة أمر هؤلاء الفلاحين . . .

وحدث أن كان آخر شخص تحدّث اليه بانتلاى فى ذلك اليوم هو العجوز بسخليبنوف . كان ماراً بفناء آل ميليخوف ، ولم يفشل بانتلاى فى ايقافه ، بقوله :

— يا أنت ، انتظر لحظة ، يا فيليب ايجفتش ! كيف حالك هذه الأيام ؟ أدخل قليلاً لنتحدث .

فتقدم بسخليبنوف وحيا بانتلاى ، الذى بادره بالسؤال :

— هل سمعت بمآثر ولدى غريشا ؟

— ماذا جرى له ؟

— عينوه قائد فرقة من جديد . هو ذا الهول الهائل الذى يمسك غريغورى بزمام مسؤوليته الآن !

— فرقة ، تقول ؟

— أجل . فرقة .

— لا أظنك تعنى ما تقول !

— بل أعنيه ! انهم لن يعينوا لقيادتها أى شخص ، كيفما اتفق ، أليس كذلك ؟

— بلى ، دون شك .

فحدق بانتلاى فى رفيقه مبتهجاً واستأنف الحديث العزيز على قلبه :

— لدي ولد مثار اعجاب الجميع ! ملء صدره أوسمة ، ما قولك بهذا ؟ والمرات التى جرح فيها وأصابته صدمات القذائف ! لو كان أى امرئ آخر مكانه لأسلم الروح منذ أجل بعيد ، ولكن ذلك كله لا شىء بالنسبة اليه ، بل هو كالماء على ظهر بطة ! كلا ، لم ينقرض كل القوزاق الأقحاح من أراضى الدون ، بعد .

فردد بسخليبنوف العجوز متفكّراً ، وهو الذى لم يكن بالمتحدث المفوّه فى يوم من حياته :

— أنت على حق . لكننا ، وبشكل ما ، لا يبدو أننا نجنى منهم منفعة كبيرة .

— كيف يتسنى لك أن تستنتج هذا الاستنتاج ؟ أنظر الى أى مدى ردوا الحمر على أعقابهم ، الى ما وراء فورونيج ، وهم يقتربون من موسكو .

— انهم يقتربون من موسكو منذ زمن طويل جداً . . .

— ليس فى الامكان انجاز ذلك بسرعة ، يا فيليب ايجفتش . عليك أن تدرك بأنه لا شىء فى الحرب يمكن انجازه بسرعة . الفعل المستعجل يولد العميان . عليك أن تفعل كل شىء ، قليلاً فقليلاً ، استناداً الى الخرائط ، استناداً الى المخططات . . . استناداً الى مختلف أنواع الأشياء . الفلاحون فى روسيا كالجراد كثرة ، وكم من القوزاق لدينا هناك ؟ لا أكثر من حفنة !

— كل ذلك صحيح ، ولكن يبدو وكأن رجالك لن

يقدروا على الصمود طويلاً . علينا أنْ نتوقع مجيء زوار الينا من جديد عند حلول الشتاء ، هكذا يقول الناس .

— ان لم يستولوا على موسكو الآن بسرعة ، فان الحمر سيعودون الى هنا ثانية . أنت على حق فى هذه النقطة .

— ولكن ، هل تظن أنهم سيستولون على موسكو ؟

— يجب عليهم . ولكن الأمر رهن بارادة الله . لا بدّ أن رجالنا قادرون على ذلك ! القوزاق جُندوا عن آخرهم ، اثنا عشر فيلقا ، ألا يستطيعون ذلك ؟

— الشيطان يدرى ! وماذا عنك . . . تخليت عن القتال ؟

— وماذا كان يمكن أن يكون نفعى غير عرقلة المسير ؟ ولكن ، لولا اصابة ساقى هذه لأريتهم كيف تكون مقاتلة العدو ! نحن الكهول من طينة صلدة !

— يقال ان الكهول الصلدين هربوا من الحمر على الجانب الآخر من الدون بحيث لم تبق على أىّ منهم فروته . خلعوا ملابسهم كلها حتى الجلد وقذفوا بها . يقال ان السهب غدا ، جميعه ، أصفر اللون بالفروات ، وصار يبدو مثل سجادة من الأزهار .

فألقى بانتلاى نظرة على بسخليبنوف من طرف عينه وقال فى لهجة جافة :

— فى رأيى ان ذلك كله كذب فى كذب ! قد يكون بعضهم قذف بملابسه فعلاً لكى يصبح أخف حركة ، ولكن ما الذى يجعل الناس يزيفون الواقع مائة مرة ؟ قضية كبيرة . . . سترة ، أو فروة ! الحياة أغلى من هذه بكثير . . . أم لا ، أنا أسألك ؟ أضف الى ذلك ، أنه ليس فى استطاعة كل عجوز أن يركض بصورة جيدة وهو فى ملابسه . فى هذه الحرب اللعينة ،

يحتاج المرء الى ساقين كسيقان كلبة بوروزية . وخذنى مثالاً : أين يمكن ان أحصل على سيقان كهذه ؟ وفيم اهتمامك الزائد هذا كله ، يا فيليب ايجفتش ؟ فليغفر الله لى ، ولكن ما نفعها — أعنى ، الفروات — لك ، بحق الشيطان ؟ ليست المسألة مسألة فروات ، ولا حتى سترات ، ولكنها جلد العدو جلداً طيباً فعلاً . هكذا ، أليس كذلك ؟ حسن ، طاب يومك ، سرحنا فى الحديث ، والعمل فى انتظارى . وبالمناسبة ، هل عثرت على جديك ؟ أما زلت تبحث عنه ؟ لا خبر عنه ؟ حسن ، أظن أن رجال الخوبر أكلوه ، عسى أن يختنقوا به ! ولكن ، لا تحمل نفسك الهموم بسبب الحرب . لسوف يلقن رجالنا أولئك الفلاحين درساً لن ينسوه !

وخطا بانتلاى باتجاه الدرجات فى خطو وقور .

غير أن من الواضح أن الأمر لم يكن فى سهولة «تلقين أولئك الفلاحين درساً لن ينسوه» . فما كان الهجوم القوزاقى الأخير ممكناً بدون تكبد خسائر فادحة . ولم تكد تمضى ساعة على حديث بانتلاى مع بسخليبنوف حتى بلغته أنباء سيئة أحالت مزاجه البهيج الى كآبة وغم . فبينما كان يصلح من أمر لوح خشبى لاطار البئر ، سمع امرأة تعول وتندب الموتى . ثم اقتربت الأصوات ، فأرسل بانتلاى دونيا لتقصى جلية الأمر قائلاً ، وهو يحط فأسه على خشبة التقطيع :

— اهرعى واكتشفى من الميت ؟

وسرعان ما عادت دونيا بنبأ أن ثلاثة قوزاق قتلى قد جىء بهم من جبهة الدون الأعلى : أنيكوشكا ، كريستونيا ، وثالث ، فتى من طرف القرية الآخر يبلغ من العمر السابعة عشرة . فنزل الخبر على بانتلاى كالصاعقة ، وانعقد لسانه . فخلع قبعته ورسم

اشارة الصليب على نفسه . وتمتم ، كليم الفؤاد :

— عسى الله يسكنهم مملكته !

وأضاف متذكراً كريستونيا ، وكيف أنهما ، هو وكريستونيا ، كانا قد انطلقا من القرية للذهاب الى نقطة التجمع :

— كان قوزاقياً طيباً !

ولم يعد فى مقدوره الاستمرار فى العمل . كانت زوجة أنيكوشكا تعول وكأن سكيناً يحز رقبتها ، وتندب بمرارة جعلت قلب العجوز يغور أسى ، فدلف الى داخل الدار ليبتعد عن الصراخ الأليم ، وأغلق الباب وراءه . فألفى دونيا فى غرفة الضيوف تغص بالكلمات انفعالاً فيما كانت تروى ما رأت لايلينشنا :

— نظرت . . . نظرت ، يا أماه العزيزة ، فاذا أنيكوشكا . . . لا يكاد يبقى من رأسه شىء ، أبداً . . . لم يكن سوى خليط دبق . أواه ، كان فظيعاً ! وكانت تنبعث منه رائحة كريهة بحيث كان بامكان المرء أن يشمها من مبعدة فرست ، لماذا جاءوا بهم الى القرية ، لا أدرى ! لكن كريستونيا كان ممدداً على ظهره على امتداد العربة كلها ، وساقاه متدليتان من تحت معطفه الثقيل . . . كان نظيفاً ، وشديد البياض . . . شديد البياض وكأنه صنع من جليد . لكن ، تحت عينه اليمنى ، كان هناك ثقب صغير ، لا أكبر من قطعة من فئة الكوبك ، وكان المرء يستطيع أن يرى الدم خلف أذنه .

فبصق بانتلاى محنقاً ، وخرج الى الفناء وأخذ الفأس ومجذافاً ومضى يقزل بهما باتجاه الدون . وفيما كان يمشى نادى ميشاتكا الذى كان يلعب بجوار المطبخ الصيفى :

— قل لجدتك اننى عبرت بالزورق الى ضفة النهر الأخرى لقطع شىء من الحطب . أسمعت يا عزيزى ؟

فى الغابات الممتدة وراء الدون ، كان الخريف الجليل قد استقر به المقام . كانت الأوراق اليابسة تتساقط ، مخشخشة ، من أشجار الحور . وبدت أجمات الشوك كأنها ملفعة باللهب ، ومن خلل أوراقها النزر كانت حبات التوت البرى القرمزية تتوهج مثل ألسنة صغيرة من النار . وتشبّعت الغابة بالرائحة المرّة النفاذة للحاء أشجار السنديان المتعفنة . واشتبكت على الأرض أجمات التوت البرى الأزرق ، كثيفة شائكة ، وتحت شبكة أغصانها الزاحفة ، أخفت عناقيد التوت الزرقاء القاتمة نفسها عن الشمس بشكل حاذق . وفى الفىء ، كان العشب الميت لا يزال يحمل قطرات الندى ، وثمة نسيج عنكبوت يتألق فضياً مع القطرات . ولم يكن ثمة ما يفسد السكون الشامل سوى ضربات طير نقار الخشب المنتظمة وتغريد طيور دج الدبق .

فترك جمال الغابة الساكن الجليل أثراً مهدئاً فى نفس بانتلاى . وفيما كان يخطو على مهل بين الأجمات ، وقدماه تخربشان على الغطاء الندى من الأوراق الساقطة ، حدث نفسه :

— تلك هى الحياة ، تلك هى ! قبل قليل ، كانوا أحياء ، واليوم يمددون فى القبور . وعلى رأس أى قوزاقى نزلت النازلة ؟ فكأن ذلك حدث بالامس حين جاء يزورنا ، ووقف عند النهر حينما كنا نخرج جثة داريا . آه ، يا كريستونيا . اذن ، كانت هناك رصاصة أعداء فى انتظارك أنت أيضاً ! وأنيكوشكا . ما كان أظرفه ! كان يحب الشراب والهزل ، أما الآن ، فلم يعد سوى جثة !

وتذكر بانتلاى وصف دونيا ، واستعاد بصفاء عجيب وجه أنيكوشكا البسام الأملط الأنثوى ، فتعذر عليه تصوره ميتاً ، مهشم الرأس . ولام نفسه حين تذكر كلامه مع بسخليبنوف :

— لقد أخطأت حينما أغضبت الله بتفاخرى الكاذب عن غريغورى . من يدرى ، فلربما غريغورى نفسه ممدد ، الآن ، فى مكان ما ، وقد نقره الرصاص تنقيراً . لا سمح الله ! فمن سيعتنى بنا ، نحن الكهول ، حينذاك ؟

وفجأة انطلق ديك غاب من تحت احدى الأجمات ، فانكفأ بانتلاى فزعاً . ولبث يراقب خط الطيران المائل النزق الذى اتخذه الطير الصغير ، ثم استأنف سيره . وبحذاء بركة غابية صغيرة أعجبه دغل هناك . فشرع يقطعه . وبينما كان يعمل ، حاول أن يفكر بأيما شىء . لقد اقتنص الموت فى سنة واحدة عدداً كبيراً من الأعزاء والأصدقاء بحيث غدا مجرد التفكير يرهق النفس ، ويشحب العالم وكأنه تكفف بسواد .

جعل يحدّث نفسه بصوت مسموع كى يصرف الأفكار عن ذهنه :

— الآن ، على أن أقطع هذا الدغل ! انه دغل ممتاز ، أى نعم ! ملائم لصنع سياج اسفندانى .

وحينما قطع شوطاً كافياً من العمل ، خلع سترته وجلس على كومة الدغل المقطوع . وجعل يعب رائحة الأوراق الذاوية الحريفة عباً ، وهو يتطلع الى الأفق البعيد وقد تداخل مع غلالة الضباب اللازوردى ، والى الأجمات المموهة بصفرة الخريف وهى تتألق بجمالها الأخير وعلى مسافة ليست ببعيدة ، كانت هناك شجيرة اسفندان ، ذات جمال لا يوصف تتوهج ، بمجموعها ، تحت شمس الخريف الباردة ، وأغصانها المنتشرة ، الثقيلة بأوراق أرجوانية ، منشورة كجناحى طائر خرافى يهم بالانطلاق من على الأرض . لبث بانتلاى مدة طويلة ينظر اليها فى اعجاب ، ثم حدث أن أنزل نظره على البركة فرأى فى الماء

الراكد الصافى الظهور السوداء لأسماك شبوط تعوم قريبة من السطح بحيث استطاع أن يرى زعانفها وذيولها الأرجوانية المتحركة . كانت حوالى ثمانى سمكات . واختفت برهة تحت الأغطية الخضر لزنابق الماء ، ثم ما عتمت أن ظهرت ثانية تسبح فى الماء الصافى منطلقة صوب الأوراق المبللة الغارقة ، المتساقطة ، من شجيرة صفصاف . كان الخريف الجاف قد جعل البركة ضحلة . ولم يكن اصطياد الشبوط ليستدعى جهداً فائقاً . وسرعان ما استطاع بانتلاى العثور على زكيبة لا قعر لها تركت على جانب بركة مجاورة . فعاد الى البركة الأولى ونزع بنطلونه وخاض بالزكيبة فى الماء ، محمحماً ومرتعشاً ، وهو يضغط على طرفها الأسفل باتجاه قاع البركة ، ومن حين لآخر ، يدس يده داخلاً للتأكد من انها كانت تحتوى على سمكة قوية تطش الماء وتبقبق . وتكللت جهوده بالنجاح ، اذ أفلح فى اصطياد ثلاث شبوطات ، زنة كل منها زهاء عشرة أرطال . بيد أنه لم يعد بمقدوره الاستمرار فى الصيد ، اذ ان برودة الماء جعلت ساقه العرجاء تتشنج . وكان الرضى قد شاع فى نفسه للصيد الذى أصابه ، فمسح ساقيه حتى جفتا . وارتدى ثيابه ، وشرع ثانية يقطع الحطب ابتغاء الدفء . ومهما يكن من أمر ، فقد أنجز عمل يوم طيباً . فليس من نصيب كائن من كان أن يفلح فى اصطياد ثلاث سمكات يكاد وزنها ينوف على الثلاثين رطلاً ! وكان الصيد قد حرف أفكاره وأجلى عنه مزاجه الكئيب . وعزم على العودة الى البركة فى وقت لاحق لاصطياد بقية السمك ، فقام يخفى الزكيبة باحتراس ، متلفتاً حوله فى قلق للتأكد من ان أحداً لم يره فيما كان يمضى بالشبوطات السمينة الذهبية ، التى تكاد تشبه الخنازير شكلاً ، نحو شاطئ النهر . ثم ربط السمكات بعسلوج ،

ورفع حمله من الحطب واتخذ طريقه ، متمهلاً ، صوب النهر .

حين بلغ الدار ، أخبر ايلينشنا عما أصاب من حظ فى الصيد ، وابتسامة رضية على فمه ، وألقى من جديد نظرة اعجاب على اللون النحاسى المائل الى الاحمرار للشبوطات . غير أن ايلينشنا لم تكن مستعدة لمشاركته أفراحه . كانت قد ذهبت لالقاء نظرة على القتلى ، فعادت حزينة دامعة العينين . وتساءلت :

— هل ستذهب لترى أنيكوشكا ؟

— كلا . لن أذهب . ألم أر موتى من قبل قط ؟ لقد رأيت ما يكفينى بقية عمرى .

— قد يكون أحسن لو ذهبت . عدم مجيئك غير مناسب . سيقولون بأنك لم تأتِ لوداعه .

— اتركينى من أجل المسيح . انا لم اعتمد الاطفال معه وليس هناك داع لوداعى له ! — أجاب بنتلاى بروكوفتش باستياء وضجر .

ولم يكن قد ذهب الى تشييع الجنازة بل عبر الدون عند الصباح وبقى هناك يوماً كاملاً . وأجبره رنين النواقيس ان يخلع قبعته وهو فى الغابة وان يرسم شارة الصليب . ومن ثم زعل على القس : هل من المعقول ان يرن الناقوس فترة طويلة بهذا الشكل ؟ كان يكفى لو ان النواقيس قرعت مرة واحدة فقط ولكنه ظل يقرع لساعة كاملة ! وما الفائدة من كل هذا الرنين . ليؤلم قلوب الناس فقط ويجعلهم يتذكرون الموت مرة زائدة . كان كل شىء فى الخريف يذكر به بلا قرع نواقيس : الورق المتساقط وصراخ الاوز الطائر فى السماء الزرقاء فوق القرية والعشب المنبسط الميت . . .

ومهما حاول بنتلاى بروكوفتش أن يجنّب نفسه الانفعلات

النفسية العصيبة ، الا أنه سرعان ما اضطر الى تحمل صدمة جديدة . ذات يوم اثناء تناول الغداء نظرت دونيا الى النافذة وقالت :

— انهم يأتون بميت آخر من الجبهة . وهناك حصان يسير مسرج وراء العربة مربوطاً بقوسها . لا يتعجلون . . . احدهم يقود الحصانين والميت مغطى بمعطف ثقيل . والرجل الذى يقود الحصانين يجلس وظهره الينا ولا استطيع ان اميزه : هل هو من قريتنا او لا . . . أمعنت دونيا النظر واصبحت وجنتيها بيضاوين كالكتان : . . . هذا . . . هذا انه . . . — همست بصوت غير واضح وفجأة صرخت برعب انهم يوصلون غريشا ! . . . وذاك الحصان حصانه !

— وركضت مرتعبة الى الخارج .

غطت ايلينشنا عينيها براحة يدها دون أن تنهض من الطاولة . اما بنتلاى بروكوفتش فنهض بصعوبة من المصطبة وذهب الى الباب مادّاً ذراعيه كالأعمى .

فتح بروخور زيكوف البوابة وألقى نظرة سريعة الى دونيا وهى تنزل من العتبة وقال بلا سرور :

— استقبلوا الضيوف . . . هل كنتم فى انتظارنا ؟

— يا حبيبنا ! يا أخى ! — أنّت دونيا شابكة يديها .

وعندئذ فقط ، أراد بروخور أن يقول وهو ينظر الى وجهها المبلل بالدموع والى بنتلاى بروكوفتش الواقف صامتاً على العتبة :

— لا تخافوا . لا تخافوا ! انه حى . ولكنه مصاب بالتيفوس .

استند بنتلاى بروكوفتش بظهره منهوك القوى بظهره الى اطار الباب .

— انه حى ! ! ! — صاخت له دونيا وهى تضحك وتبكى . — غريشا حى ! هل تسمع ؟ ! جاءوا به مريضاً . اذهب وقل ذلك لأمي ! اذهب ، لماذا تقف ؟ !

— لا تخف ، يا بنتلاى بروكوفتش ! أوصلته حياً ودع عنك صحته — أكد بروخور بعجلة وهو يدخل الحصانين الى داخل الدار .

خطا بنتلاى بروكوفتش عدة خطوات غير ثابتة وجلس على احد الدرجات . وقد اندفعت دونيا مارة به كالعاصفة هارعة الى البيت لتهدئ أمها . أوقف بروخور الحصانين قرب العتبة ونظر الى بنتلاى بروكوفتش .

— لماذا جلست ؟ احضر البطانية لنحمله .

كان بنتلاى بروكوفتش يجلس صامتاً ووجهه لا يتحرك والدموع تتدفق من عينيه . رفع يده مرتين لكى يرسم شارة صليب ولكنه انزلها لعجزه من اتمام ذلك . وكان شيء فى بلعومه يبقبق ويخرخر .

— جننت من الذعر ، كما يبدو . — قال بروخور آسفاً . — وكيف لم يخطر على بال ارسال احد لينبهكم مسبقاً ؟ أصبحتُ احمق ، فعلاً احمق ، لا أكثر ! طيب قم ، يا بروكوفتش ، يجب نقل المريض . اين البطانية ؟ او نحمله بدونها ؟

— انتظر قليلاً . . . — قال بنتلاى بروكوفتش بصوت أبحّ — شُلت رجلاي . . . فكرت انه مقتول . . . حمداً لله . . . لم أكن أتوقع . . .

وفك ، بسرعة ، أزرار ياقة قميصه ، وفتحها ، وعب الهواء خلل فمه المفغور .

فاستحثه بروخور قائلاً :

— هيا ، هيا ، يا بروكوفيتش ! ليس هناك من يحمله الى الداخل غيرنا ، أليس كذلك ؟

فنهض بانتلاى فى مشقة ونزل درجات العتبة ، ثم رفع المعطف الثقيل وانحنى على غريغورى الغائب عن الوعى . وشرع شيء ما يغرغر فى بلعومه ، الا أنه أمسك بزمام نفسه والتفت الى بروخور قائلاً :

— امسك بساقيه . سنحمله .

وحملا غريغورى الى غرفة الضيوف حيث نزعا جزمته وخلعا ملابسه ومدداه على السرير . ومن المطبخ جاء هتاف دونيا قلقاً :

— أبتاه ! أمى فى حالة سيئة ! تعال !

كانت ايلينشنا متمددة على أرضية المطبخ ، ودونيا راكعة بجانبها ترش الماء على وجهها الشاحب . فأصدر بانتلاى أمره :

— اركضى وابحثى عن العجوز كابيتونوفنا ، بسرعة ! هى تعرف كيف تفصد الدم . قولى لها ان أمك بحاجة الى فصد الدم . أخبريها أن تجلب أدواتها معها .

لكن دونيا ، وهى الفتاة التى كانت فى عمر الزواج ، ما كانت لتركض فى القرية حاسرة الرأس . فخطفت عصابة وقالت وهى تلفع رأسها على عجل :

— الطفلان استبد بهما الفزع . يا آلهى ، ما أكثر المصائب التى تجمعت فى هذا اليوم ! . . اعتن بهما ، يا أبتاه ، وسأعود بعد لحظة .

وكان من الجائز أن تتوقف دونيا كى تلقى نظرة على هيئتها فى المرآة ، لكن بانتلاى ، الذى كان قد استعاد رباطة جأشه الآن ، سدد اليها نظرة كانت من الضراوة بحيث جعلتها تنطلق خارجة من المطبخ لا تلوى على شيء .

وبينما كانت تركض خارجة من البوابة الصغيرة ، رأت أكسينيا . لم تكن فى وجه أكسينيا الأبيض قطرة دم واحدة . كانت تقف متكئة على سياج الاسفندان ، ويداها مدلاتان بلا حياة . ولم تتألق دموع فى عينيها السوداوين المضببتين ، ولكن كان فيهما من الألم والتضرع الأخرس ما جعل دونيا تتوقف ثانية وتقول مترددة ، ومثيرة العجب فى نفسها :

— انه حى ، حى ! مصاب بالتيفوس .

وانطلقت فى الزقاق الجانبى بأقصى سرعتها مسندة بيديها نهديها اللدنين المتراقصين .

ومن كل صوب وحدب ، تقاطرت النساء المتسائلات مسرعات صوب فناء آل ميليخوف . فشاهدوا أكسينيا تبتعد ببطء عن البوابة الصغيرة ، ثم تسرع خطاها فجأة ، وتخفى رأسها وتغطى وجهها بيديها .

٢٥

شهر مضى ، وأبل غريغورى من مرضه . كان أول قيامه من فراش المرض فى أواخر تشرين الثانى ، فبدا طويلاً ، نحيلاً مثل هيكل عظمى ، وقطع الغرفة فى مشى مترنح وتوقف ازاء النافذة .

كان رشاش من ثلج جديد يتألق ببياض باهر على الأرض وعلى السقوف المغطاة بالقش . وكانت آثار الزحافات تُرى فى الزقاق الجانبى . وانتشر على الأسيجة والأشجار ندف أزرق من الثلج ، متألق بألوان قوس قزح تحت أشعة الشمس الغاربة .

فلبث غريغورى واقفاً يحدّق عبر الشباك ويبتسم متفكراً ، وهو يمسّد شاربيه بيديه النحيلتين . ولو رآه امرؤ فى حالته تلك

لحسب أنه لم يكن قد رأى فى حياته شتاء مهيباً كهذا . كان كل شىء ، بالنسبة اليه ، عجيباً ، مشبعاً بالنضارة والدلالة . وبدا كأن المرض قد قوّى بصره ، فطفق يكتشف أشياء جديدة فيما حوله ، ويلاحظ تبدلات قد طرأت على أشياء كان قد عرفها سنين عديدة .

وتولدت لديه ، فجأة ، رغبة عجيبة فى التقصى والاهتمام بكل ما كان يجرى فى القرية والحقل . واتخذ كل شىء فى حياته مغزى خفياً جديداً ، وغدا كل شىء يجلب اهتمامه . وبعينين تعبران عن شىء من التعجب ، جعل ينظر الى العالم الجديد الذى تكشف له . فحامت ابتسامة ساذجة طفولية على وجهه ، مؤلفة تضاداً عجيباً مع سيمائه الخشنة ، وتعبير عينيه الشيهتين بعيون الحيوانات ، وبين الفينة والفينة ، كان يلتقط حاجة منزلية عرفها منذ الصغر ، ويتفحصها ، عاقداً حاجبيه بشدة وهو يمعن النظر فيها وكأنه امرؤ كان قد وصل تواً من أرض قصية غريبة ووقع نظره عليها لأول مرة . وقد استبدت الدهشة بايليشنا الى أقصى حد حينما وجدته ذات يوم يتفحص مغزلاً من جميع جوانبه . وفى اللحظة التى وصلت فيها الغرفة ، ابتعد عن المغزل محرجاً بعض الشىء .

أما دونيا فلم تكن تستطيع رؤية هيكله الضامر ، بارز العظام ، دون أن تضحك . كان يتجول داخل الغرفة بملابسه الداخلية فقط ، ممسكاً بسرواله الداخلى المنزلق ، حادباً ظهره ، مستعيناً بساقيه النحيفتين العظميتين على نحو مضطرب . واذا ما كان يجلس ، كان يمسك بيده شيئاً مخافة السقوط . وكان شعره الأسود ، الذى طال فى مرضه ، يتساقط ، وأمست ناصيته المجعدة الشائبة خفيفة مسترسلة .

جعلت دونيا تساعده فى حلاقة رأسه ، وحينما أدار وجهه ناحية دونيا أسقطت الموسى من يدها على الأرض ، وأمسكت ببطنها وانكفأت على السرير تكاد تختنق ضحكاً .

فلبث غريغورى ينتظر أن تشبع ضحكاً ، لكنه ، أخيراً ، لم يعد يستطيع مزيداً من الانتظار فقال فى صوت عميق واهن مرتعش :

— حاذرى ألا تندفعى فى ضحكك ! ستخجلين من نفسك فيما بعد ، فأنت امرأة الآن ، كما لا يخفى عليك !

وكانت تشوب كلماته لمحة من كدر .

— أوه يا أخى ! يا عزيزى ! يحسن بى أن أخرج . . . لا طاقة لى ! أوه ، منظرك ! عجباً ، انت صورة طبق الأصل من دمية الحقل ! *

وكانت الكلمات لا تكاد تخرج من فم دونيا فى نوبة الضحك التى انتابتها .

— بودى أن أرى كيف سيكون منظرك بعد اصابتك أنت بالتيفوس ! التقطى الموسى ! الآن !

وهنا تولت ايلينشنا تقريعها نيابة عنه ، قائلة فى لهجة محنقة :

— فيم صهيلك هذا كله ؟ ما أنت الا حمقاء ، يا دونيا !

فقالت دونيا وهى تمسح دموعها :

— لكن ، أنظرى كيف يبدو ، يا أمي ! ان رأسه مغطى

---

* دمية الحقل : نصب ، أشبه بالدمية ، على صورة انسان لذود الطير عن الثمر والبذور . **المترجمون** .

بالتوءات ، وهو كروى مثل بطيخة ، وغامق اللون مثلها . . . أوه ، ليس لدى مزيد من الطاقة !

فطلب اليها غريغورى قائلاً :

— اعطنى مرآة .

ونظر فى كسرة المرآة الصغيرة ، وظل بعد ذلك يضحك ، هو الآخر ، مدة طويلة ضحكاً صامتاً .

وقالت ايلينشنا متضايقة :

— لِـمَ حلقت رأسك ، يا بنى ؟ كان الأفضل أن تتركه كما كان .

— يعنى تعتقدين من الأفضل أن أصير أصلع ؟

— حسن ، ولكن ، حتى شكلك الحاضر ، انما هو عيب شنيع . . .

فقال غريغورى مغضباً وهو يخفق رغوة صابونية بفرشاته :

— أوه ، انك لا تطاقين !

ولما كان غير قادر على الخروج من البيت ، فقد كان يقضى الكثير من وقته مع طفليه يحدثهما عن كل شىء ، لكنه كان يتجنب ذكر ناتاليا . غير أن بوليوشكا التصقت به ذات يوم وسألته :

— بابا ، ألن تعود ماما الينا ؟

— لا يا عزيزتى . فالناس لا يعودون من هناك .

— من أين ؟ من المقبرة ؟

— اسمعى . الموتى لا يعودون أبداً .

— ولكن ، هل هى ميتة تماماً ؟

— عجباً ، وكيف لا ؟ لا شك أنها ميتة .

فهمست بوليوشكا همساً لا يكاد يسمع :

— لكننى ظننت أنها ، ربما ، بدأت تشتاق الينا وتعود . . .

فقال غريغورى بصوت أجش :

— لا تفكرى بها ، يا عزيزتى . من الأفضل ألا تفكرى بها .

— وكيف أستطيع ألا أفكر بها ؟ ولكن ، ألا يأتون لرؤيتنا أبداً ؟ حتى ولا لحظة من الوقت ؟ مطلقاً ؟

— كلا . اذهبى الآن والعبى مع ميشاتكا .

وأشاح غريغورى بوجهه . كان جلياً أن المرض قد سلبه قوة ارادته . فترقرقت عيناه بالدموع ، ولكى يخفيها عن الطفلين ، قام ولبث واقفاً عند النافذة مدة طويلة ووجهه لصيق بالزجاج .

كان لا يحب الحديث عن الحرب مع طفليه ، بيد أن ميشاتكا كان مولعاً بالحرب أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا . وكان غالباً ما يضايق والده بالأسئلة : كيف حارب الناس ، وكيف كان الحمر ، وبم كانوا يقتلون ، ولأى سبب ؟ فكان وجه غريغورى يتجهم ويجيب مغتاظاً :

— عدت الى النغمة القديمة من جديد ؟ لماذا تقلقك . . . هذه الحرب ؟ لنتكلم عن صيدنا للسمك بالصنارات حينما يأتى الصيف . أتريدنى أن أعمل لك صنارة ؟ حالما أستطيع الخروج الى الفناء سأبرم لك خيطاً من ذيل الحصان .

كان يستشعر خجلاً داخلياً كلما شرع ميشاتكا يتحدث عن الحرب . كان لا يجد أجوبة على أسئلة الطفل الساذجة . من كان بمقدوره أن يقول لماذا ؟ ربما لأنه ، هو نفسه ، لم يجد أجوبة على هذه الأسئلة . ولكن ، لم يكن من اليسير الخلاص من ميشاتكا . كانت تبدو عليه علائم الانتباه الدقيق لمشاريع والده عن صيد السمك ، لكنه سرعان ما يعود الى السؤال :

— بابا ، هل قتلت أحداً فى الحرب ؟

— كفاك ان تزعجنى ، أيها الثرثار الصغير !

— هل تستشعر بالخوف حينما تقتلهم ؟ هل يسيل الدم منهم حينما يقتلون ؟ كثير من الدم ؟ أكثر مما يسيل من دجاجة أو خروف ؟

— طلبت اليك أن تتوقف عن كل هذا الكلام !

فيصمت ميشاتكا هنيهة ، ثم يقول متفكراً :

— رأيت جدى يقتل خروفاً قبل مدة قصيرة . لم أشعر بالخوف . . . ربما قليلاً جداً جداً ، ولكن ليس خوفاً حقيقياً .

فتقول ايلينشنا مغضبة :

— أبعده عنك ! سينقلب قاتلاً علاوة على ذلك ، مجرماً حقيقياً ! كل ما يتحدث عنه هو الحرب . لا يعرف أى شىء آخر للحديث . من سمع بطفل يتحدث عن هذه الحرب اللعينة ، غفرانك يا رب ؟ تعال هنا ! خذ هذه الكعكة الحلوة ، ستسكتك قليلاً على الأقل .

هيهات ، ففى كل يوم كانت الحرب تذكرهم بوجودها . كان القوزاق يعودون من الجبهة ويأتون لزيارة غريغورى ويخبرونه كيف دحر فرسان بوديونى الجنرالين شكورو ومامونتوف ، وعن المعارك الفاشلة فى أوريل ، والتقهقر الذى شمل جميع الجبهات . وقُتل قوزاقيان آخران من تتارسكى أثناء القتال فى كريبانوفسكايا وكاراديل . وجىء بجيراسيم أخفانكين جريحاً الى القرية ، كما أن ديمترى كولوستشوكوف قد مات بالتيفوس . واستعرض غريغورى جميع قوزاق قريته الذين قُتلوا فى الحربين ، وتبين أنه لم يبق بيت فى تتارسكى بلا ميت .

كان غريغورى لا يزال غير قادر على مغادرة البيت حين جاءه أتمان القرية بأمر كان قد تسلمه من أتمان المنطقة يقضى

بابلاغ آمر السرية ميليخوف بأن عليه أن يمثل على الفور أمام لجنة طبية لاجراء فحص آخر عليه .

فقال غريغورى غاضباً :

— أجبه بكتاب وقل له اننى حالما أتعلم السير سآتى بملء ارادتى ، دون حاجة الى أمر تذكير .

كانت الجبهة تقترب ، بانتظام ، من الدون . وفى القرية بدأ الحديث يتجدد ، كرة أخرى ، عن التراجع . وسرعان ما تلى فى ساحة القرية أمر صادر من أتمان الاقليم يقضى بوجوب اشتراك جميع القوزاق الراشدين فى عملية التراجع .

— عاد بانتلاى من الساحة الى الدار وأخبر غريغورى بمضمون الأمر ، وقال :

— ماذا سنفعل ؟

فهز غريغورى كتفيه :

— ماذا فى استطاعتنا أن نفعل ؟ علينا أن نتراجع . حتى بدون هذا الأمر ، سيشترك الجميع فى التراجع .

— انا أتحدث عنك وعنى . . . هل سنمضى معاً ، أم ماذا ؟

— لا نستطيع أن نمضى معاً . فى غضون يوم أو يومين سأذهب الى فيشنسكايا لمعرفة القطعات التى ستمر من هنا ، لكى أنضم الى احدى الكتائب . أما بالنسبة اليك ، فيتعين عليك الهروب لاجئاً . أم تراك ترغب فى الالتحاق بقوة عسكرية ؟

فقال بانتلاى فزعاً :

— لا سمح الله ! اذا كانت الحالة كهذه ، سأرحل مع الثرثار العجوز بسخليبنوف . قبل أيام دعانى لمرافقته فى الرحلة ، انه عجوز مسالم ، ولديه حصان جيد ، وعليه فاننا سنعد حصانه وفرسى وننطلق . لقد آن الأوان للفرس أن تتخلص من بعض

سمنتها . غدت تأكل بنهم كما يأكل الخنزير ، وهى ترفس رفسات فظيعة .

فأيد غريغورى الفكرة راضياً :

— حسن ، فاذهب معه . وفى غضون ذلك ، دعنا نتباحث حول الطريق الذى ستتخذه ، فربما سأتخذ الطريق نفسه .

وأخرج من حقيبة الميدان خريطة لروسيا الجنوبية وبين لوالده القرى التى سيتعين على العجوز السفر خلالها ، ثم شرع يكتب الأسماء على ورقة . بيد أن العجوز ، الذى كان يتفحص الخريطة باحترام ، اعترض قائلاً :

— قف ، لا تكتبها ! لا شك أنك تفهم فى هذه الأمور أحسن منى ، والخريطة شىء لا يستهان به . انها لا تكذب مطلقاً بل تريك الطريق المستقيم . ولكن ، كيف لى أن أحافظ على الطريق نفسه اذا كان غير ملائم لى ؟ أنت تقول ان علينا أن نمر ، أول ما نمر ، بكارغينسكايا ، وباستطاعتى ، حقاً ، أن أرى بأنه طريق أكثر استقامة ومع ذلك فيتوجب علىّ أن أسلك طريقاً منحرفاً .

— ولماذا يتوجب ذلك عليك ؟

— لأن لدىّ ابن عم لحّاً يعيش فى لاتيشيف ، وأستطيع أن أحصل منه على طعام لى وللخيل . أما اذا بقيت مع غرباء فسأضطر الى استعمال الطعام الذى معى . وتقول أيضاً ان علىّ أن أمر بقرية أستاخوف . أنا أدرى أن هذا هو الطريق الأكثر استقامة ، لكننى سأمر بمالاخوفسكى . فلدىّ ، هناك أيضاً ، أقرباء بعيدون ، وأستطيع أن أبقى على تبنى وأستعمل تبن الآخرين . تذكّر ، أنك لا تقدر أن تحمل كومة من التبن معك أينما ذهبت ، وقد تجد من الصعب عليك ، وأنت فى منطقة

غريبة ، حتى ابتياع التبن ، ناهيك عن استجدائه .

فتساءل غريغورى متخابثاً :

— ولكن ، أليس لديك أقرباء فى الجانب الآخر من الدون ؟

— بلى ، لدىّ .

— اذن ، فأحسب أنك ستذهب الى ذلك الجانب أيضاً .

فهاج بانتلاى غضباً :

— لا تفه بالترهات . تكلم فى الموضوع ، ولا تحاول أن تكون ظريفاً ! ما أنسبه من وقت للتنكيت ! لعمرى أن لدينا رجلاً ذكياً فى العائلة هذه الأيام !

— لا حاجة بك لزيارة جميع أقربائك . التراجع هو التراجع ، وليس هو قضية زيارة الأقارب . ليس الوقت وقت مهرجان .

— حسن ، لا تدلنى على الطريق ، فأنا أعرفه بدونك .

— ان كنت تعرف ، فاذهب حيث تشاء .

— لا فائدة فى السير وفق خططك . العقعق وحده يطير باتجاه مستقيم ، لا بد أنك سمعت بهذا المثل ، أليس كذلك ؟ قد أمضى الى حيث يدرى الشيطان ، فى أماكن حيث لا طرق فى الشتاء بتاتاً . هل كنت حقاً تستخدم عقلك حينما شرعت تفوه بهذه الترهات ؟ والأدهى ، أنك كنت قائد فرقة !

واستمر غريغورى والعجوز يتجادلان زمناً طويلاً ، غير أن غريغورى اضطر ، بعد أن قلّب الأمر فى فكره ، الى الاقرار بأن ملاحظات العجوز كانت على جانب كبير من الصحة ، فقال فى لهجة مراضاة :

— لا تغضب ، يا أبتاه ، لن أحاول اجبارك على اتباع

طريقى . امض حيثما تشاء . وسأحاول أن أعثر عليك فى الجانب الآخر من الدونيتس .

فابتهج بانتلاى وقال :

— كان عليك أن تقول هذا منذ وقت بعيد . امض فى اقتراح شتى أنواع الخطط والطرق ، ولكن الشىء الوحيد الذى لن تفهمه هو أن الخطة شىء ، فى حين أن الخيل لا تستطيع السير الى أيما مكان بلا علف ، وهذا شىء ثان .

وشرع العجوز يعد عدته للرحيل فى هدوء حتى حينما كان غريغورى لا يزال مريضاً . فأطعم فرسه بعناية غير اعتيادية ، وأصلح الزحافة ، وأوصى أن يصنع له زوج جديد من الأحذية اللبادية ، وأضاف لهما نعلاً جلدياً من عنده لكى لا تنفذ فيهما الرطوبة والبلل فى الطرق المبللة ، كما سبق له أن ملأ زكائب بشوفان منتقى . ولقد كان سيد دار حقيقياً فى اتخاذه التحضيرات ، حتى بعملية التراجع ، مهيئاً ، بحصافة ، كل ما يمكن أن يكون ذا فائدة فى الرحلة : فمن فأس ، الى منشار يدوى وازميل وأدوات رتق الأحذية ، الى خيوط ونعال احتياطية ومسامير ومطرقة وحزمة من السيور وحبال وكتلة من القار ، كل شىء نزولاً الى حدوات الخيل ومسامير الحدوات ، لفه بالقماش المشمع وغدا مهيئاً لوضعه على الزحافة خلال دقيقة واحدة . حتى أنه اقترح أن يأخذ قباناً معه ، وحينما استفسرت ايلينشنا عن حاجته الى القبان أجابها لائماً :

— تعرفين ، أيتها الزوجة ، أنك كلما حاولت أكثر أصبحت على درجة من الغباء أكبر . هل حقاً أنك لا تستطيعين الجواب على سؤال بسيط كهذا بنفسك ؟ ألن يتوجب علىّ شراء نشارة أو تبن بالوزن أثناء التراجع ؟ هل يقيسون التبن باليادرة ؟

فتساءلت ايلينشنا مستغربة :

— ولكن ، ألن تكون لدى الناس قباناتهم ؟

فأمسى بانتلاى محنقاً :

— آنى للمرء أن يعرف نوع القبانات التى سيستعملونها ؟ لعل جميع موازينهم مغشوشة ، لكى يعطوا موازين أقل لمن هم على شاكلتنا . هذا هو الموضوع ! نحن أعرف بنوعية الناس الذين يعيشون هناك ! تشترين ثلاثين رطلاً ، لكنك تدفعين من النقود ما يكفى لبود • . واذا كان علىّ أن أشهد مثل هذه الخسارة فى كل مرة نتوقف فيها ، فمن الخير أن آخذ قبانى معى . انه لن يخوننا فى الوزن ! وتستطيعين أنت أن تتدبرى أمورك بدون قبان ، اذ ماذا يمكن ، بحق الشيطان ، أن تكون فائدته لك ؟ اذا جاء الجيش ، فسيأخذ التبن دون وزن . وكل ما يهمهم هو شحنه بعرباتهم . لقد رأيتهم ، أولئك الأبالسة ذوى القرون المقطوعة ! اننى أعرفهم تمام المعرفة !

وفى البدء ، خطر له حتى أن يأخذ عربة صغيرة يضعها فوق الزحافة ، كى لا يبدد نقوده فى شراء واحدة فى الربيع . لكنه فكر فى الامر من جديد ، ثم قرر التخلى عن هذه الفكرة الفاشلة .

وشرع غريغورى ، هو الآخر ، يعد عدته . فنظف بندقيته الماوزر ، وبندقيته الاعتيادية ، وهيأ سيفه الوفى . وبعد مضى أسبوع على تعافيه ، خرج الى الفناء ليلقى نظرة على حصانه ، وحينما شاهد مذيلته المتألقة اقتنع ، راضياً ، بأن العجوز لم يقتصر على اطعام فرسه هو فقط ، فارتقى حصانه بصعوبة ،

• البود : ٣٦ رطلا . **المترجمون** .

ومضى به مسافة طويلة ، وعند عودته الى الدار شاهد — أو ربما خيل اليه أنه شاهد — أحداً يلوّح له بمنديل أبيض عبر شباك كوخ آل أستاخوف .

قرر رجال تتارسكى فى اجتماع مجلس القرية أن يغادروها فى يوم واحد . فلبثت النسوة يومين يخبزن ويقلين شتى أصناف الزاد لرحلة القوزاق . وحدد الثانى عشر من كانون الأول موعداً للرحيل . وفى المساء السابق لذلك ، وضع بانتلاى التبن والشوفان فى الزحافة . وفى اليوم التالى ، ومع انبلاج الفجر ، ارتدى فروته الثقيلة وشد نطاقه شداً محكماً ودس قفازى السياقة الجلديين الواسعين فى نطاقه وتلا دعاءه للرب ، ثم ودع عائلته .

وسرعان ما امتدت قافلة أمتعة صعد التل من القرية . وخرجت النساء الى المرعى المشاع ، ولبثن وقتاً طويلاً ، يلوحن بمناديلهن للرجال الراحلين . ثم هب نسيم خفيض على السهب ، ولم يعد بالامكان رؤية العربات الزاحفة صعد التل ببطء ولا القوزاق السائرين بجانبها ، خلل الضباب الثلجى المتوار .

التقى غريغورى بأكسينيا قبل رحيله الى فيشنسكايا . اذ انه ذهب لرؤيتها فى المساء ، حينما كانت الأنوار قد أضيئت فى القرية . وكانت أكسينيا تغزل ، فى حين كانت أرملة أنيكوشكا الى جانبها تحوك الجوارب وتروى قصة ما . واذ وقعت عينه على الزائرة ، قال لأكسينيا باقتضاب :

— تعالى الى الخارج لحظة . لدىّ شغل معك .

فى السقيفة ، وضع يده على كتفها وسألها قائلاً :

— هل تأتين معى فى التراجع ؟

فلبثت صامتة مدة طويلة تفكر بالجواب . ثم قالت فى هدوء :

— ولكن ، ماذا بشأن الحقل ؟ والخيل ؟

— يجب أن توكلى بكل شىء لاحد ما ، علينا أن نتراجع .

— ولكن ، متى ؟

— سأمر عليك غداً .

فقالت أكسينيا وهى تبتسم فى الكلام :

— أتذكر أننى قلت لك ، منذ زمن بعيد ، اننى مستعدة للذهاب معك الى نهاية العالم ؟ وأنا لا زلت كما كنت تماماً . ان حبى لك حب صادق . لسوف أذهب معك دون أن ألتفت مرة الى الوراء . متى تريدنى أن أكون فى انتظارك ؟

— عند المساء . لا تجلبى اشياء كثيرة معك . ملابس وأكثر ما تستطيعين من الطعام ، وهذا كل شىء . . . الى اللقاء .

— الى اللقاء . ولكن ، لعلك تستطيع أن تدخل الآن ؟ انها ستخرج بعد قليل ، لم أرك منذ زمن طويل ! حبيبى ، غريشا ! لكننى بدأت أظن أنك . . . لا ، لا ، لن أقوله .

— كلا ، لا أستطيع الدخول . علىّ أن أذهب الى فيشنسكايا الآن ، الى اللقاء . انتظرينى غداً .

وخرج غريغورى وعبر من خلال البوابة الصغيرة . بيد أن أكسينيا لبثت واقفة فى السقيفة ، تبتسم وتفرك براحتيها وجنتيها الملتهبتين .

° ° °

فى فيشنسكايا ، كان جلاء الدوائر والهيئات الاقليمية ومستودعات القوميسارية قد بدأ فعلاً . وفى دائرة أتمان الاقليم ، استفسر غريغورى عن الموقف فى الجبهة . فقال له ضابط شاب يعمل مساعداً :

— وصل الحمر بالقرب من الكسييفسكايا . نحن لا ندرى أية قطعات ستمر بفييشنسكايا ، أو ما اذا ستمر بها أية قطعات أصلاً . وتستطيع أن ترى بأم عينك أنه لا أحد يعرف أى شىء ، فالكل يتعجل الهرب . . . ونصيحتى اليك ألا تبحث عن كتيبتك الآن ، بل امض الى ميليروفو . أسهل عليك هناك أن تكتشف مكانها الحالى ، ومهما يكن من أمر ، فان كتيبتك ستتراجع على امتداد خط السكة الحديد . هل سيوقّف زحف العدو عند الدون ؟ كلا ، لا أظن . ستستسلم فيشنسكايا بلا قتال ، هذا شىء حتمى .

عاد غريغورى الى القرية فى ساعة متأخرة من الليل . فقالت له ايلينشنا فيما كانت تعد عشاءه :

— جاء بروخورك . جاء بعد رحيلك بساعة وقال انه سيأتى ثانية فيما بعد . لكنه لم يأت منذئذ .

فابتهج غريغورى للنبأ ، وتناول عشاءه على عجل . ثم خرج ليرى بروخور ، فرحب به مراسله بابتسامة خالية من السرور وقال :

— بدأت أحسب أنك انطلقت تتراجع من فيشنسكايا مباشرة .

فتساءل غريغورى ضاحكاً وهو يربت على كتف مراسله الوفى :

— من أين نبعت ، بحق الشيطان ؟

— من الجبهة ، طبعاً .

— فررت منها ؟

— ما الذى يجعلك تظن هذا ؟ جندى مثلى يفر ؟ حدث كل شىء فجأة . لم أشأ أن أذهب الى البلاد الدافئة بدونك . لقد ارتكبنا الخطايا معاً ، ويجب أن نمضى معاً حتى يوم القيامة .

ان أمورنا لا تسوى قرصة تبغ ، كما لا يخفى عليك .

— أجل ، أدرى . انما قل لى كيف تسنى لهم أن يعفوك من الكتيبة ؟

فقال بروخور متململاً :

— انها قصة طويلة . سأخبرك بها فيما بعد .

وأمسى أكثر كآبة .

— أين الكتيبة ؟

— الشيطان يعلم أين هى فى هذه اللحظة .

— اذا ، كم مضى عليك منذ تركتها ؟

فقال بروخور مغتاظاً وهو يلقى نظرة من طرف عينه على زوجته :

— كم أنت مزعج ، بحق الله ! بكمك وكيفك ولماذاتك . . . حيثما كنت ، أنا لم أعد هناك . قلت سأخبرك وهذا يعنى أنى سأخبرك . أنت ، أيتها الزوجة ! ألديك أى شراب ؟ حينما أقابل آمرى يجب أن أرطب صفارتى ، وعليه فهل لديك ما يُشرب ؟ لا ؟ اذا ، اركضى واحصلى على شىء منه ، واحرصى على العودة حالاً ! لقد نسيت الضبط العسكرى اثناء غياب زوجك ، لقد خرجت من يدى .

فسألت زوجته مبتسمة :

— وفيم تنفث بخار غضبك على هذا النحو ؟ تصرخ فى وجهى أكثر من اللازم ، فلست بالسيد الحقيقى للدار . أنت لا تقضى فى الدار سوى يومين كل اثنى عشر شهراً .

— الكل يصرخ فى وجهى ، وأنا لا أصرخ فى وجه أحد سواك . انتظرى حتى أرقى الى رتبة جنرال ، وآنذاك سأصرخ فى وجوه الآخرين . ولكن ، الى أن يحين ذلك الوقت ، عليك

أن تبتسمى وترضخى . البسى بزتك بسرعة ، واركضى !

وحينما ارتدت زوجته ملابس الخروج وخرجت ، سدد بروخور لغريغورى نظرة لائمة وقال :

— أتدرى ، يا بانتلاييفتش ، أنك لا تملك شيئاً من الفهم ! أنا لا أستطيع اخبارك بكل شىء بحضور امرأة ، وأنت تظل تستحثنى بكيف ولماذا وماذا . حسن ، هل شفيت من التيفوس ؟

— نعم ، شفيت . والآن ، احك لى عما حدث لك . انك تخفى شيئاً ما ، يا ابن العدو ! ابصقه . ما الذى تورطت فيه ؟ كيف هربت ؟

— الأمر أدهى من مجرد الهرب . . . فبعد أن جئت بك الى القرية عدت الى الكتيبة فنسبونى الى الرعيل الثالث فى سريتك . ولكن لدىّ حساسية فظيعة تجاه القتال ! اشتركت فى هجومين ، ثم قلت فى نفسى : «سيكون فى هذا موتى ! عليك أن تجد لنفسك جحراً ، والا سوف ينتهى أمرك ، يا ولدى يا بروخور !» . وآنذاك ، وكما شاء الحظ ، بدأ الحمر يضغطون ضغطاً قاسياً وحدثت معارك كانت من الضراوة بحيث لم يعطونا مجالاً لجر الأنفاس . وحيثما كان الحمر يجدون منفذاً ، كانوا يسددون دفعة الينا . وحيثما كان هناك عدم ائتمان ، كانت الدفعة تصيب وحدتنا . وفى خلال أسبوع غادر هذه الدنيا أحد عشر قوزاقياً من سريتنا ، وكأنهم لحسوا بلسان بقرة . حسن ، لقد بلغ السأم بى حد الجنون !

وأشعل بروخور سيكارة ، ومد كيسه الى غريغورى ، ثم استأنف كلامه متئداً :

— ثم شاء طالعى أن أذهب مع مفرزة استطلاعية على

مقربة من ليسكى . كنا ثلاثة . كنا ماضين على خيلنا فى خبب يسير صعد ربوة ، مفتحى الاعين ، فاذا بنا نشاهد واحداً من الحمر يزحف خارجاً من جدول ، ويرفع يديه مستسلماً . فانطلقنا نحوه ، بيد أنه هتف صائحاً :

— أيها القوزاق ، اننى من جانبكم . لا تقتلونى ، أنا واحد منكم .

ولكن ، لا بد أن الشيطان تملكنى ، لأننى غدوت شرساً ، لسبب ما ، فاقتربت من الرجل وقلت :

— يا ابن العاهرة ، اذا كنت قد قررت القتال ، اذن فلا يجدر بك أن تستسلم ! أنت خنزير قذر !

وقلت أيضا :

— ألا ترى أننا لا نكاد نصمد الا بالقدرة ؟ وها انت تستسلم ، جالباً لنا تعزيزات !

وعند هذا ضربت ظهره بغمد السيف . وقال له القوزاقيان الآخران اللذان كانا معى الشىء نفسه :

— ما معنى مثل هذا القتال ، تلف وتدور فى جميع الجبهات ؟ لو أنكم جميعاً جئتم الى صفوفنا ، معاً ، لكانت الحرب قد انتهت الآن !

ولكن ، أنسى لى آنذاك ، بحق الشيطان ، أن أعلم بأن هذا الخائن كان ضابطاً ؟ ومع ذلك ، فهذا كان ما تبين أنه فيما بعد ! فحينما ضربته بغمدى شحب وجهه وقال بهدوء :

— اننى ضابط ، كيف تجرؤ على ضربى ؟ لقد خدمت فى خيالة الهوزر فى السابق ، ووقعت فى قبضة الحمر أثناء التعبئة . خذونى الى آمركم ، وهناك سأخبره بكل شىء .

فقلنا : «هات أوراقك» فأجاب متعالياً :

— لا رغبة لدى فى التحدث اليكم . خذونى الى آمركم .

فتساءل غريغورى مستغرباً :

— ولكن ، لمَ لم تشأ أن تتحدث عن هذا أمام زوجتك ؟

— أنا لم أبلغ تلك النقطة بعد ، وأرجو ألا تقاطعنى .

قررنا أن نمضى به تحت الحراسة الى السرية ، لكننا كنا أغبياء . كان علينا أن نقتله فى الحال ، فنكون قد وضعنا نهاية للأمر . لكننا أخذناه الى السرية ، كما كان المفروض علينا أن نفعل ، وبعد ذلك بيوم وجدنا أنه عُين آمراً لسريتنا . وكانت تلك شغلة فاخرة ! وفعلاً بدأت الجوقة تعزف من جديد ! فبعد ذلك بيوم أو يومين أرسل في طلبى وسألنى :

— اذا ، فأنت تحارب من أجل روسيا موحدة غير مجزأة ، أليس كذلك ، يا ابن القحبة ؟ أتذكر ؟

حاولت أن أجد لى منفذاً للخروج ، غير أنه لم يبد أية شفقة . وحينما تذكّر ضربتى بالغمد على ظهره ، جعل يرتجف من رأسه الى قدمه وقال :

— أتعلم بأننى آمر كتيبة خيالة هوزر ، ونبيل ، وأنت ، أنت أيها الجلف ، تجرأت على ضربى ؟

أرسل يطلبنى مرة ، وأرسل يطلبنى مرتين ، ولم أعرف الرحمة منه أبداً . أمر آمر الرعيل بأن يرسلنى للعمل فى نقطة أمامية وفى واجب حراسة خلافاً لدورى ، وقذف بالمتاعب على رأسى كما يقذف الحصى من سطل . وباختصار ، أحال حياتى بؤساً ، ذلك الخنزير ! وفعل الشىء نفسه مع الاثنين الآخرين اللذين كانا معى فى الاستطلاع يوم أسرناه . وتحمل الولدان بقدر ما استطاعا ، لكنهما حدثانى ذات يوم وقالا :

— لنقض عليه ، والا فلن يكون لحياتنا معنى .

الا أن ضميرى ما كان ليبيح لى قتله ، فدرست الموضوع في فكرى وقررت أن أخبر آمر الكتيبة بكل شىء . كان فى استطاعتنا أن نقتله حينما أسرناه ، أما فيما بعد فما كان فى استطاعتى ، لسبب ما ، حتى مجرد رفع يدى . اننى أغمض عينى حينما تقطع زوجتى رقبة دجاجة ، بينما كانت المسألة مسألة قتل انسان .

فقاطعه غريغورى فى حديثه :

— لكنكم قتلتموه فيما بعد ؟

— صبراً . ستعرف كل شىء فى الوقت المناسب . حسن ، أخبرت آمر الكتيبة . ذهبت لرؤيته ، لكنه لم يزد على أن تضاحك وقال :

— لا معنى لقلقك ، يا زيكوف ، لأنك ضربته مرة . وهو على حق فى استعادته الضبط . انه ضابط طيب وذكى .

فخرجت ، بيد أننى قلت فى نفسى : «تستطيع أن تعلق ذلك الضابط الطيب حول عنقك بدلاً من الصليب ، لكننى لن أخدم فى سريته !» وطلبت نقلى الى سرية أخرى ، ولكن لم يجد ذلك نفعاً . ما كانوا ليفعلوا ذلك . ثم فكرت بالابتعاد كلية . لكن هذا أيسر قولاً منه عملاً . نقلونا الى المؤخرة لقضاء أسبوع راحة ، وآنذاك وسوس لى الشيطان مرة اخرى . فقررت أن الشىء الوحيد الذى أستطيع أن أفعله هو أن أعثر على امرأة بائسة ما ، مصابة بالسيلان ، وبعد ذلك سينسبوننى لواجبات خفيفة بسبب المرض ، وبعدها يبدأ التراجع ، وتسوى الأمور تلقائياً . وعليه ، بدأت ألاحق النسوة — وهو شىء لم أفعله فى السابق قط — لأرى من منهن تبدو أسوأهن . ولكن ، أنسى لك أن تعرف ؟ ليس منقوشاً على جبين المرأة أنها مصابة بكذا

أو بكيت . اذن ماذا كان بامكانى أن أفعل ؟

وبصق بروخور بصقاً قوياً وأصاخ السمع ليطمئن الى أن زوجته لم تعد بعد .

فغطى غريغورى فمه بيده مخفياً ابتسامته . وتألقت عيناه وهو يسأل :

— وهل حصلت على السيلان ؟

فحدّق فيه بروخور بعينين مخضلتين بالدموع . كانت نظرته حزينة خرساء ، كنظرة كلب عجوز تقضت أيامه . وبعد فترة صمت قال :

— وهل تظن أنه كان من اليسير الحصول عليه ؟ حينما لا تريده تجده حتى فى الهواء الذى تتنفسه ! أما آنذاك فلم أكن قادراً على الحصول عليه فى أى مكان ، حتى لو ناديت عليه تطلبه .

فأشاح غريغورى وجهه قليلاً وجعل يضحك بلا صوت ، ثم أنزل يده عن وجهه وسأل فى صوت مخنوق :

— لا تعذبنى ، بحب المسيح ! هل حصلت عليه أم لا ؟

فقال بروخور فى لهجة مستاءة :

— لا ريب أن الأمر يبدو مضحكاً بالنسبة لك ! الحمقى فقط هم الذين يضحكون من مصائب الآخرين ، أو على الأقل هذا ما أعتقده أنا .

— لكننى لست بضاحك . . . حسن ، وماذا حدث ؟

— ثم بدأت أغازل بنت صاحب الدار التى نزلنا فيها . كانت عانساً ، فى الأربعين من عمرها ، أو ربما أصغر بقليل . كان وجهها ملطخاً بالبثور ، وكان منظرها . . . حسن ، باختصار ، عسى الله أن يحمينا من أمثالها ! كان الجيران يلمّحون بأنها

كانت تذهب الى طبيب فى المدة الأخيرة . فقلت فى نفسى : «حسن ، أنا متأكد بأننى سأحصل عليه منها !»

وجعلت ألاحقها مثل ديك فتى ، تماماً . تبخترت أمامها ، ونفخت حوصلتى وأسمعتها شتى أصناف الكلام . . . ومن أين أتانى كل ذلك ، لا أدرى بالضبط . . .

وابتسم ابتسامة خجلة ، وبدا أنه انتعش قليلاً للذكرى :

— وعدتها بالزواج . وقلت لها كل ما يخطر على البال من قذارات . . . وأخيراً ظفرت بها ، وأوشك الأمر أن يصبح خطيئة . فاذا بها تنفجر ، على حين غرة ، فى البكاء . حاولت أن أهدئها وقلت :

— لعلك مصابة بمرض ؟ هذا لا يهم ، بل هذا أفضل .

لكننى ، أنا نفسى ، صرت أخاف . كان الوقت ليلاً ، وماذا كان سيحدث لو أن شخصاً سمع صوتنا وأتى زاحفاً الى مأوى النشارة . فقلت لها :

— لا تصرخى ، بحق المسيح ! واذا كنت مريضة ، لا تخشى شيئاً . اننى أحبك الى درجة أننى مستعد لأى شىء !

بيد أنها أجابتنى :

— يا عزيزى بروشنكا ، أنا لست مصابة بأى مرض . اننى فتاة طاهرة ، وأنا خائفة ، ولهذا بكيت .

صدقنى أو لا تصدقنى ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، ولكن ما ان قالت ذلك حتى صرت اتصبب عرقاً بارداً . وقلت فى نفسى : «يا سيدنا المسيح ، على مَنْ وقعت !» وصرخت فيها مزمجراً :

— ولكن فيم كان ذهابك الى الطبيب ؟ لماذا أوحيت للناس بشتى الايحاءات ؟

— ذهبت اليه للحصول على مرهم ما لتصفية بشرة وجهى .

فأمسكت رأسى بيدى وصحت بها :

— انهضى واغربى عن وجهى حالاً ، لعنة الله عليك ، أيتها الساحرة المريعة ! أنا لا أريدك طاهرة ، ولن أتزوجك قط .

وبصق بروخور بصقة أقوى من السابقة ، واستأنف حديثه متردداً :

— وهكذا ، ذهبت كل جهودى عبثاً . فعدت الى الكوخ وجمعت حوائجى وانتقلت الى المنزل الثانى فى الليلة نفسها . ثم لمح لى الفتية بشىء ، فحصلت على ما كنت بحاجة اليه من احدى الأرامل ، الا أننى فى هذه المرة دخلت فى صميم الموضوع مباشرة : سألتها :

— هل أنت مصابة بمرض ؟

وأجابت : «نعم ، قليلا» .

قلت :

— حسن ، أنا لا أريد طناً منه .

وأعطيتها ورقة من فئة العشرين روبلاً لمساعدتى على الخروج من المحنة ، وفى اليوم التالى تفاخرت بالعمل الذى أنجزته ، فوضعونى فى قائمة الأعمال الخفيفة . ومن هناك جئت الى القرية رأساً .

— هل جئت بدون حصانك ؟

— طبعاً لا ! جئت على صهوة حصانى وبكامل هيئة القتال . كان الفتية قد أرسلوا حصانى الى حيث كان علىّ أن أقضى اجازتى المرضية . ولكن ، ما هذا بالمهم . أعطنى نصيحتك فيما عساى أن أخبر زوجتى به . أم أن من الأفضل أن أوفر على نفسى المتاعب بالمبيت لديك ؟

— كلا ، بحق الجحيم ! نم فى بيتك . قل انك مجروح . هل لديك أية ضمادات ؟

— لدىّ لفافات الميدان .

— اذا ، استعملها .

فقال بروخور يائساً :

— لن تصدقنى .

لكنه نهض ، رغم ذلك ، ونبش خرج السرج ، ثم مضى الى غرفة الضيوف وهمس من هناك :

— اذا عادت ، اشغلها بالحديث ، وسوف أخرج بعد قليل .

وبينما كان غريغورى يلف لنفسه سيكارة عاود التفكير بخططه الخاصة بالرحيل : «سنشد كل الحصانين الى زحافة» .

ثم قر عزمه : «يجب أن نرحل فى المساء كى لا يرى الناس أكسينيا معى . رغم أنهم سيكتشفون الأمر حتما» .

خرج بروخور يقزل من غرفة الضيوف وجلس الى المائدة قائلاً :

— أنا لم أنه قصة آمر السرية . فى اليوم الثالث بعد مرضى ، قتله رجالنا .

— صحيح ؟

— أى والله ! أطلقوا الرصاص عليه من الخلف أثناء احدى المعارك ، وكانت فى ذلك نهايته . وهكذا حصلت على السيلان بلا فائدة ، وهذا المزعج .

فتساءل غريغورى شارداً ، وأفكاره منصرفة نحو رحيله من تتارسكى :

— ألم يلقوا القبض على الفاعل ؟

— وهل لديهم فرصة للبحث عنه ؟ كان التراجع من الشمول بحيث لم يكن هناك متسع من الوقت للبحث عن أيما شخص ! ولكن ، أين ولت زوجتى ؟ انا فى أشد الحاجة الى الشراب ! متى تعتزم الرحيل ؟

— غداً .

— ألا تستطيع تأجيله يوماً آخر فحسب ؟

— لماذا ؟

— كى أنفض القمل عنى على الأقل . ليس متعة أن أحمله مع حصانى !

— تستطيع أن تنفضه فى الطريق . ليس الظرف مناسباً للتسكع . الحمر لا يبعدون اكثر من مسيرة يومين عن فيشنسكايا .

— هل نبدأ الرحيل فى الصباح ؟

— كلا ، فى الليل . ليس علينا الا أن نبلغ كارغينسكايا ، ونقضى الليلة هناك .

— ولكن ، ألن يلقى الحمر القبض علينا ؟

— يجب أن نكون مستعدين للمضى فى أية لحظة . . . كنت أفكر بـ . . . فكرت باصطحاب أكسينيا استاخوفا معى . لا أظنك تمانع ؟

— وماذا يعنينى ذلك ؟ يمكنك ، ان شئت ، أن تصطحب اكسينيتين لا اكسينيا واحدة . الخيول ستزداد حمولتها .

— ليست هى بثقيلة الوزن .

— من الصعب السفر مع النساء . . . ثم ما الداعى ، بحق الجحيم ، الى أن تأخذها معك ؟ وكأن مصاعبنا بدونها لن تكون كافية ! . .

وتنهد بروخور . ثم أضاف ، وعيناه منحرفتان :

— كنت أعرف أنك ستجرجرها وراءك . انك دائماً تلعب دور الزوج ! آه ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، السوط يتلهف لجلدك منذ زمان ، ويبكى دموعاً مريرة !

فقال غريغورى فى لهجة جافة :

— ليس هذا من شأنك . لا تثرثر بذلك لزوجتك .

— هل ثرثرت لها بشىء فى حياتى ؟ ليكن لديك ضمير على الاقل ! ولكن ، بعهدة مَنْ ستترك بيتها ؟

وبلغ أسماعهما صوت خطوات فى السقيفة . ثم دخلت زوجة بروخور . كان الثلج يتلألأ على عصابة رأسها الرمادية الفضفاضة .

— الثلج شديد .

وأخرج بروخور قدحين من الدولاب ، ولم يخطر بباله الا آنئذ أن يسألها :

— ولكن ، هل جئت بشىء ؟

فأخرجت زوجته ، محمرة الوجه ، قنينتين مضببتين من صدرها ووضعتهما على المنضدة . فقال بروخور مبتهجاً :

— حسن ، الآن سيكون فى مقدورنا التلذذ باحداهما فى الطريق !

وتشمم الفودكا وقال :

— من الصنف الأول ! وفى مثل قوة الشيطان !

لم يشرب غريغورى غير قدحين صغيرين من الفودكا ، ثم اعتذر لكونه تعباً وعاد الى داره .

٢٦

قال بروخور فيما كانوا يرتقون التل :

— حسن ، لقد انتهت الحرب . الحمر يشددون الضغط

علينا الآن حتى أننا سنظل نتراجع ونتراجع الى أن نغمس عجيزاتنا فى الماء المالح .

والى أسفل ، كانت تتارسكى متلفعة بضباب مائل للزرقة . وكانت الشمس قد غربت خلف هدب الأفق الوردى الموشح بالثلج . وكان الثلج يخشخش تحت مزالق الزحافة ، والحصانان يمضيان بسرعة يسيرة . واتكأ غريغورى فى مؤخرة الزحافة ذات الحصانين وكتفاه على السروج ، فيما جلست أكسينيا الى جانبه متدثرة بسترة من جلد الخروف ذات حاشية من الفراء . وكانت عيناها السوداوان تتألقان وتومضان لهباً ، فى سعادة وحبور ، من تحت عصابة رأسها البيضاء الفضفاضة . فنظر غريغورى بطرف عينه اليها والى وجنتها التى ترك الزمهرير أثراً قرمزياً خفيفاً عليها ، والى حاجبيها الأسودين الكثيفين والى بياضى عينيها الماثلين للزرقة ، والمتألقين تحت أهدابها الطويلة المعقوفة التى علق بها غبار الثلج . كانت أكسينيا تجيل البصر حولها فى تطلع وشوق ، فحدقت فى السهب المغطى بالثلج المكتوم ، وفى الطريق الذى تآكلته الزحافات حتى أمسى صقيلاً أملس ، وفى الآفاق النائية المضببة . كان كل شىء جديداً طريفاً لديها رغم أنها لم تكن قد ابتعدت كثيراً عن قريتها بعد . كان كل شىء مجلباً لاهتمامها . بيد أنها كانت ، من حين الى حين ، تخفض عينيها فتحس بالبرودة القارصة اللذيذة لغبار الثلج على أهدابها . فكانت تبتسم لخاطرة أن الحلم الذى كان قد تملكها منذ أمد بعيد غدا حقيقة واقعة على نحو غريب وغير متوقع البتة . فها هى ذى الآن وغريغورى ماضيان الى مكان ما بعيد عن تتارسكى ، قصى عن موطنها الكريه حيث قاست الأمرين وحيث قضت نصف عمرها فى عذابات متصلة مع

زوج غير محبوب ، وحيث كل ما فيه مثير لذكريات أليمة . وافترّ ثغرها عن ابتسامة وهى تستشعر ، بكل جسدها ، وجود غريغورى الى جانبها ، فلم تفكر بالثمن الذى دفعته للحصول على هذه السعادة ، ولا ما يخبئه المستقبل ، هذا المستقبل الذى كان ملفّعاً بضباب قاتم كتلك الآفاق القصية التى كانت تومئ اليها من بعيد .

وحدث أن تلفت بروخور فلاحظ الابتسامة الراعشة على شفتى أكسينيا القرمزيتين المتورمتين ، فسألها فى لهجة مستاءة :

— حسن ، ولأى شىء تتبسمين ؟ مثل عروس فرحة ، تماماً ! أسعيدة أنت بتركك القرية ؟

فسألته أكسينيا بدورها فى صوت رنان :

— وهل تظننى غير سعيدة ؟

— وجدت ما تسعدين به ! أنت حمقاء ، أيتها المرأة ! أنت لا تعرفين ، حتى الآن ، كيف ستنتهى هذه الرحلة الصغيرة ، فلا تتعجلى اصطناع الابتسام ! احتفظى بأسنانك ليوم آخر !

— لن يكون المستقبل أسوأ من ماضىّ .

— النظر اليكما يثير الغثيان . . .

وهوى بروخور بسوطه فى اهتياج شديد على ظهرى الحصانين . غير أن أكسينيا توجهت اليه بالنصح قائلة :

— حسن ، أشح بوجهك وادحس اصبعك فى فمك !

— ها انت تكشفين عن حماقتك من جديد ! ولماذا علىّ أن أدحس اصبعى فى فمى طوال الطريق الى البحر ؟ يا لها من فكرة بديعة !

— ما الذى يثير غثيانك ؟

— لمَ لا تسكتين ! متورطة مع رجل لا يخصك وماضية

الى حيث لا يدرى الا الشيطان ! افرضى أن ستيبان وصل الى القرية الآن فجأة ، فماذا سيحدث ؟

— أتدرى ، يا بروخور ؟ لا يجدر بك أن تتورط فى شؤوننا ، والا فلن تكون محظوظاً انت ايضاً !

— انا لا أتدخل فى شؤونكما ، ولا حاجة بك للرد علىّ بهذه الفظاظة ! من حقى أن أتفوه بما أعتقد ، أم لا ؟ ام تعتبرينى حوذيكم ولا يحق لى أن أتحدث الا الى الخيل ؟ فكرة رائعة أخرى ! تستائين أو لا تستائين ، كما تشائين يا أكسينيا ، ولكنك تستحقين الجلد بعسلوج جيد . تجلدين وتؤمرين بألا تصرخى ! ولكن ، لا تحاولى اخافتى بالبؤس ! انا أحمل حظى معى . ان لدى حظاً خالصاً ، قد لا يغنى ، لكنه لا يدعنى أنام . . .

وصرخ فى الحصانين :

— ها ، أيها الشيطانان ! تحاولان دائماً استغلال الفرصة للتباطؤ ، أيها الشيطانان الأبتران !

لبث غريغورى يستمع ، مبتسماً ، ثم قال أخيراً بلهجة مهدئة :

— لا تشرعا بتبادل الشتائم فى حين أننا لم نكد نغادر القرية ! أمامنا طريق طويل ، وستجدان متسعاً من الوقت لذلك . لماذا تنكّد عيشها ، يا بروخور ؟

فأجاب بروخور بخشونة :

— اننى أنكّد عيشها لأن من الخير لها ألا ترد على ما أقول ! انا ، فى هذه اللحظة ، أعتقد بأنه ليس ما هو أسوأ من النساء فى كل عالمنا الواسع . ما هنّ الا كومة من قريض *

* قريض : نوع من الأخشاب الواخزة . **المترجمون** .

وخاز . . . أنت تعلم ، النساء كنّ أسوأ خلق الله طراً ! ولو تركت لى معالجة أمرهن لما بقيت فى الأرض رائحة منهن ! الى هذه الدرجة صرت أتقزز منهن . وما الذى يضحكك ؟ الحمقى فقط هم الذين يضحكون من مصائب الآخرين . تولّ أمر الأعنة أنت ، فانا نازل من الزحافة لبعض الوقت .

لبث بروخور يسير على قدميه ردحاً من الوقت ، ثم عاد فركب الزحافة واخلد الى الصمت .

قضوا الليلة فى كارغينسكايا ، وانطلقوا ثانية فى الصباح الباكر بعد الافطار . وحينما حلّ الليل كانوا قد قطعوا زهاء ستين فرستا بعيداً عن تتارسكى .

كانت قوافل أمتعة لا حدّ لها تزحف باتجاه الجنوب . وعلى مقربة من موروزوفسكى ، التقوا بأولى قطعات القوزاق . كانت سرايا ، لا يزيد تعدادها على ثلاثين أو أربعين راكباً ، تمضى فى الطريق تتبعها قوافل أمتعتها . وكانوا كلما توغلوا جنوباً يلاقون مشقة أشد فى العثور على مكان للمبيت . فقد كانت جميع الأماكن الصالحة للجوء اليها فى القرى تحتل قبل حلول المساء ، حتى أنه لم يكن ثمة موضع لايواء الخيل ، ناهيك عن موضع لايوائهم هم . وحدث فى احدى مناطق تافاريدا أن ظلّ غريغورى ينتقل من باب الى باب ، يبحث عبثاً عن مبيت لهم ، ثم اضطروا أخيراً الى قضاء الليلة فى مأوى خارجى . فتنقعت ملابسهم عن آخرها بفعل الريح الثلجية ، وحين حلّ الصباح كانت ملابسهم متجمدة متصلبة ، وغدت تصرّ وتطق مع كل حركة يأتونها . فقد أمضوا الليلة يكاد لا يغمض لهم جفن ، ولم يفلحوا فى الحصول على شىء من الدفء الا قبيل الفجر حينما أوقدوا ناراً من القش فى الفناء .

وفى الصباح قالت أكسينيا مقترحة فى حياء :

— غريشا ، ألا تظنّ أن من الأفضل أن نقضى النهار هنا ؟ كانت ليلتنا سيئة جداً ببردها ، وزمهريرها ولم ننم كفايتنا قط ، ولهذا يجب أن نريح أنفسنا بعض الشىء .

فوافق غريغورى . ثم عثر ، بعد لأى ، على مكان أوسع . وكان اللاجئون الآخرون قد رحلوا عند الفجر ، غير أن مستشفى ميدان يحمل أكثر من مائة شخص ، ما بين جريح ومصاب بالتيفوس ، بقى فى القرية كذلك لتمضية النهار .

كان عشرة قوزاق يفترشون الأرضية الترابية القذرة فى غرفة صغيرة واحدة . فجلب بروخور مرشحة خيل وزكيبة من الزاد ، ونشر شيئاً من القش بمحاذاة الباب مباشرة ، وأمسك بقدمى قوزاقى عجوز مستغرق فى النوم وجره الى أحد الجوانب ، وقال لاكسينيا فى لهجة امتزجت فيها الخشونة والرقّة :

— تمددى هنا ، فانت منهكة بحيث لا تبدين بصورتك الأصلية .

ومع مقدم المساء ، عادت القرية فاكتظت بالناس من جديد . وفى الأزقة الجانبية أوقدت النيران ابتغاء للدفء ، وظل المكان طوال الليل يضج بالأصوات البشرية وصهيل الخيل وصرير ولاّقات الزحافات . وما كاد أول بصيص من الضوء ينبلج حتى أيقظ غريغورى بروخور وقال له هامساً :

— هيا ، ضع العدة على الحصانين . علينا أن نمضى .

فتساءل بروخور متثائباً :

— ولمَ الرحيل فى مثل هذا الوقت المبكر ؟

— اسمع !

فرفع بروخور رأسه من على قربوس سرجه وتسمع الى لعلعة

رشاشات بعيدة مكتومة .

اغتسلوا ، وتناولوا وجبة من شحم الخنزير ، ثم انطلقوا الى خارج الفناء الذى كان قد بدأ يتململ . كان الناس يروحون ويغدون حول صفوف الزحافات ، وانطلق صوت أجش فى عتمة الصباح الباكر :

ـــ كلا ، تستطيعون أن تدفنوهم بأنفسكم ! فحفر قبر لستة رجال سيستغرق منا نصف نهار .

فرد صوت آخر باللهجة الأوكرانية فى هدوء :

ـــ هل من واجبنا دفنهم ؟

فصرخ الصوت الأجش :

ـــ ستدفنونهم حتماً ! أما اذا كنتم لا ترغبون ، فاتركوهم فى فنائكم ليملأوه جيفة وعفناً . هذا لا يعنينى .

ـــ ولكن ، اسمعنى ، أيها الطبيب . اذا دفنا كل اللاجئين الذين يقضون نحبهم هنا ، فسنظل نفعل ذلك طول الوقت . هلا فعلتم ذلك بأنفسكم ؟

ـــ اذهب الى الجحيم ، أيها البليد المزعج ! هل تتوقع منى أن أسلم المستشفى للحمر اكراماً لك ؟

فتمتم غريغورى فيما كان يسوق الزحافة متحاشياً الزحافات الواقفة فى منتصف الطريق :

ـــ لا أحد يريد الموتى . . .

وقال بروخور :

ـــ لا أحد يستطيع الاهتمام بالأحياء ، ناهيك عن الموتى .

كانت جميع المناطق الشمالية للدون تتدفق صوب الجنوب وكانت قوافل أمتعة لاجئين لا حصر لها تنطلق عبر خط السكة الحديد من «تسارتسين» الى «ليخايا» ثم تنعطف باتجاه «مانيتش» .

وكان غريغورى ، خلال الأسبوع الأول للرحلة ، يستفسر فى كل نقطة توقف عن أبناء قرية تتارسكى ، غير أنه لم يعثر على أى منهم فى جميع القرى التى مرّ بها . ولا بد أن يكون والده والآخرون قد اتخذوا لهم طريقاً جانبياً الى اليسار ، متجنبين المضارب الأوكرانية ومخترقين القرى القوزاقية الى أويلفسكايا . ولم يعثر على أثر لهم الا فى اليوم الثالث عشر . فقد حدث ذات مساء ، حينما كان يعد العدة للمبيت ، أن علم بوجود قوزاقى من منطقة فيشنسكايا ممدّد فى الكوخ المجاور وهو مصاب بالتيفوس . فمضى غريغورى ليقف على موطن الرجل الأصلى ، وحينما دخل الغرفة الصغيرة ذات السقف الواطئ وقع نظره على أوبنيزوف العجوز ممدداً على الأرض . فعلم منه أن لاجئى تتارسكى كانوا قد تركوا هذه القرية بالذات قبل يومين ، وأن العديد منهم وقعوا فى براثن التيفوس ومات منهم اثنان ، وأنهم رحلوا تاركين أوبنيزوف بناء على طلبه .

وقال العجوز فيما كان غريغورى يودعه :

ـــ اذا تحسنت صحتى ، وأشفق الرفاق الحمر علىّ فلم يقتلونى ، سأتخذ طريقى عائداً الى القرية بشكل من الأشكال . والا ، فسأموت هنا وسيان لدى أين أموت . حينما يأتى الموت ، فليس هو الا . . . حلو . . .

وسأله غريغورى عن أبيه ، بيد أن أوبنيزوف أجاب بأنه لم يكن ليعلم شيئاً عنه لأنه ، هو ، رحل فى احدى الزحافات الأخيرة ، وأنه لم ير بانتلاى بروكوفتش منذ مرورهم بقرية مالاخوفسكى .

وفى نقطة التوقف الثانية ، صادف غريغورى نصيباً أفضل من الحظ فى العثور على مكان للمبيت . اذ التقى فى أول بيت

دخله بمعارف من القوزاق من قرية فيرخته–تشيرسكويه ، فأفسحوا له المجال وأراح رفيقيه الى جانب الموقد . كان خمسة عشر لاجئاً ممددين على الأرض ، متراصين كما يرص السمك فى البراميل . وكان ثلاثة منهم مصابين بالتيفوس ، وآخر يعانى من لسعة الثلج .

طبخ القوزاق شيئاً من عصيد الدخن ، وأعدوه مع شحم الخنزير عشاء قدموا منه ، بكرم وضيافة ، لغريغورى ورفيقيه . فأكل بروخور وغريغورى فى شهية ونهم ، بيد أن أكسينيا رفضت أن تمس الطعام . فسألها بروخور :

— عجباً ، ألست جائعة ؟

وكان خلال الأيام القليلة الماضية قد غير موقفه من أكسينيا على نحو عجيب ، فغدا يتكلم اليها بلهجة جافة ، ولكنها مشوبة بالعطف والشفقة .

— انا أشعر بتوعك . . .

وألقت أكسينيا بعصابتها على رأسها وخرجت الى الفناء . فسأل بروخور غريغورى :

— لعلها لم تصب بالتيفوس بعد ، ها ؟

— من يدرى ؟

ووضع غريغورى صحن عصيدة على الأرض وخرج وراءها . فوجدها واقفة بجانب درجات العتبة ويدها مضغوطة على صدرها . فوضع ذراعه حولها وسألها قلقاً :

— ما بك ، يا عزيزتى ؟

— أشعر بتوعك ، وبوجع فى رأسى .

— تعالى الى داخل الكوخ واضطجعى .

— أدخل أنت ، وسأتبعك بعد قليل .

وكان صوتها غليظاً لا نغم فيه ، وحركاتها ثقيلة بطيئة . فراقبها غريغورى عن كثب فيما كانت تدلف الى الغرفة المختنقة بالحرارة . ولاحظ التوهج القرمزى فى وجنتيها واللمعان المشبوه فى عينيها . فغاص فؤاده . كانت مريضة بما لا شك فيه . وتذكّر أنها قد شكت ، فى اليوم السابق ، من قشعريرة ودوخة ، وأنه حينما أفاق فى الصباح الباكر لاحظ أنها كانت قد عرقت كثيراً حتى أن شعرها المجعد كان مبللاً على رقبتها وكأنها قد غسلته تواً . فلبث مستلقياً يحدق فيها أثناء نومها ، ولا يجرؤ على النهوض مخافة اقلاق راحتها .

كانت قد تحملت مصاعب السفر بشجاعة ، حتى أنها أفلحت فى انعاش روح بروخور حينما قال أكثر من مرة :

— لِـمَ هذه الحرب ، بحق الشيطان ، ومن الذى فكر بها ؟ نظل نسير ونسير ونسير طوال النهار ، وليس من مكان لقضاء الليل ، ولسنا ندرى كم ستدوم هذه الشغلة العفنة .

على أنها فى ذلك اليوم فشلت حتى فى الحفاظ على معنوياتها هى . وحينما آووا للنوم ، هجس غريغورى أنها كانت تبكى ، فسألها هامساً :

— ما الخبر ؟ أين تحسين بالألم ؟

— انا مريضة حقاً . . . والآن ، ما ذا نفعل ؟ هل ستتركنى ؟

— انت حمقاء ! كيف أتركك ؟ لا تبكى ، لعل كل ما فى الأمر أنك أصبت ببرد أثناء الطريق . فما الداعى الى كل هذا الخوف ؟

— غريشا ، يا عزيزى ، انه التيفوس .

فطمأنها غريغورى قائلاً :

— لا تنطقى هراء ! لا علامة له . رأسك بارد تماماً .

ولمَ يجب أن يكون تيفوساً ؟

بيد أنه كان يعلم ، فى أعماق قلبه ، أنه كان التيفوس ، وتاهت أفكاره على نحو بائس فى ما عساهما أن يفعلا بها اذا ما ستضطر الى ملازمة الفراش .

فهمست ، وهى تحتمى بيده :

— أواه ، من العسير الاستمرار فى الرحلة وأنا على هذه الحال ! أنظر الى مجموعة الناس الذين يملأون الأماكن كل ليلة . سيأكلنا القمل جميعاً ، يا غريشا ! وأنا لا فرصة لى للعناية بنفسى بوجود هؤلاء الرجال فى كل مكان . . . أمس ، ذهبت داخل مأوى وخلعت ملابسى ، فوجدت أعداداً كبيرة من القمل فى قميصى . . رباه ، أنا لم أر فى حياتى منظراً كهذا ! أنا أشعر بالغثيان كلما فكرت فيه ولا تبقى لى شهية فى طعام . . . ولكن ، هل رأيت عدد القمل الذى كان على ذلك العجوز الراقد على المصطبة أمس ؟ كان يزحف فى كل بقعة من سترته .

فهمس غريغورى محنقاً :

— لا تفكرى بهم ! هذا وسواس الشيطان ! القمل قمل . فلا تحصى عدده .

— جسمى كله يحكنى .

— الجميع تحكهم أجسامهم كلها . ماذا نقدر أن نفعل ؟ تحاملى على نفسك ! وحينما نبلغ «يكاتيرينودار» سنأخذ حماماً جيداً .

فقالت أكسينيا متنهدة :

— ولكننا لا نستطيع ارتداء ملابس نظيفة ! سيهلكنا هذا القمل يا غريشا !

— عليك أن تنامى الآن . سنستأنف الرحلة فى الصباح الباكر .

ومرّت ساعات دون أن يستطيع غريغورى أن ينام . ولم تنم أكسينيا . وبكت فى هدوء أكثر من مرة ، وهى تغطى رأسها بسترتها الفرو الثقيلة . ثم لبثت وقتاً طويلاً تتقلب وتطلق الحسرات ، ولم تغف الا بعد أن وضع غريغورى ذراعيه حولها .

وخلال الليل ، أزعجه طرق عال على الباب ، وكان شخص ينادى :

— يا أنتم ، افتحوا الباب والا فاننا سنحطمه ! تنامون ملء جفونكم ، أيها الشياطين !

فخرج ربّ البيت ، وكان قوزاقياً كهلاً مسالماً ، الى السقيفة وسأل :

— من هناك ؟ ماذا تريدون ؟ اذا كنتم تبحثون عن مكان لقضاء الليلة ، فلا فائدة فى مجيئكم هنا ، المكان مكتظ تماماً وليس فيه مجال حتى للتململ .

فجاءت صرخة أخرى من الخارج :

— قلت لك ، افتح الباب !

وما هى الا برهة أخرى حتى اخترق الباب ستة قوزاق مسلحين وتدفقوا داخل الغرفة الأمامية . وتساءل أحدهم ، وكان قد اسود وجهه من أثر الصقيع ، لا يكاد يستطيع تحريك شفتيه المتجمدتين :

— من يقضى لديك الليلة هنا ؟

— لاجئون . ولكن ، من أنت ؟

وبدون أن يجيبه خطا أحد القوزاق الى داخل غرفة الضيوف وصاح :

— أنتم ، متمددون بصورة مريحة ، ها ؟ أخرجوا من هنا على الفور ! ان قطعات عسكرية ستتخذ مقرها هنا . انهضوا ، انهضوا ! وأسرعوا والا سنقذفكم الى الخارج فوراً !

فتساءل غريغورى بصوت أجش وهو ينهض ببطء :

— من أنت ، حتى تصيح بهذا الشكل ؟

— سأريك من أنا !

وتقدم القوزاقى باتجاه غريغورى ، وتلامعت فى الضوء الخافت للفانوس البارافينى الصغير ماسورة مسدس كان فى يده .

فقال غريغورى فى لهجة رقيقة :

— أنت شاطر ، أليس كذلك ؟ . . حسن ، أرنا لعبتك !

وبحركة سريعة أمسك بالقوزاقى من رسغه وجعل يعصره بقوة الى أن شرع الرجل يئن ويفتح أصابعه . فوقع المسدس على مرشحة الخيل . ودفع غريغورى القوزاقى بعيداً عنه ، وانحنى بسرعة والتقط المسدس ووضعه فى جيبه قائلاً فى هدوء :

— والآن ، دعنا نتكلم . من أية كتيبة أنت ؟ وكم عدد أمثالك من الأذكياء هنا ؟

فصاح القوزاقى ، وهو يتغلب على ذهوله :

— يا أولاد ! لنخرج !

فمضى غريغورى الى الباب . ووقف على العتبة متكئاً على عامود الباب وقال :

— انا آمر سرية من كتيبة الدون التاسعة عشرة . كونوا أهدأ الآن ! كفوا عن الزعيق ! من هذا الذى ينبح ؟ حسن ، يا رفاقى القوزاق الأعزاء ، لماذا تثيرون كل هذه الضجة ؟ من أنتم حتى تعرفوا كيف تخرجوننا ؟ من أعطاكم مثل هذه الصلاحيات ؟ هيا ، عادة سر ، الى الخارج !

فقال أحد القوزاق بصوت عال :

— ولماذا تزعق أنت ؟ نحن رأينا شتى أصناف آمرى السرايا ! هل يتوجب علينا أن نقضى الليلة فى الفناء ؟ هيا ، على الجميع أن يخرجوا من البيت ! أعطونا أوامر باخراج جميع اللاجئين ، فاهم ؟ بينما تثير أنت كل هذه الضجة ! لقد رأيت من هم على شاكلتك من قبل !

فتقدم غريغورى من المتكلم حتى واجهه ، وقال هامساً خلل أسنانه المصكوكة :

— انت لم تر من هو على شاكلتى من قبل قط . أتريد أن أجعل من الأحمق الذى هو أنت أحمقين ؟ سأفعل ذلك ! لا تتراجع ! ليس هذا مسدسى ، بل أخذته من صاحبك . هاك ، أعده اليه ، وانقشع بسرعة قبل أن أشرع بضربكم وآنذاك سأسلخ عنكم جلودكم !

وبرفق ، أدار القوزاقى ثم دفعه صوب الباب .

فتساءل قوزاقى آخر ، كبير الجرم وقد لفع وجهه بقلنسوة من وبر الجمل :

— أتودون أن القنه درساً ؟

وكان يقف وراء غريغورى ، وهو يتفحصه عن كثب ، وكانت جزمته اللبادية الكبيرة ، ذات النعال الجلدية ، تصر كلما نقل وقفته من قدم الى قدم .

فاستدار غريغورى اليه ، فاقداً زمام نفسه ، وضم قبضتيه ، غير أن القوزاقى رفع يده وقال فى لهجة ودود :

— اسمعنى ، يا صاحب السعادة ، أو مهما تسمى نفسك . تمهل قليلاً ، لا ترفع قبضتك ! سوف تتجنب حصول أية متاعب . ولكن ، يجدر بك فى مثل هذه الأوقات ألا تعصر

القوزاق كثيراً ! الظروف الصعبة فى انتظارنا من جديد ، كما فى عام ١٩١٧ . وقد تصادف بعضاً من الرجال البائسين ، ولن يجعلوا منك اثنين بل خمسة ! نستطيع أن نرى أنك ضابط شديد البأس ، واستنتاجاً من كلامك ، فقد ولدت كأى واحد منا ، ولهذا فليكن سلوكك أكثر هدوءا ، والا فستورط نفسك فى متاعب . . .

فقال الرجل الذى كان غريغورى قد انتزع المسدس منه ، بلهجة حانقة :

— لا تقف هناك تتلو قداساً عليه ! لنذهب الى الكوخ المجاور .

وكان هو أول من خطا صوب الباب ، وفيما كان غريغورى يمر ، حدجه بنظرة من طرف عينه وقال متأسفاً :

— لا نريد أن نورط أنفسنا بك ، يا حضرة الضابط ، والا لعمّدناك !

فلوى غريغورى شفتيه ازدراء وأجاب :

— كنت ستعمد بذلك نفسك ؟ هيا ، انصرف قبل أن أخلع عنك بنطلونك ! يعنى ظهر لدينا معمدان الآن ! خسارة أننى أرجعت اليك مسدسك . ان لعيناً مثلك ستكون صورته أفضل مع مشط خروف بدلاً من مسدس .

فقال قوزاقى آخر ، لم يكن قد شارك فى الحديث ، فى قهقهة لطيفة :

— هيا ، يا أولاد ، ليذهب الى الشيطان ! لو لم تثر الروث ، ما فاحت جيفته !

فمضى القوزاق الى الباب ، مطلقين السباب والشتائم ، ومحدثين جلبة عالية بجزمهم المتجمدة .

وأمر غريغورى رب الدار فى لهجة صارمة :

— اياك أن تفتح هذا الباب ثانية ! باستطاعتهم أن يقرعوه ثم ينصرفوا . واذا لم ينصرفوا ، أيقظنى !

وانغمر رجال فيرخنه تشيرسكويه ، الذين كانوا قد استيقظوا على صوت الجلبة ، فى حديث خافت فيما بينهم . فقال عجوز منهم وهو يتنهد متأسياً :

— أنظروا كيف انهار الضبط والنظام ! كيف يكلم ابناء القحبة هؤلاء ضابطاً ! ما كان مثل هذا ليحدث فى الايام الخوالى . كانوا سيشحنون فى الحال ويرسلون الى حيث الأشغال الشاقة !

— كلا ! ما قيمة الكلام ؟ ارأيتم كيف كانوا يتهيأون للقتال ؟ هل سمعت ما قال ذو القلنسوة الشبيه بشجرة حور جرداء ؟

قال :

— أتودون أن ألقنه درساً ! يا للأنذال !

وتساءل أحد القوزاق :

— لم تساهلت معهم ، يا غريغورى بانتلاييفتش ؟

وكان غريغورى يستمع الى الحديث وابتسامة ودود على شفتيه . وأجاب فيما كان يلف نفسه بمعطفه الثقيل :

— حسن ، ماذا يستطيع المرء أن يفعل معهم ؟ لقد أفلتوا من الزمام تماماً ولن يعطوا أذناً صاغية لأيما انسان . وهم يحومون هنا وهناك عصابات لا قائد لها . من سيكون حكمهم وآمرهم ؟ آمرهم ، بكل بساطة ، هو ذاك الذى يفلح فى اظهار تفوقه عليهم فى القوة . أنا لا أظن أنه تبقى لديهم أى ضابط فى وحدتهم كلها . لقد رأيت سرايا بكاملها على هذه الشاكلة ، مثل شرذمة من الأيتام . على أية حال ، هيا الى النوم .

فهمست أكسينيا له :

— ولكن ، ما الذى جعلك تصطدم بهم ، يا غريشا ؟ لا تتسرع مع أمثال هؤلاء الرجال ، بحب المسيح ! انهم متوحشون حد القتل .

— عليك أن تنامى . يجب أن ننهض فى الصباح الباكر غداً . وكيف تشعرين الآن ؟ بنوع من التحسن ؟

— كما كنت .

— أما يزال الصداع فى رأسك ؟

— بلى ، وأخشى ألا أستطيع النهوض أبداً . . .

فوضع غريغورى راحته على جبهتها وتنهد :

— انت تتوهجين حرارة كالموقد ! حسن ، وعلى أية حال ، لا عليك ! انت امرأة قوية البنية ، وسوف تتغلبين على المرض !

فلم تجب أكسينيا . كان العطش يؤلمها . فخرجت مرات عديدة الى المطبخ لتشرب شيئاً من الماء الساخن المج ، ثم تعود تستلقى على مرشحة الخيل وهى تكبح شعورها بالغثيان والدوار .

وخلال الليل ، قدمت الى الكوخ أربع جماعات أخرى فى طلب المبيت . فقرعوا الباب بأعقاب بنادقهم ، وفتحوا أباجورات النوافذ ، وظلوا يضربون على الشبابيك ، ولم يولّوا الا بعد أن صاح رب الدار بهم من الممر ، منفذاً تعليمات غريغورى :

— انقشعوا من هنا ! هذا مقر لواء !

فى الفجر ، قام بروخور وغريغورى بوضع العدة على الحصانين . وبذلت أكسينيا جهداً كبيراً فى ارتداء ملابس الخروج ، ثم خرجت الى الفناء . كانت الشمس ترتفع ، ودخان رمادى خفيف ينساب من المداخن الى السماء اللازوردية ، وكانت ثمة غيمة وردية

تطفو فى الأعالى وقد أضىء أسفلها بنور الشمس . وعلى الأسيجة وسقوف المآوى تراكم غبار ثلج كثيف . وكان البخار ينضح من جسمى الحصانين .

أعان غريغورى أكسينيا على الصعود الى الزحافة ، وقال :

— لعلك تستطيعين الاستلقاء ، ستجدينه أكثر راحة .

فهزت رأسها موافقة ، ونظرت اليه فى امتنان فيما كان يدثر ساقيها باعتناء ، ثم أغمضت عينيها .

عند الظهر ، وحينما توقفوا لاطعام الحصانين فى قرية تبعد حوالى فرستين عن الطريق الرئيسى ، لم تستطع أكسينيا النزول من الزحافة . فأمسك بها غريغورى من ذراعها وأخذها الى الدار ووضعها فى السرير الذى سمحت لهم ربة الدار باستعماله عن طيب خاطر وضيافة .

وتساءل منحنياً فوق وجه أكسينيا الشاحب :

— هل حالتك سيئة ، يا أعز من لدىّ ؟

فتحاملت على فتح عينيها ، ونظرت اليه ببؤبؤين مضببين ، ثم ما لبثت أن أغفت من جديد فيما يشبه الغيبوبة ، فأزاح العصابة عن رأسها بيدين مرتعشتين . كانت وجنتاها باردتين كالجليد ، فى حين كانت جبهتها تضطرم ناراً ، وعلى صدغيها تجمدت قطرات صغيرة وتفصد عرق خفيف . ومع دنو المساء فقدت وعيها تماماً . وكانت قبل ذلك بقليل قد طلبت شيئاً من الماء ، هامسة :

— قليلاً من الماء البارد ، فقط . قليلاً من ذوب الثلج .

وخيم عليها الصمت برهة ، ثم قالت فى وضوح :

— ناد غريشا .

— ها أنذا . ماذا تريدين ، يا عزيزتى أكسينيا ؟

وتناول يدها وجعل يمسدها على نحو مضطرب وخجول .

— لا تتركنى وترحل ، يا عزيزى غريشا !

— لن أتركك وأرحل . ما الذى يجعلك تظنين أننى سأفعل ؟

— لا تتركنى فى مكان غريب . . . سأموت هنا .

وناولها بروخور الماء . فوضعت شفتيها المتيبستين الظمآوين على حافة الكوز النحاسى ، وشربت بضع قطرات ، ثم سقط رأسها على الوسادة وهى تئن . ومرت خمس دقائق شرعت بعدها تنطق كلاماً غير مترابط أو مفهوم . ومن حيث كان غريغورى يجلس فى جوار رأسها ، استطاع أن يميز بضع كلمات :

— يجب أن أغسل الملابس . . . أحصل على شىء من الصبغة الزرقاء . . . فى وقت قريب . . .

وخفت هذيانها حتى أمسى همساً . فهزّ بروخور رأسه وقال لائماً :

— قلت لك الا تصحبها فى هذه الرحلة . ما عسانا نفعل الآن ؟ انه عقاب ، هذا هو كل ما فى الأمر ، والله ! هل سنقضى الليلة هنا ؟ هل صرت أطرش ، أم ماذا ؟ انا أسألك : هل سنقضى الليلة هنا أم نواصل الرحلة ؟

لم يجب غريغورى . كان متكوماً فى جلسته لا يحوّل عينيه عن وجه أكسينيا الرمادى . وأشارت ربة البيت ، وكانت سيدة مضيافة طيبة ، الى أكسينيا بعينيها وسألت بروخور فى صوت خفيض :

— هل هى زوجته ؟ هل لديهما أطفال ؟

فتمتم بروخور :

— نعم ولديهما أطفال أيضاً . لدينا كل شىء ما عدا الحظ السعيد .

خرج غريغورى الى الفناء وجلس على الزحافة يدخن سيكارة اثر سيكارة . كان لا بد من ابقاء أكسينيا فى هذه القرية والرحيل . أما المضى بها فى الرحلة ، فسيكون فيه موتها . كانت رؤيته للأمر واضحة . ثم دخل الى البيت وجلس ثانية بجانب السرير .

فتساءل بروخور :

— سنقضى الليلة هنا ، أليس كذلك ؟

— أجل ، وقد نظل غداً .

وما لبث ربّ البيت أن وصل . كان فلاحاً قميئاً ، ذا عينين قويتين خبيثتين ، وكانت احدى ساقيه مقطوعة عند الركبة ، فخطا يعرج بخفة نحو المائدة وهو ينقر بساقه الخشبية . خلع ملابس الخروج وسدد الى بروخور نظرة من طرف عينه وقال :

— اذن ، فقد أرسل البارى لنا ضيوفاً ؟ من أين أنتم ؟

وبدون أن ينتظر الجواب ، أصدر الى زوجته أمراً :

— أسرعى فى جلب شىء آكله . انا جائع كالكلب .

ولبث يأكل بنهم وقتاً طويلاً . وكانت عيناه الحركتان لا تنفكان تنتقلان من بروخور الى هيكل أكسينيا الهامد . ثم جاء غريغورى من غرفة الضيوف وحيّاه . فهز الرجل رأسه :

— تتراجعون ؟

— نعم .

— اذا فقد نلتم كفايتكم من القتال ، يا صاحب السعادة ؟

— صحيح ، على نحو ما .

— من تلك . . . زوجتك ؟

وأشار الى أكسينيا برأسه .

— نعم .

فاستدار نحو زوجته متضايقاً :

— لماذا وضعت المرأة على السرير ؟ أين ستنام ؟

— انها مريضة ، يا فانيا ، فلم أقدر الا أن أشفق عليها .

— تشفقين ! لا يمكنك أن تشفقى عليهم جميعاً ، وانظرى ما أكثرهم ، أولئك الذين يمرون من هنا ! سوف تزحموننا ، يا صاحب السعادة !

وحينما تكلم غريغورى ، وهو يستدير صوب الرجل وزوجته ويضغط يده على صدره ، كانت فى صوته نغمة غريبة مستعطفة ، تكاد تكون متضرّعة :

— أيها الأخيار ، ساعدونى فى محنتى ، بحب المسيح ! لو مضينا بها لأية مسافة أخرى فى رحلتنا ، فستموت . دعونا نتركها لديكم . سأدفع لكم لقاء اعتنائكم بها ، بقدر ما تطلبون . وسأظل طوال حياتى أذكر فضلكم . . . لا تقولوا لا ، افعلوا هذا الاحسان لى !

فى البدء رفض ربّ الدار رفضاً قاطعاً ، قائلاً انه لم يكن لديهم متسع من الوقت للاعتناء بامرأة مريضة وانه لا غرفة لديهم لايوائها . الا أنه قال أخيراً ، وبعد أن أنهى طعامه :

— حسن ، لا أحد سيعتنى بها مقابل لا شىء ، أليس كذلك ؟ ولكن ، كم ستعطينا لقاء عنايتنا بها ؟ كم تستطيع أن تقدم مقابل أتعابنا ؟

فأخرج غريغورى من جيبه كل النقود التى كانت معه وقدمها للرجل . فتناول الفلاح ، متردداً ، حزمة أوراق نقد حكومة الدون ، وبصق على أصابعه وعدها ، ثم تساءل :

— ولكن ، أليست لديك أية نقود قيصرية ؟

— كلا .

— لعل لديك بعضاً من روبلات كيرنسكى ؟ فهذا الصنف ليس مأموناً جداً . . .

— لا أملك أية كيرنسكيات . اذا شئت أترك لك حصانى .

فصفن الرجل بعضاً من الوقت ، ثم أجاب متفكراً :

— كلا . طبعاً ، كنت سآخذ الحصان . فالحصان بالنسبة لنا ، نحن الفلاحين ، هو أهم ما نملك . ولكنه ، فى مثل هذه الأوقات ، ليس ذا نفع قط . فاذا لم يأخذه البيض أخذه الحمر ، ولن ننتفع منه فى كلتا الحالتين . لدى فرس صغيرة لا خير فيها أبداً ، ولكنهم سيقودونها الى خارج الفناء قبل أن تستطيع الالتفات .

وسكت برهة ، يفكر . ثم أضاف قائلاً ، وكأنه يريد أن يبرر نفسه :

— لا تظن أننى بخيل . معاذ الله ! ولكن ، كن أنت الحكم ، يا صاحب السعادة ! فقد تظل فى الفراش شهراً ، أو حتى أكثر من شهر ، ولن يكون همنا سوى اعطائها هذا الشىء أو أخذ ذلك . كما يجب أن تطعم خبزاً ولبناً ، وبيضة أو اثنتين ، ولحماً ، وكل ذلك يكلفنا نقوداً ، هذا حق ، أليس كذلك ؟ وملابسها يجب أن تغسل وهى يجب أن تغسل أيضاً ، وجميع الأشياء الأخرى . . . زوجتى مشغولة بشؤون المنزل والحقل ، وسيتعين عليها العناية بها . فليس ذلك بالأمر اليسير . لا تبخل بنقودك ، أضف شيئاً آخر . انا عاجز ، فقدت احدى ساقي كما ترى . ما فائدتى أنا كاسباً وعاملاً ؟ نحن نعيش على ما يبعثه الله لنا وندبر معيشتنا بعرق جبيننا . . .

فقال غريغورى والغيظ يتأجج فى صدره :

— لست أبخل بشيء ، يا صاحبي العطوف . لقد أعطيتك كل ما لديّ من نقود . أستطيع أن أدبر حالي بلا نقود . فماذا تريد مني أيضاً ؟

فتضاحك الرجل غير موقن :

— اذا ، فقد أعطيتني كل نقودك ؟ مع راتبك ، يلزم أن تكون لديك خرج محشوة بالنقود .

فقال غريغوري ووجهه يشحب :

— قل لي مباشرة ، هل ستبقى المرأة المريضة لديك أم لا ؟

فأجاب الرجل وقد اتسم صوته بنغمة استياء :

— كلا . اذا كانت هذه طريقتك في تقدير الأمر فليس هناك أي داع لابقائها معنا . ليس الأمر يسيراً ، كما لا يخفى عليك . . . زوجة ضابط ، وما الى ذلك كله . سيكتشف الجيران الحقيقة . والرفاق في أعقابكم . وسيبلغهم ذلك فتنزل الطامة على رؤوسنا ، كلا ، خذها في هذه الحالة معك . لعل أحداً من الجيران يقبل العناية بها .

وناول غريغوري النقود في ندم واضح ، وأخرج كيس تبغه وشرع يلف سيكارة له .

فارتدى غريغوري معطفه الثقيل وقال لبروخور :

— أمكث بجانبها . سأخرج للبحث عن بيت آخر .

وكان غريغوري يرفع سقاطة الباب حينما أوقفه رب البيت قائلاً :

— مهلاً ، يا صاحب السعادة . فيم العجلة ؟ أتحسب أنني لا أشفق على المرأة المسكينة ؟ انني متألم جداً بسببها ، ولقد كنت أنا في الجيش كذلك وأنا أحترم مركزك ورتبتك ،

ولكن ، أليس في مقدورك أن تضيف شيئاً الى النقود ؟

فلم يستطع بروخور أن يسيطر على نفسه أكثر من ذلك ، فزمجر قائلاً وقد ازرقّ وجهه غضباً :

— ماذا بمقدورنا أن نضيف ، ايها الصل المبتور الساق ؟ يجب أن تُقطع ساقك الأخرى ، هذا ما تستحق ! يا غريغوري باتلاييفتش ! دعني أخضّه قليلاً ، ثم نضع أكسينيا في الزحافة ونمضي . عسى أن تحل عليه لعنة مكعبة ، هذا الشيطان !

لبث رب البيت يستمع الى بروخور دون أن يقاطعه ، ثم قال :

— لا مبرر لاهانتي ، أيها الجندي ! هذه قضية يجب أن تسوى على نحو يرضي الجميع ، وليس لدينا ما نتصايح أو نتخاصم عليه . فيم زعيقك ، أيها القوزاقي ؟ أتظن أن ما أتحدث عنه هو النقود ؟ لم أكن أفكر بذلك النوع من الاضافة أبداً . ان الذي عنيته هو احتمال أن تكون لديكما بعض المعدات الزائدة ، ولنقل بندقية أو مسدساً . . . فسيان لديكما أن تكون أو لا تكون هذه في حوزتكما ، لكنها في مثل هذه الظروف كنز بالنسبة لنا . يجب أن تكون لدينا أسلحة لحراسة الدار بها . هذا هو ما كنت أقصده . أعد لي النقود التي عرضتها عليّ ، وأضف بندقيتك الى الصفقة ، ونتصافح عليها . أترك امرأتك المريضة هنا ، وسنعتني بها كما لو كانت واحدة من عائلتنا . أقسم لك على ذلك .

فنظر غريغوري الى بروخور وقال في هدوء :

— أعطه بندقيتي والخراطيش ، ثم اذهب وأعدّ الحصانين . . . أكسينيا ستبقى . . . ليحكم الله ، فأنا لا أستطيع أن أحملها الى حتفها .

امتدت الأيام ، كئيبة كالحة . فمنذ اللحظة التى ترك غريغورى فيها أكسينيا ورحل ، فقد كل اهتمام بأيما شىء فى الدنيا . كان فى كل صباح يصعد الى زحافته ويمضى بها فوق السهب اللامتناهى والمكسو بالثلج ، وفى كل مساء يبحث عن مستقر لقضاء الليلة ، فيستلقى لينام . وهكذا ، يوماً اثر يوم ، فقد اهتمامه بما كان يجرى فى الجبهة ، التى كانت آنذاك تنحدر فى انتظام صوب الجنوب . وأدرك أن كل مقاومة حقيقية قد انتهت ، وأنه لم يعد من تصميم غالبية القوزاق أن يدافعوا حتى عن مناطقهم هم ، وأن جيوش البيض — كما كانت كل الدلائل تشير — كانت فى ختام حملتها الأخيرة ، وأنها ، ما دامت لم تستطع ايقاف تقدّم الحمر عند خط الدون ، فلن تستطيع ايقافه عند الكوبان .

كانت الحرب تقترب من نهايتها ، والخاتمة تدنو مسرعة محتومة . وكان قوزاق الكوبان يتركون الجبهة بالآلاف ، منتثرين صوب قراهم . أما قوزاق الدون فقد أمسوا حطاماً ، وغدا «جيش المتطوعين» الذى عانى الأمرّين من القتال والتيفوس وفقد ثلاثة أرباع تعداده ، غير قادر على الصمود أمام ضغط الجيش الأحمر فى زحفه الكاسح على أجنحة النصر .

وسرت شائعات بين صفوف اللاجئين مفادها ان هناك شعوراً متزايداً بالاستياء فى الكوبان من المذبحة الوحشية التى دبّرها الجنرال دنيكين ضد أعضاء «رادا الكوبان» . وقيل ان اقليم الكوبان كان يعد العدة للانتفاض على جيش المتطوعين وان مفاوضات كانت جارية بالفعل مع ممثلين من الجيش الأحمر تستهدف فتح المجال أمام القطعات السوفييتية للمرور باتجاه

القفقاس ، كما سرت شائعة قوية بأن أهل الكوبان والتيريك قد أمسوا يكنون عداء كبيراً لقوزاق الدون وجيش المتطوعين ، وأن معركة كبيرة دارت رحاها فعلاً بين فرقة من قوزاق الدون ومثلها من قوزاق الكوبان .

وفى الأماكن التى كان يتوقف فيها غريغورى ، كان يصغى الى الأحاديث فيغدو أكثر اقتناعاً باندحار البيض النهائى المحتّم . ومع ذلك ، فقد كان فى بعض الأحيان يخامره أمل حزين فى أن يضطر الخطر الداهم القوات البيضاء المتفرقة ، الخائرة والمتنازعة فيما بينها ، الى أن تضم صفوفها من جديد وتستأنف صمودها وتصد القوات الحمراء فى تقدمها المكلل بالنجاح . لكنه فقد هذا الأمل بعد سقوط روستوف ، ولم يصدق الرواية القائلة بأن الحمر شرعوا بالانسحاب بعد معارك ضارية فى باتايسك . وحين نقل عليه خموله ، أراد أن يلتحق باحدى القطعات العسكرية . غير أنه حين عرض الفكرة على بروخور ، جابهه هذا بمعارضة قوية ، وقال فى حنق :

— رأسك فرغ من أى عقل ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! لماذا ، بحق الشيطان ، يتوجب علينا دس أنوفنا فى ذلك الجحيم من جديد ؟ المسألة انتهت ، وباستطاعتك أن ترى ذلك بأمّ عينك . فما الداعى ، اذن ، لقذف حياتنا فى الهلاك ؟ أم هل تحسب أن فى مقدورنا ، نحن الاثنين ، أن نفيد بشكل ما ؟ فما دام ليس هناك من يحاول دفعنا الى الجيش بالقوة ، فعلينا أن نجلو عن طريق المتاعب بأسرع ما نستطيع . ثم تأتى بهذا الهراء ! كلا ، أرجو أن تدعنا ننسحب فى هدوء ، كما يفعل المسنون . لقد قاتلنا ، أنا وأنت ، خلال السنوات الخمس الماضية ، بما فيه الكفاية ويزيد . فدع الآخرين يجربون أذرعهم

الآن . أهذا هو ما أصبت بالسيلان من أجله ، ألكى أصاب بالعجز فى الجبهة ثانية ؟ شكرا لك ! انك فى منتهى اللطف ! لقد سئمت هذه الحرب بحيث لا تكاد تخطر على بالى حتى تنقلب أحشاء بطنى . تستطيع أنت أن تلتحق بالجيش ان شئت ، أما أنا فلا . وفى تلك الحالة سأدخل الى مستشفى . لقد نلت كفايتى !

فقال غريغورى بعد صمت طويل :

— ليكن كما تشاء . سنمضى الى الكوبان ، ثم نرى ما نفعله آنئذ .

كانت لبروخور وسائله الخاصة . كان يبحث ، فى كل مكان مأهول بعدد كبير من السكان ، عن الممرض ويأتى بمساحيق وسوائل . لكنه لم يبد رغبة كبيرة فى التخلص من مرضه . وحينما سأله غريغورى عن السبب الذى كان يستعمل من أجله مسحوقاً واحداً فقط ويقذف بالباقى فى غير مبالاة على الثلج ، أفاد بأنه لم يشأ أن يتخلص من مرضه كلياً ، لكنه كان يحول دون استفحاله ، حتى اذا دعى الى اجراء فحص طبى تيسّر له التملص من الحاقه بالكتيبة . وحدث فى احدى القرى أن نصحه قوزاقى خبير بشؤون الدنيا بعلاج نفسه بخميرة مصنوعة من أقدام البط . فصار بروخور ، غب ذلك ، يسأل أول شخص يصادفه فى كل قرية يدخلانها :

— قل لى ، هل تربون البط فى هذه القرية ؟

فاذا رد القروى المتعجب بأنه لم يكن ثمة ماء فى المنطقة وبالتالى لم يكن لتربية البط أى معنى ، كان بروخور يقول فى فحيح مشبع بالازدراء :

— انتم لا تعيشون كما يعيش البشر ! يخيل لى أنكم

لم تسمعوا بطة تصيح فى كل حياتكم . أيها الأغبياء يا أهل السهب .

ويضيف مستديرا ناحية غريغورى ، وفى لهجة تنضح استحقاراً مريراً :

— لا بد أن قسيساً عبر دربنا . نحن لا حظ لنا . آه ، لو كان لديهم بط لاشتريت واحدة فى الحال وبأى ثمن ، أو لسرقت واحدة ، وآنذاك تبدأ أمورى تنصلح . أما الآن فان مرضى يتلاعب أكثر مما ينبغى بقليل ! فى البداية كان مصدر تسلية لى ، ولو أنه ما كان ليدعنى أغفو أثناء الطريق . أما الآن ، لعنة الله عليه ، فقد أمسى عذاباً حقيقياً . أنا لا أستطيع أن أظل قاعداً فى الزحافة .

وحينما كان يجد غريغورى غير متعاطف معه ، كان يخلد الى الصمت ، وفى بعض الأحيان يمسى بارداً نفوراً ، فيلبث ساعات يسوق الزحافة دون أن ينبس بكلمة .

لكم بدت الأيام طويلة مرهقة فى الترحل من منطقة الى أخرى ، على أن ليالى الشتاء اللامتناهية بدت أطول بكثير . وكان لدى غريغورى فيض من الوقت للتفكير بالحاضر واستعادة الماضى . فأمضى ساعات مستعيداً السنوات الغاربة بسرعة لحياته الغريبة المضطربة . وما أكثر الوقت الذى كان يقضيه وهو جالس فى الزحافة ، مسمراً عينيه المضببتين فى الأرجاء الفسيحة المغطاة بالثلج للسهب الصامت فى كآبة ، أو وهو مستلق فى الليل فى غرفة صغيرة ما ، مكتظة خانقة ، وعيناه مغلقتان وأسنانه مصكوكة ، لا يفكر الا بأكسينيا المريضة ، الغائبة عن الوعى ، متروكة فى قرية صغيرة مجهولة ، وبأهله فى تتارسكى . فهناك ، فى اقليم الدون ، كان الحكم السوفييتى قد تأسس ، فكان غريغورى لا

ينفك يسائل نفسه والقلق يأخذ بخناقه : «لا بد أنهم لن يسيئوا معاملة أمى ودونيا بسببى ؟» ويطمئن نفسه فى الحال وهو يستعيد ما كان قد سمعه المرة تلو المرة أثناء الرحلة من أن الجيش الأحمر كان يتقدم فى نظام وأن سلوك رجاله مع أهالى مناطق القوزاق المحتلة كان متسامحاً . وسرعان ما زال قلقه ، اذ بدت فكرة أن تتحمّل والدته جريرته فكرة غير قابلة للتصديق ، وحشية ، لا مبرر لها اطلاقاً . وحينما تذكّر طفليه اختلج قلبه برهة ، فقد خشى ألا يستطيعا تجنب الاصابة بالتيفوس . بيد أنه شعر أن ليس هناك من حزن ، بعد وفاة ناتاليا ، يقدر على زعزعته بمثل تلك القوة ، مع حبه الشديد لطفليه . . .

لبثا أربعة أيام ، هو وبروخور ، فى أحد الأكواخ الشتوية فى سهب «سالسك» بغية اراحة الحصانين . وفى خلال هذه المدة ، تباحثا أكثر من مرة فيما سيفعلان بعد ذلك . وما كادا أن يبلغا الكوخ حتى توجه بروخور بالسؤال :

— هل ستصمد قواتنا فى جبهة الكوبان أم تستمر فى الانسحاب حتى تصل القفقاس ؟ ما رأيك ؟

— لا أدرى . ولكن ، هل يغيّر ذلك من أمرك شيئاً ؟

— فكرة لطيفة ! لا شك أن ذلك يغيّر من أمرى . لأنهم سيدفعوننا دفعاً الى أحد بلدان الكفار ، الى مكان ما تحت سيطرة الأتراك ، وآنذاك سنلقى «أهلاً وسهلاً» فاخرة !

فأجاب غريغورى :

— لست دنيكين ، فلا تسألنى أين سيدفعون بنا .

— انا أسأل لأننى سمعت شائعة بأنهم سيقفون موقف الدفاع عند نهر الكوبان ، ثم يشرعون بالزحف نحو الوطن فى فصل الربيع .

فضحك غريغورى هازئاً :

— من ذا الذى سيقف موقف الدفاع ؟

— عجباً . . . القوزاق والكاديت . فمن هناك غيرهم ؟

— أنت تخرج من فمك عفناً ! ألا تستطيع أن ترى ما يجرى حواليك ؟ الجميع يحاول الافلات بأسرع ما يمكن ، فمن سيقوم بالمقاومة ؟

فهتف بروخور قائلاً :

— آه ، يا بنى ، أستطيع أن أرى بأم عينى أن أمورنا لم تعد تساوى قرصة سعوط ، لكننى مع ذلك لا أزال غير قادر على التصديق . ولكن ، لنفرض أن الحال ستتدهور الى أن نواجه قضية الابحار الى أرض أجنبية أو الزحف هناك مثل سرطان بحرى ، فماذا ستفعل ؟ هل ستذهب ؟

— حسن ، ما الذى ستفعله أنت ؟

— موقفى هو : أينما تذهب ، أذهب . لن أظل وحدى حينما يذهب الجميع .

— هذا هو بالضبط ما كان يدور فى ذهنى . ما دمت قد وضعت نفسك فى قطيع الأغنام ، عليك أن تظل مع القطيع !

— لكن الشيطان يسوق الاغنام الى حيث يشاء لغبائها . كلا ، دعك من هذا الكلام . كن جاداً فى كلامك !

— لا تظل تنق برأسى ! سنرى ما سنفعله حينما نصل الى هناك . لمَ يجب أن نقابل المتاعب فى منتصف الطريق ؟

قال بروخور موافقاً :

— حسن ، آمين ! لن أسألك بعد اليوم .

لكنه استأنف الموضوع ثانية فى اليوم التالى بينما كانا

ذاهبين لاحضار الحصانين ، فتساءل عرضاً ، وهو يتظاهر بفحص مقبض مذراة :

— هل سمعت شيئاً عن «الخضر ؟»

— نعم . ماذا عنهم ؟

— حسن . من هم هؤلاء ، «الخضر» الذين ظهروا فى آخر الزمان ؟ وبجانب من يقفون ؟

— بجانب الحمر .

— اذا ، فلماذا يدعون «خضراً» ؟

— الشيطان يدرى ! ربما لأنهم يختبئون فى الغابات .

ثم اقترح بروخور متردداً وبعد تفكير طويل :

— ما رأيك فى أن نصبح أنا وأنت من الخضر ؟

— أنا لا أشعر بميل كبير لذلك .

— ولكن ، فيما عدا الخضر ، ليست هناك أية وسيلة لعودتنا الى القرية فى وقت قريب ، أليس كذلك ؟ الأمر كله سيان لدى سواء كانوا شياطين خضراً أو زرقاً أو شياطين بلون صفار البيض ، ما داموا ضد الحرب ويسمحون للجنود بالعودة الى ديارهم . . .

فقال له غريغورى ناصحاً :

— اصبر قليلاً ، وقد يستجد شىء من هذا القبيل .

فى نهاية كانون الثانى ، وذات ظهيرة متشحة بالضباب المخيم على الثلوج الذائبة ، بلغ غريغورى وبروخور قرية «بيلاياكلينا» وكان قد تكدس فيها حوالى خمسة عشر ألف لاجئ ، نصفهم صرعى التيفوس . كان قوزاق بمعاطف انكليزية ثقيلة قصيرة ، وفروات قصيرة وسترات قفقاسية طويلة ، يقطعون الشوارع بحثاً عن مستقرات وطعام لهم ولخيلهم ، وراكبو خيل وزحافات ينطلقون

فى جميع الاتجاهات . وكانت عشرات من الخيل الضامرة تقف حول المعالف فى كل فناء ، تلوك القش بشكل بائس ، فى حين كانت ترى فى الشوارع والازقة زحافات مهجورة ، وعربات عسكرية صغيرة وصناديق عتاد . وبينما كان غريغورى وبروخور يمضيان حذر أحد الشوارع ، ألقى بروخور نظرة فاحصة على حصان كميت طويل السيقان كان مربوطاً الى سياج ، وقال :

— عجباً ، هذا حصان ابن العم أندريه ! اذا ، فلا بد أن أصحابنا من تتارسكى موجودون هنا .

وقفز بخفة من على الزحافة ودخل الى البيت للاستفسار .

وبعد بضع دقائق خرج من الكوخ ابن عم بروخور وجاره ، أندريه توبولسكوف ، ومعطفه الثقيل ملقى على كتفيه . فسار متمهلاً نحو الزحافة ، يصحبه بروخور ، ومدّ لغريغورى يداً وسخة تفوح برائحة عرق الخيل . فسأله غريغورى :

— هل أنت مع أبناء قريتنا ؟

— نحن فى البلوى سوى .

— حسن ، كيف كانت الرحلة ؟

— كرحلة أى امرئ آخر . بعد كل وقفة للمبيت نخلف وراءنا أناساً وخيلاً . . .

— هل لا يزال أبى حياً معافى ؟

فأجال نظرة فى غريغورى وتنهد :

— لدى أنباء سيئة ، يا غريغورى بانتلاييفتش . . . سيئة جداً . . . أتل الصلاة على روح والدك . سلّم الروح لباريها أمس مساء . لقد مات . . .

فتساءل غريغورى شاحب الوجه :

— وهل دُفن ؟

— لا أدرى . لم أذهب الى هناك اليوم . سأريك الدار . . . حاذ جهة اليمين ، يا ابن العم . انه البيت الرابع على اليمين من تلك الزاوية .

فمضى غريغورى بالزحافة الى بيت كبير ذى سقف من الصفائح الحديدية ، وأوقف الحصانين بجانب السياج . غير أن توبولسكوف نصحه بادخال الزحافة داخل الفناء . وقال فيما كان يقزل نازلاً من الزحافة لفتح البوابة :

— ان المكان مكتظ هنا بعض الشىء ، فيه حوالى عشرون رجلاً . لكنك ستجد لك مكاناً فيه .

كان غريغورى أول من ولج الى غرفة شديدة الحرارة . كان معارف من قريته متمددين أو جالسين متراصين على الأرض ، كان بعضهم يرتق جزماً أو عدة خيل ، وثلاثة منهم ، بمن فيهم بسخليبنوف العجوز الذى كان بانتلاى قد رحل معه ، يتناولون الحساء جالسين الى مائدة . وحينما شاهد القوزاق غريغورى نهضوا وردوا على تحيته المقتضبة مجتمعين .

وتساءل ، وهو يخلع طاقيته المصنوعة من جلد الغنم ويجيل النظر فى أرجاء الغرفة :

— أين أبى ؟

فرد بسخليبنوف فى صوت خافت :

— لدى أنباء سيئة . . . لقد مات بانتلاى بروكوفييفتش .

ووضع ملعقته على المائدة ومسح فمه بكمّ سترته ، ورسم اشارة الصليب على نفسه :

— قضى نحبه أمس مساء . عسى أن يسكنه الرب الى جواره !

— أعرف ذلك ، انما هل تمّ دفنه ؟

— للآن ، لا . كنا بصدد دفنه اليوم ، على أنه لا يزال هناك . لقد حملناه الى غرفة الضيوف ، حيث الجو فيها بارد . من هنا .

وفتح بسخليبنوف الباب المؤدى الى الغرفة الثانية وقال فى شبه اعتذار :

— لم يشأ القوزاق أن يقضوا الليلة فى الغرفة نفسها ، اذ ان الرائحة شديدة ، أضف الى ذلك ، أن مكانه هنا أفضل . . . فهذه الغرفة ليست مدفأة .

كانت ثمة فى الغرفة الفسيحة رائحة قوية لبذور القنب والفئران ، وكانت زاوية منها برمتها مملوءة بكومة من الدخن والقنب ، كما وضعت براميل دقيق وزبدة على مصطبة . وكان بانتلاى بروكوفتش ممدداً على مرشحة خيل فى وسط الغرفة . فسحب غريغورى بسخليبنوف جانباً ، ودخل الى الغرفة وتوقف الى جانب أبيه .

وقال بسخليبنوف فى صوت خافت :

— ظلّ مريضاً أسبوعين . أصابه التيفوس منذ كنا فى متشكا . وهنا وجد أبوك مستقره الأخير . . . هذه هى حياتنا . . .

فانحنى غريغورى محدّقاً فى وجه أبيه . كانت ملامحه قد غيرها المرض وأمسى غريباً بشكل مذهل . كانت وجنتا بانتلاى الشاحبتان الغائرتان مغطاتين بلحية شائبة ، وتدلى شاربه فوق فمه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وبياضا عينيه المائلان الى الزرقة قد فقدا حيويتهما وألقهما . وكان فكّ العجوز الأسفل معقوداً بمنديل أحمر ، فبدت لحيته الرمادية المجعدة ازاء القماش الأحمر أشد بياضاً .

ركع غريغورى على ركبتيه ليملأ نظره للمرة الأخيرة بذلك

الوجه العزيز وليحفظه فى ذاكرته ، فارتعد ، بصورة غير ارادية ، رعباً ونفوراً ، فعلى وجه بانتلاى الرمادى الشمعى ، كان القمل يزحف ، مالئاً حدقتى العينين وغضون الوجنتين . وكان يغطى الوجه بغلالة حية متحركة ، ويموج فى اللحية ويتحرك بين الحاجبين ، ويشكل نطاقاً محكماً رمادياً حول الياقة الصلبة لسترته الزرقاء الطويلة . . .

• • •

قام غريغورى وقوزاقيان آخران بحفر قبر فى الأرض الطينية المتجمدة المتصلبة كالحديد . ولجأوا فى ذلك الى استعمال أمخال * واستطاع بروخور أن يصنع تابوتاً كيفما اتفق من قطع الخشب . وفى خاتمة ذلك النهار ، حملوا بانتلاى بروكوفييفتش الى الخارج ودفنوه فى أرض ستافروبول الغريبة . وغب ذلك بساعة ، وفيما شرعت أضواء القرية تتلألأ ، غادر غريغورى بيلايا كلينا ميمماً ناحية نوفوبوكروفسكايا .

فى قرية كورنوفسكى أحس بوعكة . فأمضى بروخور نصف نهار فى البحث عن طبيب ، الى أن أفلح أخيراً فى العثور على جراح عسكرى نصف مخمور وأقنعه ، بعد لأى ، بالحضور الى الكوخ . ففحص الطبيب غريغورى ، من غير أن يخلع معطفه الثقيل ، وجسّ نبضه وقال عن ثقة :

— عودة تيفوس قديم . انا أنصحك ، أيها النقيب أن تقطع رحلتك ، والا فستموت فى الطريق .

---

* مفردها مخل : آلة مستطيلة من حديد أو نحوه ترفع أو تقلع بها الحجارة . **المترجمون** .

فابتسم غريغورى ابتسامة شوهاء :

— أن أنتظر مقدم الحمر ؟

— الحمر لا يزالون بعيدين من هنا .

— ولكنهم سيصلون الى هنا .

— لا شك لدىّ فى ذلك . ولكن من الأفضل لك أن تبقى . لو كنت فى مكانك لاخترت هذا باعتباره أهون الشرين .

فقال غريغورى عازماً وهو يرتدى قمصلته :

— كلا . سأستمر فى رحلتى على نحو ما . ستعطينى أنت بعض الدواء ، أليس كذلك ؟

— استمر ، ان شئت ، فليس هذا من شأنى . كنت ملزماً باعطائك مشورتى ، وبعد ذلك تستطيع أن تفعل ما يحلو لك . أما بالنسبة للدواء ، فان أفضل شىء هو الراحة والعناية . باستطاعتى أن أعطيك وصفة ، ولكن الصيدلى رحل عن القرية ، وليس لدى سوى الكلوروفورم واليود وكحول الجراحة .

— حسن ، اذن أعطنى شيئاً من الكحول .

— بكل سرور . ولكنك ستموت فى الطريق بأية حال من الأحوال ، ولهذا فلن يغير الكحول من الأمر شيئاً . أرسل مراسلك معى ، سأعطيك ألف غرام . اننى انسان طيب . . .

وألقى الطبيب بالتحية ، وخرج فى خطى مترنحة .

جاء بروخور بالكحول ، ووضع يده على عربة صغيرة من النوع الذى يجره حصانان ، وذلك من مكان ما أو من غيره . وشدّ اليها الحصانين ، وقال فى تهكم عابس وهو يدخل الى الغرفة :

— العربة فى انتظاركم ، يا صاحب السعادة !

ومن جديد ، تزاحفت الأيام الكئيبة ، يوماً فى أذيال يوم .

فى الكوبان ، كان ربيع جنوبى متعجل يقدم من سفوح القفقاس . فذاب الثلج فجأة فى السهب ، معرياً بقعاً من أرض سوداء لامعة ، وثرثرت الجداول فى كركرات فضية الرنين . وتناثرت على الطريق برك ثلجية ، واتشحت المتاهات النائية اللازوردية بلؤلؤ ربيعى السمات ، وغدت سماء الكوبان الفسيحة أعمق وأدفأ وأشد زرقة .

وفى غضون أسبوعين ، تعرت الحنطة الشتائية تحت ضوء الشمس ، وارتفع ضباب أبيض فوق الأراضى المحروثة . وصارت سنابك الحصانين تخبط على الطريق الموحل وتغوص ، حتى الرسغ ، فى الطين ، وتعيقهما المسارب عن السير ، فيجهدان ظهريهما ويتفصد العرق على اهابهما . فعقد بروخور باعتناء ذيليهما الى أعلى ، وجعل فى كثير من الأحيان يترجل من العربة الصغيرة ويسير بجانبهما ، مجرجراً قدميه بمشقة من الوحل ، وهو يهمهم :

— هذا ليس طيناً ، انما قار ، والله انه قار ! لقد أصبح على الحصانين أن يظلا يعرقان طوال الطريق !

لبث غريغورى صامتاً ، وهو مستلق فى العربة الصغيرة ، يرتعش ويدثر نفسه . بيد أن بروخور أمسى يجد الرحلة مرهقة من غير شخص يسامره . فكان يلمس قدم غريغورى أو كمه ويقول : «هذا الوحل فوق الاحتمال ! قم وجربه ! لعمرى أنك ابن حلال ، أن تمرض فى هذا الوقت !»

فكان غريغورى يهمس بصوت لا يكاد يسمع :

— اذهب الى الشيطان !

وكان بروخور متى صادف امرءاً يسأله :

— هل الوحل أسوأ هناك أم على الحالة ذاتها ؟

فكان الرد يأتى فى ضحكة أو مزحة ، وحينذاك يستشعر

بروخور بالسعادة اذ يكون قد تبادل كلمة أو كلمتين مع كائن حى ، فيروح سائراً بعض الوقت فى صمت ، ويوقف الحصانين من حين لآخر ليمسح حبات العرق الكبيرة من جبهته الأسمر . وكان خيالة يلحقون بهما ، بين الفينة والفينة ، فيحس بروخور أن عليه أن يوقفهم لتبادل التحية والاستفهام عن المكان الذى قدموا منه والذى يتجهون اليه . وكان ينهى كلامه معهم بقوله دائماً :

— انكم تضيعون وقتكم بالسير الى أمام . . . انتم لن تقدروا على قطع المزيد من المسافة على خيلكم . لماذا ؟ عجباً ، لأن الوحل شديد السمك هناك ، كما أخبرنى بذلك أناس جاءوا من تلك الأطراف ، بحيث يبلغ بطون الخيل ولن تقدر عجلات العربات على الدوران ، أما بالنسبة للرجال القصار فلا أكثر من أنهم ينكفئون على وجوههم ويغرقون فى الطريق . ان كلية بتراء الذيل قد تكذب ، أما أنا فلا ! ولماذا نحن نسير الى أمام ؟ لأننا لا نستطيع غير ذلك . اننى أصطحب أسقفاً مريضاً ، ولا شك أنه والحمر لا يستطيعان العيش معاً .

فكان معظم الخيالة يطلقون السباب على بروخور متمازحين ويواصلون مسيرتهم . الا أن بعضهم كان يتوقف ويحدجه بنظرات قاسية ، ويفوه بتعليق مهين ، مثل :

— اذن ، فالحمقى يتراجعون من الدون كذلك ؟ هل كل مَنْ فى منطقتك على شاكلتك ؟

وحدث أن استبدّ الحنق بأحد قوزاق الكوبان ، وكان قد انفصل من جماعته حينما أوقفه بروخور ليسمعه كلامه الفارغ ، فأوشك أن يهوى بسوطه على وجه بروخور ، بيد أن هذا قفز ، فى خفة خارقة ، الى العربة الصغيرة والتقط غدّارته من تحت

مرشحة الخيل وحطها على ركبتيه . فمضى القوزاقى الكوبانى مبتعداً ومطلقاً سباباً مقذعاً ، بينما زعق بروخور وراءه وهو يهدر ضحكاً :

— ليس هذا المكان مثل تساريتسين حيث تستطيع الاختفاء ، فى حقول الذرة ! أيها الجلمود ، أيها الأخرق مقطوع الأكمام ! يا أنت ، ارجع ، يا عصيد جريش الذرة ! ارفع سروالك والا فسوف تجرجره فى الوحل ! فى الهزيمة كالغزال ، يا قاتل الدجاج ! يا فخذ أنثى الخنزير ! ليست لدى رصاصة قذرة والا لكنت سددتها نحوك ! انزل سوطك ، أتسمعنى ؟

كان بروخور قد غدا أشبه بالأبله من جراء الملل والخمول ، ولهذا كان يلجأ الى وسائله الخاصة لتسلية نفسه .

ظلّ غريغورى يعيش ، منذ اليوم الأول لمرضه ، وكأنه فى حلم . وكان فى بعض الأحيان يغيب عن الوعى ، ثم يصحو من جديد . وفى احدى هذه النوبات ، وحين استعاد صوابه بعد أن مضت عليه مدة طويلة وهو غائب عن الوعى ، انحنى عليه بروخور وسأله محدقاً فى اشفاق فى عينيه الغائمتين :

— ألا زلت حيّاً ؟

كانت الشمس تشع فوقهما . وكانت أسراب من الاوز قاتم الاجنحة تطلق نداءاتها عبر زرقة السماء العميقة ، وهى تتجمع تارة وتمتد فى خط مخملى السواد ، منكسر ، تارة اخرى . وكانت الأرض المستدفئة ، وقد غطاها عشب غضّ ، تبعث رائحة مسكرة . فجعل غريغورى يعب ، بأنفاسه السريعة ، هواء الربيع المنعش . وكان صوت بروخور لا يبلغ مسامعه الا خافتاً ، وبدا كل ما حوله غير حقيقى ، باهتاً الى حد لا يصدق ، ونائياً كل النأى . ومن ورائهما ، كان رمى المدافع يهدر مكتوماً

من بعيد . وعلى مسافة ليست بالبعيدة ، كانت عجلات عربات ذوات حواف حديدية ترسل قعقعتها فى توافق ثابت ، وينبعث صهيل خيل وزنخرتها وأصوات بشرية . واستطاع أن يتشمم الرائحة القوية للخبز والتبن وعرق الخيل . كان كل شىء يلج الى وعى غريغورى وكأنه قادم من عالم آخر . واستجمع كل ارادته كى يسمع صوت بروخور . وأدرك بمجهود شاق أن مراسله كان يسأله :

— أترغب فى شىء من اللبن ؟

ولعق غريغورى شفتيه المتقشرتين ، لا يكاد يقوى على تحريك لسانه ، واستشعر سائلاً بارداً كثيفاً ذا طعم طازج أليف يصب فى حلقه . وبعد بضع رشفات صك أسنانه . فسد بروخور الدورق وانحنى على غريغورى ثانية . واستطاع غريغورى أن يحزر من حركة شفتى بروخور اللتين ترك الجو عليهما آثاره ، أكثر مما سمع من كلامه ، أنه كان يسأله :

— ألا تعتقد أن من واجبى أن أتركك فى هذه القرية ؟ الرحلة شاقة عليك ، أليس كذلك ؟

فبدت على غريغورى نظرة معاناة وقلق . ومن جديد ، استجمع كل ارادته وقال همساً :

— سر بى . . . الى أن أموت . . .

وأدرك من وجه بروخور أنه قد سمعه ، واذ اطمأن الى ذلك ، أغلق عينيه مرحباً بمقدم الغيبوبة كوسيلة للخلاص ، وغارقاً فى عتمة النسيان الكثيفة ومنسحباً من عالم الصخب والهرج . . .

٢٨

وفى الطريق الى قرية أبنسكايا ، لم يتذكر غريغورى سوى شىء واحد : ذات ليلة حالكة السواد أيقظه لسع برد نفاذ حاد .

كانت ثمة عربات تمضى جماعات فى الطريق . واستطاع أن يدرك من الأصوات والقعقعة المتواصلة المكتومة للعجلات أن قافلة العربات كانت طويلة . وكانت العربة التى تمدد فيها غريغورى فى مكان ما متوسط بينها . كان الحصانان يسيران ببطء ، وبروخور يطق لسانه ويصيح من آن لآخر : — هيا . . . ديخ ! — ويلوّح بسوطه . واستطاع غريغورى أن يسمع الصفير الخافت للسوط الجلدى ، وأحس بالحصانين يشدان على الأعنة على نحو أقوى ، مقعقعين العرائش ، فتندفع العربة بسرعة أكثر صادمة ، فى بعض الأحيان ، طرف عريشها الأوسط بمؤخرة عربة بريتزكا أمامها .

وأفلح غريغورى ، بعد لأى ، فى سحب أطراف فروته وانقلب على ظهره . كانت الريح تسوق عبر السماء الدكناء غمائم هائلة متدحرجة صوب الجنوب . ولم يحدث الا نادراً أن شعّت نجمة منفردة لحظة خلل فجوة صغيرة بين الغمائم ، ومثل شرارة صفراء ، ثم لا تلبث العتمة المنيعة أن تغلف السهب من جديد ، والريح لا تنفك تصفر فى كآبة خلل أسلاك البرق ، ويشرع مطر خرزى خفيف يرش الأرض .

كان طابور من الخيالة يتحرك فى الجانب الأيمن من الطريق . واستطاع غريغورى أن يستمع الى الوقع المألوف لجلجلة عدة القوزاق محكمة الشد ، والخبط الرتيب المكتوم لسنابك لا حصر لها على الوحل . وكانت قد مرت سريتان على الأقل ، بيد أن خبط السنابك لم ينقطع . لا بد أنها كانت كتيبة اذاً . وعلى حين غرة ، انطلق من الأمام صوت جرئ لمنشد منفرد ، كما ينطلق الطير ، ليحلق فوق السهب الصامت :

أواه ، فثمة على شاطئ النهر ، أيها الاخوة ، على شاطئ كاميشنكا ، وعلى السهب الجليل ، سهب ساراتوف اللامتناهى . . .

والتقطت الأغنية القوزاقية القديمة عدة مئات من الحناجر ، وتراقص فوقها جميعاً صوت جهير فى غاية القوة والرخامة . وبينما كانت الأصوات الخفيضة تتلاشى ظلّ الصوت الجهير المرنان يخفق فى مكان ما فى العتمة ، متعلقاً بشغاف القلوب . بيد أن المنشد المنفرد كان قد بدأ المقطع الثانى :

هناك ، هناك ، عاش القوزاق وقضوا حياتهم شعباً حراً ،
كل قوزاق «الدون» ، وقوزاق «الغربين» ، وقوزاق «البيك» . . .

وفى داخل غريغورى ، بدا وكأن شيئاً انقطع . وارتجّ جسده فى نوبة فجائية من الدموع ، وغصّ بلعومه بالألم . ولبث ينتظر شروع المنشد المنفرد بالغناء من جديد فى لهفة وشوق ، وهو يخنق دموعه . وحينما صدح المنشد ثانية جعل غريغورى يهمس معه ، بلا صوت ، كلمات الأغنية التى حفظها منذ طفولته :

وكان أتمانهم يرماك بن تيموفى ،
فى حين كان قائدهم استاشكا بن لافرنتى . . .

وفى اللحظة التى انطلق فيها المنشد المنفرد بالكلمات الأولى للأغنية ، توقف القوزاق المرتحلون عن الكلام ولم يعد السائقون يستحثون خيلهم ، وأمسى قطار آلاف العربات يتحرك فى صمت عميق مرهف . ولم يكن فى المستطاع سماع شىء سوى قعقعة العجلات وخبط السنابك وهى تعجن الطين ، فيما كان المنشد المنفرد يصدح بالكلمات الأولى لكل مقطع مشدداً

باعتناء على مخارج المقاطع الصوتية . لقد عادت تلك الأغنية القديمة التى عركت الدهور لتحيا من جديد وتبسط هيمنتها على السهب الجليل . وبكلمات بسيطة ساذجة ، مضت تحكى قصة أسلاف القوزاق الأحرار الذين أنزلوا ذات يوم ضربة قاصمة على ظهر القوات القيصرية ، والذين ركبوا الدون والفولغا فى مراكبهم القرصانية الصغيرة يسلبون سفن القيصر و«يعصرون» التجار والنبلاء والحكام ، أولئك القوزاق الذين جعلوا سيبيريا القصية تركع على ركبتيها أمامهم . والآن ، تنطلق الأغنية الجبارة ليستمع اليها خلل الصمت الكئيب أسلاف أولئك القوزاق الأحرار وهم يتراجعون مكللين بالعار بعد أن اندحروا فى حرب غير مشرّفة خاضوها ضد شعب روسيا .

مرت الكتيبة وسبق المنشدون العربات وتقدموا اللاجئين بمسافات كبيرة . غير أن العربات لبثت ، بعد ذلك بوقت طويل ، تمضى فى صمت مسحور دون أن تند عن راكبيها كلمة أو صيحة على الخيل التعبى . بيد أن الأغنية ظلت تطوف خلل العتمة وتتسع انتشاراً ، مثل الدون فى فيضانه :

. . . كانت ثمة فكرة فى أذهانهم .
سيمضى الصيف ، ودفء الصيف ،
وسيأتى الشتاء ، أيها الأخوة ، يبرد الشتاء .
كيف سنقضى الشتاء ، أيها الاخوة ، وأين ؟
أن نمضى الى «ألبيك» مسيرة طويلة مديدة .
واذا حمنا على شطآن «الفولغا» سيحسبنا الجميع من اللصوص .
واذا يممنا صوب مدينة «قازان» وجدنا القيصر امامنا ،
القيصر الرهيب ، ايفان فاسيلييفتش . . .

والآن ، لم يعد فى المستطاع سماع صوت المنشدين ، أما صوت المنشد المنفرد فكان لا يزال يدوى عالياً فمنخفضاً ، ثم عالياً من جديد . ولبث الجميع يرهفون السمع اليه فى صمت كئيب متوتر شامل .

وتذكر غريغورى كذلك ، وكأنه فى حلم ، عودته الى الوعى داخل غرفة دافئة : استشعر بكل أطرافه ، ومن غير أن يفتح عينيه ، الطراوة اللطيفة لمفارش السرير النظيفة . كما استثارت أنفه رائحة الأدوية الحادة . فخيل اليه ، فى البدء ، أنه كان راقداً فى مستشفى ، لكن تناهى الى سمعه من الغرفة الثانية انفجار ضحك رجال وجلجلة أطباق وجلبة مخمورين . وقال صوت منخفض النغم ، مألوف :

— هذا ، وأنت رجل ذكى ! كان عليك أن تعثر على موقع كتيبتنا أولاً ، وآنذاك سيكون فى مقدورنا مد يد المساعدة . حسن ، اشرب ! لماذا تثرثر بحق الشيطان ؟

فرد بروخور ، بصوت مخمور ومشوب بالدموع :

— بالله عليكم ، كيف كان لى أن أعرف ؟ أتحسب أننى وجدت تمريضه أمراً هيناً ؟ أطعمته رشفة رشفة ، وكان علىّ أن أمضغ الطعام له ، وكأنه طفل صغير ، وسقيته اللبن ، أى نعم ، بحق المسيح الحى ! مضغت الخبز ودسسته فى حلقه ، أى والله ! فتحت أسنانه برأس سيفى . وحدث مرة أننى شرعت أصب اللبن فى بلعومه فاختنق وكاد يموت . . . حسبك أن تتصور ذلك . . .

— هل أعطيته حماماً أمس ؟

— أعطيته حماماً ومشطت شعره بالمجز ، وأنفقت كل ما لدىّ على اللبن . . . لست نادماً ، فأنا لا أهتم بذلك البتة .

ولكن ، أن أمضغ الطعام له وأطعمه باليد ! أتحسب أن ذلك يسير ؟ لا تقل نعم ، والا سأضربك ، رغم رتبتك !

ثم جاءوا الى غرفة غريغورى : بروخور وخارلامبى يرماكوف وبيوتر بوكاتييريوف — وقد دفع طاقيته المصنوعة من فرو الكاراكول الرمادى الى مؤخرة رأسه وغدا وجهه أحمر كالبنجر — وكذلك بلاتون ريابتشيكوف وقوزاقيان غريبان آخران .

فندّت عن يرماكوف صرخة مخبولة وهو يتقدم صوب غريغورى بخطى مترنحة :

— لقد استيقظ !

وزعق بلاتون ريابتشيكوف كبير الجرم وهو يهز بيده قنينة ويبكى :

— غريشا ! يا ولدى العجوز العزيز ! أتذكر أيامنا الممتعة على نهر «تشيرا» ؟ وكيف حاربنا ! أين ذهب مجدنا ؟ ماذا يفعل الجنرالات بنا وماذا فعلوا بجيشنا ؟ لعنة الله عليهم ! أنت حى من جديد ، ها ؟ هاك ، اشرب ، ستشعر بالتحسن حالاً . انه شراب خاص !

وتمتم يرماكوف ، وعيناه السوداوان الزيتيتان تتلامعان فرحاً :

— اذن ، فقد عثرنا عليك أخيراً !

وقذف بنفسه على سرير غريغورى حتى هدل من تحته .

فتساءل غريغورى بصوت واهن ، رافعاً عينيه لينظر الى وجوه القوزاق الأليفة :

— أين نحن ؟

— لقد استولينا على يكاترينودار الآن ! ولسوف نتراجع أبعد عما قريب ! اشرب ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، يا رفيقنا

القديم ! انهض ، بالله عليك ! أنا لا أستطيع أن أتحمل رؤيتك راقداً هنا !

وانكفأ ريابتشيكوف على قدمى غريغورى . بيد أن بوغاتيريوف الذى كان يبتسم فى هدوء وبدا أنه أكثر صحواً من الآخرين أمسك به من نطاقه ورفعه بيسر وحطه على الأرض فى اعتناء .

فهتف يرماكوف فزعاً :

— خذ القنينة منه ، والا فستنسكب .

وأضاف قائلاً وهو يستدير ناحية غريغورى وعلى شفتيه ابتسامة واسعة مخمورة :

— أتعلم لماذا نشرب ؟ كنا نشعر بظمأ فى حلوقنا ثم تسنى لنا أن نضرب ضربة ممتازة على حساب أحدهم ! نهبنا مخزناً للنبيذ كى لا يقع فى أيدى الحمر . وأى شراب عثرنا عليه ! لن تصدق ! أطلقنا الرصاص من بندقية على صهريج وثقبناه ، فانبثق الشراب منه كما ينبثق الماء من حنفية . ثقبنا الصهريج بالرصاص ، فوقف كل رجل منا أمام ثقب واضعاً قبعات وسطولاً وقوارير تحته ، فى حين تلقفه آخرون براحات أيديهم مباشرة وجعلوا يشربون منه رأساً . وكنا قد طعنّا المتطوعين اللذين كانا فى حراسة المخزن واتخذنا طريقنا نحو الشراب ، وحينذاك بدأت الحفلة ! رأيت قوزاقيا يتسلق الى أعلى الصهريج ، وأراد أن يغرف الشراب خلال الفتحة العليا بسطل خيل ، لكنه سقط فى الصهريج وغرق . كانت الأرض كونكريتية ، وانهمر الشراب عليها حتى بلغ ركبنا علواً ، وجعل القوزاق يخوضون فيه ، وينحنون ليشربوا ، كما تشرب الخيل من ساقية ، من تحت أقدامهم تماماً . وكانوا يتساقطون حيث هم . . . كان المنظر فظيعاً ، لكنك كنت تضحك بلا ارادتك ! سيموت أكثر من

واحد من كثرة الشرب . ولقد قمنا ، نحن ، بمأثرة هناك أيضاً . لم نكن فى حاجة الى الكثير : دحرجنا الى الخارج برميلاً يحتوى على خمس سطلات من الشراب على الأقل ، وهذا يكفينا . اشرب حتى تمتلئ ، يا روحى ! الدون الهادئ فى طريقه الى الهلاك . أوشك بلاتون على الغرق . هوت عليه ضربات الآخرين فسقط على الأرض وصاروا يدوسون عليه . بلع ملء فمه مرتين وكان على وشك أن يعطس عطسته الا بشق النفس ، أن أجره خارجاً .

وكانوا جميعاً ، يفوحون برائحة الشراب والبصل والتبغ . وغمر غريغورى شعور خفيف بالغثيان والدوار . وابتسم ابتسامة واهنة مرهقة ، ثم أغمض عينيه .

لبث أسبوعاً فى يكاترينودار راقداً فى دار تعود الى طبيب من معارف بوغاتيريوف ، متعافيا ببطء من مرضه . ثم «بدأ وضعه يتصلح ، كما قال بروخور» ، وفى قرية أبينسكايا استطاع أن يمتطى حصاناً لأول مرة منذ بدء التراجع .

• • •

كان الناس يجلون عن نوفوروسيسك . كانت البواخر تنقل الاغنياء وعوائل الجنرالات وملاك الأراضى والسياسيين المتنفذين الى تركيا . وكانت عمليات تحميلها تجرى ليلاً ونهاراً فى جميع الأرصفة . وكان «الكاديت» يعملون فى التحميل على شكل فرق ، فيملأون عنابر السفن بالمعدات الحربية وصناديق وحقائب الأغنياء من بين اللاجئين .

كانت قوات «جيش المتطوعين» قد سبقت قوزاق الدون والكوبان فى الطريق ، فكانوا أول من بلغ نوفوروسيسك . فتزاحموا

على سفن النقل ، واتخذ ضباط أركان جيش المتطوعين ، فى حركة تنمّ عن مهارة وحسن تدبير ، أماكنهم على ظهر البارجة الحربية البريطانية «أمبراطور الهند» التى كانت قد رست فى الخليج . وكان القتال محتدماً بالقرب من تونلنايا ، وكان عشرات آلاف اللاجئين يملأون شوارع البلدة . واستمرت القوات العسكرية تتدفق ، ونشأ على الأرصفة زحام من الناس يعز على الوصف . وعلى المنحدرات الكلسية للتلال المحيطة بنوفوروسيسك كانت خيل سائبة تجوب فى قطعان بالآلاف . وفى الشوارع المحيطة بالميناء ارتفعت أكوام مما خلّفه المتراجعون من سروج ومعدات قوزاقية ومخزونات عسكرية . وسرت ، كالبرق ، شائعة فى البلدة تفيد بأنه لن يسمح بالصعود الى ظهر السفن الا لوحدات جيش المتطوعين فى حين سيتعين على قوزاق الدون والكوبان مواصلة السير الى جورجيا .

فى صباح الخامس والعشرين من آذار عام ١٩٢٠ ، ذهب غريغورى وبلاتون ريابتشيكوف الى الرصيف لاستطلاع ما اذا كانت قوات فيلق الدون الثانى ستحمل . وكانت شائعة قد انتشرت فى المساء السابق فى أوساط القوزاق تقول ان الجنرال دنيكين قد أصدر أمرا يقضى بنقل جميع قوزاق الدون الذين كانوا قد احتفظوا بعدتهم وخيلهم الى شبه جزيرة القرم .

كان الرصيف كتلة صلدة من الكالميكيين القادمين من اقليم «سالسك» . كانوا قد ساقوا قطعان خيلهم وجمالهم من «مانيتش» و«سال» وجاءوا بأكواخهم الخشبية حتى بلغوا البحر . شق غريغورى وريابتشيكوف طريقهما خلل الحشد ، وقد زكمت مناخيرهما عفونة سمن الخراف ، ميممين صوب معبر سفينة نقل كبيرة راسية ازاء الرصيف . وكان يقوم على حراسة المعابر

حرس معزز من الضباط من فرقة ماركوف . وكان مدفعيون من قوزاق الدون متجمهرين على مقربة من المعبر فى انتظار الصعود الى ظهر السفينة . وكانت المدافع المغطاة بمشمعات خاكية متناثرة على مؤخرة السفينة .

شق غريغورى طريقه بمرفقه خلل الحشد ، وتوجه بالسؤال الى عريف بادى الوسامة أسود الشاربين :

— أية بطارية هذه ، أيها الصديق ؟

فألقى العريف نظرة على غريغورى من طرف عينه ، وأجاب على مضض :

— السادسة والثلاثون .

— تحت أمرة كارغين ؟

— نعم .

— من المسؤول عن الصعود الى ظهر السفينة ؟

— هو ذاك ، الى جانب السياج . برتبة عقيد .

فسحب ريابتشيكوف غريغورى من كمّه وقال محنقاً :

— دعنا نمضى من هنا ، وليذهبوا الى الشيطان ! أتظن أن فى مقدورك أن تفهم شيئاً من هذه الزمرة ؟ كانوا بحاجة الينا حينما كنا نحارب ، أما الآن فهم لا يجدون فينا أى نفع . . .

فابتسم العريف وغمز بعينه ناحية المدفعيين الذين اصطفوا فى انتظام :

— أنتم محظوظون ، يا أصحابي ! انهم يرفضون حتى الضباط .

وفى هذه الأثناء قدم العقيد المسؤول عن عملية الصعود الى ظهر السفينة ، نازلا المعبر فى خطوات خفيفة ، وكان يسرع وراءه موظف أصلع الرأس ، وسترته الفرو الواسعة غير مزررة .

وضغط الرجل طاقيته المصنوعة من فرو الققمة على صدره متوسلا ونطق بشيء . كان ثمة تعبير عن التضرع مرتسم على وجهه العرق وعينيه قصيرتى البصر جعل العقيد يشيح بوجهه عنه ويصرخ :

— لقد سبق أن أخبرتك مرة . لا تزعجنى والا أصدرت أمرا بانزالك الى اليابسة . أنت مجنون ! أين ، بحق الشيطان ، نضع اغراضك ؟ هل أنت أعمى ؟ ألا تستطيع أن ترى ما يجرى ؟ أوه ، ابتعد ! اذهب ، بحق الله ، وارفع شكوى الى الجنرال دنيكين اذا شئت . قلت لا أستطيع . . . وأنا لا أستطيع ! ألا تفهم اللغة الروسية ؟

واستدار العقيد ليخلّص نفسه من الموظف اللجوج ، فحاول أن يجتاز غريغورى . غير أن غريغورى اعترض طريقه وسأله منفعلاً ، وهو يضع يده على رفرف قبعته :

— هل يستطيع الضباط أن يعتمدوا على أمل الاقلاع ؟

— ليس على ظهر هذه السفينة . فليس فيها متسع للمزيد .

— فعلى ظهر أية سفينة ، اذن ؟

— ستعرف ذلك عند نقطة الاجلاء .

— كنا هناك ، لكنهم لا يعرفون شيئاً .

— حسن ، وأنا لا أعرف شيئا أيضاً . دعنى أمرّ .

— لكنك تصعّد البطارية السادسة والثلاثين ، فلم لا يكون هناك متسع لنا ؟

— قلت لك ، دعنى أمرّ . لست مكتب استعلامات .

وحاول العقيد أن ينحّى غريغورى جانبا بحركة رقيقة ، بيد أن غريغورى كان قد زرع قدميه على الأرض فى ثبات . واضطرمت فى عينيه شرارات زرق ، ثم خبت من جديد :

— اذن ، فلستم بحاجة الينا الآن ؟ لكنكم كنتم بحاجة

البنا فى الماضى ، أليس كذلك ؟ ارفع يدك عنى ، فلن تستطيع زحزحتى !

فحدّق العقيد فى عينى غريغورى ، ثم أجال بصره فيما حوله . كان رجال فرقة ماركوف الواقفون عند المعبر ، وبنادقهم عبر صدورهم ، لا يكادون يستطيعون ايقاف حشد الناس المائج ، فمرر العقيد عينيه على غريغورى وتساءل فى لهجة متعبة :

— من أية كتيبة أنت ؟

— من كتيبة الدون التاسعة عشرة . والآخرون من كتائب مختلفة .

— كم عددهم ؟

— عشرة .

— لا أستطيع . ليس هناك متسع .

ورأى ريابتشيكوف منخرى غريغورى يرتعشان فيما قال فى صوت منخفض :

— أية لعبة هذه التى تلعبها ، أيها الكلب الهجين ؟ يا قملة المؤخرة ! دعنا نصعد فى الحال ، والا . . .

فحدّث ريابتشيكوف نفسه فى رضى وانفعال :

— لسوف يشطره غريشا بسيفه حالاً !

غير أنه حينما رأى رجلين من فرقة ماركوف يشقان طريقهما خلل الحشد بعقبى بندقيتيهما لانقاذ العقيد ، مسّ كم غريغورى وقال :

— لا تشتبك معه يا غريغورى . هيا . . .

فقال العقيد ، متبيض الوجه :

— أنت أحمق ! ولسوف تحاسب على سلوكك !

ثم التفت صوب رجلى ماركوف وأشار ناحية غريغورى قائلا :

— أيها السيدان ! هدّئا هذا المصروع ! يجب اقرار النظام هنا . لدى عمل مستعجل مع القيادة ، وها أنا أقف أستمع الى شتى أصناف المزح . . .

وانسلت من جانب غريغورى مسرعا .

وتقدّم من غريغورى أحد رجلى ماركوف ، وكان طويلا ذا شاربين مشذّبين يحمل شارات كتف ملازم على قمصلته الزرقاء الغامقة ، وقال فى لهجة آمرة :

— ماذا تريد ؟ لماذا تخرق النظام ؟

— أريد مكاناً على ظهر السفينة . . . هذا ما أريد .

— أين كتيبتك ؟

— لا أدرى .

— أرنـي أوراقك .

فقال الرجل الثانى ، وكان فتى منتفخ الوجه يعلّق على أنفه عوينات ، فى صوت خفيض مهزوز :

— من الأفضل أن نقتاده الى غرفة الحرس . لماذا تضيع وقتك ، يا فايسوتسكى ؟

قرأ الملازم أوراق غريغورى بامعان ، ثم أعادها اليه :

— عليك أن تجد كتيبتك . وأنصحك بالخروج من هنا وعدم التدخل فى شؤون الصعود الى ظهر السفينة . ولدينا أمر باعتقال كل من يخرق النظام أو يتدخل فى شؤون التحميل ، بصرف النظر عن الرتبة التى يحملها .

وزم الملازم شفتيه ، وحدج ريابتشيكوف بنظرة من طرف عينه ، ثم مال على أذن غريغورى وهمس :

— أنصحك بمفاتحة آمر البطارية السادسة والثلاثين . قف فى صفوفهم وسوف تفلح فى الصعود الى ظهر السفينة .

فقال ريابتشيكوف ، الذى كان قد التقط همسة الملازم ، فى صوت مبتهج :

— اذهب أنت الى جماعة كارغين ، وسأهرع أنا فى طلب الفتية . ماذا تريدنى أن أجلب بالاضافة الى حقيبة اللوازم ؟

قال غريغورى فى غير حماس :

— سنذهب معاً .

وفى طريقهما صادفا أحد معارفهما من قوزاق قرية سميونوفسكى . كان يقود عربة كبيرة محمّلة بالخبز ، وقد غطّى الخبز بقماش مشمع ، متجها بها ناحية الرصيف . فنادى عليه ريابتشيكوف :

— مرحبا ، يا فيودور . أين ذاهب ؟

— ها ، بلاتون ، وغريغورى بانتلاييفتش ! تحيات ! اننى أنقل مؤونة كتيبتى من الخبز للطريق . لقد صادفنا متاعب شاقة فى خبزه ، ومع ذلك فلولاه ما كان لدينا غير العصيد نأكله طوال الرحلة .

فاقترب غريغورى من العربة وسأله :

— هل أرغفة خبزك كلها موزونة ، أم أنها معدودة ؟

— وأي شيطان عدها ؟ ماذا ، أترغب فى شىء من الخبز ؟

— نعم .

— خذ بعضاً منه اذن .

— كم أستطيع أن آخذ ؟

— بقدر ما تستطيع أن تحمل . لدينا الكثير .

وشرع غريغورى يلتقط الرغيف تلو الرغيف ، وريابتشيكوف

يحدّق فيه مذهولا ، وحينما لم يعد فى استطاعته كبح جماح فضوله سأله بقوله :

— لماذا تأخذ كل هذه الكمية ، بحق الشيطان ؟

فرد غريغورى باقتضاب :

— أحتاج اليها .

ثم طلب من السائق زكيبتين ، ووضع الخبز فيهما ، وشكر له لطفه وودعه ، وأمر ريابتشيكوف قائلاً :

— احمل احداهما ، فسنأخذهما معنا .

فتساءل ريابتشيكوف متمازحا فيما حط الزكيبة على كتفه :

— هل نويت قضاء فصل الشتاء هنا ؟

— ليس الخبز لى .

— لمن ، اذن ؟

— لحصانى .

فأنزل ريابتشيكوف الزكيبة الى الأرض ، فى حركة سريعة ، وتساءل مذهولاً :

— أتراك تمزح ؟

— كلا ، بل أعنى ما قلت .

— اذاً فأنت . . . قل لى ما الذى عزمت عليه ، يا بانتلاييفتش ؟ هل تنوى البقاء هنا ؟ أهذه هى فكرتك ؟

— أصبت . هيا ، احمل الزكيبة ولنمض . يجب اطعام حصانى . فقد مضغ معلفه حتى أحاله مزقا . يظل الحصان ذا نفع رغم كل شىء ، فليس بمستطاع المرء أن يشترك فى الحرب على قدميه .

ولبث ريابتشيكوف طيلة الطريق لا ينبس بشىء ، ولم يزد على الحمحمة ونقل الزكيبة من كتف الى كتف . وفيما كانا

يقتربان من البوابة ، سأل غريغورى :

— هل ستخبر الأولاد ؟

ثم ، ومن غير أن ينتظر جواب غريغورى ، قال فى لهجة مفجوعة :

— انتويت فكرة رائعة ! ولكن ماذا عنا نحن ؟

فرد غريغورى بلامبالاة مفتعلة :

— الأمر رهن مشيئتكم . ما داموا لن يأخذونا على سفنهم ، ما داموا عاجزين عن ايجاد مكان لنا . . . حسن ، فلا عليهم ! ما حاجتنا بهم ، بحق الشيطان ؟ أنتعلق بأذيالهم ؟ سنبقى . سنجرب حظنا . هيا امض . لماذا تلتصق بالبوابة ولا تتحرك ؟

— الطريقة التى تتكلم بها تثير الغثيان فى نفس أى امرئ ! حسن ، هذا شىء لطيف . لقد لطمت أذنى لطمة ابن حلال ، يا غريشا ! طرحتنى أرضا بريشة ! هذا وأنا الذى كنت أسائل نفسى :

— لماذا طلبت ، بحق الشيطان ، كل ذلك الخبز ؟ والآن ، سيكتشف الاصحاب ذلك ويثورون

فتساءل غريغورى :

— حسن ، وماذا عنك ؟ ألن تبقى ؟

فهتف ريابتشيكوف مذهولاً :

— ماذا ؟ !

— فكر فى الموضوع !

— ليس هناك ما أفكر فيه . سأرحل طالما لا تزال الفرصة فى يدى . سأربط نفسى بأذيال بطارية كارغين وأجلو معهم .

— ستندم على ذلك !

— أتظن ذلك حقا ؟ أنا أعتز برأسى أكثر من ذلك ،

أيها الأخ ! ليست بى رغبة فى أن يجرب الحمر سيوفهم عليه .

— عليك أن تعيد النظر فى الأمر ، يا بلاتون . فالوضع الراهن . . .

— أنا أعرفه . وأنا راحل فى الحال .

فقال غريغورى مغتاظاً :

— حسن ، افعل ما يحلو لك . لن أحاول مناقشتك . . .

وتقدم غريغورى ليرتقى الدرجات الحجرية المؤدية الى السقيفة . لم يكن يرماكوف وبروخور وبوغاتيريوف فى الدار . وأخبرتهما ربة البيت ، وكانت سيدة أرمنية حدباء متقدمة فى السن ، أن الموزاق قالوا عند خروجهم بأنهم سيعودون عما قريب . فتناول غريغورى رغيفا من الخبز وقطعه قطعا كبيرة ثم مضى الى الخيل فى الاسطبل وقسّم الخبز الى قسمين أعطى نصفه الى حصانه والنصف الآخر الى حصان بروخور . وكان قد رفع لتوه السطل ليجلب شيئا من الماء حينما ظهر ريابتشيكوف عند باب الاسطبل . وكان بلاتون يحمل باعتناء فى طيات معطفه الثقيل قطعاً كبيرة من الخبز . وحين بلغت حصانه رائحة سيده أطلق زنخرة قصيرة . فمرّ ريابتشيكوف صامتاً بغريغورى المبتسم . وقال دون أن ينظر الى أعلى ، وهو يقذف بقطع الخبز فى المعلف :

— لا تبتسم هكذا ! فازاء تطور الأمور ، يجدر بى أن أطعم حصانى أيضاً . اتحسب أننى سأكون سعيداً لو رحلت ؟ كان على أن أحمل نفسى من ياقتى وأهرع بها نحو تلك السفينة الملعونة ! ما كان بمستطاعى أن أذهب الى هنالك بغير هذه الطريقة . هو الخوف الحى الذى يستحثنى على المضى . . . اننى أحمل رأسا واحدا على كتفى ، أليس الأمر كذلك ؟ عسى الله أن يقيه شرّ البتر ، فلن ينمو لى رأس ثان قبل حلول عيد القديس ميخائيل !

لم يعد بروخور والآخرون الا عند المغرب . وكان يرماكوف يحمل قنينة كبيرة من الكحول ، بينما كان لدى بروخور كيس ملىء بقوارير مختومة فيها سائل أصفر ثخين .

وقال يرماكوف متفاخراً وهو يشير الى القنينة :

ومضى يشرح الأمر بقوله : — لقد أنجزنا العمل ، وهذه تكفينا لليلة كلها !

— صادفنا طبيب عسكرى سألنا أن نساعده فى نقل بضائع طبية من مستودع الى رصيف الميناء . وكان المفرغون قد رفضوا العمل ولم يكن ثمة سوى بضعة أفراد من التلاميذ الحربيين يجرجرون الأشياء من المستودعات ، ولهذا انضممنا اليهم . وقد كافأنا الطبيب لقاء مساعدتنا اياه بالشراب ، وخطف بروخور هذه القوارير علاوة على ذلك ! فليصعقنى الله ان كنت كاذباً !

فتساءل ريابتشيكوف متلهفاً :

— ولكن ، ماذا فى داخلها ؟

فأجاب بروخور :

— هذا احسن من الكحول ، أيها الأخ !

وخضّ القوارير ورفعها الى الضوء فبدا سائل ثخين يبقبق داخل الزجاج الأسود ، وأنهى كلامه فى نغمة راضية :

— هذا نبيذ أجنبى نادر الوجود ، أى نعم ! وهم لا يصفونه الا للمرضى . . . هذا ما أخبرنى به واحد من أبناء الزنى ، التلاميذ الحربيين أولئك ، ممن يعرفون اللغة الانكليزية . سنصعد الى ظهر السفينة ، ونشرب لنفرج عن همومنا ، وننشد «يا وطنى العزيز الحبيب» ، ونظل نشرب طوال الرحلة الى القرم . وسنلقى القوارير فى البحر .

فقال ريابتشيكوف بلهجة هازئة :

— هيا أسرع واصعد الى ظهر السفينة ، فانهم ينتظرونك ولا يستطيعون الاقلاع بدونك . انهم يقولون : أين بروخور زيكوف ، بطل الأبطال ؟ نحن لا نستطيع الاقلاع بدونه !

وأضاف وهو يشير الى غريغورى باصبع اصفرّ لونه من أثر الدخان :

— غير فكره فى موضوع الرحيل . وكذلك أنا .

فحمحم بروخور ، وكاد أن يسقط قارورة من يده لفرط استغرابه :

— لا !

وتساءل يرماكوف مقطب الجبين ومسمراً نظره على غريغورى :

— ما معنى هذا كله ؟ ما الذى فى ذهنك الآن ؟

— قررنا عدم الرحيل .

— لماذا ؟

— ليس ثمة مكان لنا على ظهر السفينة .

فقال بوغاتيريوف عن ثقة :

— اذا لم يكن ثمة مكان لنا اليوم ، فسيكون غدا .

— هل ذهبت الى الرصيف ؟

— نعم ، ثم ماذا ؟

— أرأيت ما يجرى هناك ؟

— نعم ، رأيت .

— «نعم ! نعم !» ما دمت قد رأيت ، فأى تفسير نريد ؟ لن يأخذوا سواى وريابتشيكوف ، ثم أخبرنى متطوع أن علينا أن ننضم الى بطارية كارغين ، والا فلن يكون رحيلنا ممكناً .

وسأل بوغاتيريوف بسرعة :

— هل صعدت الى ظهر السفينة . . . أعنى ، البطارية ؟

واذ علم أن رجال البطارية كانوا مصطفين فى انتظار الصعود ، تهيأ فى الحال للمضى . فحزم ملابسه السفلى وسرواله الفضفاض الاحتياطى وقمصلته فى خرجه ، وأضاف الى ذلك بعضاً من الخبز وودع الجميع .

فتوجه يرماكوف اليه بالنصيحة قائلاً :

— ابق معنا ، يا بيوتر ! اننا فى تشتيت شملنا .

وبدون أن يجيب ، مدّ بوغاتيريوف يده العرقة ، وانحنى ثانية عند الباب ، وقال :

— حافظوا على أنفسكم ! اذا شاء الله ، فسنلتقى ثانية .

ثم هرع الى الخارج .

بعد ذهابه ، خيم على الغرفة صمت طويل ثقيل . ثم مضى يرماكوف الى المطبخ ليرى ربّة الدار ، وعاد حاملا أربعة أقداح ، فملأها بالكحول ووضع على المائدة ابريق شاى نحاسياً كبيراً مليئاً بالماء البارد ، وقطع شيئاً من شحم الخنزير ، وجلس الى المائدة — وهو لا يزال صامتاً — ووضع مرفقيه عليها ، ولبث يحدق باكتئاب فى قدميه بضع دقائق ، ثم شرب شيئا من الماء من فمّ الابريق مباشرة ، وتساءل فى صوت أجش :

— لماذا يفوح الماء دائماً برائحة البارافين فى الكوبان ؟

فلم يجبه أحد . ومسح ريابتشيكوف نصل سيفه المعتم بخرقة نظيفة ، ونبش غريغورى فى حقيبته ، وحدّق بروخور ساهما خلل النافذة فى منحدرات التلال الجرد وقد تناثرت عليها قطعان الخيل .

— اجلسوا الى المائدة ولنشرب .

ومن غير أن ينتظر الآخرين ، قذف يرماكوف بنصف قدح من الشراب فى بلعومه وشرب جرعة من الماء . وتساءل ، وهو يلوك قطعة من شحم الخنزير وينظر الى غريغورى بعينين أكثر مرحاً :

— لا أظن الرفاق الحمر سيفرموننا ؟

فأجاب غريغورى :

— لن يقتلونا جميعاً . فسيبقى هنا الوف من الناس .

فقال يرماكوف ضاحكاً :

— لست قلقاً على مجموعنا ! انما كنت أفكر بجلدي أنا .

وبعد أن قطعوا شوطاً بعيداً فى الشرب ، اتخذ الحديث منعطفا أكثر مرحاً . على أنه لم يمض وقت طويل حتى عاد بوغاتيريوف ، على غير توقّع ، عابساً ، قاتم السحنة وقد ازرقّ وجهه من البرد ، فقذف عند الباب ببالة كاملة من المعاطف الانكليزية جديدة المظهر وشرع يخلع سترته فى صمت .

فقال بروخور بلهجة ساخرة وهو ينحنى لبوغاتيريوف :

— مرحباً بعودتك !

فأصلاه بوغاتيريوف بنظرة غاضبة وقال متنهداً :

— لو جاءنى كل رجال دنيكين وأولاد الزنى الآخرين راكعين على ركبهم لما رضيت بالذهاب معهم ! لقد وقفت فى الطابور ، وتجمد بدنى ، بلا ثمرة . فقد توقفوا أمامى تماماً ، كان أمامى رجلان ، فأخذوا واحداً منهما فقط . وتركوا نصف البطارية على اليابسة . ماذا تسمى هذه الحالة ؟

فانفجر يرماكوف مقهقهاً وقال :

— هكذا يعاملون من هم على شاكلتنا !

وصبّ قدحا مليئا لبوغاتيريوف ، والشراب يطش من القنينة التى فى يده :

— هاك ، اشرب نخب فجيعتك ! أم تراك تريد أن تنتظر حتى يأتوا فى طلبك ؟ أنظر من النافذة ! أليس هذا هو الجنرال فرانجل قادماً فى طلبك ، ها ؟

وبدون أن يجيب ، أخذ بوغاتيريوف جرعة من الشراب . لم يكن مزاجه مستعداً لتقبل المزاح . غير أن يرمـــاكوف وريابتشيكوف ، وقد ثملا بعض الشىء ، جعلا يسقيان العجوز الأرمنية حتى لم يعد فى طاقتها احتمال المزيد ، فشرعا يتحدثان عن الخروج للبحث عن عازف أكورديون فى مكان ما أو فى غيره . فنصحهما بوغاتيريوف بقوله :

— بدلاً من ذلك اذهبا الى المحطة . فهناك ينهبون عربات القطار وفى جميعها بزات عسكرية .

— ما حاجتنا ، بحق ابليس ، لبزاتك العسكرية ؟ ستفى بحاجتنا المعاطف التى جلبتها معك . انهم ، على أية حال ، سيجردوننا من كل ما هو زائد . بيوتر ، أيها الكلب السلوقى ، لقد قررنا أن ننتقل الى جانب الحمر ، فاهم ؟ أنحن قوزاق أم ماذا ! اذا سمح لنا بالحياة فاننا سنذهب الى جانبهم ونحارب فى صفوفهم . نحن قوزاق الدون ! قوزاق ذوو أنقى دم ، دون أى خليط ! القتال مهنتنا ! أتعرف كيف ألعب بسيفى ؟ كما لو كنت أقطع جذع كرنبة ! قف على قدميك وسأجرب يدى عليك ! ماذا ، هل غلبك الضعف ؟ نحن لا يعنينا من نضرب بسيفنا ، ما دام هناك من نضربه . هذا صحيح ، أليس كذلك يا ميليخوف ؟

فأجابه غريغورى متعباً :

— دعك !

وحاول يرماكوف ، وقد احولت عيناه المحمرتان ، أن

يبلغ سيفه الموضوع على صندوق ، غير أن بوغاتيريوف نحّاه جانباً برفق وبشاشة ، ورجاه بقوله :

— لا تثر كثيراً ، يا أنيكا المحارب ، والا فسأخمد أنفاسك فى الحال . كفاك شرباً ! تذكر أنك ضابط !

— سأستقيل من منصبى ، وأتخلى كذلك عن شارات كتفى ! اننى أحتاج الى منصبى فى الوقت الحاضر بقدر ما يحتاج خنزير الى رسن . لا تذكرنى به ! أتريدنى أن أقطع شارات كتفك لك ؟ يا بيوتر ، يا دمعة أحزانى ، مهلا لحظة ، فلسوف أخلصك منها فى لمح البصر .

فتضاحك بوغاتيريوف قائلاً ، وهو يبعد عنه صديقه الجامح :

— لم يحن الوقت لهذا بعد . لا زال أمامنا متسع من الوقت له .

لبثوا يشربون حتى الفجر . وخلال الأمسية جاء قـوزاق آخرون ، يحمل أحدهم آلة أكورديون . فرقص يرماكوف رقصة القوزاق حتى هوى على الأرض . فسحبوه جانباً ، وأغفى فى الحال على الأرض العارية وقد انفرجت ساقاه وارتمى رأسه الى الوراء على نحو منكسر . واستمرت الحفلة الخالية من البهجة حتى الصباح . وقال ، خلالها ، أحد الغرباء ، وهو ينشج نشيجا ثملا ، وكان قوزاقيا متقدما فى السن :

— أنا من منطقة كومتشاتسكايا . كانت لدينا ثيران ضخمة حتى لا تستطيع الوصول الى قرونها . وكانت خيلى مثل الأسود . والآن ، ما الذى تبقى لدينا فى الحقل ؟ لا شىء سوى كلبة جرباء واحدة . وستموت عما قريب ، فليس لديها ما تطعم به .

ثم طلب قوزاقى من الكوبان ، يرتدى سترة شركسية خلقة ، من عازف الاكورديون أن يعزف رقصة من رقصات نورسكايا ،

وحينما انبعث اللحن نثر ذراعيه على نحو تصويرى بديع وانطلق يرقص داخل الغرفة فى خفة مذهلة جعلت غريغورى يتخيل أن نعلى جزمته لم يكونا يلمسان الأرض الوسخة المخدشة مطلقاً .

وعند منتصف الليل جاء أحد القوزاق من مكان ما بجرتين طويلتين من الفخار ذواتى عنقين دقيقين . وكانت ثمة علامات ملصوقة على جانبيهما ، وقد تهرأت وحال لونها ، وكانت سدادتاهما مختومتين ، وتدلت منهما أختام رصاصية كبيرة من شمع الختم الأحمر بلون الكرز . فأمسك بروخور باحدى الجرتين فى يديه ، وكانت تحتوى على زهاء سطل من سائل ، وجعل يحرك شفتيه فى حركة مؤلمة محاولا أن يقرأ الكلمات الأجنبية المكتوبة على العلامة . وكان يرماكوف قد استيقظ ، فأخذ الجرة منه ووضعها على الأرض واستل سيفه ، وقبل أن يتسنى لبروخور أن يفتح فمه ، كان يرماكوف قد قطع عنق الجرة بضربة ماثلة من سيفه ، وهتف :

— هاتوا أقداحكم !

وفى دقائق قليلة ، استنفد النبيذ الثخين ذو الرائحة الأخاذة ، وجعل ريابتشيكوف يطق لسانه المرة تلو المرة فى انتشاء كبير ويتمتم :

— ليس هذا بنبيذ ، بل هو العشاء الربانى . لا يشرب هذا الا عند الاحتضار ، وليس لكائن من كان أن يشربه ، انما أولئك الذين لم يلعبوا القمار قط ، ولم يدخنوا التبغ قط ، ولم يمسوا النساء قط . . . باختصار ، انه مشروب الأساقفة !

ثم تذكّر بروخور قارورات الخمر العلاجى الموجودة فى خرجه ، فهتف :

— مهلاً ، يا بلاتون ! لا تفاخر قبل الأوان ! فلدىّ

نبيذ أفضل من هذا ! هذا مجرد روث سائل بمقارنته بالنبيذ الذى حصلت عليه من المستودع . . . آه ، هوذا النبيذ الحقيقى ! مطيب بالعسل ، أو ما هو أفضل ! وما هو بخمر الأساقفة ، أيها الأخ ، بل — وأقولها مجابهة — هو خمر القيصر . كان القياصرة يشربونه فى الأيام الخوالى ، أما اليوم فقد انحدر الى أيدى أمثالنا . . .

ومضى يتفاخر وهو يفتح احدى القوارير .

وكرع ريابتشيكوف ، ذو الاستعداد الدائم للشراب ، نصف قدح من السائل الثخين جرعة واحدة ، وفى الحال ، شحب وجهه وجحظت عيناه ، وصرخ فى صوت أجش :

— ليس هذا خمراً ، بل هو كاربوليك !

وفى غمرة هياجه ، بصق بقية قدحه على قميص بروخور واندفع يترنح صوب الممرّ .

فزعق بروخور بأعلى صوته ، محاولاً أن يسمعه الآخرون فوق ضجيج الأصوات :

— انه يكذب ، هذا الثعبان ! هذا نبيذ انكليزى ، أجود نوع ! لا تصدقوه ، أيها الاخوة !

وشرب قدحاً كاملاً من السائل ، فاستحال وجهه ، على الفور ، أشد شحوباً حتى من وجه ريابتشيكوف .

وتساءل يرماكوف ، وقد اتسع منخراه وتسمرت عيناه فى عينى بروخور العمشاوين :

— خمر القيصر ، ها ؟ قوى ، ها ؟ حلو ؟ هيا أنطق ، أيها الشيطان ، والا فسأحطم هذه القارورة على رأسك !

وكان بروخور يهزّ رأسه ، ويقاسى الألم فى صمت ، ويتقوق ، ثم هب على قدميه وانطلق الى الخارج فى أثر

ربابتشيكوف . وفى غمرة نوبة الضحك التى انتابت يرماكوف ، غمز بعينه لغريغورى غمزة خبيثة ، ثم خرج الى الفناء . وبعد قليل عاد يضحك فى هدير صخاب غطى جميع الأصوات الأخرى فى الغرفة .

فتساءل غريغورى ضجرا :

— والآن ، ما الذى حدث ؟ لماذا تصهل ، يا أبله ؟

— آه ، يا ولدى ، اذهب وانظر كيف يقذفان بأحشائهما الى الخارج . أتدرى ما الذى شرباه ؟

— حسن ، ماذا ؟

— سائل انكليزى من السوائل المبيدة للقمل .

— أنت تكذب !

— لا والله ، لا أكذب ! حينما كنت فى المستودع ظننت أنا الآخر أنه خمر ، غير أننى سألت الطبيب : — ما هذا السائل ، أيها الطبيب ؟

فقال : دواء .

فسألته :

— أتراه دواء كل الأحزان ؟ أهو خمر ؟

فقال :

— معاذ الله ! انه صنف من السوائل المبيدة للقمل أرسله الحلفاء لنا . انه للاستعمال الخارجى ، ولا يمكنك استعماله داخلياً .

فسأله غريغورى مؤنبا غضباً :

— ولماذا لم تخبرهم بالامر ، اذن ، أيها الأحمق ؟

— دع الشياطين ينظفون أنفسهم قبل الاستسلام ! لا أظن أنهم سيموتون .

ومسح يرماكوف الدموع من عينيه ، وأضاف بلهجة مشوبة بشىء من الضغينة :

— وعلاوة على ذلك ، فانهم سيتحفّظون الآن فى شربهم بعض الشىء . لم يكن فى امكانك اللحاق بهم فى السابق . فان مثل هذه الأرواح الظمأى بحاجة الى درس . حسن ، هل سنشرب ، أنا وأنت ، أم سننتظر بعض الوقت ؟ لنشرب نخب نهايتنا !

وقبيل انبلاج الصبح ، خرج غريغورى الى درجات العتبة ، وبأصابع مرتعشة لف سيكارة وأشعلها ، ولبث واقفا وسط الضباب وظهره مسند الى الحائط الرطب .

كان المنزل يضج بهتافات مخمورة ، ونغمات نائحة من الأكورديون ، وصفير هائج ، وكانت كعاب الراقصين المتحمسين تقرع قرعاً ناشطاً بلا كلال . ومن الخليج تناهى النعيب الخافت المكتوم لصافرة باخرة ، وعلى أرصفة الميناء التحمت الأصوات البشرية فى هدير قوى تتخلله هتافات أوامر عالية ، وصهيل خيل وأزيز محركات . وفى موضع ما على خط السكة الحديد كان القتال مستمرا . كان ثمة رعيد مدافع مكتوم ، وفى الفترات ما بين رمى المدافع كانت لعلعة الرشاشات تسمع خافتة مطموسة . وفوق ممر فى الجبال ، انطلق فى الفضاء صاروخ لهاب يرش الضوء فى المنطقة . فتلألأت ، لثوان قليلة ، قمم الجبال الحدباء تحت الضياء الأخضر الشفاف ، ثم خيمت العتمة اللزجة لليل الربيع الجنوبى على التلال من جديد ، وانبعث رمى المدافع بشدة أقوى من السابق ، ملتحما فى هدير ثابت متواصل .

٢٩

كانت تهب من جهة البحر ريح باردة ، مالحة ، ثقيلة ، تحمل الى الشاطئ رائحة أصقاع غريبة مجهولة . أما بالنسبة لقوزاق الدون ، فلم تكن الريح وحدها غريبة ، بل كل شيء في تلك البلدة الساحلية القاحلة . كانوا يقفون على الرصيف كتلة صلدة ، في انتظار السماح لهم بالصعود الى ظهر سفينة . وعلى الشاطئ ، كانت أمواج خضر تمور وتزبد ، فيما كانت شمس مقرورة تطل على الأرض خلل السحائب . وفي البحر ، كانت مدمرات بريطانية وفرنسية ترسل دخانها ، وبارجة حربية رفعت جسمها الرمادي المخيف فوق سطح الماء ، وقد انبسط فوقها غطاء أسود من الدخان . وخيم على الأرصفة صمت منذر بالشؤم . وحيث كانت آخر سفن النقل تتمايل في مرساها قبل وقت قليل ، تخلّفت طافية على الماء سروج وحقائب وملابس وفروات وكراس منجدة بقطيفة قرمزية ، وسقط المتاع الأخرى قد قذفوا بها الى الماء من على المعابر . . .

في بكرة الصبح ، مضى غريغوري على صهوة حصانه الى الرصيف . فعهد بالحصان الى بروخور ، وراح يتجول وقتاً طويلاً بين صفوف الحشد ، باحثاً عن معارف له ومتسمعاً الى الكلام القلق المشوّش . وشاهد عقيداً متقاعداً كهلاً يطلق النار على نفسه في المعبر بعد أن رفضوا اعطاءه مكاناً على السفينة .

وكان العقيد رجلاً قميئاً كثير الصخب يعلو وجنتيه شعر رمادي أشعث وتترقرق الدموع في عينيه المنتفختين ، وكان قبل انتحاره يبضع دقائق يتشبث بالضابط المسؤول عن الحرس من سير نطاق سيفه ، ويهمس في أذنه همسا مفجوعا ، وهو لا ينفك ينشق ويمسح بمنديل وسخ شاربه المصفر من أثر الدخان وشفتيه المرتعشتين . ثم بدا ، فجأة ، أنه اتخذ قراراً ما . . . وبعد ذلك بقليل ،

سحب قوزاقي خفيف اليد المسدس اللماع من صنف «براوننغ» من يد القتيل الدافئة ودحرج بقدمه جثته الملتفة بمعطف الضباط الرمادي الفاتح ، صوب كومة من الصناديق . وآنذاك ، ماد الحشد المتجمهر حول المعبر في حنق أشد . واتخذ العراك في صفوف المنتظرين طابعا أشد ضراوة ، وهبت أصوات اللاجئين المبحوحة في زعيق وحشي غاضب .

وحينما ابتعدت باخرة آخرة عن جانب الرصيف ، ارتفعت ، في قوة متصاعدة ، نشجات نساء وصراخ هستيري وشتائم . وقبل أن يتلاشى الهدير العميق المقتضب لصافرة الباخرة ، قفز الى الماء كالميكي شاب يعتمر طاقية من جلد الثعلب وجعل يسبح وراء الباخرة .

فقال أحد القوزاق متنهدا : — لم يستطع الصبر !

وقال قوزاقي يقف بالقرب من غريغوري : — انه لم يتحمل البقاء ، هذا واضح ، لا بد أنه قد أذاق الحمر الأمرّين . . .

فلبث غريغوري ، وقد اصطكت أسنانه ، يحدّق في الكالميكي السابح ، بينما تراخت حركة ذراعي هذا شيئاً فشيئاً وغاصت كتفاه أسفل . وكان معطفه الثقيل الذي تشبع بالماء يشدّه الى القعر . ثم جرفت موجة طاقيته الحمراء الخلقة من على رأسه وقذفتها الى الوراء .

وقال عجوز يرتدي معطفاً قفقاسياً طويلاً في لهجة مشفقة :

— لسوف يغرق هذا الكافر الملعون !

فاستدار غريغوري على عقبيه بحدة ومضى صوب حصانه . فوجد بروخور منفعلاً يحدث ريابتشيكوف وبوغاتيريوف اللذين كانا قد وصلا على حصانيهما تواً . وحين وقعت عينا ريابتشيكوف على غريغوري ، تململ في سرجه ، ثم همز جنبي حصانه بعقبيه ، وصاح :

— أسرع ، يا بانتلاييفتش !

وبدون أن ينتظر وصول غريغورى اليهم ، هتف اليه :

— لنتراجع قبل أن يفوت الأوان . لقد جمعنا زهاء نصف سرية من القوزاق ، ونحن مزمعون على اتخاذ طريقنا الى جلندزيك ، ومنها الى جورجيا . ما رأيك ؟

فاتجه غريغورى ناحيتهم ، ويداه مدسوستان فى أعماق جيبى معطفه الثقيل ، وهو ينحّى جانبا القوزاق المتجمعين بلا هدف على الرصيف .

فسأله ريابتشيكوف ملحاً ، وهو يقترب بحصانه منه :

— هل ستأتى معنا أم لا ؟

— كلا ، لن آتى !

— ان قائداً قوزاقياً سينضم الينا . يعرف كل بوصة من الطريق ويقول انه يستطيع قيادتنا ، مغمض العينين ، فى كل الطريق الى تفليس . هيا ، يا غريشا ! ومن هناك سننتقل الى جانب الاتراك . ما قولك ؟ علينا أن ننقذ أنفسنا بطريقة من الطرق ! ها نحن ندنو من نهايتنا ، وأنت أشبه ما تكون بسمكة نصف ميتة .

— كلا ، لن آتى .

وتناول غريغورى العنان من يد بروخور وارتقى حصانه بحركة تنم عن وهن وارهاق ، وأضاف قائلاً :

— لن أذهب معكم ! لا جدوى فى ذلك ، علاوة على أن الأوان قد فاتنا بعض الشىء . . أنظروا !

فتلفت ريابتشيكوف حوله ، وفى غمرة يأسه وحنقه سحق عقدة سيفه وانتزعها منه : كانت صفوف من رجال الجيش الأحمر تتدفق حدر الجبال ، وشرعت المدافع الرشاشة تلعلع ، محمومة ، على مقربة من مصانع الاسمنت وفتحت مدافع قطر مدرعة النار

على صفوف الرجال ، فانفجرت أولى القذائف بجوار طاحونة هوائية .

فأصدر غريغورى أمره ، وقد دبت الحياة فيه على حين غرة ، وانتصب بقامته على حصانه من جديد :

— هيا الى مقرنا ، يا أولاد ، وظلوا ورائى مباشرة !

بيد أن ريابتشيكوف امسك بحصان غريغورى من عنانه وهتف فى فزع :

— لا تذهب ! لنبق هنا . . . فالموت ، كما تعلم ، ليس سيئاً كثيراً حينما تكون محاطاً بالناس . . .

— آه ، أيها الشيطان ، هيا لنذهب ! لماذا تتحدث عن الموت ؟ فيم هذيانك ؟

وكان غريغورى على وشك أن يضيف الى ذلك شيئاً آخر ، غير أن صوته ضاع وسط زئير جاء من ناحية البحر . كانت بارجة انجليزية «أمبراطور الهند» قد أبحرت من شواطئ روسيا الحليفة وأرسلت حزمة من القذائف من مدافعها ذوات الاثنتى عشرة بوصة وجعلت تحمى السفن الخارجة من الخليج بضرب صفوف رجال الجيشين الأحمر والأخضر المتدفقين صوب ضواحى البلدة ، ثم حوّلت اتجاه نيرانها الى ناحية ذروة الممر حيث كانت البطاريات الحمر قد اتخذت مواقعها . وراحت القذائف البريطانية تتطاير فى ارعاد ماحق ثقيل فوق رؤوس القوزاق المحتشدين على الرصيف .

وهتف بوغاتيريوف خلل رعيد القذائف ، وهو يشد على عنان حصانه الذى انكفأ على كفله :

— المدفعية البريطانية تستخدم لغة قوية ! لكنهم يبددون نيرانهم هباء . انها لا تفعل شيئاً سوى خلق ضجيج كبير !

فقال غريغورى :

— دعها ترعد ! فالأمر سيان لدينا الآن .

وهمز غريغورى حصانه ، مبتسماً ، وانطلق فى الشارع . ومن منعطف ، ظهر ستة فرسان منطلقين فى هذب جنونى على خيلهم ، واندفعوا تجاه غريغورى وقد استلّوا سيوفهم . وكان على صدر الفارس الأول شريط أحمر اللون بلون الجرح .

الجزء الثامن

١

يومان مرّا ، وريح دافئة لا تنفك تهب من الجنوب .

ذابت الثلوج الأخيرة من على الحقول ، وانقطع هدير مسارب الربيع المزبدة ، وأتعبت أخاديد السهب وجداوله نفسها لعباً وتصخاباً . وفى فجر اليوم الثالث ، تلاشت الريح ، وانحدرت على السهب ضبابات ثقيلة وازدانت بقايا العشب الريشى المتخلف من السنة المنصرمة بقطرات ندى فضية . وتغلّفت الهضاب والوهاد والقرى وقباب الكنائس والذؤابات المدبّبة لأشجار الحور الهرمية ، بغشاوة لبنية منيعة : فقد حل الربيع فى سهوب الـــدون الفسيحة .

فى ذلك الصباح المضبب ، خرجت أكسينيا الى السقيفة ، لأول مرة مذ تعافيها من المرض ، ولبثت واقفة ثمة زمناً طويلاً وقد أسكرتها الحلاوة المثيرة التى يفوح بها هواء الربيع الطلق . فمشت ، وهى تحاول السيطرة على شعورها بالدوار ، حتى بلغت البئر الكائنة فى البستان ، فوضعت دلوها على الأرض واقتعدت حافة البئر .

لكم بدا العالم فى عينى أكسينيا مختلفاً اختلافاً كلياً عما عهدته فى السابق ، غضاً ، آسراً على نحو رائع ! وجعلت تحدق فيما حواليها بعينين كانتا تلتمعان ببريق الانفعال ، وهى تتحسس طيات ثوبها بأصابعها مثلما يفعل الأطفال . وبدا الضباب الممتد على البعد ، وأشجار التفاح العائمة مع البستان على مياه الذوبان ،

وعصى السياج المبللة ، والطريق من ورائه بحفره العميقة المليئة بالماء . . . بدا كل ذلك لعينيها جميلا بما يعز على التصديق . كان كل شيء يتفتح عن ألوان غامقة ، ولكنها رقيقة ، وكأنها أحيطت بهالات من نور الشمس .

وحينما أطلت رقعة من السماء الصافية خلل الضباب ، انبهرت عيناها بزرقتها الباعثة على البرد . كانت رائحة التبن المتعفن والأرض السوداء التى ذاب عنها الجليد أليفة ومحببة اليها ، حتى لقد تنهدت نهدة عميقة وحامت ابتسامة على زاويتى شفتيها . غير أن طرفاً عفوياً من غناء قبّرة بلغ أذنيها من موضع ما فوق السهب المضبب ، أيقظ فى صدرها حزناً لا شعورياً . ولقد كان ذلك الطرف من غناء القبرة ، وقد سمعته فى موضع ناء عن بلدها ، هو الذى جعل قلب أكسينيا يشتدّ خفقانه وعينيها ترسلان دمعتين صغيرتين باثستين .

أما وقد غمرتها البهجة بالحياة التى عادت اليها من جديد ، فقد استشعرت رغبة جامحة للمس كل شيء بيديها ، ولرؤية كل ما هو كائن ، فرغبت فى لمس شجيرة من شجيرات عنب الثعلب كانت قائمة هناك وقد صبغها الندى بالسواد ، ووضع خدها على غصن من شجرة التفاح غطته أزاهير مخملية ذات لون وردى شاحب . وودت أن تخطو عبر السياج الساقط وتمشى فى الوحل مبتعدة عن كل المسالك ، الى حيث تتألق حقول القمح الشتوى ، فيما وراء وهدة واسعة ، بخضرة ساحرة ممزوجة بالضباب المنسفح على الأبعاد . . .

ظلت أكسينيا عدة أيام تعيش على أمل أن يظهر غريغورى فى أية لحظة . لكنها علمت ، أخيراً ، من جيران أتوا لزيارة مضيفها أن الحرب كانت لا تزال مستعرة ، وأن العديد من القوزاق

قد أبحروا من نوفوروسيسك الى القرم ، بينما انضم من تخلّف منهم الى صفوف الجيش الأحمر أو أرسلوا الى المناجم .

وما ان حلت نهاية الأسبوع حتى كانت قد عقدت العزم على العودة الى قريتها ، وما لبث أن تهيأ لها رفيق سفر . ذلك أنه حدث ذات مساء أن دخل الكوخ دونما طرق على الباب عجوز قميء القامة أحدب الظهر ، وانحنى احتراماً دون أن ينبس بشيء ، ثم شرع يفك أزرار معطفه الانكليزى الموحل ، وقد تفتقت درزاته ، وتدلى من حوله مثل زكيبة .

فتساءل رب المنزل ، محدقا باستغراب فى الضيف غير المدعو :

— عجبا ، يا صاحبى ، أتتوقع أن تمنح سقفا يغطى رأسك حتى بدون أن تقول «مساء الخير» ؟

فخلع العجوز معطفه بحركة ناشطة ، ونفضه فوق العتبة ثم علقه باحتراس على خطاف وتبسم ، وهو يمسد لحيته القصيرة الشهباء ، وقال :

— أستميحك المعذرة ، بحق المسيح يا صاحبى العزيز ، لكننى قد تعلمت حسب هذه الأوقات ! أولاً ، اخلع معطفك ، ثم اسأل ان كان بامكانك قضاء الليلة ! والا ، فلن يسمح لك بالدخول . فان الناس صاروا غلاظاً هذه الأيام ، ولم تعد رؤية الضيوف تسرهم . . .

فقال رب المنزل فى لهجة أكثر وداً :

— ولكن ، أين سنضعك ؟ بامكانك أن ترى أننا مزدحمون فعلاً .

— أنا لا أحتاج الى مجال اكثر مما يحتاجه كلب . سأطوى نفسى هنا عند الباب وأنام .

فتساءلت ربة المنزل يستحثها الفضول :

— ولكن ، من أنت ، أيها الجد ؟ هل انت من اللاجئين ؟

فرد العجوز المهذار وهو يجلس القرفصاء بجانب الباب :

— لقد أصبت الحقيقة . أنا من اللاجئين فعلاً . هربت وهربت وهربت ركضاً طوال الطريق الى البحر . أما الآن ، فها أنا فى طريق العودة على مهل . لقد أتعبنى الركض . . .

فاستأنف رب المنزل التحقيق سائلاً :

— ولكن ، من أنت ، على أية حال ؟ من أين أنت ؟

فأخرج العجوز من جيبه مقصاً كبيراً مما يستعمله الخياطون عادة ، وجعل يقلبه بين يديه ، ثم قال والابتسامة الثابتة نفسها على شفتيه :

— هوذا جواز سفرى : لقد جاء بى طوال الطريق من نوفوروسيسك . لكن بلدتى نائية جداً ، فهى فى الطرف الآخر من منطقة فيشنسكايا . والى هناك أيمّم وجهتى الآن ، بعد أن عرفت طعم الماء المالح فى البحر .

فهتفت أكسينيا جذلة :

— أنا من فيشنسكايا أيضاً ، أيها الجد .

فتساءل العجوز دهشاً :

— أصحيح ؟ يا للصدفة العجيبة ، أن ألتقى بامرأة من ديارى هنا ! علما بأنه حتى هذا ليس بالعجيب هذه الأيام . فنحن الآن مثل اليهود مبعثرون على وجه الأرض . فى الكوبان ، كان الأمر فى منتهى الفظاعة بحيث اذا رميت كلبا بعصا أصبت قوزاقيا من قوزاق الدون . كنت تلتقى بهم فى كل مكان ، وما كان بوسعك أن تتخلص منهم ، وهناك عدد أكبر من هؤلاء دفنوا تحت الأرض . يا أصحابى الأعزاء ، لقد وقعت عيناى على شتى ضروب المشاهد

خلال هذا التقهقر . ليس بوسعكم أن تصدقوا مدى البؤس الذى كان يعانيه الناس . قبل يومين كنت جالسا فى غرفة الانتظار فى احدى المحطات ، وكانت الى جانبى سيدة تضع نظارات على عينيها ، وكانت تحملق من خلال نظاراتها بحثا عن القمل . وكان القمل يدب عليها طوابير . والمسكينة تلتقطه بأصابعها وقد عبس وجهها وعلته سيماء النكد ، وكأنها كانت قد قضمت تفاحة مرة الطعم . وكانت كلما سحقت قملة صغيرة بائسة ، ازداد وجهها عبوسا فوق عبوس . كان التقزز باديا عليها الى درجة ان المرء كان يتوقع أن تنكفئ على نفسها وتقذف ما فى جوفها . ومع ذلك ، بينما تجد رجلاً قوياً يزهق روح رجل آخر من غير ما أدنى عبوس ، بل من غير أن يبعد أنفه . لقد رأيت لعينا من هذه الشاكلة يجهز على ثلاثة كالميكيين بسيفه ، وبعد ذلك مسح سيفه بعرف حصانه ، وأخرج سيكارة ، وأشعلها ، ثم اقترب منى على حصانه وقال :

— ما الذى تحملق فيه ، أيها الجد ؟ أتريدنى أن اقطع رأسك أنت أيضاً ؟

فقلت له :

— ما الذى تقوله ، يا بنى ؟ لو أنك قطعت رأسى — لا سمح الله — فكيف سيتسنى لى أن أمضغ خبزى ؟

فضحك وانصرف .

فقال رب المنزل معلقاً على ذلك بايجاز :

— قل ما شئت ، ولكن ان يقتل رجل متمرس بهذه الشغلة رجلاً آخر أسهل عليه من ان يسحق قملة . لقد أمست قيمة الأفراد رخيصة خلال الثورة .

فقال الضيف مؤكدا :

— هذا صحيح ! فالرجل ليس بهيمة ، يعتاد على أي

شيء . وهكذا توجهت بالسؤال الى هذه المرأة :

— من أنت ؟ فمن سيمائك ، يبدو أنك لست من بسطاء الناس .

فنظرت اليَّ ، ووجهها يسبح فى الدموع ، وقالت :

— أنا زوجة أمير اللواء كريتشخين .

فقلت فى نفسى :

— حسن ، ومع كل امارتك وكل لوائك ، ما أنت الا قملاء مثل قطة جرباء !

وقلت لها :

— معذرة ، يا صاحبة السعادة ، ولكن اذا كان فى نيتك أن تقتلى جميع حشراتك الزاحفة على هذا المعدل من السرعة فستظلين منهمكة بهذا العمل حتى حلول عيد العذراء المباركة وستكسرين جميع أظافرك الصغيرة . اسحقيها جميعاً بضربة واحدة .

فسألتنى :

— ولكن ، كيف أستطيع ذلك ؟

فأخبرتها كيف . قلت :

— اخلعى جميع ملابسك وانشريها على موضع صلب ، واسحقيها بقنينة تدحرجينها عليها .

ورأيت زوجة أمير اللواء تنهض وتهرع وراء برج ماء ورأيتها تدحرج قنينة من الزجاج الأخضر على ملابسها ، وكانت تؤدى ذلك بمهارة حتى ليخيل للمرء أنها كانت معتادة على ذلك طوال حياتها . فلبثت واقفاً أنظر اليها باعجاب وأحدث نفسى :

— الله فى خلقه شؤون . لقد أطلق البارى عقال الحشرات حتى على أناس ذوى منبت نبيل . فلتمصّ دمهم الحلو — اذا جاز هذا التعبير — كى لا تظل تشرب حتى الارتواء من دم الكادحين .

الله ليس رجلاً اعتيادياً ، وهو يعرف شغله . فهو فى بعض الأحيان عطوف على الناس ، يسوى القضايا بالعدل حتى يعجز ذهنك عن تصور ما هو خير من تلك الحال . . .

ومضى الخياط يثرثر بلا توقف ، لكنه حين لاحظ أن رب المنزل وزوجته كانا يستمعان اليه فى منتهى الاهتمام ، لمح لهما بمهارة بأن فى جعبته العديد من الحكايات على جانب أكبر من المتعة ، غير أنه كان على درجة من الجوع بحيث لم يعد يستطيع مغالبة النعاس .

بعد العشاء ، وفيما كان يتهيأ للنوم ، سأل أكسينيا :

— وأنت يا مواطنتى ، أفى نيتك أن تبقى هنا مدة طويلة فى ضيافتهم ؟

— أنا أتهيأ للعودة ، أيها الجد .

— عال ، اذاً ، تعالى معى . ستكون السفرة أكثر متعة لكلينا .

فوافقت أكسينيا عن رضى . وفى اليوم التالى ، ودعت مضيفها ومضيفتها ، ثم غادرا نوفو — ميخائيلوفسكى ، قرية السهب المتوحدة تلك .

• • •

بلغا قرية ميليوتنسكايا بعد حلول الليل فى اليوم الثانى عشر من رحلتهما . وسألا فى بيت كبير بادى اليسار أن يؤذن لهما بالمبيت . وفى الصباح التالى قرر رفيق أكسينيا البقاء أسبوعاً فى تلك القرية للراحة ومداواة قدميه اللتين تقشرتا وصار الدم يتزف منهما ، بحيث لم يعد فى مستطاعه أن يمشى الى أبعد مما قد مشى . ثم ما لبث أن عثر فى الدار على عمل من أعمال الخياطة ، ولما كان الشوق قد استبد بالعجوز الى حرفته فانه سرعان ما اتخذ

له ركناً مريحاً بجانب النافذة وأخرج مقصه ونظارتيه المعلقتين بخيط ، وشرع يفرغ محتويات احدى صرره .

وبينما كان العجوز الساخر يودع أكسينيا ، رسم اشارة الصليب عليها وذرف ، على حين غرة ، دمعة أو دمعتين . لكنه ما لبث أن مسحهما وقال فى لهجته الهازلة الاعتيادية :

— ليست الحاجة أم تلد ، لكنها تجعل من الناس أقرباء . . .

فها أنذا أشعر بالحزن لمفارقتك . . . حسن ، ما بيدنا حيلة ، فامضى وحدك ، يا بنيتى ، فان دليلك قد أصابه العرج فى ساقيه معاً ، وأحسب أن أحدهم قد أطعمه خبز شعير فى مكان ما . . . وعلاوة على ذلك ، فبالنسبة لسنى السبعين ، كانت مسيرتى معك مسيرة جيدة ، بل أكثر من جيدة . ان سنحت لك الفرصة ، أخبرى عجوزتى بأن طيرها الأشيب لا يزال حيا يرزق . لقد دقوه فى هاون دقاً ، بيد أنه لا يزال حيا . وهو الآن يخيط بنطلونات أناس طيبين فى طريق عودته ، وبأنه قد يظهر فى الدار فى أية لحظة . قولى لها : لقد أتم الغبى تراجعه وهو الآن يتقدم عائدا الى القرية . انه يتحرق شوقاً للصعود الى سطح الموقد من جديد . . .

أمضت أكسينيا عدة أيام آخر فى الطريق . وفى بوكوفسكايا صادفت عربة ماضية فى طريقها نفسه فركبت فيها حتى بلغت تتارسكى . ومع حلول المساء دلفت عبر بوابة بيتها المشرعة وألقت نظرة على بيت آل ميليخوف ، فاختنقت بغصة صعدت فجأة الى بلعومها . وفى المطبخ الخالى ، الذى كان يفوح برائحة الاهمال ، أهرقت كل الدموع النسائية المرّة التى ظلت تختزنها زمنا طال أمده ، ثم مضت نازلة صوب الدون طلباً للماء . وعادت فأشعلت النار بالموقد وجلست الى المائدة وقد سقطت يداها على ركبتيها . ولفرط ما شردت بأفكارها لم تسمع صرير الباب ولم تفق من استغراقها

فى التأمل الا بعد أن دخلت ايلينشنا وقالت فى هدوء :

— تحيات ، يا جارة . غيبتك طالت . . .

فنظرت اليها أكسينيا مندهشة وقامت على قدميها . وقالت ايلينشنا :

— ولكن ، فيم تحدقين فى على هذه الصورة ؟ لم لا تتكلمين ؟ عسى ألا تكونى قد جئت بأنباء سيئة ؟

وتقدمت ايلينشنا على مهل من المائدة وجلست على حافة المصطبة دون أن تحوّل نظرتها المستفهمة عن وجه أكسينيا .

فقالت أكسينيا فى لهجة يشوبها الحرج :

— ولماذا أكون أنا من يجىء بأنباء ؟ . . كل ما فى الأمر ، أننى لم أكن أتوقع مجيئك . كنت جالسة أفكر ولم أسمعك تدخلين .

— نحفت كثيراً . كأنك روح بلا بدن .

— أصبت بالتيفوس . . .

— وابننا غريغورى . . . كيف هو ؟ أين تركته ؟ أما زال حياً ؟

فروت أكسينيا لها باختصار كل ما كانت تعرفه . وأصغت اليها ايلينشنا دون أن تنبس ببنت شفة ، ثم سألت :

— حينما تركك . . . لعله لم يكن مريضاً ؟

— كلا ، لم يكن مريضاً .

— ولم يبلغك شىء عنه منذ ذلك الوقت ؟

— لا .

فتنفست ايلينشنا الصعداء :

— حسن ، شكراً لك على الأنباء الطيبة . ففى القرية هنا ، ترى عنه مختلف القصص .

فتساءلت أكسينيا بصوت لا يكاد يسمع :

— أية قصص ؟

— أوه ، كلها هراء . ليس فى وسعك أن تسمعى كل القصص التى تدور . . . من رجال قريتنا جميعاً ، لم يعد سوى بسخليبنوف الشاب . كان قد رأى غريغورى مريضاً فى يكاتيرينودار ، وأنا لا أصدق أيا من القصص الأخرى .

— ولكن ، ما الذى يقولونه ، يا جدتي ؟

— قيل لنا بأن قوزاقياً من قرية سينكين روى بأن الحمر قتلوا غريغورى فى نوفوروسيسك . فقطعت كل الطريق الى سينكين سيراً على القدمين — فليس ثمة ما يقف حائلاً أمام قلب الأم — وعثرت على القوزاقى . فأنكر الرواية برمتها . قال انه لم ير أو يسمع بغريغورى . ثم دارت شائعة أخرى تقول أنه سُجن ، وأنه مات فيه بالتيفوس . . .

وأسبلت ايلينشنا عينيها ، ولبثت وقتاً طويلاً صامتة تحدق النظر فى يديها الثقيلتين المتآكلتين . كان ثمة استرخاء يكسو وجه العجوز وخديها المترهلين بفعل الزمن ، وقد زمت شفتيها بصرامة . وعلى حين غرة ، فاضت حمرة خفيفة على خديها الأسمرين وجعل جفناها يرتعشان . ونظرت الى أكسينيا بعينين نابضتين تومضان لها محموما وقالت فى صوت أجش :

— لكننى لا أصدقها ! لا يمكن أن يسلب منى آخر أولادى . لا يملك الله سببا لمعاقبتى . . . لم يبق من عمرى الا القليل . . . الا القليل القليل ، وكفى ما تحمل قلبـــى مـــن أحزان . ان غريشا حى . لم ير قلبى علامة ، ولهذا فان حبيبى حى .

فأشاحت أكسينيا بوجهها دون أن تنطق بشىء .

وخيّم على المطبخ سكون طويل . وفجأة هبت الريح وفتحت

باب السقيفة على مصراعيه ، فبلغ سمعهما صوت هدير ماء الفيضان متدفقاً بين أشجار الحور فى الجانب الآخر من الدون والاوز البرى يتنادى فيما بينه قلقاً عبر المياه .

فأغلقت أكسينيا الباب ومضت فارتكنت الى الموقد . وقالت بصوت خفيض :

— لا تحزني ، يا جدة . لا يوجد مرض قادر على الاطاحة برجل مثله . انه قوى ، قوى كالحديد . فالرجال على شاكلته لا يموتون . حينما غادرنا القرية كان كل شىء متجمداً ، غير أنه ظل طوال الطريق بلا قفازين .

وسألت ايلينشنا فى كلال :

— هل حدث أن تطرق الى الطفلين فى حديثه ؟

— كان يذكرك ويذكرهما . أهما بخير ؟

— بخير ، ماذا يمكن أن يصيبهما ؟ لكن زوجى بانتلاى بروكوفييفتش مات أثناء التراجع . بقينا وحيدين . . .

فرسمت أكسينيا اشارة الصليب على نفسها دون أن تنطق بشىء . كان العجب قد استبد بها ازاء الهدوء الذى روت فيه العجوز نبأ موت زوجها .

ثم قامت ايلينشنا متثاقلة وهى تتكئ بيديها على المائدة ، وقالت :

— ها أنا أقضى الوقت معك ، فى حين أن الظلام قد خيّم على الفناء .

— ابقى ما يحلو لك البقاء ، يا جدة .

— دونيا وحيدة فى البيت ، وعلىّ أن أذهب .

وفيما كانت تسوى عصابة رأسها ، ألقت نظرة فى أرجاء المطبخ ثم عقدت حاجبيها وقالت :

— موقدك يدخن . كان عليك أن ترتبى مجيء أحد للسكن هنا حينما رحلت . حسن ، الى اللقاء .

وقالت ، فيما أمسكت بسقاطة الباب ، دون أن تدير وجهها :

— حينما تستقرين قليلاً ، تعالى لرؤيتنا . زورينا . ولربما تتلقين خبراً عن غريغورى فتخبرينا به .

ومنذ ذلك اليوم ، طرأ تغيير شامل على العلاقات ما بين آل ميليخوف وأكسينيا . فكأن قلقهن على غريغورى قد قارب وألف بينهن .

فى الصباح التالى ، وقع نظر دونيا على أكسينيا فى الفناء ، فنادتها ومضت الى السياج ووضعت ذراعيها حول كتفى أكسينيا الهزيلين وابتسمت فى وجهها فى ألفة وبساطة ، قائلة :

— أوه ، ما أشد هزالك يا أكسينيا ! لا شيء غير جلد وعظم !

— كل انسان يصاب بالهزال فى مثل هذه الحياة .

وابتسمت أكسينيا فى جوابها ، وهى تستشعر دفقة من الغيرة تجتاحها اذ لاحظت وجه الفتاة الوردى وقد تفتح بالجمال الناضج . وتساءلت دونيا ، وهى تخفض صوتها لسبب ما حتى غدا همساً :

— هل جاءتك أمى أمس ؟

— نعم .

— هذا ما ظننت . هل سألتك عن غريشا ؟

— نعم .

— ولم تبك قط ؟

— كلا . انها عجوز قوية القلب .

فقالت دونيا ، وهى تلقى على أكسينيا نظرة وثوق :

— كان من الأفضل لو بكت . اذن ، لغدت الأمور أيسر

عليها . . . أتدرين يا أكسينيا ، أمي أمست غريبة الأطوار منذ الشتاء الماضى ، ولم تعد مثلما كانت فى السابق . حينما بلغها نبأ والدى حسبت أن قلبها سينفطر ، وانتابنى هلع فظيع . غير أنها لم تدع دمعة واحدة تسقط . كل ما فى الأمر أنها قالت : «عسى أن يدخل مملكة السماء . لقد أنهى زوجى آلامه . . .» . وحتى حلول الليل ، لم تنبس بكلمة لأحد . حاولت أن أفتح معها شتى أنواع الأحاديث ، لكنها لم تزد على أن أشارت على بالصمت وبقيت هى ساكتة . أوه ، يا لبؤسى بها فى ذلك اليـــوم ! ولكنني فى المساء ، وبعد أن جئت بالقطيع ، دخلت الى الدار وسألتها :

— ماما ، هل سنطبخ شيئاً للعشاء ؟

وآنذاك ، انحسر ألمها وعادت تتكلم .

وتنهدت دونيا ، ثم سألت وهى تحدق عبر كتف أكسينيا :

— هل مات غريغورى حقا ؟ هل صحيح ما يقوله الناس ؟

— لا أدرى ، يا عزيزتى .

فألقت دونيا على أكسينيا نظرة شاكة من طرف عينيها وتنهدت ثانية نهدة أعمق :

— ليس لدى أمى شيء غير الحنين اليه . لا تتحدث عنه الا بقولها «ابنى الأصغر» . وهى لا تصدق أبداً بأنه ربما فارق الحياة . على أنها ، وكما تعلمين يا أكسينيا ، لو يأتيها نبأ وفاته فعلاً فانها ستموت هى الأخرى كمداً . انه كل ما بقى لها فى هذه الحياة . غريغورى هو الأمل الوحيد الذى تتشبث به . ولم تعد ترغب حتى فى حفيديها . وليس فى استطاعتها أن تركز ذهنها فى عمل ما . حسبك أن تفكري : فى سنة واحدة مات أربعة من عائلتنا . . .

واستبدّ بأكسينيا التأثر ، فمالت عبر السياج واحتضنت دونيا وطبعت على خدها قبلة حارة :

— اشغلى أمك بشىء ما ، يا عزيزتى . لا تدعيها تحزن أكثر مما ينبغى .

فمسحت دونيا عينيها بطرف عصابتها وسألت :

— بم أشغلها ؟ تعالى عندنا كلما تسنى لك ذلك وحادثيها . سيهوّن ذلك عليها . ليس هناك ما يدعوك لمقاطعتنا .

— سأمر بكم من حين لآخر . أى والله ، سأفعل !

— يلزم على أن أخرج غداً الى الحقول . لقد أعددنا العدة مع أرملة أنيكوشكا ، فنحن نريد أن نبذر شيئاً من القمح . أتنوين بذر أى شىء لك ؟

فابتسمت أكسينيا ابتسامة باهتة وقالت :

— كأننى باذرة ممتازة ! ليس لديّ ما أبذره ، ثم ما نفع البذار ؟ أنا لا أحتاج الى الكثير لقوتى ، وسوف أتدبر أمرى بشكل ما .

— هل من أخبار عن زوجك ستيبان ؟

فأجابت أكسينيا بغير اهتمام :

— كلا ، ولا كلمة .

ثم أضافت الى ذلك قولها ، حتى أنها أدهشت نفسها به :

— لست كثيرة القلق عليه .

وقد فلت هذا الاعتراف من فمها على نحو غير متوقع ، فأحسّت بالحرج ، ولكى تخفى اضطرابها قالت :

— حسن ، الى اللقاء يا فتاتى . عليّ أن أمضى وأرتب البيت .

وتظاهرت دونيا بأنها لم تلاحظ اضطراب أكسينيا ، فأشاحت

بنظرها وهى تقول :

— مهلاً لحظة . كنت على وشك أن أسألك ، هل تمانعين فى مساعدتنا فى العمل ؟ ستكون الأرض جافة صلدة ، وأخشى ألا يكون فى مستطاعنا القيام بالعمل . ولم يبق فى القرية سوى فوزاقيين اثنين ، وكلاهما أعرجان .

فوافقت أكسينيا عن طيب خاطر ، ومضت دونيا مبسوطة تعد العدة .

وظلت طوال ذلك اليوم تتهيأ للصباح التالى . وبمساعدة أرملة أنيكوشكا غربلت البذور وأفلحت فى اصلاح المسحاة وتشحيم عجلات العربة وأصلحت الباذرة . وفى المساء ، وضعت قليلاً من بذور القمح المغربلة فى عصابة رأس وحملتها الى المقبرة حيث نثرتها على قبور بيوتر وناتاليا وداريا ، كى تطير الطيور فى اليوم الثانى الى قبور أقربائها . فلسذاجة قلبها ، كانت تعتقد حقاً أن الأموات سيستمعون الى تغريد الطيور الممراح ، ويبتهجون له .

• • •

لم يهبط السكون على ضفاف الدون الا قبيل طلوع الفجر . ظلت المياه تمور برفق خلل الغابة المغمورة ، وتغسل الجذوع الخضر الكالحة لأشجار الحور ، وتؤرجح ذؤابات شجيرات البلوط والحور الرجراج اليانعة المغمورة بمياه الفيضان . وكانت أشجار الحلال ، وقد أمالها ضغط التيار ، ترسل خشخشة فى البحيرات الفائضة . وفوق الحقول المغمورة ، وعلى امتداد الخلجان المتفردة — حيث لبث ماء الفيضان راكداً وكأن سحراً قد حل به ، وهو يعكس على صفحته نور السماء المطرزة بالنجوم — كان الاوز الحلزونى يتنادى

فى هدوء بالغ ، وذكور الصنصن تتهامس فى كسل وسنان ، ولم تسمع سوى مرة أو مرتين أصوات البجع المهاجر الفضية البوقية . ومن حين لآخر ، تقفز سمكة فى بحيرة الفيضان وسط الظلام فتتدحرج موجة راعشة عبر المياه المتلألئة ، ويطلق طير فزع صرخة تحذير . ثم تعود ضفاف الدون من جديد فتتلفع بالسكون . ولكن ، ومع طلوع الفجر ، ما ان بدأت قمم التلال الكلسية تكتسى لوناً ورديا ، حتى شرع نسيم برى فى الهبوب . وسرعان ما اشتد وتسارع فى هبوبه باتجاه معاكس للتيار . وتلاطمت على امتداد النهر موجات كبيرة بلغ علوها سبعة أقدام ، وهاجت المياه وماجت فى الغابة ، وأنّت الأشجار فيما كانت تتمايل مع الريح . واستمرت الريح تزمجر طوال النهار ، ولم تفتر الا فى وقت متأخر من الليل . واستمر هذا الطقس عدة أيام .

تلفع السهب بضبابة ليلكية . كانت الأرض قد جفت ، وتوقف نمو الحشائش ، وامتدت الشقوق عبر حقول الخريف المحروثة . كانت الأرض تزداد جفافا ، ساعة اثر ساعة ، الا أن المرء لا يكاد يرى أحدا فى حقول تتارسكى . فلم يبق فى القرية الا بضعة شيوخ فانين ، أما القوزاق الذين كانوا قد عادوا من التراجع فكانوا مصابين بلسعة الثلج أو مرضى أو عاجزين ، ولم يكن يعمل فى الحقول سوى النساء والصبيان . وكانت الريح تجرف التراب صوب القرية الخالية وتصفق أباجورات البيوت وتنبش قش سطوح المآوى . فقال الشيوخ :

— سنقضى هذه السنة بلا خبز . ليس سوى النسوة فى الحقول ، وفوق هذا ليس سوى بيت من كل ثلاثة يبذر بذارا . لن تعطى الأرض الميتة ثمرا .

كانت دونيا والنسوة الأخريات قد أمضين يومين فى البذار ،

حينما ذهبت أكسينيا تسوق الثيران حدر البركة . وكان ابن أوبنيزوف البالغ من العمر عشر سنين يقف بحذاء السدّ ممسكاً بعنان حصان مسرج . وكان الحصان يلوك شيئاً ما بين شفتيه ويرش قطرات من الماء من خطمه الرمادى المخملى ، فيما كان الصبى يسلى نفسه بالقاء كتل من الطين اليابس فى الماء ومتابعة حلقات الماء بنظره وهى تتسع أكثر فأكثر .

سألته أكسينيا :

— ماذا تفعل هنا ، يا فانيا ؟

— جئت بالطعام لأمى .

— حسن ، وما هى أخبار القرية ؟

— أوه ، لا شىء . اصطاد الجد جيراسيم شبوطاً جيداً بشبكته ليلة أمس . وعاد فيودور ملنيكوف من التراجع .

ثم وقف الصبى على أصابع قدميه ، وألجم الحصان ، ثم أمسك بخصلة من عرفه بيده وقفز الى السرج بخفة عجيبة . وابتعد عن البركة على مهل ، كما يجب على الفلاح الحصيف بيد أنه ما ان قطع بعض المسافة حتى استدار ليلقى نظرة على أكسينيا وانطلق هذبا ، فانفتح قميصه الأزرق الكالح مثل بالون وراءه .

تمددت أكسينيا على السد فيما كانت الثيران ترد الماء ، وفجأة عقدت العزم على الرجوع الى القرية . لقد كان ملنيكوف جندياً من القوزاق ، ولا بد أن لديه خبراً عن مصير غريغورى . وحينما عادت بالثيران الى المخيم قالت لدونيا :

— سأذهب الى القرية ، وسأعود فى الصباح الباكر .

— هل لقضاء عمل ما ؟

— أجل .

وفى صباح اليوم التالى ، عادت . وكانت تؤرجح فى يدها

عسلوجاً بلا مبالاة فيما كانت تقترب من دونيا ، التى كانت تضع العدة على الثورين ، غير أن حاجبيها كانا معقودين وزاويتى شفتيها مزمومتين فى مرارة .

وقالت باقتضاب :

— فيودور ملنيكوف عاد . ذهبت لأسأله عن غريغورى . انه لا يعرف عنه شيئاً .

واستدارت على عقبيها وانصرفت نحو الباذرة .

بعد البذار ، شرعت أكسينيا تعمل فى حقلها هى . فبذرت بذور بطيخ فى حديقة البطيخ ، ورممت البيت وطلته بالجبس وغطت سقف المأوى على أفضل ما استطاعت بما تبقى لديها من قش . وتتالت الأيام فى زحمة من العمل ، الا أن قلقها على غريغورى لم ينحسر قيد أنملة . أما ستيبان ، فكانت لا تفكر به الا على مضض ولسبب ما كانت تحس بأنه لن يعود . ومع ذلك فحينما كان يعود قوزاقى من القوزاق ، كان أول سؤال تتوجه به اليه دائماً :

— ألم تر زوجى ستيبان ؟ — وآنذاك فقط ، كانت تحاول ، بحذر ، أن تستخلص خبراً ما عن غريغورى . كان كل من فى القرية يعرف علاقتهما ، ولم تعد حتى النساء المحبات للفضائح يخضن فى شأنهما . بيد أن أكسينيا ظلت تخجل من الكشف عن مشاعرها ، الاّ حين لا يذكر جندي عائداً مقتصداً فى كلامه شيئاً عن غريغورى ، عند ذاك كانت تسأله ، وهى تضيق عينيها وتحاول أن تخفى الحرج الواضح عليها :

— ولكن ، ألم يصدف أن رأيت جارنا غريغورى بانتلايفتش؟ ان أمه قلقة عليه . وهى تلوب كمداً . . .

لم يكن أى من قوزاق القرية قد وقعت عينه على غريغورى أو ستيبان بعد استسلام «جيش الدون» فى نوفوروسيسك . بيد أن

أحد رفاق ستيبان فى كتيبته السابقة عرج على دار أكسينيا ، فى أواخر حزيران ، وهو فى طريق عودته الى قريته .

— ستيبان ذهب الى القرم . . . اعطيك كلمة شرف ! لقد رأيته بأم عينى يصعد الى المركب . لم يتسنّ لى أن أكلمه . كان الزحام شديداً بحيث كان الناس يسيرون على رؤوس بعضهم !

وحينما سألته عن غريغورى ، رد عليها بجواب مراوغ :

— رأيته على رصيف الميناء . كان يرتدى شارات الكتف . لكننى لم أوه بعد ذلك ، فقد نقلوا عدداً كبيراً من الضباط الى موسكو ، ومن يدرى أين هو الآن ؟ . .

على أنه لم يمض أسبوع حتى ظهر بروخور زيكوف فى تتارسكى . كان قد جرح ، وقد جيء به من محطة ميليروفو على عربة . وما ان بلغ أكسينيا نبأ وصوله ، حتى تخلت عن حلب البقرة وتركت العجل يمضى الى أمه ، ووضعت عصابتها على رأسها فيما هرعت صوب فناء آل زيكوف وهى تكاد تعدو . وكانت تحدث نفسها اثناء سيرها :

— لا بد أن بروخور يعرف . حتماً يعرف ! ولكن ، ماذا لو قال غريغورى مات ؟ ما ذا أفعل آنذاك ؟

ومع كل خطوة ، صار سيرها يتباطأ ، وهى تضغط يدها على قلبها متوجسة خيفة من سماع أخبار سيئة .

رحب بروخور بها فى غرفة الضيوف وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويحاول أن يخفى عقب ذراعه اليسرى خلف ظهره :

— مرحباً ، يا رفيقتنا فى السلاح ! تحياتنا ! أنا سعيد برؤيتك حية . كنا نحسب أنك قد أسلمت الروح فى تلك القرية الصغيرة . آه ، لكم كانت حالتك سيئة هناك . . . حسن ، وما أبدع ما يضفى على أمثالك من جمال . . . أقصد التيفوس !

ولكن ، أنظرى كيف نحتنى البولونيون نحتاً ، لعنة الله عليهم !

وعرض بروخور عليها الكم المعقود لقمصلته الخاكية .

— وحينما وقع نظر زوجتى عليها ، ناحت وبكت ، بيد أننى قلت لها : — لا تجأرى هكذا ، أيتها الحمقاء ! لقد قطعت رؤوس آخرين ومع ذلك فهم لا يتبرمون» . أما ذراع واحدة ، فلا شيء على الاطلاق ! يستطيعون دائما أن يصنعوا للمرء ذراعاً من خشب . ثم ان الذراع الخشبية لن تخشى الاصابة بالبرد ، واذا جرحت لا تنزف دماً . الشيء الوحيد الذى يدعو الى الأسف ، يافتاتى هو أننى لن أفلح فى تدبير أمورى بيد واحدة . أنا لا أستطيع تزرير بنطلونى ، هذه هى مصيبتى ! فلذلك لا تأخذينى اذا رأيت شيئاً غير ملائم . . . طيب ، تعالى واجلسى . وكونى ضيفتى . فنتحادث مستغلاً فرصة عدم وجود زوجتى . لقد أرسلتها ، عدوة المسيح هذه ، لتجلب الفودكا ! ها هوذا زوجها يعود الى الدار مبتور الذراع ، وليس لديها ما تشرب نخب صحته ! أنتن ، معشر النساء ، جميعكن على شاكلة واحدة حينما يغيب أزواجكن . أنا أعرفكن جميعاً بشكل جيد ، أيتها الأبالسة ذوات الذيول المبلولة !

— لعلك ستحدثنى عن . . .

— اعرف ! سأخبرك ! طلب منى أن أنحنى لك هكذا .

انحنى بروخور متمازحا ، ثم نظر اليها ، فارتفع حاجباه دهشة :

— تحية لائقة بك ! فلماذا تبكين ، أيتها الحمقاء ؟ أنتن ، أيتها النساء ، مصنوعة من غزل واحد ! اذا مات رجلهن بكين ، واذا عاد حياً بكين أيضاً . امسحى عينيك ، امسحى عينيك . فيم تشرقين بالبكاء على هذه الصورة ؟ فى نوفوروسيسك التحقنا ، معاً ، بخيالة الرفيق بوديونى ، الفرقة الرابعة عشرة . تولى

غريغورى بانتلاييفتش أمرة سرية . . . أعنى سرية خيالة . وبالطبع أصبحت أنا مراسله ، وقطعنا الطريق الى كييف فى مسيرات اضطرارية . حسن ، يا بنت ، لقد أذقنا هؤلاء البولونيين طعم المرارة ! وفى الطريق قال غريغورى بانتلاييفتش :

— لقد قتلت ألماناً ، وجرّبت سيفى على شتى فصائل النمساويين ، ولا أظن أن جماجم البولونيين أقوى . وأعتقد أن من الأيسر علينا انزال سيوفنا عليهم بدلاً من انزالها على جماعتنا الروس ، ألا توافقنى ؟

وغمز لى بعينيه وابتسم . لقد تغير كلياً حينما التحق بالجيش الأحمر . غدا مرحاً كثير المرح ورقيقاً مثل جواد مخصى . حسن ، لكننا ، أنا وهو ، لم نفلح فى المضى معاً دونما عراك عائلى . . . ففى ذات يوم اقتربت منه على حصانى وقلت له على سبيل المزاح :

— حان الوقت للتوقف ، يا صاحب السعادة ، أيها الرفيق مليخوف !

فحدجنى بعينين قادحتين وقال :

— كفّ عن مثل هذا المزاح والا فستكون عاقبتك وخيمة !

وفى ذلك المساء نفسه ، أرسل يطلبنى لأمر أو لآخر ، ولا بد أن الشيطان نفسه هو الذى وسوس لى فناديته :

— يا صاحب السعادة — مرة ثانية . . . كان عليك أن تشاهدى كيف اختطف مسدسه الماوزر ! واستحال وجهه أبيض تماماً وكشر عن أسنانه كالذئب . . . ولديه فم ملىء بالأسنان ، يطابور منها على الأقل ! فخبأت رأسى تحت بطن حصان وهربت منه . كاد أن يقتلنى الشيطان !

فقالت أكسينيا متلعثمة :

— لعله سيأتى الى القرية فى اجازة . . .

فقال بروخور مزنخراً :

— لا تفكرى بذلك ! يقول انه سيظل يخدم الى أن يكفّر عن خطاياه السابقة . ولسوف يفعل ذلك حقاً ! فليس عمل الأحمق بالمهمة الصعبة ! قادنا مرة فى هجوم على مقربة من بلدة صغيرة . ورأيته بعينى يقتل بسيفه أربعة من أوغلانهم * . كان الشيطان أعسر منذ طفولته ، ولهذا راح يسدد الضربات اليهم من كلا الجانبين . وبعد انتهاء المعركة صافحه بوديونى بنفسه أمام الكتيبة ، وتلقى هو والسرية شكراً على ذلك .

ظلت أكسينيا تستمع اليه وكأنها فى حمى . . . ولم تستعد رشدها الا عند بوابة آل ميليخوف . كانت دونيا فى السقيفة تصفى اللبن ، فتساءلت دون أن ترفع عينيها :

— هل جئت فى طلب خميرة ؟ أدرى أننى وعدت بجلبها لك ، ولكننى نسيت .

لكنها حينما نظرت الى عينى أكسينيا المبللتين بالدموع والمتألقتين بالسعادة ، أدركت كل شىء دون أن تتبادلا كلمة .

فهمست أكسينيا وهى تضغط وجهها الملتهب على كتف دونيا وتلهث فى غمرة ابتهاجها :

— حىّ وعلى ما يرام . . . لقد بعث بتحياته . . . اذهبى ! اذهبى واخبرى أمك !

٢

من بين قوزاق تتارسكى الذين كانوا قد تراجعوا مع البيض ، لم يعد اليها مع حلول الصيف غير ما يقرب من ثلاثين قوزاقاً .

* الأوغلان : خيالة فى منطقة بروسيا الألمانية . المترجمون .

وكان هؤلاء فى الأغلب شيوخاً وجنوداً كهولاً ، أما الشباب منهم فما يزالون غائبين باستثناء المرضى والجرحى . كان بعضهم يخدم فى صفوف الجيش الأحمر ، وآخرون يقضون أيامهم فى القرم ويستعدون لشن زحف جديد صوب منطقة الدون .

كان زهاء نصف أولئك الذين ذهبوا سيظلون الى الأبد فى تلك الأصقاع الغريبة : فقد قضى على بعضهم التيفوس ، ولقى آخرون حتفهم خلال المعارك الأخيرة فى منطقة الكوبان ، وتجمّد حتى الموت عدد ممن كان قد انفصل عن الأرتال المتراجعة فى الهجب على مبعدة من مانيتش ، ووقع اثنان فى أسر الأنصار وأمحت آثارهما من يومئذ . كانت تتارسكى تفتقد العديد من قوزاقها . ولبثت النساء يقضين أيامهن فى ترقب متوقب مقلق ، وكن فى المساء اذا مضين لاقتياد بقراتهن العائدات من المراعى يقفن زمنا طويلا على قارعة الطريق يحدقن فى الأفق من تحت راحاتهن . فمن يدرى ؟ لعل عابرا متخلفا يقدم على الطريق العام وسط ضبابة المساء الليلكية .

ويعود الى داره ربّ بيت ما ، رث الثياب ، قـــذراً ، سقيماً ، ولكن أهل بيته كانوا فى انتظاره طويلاً ، فيمتلئ البيت فى الحال بهرج ومرج وفرح . فيعد الماء الساخن للجندى الذى اسودّ لونه قذارة ، ويتنافس الأطفال لخدمة أبيهم ويراقبون كل حركة تصدر عنه ، وتهرع الزوجة ، يكاد صوابها يطير سعادة ، لتعد المائدة ، ثم تسرع الى الصندوق ، لتخرج منه طقماً نظيفاً من ملابس زوجها الداخلية . ولكن ، وكأن الأمر مقصود لاغاظتها ، يتبين أن الملابس غير مرتقة ، وليس فى مقدور أصابع الزوجة المرتعشة ساعتئذ أن تدخل الخيط فى خرم الابـرة . وفى مثل تلك الأوقات يسمح حتى لكلب الفناء ، الذى يكون قد

شخّص سيده من مسافة بعيدة وظل يعدو وراءه حتى عتبة الباب ، بالدخول الى البيت . والأطفال يمضون ، مهما عملوا ، دون عقاب حتى وان حطموا آنية من الخزف أو دلقوا اللبن على الأرض . وقبل أن يتسنى لرب البيت أن يرتدى ملابسه النظيفة بعد الاغتسال ، تكون الدار قد اكتظت بالنسوة : يأتين لمعرفة مصير أحبائهن ، ويتلقفن فى مزيج من الخوف واللهفة كل كلمة يتفوّه بها القوزاقى . وما تلبث احدى النساء أن تخرج الى الفناء وهى تضغط براحتيها وجهها المبلل بالدموع وتمضى فى الزقاق كالعمياء لا تتبين دربها . ثم تشرع أرملة جديدة تندب ميتها فى احدى الدور الصغيرة ، تصاحبها أصوات الأطفال الباكين الرفيعة . هكذا كانت الحال فى تتارسكى : كان الفرح الذى يدخل دارا مجلبا للآلام والفجيعة فى دار أخرى .

وفى الصباح التالى ، يستيقظ رب البيت قبل طلوع الفجر ، حليقاً ، بادى الفتوة ، ويمضى فى جولة فى أرجاء الدار ، ملاحظاً الأعمال التى تستدعى التنفيذ الفورى . ويشرع فى العمل بعد الفطور مباشرة . فتهس المسحاة بيده هساً طروباً وتنقر الفأس فى موضع ما تحت أفاريز المأوى ، فى الفيء البارد ، وكأنها تعلن بأن اليدين الرجوليتين المقتدرتين قد عادتا الى ذلك الفناء يحدوهما ظمأ الى العمل . أما فى دار وفناء من علموا بوفاة الوالد أو الزوج ، فان صمتا أبكم يخيم هناك . فتتمدد الأم خرساء هدها الحزن ، ويتجمع حولها الأطفال اليتامى وقد بان عليهم الكبر بين عشية وضحاها .

كانت ايلينشنا ، متى سمعت بعودة قوزاقى ، تقول :

— ومتى سيعود رجلنا ؟ الآخرون يعودون ، ولا كلمة عن ولدى .

فكانت دونيا تجيبها بلهجة حانقة :

— انهم لا يسرحون القوزاق الشباب ، ألا تفهمين يا أمي ؟

— لا يسرحونهم ؟ وتيخون جيراسيموف ؟ انه أصغر من غريشا بعام .

— لكنه مصاب بجرح ، يا أمي .

فتعترض ايلينشنا بقولها :

— مصاب بجرح . . . أف ! رأيته بالأمس خارج دكان الحداد ، وكان يسير وكأنه فى استعراض . الجرحى لا يسيرون هنا وهناك بهذا الشكل .

— كان جريحاً ، ولكنه يتماثل للشفاء الآن .

— حسن ، ألم يصب رجلنا بالعديد من الجروح ؟ ان جسمه ملئ بالندب . ألا تعتقدين أنه بحاجة الى أن «يتماثل للشفاء» هو الآخر ؟

فكانت دونيا تبذل ما فى وسعها لكى تفهم أمها أن من العبث عقد الآمال على عودة غريغورى الوشيكة . غير أن اقناع ايلينشنا بأيما شىء لم يكن بالأمر اليسير . فكانت ايلينشنا تقول بلهجة آمرة :

— أسكتى ، أيتها الحمقاء ! أنا أعرف بقدر ما تعرفين ، ولم تكبرى الى العمر الذى تعلمين فيه أمك . قلت يجب أن يعود ، وهذا يعنى أنه سيعود . اغربى عن وجهى ، أنا لا أريد حتى أن أبدد كلامي عليك .

كانت العجوز تنتظر عودة ولدها فى منتهى نفاد الصبر وتذكر اسمه فى كل مناسبة ممكنة . وكانت كلما امتنع ميشاتكا عن اطاعتها تهدده بقولها :

— انتظر حتى يعود أبوك ، يا قرداً كث الشعر ! سأخبره وسيلقنك درساً !

واذا حدث أن وقع نظرها على عربة بعوارض جديدة فى جوانبها تمر بازاء النافذة ، كانت تتنهد وتقول :

— فى استطاعتك أن تستنتجى بأن صاحب تلك العربة قد عاد الى أهله ، أما رجلنا فيبدو وكأن أحداً قد حبسه الى الأبد .

ولم يحدث قط فى حياتها أن كانت ايلينشنا تحب دخان التبغ ، بل كانت تطرد المدخنين على الدوام الى خارج المطبخ ، أما الآن ، فقد تغير طبعها حتى فى هذا الشأن . فكانت غالبا ما تقول لدونيا :

اذهبى الى بروخور واطلبى منه المجىء . ليأت ويدخن سيكارة ، لأن البيت يفوح برائحة الموت . يوم يعود غريشا من الخدمة ، سيفوح المكان كما يجب حينما يعيش قوزاقى فيه .

وكانت تطبخ كل يوم ما يفيض عن حاجتهم وتضع فى الموقد بعد العشاء دائماً قدراً معدنياً مليئاً بحساء الكرنب . وحينما كانت دونيا تسألها عن سبب ذلك ، كانت ايلينشنا تجيبها فى استغراب :

— عجبا ، وماذا أفعل غير هذا ؟ فقد يعود جندينا اليوم ، وآنذاك يستطيع أن اطعمه شيئاً ساخناً فى الحال . فقد يشتد به الجوع وأنت تسخنين له هذا أو ذاك .

وحدث ذات يوم حينما عادت دونيا من حديقة البطيخ أن وقع نظرها على سترة غريغورى القديمة وقبعته ذات الرفرف بشريطها الأحمر الحائل معلقتين على مسمار فى المطبخ . فنظرت الى أمها مستفهمة ، فقالت ايلينشنا وقد ارتسمت على فمها ابتسامة مدنبة تكاد تكون مثيرة للاشفاق : أخرجتهما من الصندوق ، يا دونيا . تستطيعين أن تشاهديهما وأنت قادمة من الفناء ، وهما — تضفيان على الدار جوا أكثر ألفة . . . وكأنه قد عاد الينا من جديد . . .

أما دونيا ، فقد كلّت من الحديث الذى لا ينتهى عن غريغورى . وذات مرة ، لم تستطع أن تصطبر على سماع المزيد منه ، فقالت لأمها لائمة :

— أما تعبت ، يا أمي ، من التحدث دائماً عن الشىء نفسه ؟ لقد جعلت الجميع يسأمون الحديث معك . وكل الذى نسمعه منك هو «غريشا» ، «غريشا» . . .

فأجابت ايلينشنا فى لهجة هادئة :

— لماذا يجب علىّ أن أتعب من التحدث عن ولدى ؟ حسبك أن تنتظرى حتى تخلّفى أطفالاً ، وآنذاك ستفهمين . . .

وبعد ذلك ، أخذت قبعة غريغورى وسترته من المطبخ الى غرفتها ، ولبثت عدة أيام لا تذكره بكلمة . ولكن ، ما ان اقترب موسم حش الأعشاب حتى قالت لدونيا :

— قد تغضبين حينما أتحدث عن غريشا ، ولكن كيف يتسنى لنا أن نعيش بدونه ؟ هل حدث أن فكرت فى ذلك ، أيتها الخرقاء ؟ هذا أوان الحش يدنو وليس لدينا من يقوم حتى بشحذ مجرفة التبن . أنظرى كيف يؤول كل شىء الى خراب ، وليس فى مستطاعنا ، نحن الاثنتين ، أن ندبّر أمورنا . حينما يغيب رب الدار ، يبكى حتى الأثاث .

ولم تقل دونيا شيئاً . كانت تدرك جيداً أن مشاكل الحقل لم تكن ، بأية حال من الأحوال ، هى التى تسبب قلق أمها ، لكنها كانت بمثابة حجة ، فحسب ، للتحدث عن غريغورى وللتنفيس عن كربة صدرها . فقد شرعت ايلينشنا تتلهف على ولدها بقوة متجددة ، ولم يعد فى مكنتها اخفاء مشاعرها . وفى ذلك المساء رفضت أن تتناول عشاءها ، وحينما تساءلت دونيا ما اذا كانت تشعر بتوعك أجابت مترددة :

— شختُ . . . وقلبى يتوجع على غريشا . . . يتوجع الى حدّ انني لا أشعر بالحنين الى شيء وعيني لا تريد التطلع الى العالم الخارجى .

ولكن لم يقدّر لغريغورى أن يتولى مسؤوليات فناء آل ميليخوف . اذ حدث قبيل ميعاد الحش أن وصل القرية عائداً من الجبهة ميشا كوشيفوى . فبات ليلته لدى أقرباء بعيدين ، وجاء فى صباح اليوم التالى لزيارة آل ميليخوف . كانت ايلينشنا تطبخ حينما طرق الباب مؤدباً ، ولما لم يتلقّ رداً دخل الى المطبخ وخلع قبعة الجنود القديمة التى كان يعتمرها ، وقال مبتسماً لها :

— مرحباً ، خالتى ايلينشنا . لم تكونى تتوقعين حضورى ، أليس كذلك ؟

فردّت ايلينشنا فى لهجة خشنة وهى تحدج وجه كوشيفوى المقيت اليها ، بنظرة غاضبة :

— صباح الخير . وما أنت بالنسبة لى حتى أتوقع حضورك ؟ هل أنت ضفيرة لا تتجزأ من ضفائر سياج الاسفندان فى دارنا ؟

فقال ميشا دون أن يثبط هذا الاستقبال من عزيمته قط :

— كنا ، على أية حال ، معارف .

— ولا أكثر من معارف .

— وهذا كاف بالنسبة لى كى أجيء لرؤيتكم . ثم اننى لم أجئ لأعيش معكم .

فقالت ايلينشنا محتدة :

— هذا الذى كان يعوزنا .

وعادت الى طبخها دون أن تعير الزائر مزيداً من الاهتمام . ولم يأبه ميشا لكلماتها . بل جعل يجيل بصره فى أرجاء المطبخ ، وقال :

— جئت لرؤيتكم والاطلاع على حالتكم . لقد مضى عام أو يزيد دون أن نرى بعضنا .

فردت ايلينشنا مزنخرة ، وهى لا تنفك تنقل الأوعية على الفحم :

— لم نفتقدك كثيراً !

كانت دونيا ترتب غرفة الضيوف . وحينما تناهى صوت ميشا الى أسماعها شحب لونها وضربت يداً بيد فى صمت . وجلست على المصطبة لا تجرؤ على الحركة وهى تتسمع الى الحوار الدائر فى المطبخ ، ووجهها يلتهب بالدم المتدفق عليه حيناً ، ووجنتاها تشحبان ، حيناً آخر ، حتى تظهر خطوط بيض صغيرة على جسر أنفها الدقيق . وسمعت صوت خطوات ميشا يتمشى فى المطبخ ، ثم يجلس على كرسى ، فيصر الكرسى من تحته ، ويشعل عود ثقاب . ثم انسابت رائحة دخان سيكارة الى غرفة الضيوف .

— سمعت بأن العجوز قد مات .

— نعم .

— وماذا عن غريغورى ؟

فلبثت ايلينشنا صامتة وقتاً طويلاً ، ثم أجابت فى تردد جلى :

— انه يحارب الى جانب الحمر ، وهو يحمل على قبعته مثل النجمة التى تحملها أنت .

— كان عليه أن يحملها منذ زمان . . .

— ذلك من شأنه هو .

ثم تساءل ميشا ، وقد شابت صوته نغمة انفعال واضحة :

— وماذا عن يفدوكيا بانتلاييفنا ؟ *

---

* اسم دونيا الكامل . المترجمون .

— انها ترتب الدار . أنت مبكر جداً فى الزيارة . أهل الخير لا يشرعون بالتجوال فى مثل هذا الوقت الباكر .

— قد يكون الانسان سيئاً أحياناً . أردت أن أراها ولهذا جئت . فعلام اختار الوقت المناسب ؟

— أواه ، يا ميخائيل ، لا تغيظنى !

— وكيف اغيظك ، يا خالتى ؟

— عجباً ، بهذا الأسلوب .

— بأى أسلوب ؟

— عجباً ، بأسلوب كلامك .

وسمعت دونيا ميشا يطلق حسرة عميقة . فلم يعد فى طاقتها احتمال المزيد ، فوثبت وسوّت تنورتها ومضت الى المطبخ . كان ميشا جالساً الى جانب النافذة يتم تدخين سيكارته . كانت بشرته صفراء اللون ، وكان على درجة من الهزال بحيث كاد التعرف عليه يكون مستحيلاً . غير أن عينيه الذاويتين اتقدتا حينما رأى دونيا واكتسى خداه بحمرة لا تكاد ترى . فقام مسرعاً وقال فى صوت أبح :

— أهلاً . صباح الخير .

فردّت دونيا بصوت لا يكاد يسمع : — صباح الخير .

فأمرتها ايلينشنا فى الحال وهى تلقى عليها نظرة خاطفة :

— اذهبى واجلبى ماء !

ولبث ميشا فى انتظار أوبة دونيا صابراً . وفى غضون ذلك ، لم تفه ايلينشنا بشىء ، وظل هو صامتاً أيضاً ، وأخيراً سحق عقب سيكارته بين أصابعه وتساءل قائلاً :

— فيم حنقك علىّ ، يا خالتي ؟ هل أسأت اليك ، أم ماذا ؟

فاستدارت ايلينشنا من أمام الموقد فجأة وكأنها لسعت ، وقالت :

— كيف يبيح لك ضميرك القدوم الى هنا ، يا ذا العينين الوقحتين ! أتجرؤ على سؤالى ذلك ! يا قاتل ؟ !

— وكيف أكون قاتلاً ؟

— قاتل حقيقى ! من قتل بيوتر ؟ ألم يكن أنت ؟

— بلى .

— حسن جداً ، اذن . فما أنت بعد ذلك ؟ ثم تأتى وتزورنا . . . وتجلس هنا وكأن . . .

وغصت ايلينشنا فسكنت . ثم استعادت زمام نفسها واستأنفت :

— ألست أمه ، أم ماذا ؟ كيف تجرؤ على النظر فى عينى ؟

فاستحال وجه ميشا شاحباً . كان يتوقع كل هذا الكلام . فقال وهو يتلعثم فى غمرة انفعاله :

— ليس ثمة ما يدعونى الى الخجل من النظر فى عينيك . ماذا كان بيوتر سيفعل لو ظفر بى ؟ أتظنين أنه كان سيقبّلنى على خصلة شعرى ؟ كان سيقتلنى هو الآخر . هل جئنا الى تلك التلال لنلعب لعبة «حلقة القبل» ؟ تلك هي الحرب !

— ونسيينا كورشونوف * العجوز ؟ هل قتل الشيوخ الآمنين هي الحرب أيضاً ؟

فقال ميشا مستغرباً :

— عجباً ، وكيف لا ؟ لا شك أنها الحرب ! أنا أعرف

---

* هو غريشاكا كورشونوف ، جد ناتاليا لأبيها . **المترجمون** .

هؤلاء الشيوخ الآمنين خير معرفة . هؤلاء الشيوخ الآمنون يقبعون فى بيوتهم ممسكين بسراويلهم ، لكنهم يسببون ضرراً أكبر مما يسببه الآخرون فى الجبهة . لقد كان أمثال الثرثار العجوز غريشاكا يحرّضون القوزاق ضدنا . لقد بدأت كل هذه الحرب بسببهم . من الذى بدأ بالتحريض ضدنا ؟ هم . . . هؤلاء الآمنون ! ثم تسمينى «قاتلاً» ! فى السابق ، كنت لا أقوى على نحر خروف أو خنزير ، وأعرف أننى لا أقوى على ذلك حتى الآن . لا أستطيع أن أضع يدى على مثل هذه المخلوقات . الآخرون يستطيعون نحر الحيوانات ، فى حين أننى أصم أذنى وأبتعد كى لا أسمع ذلك أو أراه .

— لكن نسينا . . .

فقاطعها ميشا مغضباً :

— أخذ عقلك نسيك هذا ! نفعه لا يزيد عن نفع حليب من ذكر ماعز ! لكن ضرره كبير . طلبت منه أن يخرج من الدار ، غير أنه لم يفعل ، فلقى حتفه حيث كان . ان الغضب ليستبد بى مع هؤلاء . . . مع هؤلاء الشياطين العجائز ! أنا لا أستطيع أن أقتل حيواناً ، الا فى حالات الهياج على الأقل ، أما مثل هذه — أستميحك المعذرة لاستعمال هذا التعبير — مثل هذه القذارات ، كنسيبك وأضرابه ، فباستطاعتى أن أقتل منهم بقدر ما تشائين . ان يدى متينة مع الأعداء من شاكلة هؤلاء الذين لا نفع لهم فى هذه الدنيا .

فقالت ايلينشنا فى حقد :

— انها قساوة قلبك التى أحالتك جلداً على عظم ! وأحسب أن ضميرك يؤنبك . . .

فابتسم ميشا ببشاشة وقال :

— أشك فى ذلك . لن يؤنبنى ضميرى على نفاية كذلك

العجوز المهذار . لقد أصبت بالحمّى . وقد هدّت كيانى هذا ، يا أمى ، وكنت . . .

فزعقت ايلينشنا به :

— وكيف أكون أماً لك ؟ يابن الكلبة !

فقال ميشا بصوت غليظ ، وهو يضيّق عينيه متوعدا :

— لا تشتمينى ! هناك حدود لما أستطيع أن أتحمل منك . لكننى أود أن أقول لك مواجهة ، يا خالة . ليس لك أن تحنقى علىّ بسبب بيوتر . لقد نال ما كان يسعى اليه .

فهتفت ايلينشنا فى غلظة :

— انك قاتل ! قاتل ! أخرج من هنا ، أنا لا أستطيع تحمل رؤيتك !

فأشعل ميشا سيكارة أخرى وتساءل فى لهجة هادئة :

— وما رأيك بميتكا كورشونوف ، نسيب آخر من أنسبائك ، أليس هو قاتلاً ؟ وما هو ولدك غريغورى ؟ أنت لا تقولين شيئاً عن ولدك الحبيب ، بيد أنه قاتل حقيقى ، لا جدال فى ذلك .

— لا تكذب !

— ودّعت الكذب يوم أمس . من هو غريغوري في رأيك ؟ كم من رجالنا قضى عليهم ، أتعرفين ؟ هذا هو المهم . واذا كنت ستطلقين هذه الصفة على كل من شارك فى الحرب ، فنحن جميعاً قتلة ، اذن .

وأضاف قائلاً فى لهجة ذات مغزى :

— المهم هو : من نقتل ، ولأى سبب .

فخلدت ايلينشنا الى الصمت . غير أنها ، اذ رأت أن ضيفها لم يكن مزمعاً الرحيل ، قالت فى خشونة :

— كفى ! ليس لدى متسع من الوقت للحديث معك ،

حسن بك أن تذهب الى بيتك .

فقال ميشا ضاحكاً وهو ينهض :

— ان لدىَّ بيوتاً بقدر ما للأرانب من غرف للنوم !

عجباً ، فكأن فى الامكان اخافته بمثل هذا الكلام وتلك وت ! لم يكن من رهافة الحساسية بحيث متأثر بإهانات امرأة جوز حاقدة . كان يعلم أن دونيا تكنّ له الحب ، ولم يعنه شىء ر غير هذا ، بما فى ذلك ايلينشنا .

وفى الصباح التالى ، جاء ثانية وحيا ايلينشنا وكأن شيئا لم ن ، ثم جلس الى جانب النافذة يراقب كل حركة تقوم بها يا .

فجابهته ايلينشنا بقولها دون أن ترد على تحيته :

— انك تكثر من زيارتنا .

فاحمر وجه دونيا حنقا وحدجت أمها بعينين ملتهبتين ، ثم لبثت أن خفضت بصرها دون أن تفوه بكلمة . ورد ميشا متبسماً :

— أنا لم آت لزيارتك ، يا خالة ايلينشنا ، فلا تحرقي سك عبثاً .

— الأفضل أن تنسى طريق بيتنا بالمرة .

فتساءل ميشا وقد بدا جاداً :

— لماذا ، وأين سأذهب ؟ فبرحمة نسيبك ميتكا وشفقته سيت وحيداً فى هذا العالم ، وليس فى امكان المرء أن يظل يداً متفرداً ، كالذئب ، فى كوخ خال . وسواء رضيت أم ابيت أظل أزوركم .

قال ذلك ومدد ساقيه متخذاً له جلسة أكثر راحة . فحدّقت ايلينشنا بثبات : حقا ، انه لم يكن من الصنف الذى يستطيع ء أن يقذفه خارج الباب ! كان هيكله القوى والطريقة التى

رفع بها رأسه وشفتاه المزمومتان تنم عن عناد كعناد الثور . . .

وبعد أن غادر الدار ، أرسلت ايلينشنا الطفلين الى الفناء واستدارت نحو دونيا قائلة :

— إياك ان تدعيه يضع قدمه هنا ثانية ! فاهمة ؟

فحدجت دونيا أمها دون أن يطرف لها جفن . وبدا شىء مألوف لدى جميع آل ميليخوف فى عينيها المضيقتين ، برهة من الزمن ، فيما قالت وكأنها تنهش كل كلمة تفوه بها نهشاً : كلا . بل سيأتى ! لن تمنعيه ! سيأتى بالتأكيد !

ولما لم تستطع السيطرة على زمام نفسها ، غطت وجهها بوزرتها وهرعت خارجة الى السقيفة .

فبقيت ايلينشنا جالسة عند النافذة ، وهى تجر أنفاسا ثقيلة ، وبقيت تهز رأسها فى صمت وتحدق بعينين لا تريان فى أفق السهب حيث كان هدب من شجيرات الشيح اليافعة ، فضى اللألأ تحت نور الشمس ، يفصل ما بين الأرض والسماء .

فى وقت مبكر من ذلك المساء ، كانت دونيا وأمها تقيمان ، فى صمت وجفاء ، سياجاً منهاراً فى حديقة الخضار عند شاطئ الدون ، حينما قدم ميشا ، وتناول المجرفة من يدى دونيا فى هدوء وقال :

— انك لا تحفرين الى عمق كاف ، ستهب الريح ، وتطيح السياج من جديد . وشرع يعمق الحفر المعدة للأعمدة ، ثم أعانهما على اقامة السياج وربطه بالأعمدة ، وبعدها انصرف . وفى الصباح التالى ، جاء بمجرفتين كانتا قد شحذتا حديثا ومقبض مذراة ، ووضعها خارج سقيفة آل ميليخوف . وتساءل ، بعد أن حيا ايلينشنا ، فى لهجة عملية :

— أتنوين حش عشب المرج ؟ الآخرون خرجوا عبر الدون فعلاً .

فلم ترد عليه ايلينشنا ، بل نطقت دونيا بدلاً عنها :

— ليس لدينا ما نعبر النهر به . قاربنا ملقى فى المأوى منذ الخريف ، وقد يبس خشبه عن آخره .

فقال ميشا لائماً :

— كان يجدر بكم أن تضعوه فى الماء فى الربيع ، ما رأيك بتقييره ؟ انتم لا تستطيعون تدبير أموركم بدون قارب .

فألقت دونيا على أمها نظرة توسّل وترقّب . بيد أن ايلينشنا مضت تعجن العجين وكأن الحديث لم يكن يعنيها فى شىء .

فسأل ميشا وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تلحظ :

— هل لديكم مشاقة قنب ؟

فمضت دونيا الى المخزن وعادت بملء ذراعها من خيوط القنب .

وما ان حلّ وقت العشاء حتى كان ميشا قد أكمل اصلاح القارب . فجاء الى المطبخ وقال :

— حسن ، لقد سحبت القارب الى الماء ، وهو الآن يتشبع به . اربطيه الى جذع شجرة والا فقد يسرقه بعضهم .

ثم كرر السؤال ثانية :

— حسن ، وماذا عن حش الأعشاب ، يا خالة ؟ ليس لدى ما أعمله فى الوقت الحاضر .

فقالت ايلينشنا وهى تومئ برأسها الى دونيا :

— توجه بالسؤال اليها .

— اننى أسأل ربة البيت .

— فى استطاعة أيما انسان أن يرى بأننى لست ربة البيت هنا . . .

فانفجرت دونيا باكية ومضت الى غرفة الضيوف . فقال ميشا

بلهجة حاسمة :

— اذاً ، فسأقوم بمساعدتكما . أين عدة النجارة ؟ أريد أن أصنع مجرفة لكم ، فأنا لا أعتقد أن المجارف القديمة بذات نفع .

وذهب الى المأوى ، وهناك شرع ، وهو يصفر ، يجرى أسناناً خشبية للمجرفة . ولبث ميشاتكا الصغير يتراقص حوله ويسأله :

— اصنع لى مجرفة صغيرة : ياعمّ ميشا ، فليس لدىّ من يصنع واحدة لى . جدتى لا تعرف ، ولا عمتى . أنت الوحيد الذى يستطيع صنعها ، وأنت شاطر فى ذلك .

فقال له كوشيفوى ضاحكاً :

— سأصنع لك واحدة ، يا سمىّ * ، والله سأصنع لك واحدة . ولكن ، ابتعد قليلاً والا فقد تصيب نشارة عينك .

وحدّث نفسه متعجباً :

— عجباً ، أليس هو شبيهاً بوالده ، هذا الشيطان الصغير ! شقة من أبيه ! عيناه وحاجباه وثنية شفته ذاتها . . . غريغورى أنجز عملا جيداً !

وشرع يصنع مجرفة صغيرة للعب ، بيد أنه لم يستطع اكمال العمل ، فقد ازرقت شفتاه وظهر على وجهه الأصفر تعبير محنق ، ولكنه مستسلم . فتوقف عن الصفير ووضع السكين على الأرض والتوى كتفاه كمن أصابه برد . ثم طلب من ميشاتكا قائلاً :

— يا ميخائيل غريغورييفتش ، يا سمىّ ، اذهب واجلب لى قطعة من الجوت أو من شىء آخر لأننى أريد أن أتمدد .

فتساءل الصبى مستفهماً :

* الاسم الحقيقى لكل من ميشا وميشاتكا هو ميخائيل ، فهما سميّان . المترجمون .

— ولكن ، لأى غرض ؟

— أريد أن أمرض .

— لماذا ؟

— أف من الطريقة التى تلتصق بها بالناس ، مثل الشوكة تماماً ، عجباً ، حان الوقت لكى أكون مريضاً ، وهذا كل ما فى الأمر . هاتها بسرعة .

— ولكن ، ماذا عن مجرفتى ؟

— سأكملها فيما بعد .

وسرت رجفة عنيفة فى جسد ميشا فخضته خضاً ، وصارت أسنانه تطقطق . وتمدّد على الزكيبة التى جلبها ميشاتكا ، ثم خلع طاقيته وغطى وجهه بها .

وتساءل ميشاتكا قانطاً :

— هل مرضت حقاً ؟

— نعم ، أنا مريض الآن .

— ولكن ، لماذا ترتجف ؟

— هى الحمى تخضنى .

— ولكن لماذا تطقطق أسنانك ؟

فنظر ميشا بعين واحدة من تحت طاقيته الى سميّه الصغير المزعج ، وابتسم ابتسامة مقتضبة ، ولم يعد يجيبه على أسئلته .

فحدق فيه ميشاتكا مذهولاً ثم عدا الى داخل البيت :

— جدتي ، العم ميشا ممدد فى المأوى وهو يرتعش ويرتعش حتى يكاد يرقص من الارتعاش .

فألقت ايلينشنا نظرة عبر الشبّاك ، ثم مضت الى المائدة وخلدت الى الصمت تقلب شيئا ما فى فكرها .

فسألها ميشاتكا نافد الصبر وهو يجرجر كمّ صدريتها الداخلية :

— لم لا تنطقى بشىء ، يا جدتي ؟

فاستدارت ايلينشنا نحوه وقالت فى عزم :

— يا صغيرى ، خذ بطانية واحملها اليه ، الى عدو المسيح ذاك ، لكى يتدثر بها . هى الحمى التى تخضه ، نوع من المرض . هل تستطيع حمل البطانية ؟

ومضت الى الشباك ثانية ، وألقت نظرة على الفناء ، ثم قالت على عجل :

— قف ، قف . لا تحملها ، لا حاجة .

كانت دونيا قد دثّرت كوشيفوى بفروتها هى ، وكانت لحظتئذ منحنية عليه وهى تقول له شيئاً ما .

وبعد أن مرت النوبة ، قضى ميشا بقية النهار يعد العدة للحش . وكان جلياً أنه غدا أوهن قوة ، واتسمت حركاته بالفتور والاضطراب ، غير أنه أكمل مجرفة ميشاتكا بأية حال .

وفى المساء ، أعدت ايلينشنا العشاء ، فأجلست الطفلين الى المائدة ، وقالت لدونيا دون أن تنظر اليها :

— اذهبى وادعى ذاك — ما اسمه ؟ — الى العشاء .

جلس ميشا الى المائدة دون أن يرسم اشارة الصليب على نفسه ، وقد تكوّم جسده على المقعد بوهن وكان وجهه ، وقد تلطخ بالعرق الوسخ ، ينم عن ارهاق شديد ، وكانت يده ترتعش قليلاً فيما كان يرفع ملعقته الى شفتيه . وتناول من الطعام قليله على مضض ، وهو يجيل عينيه بين الحين والحين فى وجوه الآخرين بنظرات شاردة . الا أن ايلينشنا استبد بها العجب حينما لاحظت عينى «القاتل» الذاويتين تدفئتان وتنتعشان كلما حطتا على ميشاتكا الصغير ، فكانت تقدح فيهما لحظة شرارة صغيرة من الاعجاب والمحبة ثم تنطفئ ، وترتسم فى زاويتى شفتيه ابتسامة لا تكاد

تلحظ . ثم كان يحوّل نظرته عن ميشاتكا فيكتنف سيماءه ، كالظل ، شرودٌ خدر من جديد .

وشرعت ايلينشنا تسترق النظر الى كوشيفوى . ولم تدرك الا آنذاك مدى النحول الفظيع الذى أصابه بنتيجة مرضه . كان عظم الترقوة يلوح واضحاً من تحت قمصلته الرمادية المعفرة ، وكتفاه العريضتان محدبتين ، والعظام تكاد تنفذ خلال الجلد ، فيما بدت جوزة عنقه المشعّر نشازاً فى رقبته النحيلة الشبيهة برقاب الأطفال . وكانت ايلينشنا كلما أمعنت النظر فى «القاتل» وجسمه المحنى ووجهه الشمعى ، أحست بمزيد من القلق فى داخلها ، وكأن شيئاً ما كان يتمزق فى أحشائها . وفجأة استيقظت فى قلبها شفقة غير متوقعة نحو هذا الرجل الذى كرهته كرهاً شديداً . . . تلك الشفقة الأمومية التى تعصر القلب عصراً فتلين لها أقوى النساء . واذ عجزت ايلينشنا عن كبح جماح هذا الشعور ، دفعت نحو ميشا بصحن مملوء لبناً وقالت :

— كل حتى الشبع بحق الرب ! انك من الهزال بحيث يسبب النظر اليك الغثيان . . . وتعتبر نفسك عريساً !

٣

شرع القرويون يتقوّلون حول كوشيفوى ودونيا . وصادف أن التقت احدى النساء بدونيا عند المرسى فسألتها وفى لهجتها سخرية بينة :

— هل استخدمتم ميخائيل أجيراً لديكم ؟ لا يبدو أنه يغادر فناءكم .

أما ايلينشنا ، فكانت ترد بعناد على كل محاولات الاقناع التى كانت تبديها :

— مهما طلبت لن أزوجك اياه . لن تنالى بركتى !

ولم تحد ايلينشنا عن قرارها الا حينما أعلنت دونيا أنها ستمضى لتعيش مع كوشيفوى ، وبدأت فى الحال تجمع ملابسها . فهتفت ايلينشنا مذعورة :

— افيقي على نفسك ! ماذا سأفعل وحدى مع الطفلين ؟ نهلك ؟

فقالت دونيا بهدوء وهى لا تنفك تخرج حلى صباها من الصندوق :

— أنت أدرى ، يا أمي . لكننى لا أود أن أكون موضع تندر القرية .

فلبثت ايلينشنا واقفة لا تقول شيئاً ، وشفتاها تعتملان . بيد أنها أخيراً ، وبعد فترة صمت طويلة ، مشت فى اتجاه ركن الأيقونة وهى تحرك قدميها فى خطو ثقيل . ثم همست وهى تنزل الأيقونة من موضعها :

— حسن ، فليكن ، يا ابنتى . اذا كان هذا هو تفكيرك ، فليكن الله فى عونك ! تعالى هنا . . .

وفى فرح غامر ركعت دونيا على ركبتيها . فباركتها ايلينشنا ، ثم أضافت الى ذلك قولها فى صوت راعش :

— لقد باركتنى أمى المرحومة بهذه الأيقونة . . . أواه ، لو قدّر لأبيك أن يراك الآن . . . أتذكرين ما قاله عن عريسك ؟ يعلم الله كم يشق علىّ هذا . . .

وفى هدوء ، استدارت وخرجت الى السقيفة .

ومهما حاول ميشا ان يقنع الفتاة العنود بأن يجرى القران فى الكنيسة ، فانها أصرّت على رأيها . وأخيراً ، اضطر ميشا الى الرضوخ وهو يصر أسنانه . واستعد للاحتفال

لاعنا فى سريرته كل ما فى العالم ، وكأنه كان يستعد لتنفيذ حكم بالاعدام عليه . وقام الأب فيساريون بالمهمة ليلا بهدوء فى الكنيسة الخالية . وبعد الاحتفال ، هنأ العروسين الشابين وقال فى لهجة تهذيبية :

— حسن ، أيها الرفيق السوفييتى الشاب ، أرأيت كيف يدور دولاب الحياة ؟ فى العام الماضى ، قمت باضرام النار فى بيتى بيديك ، سلمته للحريق — كما يقولون — واليوم كان من نصيبى ان اعقد قرانك وكما يقول المثل «لا تبصق فى البئر ، فقد تحتاج الى شرب مائها» . ومع ذلك ، فاننى سعيد ، سعيد من صميم قلبى ، لأنك عدت ووجدت طريقك الى كنيسة المسيح .

وبذلك ، طفح كيل ميشا . كان شعوره بالخجل لضعف ارادته وحنقه من نفسه قد جعلاه لا ينبس بكلمة طيلة الوقت فى الكنيسة . أما الآن ، فانه صوّب نظرة هائجة نحو القس المبتهج وقال له هامسا كيلا تسمعه دونيا :

— مع الأسف ، أنك هربت من القرية يومئذ ، والا لاحرقت مع بيتك ، يا شيطانا طويل العرف ! أتفهم هذا ؟

فحملق القس بعينين رامشتين فى ميشا وقد عقدت لسانه الدهشة . غير أن العريس قال فى لهجة قوية لزوجته الشابة وهو يسحبها من كمها :

— هيا !

واتجه صوب الباب وجزمته العسكرية تقعقع على أرض الكنيسة .

وفى هذا الزفاف الخالى من البهجة ، لم تشرب فودكا ولم تهدر أغان . وفى اليوم التالى شكا بروخور زيكوف ، الذى قام بدور الاشبين ، من ذلك لأكسينيا بقوله وهو لا ينفك يبصق تقززاً :

— حسن ، يا فتاة ، أستطيع أن أقول لك بأنه كان زفافاً بديعاً ! فى الكنيسة ، همهم ميخائيل بشىء جعل فك القسيس يتدلى . وفى العشاء ، أتدرين ما الذى تناولناه ؟ دجاج مسلوق ولبن حامض . . . وليت الأبالسة قدموا لنا قطرة صغيرة من الفودكا ! كان يجدر بغريغورى بانتلاييفتش أن يرى كيف زوجت أخته ! كان سيضرب رأسه ! كلا ، يا فتاة ، لقد نلت الكفاية . لن أحضر بعد اليوم أياً من حفلات الزفاف المستحدثة هذه ! ان زواج الكلاب أكثر مرحاً : فعلى الأقل يجز الكلاب شعر بعضهم البعض ، ويحدثون هرجاً ومرجاً . أما هنا ، فلا شراب ولا تصخاب ، لعنة الله على هؤلاء الزناديق ! أتعلمين ، لقد انزعجت بعد الزفاف أيما انزعاج حتى أننى لم أذق طعم النوم طوال الليلة . لبثت أحكّ جسمى وكأنهم قد وضعوا لى حفنة من البراغيث تحت قميصى . . .

منذ اليوم الذى وضع فيه كوشيفوى نفسه فى دار آل ميليخوف ، اتخذ كل ما فى الفناء اتجاهاً جديداً . ففى غضون مدة قصيرة ، أصلح السياج ونقل عشب السهب بالعربة وكوّمه فى ساحة درس الحبوب ، مغطياً أعلاه بالقش . واستعدادا للحصاد ، قام بتركيب منصة وحاجز جديد للحاصدة ، ونظف أرضية ساحة درس الحبوب تنظيفاً دقيقاً تمهيداً للدرس ، وأصلح المذراة القديمة ورتق عدة الخيل ، وذلك لأنه كان يحلم ، فى سره ، بمقايضة زوج الثيران بحصان ، وقال أكثر من مرة لدونيا :

— يجب أن نجهز أنفسنا بحصان . ان السير بهذين البرذونين المربوطين الى النير أشبه ما يكون بالسير وراء جنازة .

وذات يوم عثر فى المخزن على علبة من دهان قصديرى أبيض ولازوردى ، فقرر فى الحال طلاء أباجورات الدار التى حال

لونها من أثر القدم . وبعد ذلك ، بدا دار آل ميليخوف كأنه استعاد شبابه وهو يطل على الدنيا بشبابيكه المؤطرة باللون الأزرق .

وأثبت ميشا أنه فلاح دؤوب . فكان ، رغم ابتلائه بالحمى ، يعمل ويعمل دون أن ينحى أدواته لحظة عن يده . وكانت دونيا تساعده فى كل شىء .

فى الأيام القليلة الأولى من حياتهما الزوجية غدت دونيا أنضر جمالاً ، بشكل جلى ، ولاح عليها شىء من الامتلاء فى الكتفين والردفين . واتسمت عيناها ومشيتها ، وحتى طريقة تصفيف شعرها ، بتعبير جديد . وتلاشت صفة النشاز وعدم الاتساق من حركاتها ، واختفت منها الخفة والحيوية الطفوليتان . وصارت تمعن النظر فى زوجها بعينين مولهتين ، مبتسمة رضية ، غافلة عما كان يدور حولها . فالسعادة الجديدة لا عين لها .

أما ايلينشنا فقد أمست تشعر ، مع كل يوم يمر ، بوطأة الوحدة التى اكتنفتها ، أثقل وأثقل . لقد غدت طافية على سطح الدار الذى كانت قد قضت فيه كل عمرها تقريباً . كانت دونيا وزوجها يعملان وكأنهما كانا يبنيان عشاً لهما فى موقع جديد . لم يكونا يستشيرانها فى أيما أمر ، ولم يكونا يسألان موافقتها على أيما شىء مبتكر يدخلانه على الحقل ، حتى أنهما لم يكلّفا نفسيهما عناء استعمال كلمة لطيفة عند الحديث معها . وحينما كانا يجلسان الى المائدة ، كانا لا يزيدان على تبادل بضع جمل تافهة معها ، فكانت ايلينشنا تنفرد من جديد بأفكارها الكئيبة . لم تكسب أية بهجة من السعادة التى غمرت حياة ابنتها ، كما أن وجود رجل غريب فى البيت (وقد ظل نسيبها غريبا بالنسبة لها كما كان فى السابق) كان يثقل صدرها ويكربه . بل ان الحياة نفسها أمست

حملاً ثقيلاً عليها . ففى عام واحد ، فقدت العديد من أعزائها ، وبقيت هى وقد حطمتها الآلام وبان عليها العجز حتى غدت مثيرة للاشفاق . لقد كابدت أحزانا جمة فى حياتها ، أحزانا فوق طاقة احتمالها . والآن ، لم يعد فى مكنتها ابداء المزيد من المقاومة ، وغدت أسيرة وسواس بأن الموت ، الذى كان قد اعتاد على زيارة عائلتها ، سيأتى أكثر من مرة أخرى ليعبر عتبة آل ميليخوف من جديد . والآن ، وقد اطمأنت الى زواج ابنتها لم تعد لديها سوى أمنية واحدة : أن تعيش لترى غريغورى يعود وتسلّم له طفليه ، ثم لتغمض عينيها الى الأبد . فلقد عانت فى حياتها الطويلة العسيرة ما يعطيها الحق فى نشدان الراحة .

مرت أيام الصيف الطويلة فيما بلا نهاية . كانت الشمس ساطعة خارقة . غير أن لسع ضيائها لم يعد يشيع الدفء فى ايلينشنا . كانت تلبث ساعات جالسة على درجات العتبة بدون حراك ، وضياء الشمس يغمرها ، ولكن دون أن يبدو عليها اهتمام بما يجرى حولها . لم تعد كعهدها فى السابق ، ربة بيت دؤوبة شغالة . لم تكن تشعر برغبة فى القيام بأى عمل . كان كل شىء عبثاً ، وغدا يبدو الآن غير ضرورى وغير حقيقى . ثم انها لم تعد تملك القوة على العمل ، كما كانت فى الأيام السابقة . كانت كثيرا ما تمعن النظر فى يديها اللتين خلّفت سنوات العمل الطويلة شقوقا فيهما ، وتحدث نفسها :

— حسن ، يداى أدتا عملهما . . . وآن الهجوع . . . عشت ما علىّ ، وفى هذا الكفاية . . . يكفينى أن أبقى حية حتى أرى غريشا . . .

ولم يحدث الا مرّة واحدة فقط أن استعادت حيويتها السابقة ، ثم ما لبثت أن فقدتها ثانية . كان ذلك حينما مرّ بها بروخور ذات

يوم فى طريق عودته من فيشنسكايا . فهتف وهو لما يزل على مبعدة :

— اعطيني أكرامية ، يا جدة ايلينشنا . لقد جئتك برسالة من ولدك .

فاستحال وجه العجوز شاحباً . ففى ذهنها كانت الرسالة ، أية رسالة ، مقرونة حتما بكارثة جديدة . ولكن ، حينما تلا بروخور رسالة غريغورى القصيرة ، وكان نصفها تقريباً عبارة عن تحيات يرسلها الى أعزائه ، ولم يشر الا فى ختامها الى أنه سيحاول القدوم الى القرية فى اجازة فى الخريف ، ظلت ايلينشنا وقتاً طويلاً عاجزة عن النطق لفرط فرحها . وانهمرت دموع صغيرة ، كالخرز حجماً ، على وجهها الأسمر خلل غضون خديها العميقة . وجعلت تمسحها ، مطأطأة الرأس ، بكم صدريتها الداخلية ويدها الخشنة . لكنها ظلت تنهمر على وجهها ، وتتساقط ، دمعة اثر دمعة ، على وزرتها عليها كما يتناثر مطر دافئ مدرار . ولم يكن بروخور يكره دموع النساء فحسب ، بل كان لا يستطيع تحملها . فقال مقطب الجبين محنقاً :

— ها أنت اتعبت نفسك الى هذا الحدّ ، يا جدة ! ما أكثر ما تسكبن من دموع ، يا معشر النساء ! كان يجب أن تكونى سعيدة ، لا أن تبكي ! حسن ، أنا ذاهب . الى اللقاء ! فليس مما يسرنى كثيراً أن أنظر اليك وأنت فى هذه الحال .

فتوقفت ايلينشنا عن البكاء واستوقفت بروخور ، ثم تمتمت فى لهجة غير مفهومة وهى تخرج من الصندوق قنينة الفودكا كانت قد حفظتها زمناً طويلاً :

— هذه اكراميتي على هذا النبأ المفرح ، يا عزيزى . . . كيف يمكنني أن أدعك تذهب على هذا النحو ؟ مهلاً . . . وسأتضيفك . . .

فقعد بروخور ومسّد شاربه . وسألها :

— أتشاركيننى بقدح ، ما دمت سعيدة الى هذا الحد ؟

على أنه ما لبث أن حدث نفسه قلقا :

— ها هو ابليس ركب لسانى ثانية ! ستمضى وتأخذ نصيبها ، وليس فى القنينة من الفودكا البيتية ما يكفى لشمة . . .

بيد أن ايلينشنا رفضت . طوت الرسالة فى اعتناء ووضعتها على رف الأيقونات . غير أنها ، وبعد أن فكرت فى الأمر ثانية ، لم تلبث أن رفعتها من جديد ، وأمسكت بها فى يديها بعض الوقت ، ثم دستها فى صدرها وضغطتها بثبات على موضع قلبها . وحينما عادت دونيا من الحقول ، جعلت تتلو الرسالة المرة تلو المرة ، وأخيراً ابتسمت وتنهدت قائلة :

— أواه ، ليته يعود بسرعة ! لكم تغيرت ، يا أمي !

فأخذت ايلينشنا الرسالة منها ، فى حركة تنم عن شىء من الغيرة ، وأخفتها ثانية فى صدرها وقالت مبتسمة وهى تنظر الى ابنتها بعينين متألقتين نصف مغمضتين :

— حتى الكلاب لم تعد تنبح عليّ ، فأنا عديمة النفع تماماً هذه الأيام ، لكن ولدى الأصغر تذكّر أمه ! ما أحلى كتابته ! ويسمينى باسمى الكامل ، أيضا ! أنحنى اجلالاً لك ، ياوالدتي — هكذا يقول ، — وللطفلين أيضاً . ولم ينسك أنت يا دونيا . . . حسن ، ما الذى تتضاحكين منه ؟ أنت حمقاء ، حمقـــاء فعلاً !

— عجباً ، أمي ، ألا أستطيع أن أبتسم ؟ ولكن أين ذاهبة ؟

— ذاهبة الى الحديقة لعزق شىء من البطاطس .

— سأفعل ذلك بنفسى غداً . عليك أن تبقى فى الدار .

كنت دائماً تتشكين من المرض ، واذا بك الآن تجدين عملاً تقومين به !

فقالت ايلينشنا معترفة :

— لا ، أنا ذاهبة . . . أنا سعيدة وأحب أن أنفرد بنفسى .

وبحركة فتية ناشطة ، عقدت عصابتها على رأسها .

وفى طريقها الى الحديقة عرّجت على دار أكسينيا . فى البداية ، ومن قبيل مقتضيات الزانة ، تحدثت عن أشياء عامة . وبعد ذلك أخرجت الرسالة .

— ولدنا أرسل رسالة الىّ . أسعد أمه ، فهو يعد بالمجىء الينا فى اجازة . هى ذى ، يا جارة ، اقرئيها وسأستمع اليها ثانية .

وغب ذلك ، غدا من واجب أكسينيا أن تقرأ الرسالة مرة اثر مرة . كانت ايلينشنا تأتى فى المساء ، فتخرج الظرف الملفوف بمنديل فى اعتناء وتطلب من أكسينيا متنهدة :

— اقرئيها ، يا عزيزتى أكسينيا . اليوم أشعر بضيق فى قلبى ، وقد رأيته فى منامى صغيراً جداً ، مثلما كان أيام ذهابه الى المدرسة !

وبمرور الأيام ، بدأت الكلمات المكتوبة بقلم الرصاص تمحى ، ولم يعد بالمستطاع تمييز بعضها . لكن ذلك لم يؤثر على أكسينيا . فقد قرأت الرسالة مرات كثيرة حتى حفظت محتواها عن ظهر قلب . وبعد ذلك بزمن ، وحينما بليت وتمزقت الورقة الخفيفة ، جعلت أكسينيا تروى لايلينشنا بلا تردد جميع ما حوته الرسالة حتى سطرها الأخير .

بعد أسبوعين بدأت ايلينشنا تستشعر انحرافاً فى صحتها . كانت دونيا منهمكة بدرس الحبوب ، فلم تشأ العجوز أن تلهيها عن العمل ، بيد أنها لم تفلح حتى فى طبخ الطعام بنفسها .

وقالت لابنتها :

— لن أنهض من الفراش اليوم . دبروا حالكم بأنفسكم على نحو ما .

— لماذا ، ما الذى يؤلمك ، يا أمي ؟

فسوّت ايلينشنا الطيات فى صدريتها الداخلية القديمة بيدها ، وأجابت دون أن ترفع عينيها :

— كل جسمى يتوجع . . . كأن كل ما فى داخلى قد ضرب حتى أمسى كاللب . . . فى شبابى ، اعتاد والدك المتوفى أن يتهيج فيضربنى . . . وكانت قبضتاه حديديتين . . . فكنت أرتمى على الفراش أسبوعاً كالميتة . وهذا هو بالضبط ما أشعر به الآن . كل ما فى داخلى يبدو مهشما ، وكأن بدنى كله قد جلد بالسوط .

— أترغبين أن أرسل ميخائيل لاستدعاء الممرض ؟

— ما حاجتى اليه ؟ سأنهض على نحو ما .

وفى اليوم التالى ، نهضت بالفعل وخرجت الى الفناء ، ولكنها عادت الى الفراش مع حلول المساء . تورّم وجهها قليلاً ، كما ظهرت أكياس مائية تحت عينيها . وحدث خلال الليل أن أقامت نفسها على ذراعيها عدة مرات ، رافعة رأسها من الوسائد المكومة ، تجر أنفاساً متلاحقة وتعانى من نوبات انقطاع النفس . ثم تخلى عنها الشعور بالاختناق . وصار فى مستطاعها التمدّد على ظهرها فى هدوء ، بل النهوض من على السرير . وقضت عدة أيام فى حالة من الهدوء والتفرد . كانت تميل الى البقاء وحيدة ، وحينما كانت أكسينيا تأتى لزيارتها كانت تجيب على أسئلتها باقتضاب وتتنفس الصعداء حين تغادرها . وشعرت بالارتياح لقضاء الطفلين معظم النهار فى الخارج ولأن دونيا كانت لا تدخل الى غرفتها الا لماما ولا تضايقها بالأسئلة . لم تعد فى حاجة الى أية

شفقة أو عزاء . وقد حان وقت أحسّت خلاله برغبة جامحة فى البقاء وحيدة ، لكى تستعيد الكثير مما تصرّم من حياتها . فاستلقت ساعات مغمضة عينيها نصف اغماضة ، ومن غير أن تنبعث منها حركة ، الا من أصابعها المتورمة وهى تلملم البطانية . وفى خلال هذه الساعات ، مرت بخاطرها حياتها كلها .

لقد أذهلها أن تتكشف تلك الحياة عن مدى قصرها وتفاهتها ، وعن مدى المرارة والكآبة اللتين انطوى عليهما جزء كبير منها ، وكم من تلك الحياة عافت نفسها استعادة أيامها . ولسبب من الأسباب ، اتجهت معظم ذكرياتها وأفكارها ناحية غريغورى . ربما لأنها لم تعرف معنى التحرر من الخوف والقلق عليه طوال كل هذه السنوات منذ اندلاع الحرب ، ولأنه كان السبب الوحيد الذى يشدها الى هذه الحياة . أو لعل حنينها لولدها الأكبر وزوجها قد أصابه الخدر ، ذوى مع الأيام ، لأنها لم تكن تتذكرهما الا نادراً وبدا أنها كانت لا تراهما الا خلل سديم رمادى . كما أنها لم تكن تستعيد شبابها وحياتها الزوجية لا على مضض . فلم يكن ثمة داع لذلك كله ، اذ كان قد انحسر نحو البعيد البعيد ، ولم يعد يجلب مسرة ولا عزاء . وحينما كانت تعود بذكرياتها الى الماضى كان فكرها يظل ثابتا واضحا . على أن ذكرياتها عن «ولدها الأصغر» كانت على درجة أشد من الوضوح ، بل تكاد تلمسها باليد . وكانت ما أن تشرع فى تذكره حتى تتسارع ضربات قلبها ، ثم يعاودها الشعور بالاختناق ، وتمسى سحنة وجهها قاتمة ، وتأخذها غيبوبة طويلة . ولكن ، ما أن تستعيد وعيها حتى تتجه أفكارها اليه من جديد . لم تكن بقادرة على نسيان ولدها الأخير . . .

ذات يوم ، كانت مستلقية فى غرفة الضيوف . وكانت شمس الظهيرة تغمر الدنيا فى الخارج بشعاعها . وفى طرف السماء الجنوبى

كانت غمائم بيض ، نشرتها الريح ، تطفو فى جلال ومهابة عبر الزرقة الباهرة . ولم يكن هناك ما يقطع السكون الكئيب سوى طنين الجنادب الكسول الرتيب . ففى الخارج ، تحت النافذة مباشرة ، كانت ثمة حشائش متكومة على أساس البيت — حشيش اوزة شبه ذابل مختلط بنجيل وشوفان برى — لم تكن الشمس قد أذوتها بعد . وفى ظل هذه الحشائش وجدت الجنادب لها ملجأ . فلبثت ايلينشنا تتسمع الى سقسقتها الموصولة ، وتتشمم فوح الحشائش المستدفئة بحرارة الشمس ينفذ الى داخل الغرفة . واستطاعت أن تلقى نظرة خاطفة على سهب آب اللهاب ، وجذامة الحنطة الذهبية ، والسماء اللازوردية المتوهجة وقد تغلّفت بضبابة رمادية بلون الحمام .

ورأت فى وضوح الثيران ترعى عند حدود الحقل المغطاة بالشيح ، والى العربة وظلتها الممدودة عليها . واستمعت الى طنين الجنادب المنكسر ، واستنشقت رائحة الشيح المرة الغامرة . . . ورأت نفسها شابة ، صحيحة البنية ، جميلة ، تمضى الى هناك ، مسرعة خطاها نحو المضرب . وجعلت جذامة الحنطة تخشخش عند قدميها وتخز ربلتى ساقيها العاريتين ، وعلى ظهرها جففت الريح اللاهبة قميصها المبتل بالعرق والمدسوسة أذياله فى تنورتها ، وأحرقت عنقها . واجتاح وجنتيها فيضٌ قرمزى ، ونتج عن تدفق الدم على رأسها رنينٌ خفيف فى أذنيها . وبذراع مطوية واحدة أسندت ثدييها الثقيلين الممتلئين لبناً ، وحينما تناهى الى سمعها صراخ طفل باك أسرعت خطاها وفكت زر ياقة قميصها .

وارتعشت شفتاها الملفوحتان ، وابتسمتا ، فيما رفعت غريشا الصغير الأسمر من المهد المعلق تحت العربة . فأمسكت بين أسنانها بخيط الصليب المبلل بالعرق بعيداً عن رقبتها ، وأسرعت تعطيه ثديها ، وهى تهمس خلل أسنانها المصكوكة :

— يا حبيبى . يا ولدى الصغير ! يا ولدى الحلو ! . . لقد تركتك أمك تتلوى من الجوع . . .

فجعل غريشا الصغير ، وهو لا يزال ينشج مستاء ، يمص حلمة الثدى ويعضها عضا مؤلما بلثتيه الصغيرتين . وكان يقف الى جانبها والده الشاب ذو الشارب الأسود يشحذ منجلا . ومن تحت أهدابها المسبلة ، رأت الى ابتسامته والبياضين المزرقين لعينيه المتلامعتين . وتعسرت أنفاسها من شدة الحرّ ، والعرق ينهمر من جبينها ويدغدغ وجنتيها ، ثم ذوى الضياء ، وذوى من أمام عينيها . . .

أيقظت نفسها من الحلم ، ومرت بيدها على وجهها المبلل بالدموع ، ثم لبثت ساكنة ، تعذبها نوبة اختناق عنيفة ، وتغيب عن الوعى بين الحين والحين .

فى ساعة متأخرة من ذلك المساء ، وحينما كانت دونيا وزوجها قد ذهبا الى سريرهما ، جمعت البقية الباقية من حولها ونهضت ثم خرجت الى الفناء . وكانت أكسينيا فى الخارج تبحث عن بقرتها التى كانت قد انفصلت عن القطيع ، وبينما كانت عائدة الى منزلها شاهدت ايلينشنا تسير فى خطى بطيئة مترنحة صوب ساحة درس الحبوب . فتساءلت أكسينيا فى سريرتها : — ماذا تفعل هناك ، وهى المريضة ؟ — واسترقت الخطى حتى بلغت السياج الذى يحد ساحة درس الحبوب العائدة لآل ميليخوف ، ونظرت هناك . كان البدر كاملاً ، ونسيم يهب من ناحية السهب ، وكداس القش يلقى ظلاً كثيفاً على الساحة الجرداء الصقيلة من أثر الحادلات . وكانت ايلينشنا تسند نفسها بكلتا يديها على السياج ، محدقة فى السهب حيث كانت نار مضيئة أشعلها الحاشون تتلألأ مثل نجمة صغيرة نائية منيعة . واستطاعت أكسينيا أن تشاهد بوضوح وجه

العجوز المنتفخ وقد أضاءه نور القمر المائل للزرقة ، وخصلة شعرها الشائبة المنفلتة من تحت شالها الأسود .

لبثت ايلينشنا وقتاً طويلاً تحدق فى السهب المعتم ، ثم نادت غريغورى بهدوء ، وكأنه كان واقفاً الى جوارها :

غريشا ! يا عزيزى ! يا ولدى الحبيب !

وخلدت الى الصمت برهة ، ثم قالت بصوت مغاير ، خفيض ، أجش :

— يا روح دمى !

فسرت رعشة فى أوصال أكسينيا ، واعتصرها شعور باللهفة والخوف معاً . فتراجعت فى الحال عن السياج ومضت الى داخل بيتها .

فى تلك الليلة ، أدركت ايلينشنا أن أجلها قد دنا ، وأن الموت كان فى انتظارها عند سريرها . وفى الفجر أخرجت قميص غريغورى من الصندوق ، فكورته ووضعته تحت وسادتها . كما أعدت ملابس القبر والقميص الذى كانت سترتديه بعد أن تكون قد لفظت نفسها الأخير .

وفى الصباح التالى ، دخلت دونيا لترى أمها كالعادة ، فتناولت ايلينشنا قميص غريغورى باعتناء من تحت الوسادة ومدت به يدها الى دونيا دونما كلمة . فتساءلت دونيا مستغربة :

— ما هذا ؟

فأجابت ايلينشنا بصوت واهن :

— قميص غريشا . . . خذيه الى زوجك ، ودعيه يرتديه . لا بد أن قميصه القديم قد تعفّن من أثر العرق .

فلاحظت دونيا تنورة أمها السوداء وقميصها وخفّيها على المصطبة — وهى الملابس التى يكسى بها الجسد حينما يرسل فى

رحلته الطويلة — وشحب وجهها :

— فيم هيأت هذه الأشياء ، يا أمي ؟ أبعديها عنك ، بحق المسيح ! فليباركك الله ، لم يحن الوقت بعد لتفكرى بالموت !

فأجابت ايلينشنا همساً :

— كلا ، لقد آن أجلى . . . جاء دورى . . . اعتنى بالطفلين ، ارعيهما حتى يعود غريغورى . . . أستطيع أن أرى الآن بأننى لن أعيش حتى أراه . . . أواه ، لن أعيش حتى أراه . . .

واستدارت ايلينشنا ناحية الجدار كيلا ترى دونيا دموعها ، وغطت وجهها بعصابتها .

ماتت غب ذلك بثلاثة أيام . فقامت عجائز أخربات بغسل جسدها والباسها ملابس الدفن وتمديدها على المائدة فى غرفة الضيوف . وفى المساء جاءت أكسينيا لتودع الراحلة ، فوجدت مشقة فى التعرف على ملامح ايلينشنا الأنوف الجلدة القديمة فى هذا الوجه الجامد الجميل لهذه العجوز العزيزة . وفيما كانت أكسينيا تلمس الجبهة الصفراء الباردة بشفتيها ، لاحظت خصلة الشعر الشائبة العنود المعهودة منفلتة من تحت العصابة البيضاء ، وحلقة أذنها الصغيرة المدورة ، كحلقة أذن امرأة شابة .

أخذت أكسينيا الطفلين الى بيتها بموافقة دونيا ، وكانا قد أمسيا صامتين فزعين ازاء هذا الموت الجديد . فأطعمتهما وأخذتهما الى سريرها معها . وغمرها احساس غريب فيما كانت تحتضن طفلى الرجل الذى أحبته ، هذين الجسمين الصغيرين وقد تكوم كل منهما على جانب منها . وشرعت تقص عليهما ، فى نغم رقيق ، حكايات جن تذكرتها من أيام طفولتها بغية صرف ذهنهما عن التفكير بجدتهما الراحلة . وحكت عليهما قصة اليتيم الفقير

فانيوشكا ، فى صوت منغم هادئ :

أيتها البجعة
احمليني
على جناحيك الأبيضين
احمليني بعيداً
الى أرض آبائى
الى أرض آبائى الحبيبة . . .

وقبل أن تتم الحكاية ، سمعت الطفلين يجران أنفاسا منتظمة هادئة . كان ميشاتكا مستلقياً على ظهره ، وقد ألصق وجهه بكتفها . فأراحت أكسينيا بحركة من كتفها رأسه الصغير المائل الى وراء الى وضع مريح ، وداهمها فجأة حنين عنيف لا يرحم ، حتى أحست بغصة تأخذ بخناق بلعومها . فانفجرت فى بكاء مرير شديد ارتج لنشيجها بدنها كله . بيد أنها لم تستطع حتى مسح دموعها : فطفلا غريغورى نائمان بين ذراعيها ، ولم تود أن توقظهما .

٤

أصبح كوشيفوى ، بعد وفاة ايلينشنا ، سيد الدار الأوحد بلا منازع . وكان طبيعيا أن يعكف ، بحماسة أشد ، على احياء الحقل وتوسيعه ، بيد أنه فى واقع الحال كان بعيداً كل البعد عن هذا الاتجاه . فمع كل يوم يمر كان فتوره ازاء العمل يتزايد شيئاً فشيئاً . وغدا يكثر من الخروج وقضاء الأماسى جالساً فى السقيفة حتى بوغل الليل ، يدخن السكائر ويقلّب أمراً ما فى فكره . ولم تستطع دونيا الا أن تلاحظ التغيير الذى طرأ على زوجها . وحدث أكثر

من مرة أن رأت ميشا ، والعجب يأخذها ، يلقى بالفأس أو المسحاة أرضاً فجأة ولغير ما سبب جلى ، ويجلس على الأرض ابتغاء للراحة ، وهو الذى كان يعمل فى السابق دون أدنى اهتمام بنفسه . وحدث الشىء نفسه فى الحقول حينما كانا يبذران الذرة الشتوية . كان يبذر سافتين أو ثلاثاً ثم يوقف الثورين ، ويلف سيكارة ويقتعد الأرض المحروثة معقود الحاجبين ، زمناً ليس بالقصير .

فكانت دونيا ، التى ورثت من أبيها فطنته العملية ، تحدث نفسها فى قلق :

— لم يقاوم طويلاً . . . اما أنه مريض ، أو كسول لا غير . لن أحصل الا على المتاعب من هذا الزوج ! قد يحسب المرء أنه عائش مع غرباء . يدخن نصف النهار ويتمدد فى نصفه الآخر ، ولا شىء للعمل . . . يجب أن أكلمه فى الأمر ، بطريقة غير مباشرة كى لا أقلقه ، والا فانه اذا استمر فى العمل على هذا المعدّل لن نستطيع أن نجرف العوز الى خارج البيت بمجرفة . . .

وهكذا ، توجهت دونيا اليه بالسؤال ذات يوم ، فى حذر :

— انك لست كما اعتدت أن تكون ، يا ميشا . هل الحمى هى التى تنال منك ؟

فردّ ميشا محنقاً :

— ولم الحمى ؟ الحياة مملة هنا بما فيه الكفاية ، حتى بدون حمى !

ولفح الثورين بالسوط ومضى وراء الباذرة .

ورأت دونيا أن مواصلة أسئلتها لن تكون تصرفاً حكيماً . فقبل هذا وذاك ، لم يكن من حق المرأة اصدار التعليمات الى زوجها . وانتهى الأمر عند ذاك الحد .

بيد أنها كانت مخطئة فى افتراضاتها . فقد كان السبب

الوحيد الذى يحول دون اكباب ميشا على العمل بذات الاندفاع السابق هو اعتقاده ، الذى تركز لديه مع مرور الأيام ، بأنه كان قد استقر فى قريته قبل الأوان بوقت طويل . وكان يحدث نفسه حانقاً حينما كان يقرأ تقارير الحرب فى الجريدة الاقليمية أو يستمع فى الأماسى الى القصص التى يرويها القوزاق الحمر المسرّحون :

— لقد تسرعت بعض الشىء فى التحول الى الفلاحة . كنت مستعجلاً أكثر مما ينبغى . . .

على أن الذى كان يمضّه على وجه خاص موقف أبناء قريته . كان عدد منهم يقول بصراحة ان أمر الحكومة السوفييتية سينتهى قبل حلول الشتاء ، وان فرانجل كان قد زحف من تافريا ، بصحبة ماخنو ، وانه قد اقترب من روستوف فعلاً ، وأن الحلفاء قد أنزلوا فى نوفوروسيسك قوة استطلاعية كبيرة . وراحت الشائعات تنتشر فى القرية ، وكل منها أخرق من سابقتها . أما القوزاق الذين كانوا قد عادوا من معسكرات الاعتقال او المناجم ، فقد سمنت أجسامهم على الأطعمة البيتية خلال الصيف ، وانزووا بأنفسهم يشربون الفودكا فى الليالى ، ويتبادلون أحاديثهم الخاصة فيما بينهم ، واذا التقوا بميشا سألوه فى لامبالاة مقنّعة :

— أنت تقرأ الصحف ، يا كوشيفوى . هلا أخبرتنا عن فرانجل ، وهل سيقضون عليه عما قريب ؟ وهل حق أم أنه مجرد كلام أن الحلفاء يشددون علينا من جديد ؟

ذات يوم أحد ، بعد الظهر ، عرّج بروخور زيكوف على دارهم . كان ميشا قد عاد للتو من الحقول وكان واقفاً بالقرب من السقيفة يغتسل ، فيما كانت دونيا تصب الماء على يديه من دلو تحمله وهى تنظر الى رقبة زوجها النحيفة الملفوحة ، وقد علت

شفتيها ابتسامة . فحياهما بروخور وقعد على درجة السقيفة السفلى ، ثم سأل :

— أحسب أنكما لم تتسلما أى خبر عن غريغورى بانتلاييفتش ؟

فأجابت دونيا :

— كلا . لم يكتب لنا .

فقال ميشا وهو يمسح وجهه ويديه وينظر فى عينى بروخور دونما ابتسام :

— وهل أنت شديد الشوق اليه ؟

فتنهد بروخور وسوّى قميصه الأجوف ثم قال :

— بالطبع . فلقد خدمنا طوال الوقت معاً .

— وهل تفكر بالاستمرار الآن ؟

— ماذا ؟

— عجباً . بالخدمة !

— انتهت أيام خدمتى معه .

— لكننى حسبت بأنك تتلهف فى انتظاره لتخدم من جديد . وتستأنف القتال ضد حكومة السوفييتية . . .

فقال بروخور بلهجة مستاءة :

— عبثاً أن تتكلم على هذا النحو ، يا ميخائيل .

— ولم لا ؟ أنا أسمع شتى الأحاديث تتناقلها الألسن فى القرية .

— وهل سمعتنى أتحدث هكذا ؟ أين سمعت هذه الأحاديث ؟

— ليس انت وحسب ، ولكن الرهط الذى على شاكلتك وشاكلة غريغورى ، الذين ينتظرون ربعهم ، على أحر من الجمر .

— أنا لا انتظر «ربعهم» فالكل سواسية لدى .

— هذه هى المصيبة بالضبط ، أن يكون الكل سواسية لديك . مهما يكن من أمر ، تعال ندخل الى البيت ، ولا تستاء منى ، فقد كنت أمزح .

وارتقى بروخور الدرجات على مضض ، وهو يقول فيما اجتاز العتبة :

— ان نكاتك ، يا أخى ، لا تبعث كثيراً على الضحك . . . يجب أن يُنسى الماضى . ولقد دفعت ثمن ماضى .

فقال ميشا فى لهجة جافة فيما كان يجلس الى المائدة :

— ليس بالامكان نسيان كل الماضى . ابق معنا لتناول العشاء .

— شكراً ، لا شك أنه ليس بالامكان نسيان كل الماضى . وعلى سبيل المثال ، أنا فقدت يدى ولسوف يسرنى أن أستطيع نسيان ذلك . ولكنه شىء لا يمكن نسيانه . انها تذكرنى كل ثانية عن نفسها .

وقالت دونيا لزوجها فيما كانت تعدّ المائدة ، دون أن تنظر اليه :

— هل من رأيك أن أى شخص كان مع البيض لا يمكن أن يصفح عنه ؟

— عجباً ، وماذا ظننت أنت ؟

— حسن ، ظننت بأن كل من ينبش الماضى تقلع عيناه ، كما يقولون .

فقال ميشا فى لهجة باردة :

— قد تجدين هذا القول فى الانجيل . أما فى رأيى ، فان على الرجل أن يتحمل مسؤولية افعاله .

فعلّقت دونيا على ذلك فى هدوء :

— لكن الحكومة لم تقل شيئاً مثل هذا .

ولم تشأ أن تشتبك مع زوجها بحضور قوزاقى آخر ، بيد أنها كانت مستاءة فى قرارة نفسها من ميشا لمزاحه السمج ، كما بدا لها ذلك ، مع بروخور وللعداء الذى كان يبديه صراحة ضد أخيها .

— الحكومة لا تقول شيئاً لك . فليس لديها ما تتحدث به معك . ولكن يجب محاسبة أولئك الذين خدموا مع البيض وفقاً لأحكام القانون السوفييتى .

فتساءل بروخور :

— وهل سيتعين علىّ أن أحاسب عن خدمتى معهم ، أنا أيضا ؟

— أنت لم تكن سوى عجل . نلت شيئاً من الكلأ فى المرعى ، وعدت الآن الى حظيرتك ! لا ، لن يستجوب المراسلون . أما غريغورى فيسأل حينما يعود . سنستجوبه عن الانتفاضة .

فتساءلت دونيا وعيناها تتطايران شرراً فيما كانت تضع قدحاً من اللبن الحامض على المائدة :

— ومن سيقوم بالاستجواب ، أنت ؟

فأجاب ميشا بهدوء :

— أجل ، أنا الذى سأستجوبه أيضاً .

— ليس هذا من شأنك . . . سيكون هناك ما يكفى من المستجوبين بدونك . لقد استحق العفو بخدمته فى صفوف الجيش الأحمر . . .

وارتعش صوت دونيا ، فجلست الى المائدة تلملم زركش وزرتها بين أصابعها . بيد أن ميشا استأنف كلامه وكأنه لم يلاحظ انفعال زوجته :

— سيكون من الممتع لى أن أقوم بشىء من الاستجواب كذلك . . . أما فيما يتعلق بالعفو عنه ، فسنرى . . . سنعيد النظر فى مدى استحقاقه لهذا العفو . لقد سفك الكثير من دمائنا . وسنزن الكفتين لنرى دم أيهما أثقل . . .

كان هذا أول خلاف يقع بين ميشا ودونيا منذ زواجهما . فخيّم على المطبخ صمت ثقيل . وتناول ميشا اللبن فى صمت ، ماسحا شفتيه بمنشفة صغيرة بين الفينة والفينة ، فيما جعل بروخور يدخن سيكارة ويختلس النظر الى دونيا . ثم طفق يتحدث عن شؤون الحقل . ولبث نصف ساعة أخرى ، ثم قام وقال فيما كان يتأهب للخروج :

— كيريل كروموف عاد ، هل سمعت ذلك ؟

— كلا . من أين ؟

— من صفوف الحمر . وكان فى جيش الخيالة الأول ، أيضا .

— أهو الذى كان يخدم تحت امرة مامونتوف ؟

— هو .

فضحك ميشا متهكماً :

— كان مقاتلاً طيباً !

— طيباً جداً حينما كان الأمر يتعلق بالسلب والنهب . ان له يداً مطواعة لمثل هذه الأشياء .

— يقال انه كان يضرب الأسرى بالسيف بلا رحمة . يقتلهم من أجل جزمهم . يقتلهم لمجرد الحصول على جزمهم ، ولا شىء آخر .

فأكد بروخور ذلك بقوله :

— هكذا يقال .

فتساءل ميشا فى لهجة مفتعلة الرقة :

— وهل يجب العفو عنه أيضا ؟ عفا الله عن أعدائه وأمرنا بفعل الشئ نفسه ، أم ماذا ؟

— ليس من اليسير الاجابة عن هذا . . . ولكن ، ماذا تستطيع أن تفعل به ؟

فضيّق ميشا عينيه وقال :

— حسن ، سأفعل الشيء المناسب . . . سأفعل ما يزهق روحه ! ولن ينجو من ذلك ، أبدا ! ان «تشيكا» * الدون موجودة الآن فى فيشنسكايا ، ولسوف يطوقونه بأذرعهم المتلهفة .

فابتسم بروخور وقال :

— صدق من قال ألا شيء غير القبر يقوّم ظهر الأحدب ! لقد عاد بأسلاب حتى من الجيش الأحمر . كانت زوجته تتباهى أمام زوجتى أنه قد جلب لها معطفا نسائيا ، ولا أدرى كم ثوب ، وأشياء أخرى أيضاً . كان فى لواء «ماسلاك» ، واتخذ طريقه الى القرية من هناك . وأحسب أنه لا بد أن يكون قد فرّ من الجيش . وقد عاد بأسلحته معه كذلك .

فسأله ميشا :

— أى نوع من الأسلحة ؟

— لا يخفى عليك ذلك : قربينة ومسدس ولربما أشياء أخرى .

— هل تدرى ان كان قد ذهب الى مقر السوفييت لتسجيل نفسه ؟

فضحك بروخور ولوّح بيده :

---

* التشيكا : هيئة تحقيق سوفييتية فى ذلك الوقت . المترجمون .

— ليس بامكانك أن تجرّه الى هناك حتى بأنشوطة جرّ الماشية من قرونها ! أنا لا أستطيع الا أن أتصور بأنه على وشك الفرار . سينسل من بيته ان لم يكن اليوم ، فغداً . والآن نعود الى موضوعنا : ان كيريل يفكر بمعاودة القتال ، كما تدل على ذلك جميع الدلائل ، أما فكرتك عنى فهى مغلوطة . كلا ، يا صاحبى ، لقد قمت بما يكفينى من القتال . وبلغ سأمى من هذا النمط الى حلقومي .

ثم انصرف بروخور بعد ذلك بقليل . ولم يلبث ميشا أن خرج هو أيضا . فأطعمت دونيا الطفلين ، وكانت تتهيأ للنوم حينما رجع ميشا وكان يحمل بيديه شيئا ما ملفوفا بزكيبة . فتساءلت دونيا فى غلظة :

— أين كنت ، بحق الشيطان ؟

فأجاب ميشا مبتسماً ابتسامة ودوداً :

— كنت آتى بصداقى !

فكشف الغطاء عن بندقية ملفوفة باعتناء ، وكيس منتفخ بخراطيش الرصاص ومسدس وقنبلتين يدويتين . فوضعها جميعا على مصطبة وصب باحتراس قليلا من البارافين فى صحن .

فسألته دونيا ، مشيرة الى الأسلحة بحاجبيها :

— من أين جئت بكل هذه ؟

— انها لى . لقد جلبتها معى من الجبهة .

— فأين كنت تخفيها ، اذن ؟

— لا عليك . كانت فى حرز حريز .

— حسن ، لا بد لى من القول بأنك مغرم بالاحتفاظ بالأسرار لنفسك . . . لم تشر اليها بكلمة . تخفى الأشياء حتى عن زوجتك ؟

فقال ميشا ، متصنعا ابتسامة لا مبالية ، ومتوددا لدونيا :

— ولماذا يتعين علىّ أن أخبرك ، يا دونيا ؟ فما هذا من شأن النساء . دعيها نائمة هنا ، وليس مما يعيب أن أحتفظ بها الى جانب احتفاظى بك ، يا فتاتى !

— ولكن علام جئت بها الى داخل الدار ؟ أنت قوزاقى ملتزم بالقوانين . . . وتعرف كل شىء . . . ولكن ، ألا تعرض نفسك للعقاب بسببها ؟

فأمسى وجه ميشا قاسى السيماء ، وقال :

— أنت حمقاء ! حينما يعود كيريل كروموف بأسلحته ، فثمة خطر على الحكم السوفييتى . أما حينما أعود أنا بها ، فليس ذلك سوى مكسب للحكم السوفييتى . أتعرفين ؟ من سيحاسبنى ؟ أنت تهرفين بما لا يعلمه الا الله . اذهبى الى السرير ونامى .

كان قد توصل الى الاستنتاج السليم الوحيد فى رأيه : ما دام البيض الذين لم يتم القضاء عليهم نهائيا يعودون بأسلحتهم ، فعليه هو أن يحترس . فنظف البندقية والمسدس تنظيفاً دقيقاً ، وما أن انبلج ضوء النهار التالى حتى تهيأ للمضى الى فيشنسكايا سيراً على قدميه .

وبينما كانت دونيا تضع الزاد فى خرجه ، قالت فى مرارة وغضب :

— أنت دائماً تخفى شيئاً ما عنى ! قل على الأقل ، أين أنت ذاهب ولماذا . ماذا تسمى هذه الحياة ، بحق الشيطان ؟ حسبه أن يتهيأ للذهاب ، ولا يمكن للمرء أن يستل كلمة منه ! أأنت زوجى أم زرّ فى قميصى ؟

— أنا ذاهب الى فيشنسكايا ، الى اللجنة . فماذا تريدين اخبارك غير ذلك ؟ ستعرفين كل شىء حينما أعود .

ومضى ميشا نازلاً حدر الدون ، وهو يحمل خرجه الى جنبه ، ثم ركب فى القارب وطفق يجذّف مسرعاً صوب الضفة الأخرى .

• • •

وفى فيشنسكايا ، قال الطبيب لميشا فى اقتضاب بعد أن فحصه :

— يا رفيقى العزيز ، أنت لا تصلح للخدمة فى صفوف الجيش الأحمر . الملاريا لاكتك لوكاً . ويجب أن تتعالج والا فان حالتك ستزداد سوءا . ان الجيش الأحمر ليس بحاجة الى من هم على شاكلتك .

— على أية شاكلة ، اذن ؟ لقد خدمت طوال سنتين ، أما الآن فلا حاجة الىّ ، أليس كذلك ؟

— من نحتاجهم ، أولاً وقبل كل شىء ، رجال أصحاء . استرجع صحتك ، وستكون صالحا للخدمة آنذاك . خذ هذه الوصفة وستحصل على الكنين من الصيدلى .

— هكذا !

وارتدى ميشا قميصه وكأنه يضع طوقاً على حصان جامح ، وبدا غير قادر على ادخال رأسه من الفتحة . وزرر بنطلونه فى الشارع واتجه مباشرة الى مقر لجنة الحزب الاقليمية .

عاد الى تتارسكى رئيسا للجنة الثورية فى القرية . فحيا زوجته متعجلاً ، وقال :

— حسن ، سنرى الآن !

فسألته دونيا مندهشة :

— ماذا تعنى ؟

— الشيء نفسه .

— وما هو ؟

— هاأنا عيّنت رئيساً للجنة الثورية . أتفهمين ؟

فضربت دونيا كفا بكف غيظا . وكانت تهم أن تعلق على ذلك ، بيد أن ميشا لم يتريث ليستمع اليها ، بل وقف أمام المرآة يسوى نطاقه على قمصلته الخاكية الحائلة ، ثم مضى خارجاً نحو مقر السوفييت .

كان ميخييف العجوز قد عيّن فى الشتاء الماضى رئيساً للجنة الثورية ، وبقى فى هذا المنصب منذ ذلك الحين . وكان شبه أعمى وشبه أصمّ ، فأربكته مسؤولياته وسببت له الكدر ، ولهذا شعر بالراحة حينما أخبره كوشيفوى بأمر اعفائه .

وقال فى سرور غير مكتوم وهو يرسم اشارة الصليب على نفسه ويفرك راحتيه :

— هى ذى الأوراق ، يانسرى العزيز . هوذا ختم القرية . خذها ، بحب المسيح ! أنا الآن فى عقدى الثامن ، ولم يحدث قط طوال حياتى أن شغلت منصباً . ولكن ذلك شاء أن يحدث فى أواخر أيامى . . . انه العمل المناسب لأمثالك من الشباب ، أما أنا ، فما نفعى ؟ رؤيتى ضعيفة ، وسمعى ضعيف . . . حان الوقت لاعتكافى للصلاة ، لكنهم ذهبوا وعينونى رئيساً . . .

ألقى ميشا نظرة سريعة على التعليمات والأوامر المرسلة من لجنة المنطقة الثورية ، ثم تساءل :

— أين السكرتير ؟

— ايه ؟

— اللعنة ، قلت أين السكرتير ؟

— السكرتير ؟ انه يبذر الذرة . ولا يأتى الى هنا الا مرة فى

الأسبوع ، عسى أن تصعقه صاعقة ! تأتى أحيانا ورقة من المنطقة ، ويجب أن نقرأ ، لكنك لن تستطيع العثور عليه حتى لو أطلقت فى أثره كلاباً سلوقية ! والنتيجة أن تظل الورقة المهمة ملقاة عدة أيام دون أن يقرأها أحد . وذلك لأننى ضعيف فى الكتابة وضعيف جداً ! لا أستطيع الا أن أوقع اسمى ، ولا أستطيع القراءة قط . كل ما أستطيعه هو استعمال الختم فحسب . . .

تفحّص كوشيفوى ، عاقد الحاجبين ، الحيطان المخربشة الوسخة لغرفة اللجنة الثورية ، وليس ما يزينها سوى اعلان حائطى قديم منقط ببراز الذباب .

وقد بلغ سرور ميخييف العجوز بنبأ اعفائه غير المتوقع حداً جعله يجرؤ على التمازح ، فقال وهو يسلم كوشيفوى الختم الملفوف بخرقة :

— هذه هى كل ممتلكات القرية . ليس هناك مال لتسليمه . أما شارات الأتمان ، فلا تلقى احتراماً تحت الحكم السوفييتى . واذا شئت ، أستطيع أن أعطيك عصاى القديمة .

وتكشفت ابتسامته عن فم خال من الأسنان وهو يمد عصاه المقطوعة من شجرة دردار وقد التمع مقبضها من الاستعمال الطويل .

بيد أن كوشيفوى لم يستشعر رغبة فى المزاح . بل ألقى نظرة ثانية على الغرفة البائسة المهملة ، وقطّب جبينه وقال متنهداً :

— نعتبر ، بهذا ، أننى قد تسلمت كل شىء منك ، أيها الجد . والآن ، انقشع من هنا واذهب الى الشيطان !

وأشار له بعينيه ناحية الباب .

ثم جلس الى المنضدة ممطياً مرفقيه ، ولبث ثمة جالساً وحده ، يصرّ أسنانه ويدفع فكه الأسفل الى أمام . رباه ، لكم كان غبيا كالحمار خلال تلك الأيام ، حينما كان يقضى الوقت

33-1419

مخربشا فى الأرض دون أن يرفع رأسه أو يصيخ السمع لكل ما كان يدور حوله ! واستبد به الحنق من نفسه ومن كل شىء ، فقام عن المنضدة وسوّى قمصلته ، وقال خلل أسنانه وهو يحدق فى الأبعاد :

— أجل ، أيها الفتية ، لسوف أريكم كيف تكون الحكومة السوفييتية !

أغلق الباب وربطه بالسلسلة ، ثم خطا عبر الساحة نحو بيته . وعلى مقربة من الكنيسة التقى أوبنيزوف الشاب ، فهزّ له رأسه دونما اهتمام ، واجتازه ، ثم خطرت فى ذهنه فكرة على حين غرة ، فاستدار وهتف اليه :

— أنت ، يا أندريوشا ! انتظر قليلاً . تعال ، أنا أريدك !

فجاء الصبى الخجول ، ذو الشعر الأشقر ، وتقدم من ميشا بلا كلام . فمدّ اليه ميشا يده ، كما لو كان رجلاً ، وسأله :

— أين كنت ذاهباً ؟ الى طرف القرية الآخر ؟ اذا فقد كنت تتمشى ، أليس كذلك ؟ ان ما أردت أن أسألك اياه هو : أنت درست فى المدرسة الأولية المتقدمة ، أليس كذلك ؟ درست هناك ؟ عظيم ! هل لديك المام بالعمل المكتبى ؟

— اى نوع من العمل المكتبى ؟

— أوه ، العمل الاعتيادى . أنت تعرف ، الوارد والصادر ، هذا النوع من العمل .

— ما الذى تهدف اليه ، أيها الرفيق كوشيفوى ؟

— عجباً الأوراق التى تتلقاها فى مكتب . هل أنت ملم بها ؟ أنت تعرف ، هناك الأوراق التى يجب أن تصدر ، وهناك أمور أخرى أيضاً .

وجعل ميشا يلوى أصابعه على نحو ما لتصوير الأمر للصبى ، ثم قال بلهجة حازمة دون أن ينتظر جواباً :

— اذا كنت لا تعرف ذلك ، فستتعلمه فى وقت قصير . أنا الآن رئيس اللجنة الثورية فى القرية ، وحيث أنك صبى متعلم ، فانى أعيّنك سكرتيرا . اذهب الى مقر اللجنة الثورية وقم على شؤونه . ستجد الأوراق جميعاً ملقاة على المنضدة . وسأعود بعد قليل . فاهم ؟

— ولكن ، أيها الرفيق كوشيفوى ؟

فلوّح ميشا بيده وقال نافد الصبر :

— نستطيع أن نتداول فى الموضوع فيما بعد . اذهب وتولّ واجباتك .

ثم استأنف سيره فى الشارع ، بطيئاً وفى خطو منتظم .

وحين بلغ الدار ، ارتدى بنطلوناً جديداً : ودس مسدسه فى جيبه ، وأمضى بعض الوقت يسوّى وضعية قبعته أمام المرآة . ثم قال لدونيا :

— أنا ذاهب الى مكان ما فى مهمة . فاذا سأل أحدهم أين الرئيس ، أخبريه أننى ساعود بعد قليل .

جعل منصب الرئيس من بعض الأشياء المعينة ذات طابع الزامى . فغدت مشية ميشا بطيئة جليلة . وكان هذا شيئا مغايراً لعادته حتى أن بعض القرويين صاروا يتوقفون ويحدقون فيه من ورائه والابتسامات تعلو وجوههم . وحينما التقى به بروخور زيكوف فى الشارع ، تراجع الى السياج فى حركة تنم عن الاحترام وقال متسائلاً :

— ولكن ، علام كل هذا ، يا ميخائيل ؟ ترتدى أفضل ثيابك فى يوم عمل ، وتمشى فى مسيرة عسكرية وكأنك فى استعراض ؟ أذاهب أنت لخطوبة مرة أخرى ؟

فرد ميشا ، شاداً على شفتيه بشىء من الغيظ :

— شيء من هذا القبيل .

وحينما بلغ بوابة آل كروموف ، دس يده فى جيبه منقباً عن كيس تبغه ، وألقى نظرة فاحصة على الفناء الفسيح والمنشآت المتناثرة عليه ، وعلى نوافذ البيت .

وحدث أن كانت أم كيريل كروموف خارجة من السقيفة تحمل صحنا حاويا على قرع مقطع قطعا صغيرة لاطعام الماشية ، فحياها ميشا باحترام وخطا باتجاه درجات العتبة .

— هل كيريل فى البيت ، يا خالة ؟

فأجابت العجوز ، متنحية لتفسح المجال لمروره :

— نعم ، فى البيت . تفضل وادخل !

فدخل ميشا الى السقيفة المظلمة وبحث بيده عن مقبض الباب وسط الغبش .

فتح كيريل بنفسه باب غرفة الضيوف له وتراجع خطوة الى وراء . وألقى نظرة خاطفة فاحصة على ميشا ، وكان حليقاً ، مبتسماً ، ثملاً بعض الشيء ، وقال فى لهجة ودود :

— هوذا جندى آخر ! أدخل ، يا كوشيفوى ، واجلس . كن ضيفنا . نحن نتناول قليلاً من الشراب ، قليلاً منه فقط . . .

— أكرم الضيف بما يشتهى !

وصافح ميشا يد كيريل فيما أجال بصره فى الضيوف المتحلّقين حول المائدة .

كان جلياً أن مجيئه لم يكن مناسباً . فصوّب قوزاقى عريض المنكبين ، غريب على كوشيفوى ، نظرة خاطفة مستفهمة نحو كيريل وهو يبعد قدحه عنه من حيث كان يجلس جلسة مريحة فى الركن القصى تحت الايقونات . وعبس وجه سيميون أخفاتكين ، وهو من أقرباء آل كورشونوف البعيدين وكان يجلس فى الطرف

المقابل ، حينما وقع بصره على ميشا وأشاح عنه نظره .

دعا كيريل ميشا الى الجلوس .

— شكراً للدعوة .

— ولكن لا بد أن تجلس . لا تهيننا . اشرب قدحاً معنا .

فجلس ميشا الى المائدة ، وتناول قدح الفودكا المنزلية من يدى مضيفه وقال هازاً رأسه :

— نخب عودتك الى أهلك ، يا كيريل ايفانوفتش !

— شكراً لك ، وهل مضى زمن طويل على عودتك من الجيش ؟

— زمن طويل جداً . حتى لقد تسنى لى أن أستقر .

— تستقر وتتزوج ، أيضاً . ولكن ، علام تحفظك ؟ اشربه عن آخره !

— لا أرغب بالمزيد . لدى عمل أود أن أكلمك بشأنه .

— كلا ، ان هذا فوق الاحتمال ! لا تحاول ذلك معى ! اننى لن أتكلم بشؤون أى عمل اليوم ! اليوم أمتع نفسى مع أصدقائى . فاذا جئت لتتباحث فى أمور العمل ، تعال ثانية غداً .

فقام ميشا عن المائدة ، وقال مبتسماً فى هدوء :

— ما هو الا أمر بسيط ، لكنه لا يحتمل الانتظار . تعال أخرج معى لحظة .

فلزم كيريل الصمت بعض الوقت وهو يمسد شاربيه الأسودين المفتولين ، ثم قام :

— لعلنا نستطيع التحدث هنا . لماذا تفرط عقد الجلسة ؟

فأجابه ميشا فى هدوء ، ولكن فى اصرار :

— كلا ، دعنا نخرج .

فقال القوزاقى الغريب ذو المنكبين العريضين :

— اصحبه الى الخارج . علام تساوم معه ؟

فتقدم كيريل ميشا ، على مضض ، الى داخل المطبخ . وتمتم لزوجته التى كانت منهمكة بالعمل أمام الموقد :

— أخرجى من هنا ، يا كاترينا !

ثم تساءل فى اقتضاب وهو يقتعد المصطبة :

— حسن ، ما هى الشغلة ؟

— كم يوماً مضى عليك منذ عودتك ؟

— لماذا ؟ ما الأمر ؟

— سألتك ، كم يوماً مضى عليك منذ عودتك ؟

— اليوم هو الرابع ، كما أظن .

— وهل راجعت اللجنة الثورية ؟

— لا ، حتى الآن .

— وهل تنوى الذهاب الى فيشنسكايا لمقابلة اللجنة العسكرية ؟

— ما الذى ترمى اليه ؟ اذا كنت قد جئت بشأن عمل ، فتكلم عنه .

— أنا أتكلم عن عملى .

— اذن ، فاذهب الى الشيطان ! ماذا ، بحق جهنم ، تحسب نفسك ، حتى يتوجب على الاجابة عن أسئلتك ؟

— أنا رئيس اللجنة الثورية . أرنى أوراقك الصادرة من كتيبتك .

فقال كيريل مثغثغا وهو يسدد الى عينى ميشا نظرة حادة صاحية ، على حين غرة :

— هكذا ، اذن ! هذا هو ما ترمى اليه ؟

— نعم ، لقد أصبت ! سلمنى أوراقك .

— سآتى الى السوفييت اليوم .

— أبرزها حالاً !

— انها مرزومة فى مكان ما .

— فابحث عنها ، اذا !

— كلا ، لن أبحث عنها الآن . اذهب الى دارك ، يا ميخائيل ، لا تخلق ضجة مفتعلة .

— ضجتي معك قصيرة !

ووضع ميشا يده اليمنى داخل جيبه ، وأضاف :

— ارتد سترتك !

— كف عن هذا ، يا ميخائيل ! يحسن بك ألا تضع يديك على . . .

— قلت لك ، هيا !

— الى أين ؟

— الى اللجنة الثورية .

فاستحال وجه كيريل شاحباً ، الا أنه قال وعلى وجهه ابتسامة هازلة :

— لا أريد أن أفعل ذلك على وجه الخصوص . . .

فمال ميشا قليلاً الى الشمال ، وأخرج مسدسه من جيبه وفتح زناده . وتساءل فى لهجة هادئة :

— هل ستأتى أم لا ؟

فخطا كيريل ، دونما كلام ، باتجاه غرفة الضيوف . الا أن ميشا اعترض طريقه وأومأ بعينيه ناحية الباب المؤدى الى السقيفة . فهتف كيريل بلا مبالاة مفتعلة :

— يا أولاد ! يبدو انهم القوا القبض علىّ . اقضوا على الفودكا بدونى .

ففتح باب غرفة الضيوف ، وكان أخفاتكين على وشك أن

يعبر العتبة ، لكنه اذ رأى المسدس مصوباً اليه أسرع يتراجع خلف عمود باب .

وأصدر ميشا أمره لكيريل :

— هيا امش !

فخطا كيريل نحو الباب بخطوات مفتعلة المرح ووضع يده على المزلاج بحركة كسول ، وعلى حين غرّة ، قفز عبر السقيفة بخطوة واحدة وصفق الباب الخارجي بعنف ، ووثب حدر درجات العتبة . وفيما كان يعدو عبر الفناء باتجاه البستان ، محنى الهامة ، أطلق ميشا عليه النار مرتين دون أن يصيبه . فسمر ميشا قدميه بالأرض ووضع ماسورة مسدسه على مرفق ذراعه الأيسر المحنى ، وصوب المسدس على نحو متأن . وبعد الاطلاقة الثالثة ، بدا وكأن كيريل قد تعثر ، لكنه ما لبث أن استعاد زمام نفسه ووثب فى حركة ناشطة عبر السياج . فركض ميشا نازلاً درجات العتبة . وانبعث وراءه من ناحية المنزل صوت اطلاقة بندقية ، جافاً متكسراً . ومن أمامه انبعث صوت خبطة حيث اقتلعت رصاصة البندقية الطين من حائط مأوى فتطايرت منه على الأرض شظايا صخرية رمادية اللون .

ظل كيريل يعدو بسرعة . وكان هيكله المحنى يومض خلال أوراق أشجار التفاح الخضر . فقفز ميشا عبر السياج ، لكنه تعثر وسقط على الأرض . ومع ذلك أطلق رصاصتين على الهارب من موضع سقوطه ، ثم استدار ليواجه المنزل . كان الباب الخارجي مفتوحاً على مصراعيه ، وكانت والدة كيريل تقف على الدرجات تظلل عينيها براحتها وتحدّق باتجاه البستان . فحدّث ميشا نفسه فى كلال :

— كان علىّ أن أصرعه فى الحال دون حاجة للكلام معه !

ولبث مستلقيا الى جانب السياج بعض الوقت ، شاخصاً ببصره ناحية المنزل ، وبحركة الية دقيقة نظف ركبتيه من الوحل العالق بهما . ثم نهض وتسلق السياج بصعوبة ، ومضى عائداً الى المنزل وماسورة مسدسه مصوبة الى أسفل .

٥

توارى عن الأنظار ، بالاضافة الى كيريل غروموف ، أخفاتكين والقوزاقى الغريب الذى كان ميشا قد رآه فى غرفة غروموف . وفى تلك الليلة اختفى قوزاقيان آخران من القرية . ثم وصلت تتارسكى مفرزة صغيرة من «تشيكا الدون» قادمة من فيشنسكايا . فألقت القبض على قوزاق معينين وأرسلت أربعة منهم ، كانوا قد عادوا الى ذويهم من كتائبهم بدون اذن ، الى السرية التأديبية فى فيشنسكايا .

ظل كوشيفوى يقضى جميع ساعات النهار جالساً فى غرفة اللجنة الثورية ، ولا يعود الى داره الا بعد الغروب . وكان يضع على الدوام بندقيته المحشوة الى جانب سريره ، ويدس مسدسه تحت الوسادة ، ويستلقى للنوم دون أن يخلع ملابسه . وفى اليوم الثالث بعد حادثة كيريل قال لدونيا :

— لننم فى السقيفة .

فسألته دونيا مستغربة :

— ولماذا ، بالله عليك ؟

— من الجائز أن يطلقوا النار من النافذة . فالسرير قريب منها .

ومن غير أن تنبس دونيا بشىء ، نقلت موضع السرير الى

السقيفة . لكنها تساءلت فى ذلك المساء :

— حسن ، والى متى سنظل نعيش مثل أرانب مطاردة ؟ الشتاء مقبل ، فهل علينا أن نعشش فى السقيفة ؟

— لا يزال الشتاء بعيداً عنا ، ولكن علينا فى الوقت الحاضر أن نعيش على هذا النحو .

— وكم سيطول «الوقت الحاضر» هذا ؟

— الى أن أصفى الحساب مع كيريل .

— وهل تحسب أنه سيضع رأسه بين يديك ؟

فأجاب ميشا واثقاً :

— سيفعل ذلك ذات يوم .

لكنه كان على خطأ . فقد اختبأ كيريل غروموف وأصحابه فى مكان ما فى الجانب الأخر من الدون . وحينما بلغ أسماعه أن القائد الفوضوى ماخنو كان يقترب من المنطقة ، اتخذوا طريقهم عائدين الى الضفة الأخرى ومضوا الى قصبة كراسنوكوتسكايا حيث ذكرت الشائعات بأن المفارز المتقدمة من عصابة ماخنو كانت قد ظهرت فعلاً . وكان كيريل قد امضى الليلة فى تتارسكى ، وصادف أن التقى ببروخور زيكوف فى الشارع فطلب منه أن يبلغ كوشيفوى تحياته واحتراماته وأن عليه أن يتوقع قيام كيريل برد الزيارة اليه قبل مرور وقت طويل وفى الصباح التالى أخبر بروخور ميشا بأمر التقائه بكيريل وحديثه معه . فقال ميشا مغضباً :

— حسن جداً ! فليظهر كيريل ! لقد أفلت مرة ، لكنه لن يفلت ثانية . لقد علمنى كيفية معاملة أمثاله ، وأنا أشكره على ذلك .

كان ماخنو وعصابته قد بلغوا ، فى الواقع ، اقليم الدون الأعلى . واستطاع بعد معركة قصيرة أن يدمر فوجاً من المشاة كان

قد أرسل من فيشنسكايا لمجابهته . الا أنه لم يزحف ، بعد ذلك ، باتجاه مركز الاقليم ، بل ضرب فى اتجاه محطة ميليروفو ، حيث عبر السكة الحديد الى الشمال منها ، وكر عائداً باتجاه ستاروبلسك . وقد انضمت اليه أكثر عناصر «الحرس الابيض» نشاطاً من بين القوزاق ، بيد أن معظمهم بقى فى القرى فى انتظار ما ستتمخض عنه الاحداث .

كان كوشيفوى يعيش وأذنه على الأرض ، يراقب عن كثب كل ما كان يدور فى القرية . غير ان الحياة فى تتارسكى لم تكن مريحة جداً . كان القوزاق يصبون لعنتهم على الحكم السوفييتى ويحمّلونه وزر جميع الأزمات التى كانوا يعانونها . ففى الحانوت الصغير الذى كانت الجمعية التعاونية المحلية قد فتحته ، لم يكن ثمة شىء تقريبا . كان الصابون والسكر والملح والبرافين والكبريت والتبغ وشحم المحاور مفقوداً ، وكانت كل هذه المواد ذات اهمية قصوى بالنسبة لحياتهم ، ولم تحمل الرفوف الجرد سوى علب من السكاكر باهظة الثمن وبضع قطع حديدية لم تمتد يد لشرائها شهوراً عديدة .

وامسى القرويون يستخدمون الزبدة أو السمن المذاب فى صحون بدلاً من الكيروسين . واستبدل التبغ المصنع فى المعامل بتبغ مزروع محلياً . وازاء انعدام عيدان الكبريت ، عم استعمال احجار الصوان والمقادح يصنعها الحدادون كيفما اتفق . وكان الصوفان يغلى فى محلول من سيقان نبات عباد الشمس والماء لزيادة قابليته على الاشتعال ، ورغم هذا ظلت قضية الحصول على لهب مسألة صعبة . وحدث أكثر من مرة أن يرى ميشا ، وهو عائد الى المنزل من اللجنة الثورية ، قوزاقاً متحلقين فى ركن من الشارع وهم منهمكون فى محاولات عنيفة لقدح شرارة من حجر صوان بغية اشعال سكائرهم

بها ، وهم يصبون الشتائم سرا ويتهامسون :

— أيتها الحكومة السوفييتية ، اعطينا ناراً !

ويفلح أخيراً واحد منهم فى اشعال الصوفان الجاف ، فيتوهج ، ويشعل الجميع سكائرهم معا من اللهب الضئيل . ثم يجلسون القرفصاء على أعقابهم ويشرعون فى تبادل الأخبار .

ولم يكن ثمة ورق للف التبغ به . كانت جميع سجلات مكتب الأبرشية فى الكنيسة قد أخذت ، وحينما دخن القوزاق جميع أوراقها لجأوا الى استعمال كل ما كان موجوداً فى بيوتهم نفسها لصنع السكائر ، بما فى ذلك دفاتر الأطفال المدرسية ، بل امتدت أيديهم حتى الى كتب الكهول الدينية .

ظفر بروخور زيكوف ، الذى كان يواظب على زيارة فناء آل ميليخوف ، بكل ما استطاع الحصول عليه من ورق من ميخائيل ، وقال متأسياً :

— غطاء صندوق زوجتى العائلى مغطى بجرائد قديمة لصقت عليه ، فنزعتها ودخنتها . كانت لدينا نسخة من «العهد الجديد» ، وهو كتاب دينى كما تعلم . لكننى دخنته هو الآخر وقد دخنت «العهد القديم» أيضاً . ان القديسين المقدسين لم يكتبوا عددا كافيا من هذه «العهود» . كان لدى زوجتى سجل عائلى كتبت فيه أسماء جميع أقربائنا ، الأحياء منهم والاموات ودخنت هذا السجل أيضا . والآن ، ماذا . . . هل على أن أدخن أوراق الكرنب أو استعمل الأرقطيون بدلا من الورق ؟ لا يا ميخائيل ، لك ان تقول ما تشاء ، ولكن أعطنا جريدة . فلا أستطيع أن أحيا بلا تدخين . حينما كنت فى الجبهة الألمانية قايضت حصتى من الخبز أكثر من مرة لقاء قليل من التبغ .

فى ذلك الخريف ، كانت الحياة فى تتارسكى أبعد من أن

تكون حياة بهجة . كانت عجلات الشاحنات غير المشحمة ترسل صريراً حاداً فيما كانت تمضى فى الطرقات . وانقطعت العدد الجلدية والأحذية متيبسة متشققة بسبب قلة الشحم ، بيد أن أشد الازمات وحشة كانت أزمة الملح . كان أهالى تتارسكى يذهبون الى فيشنسكايا ويبيعون خروفاً سماناً لقاء خمسة أرطال من الملح ، ويعودون الى تتارسكى وهم يلعنون الحكومة السوفييتية وكان الملح اللعين يورث ميخائيل مرارة كبيرة . جاءه الى مقر السوفييت ذات يوم جمع من الشيوخ . فحيوا الرئيس برصانة ، وخلعوا قبعاتهم ثم جلسوا على المصاطب . وقال أحدهم .

— ليس ثمة ملح فى القرية ، أيها السيد الرئيس .

فعقّب ميشا بقوله مصححاً :

— ليس هناك سادة الآن .

— أرجو المعذرة ، فأنا أستعملها دائماً بحكم العادة . . . نستطيع أن نعيش بدون سادة ، لكنا لا نستطيع العيش بدون ملح .

— حسن ، ما الذى تريدونه أيها الشيوخ ؟

— أيها الرئيس ، يجب أن تفعل شيئا كى يجلب الملح الى القرية . نحن لا نستطيع نقله بواسطة الثيران طوال الطريق من مانيتش .

— ارسلت تقريراً عن الموضوع الى الاقليم . انهم على اطلاع تام بالأمر . ولا بد أنهم سيرسلون شيئاً منه عما قريب .

فقال أحد الشيوخ وهو يحدق فى الأرض :

— الى أن تشرق الشمس يكون البذر قد تعفن بالندى .

فاحتدم ميشا وقام عن المائدة ، وقلب جيوبه الى الخارج وقد ازرق وجهه غضباً وقال :

— ليس لدىّ ملح . ألا ترون ؟ أنا لا أحمله معى هنا

وهناك ، كما أننى لا أستطيع أن امصه من أصابعى مصا لأجلكم . أتفهمون ، أيها الشيوخ ؟

وبعد لحظة سكوت ، تساءل تشوماكوف الأعور وهو يجيل عينه الواحدة فيما حوله باستغراب :

— اين ولّى ، اذن ، هذا الملح ؟ فى الأيام السالفة ، تحت حكم الحكومة السابقة ، ما كان المرء يذكره حتى بالاسم . كان موجوداً فى كل مكان ، أكواماً فوق أكوام . أما الآن فأنت لا تستطيع أن تحصل على قرصة منه . . .

فقال ميشا فى لهجة أكثر هدوءا :

— ليس لحكومتنا يد فى هذه الأزمة . الحكومة الوحيدة التى يجب أن يلقى عليها اللوم هى حكومتكم السابقة ، حكومة «الكاديت» . هم الذين تسببوا فى كل هذا الخراب حتى لم يكن هناك ما ينقل الملح بواسطته . دمرت جميع خطوط السكة الحديد ، ودمرت الشاحنات كذلك .

ومضى وقتاً طويلاً يحدث الشيوخ عن كيفية قيام البيض خلال تراجعهم بتدمير ممتلكات الدولة ونسف المعامل وحرق المستودعات . كان ميشا قد شاهد بعضاً من هذه الوقائع بنفسه اثناء الحرب ، وسمع ببعضها ، أما البقية فقد اخترعها لا لشىء الا لازاحة السخط عن حكومته السوفييتية . ولغرض الدفاع عن هذه الحكومة ازاء الانتقادات الموجهة لها اخترع بضع حكايات متقنة ، وهو يحدث نفسه :

— ليس ثمة ضير كبير اذا ضخمت الأمر عن هؤلاء الحثالة البيضاء . انهم حثالة بأية حال من الأحوال ، فلن يضيرهم ذلك ، بينما سيكون فيه كسب لصالحنا .

فقال ، وعيناه تتألقان :

— أتعتقدون أن هؤلاء البورجوازيين بلا ذكاء ، أم ماذا ؟ انهم ليسوا أغبياء لقد جمعوا جميع مخزونات السكر والملح ، آلاف الأرطال منها ، من جميع أرجاء روسيا ، وهربوا بها الى القرم ، وهناك شحنوها فى مراكب وأرسلوها الى أقطار أخرى للبيع .

فتساءل تشوماكوف الأعور متشككاً :

— وهل نقلوا كل شحم محاور العربات أيضاً ؟

— أتحسب أنهم كانوا سيتركونه وراءهم لك ، أيها الجد ؟ عجباً ، أتظن أنهم بحاجة اليكم أو الى الكادحين عموما ؟ لسوف يجدون من يبيعونه حتى شحم محاور العربات . كانوا سينقلون كل شىء معهم لو استطاعوا ذلك ، كى يموت الناس هنا جوعا .

فقال أحد الشيوخ موافقاً :

— هذا صحيح بلا شك . الأغنياء جميعاً على هذه الشاكلة ، ينافحون من أجل اخر حبة قمح . كلما أصبحوا أوسع ثراء ، صاروا أشد طمعاً . لقد شهدنا ذلك جميعاً على مدى طويل من السنين . فى فيشنسكايا ، كان هناك تاجر قد كوّم كل ما يملك فى عربات نقل حينما بدأ التراجع الأول . حمل فيها جميع ممتلكاته حتى آخر بكرة من الخيوط . وكان الحمر قد اقتربوا من البلدة ، غير أنه لم يكن قد أتم استعداده لمغادرة فنائه ، بل كان يهرع هنا وهناك مرتدياً فروته ويخلع المسامير من الحيطان بكلابين . وكان يقول : — لن أترك لهم مسماراً واحداً ، عليهم اللعنة ! اذن ، والحالة هذه ، ليس مما يدعو الى الاستغراب الكبير أن يحملوا معهم الشحم أيضاً .

ثم تساءل ماكساييف العجوز فى لهجة ودود حينما قارب الحديث نهايته :

— مهما يكن من أمر ، كيف يمكن أن ندبّر أمورنا بدون ملح ؟

فقال لهم ميشا ناصحاً فى احتراس :

ـــ سيقوم عمالنا بجمع المزيد من الملح عما قريب ، وفى غضون ذلك تستطيعون ارسال العربات الى مانيتش .

ـــ الناس لا يرغبون فى الذهاب الى هناك ، فالكالميكيون يسببون لنا المتاعب . فلم يدعونا نحصل على الملح من البحيرات . كما أنهم يسلبوننا ثيراننا . لقد عاد أحد معارفى من هناك وليس لديه سوى سوطه . فذات ليلة داهمه ثلاثة كالميكيين مسلحين على خيولهم وسرقوا ثيرانه وقالوا له وهم يشيرون الى بلاعيمهم : «احرص على أن يظل فمك مغلوقاً ، والا فستكون نهايتك سيئة ، يا رجل» . تلك هي الحالة حينما يذهب المرء الى تلك الديار !

فقال تشوماكوف متنهداً :

ـــ سيتوجب علينا أن ننتظر بعض الوقت .

وهكذا أفلح ميشا فى الوصول الى نوع من الاتفاق مع الشيوخ . أما فى بيته فقد تبادل هو ودونيا كلمات محتدة حول موضوع الملح بالذات . كان ثمة بالتأكيد ما يعكر صفو علاقات ميشا وزوجته .

لقد بدا كل شىء فى ذلك اليوم المشهود حينما تحدث عن غريغورى بحضور بروخور . ولم يطوِ النسيان تلك المشادة الصغيرة . وحدث ذات مساء أن قال ميشا أثناء العشاء :

ـــ ليس فى حسائك ملح ، يا سيدة الدار . ان لم يوجد منه الكفاية على المائدة ، فسأنشر الملح على جلد ظهرك المسلوخ .

ـــ تحت هذا الحكم ، ليس محتملاً قط أن يتوفر الملح فى وقت قريب فى أيما مكان . هل تعرف كم بقى لدينا من الملح ؟

ـــ حسن ؟

ـــ حفنتان .

فقال ميشا متنهداً :

ـــ الأمور ليست على ما يرام .

فعقبت دونيا لائمة :

ـــ الآخرون ذهبوا الى مانيتش طلباً للملح فى الصيف ، أما أنت فلم يتسنَّ لك حتى أن تفكر فى الامر .

ـــ وبأية واسطة سأمضى الى هناك ؟ فى أول عام من حياتنا الزوجية لا يصح أن أجعلك حصاناً للعربة ، أما بالنسبة للثيران الحقيقية . . .

ـــ أجل نكاتك الى وقت آخر ! يوم تأكل طعاماً بلا ملح ، تستطيع أن تمزح .

ـــ لماذا تناكدينني ؟ أخبريني من أين يمكن أن أحصل على الملح ؟ يا لكنّ من رهط ، يا نسوان ! تجشأه ان شئت ، ولكن أعطنا ملحاً ! ولكن اذا لم يكن لدينا هذا الملح الملعون ثلاثاً !

ـــ الناس الآخرون ساروا بثيرانهم الى مانيتش . والآن ، لديهم ملح وكل شىء ، أما نحن فسنلوك طعاماً لا مذاق له . . .

ـــ سنجتاز الأزمة على صورة ما ، يا دونيا . لا بد أنهم سيرسلون لنا ملحاً عما قريب أليس لدينا منه سوى القليل ، حقاً ؟

ـــ لديكم الكثير من كل شىء !

ـــ من تعنين ؟

ـــ الحمر .

ـــ ومن أنت ، اذن ؟

ـــ انا كما تراني ، لقد قلتم وقلتم : «سيكون لنا الكثير من كل شىء ، وسنعيش جميعاً فى مستوى واحد ، وستكون حياتنا على ما يرام . . .» أهذه ما تسمونها حياة على ما يرام ؟ ولا شىء نملّح به حساءنا ؟

فحملق ميشا فى زوجته مذهولاً وشحب وجهه :

— علام كل هذا ، يا دونيا ؟ ما الذى تقولينه ؟ كيف تستطيعين أن تتكلمى على هذا النحو ؟

لكن الشكيمة كانت قد أفلتت من بين أسنان دونيا ، فشحب وجهها هى الأخرى غضباً وسخطاً ، ومضت تقول وقد ارتفع صوتها حتى غدا أشبه بالصياح :

— حسن ، كيف نستطيع أن نعيش على هذا النحو ؟ فيم تحملق عينيك هكذا ؟ أتعرف ، أيها الرئيس ، أن لثّات الناس بدأت تتورم من قلة الملح ؟ انهم يحفرون التراب فى البقاع السبخة ، ويذهب الناس حتى الى ربوة تتشاييف بحثاً عنه ، وهم يضعون هذا التراب فى حسائهم . . . هل سمعت بذلك ؟

— مهلاً ، مهلاً ، لا تصرخى هكذا . . . عظيم ، وماذا بعد ؟

فضربت دونيا كفاً بكف :

— وماذا تريد غير ذلك ؟

— ولكن ، يجب علينا أن نتحمل ذلك بطريقة من الطرق ، أليس كذلك ؟

— حسن ، تحمّله أنت !

— سأتحمله ، أما أنت . . . ان طبعك الميليخوفى كله بدأ يظهر الآن .

— أى طبع ؟

فقال ميشا فى صوت غليظ وهو يقوم عن المائدة :

— طبعكم المناهض للثورة ، هو ذا !

ولبث يحدق بالأرض دون أن يرفع عينيه الى زوجته . وحينما تكلم كانت شفتاه ترتعشان :

— ان تكلمت على هذا النحو ثانية ، فلن نعيش ، أنا وأنت ، تحت سقف واحد ، أفهمى هذا ! ان كلامك كلام عدو . . .

وكانت دونيا على وشك أن ترد عليه ، غير أنه ضيّق عينيه باتجاهها ورفع قبضته ، وقال بصوت متحشرج :

— اخرسي !

فنظرت دونيا اليه غير هيابة ، وفى تطلع جلى . وما لبثت ، بعد لحظة ، أن قالت فى هدوء ولهجة مرحة :

— عال ، الشيطان يدرى كم هو لطيف التحدث حول هذا الموضوع . . . سنتدبر أمورنا بلا ملح !

وسكتت ثانية ، ثم أضافت بتلك الابتسامة الهادئة التى كان ميشا يهواها كثيراً :

— لا تغضب ، يا ميشا ! ان كنت ستغضب منا ، نحن معشر النساء ، على كل شىء ، فلن يتخلى عنك الغضب . ما الذى تتوقعه ، غير هذا ، من رأس بليد كرأسى ؟ أترغب فى شىء من الفاكهة المغلية أم تريد أن أصب لك شيئا من اللبن الحامض ؟

فعلى الرغم من حداثة سنها ، كانت دونيا غنية بالحكمة والتعقل فى معالجة أمور الدنيا ، وكانت تعرف متى تكون عنوداً فى الجدال ومتى يلزم أن تسكت وتتراجع .

بعد ذلك بأسبوعين ، جاءت رسالة من غريغورى ، يقول فيها بأنه قد جرح فى جبهة فرانجل وأن من الجائز أن يتم تسريحه بعد شفائه . فأخبرت دونيا ميشا بمحتويات الرسالة ، ثم سألته باحتراس :

— ميشا ، حينما يعود غريغورى ، كيف سندبر أمرنا ؟

— سننتقل نحن الى كوخى . ويستطيع هو أن يعيش هنا

وحده . وستقاسم الممتلكات .

— نحن بالتأكيد لن نستطيع العيش سوية . فجميع الدلائل تشير الى أنه سيأتى بأكسينيا لتعيش هنا .

فقال ميشا فى لهجة حادة :

— حتى لو كان ذلك ممكناً ، فاننى لن أعيش تحت سقف واحد مع أخيك .

فرفعت دونيا حاجبيها مستغربة :

— ولم لا ، يا ميشا ؟

— أنت تعرفين حق المعرفة لماذا ؟

— أتعنى لأنه حارب الى جانب البيض ؟

— نعم ، بالضبط !

— ما أشد بغضك له ! هذا ، وقد كنتما صديقين ذات يوم .

— ما الذى يدفعنى الى حبه ، بحق الشيطان ؟ كنا صديقين حقاً ، بيد أن صداقتنا انتهت منذ أمد بعيد .

كانت دونيا جالسة أمام المغزل . وكان المغزل يرسل أنيناً منتظماً ، وفجأة انقطع الخيط ، فأوقفت دونيا العجلة براحة يدها ، وفيما كانت تبرم طرفى الخيط تساءلت دون أن ترفع بصرها الى زوجها :

— حينما يعود ، ما الذى سيحدث بشأن خدمته السابقة مع القوزاق ؟

— سيحاكم . . . أمام محكمة عرفية !

— ولكن ، ماذا يمكن أن يكون الحكم عليه ؟

— حسن ، ما أنا الذى يعرف ذلك . فما أنا بالقاضى .

— أمن الجائز أن يعدم ؟

فشخص ميشا ببصره ناحية السرير الذى كان ميشاتكا وبوليوشكا نائمين عليه ، وأصغى الى أنفاسهما المنتظمة ، ثم أجاب مخفضاً صوته :

— ذلك جائز .

ولم تسأل دونيا أية أسئلة أخرى . وفى الصباح التالى ، ذهبت بعد حلب البقرة لترى أكسينيا :

قالت لها :

— سيعود غريشا ، ولهذا جئت لأبشرك بالخبر .

فوضعت أكسينيا قدراً معدنياً من الماء على الفحم وشدت بيديها الى صدرها . فنظرت دونيا الى وجهها الملتهب وقالت :

— ولكن ، لا تبتهجى أكثر مما ينبغى ! زوجى يقول انه لن يفلت من المحاكمة . لا يدرى الا الله ماذا سيكون الحكم عليه .

فبان الفزع ، لحظة ، فى عينى أكسينيا النديتين المتوهجتين . ثم سألت فى صوت مهزوز ، وهى لا تزال غير قادرة على محو الابتسامة المتخلفة من شفتيها :

— عن أى شىء ؟

— عن الانتفاضة . . . عن كل شىء .

— هراء ! لن يحاكموه . ان ميخائيلك لا يفهم شيئاً . يا له من علامة فاخر !

— ربما لن يحاكموه .

وخلدت دونيا الى الصمت لحظة ، ثم أضافت وهى تكبح حسرة جاشت فى صدرها :

— انه شديد الضراوة مع أخى . وكم يثقل ذلك على قلبى ، حتى أننى لا أستطيع أن أصور لك ثقل الوطأة علىّ ! اننى حزينة كل الحزن على غريغورى . لقد جرح ثانية ، تلك حياته المتزعزعة .

فقالت أكسينيا منفعلة :

— لا عليك ما دام سيعود ! سنأخذ الطفلين ونختفى فى مكان ما .

ولسبب ما ، أزاحت عصابتها ، ثم وضعتها ثانية ، وجعلت تنقل القدور على المصطبة بلا غاية ، دون أن تستطيع السيطرة على زمام الانفعال الشديد الذى تملكها . ولاحظت دونيا كيف كانت يداها ترتعشان فيما اقتعدت المصطبة وشرعت تمسد طيات وزرتها القديمة الخلقة على ركبتيها .

فصعد شىء ما الى بلعوم دونيا . وأحست برغبة فى الهروب الى موضع ما كى تبكى وحدها .

ثم قالت فى هدوء :

— لم تعش أمى لتراه يعود . . . حسن ، أنا ذاهبة . علىَّ أن أشعل الموقد .

وفى الممر طبعت أكسينيا قبلة سريعة مضطربة على رقبة دونيا ، ثم تناولت يدها بسرعة وقبلتها فسألتها دونيا فى صوت خفيض مهزوز :

— أتشعرين بالسعادة ؟

فأجابت أكسينيا ، محاولة أن تتمازح كى تخفى دموعها وراء ابتسامة مختلجة :

— أجل ، قليلاً ، قليلاً جداً فقط .

٦

فى محطة ميليروفو ، أعطى غريغورى ، باعتباره آمراً أحمر مسرحاً ، عربة وحصانين . وفى كل مضرب من المضـــارب الأوكرانية التى مرّ بها فى طريق عودته الى القرية ، كان يستبدل

الحصانين بآخرين الى أن بلغ مشارف اقليم الدون الأعلى فى اليوم نفسه . بيد أنه ، وفى أول قرية قوزاقية دخلها ، تلقى هذا الرد من رئيس اللجنة الثورية ، وكان رجلاً شاباً لم يرجع من صفوف الجيش الأحمر الا مؤخراً :

— سيتعين عليك استعمال الثيران ، أيها الرفيق الآمر . فليس لدينا فى القرية كلها سوى حصان واحد ، وهو يقزل على ثلاث قوائم . فقد خلّفوا جميع الخيل فى الكوبان خلال التراجع .

فتساءل غريغورى وهو ينقر أصابعه على المنضدة وينظر مستفهماً فى عينى الرئيس المرحتين :

— ربما أستطيع أن أتدبّر الأمر مع هذا الحصان الأوحد ؟

— لن تصل الى غايتك أبداً . ستظل تسوق عربتك أسبوعاً دون أن تصل الى هناك ! ولكن لا تخف ، فلدينا ثيران جيدة ذات خطى واسعة ، وعلينا أن نرسل عربة الى فيشنسكايا بأية حال لنقل أسلاك هاتفية من مخلفات الحرب . فلن يلزمك أن تغير عربتك ، بل ستضعك عربتنا على عتبة دارك تماماً .

وضيّق الرئيس عينه اليسرى وأضاف وهو يبتسم ويغمز فى خبث :

— سنعطيك أفضل ثيراننا وأرملة شابة لتقود العربة . فلدينا واحدة هنا حامية الى درجة لن تستطيع أن تحلم بأحمى منها ! ففى صحبتها ، ستصل قريتك قبل أن تدرك ذلك . لقد كنت أنا نفسى فى الجيش ، وأنا عليم بجميع ما يحتاج اليه الجندى . . .

فقلّب غريغورى الأمر فى فكره ، وقرر أن انتظاره لعربة ماضية فى طريقه سيكون شيئاً غير معقول ، كما أن المسافة كانت أطول من أن يستطيع قطعها مشياً على الأقدام . فاضطر الى الموافقة وقبول الثورين .

جاءت العربة بعد ساعة من الزمن . كانت عربة عتيقة ، وكانت عجلاتها ترسل صريراً فظيعاً ، واطارها الخلفى محطماً مثلماً ، والقش المحمل عليها فى غير اعتناء مدلى من جوانبها حزماً . فحدث غريغورى نفسه وهو ينظر الى العربة البائسة :

— هى ذى الحرب ، حربك !

وكانت السائقة تسير الى جانب الثورين ملوحة بسوطها . وكانت ، بلا ريب ، امرأة جميلة الوجه ، متينة القوام . على أن ثدييها الكبيرين ، غير المتناسقين مع طول قامتها ، كانا يشوهان شكل جسمها ، فى حين كان أثر جرح ماثل على ذقنها المكور يضفى على وجهها الأسمر النحاسى سيماء الصلابة وكبر السن ، وكان ثمة حول جسر أنفها نمش ذهبى اللون رقيق مثل حب الدخن .

وفيما كانت تسوى عصابة رأسها ، ضيقت عينيها وأجالت بصرها فى غريغورى وتساءلت :

— هل أنت من سيتوجّب علىّ نقله ؟

فنهض غريغورى من على الدرجة وألقى بمعطفه الثقيل على كتفيه ، وقال :

— أجل . هل وضعت الأسلاك فى العربة ؟

— ماذا تحسبنى ؟ يريدوننى فى كل يوم أن أسوق العربة الى مكان ما وأن أقوم بالعمل عنهم ! أهذه هى مهمتى عندهم ؟ فليضعوا الأسلاك فى العربة بأنفسهم ، واذا لم يفعلوا سأمضى بالعربة فارغة .

ومع ذلك ، جرّت بكرات الأسلاك ووضعتها فى العربة وهى تتبادل الشتائم مع رئيس اللجنة الثورية ، فى ضجيج ولكن فى بشاشة أيضاً ، وتشخص الى غريغورى بعينين متفحصتين من حين لآخر . وكان الرئيس يضحك وينظر الى الأرملة الشابة فى اعجاب

جلى ، ويغمز بين الفينة والفينة لغريغورى وكأنه يقول :

— هوذا صنف النساء الذى لدينا ! ألم أخبرك ؟ !

خارج القرية ، كان السهب الخريفى الذاوى يمتدّ ، بنى اللون ، نحو الأبعاد . وكان شريط من الدخان رمادى بلون الحمام ، ينسل من الأراضى المحروثة عبر الطريق . كان الحارثون يحرقون الأدغال : قريض القنب ، يابساً ، شائكاً ، وأعشاب المروج الذابلة . فأيقظت رائحة الدخان ذكريات حزينة فى نفس غريغورى . لقد قام هو أيضاً ذات مرة بحراثة الأراضى فى السهب الخريفى المتوحد ، والتطلع الى النجوم المتلألئة فى متاهات السماء المعتمة ، والاصغاء الى نداءات أسراب الاوز الطائرة فى السماء . فتقلّب متململاً على القش ، ونظر الى سائقته :

— كم عمرك ، أيتها المرأة الطيبة ؟

فردت ، متعابثة ، وهى تبتسم فى عينيها فقط :

— قرابة الستين !

— لا . بدون مزاح .

— عشرون .

— وأرملة ؟

— نعم .

— ماذا حدث لزوجك اذن ؟

— قتل .

— مؤخراً ؟

— منذ سنتين .

— خلال الانتفاضة ، اذن ؟

— بعدها ، فى الخريف .

— وكيف تدبرين أمرك ؟

— أوه ، أدبره على نحو ما .

— أتجدين حياتك موحشة ؟

فحدقت نظرها فيه ثم غطت شفتيها بعصابة رأسها لتخفى ابتسامتها . وحينما أجابت بدا صوتها أكثر غلظة وقد شابته نغمة جديدة :

— لا مجال للشعور بالوحشة حينما تكون مشغولاً .

— ولكن ، ألا تشعرين بالوحشة بلا زوج ؟

— انا أعيش مع حماتى ، ولدينا الكثير مما يشغلنا فى الحقل .

— ولكن ، كيف تدبرين أمرك بدون زوج ؟

فأدارت وجهها ناحية غريغورى ، وقد تضرج خداها الأسمران بحمرة خفيفة ، وتألقت شرارات وردية صغيرة فى عينيها ، ثم خبت :

— ما الذى تعنيه ؟

— ما قلته ، فحسب .

فأماطت عصابة الرأس عن شفتيها وقالت مثغثغة :

— حسن ، ان هناك الكفاية من هذه البركات فى هذه الحياة ! هناك الكثير من الناس الكرماء فى هذه الدنيا !

واستأنفت كلامها بعد فترة صمت :

— لم يتسنّ لى أن أذوق طعم مسرات الحياة الزوجية مع زوجى . عشنا شهراً واحداً معاً فقط ثم أخذوه الى الجيش . انا أستطيع أن أدبر أمرى بدونه على نحو ما . الأمر أيسر الآن بعد أن عاد القوزاق الشباب الى القرية ، أما قبل ذلك فكانت الأحوال عسيرة ! هيا ، تحرك ، يا أصلع الرأس ! ديخ ، ها — ها — ها — ها — ديخ ! والآن ، قد عرفت أيها الجندى ! هى ذى حياتى !

توقف غريغورى عن الحديث . لم تكن به رغبة لمواصلة الحوار على هذه النغمة المتماجنة . وخامره احساس بالندم لشروعه به أساساً .

مضى الثوران الكبيران المربّبان يخبطان الأرض بذات المشية المنتظمة القازلة . وكان قرن أحدهما المكسور قد نما الى أسفل ، قاطعاً وجهه باتجاه مائل . أما غريغورى فقد تمدد فى العربة متكئاً على مرفقه ، نصف مغمض العينين . وشرع يستعيد صورة الثيران التى كدح معها فى طفولته ، ثم فى شبابه . كانت ، جميعها ، متباينة فى اللون والبنية والطباع ، ولقد كانت لكل منها سماتها المميزة حتى فى قرونها . وكان لديهم ذات يوم ثور ذو قرن متعرج كهذا تماماً . كان ثوراً سيىء الطبع ، خبيثاً ، لا ينفك ينظر من طرفى عينيه ، مدوراً بياضهما المصطبغين بالدم . وكان يحاول أن يرفس اذا ما تقدم منه امرؤ من الخلف ، وحينما تطلق الحيوانات للرعى أثناء الليل ، كان يتخذ طريقه عائداً الى الدار ، أو الأنكى أن يختبىء فى الغابة أو فى الوهاد النائية . وكم قضى غريغورى نهاراً كاملاً يطوى السهب على صهوة حصانه بحثاً عن الثور المفقود ، وحين يوشك أن يفقد الأمل فى العثور عليه يجده ، فجأة ، مختبئاً فى قعر أخدود أو داخل أجمة منيعة من الشوك أو تحت ظل شجرة تفاح برى عتيقة . كان ذلك الشيطان ذو القرن المتعرج يستطيع أن يفلت رأسه من حبل الثيران ، واعتاد فى الليل أن يرفع عارضة البوابة المؤدية الى حظيرة الماشية ، ومنها يعبر الدون سباحة فاذا ما بلغ الضفة الأخرى انطلق يجوب أرض المروج . أجل ، لقد أورث ذلك الثور غريغورى الكثير من المتاعب فى زمانه .

سأل غريغورى المرأة :

— كيف طباع ذلك الثور ذى القرن المتعرج ؟ هادئة ؟

— هادئة ، ولماذا تسأل ؟

— مجرد سؤال .

فقالت المرأة مبتسمة :

— ان كلمة «مجرد سؤال» كلمة جيدة حينما لا يكون هناك موضوع للحديث !

وعاد غريغورى الى صمته . كان يلذ له أن يجول بفكره فى أرجاء الماضى . فى أيام السلم تلك ، فى العمل ، فى كل ما ليس له علاقة بالحرب . لقد أتعبته سنوات الحرب السبع بما يعز على الوصف ، وغدا يحس بدوار فظيع ونفور مطبق لدى مجرد تذكرها ، أو تذكر حادثة تمت بصلة لأيام خدمته العسكرية .

لقد طلّق القتال . . . نال كفايته منه . وها هوذا الآن عائد الى بيته كيما ينكبّ ، أخيراً ، على عمله ويعيش مع طفليه ، ومع أكسينيا . وكان قد عقد العزم ، حتى مذ كان لا يزال فى الجبهة ، على أن يضمّ أكسينيا اليه ، كى تقوم على تربية طفليه ولكى تكون بجانبه على الدوام . فتلك القصة ، هى الأخرى ، يجب أن يضع لها حداً ، وكلما تمّ ذلك بصورة أسرع كان المآل أفضل .

وتصور ، فى حلم يقظته ذاك ، كيف أنه حينما يبلغ داره سيخلع عنه قمصلته وجزمته ، ويحتذى صندله الواسع ، ويدس بنطلونه فى جواربه الصوفية البيضاء — على الطريقة القوزاقية — ثم يلقى معطفه المنسوج فى المنزل على سترته الدافئة وينطلق الى الحقول . ولكم سيشعر بالسعادة حينما سيضع يديه على مقبضى المحراث ويسير على الشق الندى حذو المحراث ، ومنخراه يعبّان ، فى نهم ، الفواح الطرى الرطب المنبعث من التربة المحروثة ، والرائحة المرة التى يرسلها العشب المقطوع برأس المحراث . لقد

كان حتى للتربة والأعشاب فى البلدان الأخرى رائحة مغايرة . وفى بولونيا ، فى أوكرانيا وفى القرم ، تناول — أكثر من مرة — ساق شيح رمادياً وسحقه بين راحتيه ، وتشممه ، ثم حدث نفسه التائقة :

— لا ، انه لا يشبه شيحنا ، انه مختلف . . .

غير أن سائقته كانت تجد الدنيا مملة . كانت تريد أن تتحدث . فتوقفت عن استحثاث الثورين ، واتخذت لها جلسة مريحة ، وشرعت وهى تعبث بشرابة سوطها الجلدية تسترق نظرات متفحصة نحو غريغورى وسيماء التفكير البادية على وجهه وعينيه نصف المغمضتين :

— انه ليس طاعناً فى السن ، رغم أنه شائب الشعر . وهو شخصية غريبة الأطوار ، نوعاً ما ! يضيّق عينيه طوال الوقت . فلماذا يفعل ذلك ؟ ليحسب المرء أنه فى منتهى الارهاق ، أو يحسب أن شخصاً كان يستخدمه حصاناً يجر عربة . . . يبدو وكأنه قد عانى كارثة ما فى زمانه . لكنه ، والحق يقال ، لا بأس بوسامته . اللهم الا كثرة الشيب فى شعره ، كما أن شاربه قد شاب أو كاد ، أيضاً . وفيما عدا ذلك ، لا بأس به . علام يستغرقه كل هذا التفكير ؟ فى البداية ، بدا أنه سيكون لطيف المعشر ، ثم أقفل فاه ، وبعدها سأل عن الثور ، لسبب ما . ألا يعرف بما يتحدث ؟ أم لعله خجول . لكنه لا يبدو خجولاً . ان له عينين قويتين . كلا ، انه قوزاقى جيد ، سوى أنه غريب الأطوار على نحو ما . حسن اذن ، لا تفتح فمك ، أيها الشيطان الأحدب ! وكأنما انا بحاجة اليك كثيراً ! أنا ، الأخرى ، أستطيع أن اصمت . انه متلهف للوصول الى داره ، الى زوجته ! حسن ، اصمت قدر ما تشاء !

ومالت بظهرها ، فى استرخاء ، على حاجز العربة وشرعت

تتمتم بأغنية . فرفع غريغورى رأسه ورنا الى الشمس : كان النهار لا يزال فتياً . فعلى جانب الطريق كانت تقف فى اكتئاب ، كالحرس ، نباتات العوسج المتخلفة من السنة الماضية وهى تلقى ظلا يبلغ نصف خطوة طولاً ، فلا بد أن الوقت لم يتجاوز الساعة الثانية بعد الظهر .

كان السهب مغلفاً بسكون شامل ، وكأن سحراً قد مسّه . وكانت الشمس لا تشيع من الدفء الا قليلاً ، وثمة نسيم خفيف يحرك الأعشاب الذاوية التى أمسى لونها أسمر مائلا للاحمرار ، دون أن تندّ عنها خشخشة أو حفيف . ولم يسمع نداء من طير أو صفير من سولق . ولا كانت ثمة حدآت أو نسور تحلق فى السماء الباردة الزرقاء الشاحبة . ولم يحدث الا مرة أن مرق ظل رمادى عبر الطريق ، وقبل أن يرفع غريغورى رأسه ، سمع صوت الخفقان الثقيل لجناحين كبيرين فيما كان حبارى رمادى اللون يعبر طائراً ، ثم يحط بازاء ربوة بعيدة حيث كانت ثمة وهدة ممتدة فى الفيء المشوب بالعتمة الليلكية التى يسببها بعد المسافة .

لم يكن غريغورى قد عرف مثل هذا السكون العميق الأسيان يغلّف السهب الا فى أواخر الخريف ، حينما كان يبدو له أنه يستمع الى الدغل المتطاير مع الريح يرسل خشخشة فوق الأعشاب اليابسة ، ويروح يقطع أرجاء السهب نحو البعيد البعيد .

بدا أن الطريق لم يكن له آخر . كان يتعرج صاعداً ربوة ، ثم ينحدر داخل أخدود ، ويعود يتسلق نحو قمة هضبة . كان ثابتاً لا يتغير ، لا حدود له على مدّ البصر ، ومرامى السهب المقفرة مترامية فى كل جانب .

سرّت عينا غريغورى لمرأى شجرة غَرَب نامية على منحدر الأخدود . وكانت أوراقها ، وقد أماتتها بواكير الصقيع ، تتألق بلون

أرجوانى فى لون الشفق ، وكأنها قد رُشّت بجذوات من نار مضرب متلاشية .

سألته سائقته وهى تلمس كتفه بسوطها لمساً رقيقاً :

— ما اسمك ، يا رجل ؟

فجفل ، وأدار وجهه ناحيتها . فأشاحت عنه وجهها :

— غريغورى وما اسمك أنت ؟

— سمّنى ما شئت .

— يجب عليك أن تصمتى ، يا «ما شئت» !

— سئمت من الصمت . ها قد قضيت نصف نهار صامتة ، وقد جف حلقى . ما سبب حزنك يا عم غريشا ؟

— حسن ، ولماذا يجدر بى أن أكون مرحاً ؟

— أنت ذاهب الى أهلك ، فيجب عليك أن تكون مرحاً .

— أيام مراحى انقضت .

— استمر ! ستقول انك طاعن فى السن ، أليس كذلك ؟ ولكن ، قل لى ، ما الذى شيب شعرك وأنت فى شبابك ؟

— تريدين أن تعرفى كل شىء . . . الحياة الرضية شيبتنى كما يبدو .

— هل أنت متزوج يا عم غريشا ؟

— نعم ، وأنت ايضا يجب ان تتزوجى بأسرع وقت .

— لماذا ؟

— حسن ، لأنك لعوب كثيراً . . .

— وهل هذا فظيع جداً ؟

— ربما ، كنت أعرف امرأة لعوباً مثلك ذات مرة ، وكانت أرملة أيضاً . ظلت تلعب وتلعب ، ثم ما لبث أنفها أن شرع ينخلع !

فهتفت المرأة فى ذعر مصطنع :

— يا آلهى ، ما أفظع ذلك !

وما لبثت أن أضافت بلهجة عملية :

— ان حياة الأرملة على هذا النحو . اذا كنت خائفاً من الذئب ، فلا تذهب الى الغابة !

فألقى غريغورى نظرة عليها . كانت تضحك بلا صوت ، وأسنانها البيض اللطيفة مشدودة الى بعضها . واختلجت شفتها العليا العبوس ، وتلامعت عيناها فى خبث من تحت أهدابها المسبلة . فلم يستطع غريغورى الا أن يضحك ، ووضع يده على ركبتها المكورة الدافئة . وقال فى اشفاق :

— يا للطفلة المسكينة ! انت فى العشرين ، بينما الحياة عبثت بك .

وفى لمح البصر ، لم يبق أثر لمرحها . فدفعت يده عنها بخشونة ، وانعقد حاجباها واحمر وجهها حتى اختفى النمش الصغير من على جسر أنفها :

— أشفق على زوجتك حينما تصل الى بيتك ! لدى ما يكفينى من المشفقين ويزيد ، حتى بدونك !

— لا تغتاظى ! مهلاً مهلاً !

— أوه ، اذهب الى الشيطان !

— قلت ما قلت لأننى كنت حزيناً ، بالفعل ، لأجلك .

— تستطيع أن تدخل حزنك فى . . .

وجاءت الشتيمة البذيئة ، التى لا يستعملها الا الرجال ، سهلة مطواعة على شفتيها ، وقدحت عيناها شرراً أسود .

فرفع غريغورى حاجبيه وحمحم متلعثماً :

— عال ! انت حاذقة فى السباب ، لا نكران لذلك !

يا لك من مخلوق متوحش !

— وما أنت ؟ لست سوى قديس فى معطف قذر ، هوذا أنت ! أنا أعرفك ! متزوج ، والى آخر ذلك كله ! ولكن ، كم مضى عليك وأنت متسربل مسوح القديسين ؟

فأجاب غريغورى ضاحكاً :

— ليس بالزمن الطويل جدًا .

— فعلام تطبق القوانين علىّ اذن ؟ لدى حماتى التى تقوم بهذه المهمة .

فقال غريغورى فى لهجة مراضاة :

— كفى ، كفى ! لماذا كل هذا الغضب ، يا حمقاء النساء ! كل ما فى الأمر أننى نطقت ذلك على تلك الصورة . والان ، انظرى ! فيما كنا منهمكين بالحديث ، حاد الثوران عن الطريق .

واتخذ غريغورى لنفسه جلسة أكثر راحة ، وألقى نظرة خاطفة على الأرملة الطروب فألقى دموعاً فى عينيها . فقال فى سريرته وشعور بعدم الارتياح والغيظ يخامره :

— اوه ، كأن المشاكل لم تكفنى ! هؤلاء النسوة على هذه الشاكلة دائماً . . .

وسرعان ما أغفى ، مضطجعاً على ظهره ومغطياً وجهه بطرف معطفه الثقيل ، ولم يستيقظ الا بعد غروب الشمس .

وكانت نجوم المساء ترسل أشعة باهتة فى السماء . وبلغت منخريه رائحة تبن طرية مبهجة :

قالت سائقته :

— يجب اطعام الثورين .

— حسن ، فلنتوقف .

وتولى غريغورى بنفسه رفع العدة عن الثورين ، ثم أخرج من حقيبة ميدانه علبة من اللحم مقدد وخبزاً . وجمع حزمة من النجيل اليابس وأشعل به ناراً على مسافة ليست بعيدة عن العربة ثم قال للمرأة :

— حسن ، فاجلسى وتناولى بعض العشاء . لقد طال غضبك .

فجلست بجانب النار ومن غير أن تنبس بشىء نفضت من خرجها خبزاً وقطعة من شحم الخنزير قتم لونها لقدمها . وخلال العشاء تبادلا حديثاً قصيراً هادئاً . ثم ارتقت العربة استعداداً للنوم ، فيما ألقى غريغورى عدة كتل من جل الثيران اليابس على النار لادامتها ، وتمدد بجانبها على نحو ما يفعل الجنود . ولبث بعض الوقت يحدق فى السماء المتلألئة بالنجوم ، وقد أراح رأسه على حقيبة الميدان ، وهو يفكر ، تفكيراً غير موصول ، بطفليه وأكسينيا ، ثم أغفى وبعد مضى بعض الوقت ، أيقظه صوت امرأة متهيب :

— هل أنت نائم ، أيها الجندى ؟ هل أنت نائم أم لا ؟

فرفع رأسه . كانت رفيقته تتكئ على مرفقيها وقد تدلى نصف بدنها خارج العربة . وكانت سيماء وجهها شهية ومصطبغة باللون الوردى من أثر الشعاع القلق المنبعث من النار الخامدة من أسفل . وكانت أسنانها والأطراف المطرزة لعصابة رأسها تتألق بشدة خلل العتمة . وابتسمت ثانية ، فكأنه لم يكن ثمة ما يقال بينهما ، وقالت وهى تحرك حاجبيها :

— أخشى أن تتجمد فى مكانك هناك . فالأرض باردة . اذا كنت تشعر بشدة البرد ، فاصعد معى ، ان فروتى دافئة على الدوام . ألن تصعد ؟

فقلب غريغورى الأمر فى ذهنه بعض الوقت ، ثم أجاب متنهداً :

— شكرا ، يا فتاة . لكننى لا أرغب . لو حدث هذا قبل عام أو عامين . . . لا أظن أننى سأتجمد وأنا بجانب النار .

فتنهدت هى أيضاً وقالت :

— حسن ، كما تشاء .

وسحبت فروتها فوق رأسها .

بعد ذلك بقليل ، قام غريغورى على قدميه وجمع حوائجه . فقد عقد العزم على مواصلة الرحلة سيراً على قدميه لكى يبلغ تتارسكى مع الفجر . لقد كان من غير المعقول أن يدخل قريته — وهو الآمر العائد من الخدمة — على عربة ثيران فى وضح النهار . فان عودة كهذه كانت ستحدث موجة من التندر والتقول .

أيقظ المرأة وقال لها :

— ساواصل الرحلة على قدمى . هل تخشين البقاء وحيدة فى السهب ؟

— كلا . انا لست من الصنف الضعيف الأعصاب ، كما أن ثمة قرية ليست ببعيدة من هنا . ولكن ، ما خطبك ؟ هل نفد صبرك ؟

— لقد أصبت . حسن ، الى اللقاء . لا تأخذى فكرة سيئة عنى !

واستدار ناحية الطريق ورفع ياقة معطفه الثقيل . وسقطت ندفة من بواكير الثلج المألوفة المنعشة .

• • •

كان كوشيفوى قد ذهب الى فيشنسكايا ، ثم عاد فى المساء فرأته دونيا من خلال الشباك ، يسوق العربة حتى بلغ البوابة ، فأسرعت تضع شالاً على كتفيها ، وخرجت الى الفناء .

وقالت لزوجها عند البوابة الصغيرة ، وهى ترنو اليه فى قلق وترقب :

— عاد غريشا هذا الصباح .

فأجاب ميشا ، فى لهجة متحفظة مشوبة بتهكم :

— هنيئاً لك .

ومضى الى المطبخ مزموم الشفتين . واختلجت عضلات وجهه تحت وجنتيه . كانت بوليوشكا قد ارتقت ركبة غريغورى وهى فى معطفها النظيف الذى ألبستها اياه عمتها . فأنزل غريغورى الطفلة الى الأرض على مهل ومضى ليلاقى نسيبه ، مبتسما ومادا يده الكبيرة السمراء . وكان على وشك أن يعانق ميخائيل ، بيد أنه لاحظ السيماء الباردة غير الودود فى عينيه غير الباسمتين ، فأحجم عن ذلك .

— حسن ، تحيات ، يا ميشا !

— تحيات .

— مضى وقت طويل منذ أن تلاقينا آخر مرة . ويبدو كأنه قرن من الزمان .

— أجل ، وقت طويل . . . مرحباً بعودتك .

— شكراً . اذن ، فنحن أنسباء الآن ؟

— يبدو أن الأمر كذلك . . . ما هذا الدم الذى على خدك ؟

— لا شىء . جرحت وجهى بالموسى فى غمرة عجلتى .

وجلسا الى المائدة . وجعل كل منهما يتفحص الآخر فى

صمت ، وكلاهما يهجس شعوراً بالضيق والتباعد . كان لا بد لهما من تبادل حديث جاد معاً ، الا أن ذلك كان مستحيلاً فى تلك اللحظة . كان لميخائيل من ضبط النفس ما جعله يواصل فى هدوء حديثاً عن الحقل والتغييرات التى كانت قد طرأت .

بعد ذلك بوقت قصير خرج ميخائيل . وفى الممر شحذ سكينه فى اعتناء على حجر مسن وقال لدونيا :

— انا ذاهب للبحث عمن ينحر لنا خروفاً . فلا بد أن يقابل رب الدار بالاستقبال اللائق . أسرعى واحصلى على شىء من الفودكا . لا ، انتظرى ! اذهبى الى بروخور وقولى له ان عليه أن يحصل على الفودكا من أيما مكان ، ولو من تحت الارض . انه يستطيع ذلك أفضل منك . وادعيه للعشاء أيضا .

فتوهجت عينا دونيا فرحاً وألقت على زوجها نظرة امتنان صامت . وقالت لنفسها فيما كانت تتخذ طريقها صوب كوخ بروخور :

— لعل الأمور ستتخذ اتجاهاً خيراً . . . لقد انتهينا من القتال ، فعلى أى شىء آخر سيتعاركان ؟ عسى الله أن يهديهما !

وفى أقل من نصف ساعة ، جاء بروخور راكضاً ، مبهور النفس . فهتف بصوت عال ، مشوب بالدموع :

— غريغورى بانتلاييفتش ! يا ولدى العجوز . . . حسبت أننى لن أراك ثانية أبداً !

وتعثر بعتبة الباب حتى كاد أن يحطم جرة الفودكا الكبيرة التى كان يحملها .

وعانق غريغورى ، وهو ينشج ويمسح عينيه بقبضته ويمسد شاربه المبلل بالدموع . فاختلج شىء ما فى بلعوم غريغورى ، لكنه كبح جماح عواطفه . فربّت على ظهر مراسله الوفى بضربات عنيفة ،

وقد انفعل أيما انفعال ، وقال له فى غير ترابط :

— حسن ، اذا ، فقد التقينا من جديد . . . حسن ، وانني لسعيد يا بروخور ، سعيد جداً ! علام تبكى ، أيها الولد العجوز ؟ لم تعد تقوى على ضبط سَلحك ؟ براغيك مرتخية ؟ كيف هى ذراعك ؟ اذا فان زوجتك لم تخلع الثانية بعد ؟

فتمخط بروخور بعنف ونضا عنه فروته . وقال فى مرحه المعتاد ، وهو يلوح بكم قميصه الخالى :

— أنا والعجوز نعيش هذه الأيام مثل زوج من الحمام . وكما قلت أنت ، فان ذراعى الأخرى سليمة ، وهذه التى بترها البولونيون البيض بدأت تنمو من جديد ، أى والله ! ولن تمر سنة حتى ترى أصابع عليها !

كانت الحرب قد علمتهما كيف يخفيان مشاعرهما الحقيقية وراء ابتسامة ، كيف يرشّان مقداراً كبيراً من الملح على الخبز والكلام معاً ، وهكذا مضى غريغورى ، فى استفساراته بذات النغم الهازل :

— كيف تقضى حياتك ، أيها الماعز العجوز ؟ كيف نشاطك هذه الأيام ؟

— مثل رجل عجوز ، فى التأنى والسلامة !

— ألم تصب بشىء آخر مذ تركتنى ، ها ؟

— ماذا تعنى ؟

— عجباً ، الشىء الذى كنت تتباهى به فى الشتـــاء الماضى . . .

— بانتلاييفتش ! معاذ الله ! ما فائدة مثل هذا الترف الآن ؟ أضف الى ذلك ، كيف كان سيتسنى لى أن أتبختر وأنا بذراع واحدة ؟ ان ذلك من شأنك . انها شغلة رجل شاب . . . لقد مضى وقت طويل منذ أن أعطيت مدادى لزوجتى لتدهن به

مقالى المطبخ .

ولبثا يرنوان الى بعضهما ، رفيقا الخنادق القديمان هذان ، يضحكان ويبتهجان للقائهما من جديد .

وتساءل بروخور :

— هل عودتك نهائية ؟

— نهائية ، والى الأبد !

— وعلى أية رتبة حصلت ؟

— كنت الثانى فى امرة الكتيبة !

— اذن ، فلماذا سرّحوك بهذه السرعة ؟

فغام وجه غريغورى ، وأجاب باقتضاب :

— لم تعد لهم حاجة الى .

— ولماذا ؟

— لا أدرى ، بسبب من ماضى ، كما أظن .

— لكنك مررت بسلام مع «لجنة المكتب الخاص» التى قامت بغربلة جميع الضباط ، اذا فكيف تسنى لهم أن يثيروا سيرة الماضى الآن ؟

— من يدرى ؟

— ولكن أين هو ميخائيل ؟

— فى الفناء . انه يسرح الماشية .

فاقترب بروخور من غريغورى وقال فى صوت خفيض :

— أعدموا بلاتون ريابتشيكوف قبل شهر .

— ما هذا الذى تقوله ؟

— صدقنى بالله !

وانبعث صرير باب السقيفة . فهمس بروخور :

— سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وأضاف فى صوت أعلى :

— حسن ، أيها الرفيق الآمر ، هلا شربنا ، احتفالاً بهذه السعادة الكبرى ؟ هل أذهب وأدعو ميخائيل ؟

— أجل .

وأعدت دونيا المائدة . كانت لا تدرى كيف تخدم أخاها بأفضل ما تستطيع . فوضعت منشفة نظيفة على ركبته ، وقدمت له صينية مليئة بالبطيخ المملح ، ومسحت قدحه خمس مرات على الأقل . ولاحظ غريغورى مبتسماً أن دونيا كانت تستحى من مخاطبته ولم تعد تستعمل صيغة «أنتم» المعهودة معه .

على المائدة ، ظل ميخائيل فى البدء مطبق الفم ، وهو يصغى فى انتباه الى حديث غريغورى . ولم يشرب الا قليلا ، وعلى مضض . أما بروخور فكان يعب الفودكا قدحاً اثر قدح ، ويستحيل وجهه أرجوانى اللون ولا ينفك يمسد بيده شاربه الأشقر فى تكرار متزايد .

وبعد أن أطعمت دونيا الطفلين ووضعتهما فى السرير ، وضعت على المائدة صحناً كبيراً من لحم الخروف المسلوق وهمست لغريغورى :

— أخى ، انا ذاهبة الآن لأستدعى أكسينيا . أنت لا تمانع ، أليس كذلك ؟

فهز غريغورى رأسه موافقاً دون أن يتكلم . كان طوال ذلك المساء يعانى حالة متوترة من الترقب ، ومع ذلك فقد كان متأكداً من أن أحداً لم يكن قد لاحظ ذلك . بيد أن دونيا كانت تراه يصيخ السمع لكل ضربة على الباب ، وينظر من طرف عينه ناحيتها . ان عينى تلك الفتاة كانتا أقوى مما ينبغى ، ولم يكن ثمة ما يفلت من انتباههما !

وتساءل بروخور ، وهو لا ينى يمسك بالقدح بقوة ، شأن الخائف أن يأخذه منه أحد :

— وذاك القوزاقى الكوبانى تيرشتشنكو ، ألا يزال آمر رعيل ؟

— قتل فى لفوف .

— حسن ، رحمة الله على روحه ! كان خيالاً جيداً !

وفى حركة عاجلة رسم بروخور اشارة الصليب على نفسه دون أن يلاحظ ابتسامة كوشيفوى الهازئة ، ثم رشف شيئاً من قدحه .

— وماذا عن ذاك ، ذى الاسم الغريب ؟ ذاك الذى كان يسير فى الجناح الأيمن . . . اللعنة ، ماذا كان اسمه ؟ آه ، فيورودا ، أليس كذلك ؟ الأوكرانى ، السمين المرح ، الذى شطر ضابطًا بولونياً شطرين فى برودى . ألا يزال حيًا برزق ؟

— مثل جواد فحل ! نقل الى سرية رشاشات .

— ولمن سلمت حصانك ؟

— كنت آنذاك قد تسلمت حصاناً آخر .

— اذن ماذا جرى للحصان ذى النجمة ؟

— صرعته شظية قذيفة .

— خلال معركة ؟

— كنا معسكرين فى بلدة صغيرة وقد وجهت علينا القذائف . فقتل عند مربطه .

— آه ، يا للأسف ! ما كان أفضله من حصان !

وتنهد بروخور ، ومن جديد وضع شفتيه على القدح .

قعقعت سقاطة البوابة . فجفل غريغورى ، ثم اجتازت أكسينيا العتبة ، وتمتمت فى لهجة غير واضحة :

— تحيات !

وشرعت تنضو عنها عصابة رأسها ، وهى تجر أنفاسا سريعة

وتسمرت عينيها الوسيعتين المتوهجتين على غريغورى . واقتربت من المائدة وجلست بجانب دونيا . وكانت ثمة ندف صغيرة من الثلج تذوب على حاجبيها وأهدابها وعلى وجنتيها الشاحبتين . ومسحت وجهها براحة يدها ، وهى تضيق عينيها ، وتنهدت بعمق ، وآنذاك فقط استطاعت ان تمسك زمام نفسها وأن تنظر الى غريغورى ، وقد قتمت عيناها بفيض من العاطفة .

قال بروخور :

— يا رفيقتنا الجندية ! يا أكسينيا ! معا تراجعنا ، معاً أطعمنا القمل . . . رغم أننا هجرناك فى الكوبان ، ماذا كان بوسعنا أن نفعل غير ذلك ؟

ومد بروخور قدحه لها ، ساكباً الفودكا على المائدة ، وقال :

— اشربى نخب غريغورى بانتلاييفتش ! هنيئه على عودته . . . لقد قلت لك انه سيعود سالما معافى ، وها هوذا . تستطيعين أن تأخذيه مقابل روبل ! عجبا ، هوذا يجلس هناك ، يلمع مثل دبوس جديد !

فانحنت أكسينيا لغريغورى ودونيا ولم ترفع قدحها عن المائدة

— انه ثمل ، يا جارة ، فلا تأبهى لكلامه !

فانحنت لكسينيا لغريغورى ودونيا ولم ترفع قدحها عن المائدة الا قليلاً . فقد كانت تخشى أن يلاحظ الجميع ارتعاش يدها . وقالت :

— نخب وصولك ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، ونخب فرحتك ، يا دونيا !

فهتف بروخور :

— وانت نخب ماذا ؟ نخب الحزن ؟

وانفجر فى هدير من الضحك ، ولكز ميخائيل فى جنبه .

فاحمر وجه أكسينيا احمراراً شديداً ، حتى أن شحمتى أذنيها الصغيرتين أمستا ورديتى اللون ، شفافتين . بيد أنها سددت نظرة ثابتة غاضبة الى بروخور ، وردت بقولها :

— ونخب فرحتى ! فرحتى الكبرى !

فأسقط فى يدى بروخور ازاء صراحتها ، وهتف :

— اشربيه حتى الثمالة ، بالله عليك ، حتى آخر قطرة منه ! انت تعرفين ان تتكلمى الى الآخر ، فتعلمى الآن ان تشربى الى الآخر . يطعن قلبى من يبقى شيئاً من الشراب .

لم تلبث أكسينيا طويلاً ، بل الى الحد الذى اعتبرته مناسباً . ورغم ذلك ، لم تنظر الى حبيبها الا لماماً ، ولثانية من الوقت فقط . بل قسرت نفسها على ابقاء نظرها على الأخرين وتجنب النظر الى عينى غريغورى ، فما كان فى مكنتها أن تتظاهر باللامبالاة ولم تشأ أن تعرى مشاعرها . ولم تلتق عيناها بعينى غريغورى سوى مرة واحدة ، وذلك حينما كانت واقفة عند عتبة الباب ، وكانت نظرة خاطفة مباشرة ، مليئة بالحب والوله ، لكنها نظرة حدثته عن كل شىء . فقام ليوصلها الى الباب ، فلم يتمالك بروخور الثمل الا أن يهتف وراءهما :

— لا تتأخر ! فسوف نقضى على الفودكا !

وفى السقيفة ، قبل غريغورى أكسينيا ، دونما كلام ، فى جبهتها وفى شفتيها ، وقال متسائلاً :

— حسن ، كيف الحال ، يا أكسينيا ؟

— أوه ، أنا لا أقدر أن أخبرك بكل شىء . . . هل ستأتى غداً ؟

— نعم .

وأسرعت الخطى الى دارها ، وكأن واجباً عاجلاً كان ينتظرها

هناك . ولم تبطىء سيرها السريع الا حينما بلغت باب بيتها ، فارتقت فى احتراس درجات العتبة الصارة تحت قدميهـــا . كانت تريد أن تنفرد فى أقرب وقت بأفكارها ، بالسعادة التى هبطت عليها على غير موعد .

نضت عنها سترتها وعصابة رأسها ، ومن غير أن تشعل ضياء ما دلفت الى غرفة الضيوف . كان بصيص الليل الليلكى الغامق ينسل الى داخل الغرفة خلل النافذة مفتوحة الأباجور . وكان ثمة صرصار يرسل سقسقة مموسقة من وراء الموقد . وألقت أكسينيا ، بحكم العادة ، نظرة على نفسها فى المرآة ، وعلى الرغم من أنها لم تميز صورتها عليها خلال العتمة الا أنها صففت شعرها ومسدت طيات قميصها الموسلين عند الصدر ، ثم مضت صوب النافذة وألقت بنفسها ، فى كلال ، على المصطبة .

لقد حدث ، مرات كثيرة ، فى حياتها أن تبين لها أنه لم يكن لآمالها وأمانيها ما يبررها ، ولعل ذلك كان السبب الذى جعل القلق المقيم يحل محل الفرحة التى عرفتها أخيراً . أى اتجاه ستأخذه حياتها الآن ؟ ما الذى كان يترصدها فى مسالك المستقبل ؟ ثم ، ألم تكن سعادة المرأة المريرة تبتسم لها بعد فوات الأوان ؟

لبثت جالسة وقد هدت حوّلها الانفعالات التى أحست بها طوال تلك الأمسية ، واضعة خدها على لوح النافذة الزجاجى المغطى بالجمد ، ومسمرة نظرتها الساكنة والمشوبة ببعض الأسى فى طيات العتمة التى لم يكن يضيئها سوى بياض الثلج الخفيف .

• • •

جلس غريغورى الى المائدة وصب لنفسه من الجرة قدحاً مليئاً ، وعبّه جرعة واحدة .

فتساءل بروخور :

— صنف جيد ؟

— لا أدرى . مضى قرن منذ أن شربت آخر مرة .

فقال بروخور فى لهجة واثقة :

— انه ، والله ، مثل فودكا القياصرة !

ومال ، فعانق ميشا :

— فهمك فى مثل هذه الأمور ، يا ميشا ، أقل من فهم عجل فى شؤون القمامة . أما أنا ، فعليم خبير حيثما كان الأمر متعلقاً بالخمر . حسبك أن تتصور الخمور والنبائذ التى شربتها فى حياتى ! فهناك النبيذ الذى يرغو من القنينة ، مثلما يزبد كلب مسعور ، حتى قبل أن تسحب السدادة . . . يشهد الله أننى لا أكذب ! ففى بولونيا ، حينما اخترقنا الجبهة وانطلقنا على صهوات خيلنا مع بوديونى لتحطيم صفوف البولونيين ، حدث أن استولينا على ضيعة من الضياع فى هجوم خاطف . كانت دار الضيعة ذات طابقين أو أكثر ، وكانت الماشية محشورة فى الفناء قرنًا لقرن ، وكانت شتى أصناف الدواجن تجول هنا وهناك ، ولم يكن ثمة متسع ليضق المرء فيه . باختصار ، كان صاحب الضيعة تلك يعيش كما يعيش أمير . وحينما مرق رعيلنا الى داخل الضيعة على صهوات الخيل كان هناك ضباط منكبّون على الطعام والشراب مع صاحب الدار . . . لم يكونوا يتوقعون هجومنا . فصرعناهم جميعاً بالسيف فى البستان وعلى السلّم ، بيد أننا اقتدنا واحداً منهم أسيراً . كان يبدو ضابطًا مهمّاً ، ولكن حينما أسرناه تهدل شاربه وأمسى لا يقوى على الوقوف لشدة ذعره . وكان غريغورى بانتلاييفتش قد استدعى الى مقر الأركان لأمر عاجل ، فأنيطت المسؤولية بنا . نزلنا الى الغرف السفلى ، وهناك وجدنا مائدة هائلة . حسبك أن

تتصور الأصناف التى كانت عليها ! فلبثنا نحدق فيها ، الا أننا توجسنا خيفة من الشروع فى الأكل رغم أننا كنا نشعر بجوع فظيع .

ولكن نفكر :

— قد يكون الطعام كله مسموماً .

وكان أسيرنا يسدد نحونا نظرات أشبه بالخناجر . وهكذا قلنا له آمرين :

— كل !

فأكل . لم يفعل ذلك فى الحال ، لكنه أكل فعلاً .

— اشرب !

وشرب . جعلناه يأكل لقمة كبيرة من كل صحن ويشرب قدحاً من كل قنينة . فانتفخ الشيطان أمام عيوننا بما أكل كل الانتفاخ ، ونحن ننظر اليه وأفواهنا تتحلب . ثم وجدنا ان الضابط باق على قيد الحياة ، فشرعنا نعمل . أكلنا وشربنا من النبيذ المزيد حتى أتخمنا الى حد عيوننا . ثم لاحظنا أن الضابط شرع يقذف ما فى جوفه من طرفيه ! فقلنا فى أنفسنا :

— يا للجحيم ! لقد قضى علينا ! تعمد ذلك الثعبان أن يأكل من الطعام المسموم للايقاع بنا جميعا . فاندفعنا عليه بسيوفنا المسلولة ، غير أنه صار يلوح بذراعيه وساقيه ، وهتف :

— كل ما فى الأمر أننى أكلت أكثر مما ينبغى بناء على الحاحكم . لا تخشوا شيئاً ، فالطعام سليم .

فعدنا الى النبيذ . كنا نسحب سدادة ، فكانت تنطلق مثل رصاصة وتفور الرغوة مثل غيمة كبيرة . لقد جعلنى ذلك النبيذ أسقط من على حصانى ثلاث مرات تلك الليلة . كنت فى اللحظة التى أرتقى فيها السرج أقع ثانية وكأن الريح كانت تطير بى . آه ، يا ليتنى أن أشرب نبيذاً مثل ذلك دائماً ، قدحاً أو قدحين منه قبل

الاكل ، اذن لعشت المائة . ولكن ، والأمور كما هى عليه الآن ، هل من المحتمل أن يعيش أى امرىء ما كُتب له من العمر ؟ أتسمى هذا شراباً ، مثلا ؟ انه وباء معد ، وليس شراباً ! هذا يجعلك تفارق الدنيا قبل الآوان ، ولا شيء أكثر من هذا !

وبايماءة من رأسه ، أشار بروخور نحو جرة الفودكا ، ثم صب لنفسه قدحا طافحاً آخر .

مضت دونيا لتنام مع الطفلين ، وما لبث بروخور أن نهض . فألقى بفروته على كتفيه ، وهو يترنح ، وقال :

— لن آخذ الجرة معى . نفسى لا تطاوعنى على حمل الجرة فارغة . . . حينما أبلغ البيت ، ستبدأ زوجتى بعزف أسطوانتها . وهى حاذقة فى ذلك ! من أين تحصل على مثل تلك التعابير القذرة ، لا أدرى ! أعود الى البيت عقب تناولى بعض الشراب فتزعق بوجهى على النحو التالى :

— أيها السلوقى السكير ، يا كلباً مقطوع الذراع ، يا كذا ويا كيت !

فأحاول بكل هدوء ورقّة أن أفتح عينيها على المنطق . فأقول لها :

— أيتها الحمقاء الشيطانية ، يا ضرع الكلبة ، هل رأيت سلوقياً سكيراً ، مقطوع الذراع ايضاً ؟ لاوجود لمثل هذه الأشياء فى العالم .

أفنّد احدى مزاعمها المعيبة ، فتأتينى بثانية فى الحال . أفند الثانية ، فتهيننى بثالثة ، ويستمر الحال على هذا المنوال طوال الليل حتى الفجر . . . أحياناً ، ينفد صبرى من الاستماع اليها فأخرج الى المأوى وأنام هناك . ولكن ، يحدث فى بعض الأحيان حين اعود الى البيت ، ثملاً بعض الشيء ، وتسكت هى دون أن

تشتمنى ، آنذاك لا أستطيع النوم ، أى وحق الله ! يكون الأمر وكأن شيئاً ما ينقصنى ، وينتابنى شىء مثل الحكة ، وفى ذلك منتهاها . وآنذاك أتحرش بزوجتى ، فتشرع بالزعيق فى وجهى من جديد الى ان يتطاير الشرر منى . ان فى داخلها شيطاناً ، أى نعم ، وليس بمقدورى أن أفعل شيئاً فى هذا الشأن ، فلتستمر على ذلك ، ولسوف تغدو عاملة أفضل . هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ حسن ، أنا ذاهب ، الى اللقاء ! أم ترى من الخير أن أقضى الليلة فى الاسطبل ولا أزعجها ؟

فسأله غريغورى ضاحكاً :

— هل تستطيع الوصول الى البيت ؟

— ولو بالزحف كالسرطان البحرى ! ألست قوزاقياً ، يا بانتلاييفتش ؟ انا منزعج تماماً لسماع مثل هذا السؤال منك .

— حسن ، اذا ، فلتصحبك السلامة !

وأوصل غريغورى صديقه حتى البوابة الصغيرة ، ثم عاد الى المطبخ .

— حسن ، أتود أن نتبادل الحديث ، يا ميخائيل ؟

— لا بأس .

جلسا وجهاً لوجه ، تفصل المائدة بينهما ، وخلدا الى الصمت . ثم قال غريغورى أخيراً :

— ثمة شىء بيننا . أستطيع أن أستشف من النظر الى وجهك بأن هناك أمرًا على غير ما يرام . لعلك لم تفرح بعودتى ؟ أم لعلى مخطئ ؟

— كلا . أصبت فى حدسك . لم أفرح بعودتك .

— لماذا ؟

— انها تنطوى على اضافة سبب آخر الى أسباب القلق .

— انا عازم على أن أكسب قوتى بجهدى .

— لست أفكر فى هذا الاتجاه .

— ما الذى تفكر فيه اذن ؟

— نحن عدوان .

— كنا عدوين .

— أجل ، ويبدو الأمر وكأننا سنظل عدوين .

— أنا لا أفهم . لماذا ؟

— لا يمكن الركون اليك .

— انت على خطأ . كلامك خاطئ .

— كلا ، لست على خطأ . لماذا سرحت فى وقت كهذا ؟ هلا أخبرتنى بصراحة ؟

— لا أدرى لماذا .

— بل تدرى ، لكنك لا تريد أن تقوله . انهم لا يثقون بك . . . أليس هذا هو السبب ؟

— لو لم يثقوا بى ، ما كانوا ليعينونى آمر سرية .

— كان ذلك أول انضمامك اليهم . ولكن ، حيث أنهم لم يبقوك فى الجيش ، فالامر واضح جداً ، أيها الأخ ؟

فتساءل غريغورى محدقاً فى عينى ميشا :

— ولكن ، هل تثق أنت فى ؟

— كلا ! مهما أطعمت الذئب فان عينه ستظل على الغابة .

— شربت أكثر مما ينبغى هذا المساء ، يا ميخائيل .

— تستطيع أن تكف عن هذا ! لست أكثر سكراً منك . انهم لم يثقوا بك هناك ، وهم لن يضعوا كبير ثقة فيك هنا ، فليكن هذا مفهوماً لديك !

لم يجب غريغورى . بل تناول قطعة من الخيار المخلل من

الصحن ، ولاكها فى فمه ، ثم بصقها .

سأله ميخائيل :

— هل أخبرتك زوجتى عن كيريل غروموف ؟

— نعم .

— هو الآخر لم تعجبنى عودته . حالما سمعت بها ، وفى اليوم نفسه . . .

فشحب اللون من وجه غريغورى ، وجحظت عيناه غضباً :

— فما انا بالنسبة اليك اذا : كيريل غروموف ؟

— لا تصرخ ! بأية صورة أنت أفضل منه ؟

— حسن ، أنت تعرف . . .

— ليس الموضوع موضوع معرفة . لقد عرفنا كل شىء منذ أمد طويل . ثم هب ان ميتكا كورشونوف عاد الى القرية . . . هل يتعين علىّ أن أفرح بعودته أيضاً ؟ كلا ، كان من الأفضل لو أنك لم تظهر فى القرية .

— أفضل بالنسبة لك ؟

— أفضل بالنسبة لى وبالنسبة للناس . . . اهدأ .

— لا تقارنى بهؤلاء الآخرين .

— سبق أن قلت لك ، يا غريغورى ، ولا معنى فى غضبك من ذلك : لست بافضل منهم . انت ، فى الواقع ، أسوأ . انك أشد خطراً .

— وكيف هو ذلك ؟ ما الذى تعنيه ؟

— ما هم الا قوزاق من المراتب الدنيا ، ولكن أنت الذى بدأ الانتفاضة .

— أنا لم أبدأها . أنا كنت قائداً للفرقة .

— أو ليس ذلك كافياً ؟ وهل هذا قليل ؟

— قليل ام كثير ، ما هذا بالموضوع . . . لو لم يكن رجال الجيش الأحمر قد عقدوا العزم على اغتيالى فى تلك الليلة ، لكان من الجائز ألا أشارك فى الانتفاضة .

— لو لم تكن ضابطاً ، ما كان لأحد أن يمسك بشىء .

— لو لم أجند فى الجيش ، ما كنت لأصبح ضابطاً . . . ان القصة ستطول على هذا النحو .

— وهى قصة طويلة وعفنة معاً .

— وليس فى الامكان تكرار سردها الآن ، بأية حال ، بعد أن مضت وانتهت !

لبثا يدخنان فى صمت . ثم قال كوشيفوى وهو ينفض رماد سيكارته بأظفره :

— انا عليم ببطولاتك كلها . لقد سمعت بها . لقد صرعت عدداً كبيراً من رجالنا ، ولن يجعل ذلك من اليسير علىّ أن أراك أمامى . . . فليس ذلك مما يمكن نسيانه بسرعة !

فضحك غريغورى ضحكة لاذعة ، وقال :

— ان لك ذاكرة حسنة ! لقد قتلت أخى بيوتر . لكننى لم أرد أن اشير لك الى ذلك . . . اذا كان علينا ان نتذكر كل شىء ، فسيلزم أن نعيش كما تعيش الذئاب .

— حسن ، لقد قتلته فعلاً ، لست أنكر ذلك . ولو حالفنى الحظ بوقوعك فى يدىّ يومئذ لقتلتك ايضاً عن رغبة !

— اما انا ، فحينما اقتادوا ايفان أليكسييفتش أسيراً من أوست–خوبرسكايا ، أسرعت الى القرية لاننى خشيت أن تكون أنت بين الأسرى ، خشيت أن يقتلك القوزاق . . . يعنى ان اسراعى كان عبثاً .

— يا لنبلك ! أستطيع أن أتخيل كيف كنت ستكلمنى لو

كنتم قد انتصرتم ، أحسب أنك كنت ستمزق ظهرى شرائط شرائط . اصبحت الآن طيباً فجأة . . .

— ربما كان الآخرون سيقتلونك ، أما أنا فما كنت لألوث يدى بدمك .

— اذا ، فنحن مجبولان من طينتين متباينتين . . . أنا لم أخش قط تلويث يدى بدماء الاعداء ، ولن أحيد الآن قيد شعرة عن ذلك اذا دعت الحاجة . . .

وصب ميشا بقية الفودكا فى القدحين وسأل غريغورى :

— أتشرب ؟

— لا بأس . صحونا أكثر مما يستدعيه حديث كهذا . . .

وتقارعا بالقدحين وشربا فى صمت . ومال غريغورى الى أمام فوق المائدة ، وجعل يجيل بصره فى ميخائيل خلال عينيه نصف المغمضتين وهو يفتل شاربه . ثم قال :

— ولكن ، ما الذى تخشاه ، يا ميخائيل ؟ أن أثور ثانية ضد الحكم السوفييتى ؟

— أنا لا أخشى شيئاً ، ولكن ما أفكر به فعلاً هو : لو حدث شىء فستنسل انت الى الجانب الآخر من جديد .

— ألا تظن أنه كان بامكانى أن أفعل ذلك مع البولونيين ؟ لقد انضمّت اليهم كتيبة بكاملها .

— لم يسعفك الوقت ؟

— بل لم أرد ، وهذا كل ما فى الأمر . لقد خدمت ما فيه الكفاية . أنا لا أريد أن أخدم كائنا من كان بعد اليوم . لقد حاربت أكثر مما ينبغى بالنسبة لعمرى ، وأنا الآن فى غاية التعب . لقد سئمت كل شىء ، سئمت الثورة وسئمت الثورة المضادة . فليذهب كل ذلك . . . كل شىء الى الجحيم ! أريد أن أحيا

بقية حياتى مع طفلىّ ، أن أعود الى الحقل ، فحسب . صدقنى ، يا ميخائيل ، انا أقول هذا من صميم قلبى !

ولكن ، لم يكن لأيما تأكيد أن يقنع ميخائيل . وأدرك غريغورى ذلك ، فخلد الى الصمت . وخامره شعور طارئ بالحنق المرير من نفسه . فيم ، بحق الشيطان ، كانت محاولته لتبرير نفسه أمامه ، للبرهنة على أيما شىء ؟ أى معنى كان فى مواصلة هذا الحوار الثمل والاستماع الى مواعظ ميخائيل السخيفة ؟ الى الجحيم بها جميعا ! وقام على قدميه .

— يجب أن نتوقف عن مواصلة هذا الحديث غير المجدى . لقد نلت الكفاية ! على أن هنالك شيئاً واحداً أخيراً أريد أن أقوله لك : أنا لن أقوم بأى عمل ضد الحكومة طالما أن الحكومة لا تمسك بى من بلعومى . على أنها لو فعلت ، فسأدافع عن نفسى ! ومهما يكن من أمر ، فاننى لن أضحى برأسى بسبب الانتفاضة ، كما فعل بلاتون ريابتشيكوف .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى ما أقول . فليأخذوا فى حسابهم خدمتى فى صفوف الجيش الأحمر والجروح التى أصبت بها نتيجة لذلك . اننى مستعد لدخول السجن بسبب اشتراكى فى الانتفاضة ، أما اذا حكموا باعدامى بسببها ، فلا عذر لى ! لان ذلك سيكون اكثر من اللازم !

فضحك ميخائيل بازدراء ، وقال :

— هذه فكرة لطيفة جالت فى رأسك ! المحكمة الثورية أو «التشيكا» لن تسألك ماذا تريد ولا تريد ، كما أنهم لن يبدأوا أية مساومة معك . متى ما قرروا ادانتك ، تتلقى نصيبك الى حد القيراط ! فالديون القديمة يجب تسديدها كاملة .

— سنرى .

— لا شك أننا سنرى .

خلع غريغورى نطاقه وقميصه ، وبدأ يخلع جزمته وهو يحمحم . ثم تساءل وهو يتفحص ، باهتمام مبالغ فيه ، كعب جزمته المكسور :

— هل ستتقاسم هذا المكان ؟

— لن تطول اقامتى . سأهيئ كوخى وأنتقل اليه فى الحال .

— نعم ، فلنكن مبتعدين عن بعضنا . لن ننسجم فى العيش معاً .

فقال ميخائيل موافقاً :

— لا ، لن ننسجم .

— حسن ، لم أقدّر أن يكون رأيك بى على هذا النحو . . . ومع ذلك ، فأنا أحسب أن . . .

— لقد أخبرتك بكل شىء صراحة . بحت لك بما فى ذهنى . متى ستذهب الى فيشنسكايا ؟

— فى احد الايام القريبة .

— هذا ليس مقبولاً . عليك أن تذهب غداً .

— لقد قطعت أربعين فرسخا سيراً على الأقدام ، وأنا مرهق تماماً . سأستريح غداً وأذهب لتسجيل اسمى بعد غد .

— يجب ان تسجل فوراً . اذهب غداً .

— لا بد أن أرتاح يوماً ، أليس كذلك ؟ لن أهرب .

— الشيطان يدرى ماذا يمكن أن تفعل . أنا لا أريد أن أكون مسؤولاً عنك .

فقال غريغورى ، وهو يراقب بشىء من الاستغراب وجه صديقه السابق ، بسيمائه القاسية :

— الى هذا الحد صرت وغداً ، يا ميخائيل !

— لا تتطاول علىّ بكلمة «وغد» ! فلست معتاداً على ذلك .

وجرّ ميخائيل نفساً قصيراً ، ثم أضاف بصوت عال :

— يجدر بك أن تتخلى عن عادات الضباط هذه ! اذهب غداً ، واذا لم تذهب بنفسك فسأرسلك تحت الحراسة . أفهمتنى ؟

— أجل ، فهمت كل شىء الآن . . .

لبث غريغورى يحدق فى ظهر ميخائيل بنظرة كارهة أثناء خروجه من الغرفة ، ثم استلقى على السرير دون أن يخلع ملابسه .

حسن ، ها قد حدث كل شىء على الوجه الذى كان لا بد أن يحدث . أية معاملة أخرى كان هو ، غريغورى ، يتوقع أن يلقى لدى وصوله ؟ ما الذى كان يدفعه الى الظن بأن خدمته المشرفة الوجيزة فى صفوف الجيش الأحمر ستشفع لمحو آثامه السابقة جميعاً ؟ ولعل ميخائيل كان على حق حينما قال بأن ليس لكل شىء أن يغتفر ، وأن الديون القديمة يجب تسديدها كاملة .

وفى نومه ، رأى غريغورى السهب الطلق ، ورأى كتيبة موزعة استعداداً لشن هجوم . ومن مكان ما ، من بعيد ، جاء الأمر بالنبرة المستطيلة الممدودة : «سريـ . . . ـة !» ، ولم يدرك غريغورى الا آنذاك أن أحزمة السرج لم تكن مشدودة تحت حصانه . فوضع كل ثقل جسمه على الركاب الأيسر ، فانزلق السرج من تحته . فانتابه شعور بالخزى والخوف وقفز عن حصانه ليشد أحزمة السرج . وفى تلك اللحظة سمع ارعاد سنابك الخيل يرتفع لحظة ثم ينخفض بسرعة . لقد انطلقت الكتيبة الى الهجوم بدونه .

تقلب على جنبه ، واذ استيقظ من نومه سمع صوت أنينه المتحشرج هو .

خارج النافذة ، كان النهار قد شرع بالطلوع . ولا بد أن

الريح هى التى فتحت الأباجورات خلال الليل ، اذ استطاع أن يرى خلل الزجاج المغطى بالجمد الى القرص الأخضر المشع للقمر الآفل . وتلمست يداه طريقها الى كيس التبغ ، وأشعل سيكارة . كان قلبه لا يزال يدق دقاً أجوف سريعاً . فاستلقى على ظهره وابتسم . أى حلم شيطانى سخيف ! أن يتخلف عن الاشتراك فى معركة ! ولم يخطر بباله فى ذلك الصباح الباكر ، أنه سيشترك فى الهجوم من جديد ، وأكثر من مرة ، ليس فى أحلامه ، وحسب ، بل فى ساعات يقظته أيضاً .

٧

استيقظت دونيا فى وقت مبكر . كان عليها أن تحلب البقرة . وكان غريغورى يتمشى متمهلاً داخل المطبخ وهو لا ينفك يسعل . سحبت دونيا البطانية على الطفلين ، ثم ارتدت ملابسها بسرعة ومضت الى المطبخ . فوجدت أخاها يزرر معطفه الثقيل .

— الى أين ذاهب فى هذا الوقت المبكر ، يا أخى ؟

— ذاهب لأتمشى فى القرية ، لمجرد القاء نظرة عليها .

— لطيف لو تفطر قليلاً ، وبعدها . . .

— لا أرغب بشىء . أشعر بصداع .

— هل ستعود مع موعد الفطور ؟ انا ذاهبة فى الحال لايقاد النار فى الموقد .

— لا داعى لانتظارى . لن أعود قبل مضى بعض الوقت .

خرج غريغورى الى الشارع . كان ذوبان الجليد قد بدأ مع اقتراب الصبح . وكانت الريح القادمة من الجنوب رطبة دافئة ، والثلج المختلط بالتراب يعلق بكعبى جزمته . وفيما كان غريغورى

يسير على مهل باتجاه القرية جعل يتفحص باهتمام البيوت والمآوى كان يعرفها منذ نعومة أظفاره ، وكأنه كان فى مكان غريب . كانت خرائب دور التجار ومخازنهم التى كان كوشيفوى قد أضرم فيها النار فى العام الماضى تبدو سوداء قاتمة فى ساحة القرية ، وثمة ثغرات متثائبة فى حائط القرية شبه الممحوق . فحدث غريغورى نفسه فى غير اهتمام كبير : «لقد غدا الطابوق صالحاً لاستعماله فى المواقد» . وكانت الكنيسة فى مكانها ، كعهده بها فى السابق ، قميئة مهدولة على الأرض ، وكان سقفها الطويل غير المطلى موشحاً بالصدأ ، وجدرانها مبقعة بآثار الرطوبة ، وحيثما كان الطلاء مكشوطًا بان الطابوق الأجرد أحمر ، جديداً ، لامعاً .

كانت الشوارع مهجورة . مرت به ، فى موضع ليس ببعيد عن البئر ، امرأتان أو ثلاث ، مثقلات العيون بالنعاس ، فانحنين له فى صمت وكأنه كان شخصاً غريباً على القرية ، ولم يتوقفن ليحدقن فيه الا بعد أن كان قد اجتازهن .

توقف ، ثم كرّ عائداً :

— يجب أن أذهب الى المقبرة لزيارة قبرى أمى وناتاليا .

وسار فى زقاق يؤدى الى المقبرة . لكنه ما ان قطع بعض المسافة حتى توقف . كان قلبه مثقلاً بالهم بما يكفى حتى بدون زيارة المقبرة . فحدث نفسه :

— سأذهب فى وقت آخر .

واستدار ميمما شطر بيت بروخور :

— الأمر سيان لديهم ان زرتهم أم لا . انهم راقدون بسلام الآن . لقد انتهى كل شىء بالنسبة لهم . قبورهم مرشوشة بالثلج . على أن الأرض لا بد أن تكون شديدة البرودة فى الداخل . . . حسن ، لقد انقضت حياتهم ، وبسرعة بالغة ، كالحلم . وهناك ،

كلهم راقدون معًا ، جنباً الى جنب : زوجتي وأمي وبيوتر وداريا . . . لقد انتقلت العائلة برمتها الى هناك لترقد جنباً الى جنب . هم بخير هناك ، الا أبي الذى يرقد وحده فى أرض غريبة . موحش له أن يرقد بين غرباء . . .

ولم يعد غريغورى ينظر الى ما حوله ، بل واصل سيره وعيناه مسمرتان على قدميه ، وعلى الثلج الأبيض الذائب الذى كان رقيقاً الى حد أنه لم يكن يشعر به وهو يستسلم الى وطء قدميه ، لا تكاد تندّ عنه نأمة .

ثم عرّجت أفكاره ناحية طفليه . لقد أمسيا متحفظين بشكل غريب ، صموتين بما لا يأتلف مع عمريهما ، وليسا كما كانا أيام كانت أمهما على قيد الحياة . لقد سلبهما الموت أكثر مما ينبغى . كانا خائفين . لِمَ انفجرت بوليوشكا بالدموع أمس حينما رأته ؟ فالأطفال لا يبكون عادة اثناء مثل هذه اللقاءات . ما الذى كان يدور بخلدها ؟ ولماذا ومض الفزع فى عينيها حينما احتواها بين ذراعيه ؟ لعلها كانت طوال ذلك الوقت تحسب أن أباها قد مات وأنه لن يعود ، وحينما وقع بصرها عليه انتابها الخوف . وعلى أية حال ، فليس ثمة ما يدعوه الى أن يلوم نفسه بسببهما . بيد أن عليه أن يطلب من أكسينيا أن تكون رؤوماً بهما وأن تحاول أن تشغل مكان أمهما بقدر ما تستطيع . . . لعلهما سيتعلقان بامرأة أبيهما مع مرور الزمن . انها امرأة طيبة عطوف ، ولحبها له ، ستغدق الحب على طفليه أيضاً .

ووجد أن التفكير بهذا الموضوع مؤلم ومرير ، هو الآخر . لم يكن الأمر على هذا اليسر . فالحياة نفسها كانت تتكشف له عن أنها لم تكن على اليسر الذى تصورها عليه فى الآونة الأخيرة . ففى بساطته الطفولية الخرقاء كان قد افترض أنه بمجرد أن يعود الى

القرية ، بمجرد أن يستبدل معطفه الثقيل بسترته الفلاحية ، فان كل شىء سيغدو على ما يرام . لن يفوه أحد بكلمة تجاهه ، لن يلومه امرؤ ، سيسوّى كل شىء من تلقاء ذاته ، وسيعيش هو بقية أيامه مزارع حبوب مسالماً وربّ عائلة مثالياً . لا ، فالواقع لا يبدو على هذه الدرجة من اليسر .

فتح ، بحذر ، بوابة دار زيكوف الصغيرة المتشبثة بمفصلة واحدة . كان بروخور يسير باتجاه درجات العتبة ، محتذياً جزمة لبادية واسعة متقنة الترقيع ، ومعتمراً قبعة مثلثة الزوايا منكوسة الى عينيه ، وهو يؤرجح بيده سطلاً فارغاً مما يحمل به اللبن . وكانت قطرات بيض من اللبن تترشرش على الثلج دون أن تراها العين .

حيا غريغورى بقوله :

— هل قضيت ليلة هادئة ، أيها الرفيق الآمر ؟

— الحمد لله !

— يجدر بنا أن نشرب قطرة لازالة الخمار ، أنا أحس برأسى فارغة كهذا السطل .

— فكرة حسنة ، ولكن لماذا السطل فارغ ؟ هل حلبت البقرة بنفسك ؟

وبهزة من رأسه ، نحّى بروخور قبعته الى مؤخرة رأسه ، فلاحظ غريغورى آنذاك أن وجه صاحبه كان كئيباً على غير عادته .

— حسن ، هل كان الشيطان سيحلبها عنى ؟ نعم ، أنا الذى حلبتها ، بدلاً من امرأتى اللعينة ! لا أريد سوى أن تصاب بالزحار جزاء عملها هذا !

وقذف بروخور بالسطل عنه مغتاظاً ، وقال باقتضاب :

— لندخل !

وتساءل غريغورى من غير ما تصميم :

— وماذا عن زوجتك ؟

— لقد أكلتها الأبالسة مع لبن «الكفاس» الحامض ! قبل ان يطر الفجر لملمت نفسها ومضت الى كروجيلينسكى للحصول على الزعرور . انفجرت بى حالما عدت الى البيت ليلة أمس . ألقت علىّ محاضرة وأصدرت الىّ أوامر اضافية ، ثم قفزت الى العربة قائلة :

— انا ذاهبة لجمع شىء من الزعرور . فان كنّات ماكاساييف ذاهبات اليوم ، سأذهب انا معهن . — فقلت مع نفسى : «اذهبى كما يحلو لك ، اذهبى لجمع الكمثرى ان شئت ، ففى ذلك خلاصى !» نهضت ، أوقدت الموقد ، وخرجت لحلب البقرة . وقد حلبتها على نحو بديع ! أتظن أن رجلاً يستطيع القيام بمثل هذه الأعمال بذراع واحدة ؟

— كان يجدر بك أن تطلب من احدى النسوة أن تفعل ذلك عنك ، يا بليد !

— الخروف بليد ، سيظل يمص ضرع أمه الى أن يحل عيد العذراء المباركة ! أما أنا فلم أكن بليداً قط طوال حياتى . حسبت أننى سأدبر ذلك بنفسى . وقد دبرته فعلاً . قعدت على عجزى تحت تلك البقرة . ولكن ، عليها اللعنة ، ما كانت لتقف فى مكانها لحظة ، بل ظلت تتحرك الى جميع الجهات طوال الوقت . حتى أننى نزعت قبعتى كيلا تخاف منها ، ولم ينفع ذلك . تنقع قميصى كله بالعرق فيما كنت أحلبها ولم أكد أمد يدى لأرفع السطل من تحتها حتى هبت كما يهب الطير . فانقذف السطل من ناحية وأنا من الناحية الأخرى . هكذا حلبتها . انها ليست بقرة ، بل هى شيطان ذو قرنين ! فبصقت فى وجهها وتركتها . أستطيع أن أدير أمرى بدون لبن . هل ترغب فى شىء من الشراب ؟

— ألديك شىء منه ؟

— لدىّ قنينة واحدة . كنت أدخرها حتى الآن .

— حسن ، ستكون كافية .

— تعال أدخل ، كن ضيفى ، أترغب فى أن أقلى لك شيئاً من البيض ؟ أستطيع أن أعده فى ثانيتين .

قطع غريغورى بعضاً من شحم الخنزير وساعد بروخور على اشعال النار فى مقدمة الموقد ولبثا يراقبان ، دونما كلام ، قطع الشحم الوردية تهس وتذوب ثم تسيل على جوانب المقالاة . ثم أخرج بروخور قنينة يعلوها الغبار من وراء الأيقونة . وقال موضحاً باختصار :

— هنا أحتفظ بأسرارى كلها بعيداً عن زوجتى .

تناولا الفطور فى غرفة الضيوف الصغيرة الدافئة ، وشربا ، وتبادلا حديثاً خافتاً .

مع من ، سوى بروخور ، كان لغريغورى أن يشارك أفكاره الخبيثة ؟ فجلس ، ثمة ، الى المائدة ، وقد باعد ما بين ساقيه الطويلتين المتينتين ، وانبعث صوته العميق متحشرجاً :

— حينما كنت فى الجيش ، وطوال طريق العودة الى القرية ، كنت أفكر كيف سأعيش بالقرب من الأرض ، واستريح مع عائلتى من عناء الحرب الشيطانية . ليس مزاحاً ان ينزل المرء عن حصانه بعد سبع سنوات او اكثر لا تكاد تمضى ليلة دون ان تحلم بذلك ، تحلم بكل ذلك المجد : أما أن تقتل رجلاً ، أو أنهم يقتلونك . . . أما الآن ، فأستطيع أن أرى ، يا بروخور ، أن الحال لم تكن كما كنت أتخيلها . . . أستطيع أن أرى أن الآخرين ، لا أنا ، سيقومون بحراثة الأرض ورعايتها . . .

— هل تحادثت مع ميخائيل أمس ؟

— ذقت تلك المسرّة المعسّلة !

— وماذا قال ؟

فشكّل غريغورى باصبعيه صورة سيفين متقاطعين ، وقال :

— هى ذى حال صداقتنا . انه يقذف فى وجهى خدمتى فى صفوف البيض . يعتقد أننى أحمل ضغينة ضد الحكم الجديد ، أخفى سكيناً فى صدرى ضده . انه يخشى من قيام انتفاضة . ولكن ما نفعى منها ، هو نفسه لا يدرى ، يا للأحمق !

— لقد قال الشىء نفسه لى .

فابتسم غريغورى ابتسامة باهتة ، ثم قال :

— خلال زحفنا على بولونيا ، التقينا بأوكرانى طلب منا أن نزوده بالسلاح للدفاع عن قريته . كان قطاع الطرق قد استباحوا المنطقة ونحروا الماشية . فقال له آمر كتيبتنا ، وكنت أنا حاضراً فى حينه :

— نعطيكم السلاح فتنضمون الى قطاع الطرق أنتم أيضاً ، ها ؟ !

بيد أن الأوكرانى ضحك وقال :

— سلحنا ، يا رفيق ، وسترانا لا نمنع قطاع الطرق عن قريتنا ، بل نمنعكم ايضا !

— وأنا ، الآن ، أفكر مثلما كان ذلك الأوكرانى يفكر : لو أن بالامكان ابقاء تتارسكى بلا بيض ولا حمر ، فلن يكون ثمة ما هو أفضل من تلك الحال . فى رأيى أن نسيبى ميتكا كورشونوف ، مثلاً ، وميخائيل كوشيفوى مطليان بالقار بفرشاة واحدة . ميخائيل يعتقد بأننى مخلص للبيض بحيث لا أستطيع أن أحيا بدونهم . يا له من جرجير * ! حقًا اننى مخلص لهم ، وأى اخلاص ! منذ زمن ليس

* الجرجير : نبات كالفجل . **المترجمون** .

ببعيد وحينما كنا نزحف على شبه جزيرة القرم ، حدث أن اصطدمت بضابط من ضباط كورنيلوف ، وكان عقيداً متأنقاً قميئاً ، له شارب مقصوص على الطريقة الانكليزية . خطان يشبهان المخاط تحت أنفه . وقد عالجت أمره باندفاع وحماسة الى درجة صار قلبى معها يرقص فرحاً ! وتركت ذلك العقيد الصغير المسكين بنصف قبعة ونصف رأس على كتفيه ، فى حين طارت شارة قبعته الضابطية البيضاء فى الهواء . . . الى هذا الحد أنا مخلص لهم ! لقد سببوا هم أيضاً ، الكثير من المتاعب لى فى حياتى . لقد حصلت على رتبة الضابط اللعينة تلك بدمى المسفوح ، ومع ذلك فقد كنت كالغراب الأبيض بين معشر الضباط ! لم يعتبرنى أولئك الخنازير ، قط ، انساناً ، وكانوا يتقززون من مد أيديهم لى . فهل تظن أننى بعد هذا . . . أوه ، ليذهبوا الى الجحيم ! انا أشعر بالغثيان لمجرد الحديث عن الموضوع . ثم يأتى من يقول بأننى أود أن يعود حكمهم ! أن ندعو الجنرال فتشالوروف وأمثاله الى هنا ! لقد جربت تلك اللعبة مرة وبقيت صريع الفواق عاماً كاملاً بعد ذلك . لقد نلت الكفاية ، تعلمت دروسى ، وشعرت بوطأتها جميعاً على ظهرى .

فقال بروخور فيما كان ينقع خبزه بالسمن الحار :

— لن تحدث أية انتفاضة . فقبل كل شىء ، لم يبق سوى بضعة قوزاق ، وهؤلاء الذين اجتازوا الحرب أحياء تعلموا درسهم أيضاً . لقد فقد أشقاؤنا من الدماء وغدوا من الحكمة ما يجعل من المستحيل على امرىء أن يجرهم الى الانتفاض حتى ولو بحبل من أعناقهم . أضف الى ذلك ، أن الناس أمسوا متلهفين الى حياة السلم . ليتك رأيت كيف كان الجميع يعملون خلال هذا الصيف : كوّموا تلالاً من القش وحصدوا جميع القمح الى آخر حبة . انهم يثنون لفرط الجهد الذى يبذلون ، بيد أنهم يحرثون ويبذرون

كما لو أن كلاً منهم قد عقد العزم على العيش مائة سنة . كلا ، لا جدوى من التحدث عن قيام انتفاضة . من الحماقة التحدث عنها . رغم أن الشيطان وحده هو الذى يعلم ماذا يمكن أن يخطر ببال القوزاق .

— ماذا يمكن أن يخطر ببالهم ؟ ما الذى تلمح اليه ؟

— لقد خطر ببال جيران لنا . . .

— حسن ؟

— سمها «حسن» ان شئت ! لكن انتفاضة قد انفجرت فى اقليم فورونيج ، فى مكان ما وراء بوغوتشار .

— هذا كذب !

— كلا ، انه ليس كذباً . لقد أخبرنى بذلك رجل من رجال الميليشيا من معارفى . ويبدو أن السلطات عازمة على ارسال الميليشيا الى هناك .

— ولكن أين «هناك» هذه ؟

— موناستيرشتشينا ، سوخوى دونيتس ، باسيكا ، ستاريا ، نوفايا كاليتفا وغيرها فى تلك المنطقة . ويقولون انها انتفاضة واسعة .

— ولم لم تقل عنها شيئاً أمس ، أيها الماعز المنتوف ؟

— لم أشأ أن أتحدث عنها أمام ميخائيل ، أضف الى ذلك أن التحدث عن مثل هذه الأشياء ليس مما يسر . أنا لا أريد أبداً أن أسمع كلمة أخرى حول مثل هذه الأمور .

فبدا العبوس على وجه غريغورى . أمعن فكره بعضاً من الوقت ثم قال :

— هذه أنباء سيئة !

— ليس الأمر مما يعنيك . دع الخوخوليين يعانون القلق

منه . لسوف تضرب أعجازهم حتى تتقرح ، وآنذاك سيتعلمون كيف ينتفضون . لكن الأمر لا يعنيك أو يعنينى فى شىء قط . أنا لا أشعر بالحزن عليهم أبداً .

— سيكون ذلك أصعب علىّ الآن .

— كيف ؟

— ألا تستطيع أن ترى ؟ اذا كانت سلطات الاقليم تشاطر كوشيفوى رأيه عنى ، فاننى لن أستطيع تجنب دخول السجن . انتفاضة فى الاقليم المجاور ، وأنا ضابط سابق ومتمرد سابق وما الى ذلك . . . والآن هل رأيت ؟

فتوقف بروخور عن مضغ لقمته واستغرقه التفكير . لم يخطر بباله هذا الجانب من قبل . كان الشراب قد أثقل رأسه ، فأمسى تفكيره بطيئاً مسبباً للألم . فتساءل مستغرباً :

— ولكن ، ما علاقتك بذلك ، يا بانتلاييفتش ؟

فعقد غريغورى حاجبيه غيظاً ولم يجب . كان من الجلى أن تلك الأنباء قد شوشته . وكان بروخور على وشك أن يمرر قدحه اليه الا أنه نحى يد صديقه وقال فى تصميم :

— لن أشرب المزيد .

— ولكن ، ألن تشرب قدحاً آخر فقط ؟ اشرب حتى تسوّدّ ! الطريقة الوحيدة لخنق هذه الحياة البهيجة هى بالفودكا .

— اسودّ انت وحدك ! الغباء زحف الى رأسك فعلاً ، وسيكون فى ذلك حتفك عاجلاً أو آجلاً . أما أنا ، فيجب على أن أذهب الى فيشنسكايا اليوم لأسجل نفسى .

فسمّر بروخور عينيه عليه . كان وجه غريغورى الملفوح بأشعة الشمس وعوامل الجو يتأجج بحمرة داكنة ، ولم يكن جلده أبيض ، بياضاً باهتاً ، الا عند جذور شعره الممشط الى وراء عن جبهته .

لقد كان ثابت الزمام ، هذا الجندى الذى وقعت عيناه على الكثير الكثير ، والذى جعلت الحرب والشدائد من بروخور له نسيباً . وكانت عيناه المنتفختان قليلاً تحملان نظرة كئيبة ، وكلالاً فظيعاً .

سأله بروخور :

— ألعلك تخشى أن تسجن ؟

فأجاب غريغورى على عجل :

— هذا هو ما أخشاه بالضبط ، يا ولدى ! أنا لم أدخل السجن فى حياتى ، وأنا أخاف من السجون أكثر مما أخاف من الموت . ولكن يبدو وكأن على أن أجرب هذه المتعة أيضاً .

فقال بروخور مواسياً :

— ما كان عليك أن تعود .

— ولكن ، أين كنت سأذهب ؟

— كان عليك أن تختبئ فى مكان ما ، فى بلدة ما ، وتنتظر الى أن تسوّى هذه الشغلة ، ثم تعود الى القرية .

فلوح غريغورى بيده وضحك :

— ليس هذا أسلوبى . ليس هناك ما هو أسوأ من الانتظار هنا وهناك ومحاولة اللحاق . وكيف يتسنى لى أن أترك الطفلين ؟

— فكرة بديعة ! ألم يعيشا بدونك فعلاً ؟ كان بمستطاعك أن تأخذهما فيما بعد ، وتأخذ حبيبتك أيضاً . وبالمناسبة ، نسيت أن أخبرك أن سادتك السابقين ، هؤلاء الذين عملت أنت وأكسينيا لديهم قبل الحرب . . . قد ماتا ، كلاهما .

— آل ليستنسكى ؟

— بالضبط كان قريبى زاخار قد عمل مراسلاً لليستنسكى الشاب ، وهو الذى أخبرنى أن العجوز قد مات بالتيفوس فى موروزوفسكى ، أما الشاب فقد أفلح فى الوصول الى يكاتيرينودار .

وهناك نشأت علاقة بين زوجته والجنرال بوكروفسكى ، فلم يستطع صاحبنا تحمّل الصدمة ، فأطلق النار على نفسه فى غمرة هياجه .

فعلق غريغورى على ذلك بغير اهتمام :

— حسن ، يستطيعان أن يذهبا الى الشيطان ! انا أحزن على الرجال الطيبين الذين فقدناهم ، أما هذان فليس هناك من سيحزن عليهما .

وقام على قدميه وارتدى معطفه الثقيل ، وقال متفكرًا ويده على أكرة الباب :

— هذا ، اللعنة ، على الرغم من أننى كنت دائماً أغبط رجالاً ممن هم على شاكلة ليستنسكى الشاب أو صاحبنا كوشيفوى . . . لقد كان كل شىء واضحاً أمام أعينهم منذ البدء ، ولكن ليس ثمة ما هو واضح لدى حتى الآن . فقد رأى كلاهما الطرق المستقيمة أمامهما ورأيا نهاية المطاف أيضا . أما أنا ، فقد ظللت منذ عام ١٩١٧ أدور وأدور فى حلقة مفرغة ، أترنح مثل رجل سكير . انفصلت عن البيض ، لكننى لم أنضم الى الحمر ، وها اننى أعوم مثل كتلة من الروث فى حفرة وسط الجليد . . . أتدرى ، يا بروخور ، لا شك أنه كان علىّ أن أظل مع الجيش الأحمر طوال الوقت . ولو فعلت ذلك ، لسارت — ربما — كل أمورى على ما يرام . وكما تعلم ، فاننى خدمت الحكومة السوفييتية فى البدء من صميم قلبى . ولكن ، ما لبثت الأمور بعد ذلك أن ساءت . أما مع البيض فقد كنت غريباً ، وعلى الأخص مع قادتهم . كانوا يشكّون فى أمرى دائماً . وكيف كان لهم ألا يشكوا فىّ ؟ ابن فلاح ، قوزاقى أمى . . . أية رابطة تجمعنى بهم ؟ لم يثقوا بى قط ! وبعد ذلك تكرر الشىء نفسه مع الحمر . كلا ، لست بالأعمى ، فقد رأيت كيف كان القوميسار والشيوعيون فى السرية

يراقبوننى . . . كانوا ، خلال المعارك ، لا يرفعون أعينهم عنى ، بل كانوا يراقبون كل خطوة أخطوها ، وأحسب أن لسان حالهم كان : «آه ، هذا الخنزير ، هذا الأبيض السابق ، الضابط القوزاقى ، يجب أن نحتاط كيلا يخوننا !» وحينما كنت ألاحظ ذلك ، كان قلبى يستحيل كالثلج . وفى الأيام الأخيرة لم أعد أستطيع تحمل تلك الحال . وكيف لا ، فحتى الصخر ينفجر عند اشتداد الحرارة . وحسناً فعلوا حينما سرّحونى . فقد وضع ذلك حداً سريعاً للأمر .

وتنحنح فى صوت مبحوح ، وصمت قليلاً ، ثم استأنف كلامه فى نبرة مغايرة ، دون أن ينظر الى بروخور :

— شكرًا على الوجبة . أنا راحل الآن . اعتن بنفسك . اذا عدت فاننى سأعرج عليك مع حلول المساء . أبعد تلك القنينة ، فان عادت زوجتك ستحطم مقلاة على ظهرك .

رافقه بروخور حتى درجات العتبة ، وحينما كانا فى السقيفة همس فى أذن غريغورى :

— آه ، يا بانتلايفتش ، حذار ان يجعلوك تنحاز هناك !

فأجابه غريغورى فى لهجة متحفظة :

— سأحاول !

لم يذهب الى داره ، بل انحدر ناحية النهر ، وهناك حلّ قارب شخص ما من المرسى وغرف الماء منه براحتيه ، ثم انتزع عوداً من السياج ، وشق قنالاً خلال جليد الساحل ، ومضى يجذف صوب الضفة الأخرى .

كانت موجات غامقة الخضرة تضربها الريح فتتدحرج مع الدون ناحية الغرب . وعلى المياه الساكنة عند الضفاف ، كانت الموجات تهشم الجليد الرقيق الشفاف وتؤرجح الخيوط الزمردية

للأدغال المائية . وعلى امتداد الضفاف ، كان الجليد المتكسر يرسل رنيناً بلورياً ، يحصباء الشواطئ تهمس هساً رقيقاً فيما كان الماء يغمرها . أما فى وسط النهر ، حيث كان التيار سريعاً منتظماً ، فلم يكن غريغورى يسمع سوى الصمت المكتوم لارتطام الأمواج بجانب القارب الأيسر ، وهدير الريح العميق الموصول ينبعث من غابات شواطئ الدون .

سحب القارب خارج الماء حتى نصفه ، ثم جلس القرفصاء وخلع جزمته ، ولف باعتناء لفافى ساقيه من جديد استعداداً للسير .

بلغ فيشنسكايا والنهار يوشك أن ينتصف .

كانت قوميسارية الاقليم العسكرية مزدحمة كثيرة الضجيج . كانت أجراس الهاتف ترن رنيناً حاداً ، والأبواب تصفق بعنف ، ورجال مسلحون يدخلون ويخرجون ، وجلبة الآلات الطابعة تنبعث من غرف شتى . وفى الممر كان أكثر من عشرين من رجال الجيش الأحمر محيطين برجل قمىء متين البنية يرتدى فروة مزركشة ، وهم يتحدثون ويقاطع بعضهم بعضاً فى حماس ، ويهدرون بالضحك . وفيما كان غريغورى يقطع الممر ، كان جنديان من جنود الجيش الأحمر يدفعان مدفعا رشاشاً على عجلات من احدى الغرف البعيدة . وكانت عجلاته الصغيرة تقرقع قرقعة خفيفة على الأرضية الخشبية غير المستوية . وهتف أحد هذين المدفعيين متمازحاً ، وكان رجلاً مديد القامة كبير البنية :

— هيا ، تنحوا عن الطريق ، يا سرية التأديب ، والا فسألصقكم على الأرض !

فحدث غريغورى نفسه :

— يبدو وكأنهم ، فعلاً ، يتهيأون لاخماد انتفاضة .

عوق مدة غير طويلة عند عملية التسجيل . وأخيراً ، قام سكرتير

القوميسارية العسكرية بالاطلاع على أوراقه بسرعة ، ثم قال له :

— اذهب الى الدائرة السياسية لتشيكا الدون . فبصفتك ضابطاً سابقاً ، يجب أن تراجعهم هناك .

فقال غريغورى :

— حسن ، — وأدى التحية ، دون أن يكشف عن سورة الانفعال التى داهمته .

وحينما بلغ الساحة ، توقف عن السير متردداً . كان عليه أن يذهب الى الدائرة السياسية حقاً ، بيد أن وجوده كله كان يقاوم الفكرة بضراوة وكان صوت فى داخله يحدثه :

— لسوف يطبقون عليك السجن ! — وارتعش بدنه خوفاً ونفوراً . فلبث واقفاً بازاء سياج المدرسة ، يحدق بعينين لا تريان فى الأرض المغطاة بالروث ، ورأى نفسه مقيد اليدين ينزل سلماً قذراً الى داخل زنزانة ، ومن ورائه رجل ممسك ، بيد ثابتة ، مقبض المسدس الخشن . فشد قبضتيه وحدق فى عروق يديه الزرقاء المنتفخة . ولسوف يقيدون هاتين اليدين ؟ واندفع الدم الى وجهه . كلا ، لن يذهب اليهم اليوم ! غدا ، ان شئت ، أما اليوم فسيعود الى القرية . سيقضى اليوم مع طفليه ، ويذهب لدى أكسينيا ، ويعود الى فيشنسكايا غداً . فلتقرح قدماه بكل هذه المسيرات الطويلة ! سيعود الى بيته ليوم واحد فقط ثم يعود الى هنا . . . لا ريب أنه سيعود . ليكن ما يكون غداً ، أما اليوم ، فلا .

— آه ، ميليخوف ! لم أرك منذ دهور طويلة ، طويلة . . .

فاستدار غريغورى . كان القادم نحوه ياكوف فومين ، رفيق أخيه بيوتر فى الكتيبة ، وآمر كتيبة المتمردين الثامنة والعشرين التابعة لجيش الدون ، سابقاً .

لم يعد فومين قوزاقى «كتيبة الأتمان» سيئ الهندام المعهود ،

كما كان يعرفه غريغورى فى السابق . فقد تغير فى غضون سنتين تغييراً مذهلاً : كان معطف الخيالة الثقيل الأنيق ملائماً له على نحو بديع ، ولشاربه الأحمر فتلة خبيثة ، وكان كل ما فيه — حركاته التى كان يتعمد ابطاءها ، وابتسامته الوثوق — يكشف عن شعوره بسموه وامتيازه عن الآخرين .

تساءل وهو يصافح غريغورى وينظر اليه بعينيه الزرقاوين المتباعدتين :

— ما الذى جاء بك الى هنا ؟

— لقد سرحت من الخدمة . كنت قبل حين فى القوميسارية العسكرية .

— هل مضى عليك وقت طويل مذ عودتك ؟

— عدت البارحة .

— كثيراً ما أستعيد فى ذاكرتى أخاك بيوتر بانتلاييفتش . لقد كان قوزاقيا طيباً ، بيد أن مصرعه كان شيئاً مؤسفاً . كنا صديقين حميمين . ما كان يجدر بك أن تنضم الى الانتفاضة فى العام الماضى ، يا ميليخوف . لقد اقترفت خطأ . . .

فأحس غريغورى بأن عليه أن يقول شيئاً ، فقال :

— أجل . اقترف القوزاق خطأ . . .

— فى أية قوة كنت تخدم ؟

— فى لواء الخيالة الأول .

— بأية صفة ؟

— آمر سرية .

— هكذا ! انا آمر سرية الآن أيضاً . لدينا قوة دفاعية هنا فى فيشنسكايا .

وتلفت حوله ، ثم اقترح على غريغورى ، مخفضاً صوته ، بقوله :

— اسمع ، لنبتعد من هنا . سر معى قليلاً . ان المكان هنا مكتظ بالناس ولن تسنح لنا فرصة للحديث .

ومضيا يسيران فى الشارع . تساءل فومين وهو ينظر الى غريغورى من زاوية عينه :

— أتنوى العيش فى القرية ؟

— وأين يمكن أن أعيش اذا لم يكن فيها ، بالتأكيد .

— وتعمل فى الأرض ؟

— أجل .

فهز فومين رأسه مشفقاً وقال متنهداً :

— اخترت وقتاً سيئاً ، يا ميليخوف ، سيئاً جداً . . . ما كان لك أن تعود قبل مضى عام آخر أو حتى عامين .

— ولم لا ؟

فأمسك فومين بمرفق غريغورى ومال عليه قليلاً وقال فى صوت هامس :

— ثمة اضطراب فى الاقليم . القوزاق حانقون جداً على الحكومة بسبب عمليات تجميع المؤونة لتجهيز الجيش الأحمر بها . هناك انتفاضة فى منطقة بوغوتشار ، نحن خارجون لها اليـــوم لاخمادها . ان خير نصيحة تقدم اليك ، أيها الشاب ، هى أن تنسل من هنا فى الحال ، وبسرعة ! كنا ، أنا وبيوتر ، صديقين صدوقين ، ولهذا أنصحك بالابتعاد من هنا .

— ليس لدىّ مكان أذهب اليه .

— حسن ، خذ حذرك ! وانا أقول لك هذا لأن الدائرة السياسية شرعت باعتقال الضباط السابقين . ففى خلال هذا الأسبوع فقط ، جىء بثلاثة حاملى علم من دوداريفكا وواحد من ريشتوفكا ، وهم الآن يساقون زرافات من الجانب الآخر للدون ، حتى أنهم

شرعوا يشددون على الأنفار من القوزاق . والآن ، استنتج بنفسك ، يا غريغورى بانتلاييفتش .

فقال غريغورى بعناد :

— شكراً للنصيحة ، لكننى لست ذاهباً الى أى مكان بأية حال .

— حسن ، ذلك من شأنك أنت .

ثم حوّل فومين وجهة الحديث نحو الوضع فى الاقليم ، وعلاقاته هو بسلطاته والقوميسار العسكرى فى الاقليم ، شاخاييف . فاستمع اليه غريغورى دون انتباه ، اذ كان هو غارقاً فى أفكاره الخاصة . ومضيا يسيران مسافة أخرى ، ثم توقف فومين .

— لدىّ زيارة علىّ أن أؤديها . الى اللقاء .

وأدى التحية واضعاً يده الى طاقيته الفرو ، وودع غريغورى وداعاً بارداً ، ومضى حدر منعطف جانبى ، منتصب القامة ، مترفعاً على نحو سخيف ، وسيور نطاقه الجديدة لا تنفك ترسل صريراً منتظماً . فتابعه غريغورى بنظره ثم استدار .

وفيما كان يرتقى درجات سلم الدائرة السياسية الحجرى ، حدث نفسه :

«اذا كانت هذه هى النهاية ، فالخير فى عاجلها . لا معنى فى تمطيطها . لقد عرفت كيف تقترف الأذى ، يا غريغورى ، فعليك الآن أن تعرف كيف تتحمل تبعة ذلك » .

٨

فى حوالى الساعة الثامنة صباحا ، كومت أكسينيا الفحم فى الموقد ثم اقتعدت المصطبة تمسح بوزرتها وجهها المضرج

بالدم والمندى بالعرق . كانت قد أفاقت من النوم قبل الفجر لكى تنهى طبخها فى أقرب وقت ممكن . أعدت مرق دجاج مع الشعرية ، وبعضاً من الزلابيات ، وصبت كثيراً من القشدة على فطائر مسكّرة صغيرة وضعتها فى المقلاة : كانت تعرف حب غريغورى للفطائر المقلية ، وقد أعدت هذه الوجبة الفاخرة على أمل ان يتغدى حبيبها لديها .

كانت الرغبة تعصف بها للذهاب الى دار آل ميليخوف متعللة بأى عذر لتمضى دقيقة فقط ، هناك ، ولتسترق نظرة خاطفة الى غريغورى ، فحسب . لقد بدا لها من المستحيل أن يكون هو هناك ، فى الدار المجاورة ، ولا تراه . ومع ذلك ، سيطرت على زمام عاطفتها ولم تذهب . فلم تكن بالصبية . ولا مبرر لمن كان فى عمرها أن يتصرف تصرفاً أرعن .

غسلت وجهها ويديها باعتناء أكثر من العادة ، وارتدت قميصاً نظيفاً وتنورة جديدة مطرزة . ولبثت وقتاً طويلاً مترددة أمام الصندوق المفتوح . كان عليها الآن ان تختار ما الذى سترتدى . لم يكن من المناسب قط أن ترتدى أفضل ما لديها فى يوم عمل ، ومع ذلك لم تود ان تبقى فى ملابس العمل البسيطة . وازاء حيرتها فيما ستلبس ، عقدت حاجبيها وشرعت تقلب التنورات المكوية فى غير احتراس . وأخيراً استقر رأيها على تنورة غامقة وصدرية داخلية شبه الجديدة مطرزة الأطراف بشريط مخرم أسود كانت أفضل ما تملك . ما همها ما سيقول الجيران ؟ فليكن اليوم يوم عمل لهم . أما لها فكان يوم عيد . وأسرعت ترتدى أفضل حللها ، ثم مضت الى المرآة فانحدرت على شفتيها ابتسامة صغيرة مندهشة . كانت عيناها الفتيتان المتأججتان تحدقان فيها باهتمام وطرب . تطلعت أكسينيا بصرامة فى وجهها عن

كثب ، ثم تنفست الصعداء . لا ، فان جمالها لم يذو بعد ، ولسوف يستوقف كل قوزاقى ان مر بها ، ولسوف يلتهمها بعينين ملتهبتين اذ تجتازه !

وفيما كانت تسوى تنورتها أمام المرآة ، قالت بصوت مسموع :

— حسن ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، والآن ، تماسك !

وحينما أحست بأن وجهها اصطبغ بالدم ، انفجرت فى ضحك هادئ مخنوق . على أنها لم تعدم أن عثرت على بضع شعرات شائبة على صدغيها ، فانتزعتها : يجب ألا تقع عين غريغورى على ما يذكّره بعمرها . كانت تريد أن تظل ، بالنسبة له ، تلك الفتاة التى عرفها قبل سبع سنوات .

افلحت ، على نحو ما ، فى ابقاء نفسها فى الدار حتى وقت الغداء ، بيد أنها لم تستطع آنئذ ان تمسك بزمام نفسها أكثر من ذلك ، فألقت شالاً من صوف الماعز الأبيض على كتفيها ومضت الى دار آل ميليخوف . فوجدت دونيا وحدها فى الدار . حيتها وسألتها :

— لم تتناولوا غداءكم بعد ، أليس كذلك ؟

— كيف يتسنى لنا تناول الغداء فى وقته مع كل من هم فى الخارج ؟ زوجى فى مقر السوفييت . وغريغورى ذهب الى فيشنسكايا . لقد أطعمت الطفلين ، وها أنا الآن فى انتظار الكل .

فقالت أكسينيا بادية الهدوء ودون أن تكشف ، بكلمة أو بحركة ، عن الخيبة التى أحست بها .

— وقد حسبت أنكم جميعاً فى الدار . ومتى سيعود غريشا . . . غريغورى بانتلاييفتش ؟ اليوم .

فاحالت دونيا نظرة سريعة على جارتها المتزينة بأفضل حللها ، وقالت على مضض :

— ذهب ليسجل نفسه .

— ومتى وعد أن يعود ؟

فتلألأت الدموع فى عينى دونيا . وقالت واللوم يشوب صوتها المتعثر :

— كأنك وجدت الوقت المناسب . . . للتأنق . . . لكنك لا تعرفين . . . ربما لا يعود الى بيته .

— ماذا تقصدين ؟

— يقول ميخائيل انه سيعتقل فى فيشنسكايا . . .

وشرعت دونيا تسكب دموعاً شحيحة حانقة . وصرخت وهى تمسح عينيها بكمها :

— اللعنة ! اللعنة على هذه الحياة ! متى سينتهى كل هذا ؟ لقد ذهب ، والطفلان جن جنونهما ، ولا ينفع الكلام معهما :

— أين ذهب بابا ومتى سيعود ؟

— وكيف لى أن أعلم ؟ أخرجتهما الى الفناء ، لكن الألم يعصر فؤادى عصراً . . . ماذا تسمين هذه الحياة اللعينة ؟ ليست هناك راحة قط ، ولو ملأت الدنيا صراخاً . . .

— اذا لم يعد فى المساء فسأذهب الى فيشنسكايا غداً لاستكناه جلية الأمر .

فاهت أكسينيا بهذه الكلمات فى لامبالاة عجيبة وكأنها تتحدث عن أمر اعتيادى لا يستلزم أدنى انفعال .

فتنهدت دونيا ، وقد أذهلها هدوء أكسينيا ، وقالت :

— لا خير يتوقعه الآن ، هذا واضح . لقد عاد ليلاقى

الكثير من المصاعب !

— نحن لا نعلم شيئاً بعد . والآن ، كفى عن البكاء ، والا فان الطفلين سيفكران . . . الى اللقاء !

• • •

عاد غريغورى فى وقت متأخر من ذلك المساء . فلبث بعض الوقت فى الدار ، ثم مضى ليرى أكسينيا .

لقد عمل القلق الذى عاشت غماره أكسينيا طوال ذلك اليوم على تقليل بهجة اللقاء على نحو ما . اذ ما ان حل المساء حتى هجست وكأنها قد عملت طوال النهار دون أن تقيم مرة ظهرها . وحينما استبدت بها الكآبة والكلال وأمضّها الترقب والانتظار ، استلقت على السرير وشرعت الغفوة تأخذها . ولكن ، ما ان سمعت وقع خطوات خارج النافذة حتى قفزت بخفة فتاة صبية .

سألته وهى تضع ذراعيها حوله وتفكك أزرار معطفه الثقيل :

— لمَ لم تخبرنى بأنك ذاهب الى فيشنسكايا ؟

— لم تسنح لى الفرصة .

— تقرحت أجفاننا ، دونيا وأنا ، من البكاء منفردتين مخافة ألا تعود .

فابتسم غريغورى ابتسامة موهنة :

— لا ، ليس الأمر على هذه الدرجة من السوء .

ثم أضاف :

— . . . حتى الآن ، على الأقل .

وجرّ خطى ثقيلة حتى بلغ المائدة وجلس . كانت غرفة الضيوف ، والسرير الخشبى الواسع فى احدى زواياها ، والصندوق

بأحزمته النحاسية المشعة فى خفوت ، مرئية خلل الباب المفتوح . كان كل شىء كما عهده فى تلكم الأيام ، حينما جاءها فتياً ، فى غياب ستيبان . لم تعثر عينه على أى تغيير يذكر . يبدو كأن الزمن قد مرّ بهذا المكان دون أن يلقى نظرة على داخله . حتى الرائحة القديمة لا تزال باقية ، الرائحة المخمرة للكروم البرية الغضة ، والأرضية الممسوحة ، وبقايا فواح خفيف ، لا يكاد يشم ، لصعتر ذاو . بدا كل شىء وكأنه لم يغادره الا فى فجر اليوم السابق . أما فى الواقع فما كان أطوله دهراً ! . . .

كتم زفرة ، وشرع يلف سيكارة على مهل . بيد أن يديه ارتعشتا ، لسبب ما ، فطش التبغ على ركبتيه .

أسرعت أكسينيا تعد المائدة . كان عليها أن تسخن الشعرية ، فهرعت الى المأوى طلباً للحطب ، ثم عادت ، مبهورة الأنفاس شاحبة الوجه قليلاً ، لتضرم النار فى الموقد . وجعلت تنفخ فى الجمر والشرارات تتطاير منه ، بيد أنها لم تعدم أن تلقى نظرة على غريغورى الجالس ثمة ، كتفاه هادلان وهو يدخن سيكارة فى صمت .

— كيف سارت أمورك ؟ هل سويت كل شىء ؟

— سار كل شىء على ما يرام .

— لماذا أدخلت دونيا فى عقلها أنهم لا بد أن يعتقلوك ؟ لقد افزعتنى حتى الموت .

فقطّب غريغورى جبينه وقذف سيكارته بحركة محنقة :

— كان ميخائيل ينفخ فى أذنها ! انه هو الذى يخلق كل هذه القلاقل ويصبها على رأسى .

مضت أكسينيا الى المائدة ، فتناول يديها . وقال وهو يرفع عينيه الى عينيها :

— ولكن ، أتعلمين ، أن أمورى ليست على ما يرام تماماً . فحينما كنت أدخل الى الدائرة السياسية كنت أعتقد ، أنا أيضاً ، أننى لن أخرج من هناك ثانية . لا مجال للانكار ، فلقد كنت قائد فرقة فعلاً خلال الانتفاضة ، وكنت آمر سرية . انهم يعتقلون من هم على شاكلتى فى الحال .

— ولكن ما الذى قالوه لك ؟

— أعطونى استمارة لاملائها ، وكان علىّ أن أحكى كل ما سبق أن فعلت خلال خدمتى . غير أننى لست حاذقاً مع القلم والورق . لم يحصل فى سالف أيامى أن كتبت كثيراً ، فجلست ساعتين هناك أصف ماضّى بمجموعه . ثم دخل الغرفة اثنان آخران ، وسألانى عن جميع ما له علاقة بالانتفاضة . كانا لا بأس بهما ، لطيفين الى حد كبير . وسألنى أكبرهما سناً :

— أترغب فى احتساء شىء من الشاى ؟ سوى أن عليك أن تشربه بالسكرين .

فقلت فى نفسى :

— حسن طالما ستحملنى ساقاى بعيداً عنكم جميعاً !

وصمت غريغورى لحظة ، ثم أضاف فى لهجة مزدرية ، وكأنه كان يتحدث عن شخص غريب :

— أثبت أننى جبان الى حد ما ، حينما تصل الأمور الى تسوية الحساب . كنت جباناً بعض الشىء .

كان غاضباً من نفسه لما أبداه من جبن فى فيشنسكايا ولخوره ازاء الخوف الذى كان قد تملكه . وقد تضاعف حنقه حينما ثبت أن مخاوفه كانت قائمة على غير أساس . وها ان قلقه يبدو الآن سخيفاً ومعيباً . لقد تخبط عقله فى هذا الأمر

أى تخبط ، ولعل ذلك كان هو الذي حدا به الى أن يخبر أكسينيا بكل ذلك ، ساخراً من نفسه ومبالغاً بعض الشيء عند الكشف عما كان قد اعتراه .

لبثت أكسينيا تصغى اليه فى انتباه ، ثم حررت يديها برفق ومضت الى الموقد . وسألته فيما كانت تؤجج النار :

— ولكن ، ماذا عن المستقبل ؟

— يتعين علىّ أن أراجعهم ثانية فى غضون أسبوع .

— أتعتقد أنهم سيعتقلونك فى النهاية ؟

— يبدو أنهم سيفعلون . ان آجلاً أو عاجلاً سيعتقلوننى .

— اذا ، فما سنفعل ؟ كيف سنعيش ، يا غريشا ؟

— لست أدرى . لنؤجل الحديث عن ذلك . ألديك ماء أغتسل به ؟

ثم جلسا للعشاء ، ومن جديد عادت الى أكسينيا تلك السعادة العارمة التى كانت تغمرها فى الصباح . هوذا غريغورى ، الى جانبها ، وتستطيع أن تنظر اليه دون أن تحيد بصرها ، دون أن تخشى ملاحظة الآخرين لنظراتها . وعيناها تستطيعان أن تقولا كل ما تشاءان بلا مواربة أو حرج . رباه ، لكم تشوقت اليه ، وأضنت نفسها عليه ، وكم تلهف جسدها الى ملمس يديه الجسيمتين الفظتين ! وها هى ذى ثمة ، تكاد لا تمس الطعام ، منحنية الى أمام قليلاً ، تراقب غريغورى يأكل فى نهم ، وعيناها الكدرتان تغازلان وجهه ، ورقبته السمراء المختنقة ، بياقة قمصلته العالية ، وكتفيه العريضين ويديه الممدودتين على المائدة . وكانت تعبّ ، فى ظمأ ، خليطاً من رائحة العرق الرجولية النفاذة ورائحة التبغ ، ينبعث منه ، ذلك الفواح العزيز الخاص به وحده . كانت تستطيع أن تميز غريغورى من بين

ألف رجل آخر ، حتى لو كانت معصوبة العينين ، استدلالاً برائحته هذه . واضطرمت وجنتها بحمرة غامقة ، وجعل قلبها يدق دقاً سريعاً وعنيفاً . وفى هذا المساء ، لم تستطع أن تكون ربة بيت قائمة بواجباتها حقاً ، اذ لم تكن لترى شيئاً حولها سوى غريغورى . بيد أنه لم يطلب خدمتها . قطع الخبز بيده ، بحث عن المملحة ووجدها على الموقد ، وصب لنفسه صحناً ثانياً من الشعرية .

وقال مبتسماً ، وكأنه يقدم اعتذاراً :

— انا جائع كالكلب . لم أتناول شيئاً منذ الصباح .

ولم تتذكر أكسينيا واجباتها المنزلية الا آنذاك ، فقفزت من مكانها مسرعة .

— أوه ، يا لدماغى ! لقد نسيت الفطائر المسكّرة وكعك الصينية . كلْ شيئاً من الدجاج ، هيا ! زد فى الاكل ، يا حبيبى ! سأضع كل شيء على المنضدة فى لحظة .

ولبث غريغورى يأكل ويأكل ! كأنه لم يذق طعاماً منذ أسبوع ! ولا ريب أنه لم يكن فى حاجة الى تشجيع . وظلت هى تنتظر صابرة ، ثم لم تعد — أخيراً — قادرة على مزيد من الصبر . فجلست الى جانبه ، وبيدها اليسرى أدنت رأسه اليها ، وباليمنى تناولت منشفة اليد المطرزة النظيفة ومسحت بها شفتى حبيبها وذقنه الدهين . ثم قطعت نفسها وأغمضت عينيها حتى لم ينبجس منهما خلال الظلام سوى شرر برتقالى اللون صغير ، وضغطت شفتيها بقوة على شفتيه .

فى الواقع ، ما أيسر أن تبعث السعادة فى روح الانسان . ومهما يكن من أمر ، فقد عرفت أكسينيا السعادة ذلك المساء .

٩

لم يكن فى مستطاع غريغورى تحمل الالتقاء بكوشيفوى . فقد تقرر شكل علاقاتهما فى اليوم الأول من عودة غريغورى ، ولم يكن ثمة المزيد مما يمكن التحدث عنه ولا أى جدوى فى الحديث . ولعل ميخائيل ، هو الآخر ، لم تعد تسره رؤية غريغورى . فاستخدم نجارين قاما باجراء اصلاحات سريعة على كوخه الصغير ، فجددا عوارض السقف المتعفنة وهدما أحد الحيطان المتأرجحة ثم أعادا بناءه ، وأقاما وصائد وأطراً وأبواباً جديدة .

لما عاد غريغورى من فيشنسكايا ذهب الى لجنة القرية الثورية وسلم كوشيفوى وثائقه المصدقة من القوميسارية العسكرية ، ثم غادر المقر دون كلمة وداع . ومضى ليسكن مع أكسينيا ، مصطحباً الطفلين وبعضاً من أغراضه . وحينما وقعت عينا دونيا عليه وهو يغادرهم الى مسكنه الجديد ، انفجرت باكية . وقالت وهى ترنو اليه فى توسل :

— يا أخى العزيز ، لا تغضب منى . لم أقترف خطأ ضدك .

فرد عليها مسكناً :

— ولماذا أغضب منك ، يا دونيا ؟ لست غاضباً على الاطلاق . تعالى زورينا بين آونة وأخرى . انا الوحيد الذى تبقى لديك من العائلة . وقد كنت أحبك على الدوام ولا أزال أحبك . . . لكن زوجك . . . شىء آخر . أما أنا وأنت فلن نقطع أواصر صداقتنا .

— سنترك الدار عما قريب . لا تنزعج .

فرد غريغورى فى لهجة محنقة :

— ولماذا أنزعج ؟ ابقيا فى الدار حتى الربيع على الأقل .

أنتما لا تسببان ازعاجاً لى ، وهناك متسع لى وللطفلين لدى أكسينيا .

— هل ستتزوجها ، يا غريشا ؟

— لا يزال ثمة متسع من الوقت للزواج .

فقالت دونيا فى لهجة حاسمة :

— تزوجها ، يا أخى ، انها امرأة طيبة . قالت أمنا المرحومة انها الزوجة الوحيدة التى تصلح لك . بدأت تميل اليها فى أواخر أيامها وكانت تزورها كثيراً قبل وفاتها .

فقال غريغورى مبتسماً :

— يبدو وكأنك تحاولين اقناعى ! ومن عسى سأتزوج غيرها ؟ هل أتزوج العجوز الشمطاء أندرونيخا ؟ !

كانت أندرونيخا أكبر المعمرين سناً فى تتارسكى . وقد مضى وقت طويل منذ أن امضت قرناً من عمرها . وحينما تذكرت دونيا هيكلها القمىء المحنى انفجرت ضاحكة :

— يا للأشياء التى تقولها ، يا أخى ! كنت أسأل ، فحسب . أنت لا تتحدث أبداً عن هذا الموضوع ، ولهذا سألتك .

— سأدعوك الى الزفاف ، كائناً من كانت زوجتى !

وربّت غريغورى متمازحاً على ظهر أخته وغادر بيته القديم بقلب خلى . وفى الواقع ، كان غير مهتم بأمر المكان الذى سيعيش فيه طالما كان فى مقدوره أن يعيش بسلام . قضى عدة أيام فى بطالة كئيبة . حاول أن يعالج شأناً أو اثنين من شؤون حقل أكسينيا ، لكنه أحسّ فى الحال بأن ليس فى مكنته انجاز أيما عمل . لم تكن به رغبة لعمل أيما شىء . كانت الحيرة المعوقة التى تخيم على وضعه تعذبه وتمنعه من الحياة .

فلم تغب عن باله ، لحظة ، حقيقة أنه قد يعتقل ويلقى به فى أحسن الأحوال ، فى غياهب السجن ، أو أنه قـــد يُعدم .

كانت أكسينيا تفيق من النوم فى الليل فتجده مستيقظاً ، مستلقياً — فى العادة — على ظهره ويداه خلف رأسه ، محدقاً فى الظلمة ، وعيناه باردتان قاسيتان . كانت أكسينيا تعرف مدار أفكاره آنئذ . بيد أنه لم تكن بيديها أية وسيلة لمساعدته . فكانت ، هى الأخرى ، تعانى الألم حينما ترى مدى الآلام التى كان يقاسيها ، وتتصور أن آمالها فى العيش معه كانت تنحسر نحو الأبعاد القصية من جديد . لم تكن تسأله عن أى شىء . فليتخذ القرارات بنفسه . الا مرة ، ذات ليلة ، استيقظت فوقعت عيناها على الوهج الكابى لسيكارة الى جانبها ، فقالت :

— غريشا ، انك لا تنام مطلقاً . لعل من الأفضل أن ترحل عن القرية فى الوقت الحاضر على الأقل . أو نذهب معاً الى مكان ما ونختفى .

فغطى ساقيها بالبطانية فى حنو ، وأجاب على مضض :

— سأفكر فى الأمر . نامى .

— ونستطيع أن نعود فيما بعد ، بعد أن يكون كل شىء قد هدأ ، ما رأيك ؟

فكرر جوابه غير المحدد ، وكأنه لم يتخذ أى قرار بعد :

— سنرى كيف ستسير الأمور . نامى ، يا أكسينيا .

وفى حذر وحنان ، قبّل كتفها العارى البارد كالحرير .

الا أنه فى واقع الحال ، كان قد اتخذ قراره : لن يذهب الى فيشنسكايا ثانية . سيظل الرجل ، الذى كان قد استقبله فى الدائرة السياسية ، ينتظر قدومه اليه بلا جدوى . لقد جلس ،

وقتئذ ، وراء منصدته ، ومعطفه الثقيل ملقى على كتفيه ، يمطّى نفسه ويطقّ مفاصله ، ويتصنع التثاؤب ، بينما كان يستمع الى قصة غريغورى عن الانتفاضة . حسن ، لن يستمع الى المزيد . لقد رويت القصة وكفى .

فى اليوم المحدد لذهابه الى الدائرة السياسية ، سيغادر القرية ، واذا دعت الضرورة ، فالى أمد طويل . الى أين ، لم يكن هو نفسه يدرى ، الا أنه عقد العزم يقيناً على مغادرة القرية . لم تكن به رغبة للموت أو للذهاب الى السجن . لقد اختار طريقه ، غير أنه لم يشأ أن يتحدث عنه الى أكسينيا قبل الأوان . لا معنى فى تسميم أيامها الأخيرة القليلة معه . . . فتلك الأيام — على حالها الراهنة آنئذ — لم تكن بهيجة جداً . لقد قرر أن يتحدث عن الموضوع فى اليوم الأخير ، أما الآن ، فلتنم نوماً هادئاً ، وجهها ملتصق بابطه . كانت كثيراً ما تقول خلال تلكم الليالى :

— لطيف أن أعيش تحت كنفك .

حسن ، فلتنم الآن . يا للمسكينة . لم يبق لها سوى أمد قصير تستكن فى كنفه خلاله .

فى الصباح ، كان غريغورى يلاعب الطفلين ، ثم يتمشى على غير هدى فى أرجاء القرية . وكانت معنوياته ترتفع حينما يكون بصحبة آخرين . وذات يوم اقترح عليه بروخور أن يذهبا الى دار نيكيتا ملنيكوف ليشربا مع القوزاق الشباب الآخرين الذين كانوا برفقتهما فى الكتيبة . فرفض غريغورى الاقتراح فى الحال . كان يعلم من أحاديث القرويين أنهم كانوا متذمرين من قيام السلطة بتجميع الحبوب وأن الحديث لا بد أن يتطرق الى هذه الناحية أثناء الشرب . كان لا يريد أن يستجلب الشكوك

عليه ، فكان حتى اذا التقى ببعض المعارف يتجنب التحدث عن السياسة . لقد شبع سياسة وناله من الأذى ما نال من جرائها .

كان حذره فى مكانه ، وخصوصاً حينما كانت اجراءات تجميع الحبوب لا تعطى الا نتائج تافهة ، مما أدى الى اعتقال ثلاثة شيوخ بمثابة رهائن وأرسلوا تحت الحراسة الى فيشنسكايا .

وفى اليوم التالى ، رأى غريغورى ، على مقربة من حانوت الجمعية التعاونية المدفعى السابق زاخار كرامسكوف الذى كان قد عاد مؤخراً من بين صفوف الجيش الأحمر . وكان سكران تماماً ، يتأرجح فى مشيته . ولكن ، ما ان اقترب من غريغورى حتى زرر سترته الوسخة ، وقال بصوت أجش :

— أتمنى أن تكون بخير ، يا غريغورى بانتلاييفتش .

— أجمعين !

وهز غريغورى قبضة المدفعى المتينة ، كثيرة العقد .

— هل عرفتنى ؟

— عجباً ، وكيف لا ؟

— أتذكر كيف أنقذتك بطاريتنا ، فى العام الماضى ، على مقربة من بوكوفسكايا ؟ ولولا نحن لكانت خيالتكم فى موقف عصيب . ما كان أكثر الحمر الذين لعبنا بهم ، كالكرة ، فى ذلك اليوم ، أى بحق الجحيم ! كنت هدّاف المدافع رقم واحد آنذاك .

وصفق زاخار راحته على صدره العريض .

فاختلس غريغورى نظرة حواليه . . . كان بضعة قوزاق يقفون على مبعدة قليلة يستمعون الى حوارهما . فارتعش طرفا شفتى غريغورى ، وكشر تكشيرة محنقة ، كاشفاً عن اسنانه البيض القوية . وقال فى صوت خفيض خلل أسنانه المصكوكة :

— أنت سكران ! اذهب ونم . ولا تتكلم أكثر مما ينبغى !

فصاح المدفعى السكير :

— كلا ، لست سكران . او لعلنى سكران تعاسة ! لقد عدت الى بيتى ، ولكن هذه ليست حياة هنا ، انها لا أكثر من جهنم دموية ! لم يعد القوزاق يحيون ، ولم يعد هناك قوزاق . فانهم استحصلوا ، منى فقط ، نصف طن من الحبوب ، فماذا تسمى ذلك ؟ هل هم زرعوها لكى يحق لهم أن يأخذوها ؟ هل يعرفون ما الذى يجعل الحبوب تنمو ؟

وحملق بعينين بليدتين محمرتين ، وبغتة أنشب يده بغريغورى وهو يترنح ونفخ برائحة مشعة بالفودكا فى وجهه :

— لماذا ترتدى بنطلونك بلا شرائط ؟ هل سجلت نفسك ولاحاً ؟ لن ندعك ! يا عزيزى غريغورى بانتلاييفتش ، يجب أن نشق طريقنا بالقتال ! سنقول ، كما قلنا فى العام الماضى : فلتسقط الكومونة ، ولكن لتحيا الحكومة السوفييتية !

فدفعه غريغورى عنه دفعة خشنة وتمتم :

— أذهب الى بيتك ، أيها الخنزير السكير ! أتعرف ما أنت قائل ؟

واخرج كرامسكوف يداً واحدة ، وثغثغ قائلاً ، وهو ينشر أصابعه المبقعة بآثار التبغ :

— عفواً ان قلت شيئاً مخطوءاً . المعذرة ، لكننى أتحدث اليك مخلصاً ، باعتبارك آمر وحدتى الحبيب . . . يجب أن نقاتل من جديد !

واستدار غريغورى وسار باتجاه الدار عبر الساحة . غير أن هذا اللقاء غير المناسب خلّف اثراً لبث يخامره حتى المساء .

تذكر صيحات كرامسكوف الثملة ، وصمت القوزاق التعاطفى وابتساماتهم وقال محدثاً نفسه :

— يجب أن أغادر القرية بسرعة . لا خير يأتى من كل هذا . . .

كان عليه ان يذهب الى فيشنسكايا يوم السبت . معنى ذلك أنه سيجد لزاماً عليه أن يغادر قريته فى غضون ثلاثة أيام . لكن ذلك لم يحصل : فى ليلة الخميس ، حينما كان يستعد للنوم ، طرق أحدهم الباب طرقًا عنيفًا . فخرجت أكسينيا الى السقيفة . وسمعها تقول : «من هناك ؟» بيد أنه لم يستطع سماع الرد . لكن شعوراً غامضاً بالقلق جعله ينهض من السرير ويذهب الى النافذة . قعقع المزلاج فى الممر . كانت دونيا أول من دخل . نظر الى وجهها الشاحب ، وشرع ، حتى قبل أن يسألها عن أى شىء يلتقط قبعته ومعطفه الثقيل من على المصطبة .

— يا اخى . . .

وسألها بصوت خافت ، وهو يدس ذراعيه فى كمى معطفه :

— ما الامر ؟

وقالت لاهثة مستعجلة :

— يا اخى ارحل فوراً ! لقد جاء أربعة خيالة من فيشنسكايا . وهم جالسون فى غرفة الضيوف . كانوا يتحدثون همساً ، بيد أننى سمعت . وقفت لصق الباب وسمعت كل شىء . سمعت ميخائيل يقول انه يجب اعتقالك . . . انه يخبرهم بكل شىء عنك . . . ارحل !

خطا غريغورى بسرعة نحوها ووضع ذراعيه حولها وطبع قبلة قوية على خدها :

— شكراً لك يا أختى . والآن عودى والا فسيلاحظون خروجك . الى اللقاء !

ثم التفت الى أكسينيا :

— خبز ! بسرعة ! كلا ، ليس رغيفاً كاملاً ، قطعة فقط .

اذن فقد حلت نهاية حياته الهادئة الوجيزة . تصرف وكأنه فى معركة ، بسرعة انما بثقة . مضى الى غرفة الضيوف وقبّل ، باحتراس ، الطفلين النائمين ، ثم احتوى أكسينيا بين ذراعيه :

— الى اللقاء ! سأرسل اليك بأخبارى قريباً . سيقوم بروخور باخبارك . اعتنى بالطفلين . ازلجى الباب . اذا طرقوه أخبريهم بأننى ذهبت الى فيشنسكايا . حسن ، الى اللقاء ولا تحزنى ، يا أكسينيا !

وحينما قبّلها ، أحس بدموعها المالحة الساخنة على شفتيه .

لم يكن لديه وقت لتطمينها ولسماع كلماتها المتكسرة اليائسة . وبرفق فك ذراعيها اللتين كانتا تطوقانه ، وخطا الى الممر ، وتسمع ، ثم فتح الباب الخارجى على مصراعيه فلفحت وجهه الريح الباردة الهابة من ناحية الدون . أغمض عينيه ثانية من الوقت ريثما يعتاد على الظلمة ، ثم مضى .

لبثت أكسينيا تصغى الى خشخشة الثلج تحت قدميه . وكانت كل خطوة تدخل ألماً حاداً الى قلبها . ثم تلاشى صوت الخطوات وانبعث صرير من سياج الاسفندان . أمسى كل شىء ساكناً هامداً ، سوى الريح تعوى فى الغابة على الجانب الآخر من الدون .

حاولت أن تلتقط صوتاً خلال زئير الريح ، لكنها لم تسمع شيئاً . فجأة أحست ببرد . مضت الى المطبخ وأطفأت المصباح .

فى أواخر خريف عام ١٩٢٠ ، وحينما وجدت الحكومة السوفييتية أن من الضرورى تشكيل مفارز لجمع الحبوب ، وذلك نظراً للنتائج الهزيلة التى حققتها سياسة طلب تجهيزات الحبوب ، تفشى الاضطراب ما بين أهالى الدون القوزاق . فظهرت الى الوجود عصابات مسلحة صغيرة فى مناطق الدون الأعـــلى ، كشوميلنسكايا وكازانسكايا وميجولنسكايا ومشكوفسكايا ويلانسكايا وغيرها . وجاء تشكيل هذه العصابات بمثابة رد فعل من قطاع أغنياء القوزاق على تنظيم مفارز جمع الحبوب وازاء اجراءات الحكومة السوفييتية المتشددة لتنفيذ سياسة طلب تجهيزات الحبوب .

كانت غالبية العصابات ، التى كان عدد افراد كل واحدة منها يتراوح ما بين خمسة الى عشرين رجلاً ، تتكون من القوزاق المحليين الذين كانوا فى السابق من رجال «الحرس الأبيض» الفعالين . واشتملت على رجال كانوا ، خلال عامى ١٩١٨ و١٩١٩ ، قد خدموا فى المفارز التأديبية ، وعلى نواب ضباط وضباط صغار من «جيش الدون» السابق الذين أفلتوا من عملية التجنيد التى اجرتها الحكومة السوفييتية فى شهر أيلول ، وعلى متمردين كانوا قد برزوا فى حوادث القمع العسكرية واعدام أسرى الجيش الأحمر خلال انتفاضة السنة السابقة فى منطقة الدون الأعلى ، أى باختصار ، الرجال الذين لم يستطيعوا ، مهما كانت الظروف ، أن يستقروا تحت الحكم السوفييتى .

كانت العصابات تنقض على مفارز التجميع فى القرى ، وتمنع عربات القرويين المحملة بالحبوب من المضى الى نقاط التجميع وتعيدها الى القرى ، وتفتك بالشيوعيين والقوزاق غير الحزبيين المناصرين للحكم الجديد .

اسندت مهمة القضاء على هذه العصابات بفوج حامية تابع لاقليم الدون الأعلى ، معسكر فى فيشنسكايا وقرية بازكى . بيد أن جميع المحاولات التى بذلت للقضاء على تلك العصابات منتشرة فى ارجاء منطقة الدون الفسيحة آلت الى الفشل . ويعزى ذلك بالدرجة الرئيسية الى ان السكان المحليين كانوا يكنّون عطفاً على العصاة ويزودونهم بالطعام والمعلومات عن تحركات قوات الجيش الأحمر ، وكذلك يخفونهم حينما يتعرضون الى المطاردة . على أنه بالاضافة الى كل ذلك ، لم يكن آمر الفوج كابارين ، وهو من «الثوار–الاشتراكيين» نقيب الركن سابق فى الجيش القيصرى ، متحمساً لرؤية قوات الثورة المعاكسة يقضى عليها فى هذه المنطقة وعمل كل ما فى وسعه لعرقلة العمليات التى كانت توجه ضدهم . ولم يقم بغارات استطلاعية قصيرة بقواته الا لماماً ، والا عندما كان يستحثه للعمل رئيس لجنة الحزب الاقليمية ، وحتى آنذاك كان سرعان ما يعود الى فيشنسكايا بحجة أن من واجبه ألا يشتت قواته أو يقدم على مغامرات طائشة تاركاً فيشنسكايا ومخازنها ومؤسساتها الاقليمية بدون قوة دفاعية كافية . كان فوجه يؤدى المهمات التى تؤديها أية حامية ، مع أن تعداده كان حوالى اربعمائة حامل حربة وأربع عشرة رشاشة . كان الجنود يقومون بحراسة الأسرى وجلب الماء وقطع الأشجار فى الغابة ، وكانوا — كجزء من أعمالهم الاجبارية — يجمعون جوز التنين من أشجار البلوط لاستعماله فى صناعة الحبر . وغدا الفوج خير مجهز بالخشب والحبر للمؤسسات والمكاتب الاقليمية العديدة ، الا أن عدد العصابات المتمردة الصغيرة كان ، فى غضون ذلك ، يزداد بمعدل مدهش . ولم يتوقف قطع الأخشاب وجمع جوز التنين ، قسراً ، الا فى كانون الأول وذلك حينما اندلعت انتفاضة واسعة

النطاق فى منطقة بوغاتشار من مقاطعة فورونيج الواقعة على حدود اقليم الدون الأعلى . وبناء على أمر صدر من قائد الجيش فى اقليم الدون ، أرسل الفوج ، وكان يتألف من ثلاث سرايا وفصيلة رشاشات ، مع سرية خيالة الحامية ، والفوج الأول التابع لكتيبة جمع الحبوب الثانية عشرة ، ومفرزتين دفاعيتين محليتين صغيرتين ، وذلك للقضاء على الانتفاضة .

وفى معركة دارت رحاها بالقرب من قرية سوخوى دونيتس ، شنّت سرية فيشنسكايا ، بقيادة ياكوف فومين ، هجوماً على صفوف المتمردين من جناحها ، واجتاحتهم اجتياحاً ، فلاذوا بالفرار ، فيما صُرع من بين صفوفهم حوالى مائة وسبعين رجلاً ، بينما لم تتجاوز خسائر السرية ثلاثة رجال . كان كل رجال السرية ، الا حفنة منهم ، من القوزاق ، من أهالى منطقة الدون الأعلى الأصليين . وفى هذا القتال عادوا ثانية الى اخلاصهم الى التقاليد القوزاقية العريقة . فعلى الرغم من احتجاجات الشيوعيين الموجودين فى السرية ، قام ما يقارب من نصف الرجال باستبدال معاطفهم الثقيلة وستراتهم اللبادية العتيقة بالفروات الجيدة التى كان يرتديها المتمردون القتلى .

بعد بضعة أيام من اخماد الانتفاضة ، استدعيت السرية ثانية الى كازنسكايا . وهناك أراح فومين نفسه من أعباء الحياة العسكرية وجعل يمتع نفسه بأكبر قدر ممكن من الملذات . كان زير نساء لا يبارى ، وقوزاقياً اجتماعياً مرحاً ، فكان يختفى عن الأنظار ليلة اثر ليلة ، لا يعود الى مقره الا مع الفجر . فاذا صادف أن رآه رجاله ، الذين كانت علاقاته بهم خالية من الرسميات ، يسير ذات مساء فى الشارع ملمّع الجزمة ، تبادلوا الغمزات العارفة ، وقالوا :

— اذا ، فجوادنا الفحل ذاهب الى الأفراس من جديد ! يعنى أنه لن يخرج من بينهن حتى الفجر !

ومن غير أن يعلم قوميسار السرية ومرشدها السياسى ، كان من عادة فومين أن يزور مقرات قوزاق معينين من سريته كان على علاقة طيبة معهم ، وذلك متى ما أوصلوا الكلمة اليه أن ثمة فودكا وافرة وجلسة سكر عامرة . وكانت هذه الزيارات كثيرة التكرار . ولكن ، ما لبث الآمر الفاتن أن أمسى ملولاً كئيباً وكاد أن ينسى ، كلية ، وسائله الأخيرة فى طلب المتعة . فلم يعد ينظف جزمته العالية الأنيقة فى الأماسى بذات الحماسة السابقة أو يهتم بحلاقة ذقنه كل يوم . لكنه ، مع ذلك ، لم ينقطع عن زيارة مقرات رفاق قريته فى السرية من حين لآخر ، غير أنه لم يكن يسهم فى الحديث معهم بنصيب كبير .

لقد طرأ التغيّر فى سلوك فومين غب تسلمه تقريراً كان قد تلقاه آمر الفصيلة من فيشنسكايا . اعلنت فيه الدائرة السياسية لـ «تشيكا الدون» باقتضاب أن فوج الحامية وآمره المدعو فاكولين قد أعلنا العصيان فى ميخائيلوفكا الكائنة فى منطقة أوست–مدفديتسكايا المجاورة .

من المصادفة ان فاكولين هذا كان صديقاً لفومين ورفيقاً فى الكتيبة سابقاً ، وكانا قد خدما معاً ، ذات يوم ، فى فيلق متمردى ميرونوفو ، وسلما سلاحيهما معاً حينما أحاطت بتلك القوة خيالة بوديونى . ولم تنقطع أواصر الصداقة بين فومين وفاكولين أبداً ، ولم يكن قد مضى وقت طويل مذ قام فاكولين بزيارة فيشنسكايا ، وذلك فى أوائل أيلول . وحتى فى ذلك الوقت ، وتشكى لصديقه القديم والغيظ يحتدم فيه من «سيطرة القوميسارية ، والحاق الخراب بالمزارعين جراء طلبات تجهيز الحبوب للسلطة ،

وقيادة البلاد نحو الكارثة» . وفى أعماق قلبه ، كان فومين يوافق على آراء فاكولين ، الا أنه تصرف ازاء ذلك فى تحفظ ، ولجأ الى دهائه الذى كان يخدمه فى غياب ذكائه الفطرى . كان فومين ، فى طبيعته ، حذراً ، لا يتعجل قط ، ولا يلزم نفسه بشىء بدون روية . ولكن ، بعد أن علم بالعصيان الذى أعلنه فوج فاكولين ، تخلى عن حذره الاعتيادى . وحدث ذات مساء ، قبيل رحيل السرية الى فيشنسكايا ، أن اجتمع عدد من القوزاق فى مقر آمر الرعيل ألفيروف . كان ثمة سطل كبير من سطول الخيل ، ملىء بالفودكا . وكانت رحى حديث حار تدور حول المائدة . وكان فومين ، الذى حضر جلسة الشرب تلك ، يستمع فى صمت الى الحديث ويغرف الفودكا ، بالصمت ذاته ، من السطل . ولكن ، حينما شرع أحد القوزاق يستعيد ذكرى الهجوم الذى كانوا قد شنوه على مقربة من سوخوى دونيتس ، قاطعه فومين وهو يبرم شاربه متفكراً :

— اوقعنا الطعن الأوكرانيين بشكل لا بأس به ، أيها الأولاد ، ولكن لنأمل ان لا نعرف ، نحن ، الحزن والأسى فى وقت قريب . افرضوا أننا ، حينما نرجع الى فيشنسكايا ، سنجد مفارز تجميع الحبوب قد أفرغت بيوتنا من الحبوب ؟ ان أهالى كازانسكايا شديدو التذمر من مفارز الحبوب هذه . لقد كانوا يكنسون صناديق الغلة بالمكانس . . .

فخيّم سكون على الغرفة . نظر فومين الى رجاله ثم قال بابتسامة مغتصبة :

— لم أكن سوى مازح . . . خذوا حذركم ، ولا تفلتوا عقال ألسنتكم ، لأن الشيطان وحده يدرى ماذا قد تعنى المزحة فى نظر الآخرين .

فى طريق عودته الى فيشنسكايا ، عرج فومين على قريته روبزنى يصحبه نصف رعيل من خيالته . فترجل عند البوابة ، وألقى بالعنان نحو أحد رجاله ، ودخل الى البيت .

هز رأسه ببرود لزوجته ، وانحنى انحناءة خفيفة لأمه وصافحها باحترام ، ثم عانق أطفاله .

سأل فيما كان يجلس على مقعد واضعاً سيفه بين ساقيه :

— وأين أبى ؟

فأجابت أمه :

— ذهب الى الطاحونة .

ثم قالت لابنها بلهجة آمرة صارمة وهى تحدق فيه :

— اخلع قبعتك ، أيها الكافر ! من فى الدنيا يجلس تحت أيقونة معتمر الرأس ؟ آه ، يا ياكوف ، لسوف تفقد رأسك ذات يوم من هذه الأيام !

فاصطنع فومين ابتسامة وأزاح قبعته ، بيد أنه لم يحاول أن يخلع ملابسه الخارجية .

وألحفت عليه أمه بقولها :

— لماذا لا تخلع معطفك ؟

— جئتكم لدقيقة أو دقيقتين كى أراكم . لا وقت لى أثناء الخدمة .

فقالت العجوز بلهجة خشنة وهى تلمّح الى سلوك ابنها المشين وعلاقاته بالنساء فى فيشنسكايا :

— نحن أدرى بخدمتك !

اذ كانت شائعات سلوكه قد دارت منذ أمد طويل فى أرجاء روبزنى .

ألقت زوجة فومين نظرة فزعة على حماتها ومضت نحو

الموقد . كانت امرأة شاحبة الوجه . بان الكبر عليها قبل الأوان . ولكى تعمل شيئاً ما يسر زوجها وتنال به حظوة لديه وتكسب منه نظرة امتنان واحدة على الأقل ، تناولت خرقة من تحت الموقد وجثت على ركبتيها وشرعت ، محنية الظهر ، تزيل الطين السميك العالق بجزمته .

وهمست فى صوت لا يكاد يُسمع دون أن ترفع رأسها وهى تزحف حول قدمى زوجها :

— يا لها من جزمة بديعة ، يا ياكوف ! لكنها موحلة ! سأنظفها لك ، سأنظفها حتى تلمع !

لم يكن قد عاش معها لعدة سنوات ، ولعدة سنوات لم يكن يحمل أى احساس ، سوى شفقة ازدرائية خفيفة ، ازاء هذه المرأة التى كان قد أحبها أيام فتوته . أما هى ، فقد ظلت مقيمة على حبه ، وكانت تغفر له كل شىء وتأمل ، فى سريرتها ، أن يعود اليها يوماً ما ، آجلاً أم عاجلاً . ولعدة سنوات طوال ، كانت تعمل فى الحقل ، وتقوم على تربية الاطفال وتبذل ما فى وسعها لارضاء حماتها ذات الأهواء المتقلبة . وناء كتفاها الهزيلان بجميع أعمال الحقل . وقد أدت الواجبات الملقاة على عاتقها والمرض الذى أصابها بعد ان وضعت طفلها الثانى الى استنزاف قوتها أكثر فأكثر على مرّ السنين . فأمست هزيلة ، وفقد وجهها نضارته ، ونشر الكبر المبكر شبكة كنسيج العنكبوت ، من الغضون على خديها وكانت تطلّ من عينيها صورة المهانة المرتعبة التى تظهر فى عيون الحيوانات الذكية المصابة بالمرض . وكانت هى نفسها لا تدرك مدى كبرها السريع وتدهور صحتها يوماً بعد يوم ، بل ظلت متشبثة بالأمل ، وكانت ، فى المناسبات النادرة التى كانت تلتقى يزوجها فيها ، ترنو الى

وسامته وأناقته باعجاب وحب حيّين .

حدّق فومين فى ظهر زوجته المحنى على صورة مفجعة ، وعظمى كتفيها الناتئين تحت قميصها ، ويديها الكبيرتين المرتجفتين تزيلان الوحل من جزمته ، وقال فى نفسه :

— انها جميلة ، لا نكران لذلك ! وهذه مَنْ كنت أضطجع معها ذات يوم ! لكنها كبرت بشكل فظيع . لكم بدى عليها الكبر !

ثم قال فى لهجة متضايقة وهو يحرر قدمه من يدى زوجته :

— كاف ! ستتوحل ثانية .

فأقامت ظهرها ، متألمة ، ونهضت على قدميها . واكتسى خداها الأصفران حمرة خفيفة . كان ثمة تعبير ناطق بالحب والوفاء ، كوفاء الكلب ، فى عينيها الدامعتين فيما كانت تنظر الى فومين حتى أنه أشاح بوجهه وتوجه بالسؤال لأمه :

— حسن ، وكيف حالكم جميعاً ؟

فأجابت العجوز باكتئاب :

— كالعادة .

— هل جاءت الى القرية احدى مفارز تجميع الحبوب ؟

— لم ترحل الى نيزنه-كريفسكايا الا البارحة .

— هل أخذوا منا حبوباً ؟

— أجل . كم أخذوا ، يا دافيدكا ؟

فأجاب الصبى :

— جدى هو الذى رآهم . هو يعرف . أظنهم أخذوا عشر زكائب .

وكان الصبى فى الرابعة عشرة من عمره ، ذا عينين زرقاوين متباعدتين كعينى أبيه .

فقال فومين : «آه — أه !» . ونهض وحدج ابنه بنظرة جادة ، ثم سوّى نطاق سيفه . وتساءل فيما اكتسى وجهه شحوباً خفيفاً :

— هل أخبرتموهم حبوب مَنْ كانوا يأخذون ؟

فهزت العجوز يدها وابتسمت ، دون أن تخفى تلميحها الخبيث :

— انهم لا يعيرونك كثير اهتمام ! قال آمرهم : «يجب على كل فرد بلا تمييز أن يسلم فائض حبوبه حتى لو كان فومين ، حتى لو كان رئيس لجنة الاقليم نفسه ، سنظل نأخذ فائض الحبوب» . وشرعوا ينبشون صناديق القمح .

فقال فومين فى صوت غليظ :

— سأسوى حسابى معهم ، يا أمى ! سأسوى حسابى معهم !

واستأذن ، متعجلاً ، وخرج .

بعد هذه الزيارة ، بدأ فومين يستوثق ، فى حصافة وحذر ، من مشاعر رجال السرية ، وسرعان ما اقتنع بأن غالبيتهم كانوا غير راضين عن سياسة تجميع الحبوب . كانت زوجاتهم وأقاربهم القريبون والبعيدون يأتون لزيارتهم من شتى القرى والمناطق فيقصون عليهم كيف كانت مفارز تجميع الحبوب تقوم بعمليات التفتيش وكيف كانت تجمع كل الحبوب ، تاركة ما يكفى للبذار والطعام فقط . ومن نتائج ذلك ، أنه حدث فى اجتماع عقدته الحامية فى بازكى فى نهاية شهر كانون الثانى أن قاطع رجال السرية ، مواجهة ، خطاباً كان قوميسار الاقليم العسكرى ، شاخاييف ، يلقيه . فانبعثت الصيحات من صفوفهم :

— الغوا مفارز التجميع !

— حان الوقت للتوقف عن أخذ حبوبنا !

— تسقط قوميسارية التجميع !

وجاءت صيحات رجال الجيش الأحمر فى سرية الحامية رداً عليهم :

— أعداء الثورة !

— فرقوا هؤلاء الخنازير ووزعوهم على كتائب مختلفة !

كان الاجتماع طويلاً وعاصفاً . وقال أحد الشيوعيين القلائل فى الحامية لفومين والقلق باد عليه :

— يجب أن تقول شيئاً ، أيها الرفيق فومين ! أنظر الى اللعبة التى يلعبها رجال سريتك !

فابتسم فومين تحت شاربه ، وأجاب :

— لكننى رجل غير حزبى . أتحسب أنهم سيعيروننى أى اهتمام ؟

ولم يحد عن صمته المطبق ، بل غادر الاجتماع قبل انتهائه بمدة طويلة . وخرج مع آمر الفوج كابارين . وفى طريقهما الى فيشنسكايا تطرقا فى حديثهما الى الوضع الجديد الذى نشأ ، وسرعان ما وجدا أنهما كانا يتبادلان لغة مشتركة . وغب ذلك بأسبوع ، قال كابارين ، صراحة ، لفومين وكانا فى مقر الأخير :

— اما أن نعمل الآن ، أو لن نعمل أبداً ، ليكن هذا واضحاً لديك ، يا ياكوف يفيموفتش ! يجب أن نستفيد من الفرصة السانحة . انها لحظة مناسبة جداً . سيدعمنا القوزاق . ان لك نفوذاً واسعاً فى كل أنحاء الاقليم . لن يكون الناس فى موقف أكثر تأييداً لنا مما هم فيه الآن . علام صمتك ؟ استقر على رأى !

فقال فومين مثغثغاً وهو ينظر الى كابارين من تحت حاجبيه :

— ما الذى لدىّ كى يستقر رأيى عليه ؟ لقد تقرر الأمر وانتهى ، سوى أن علينا أن نضع خطة لضمان جريان كل شىء فى يسر ، لكى لا تقع أية فوضى أو كارثة . فلنتحدث عن هذا بالذات .

لم تمر الصداقة المشبوهة ما بين فومين وكابارين دون أن تُلاحظ . فقد نظّم عدد من الشيوعيين فى الفوج مراقبة عليهما ونقلوا شكوكهم الى أرتيميف ، رئيس الدائرة السياسية ، والى شاخاييف ، القوميسار العسكرى .

فقال أرتيميف ضاحكاً :

— خائف مرة خجول مرتين ! ان كابارين جبان ، فهل تظنه سيعزم . على شىء حازم ؟ سنراقب فومين ، وهو تحت مراقبتنا منذ مدة طويلة ، سوى أن من المشكوك فيه أن يجرؤ فومين على الاقدام على اي عمل .

وختم كلامه بقوله ، حاسماً :

— ان ذلك كله من نسج خيالكم .

على أن الأوان كان قد فات على مراقبة فومين ، اذ ان المتآمرين كانوا قد توصلوا الى اتفاق . وحدد موعد بدء الانتفاضة فى الساعة الثامنة من صباح الثانى عشر من آذار . وقد تمّ الاتفاق على أن يخرج فومين بالسرية لاجراء التمرينات الصباحية بكامل ملابس القتال . ثم يشنون هجوماً مفاجئاً على حضيرة الرشاشات المعسكرة فى مشارف فيشنسكايا ، ويستولون على المدافع الرشاشة ، وبعد ذلك يساعدون سرية الحامية على اجراء عملية «تطهير» للمنظمات الاقليمية .

كان كابارين غير واثق من ان جميع الفوج سيدعمه وعبّر

لفومين عن شكوكه هذه . فأصغى اليه فومين باهتمام ثم قال له :

— حالما نستولى على المدافع الرشاشة ، سنعيد الهدوء الى فوجك فى غضون ثانيتين .

لم تثمر المراقبة الدقيقة التى وضعت على فومين وكابارين عن أية نتائج . لم يكونا يلتقيان الا نادراً ، وحتى اذا التقيا فلشؤون تتعلق بالعمل ، ولم يحدث الا فى أواخر شباط أن رأتهما دورية يسيران معاً فى أحد الشوارع ذات ليلة . كان فومين يقود حصاناً مسرجاً ، من عنانه ، وكبارين يمشى الى جانبه . وحينما سئلا عن هويتيهما ، أجاب كابارين : «صديق !» — ثم عرجا على مقر كابارين . بقيا هناك دون اضاءة النور . وفى الساعة الرابعة صباحاً خرج فومين وامتطى حصانه ومضى الى مقره . كان ذلك كل ما استطاعت الدورية أن تفيد به .

نقل قوميسار الاقليم العسكرى ، شاخاييف ، شكوكه حول فومين وكابارين الى قائد الجيش فى اقليم الدون ببرقية بالشيفرة . فتلقى ، بعد ذلك بعدة أيام ، جواباً من القائد يصادق فيه على عزل فومين وكابارين من منصبيهما واعتقالهما .

وفى اجتماع عقده مكتب لجنة الحزب الاقليمية تقرر ابلاغ فومين أنه قد استُدعى الى نوفوتشيركاسك بناء على أمر صادر من القوميسارية العسكرية الاقليمية ، وأنه وضع تحت تصرف قائد الجيش ، وأن عليه أن يسلم امرة السرية الى مساعده ، أوفتشينيكوف . وتقرر أيضاً أن ترسل السرية الى كازانسكايا فى اليوم نفسه بحجة ان عصابة مسلحة قد شوهدت هناك ، بينما يلقى القبض على المتآمرين فى الليلة التالية . وقد اتخذ قرار نقل السرية من فيشنسكايا خوفاً من احتمال عصيانها اذا ما

علم أفرادها باعتقال فومين . وقد أوعز الى آمر الكتيبة الثانية التابعة لفوج الحامية ، وكان شيوعياً يدعى تخاتشنكو ، بتحذير الشيوعيين الموجودين فى الفوج وآمرى الفصائل من امكانية حدوث انتفاضة وأن عليهم الابقاء على السرية وحضيرة المدافع الرشاشة فى وضعية قتال .

أبلغ فومين بأمر استدعائه فى الصباح التالى . فقال فى هدوء :

— حسن ، تسلّم امرة السرية ، يا أوفتشينيكوف . أنا ذاهب الى نوفوتشيركاسك . أترغب فى مراجعة الحسابات ؟

فكان أن أغرق أوفتشينيكوف نفسه فى خضم الأوراق ، وكان هذا آمر فصيل غير حزبى ولم يكن قد تلقى أى تحذير أو ساورته أى شكوك .

فانتهز فومين الفرصة لكتابة ورقة الى كابارين :

«التنفيذ اليوم . لقد تم استدعائى . استعد !»

وفى السقيفة سلّم الورقة الى مراسله وهمس اليه :

— ضع الورقة فى فمك . امض على حصانك بخطو بطىء . فاهم ؟ اذهب الى كابارين بخطو بطىء . سلمه الورقة وعد الى هنا على الفور . اذا أوقفك أى رجل فى الطريق ، ابلعها .

ولدى تسلم الأمر بقيادة السرية الى مركز منطقة كازانسكايا ، استعرض أوفتشينيكوف القوزاق فى ساحة الكنيسة استعداداً للمسيرة . وجاءه فومين على حصانه .

— أتسمح لى بالقاء كلمة توديع للسرية ؟

— تفضل ! ولكن ، أرجو أن تكون سريعة ، فلا تؤخرنا .

فشرع فومين يهتف ، وهو يمسك زمام حصانه المتوثب أمام السرية :

— أنتم تعرفوننى جميعاً ، أيها الرفاق . تعرفون ما الذى كنت أحارب لأجله دائماً . كنت دائماً الى جانبكم . لكننى اليوم لا أستطيع أن أقبل بوضع يُنهب فيه القوزاق ، ويُسلب الرجال الذين يقومون على زراعة الحبوب . وهذا هو سبب اعفائى من امرة السرية . وأنا أعرف تمام المعرفة ماذا فى نيتهم أن يفعلوا بى . وهذا ما دعانى الى أن أودعكم . . .

ولبرهة من الوقت ، قوطعت كلمة فومين بصيحات وهدير من ناحية السرية . فقام على ركابيه ورفع صوته بصورة حادة :

— اذا أردتم أن تحرروا أنفسكم من هذا النهب والسلب ، أطردوا مفارز التجميع ، اقتلوا القوميساريين من أمثال شاخاييف . لقد جاءوا الى ديارنا فى الدون . . .

وغرقت كلماته الأخيرة وسط الضجيج الصاخب . فانتظر بعضاً من الوقت ، ثم أصدر أمره بصوت جهير :

— الى اليمين ، فى ثلاث . . . يميناً استدر . . . عادة سر !

فنفذت السرية الايعاز فى الحال . أما أوفتشينيكوف ، الذى كانت المفاجأة قد عقلت لسانه ، فقد انطلق صوب فومين وسأله :

— الى أين ذاهب ، أيها الرفيق فومين ؟

فردّ عليه فومين هازئاً من غير أن يلتفت ناحيته :

— فى مسيرة قصيرة حول الكنيسة ، فقط .

ولم يدرك أوفتشينيكوف ، الا لحظتئذ ، دلالة كل ما حدث خلال الدقائق القليلة الأخيرة . فخرج بحصانه من الصف ، وتبعه المرشد السياسى ونائب القوميسار ورجل آخر . ولم يلاحظ فومين عدم وجودهم الا بعد أن كانوا قد قطعوا حوالى مائتى خطوة . فأدار حصانه وهتف :

— أوفتشينيكوف ، قف !

فهمز الراكبون الأربعة خيولهم ، فزادت سرعة عدوها من خبب يسير الى هذب سريع . وأخذت كتل من الجليد نصف الذائب تتطاير من حوافر الخيل فأصدر فومين أمره :

— الى السلاح ! اقبضوا على أوفتشينيكوف ! الرعيل الأول ، وراءهم !

وانطلق صوت مبعثر لصلية من الطلقات . ومرق رجال الرعيل الأول الستة عشر يطاردونهم . وفى الوقت نفسه ، قسم فومين السرية قسمين : أرسل المجموعة الأولى بقيادة آمر الرعيل الثالث ، تشوماكوف ، لتجريد حضيرة المدافع الرشاشة من سلاحها ، ومضى هو على رأس المجموعة الثانية الى الموضع الذى كانت سرية الحامية تعسكر فيه فى المشارف الشمالية للقرية ، وذلك فى اسطبلات واسعة .

انطلقت المجموعة المتمردة الأولى حدر الشارع الرئيسى ، وهم يطلقون النار فى الهواء ويلوحون بسيوفهم . فصرعوا فى طريقهم أربعة شيوعيين بسيوفهم ، ثم نظموا صفوفهم بسرعة فى المشارف ، وانطلقوا ، فى صمت وبلا هتاف ، يشنون هجومهم على جنود الحمر لحضيرة المدافع الرشاشة ، فيما هرع هؤلاء الى خارج مقراتهم .

كانت الدار التى اتخذتها حضيرة المدافع الرشاشة مقراً لها تقع على مسافة قليلة من بقية القرية . على أنها لم تكن تبعد عن الدور الأخيرة بأكثر من مائتى خطوة فقط . فجوبه القوزاق بنيران المدافع الرشاشة تطلق عليهم عن كثب ، فداروا على أعقابهم فى الحال . وأصيب ثلاثة منهم ، فهووا من على سروجهم قبل أن يتمكنوا من بلوغ أقرب زقاق .

فشلت محاولة الهجوم المباغت على حاملى الرشاشات . ولم يعاود المتمردون المحاولة كرة ثانية . فقاد آمر المجموعة رجاله تحت ستار حام ، واختلس نظرة حذرة من زاوية مأوى حجرى وقال :

— أخرجوا مدفعين آخرين من نوع مكسيم .

ومسح جبينه العرقان بقبعة الفرو ثم استدار نحو الآخرين :

— سنعود أدراجنا ، أيها الأولاد . ليقم فومين نفسه بالاستلام على المدافع الرشاشة . كم خلفنا وراءنا على الثلج . . . ثلاثة ؟ فليجرب يده هو .

ما ان تفجر اطلاق النار فى المشارف الشرقية للقرية حتى مرق آمر السرية تكاتشنكو الى خارج مقره ، وهو يرتدى ملابسه اثناء ذلك ، وهرع الى الثكنات . كان حوالى ثلاثين من الجنود الحمر قد اصطفوا فى الخارج . فحيوه بوابل من الأسئلة :

— من الرامون ؟

— ما هى المسألة ؟

ومن غير أن يجيب ، أصدر أمره الى الجنود الحمر الذين كانوا يتدفقون من الثكنات للاصطفاف أيضاً . وانضم الى الصفوف كذلك عدد من الشيوعيين ، من الشغيلة العاملين فى الادارة الاقليمية الذين هرعوا الى الثكنات . وانبعثت فى القرية اصوات اطلاق بنادق متفرقة . ومن موضع ما فى المشارف الغربية هدر الخبط الكئيب لقنبلة يدوية واذ رأى تكاتشنكو زهاء خمسين فارساً منطلقين باتجاه الثكنات ، بسيوف مسلولة ، أسرع يخرج مسدسه من جرابه . وتلاشى اللغط فى الحال بين الصفوف واتخذ الرجال وضع الاستعداد ببنادقهم حتى قبل أن يتسنى له اصدار الايعاز بذلك .

وهتف أحد الجنود الحمر :

— لكن هؤلاء القادمين من رجالنا ! أنظروا ، هوذا آمر فوجنا ، الرفيق كاباربن .

وعلى حين غرة ، انحنى الفرسان القادمون على أعناق خيلهم ، وكأنهم ينفذون أمراً صدر اليهم وانطلقوا فى هذب جنونى ، ينهبون ارض الشارع نهباً ، باتجاه الثكنة .

فهتف تكاتشنكو فى صوت حاد :

— لا تدعوهم يقتربون !

وغرق صوته فى لجة الصلية التى لعلعت . وحينما كان الراكبون لا يزالون على مبعدة مائة خطوة من صفوف الجنود الحمر المتراصة ، هوى أربعة منهم عن سروجهم وتشتتت صفوف الآخرين ، فاستداروا على أعقابهم . ولعلع الرصاص وراءهم . وسقط أحد الراكبين ، وكما يبدو قد جرح جرحاً بسيطاً ، بيد أنه ظل متشبثاً بالعنان فظل حصانه المسرع يجره مسافة عشرين ياردة أو نحوها ، ثم استعاد السيطرة على قدميه فأمسك بالركاب وبالرمانة الخلفية للسرج ، وفى اللحظة التالية كان على السرج من جديد . وجعل يجر العنان جرّاً عنيفاً ثم ادار وجهة حصانه بشكل حاد وانطلق حدر أقرب الأزقة واختفى .

كانت مطاردة رجال الرعيل الأول لأوفتشينيكوف فاشلة ، فكرّوا عائدين الى القرية . كما انتهى بالفشل البحث عن القوميسار شاخاييف . فلم يعثروا له على أثر فى القوميسارية العسكرية المهجورة ولا فى مقره ، وكان فى اللحظة التى بلغ أسماعه صوت اطلاق النار قد اندفع حدر الدون وعبر الجليد الى الغابة ، ومن ثمة الى قرية بازكى ، وفى اليوم التالى بلغ منطقة أوست–خوبرسكايا ، على مبعدة خمسين فرسخا تقريباً من فيشنسكايا .

وقد أفلح أغلب موظفى الاقليم الرئيسيين فى الافلات فى الوقت المناسب . كما لم يكن البحث عنهم مأموناً من المخاطر فى الوقت الذى كان الجنود الحمر من حضيرة المدافع الرشاشة يزحفون على مركز فيشنسكايا بمدافع رشاشة خفيفة وقد سيطروا على جميع الشوارع المؤدية الى الساحة الرئيسية .

تخلى رجال السرية عن البحث ، ونزلوا صوب الدون ، ومن ثمة اتجهوا نحو ساحة الكنيسة حيث كانوا قد شرعوا بمطاردة أوفتشينيكوف . وسرعان ما تجمع جميع الرجال واصطفوا من جديد فأصدر فومين أمره باقامة الحراسة وبأن يذهب الآخرون الى مقراتهم على أن يبقوا خيولهم مسرجة .

وعقد فومين وكاباربن وأمراء الرعائل اجتماعاً للتشاور فى احدى الدور الكائنة فى المشارف .

فهتف كاباربن يائساً وهو ينهار على مصطبة :

— فقدنا كل شىء !

فقال فومين فى هدوء :

— أجل . لم نستول على مركز المنطقة ، وهذا يعنى أننا لن نستطيع المكوث هنا .

واقترح تشوماكوف :

— لنقم بغارة فى أرجاء الاقليم ، يا ياكوف يفيموفتش . لا خير فى التخوف الآن فعلى أية حال نحن لن نموت قبل ان يحل أجلنا ! سنجعل القوزاق يعلنون الثورة : وآنذاك سيصبح مركز المنطقة فى حوزتنا .

فحدّق فومين فيه دون أن ينبس بشىء ، ثم استدار ناحية كاباربن وقال :

— أتشعر بغصة فى حلقك ، يا صاحب السعادة ؟ ! كفى

تمخطاً ! قد يشنقونك بسبب خروف كما يشنقونك بسبب حمل ! لقد بدأناها معاً ، فلنمض بها معاً . ما رأيك هل يجدر بنا أن ننسحب من فيشنسكايا أم نكرر المحاولة ؟

فقال تشوماكوف بحدة :

— فليحاول الآخرون ! لن اخرج لمواجهة مدفع رشاش . تلك لعبة ميئوس منها .

فقال فومين وهو يلقى نظرة على تشوماكوف :

— انا لم أسألك أنت ! اسكت !

فأشاح تشوماكوف نظره .

وبعد برهة من الوقت ، قال كابارين :

— نعم ، من العبث ، طبعاً ، القيام بمحاولة ثانية فى الوقت الحاضر . انهم متفوقون بالسلاح . لديهم أربعة عشر مدفعاً رشاشاً ، وليس لدينا واحد . كما أن لديهم عدداً أكبر من الرجال . . . يجب أن نتراجع وننظم القوزاق للقيام بانتفاضة . فالى أن تصل التعزيزات اليهم ستعم الانتفاضة الاقليم كله . هوذا أملنا الوحيد . وليس ثمة غيره .

فقال فومين ، بعد صمت مديد :

— حسن ، يجب أن نتخذ قرارنا فى هذا الشأن فيما بعد . يا آمرى الرعائل ، هيا افحصوا العتاد ، واحسبوا عدد الخراطيش التى بحوزة كل رجل . أصدروا أوامر مشددة بالا تستهلك رصاصة واحدة عبثاً . ان أول رجل يعصى هذه الأوامر سيلقى مصرعه بسيفى . قولوا هذا للرجال .

وخلد الى الصمت لحظة ، ثم خبط قبضته الجسيمة على المنضدة غاضباً :

— آه ، يا لتلك المدافع الرشاشة اللعينة ، والخطأ كل

الخطأ منك ، يا تشوماكوف ! لو افلحنا فى الاستيلاء على أربعة منها فقط . . . أما الآن ، فلا شك أنهم سيجبروننا على مغادرة المكان . حسن ، انصرفوا ! سنمضى الليلة فى فيشنسكايا ، هذا اذا لم نجبر على الجلاء ، وسنزحف عند الفجر الى داخل الاقليم . . .

مرت تلك الليلة هادئة . كان فى طرف من فيشنسكايا رجال السرية المتمردون ، وفى الطرف الآخر فوج الحامية وشيوعيون وفتية شيوعيون كانوا قد انضموا الى الفوج . ولم يكن يفصل بين العدوين سوى مجموعتين من المنازل ، غير أن أيا منهما لم يجرؤ على شن هجوم ليلى .

فى الصباح التالى ، جلت السرية عن القرية بلا قتال واتخذت لها طريقاً فى اتجاه جنوبى شرقى .

١١

لبث غريغورى ثلاثة أسابيع ، بعد أن غادر قريته ، يعيش فى قرية فيرخنى-كريفسكوى فى منطقة يلانسكايا فى دار أحد معارفه من القوزاق ممن كانوا معه فى الكتيبة . ثم رحل الى قرية كورباتوفسكى حيث سكن أكثر من شهر مع أحد أقرباء أكسينيا البعيدين .

كان يظل أياماً بطولها داخل البيت لا يخرج الى الفناء الا فى الليل . بيد أن هذه الحياة لم تكن اقل سوءا من حياة السجن . وأدت بطالته الى أن يمسى كئيباً ضيق الصدر . وكان يشعر بحنين لا يقاوم الى قريته ، الى الطفلين والى أكسينيا . وكان كثيراً ما يضع معطفه الثقيل على كتفه ، خلال ليالى السهاد ، ويعقد العزم على العودة الى تتارسكى . وفى كل مرة كان يغير

فكره ويخلع معطفه ثانية ، ويرتمى على وجهه فى السرير وهو يئن . وكانت هذه الحياة ترهقه الى حد لا يطاق . وبالرغم من تعاطف رب الدار معه ، وكان ابن عم لوالدى أكسينيا ، الا أنه لم يكن فى مقدوره الاحتفاظ بمثل هذا الضيف الى ما لا نهاية له . وحدث مرة فى مساء بعد العشاء ، وكان غريغورى قد ذهب الى غرفته ، أن تناهى الى سمعه صوت ربة الدار تتساءل بصوت غدا رفيعاً لفرط ما ينطوى عليه من كراهية :

— ومتى سينتهى كل هذا ؟

فاجاب رب الدار بصوته العميق :

— ماذا كل هذا ؟ عمّ تتحدثين ؟

— متى سنتخلص من هذا العاطل الأكول ؟

— اسكتى !

— لن أسكت ! لم يبق لدينا من الحبوب الا القليل بحيث لو رأته قطة لبكت عليه حزناً ، ورغم ذلك فانك تحتفظ بهذا الشيطان الاحدب وتطعمه يوماً وراء يوم . انا أسألك ، الامَ تستمر هذه الحال ؟ ثم ، افرض أن السوفييت اكتشفوا الأمر ؟ لسوف يقطعون رقابنا ، وسيصبح أولادنا أيتاماً .

— أسكتى ، يا أفدوتيا !

— لن أسكت ! يجب أن نفكر بمصير أطفالنا . لم يتبق لدينا أكثر من حوالى سبعمائة عيار من الحبوب ، وها أنت تطعم هذا التنبل ! ما هو بالنسبة اليك ؟ شقيقك ؟ والد ابن أخيك ؟ ابن عمك ؟ انه لا يمت لك بصلة . وبقدر ما يتعلق الأمر بك ، فان قرابته اليك أشبه بقرابة ابن العم هلام الأول الى ابن العم الماء الثانى ، ومع ذلك فأنت تؤويه وتطعمه وتسقيه . آه ، أيها الشيطان الأصلع ! اسكت أنت ، لا تنبح بوجهى ،

والا ذهبت الى السوفييت بنفسى غداً وحدثتهم عن نوع الزهرة التى ترعاها فى هذه الدار .

وفى اليوم التالى ، جاء رب الدار الى غرفة غريغورى وقال وهو يحدق فى الأرض :

— غريغورى بانتلاييفتش ، ظنّ ما شئت بى ، ولكنك لا تستطيع البقاء هنا أكثر مما بقيت . وانا أحترمك ، وكنت أعرف والدك المرحوم وأحترمه . ولكن من العسير علىّ أن أستمر على ابقائك لدىّ تأكل من طعامى . أضف الى ذلك ، إننى أخاف أن تكتشف السلطات أمرك . لدىّ عائلة . ولا أريد أن أفقد رأسى بسببك . أستميحك المعذرة ، بحق المسيح ، ولكن أعفتنا منك . . .

فقال غريغورى باقتضاب :

— طيب ! شكراً لاطعامى واسكانى . شكراً على كل شىء . أستطيع أن أرى بأم عينى أننى عبء عليك ، ولكن أين ترانى أذهب ؟ ان جميع طرقى مسدودة .

— عليك أن تقرر ذلك بنفسك .

— لا بأس ! سأغادركم اليوم . شكراً على كل شىء ، يا أرتامون فاسيلييفتش .

— لا شىء تشكرنى عليه .

— لن أنسى كرمك . أرجو أن أستطيع خدمتك فى يوم ما .

واذ جاشت عواطف رب الدار ، ربّت على كتف غريغورى وقال :

— لمَ التحدث عن هذا ؟ بقدر ما يتعلق الأمر بى ، تستطيع أن تبقى هنا شهرين آخرين . ولكن زوجتى لن تسمح بذلك ، وهى تثير عاصفة حول الأمر كل يوم ، لعنة الله عليها !

أنا قوزاقى وأنت قوزاقى ، يا غريغورى بانتلاييفتش ! أنت وأنا ، كلانا ، ضد السلطة السوفييتية ، ولسوف أساعدك . اذهب اليوم الى قرية ياكودنى . ان حمى ولدى يعيش هناك وسوف يأخذك لديه . قل له ان أرتامون يقول ان عليه أن يتقبلك كما يتقبل ابنه ، وأن يطعمك ويبقيك فى بيته بقدر ما يستطيع . وسنسوى الحساب فيما بيننا ، هو وأنا ، فيما بعد . لا أريد منك الا أن ترحل عنا هذا اليوم بالذات ! يجدر بى ألا أبقيك هنا مدة أطول . زوجتى تنغص عيشى ، أضف الى أننى أخشى أن يكتشف الأمر لدى السلطات السوفييتية . لقد بقيت هنا مدة طيبة ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، وسنسميها مدة كافية . انا أحسب بعض الحساب لسلامة رأسى أيضاً .

غادر غريغورى الدار فى وقت متأخر من تلك الليلة . ولكن ، قبل أن يبلغ الطاحونة الهوائية القائمة على التل المشرف على القرية خرج ثلاثة فرسان ، وكأن الأرض قد انشقت عنهم ، وأوقفوه :

— قف ، يا ابن القحبة ! من أنت ؟

فجعل قلب غريغورى يدق عنيفاً . وتوقف من غير أن يتفوه بكلمة . كان من الجنون أن يحاول الهرب . فلم يكن ثمة حجر أو أجمة فى أيما مكان على مقربة من الطريق ، وليس سوى السهب القفر . وما كان باستطاعته أن يقطع أكثر من ياردتين .

— شيوعى ؟ ارجع ، عليك اللعنة ! والآن ، أسرع !

وجاءه أمر من رجل ثان تقدم بحصانه منه :

— ارفع يديك ! أخرجهما من جيبك ! هيا والا بترت لك رأسك !

فأخرج غريغورى ، بهدوء ، يديه من جيبى معطفه الثقيل ،

وتساءل وهو لا يزال لا يفهم ما الذى حدث أو من هؤلاء الرجال :

— أين علىّ أن أذهب ؟

— الى القرية . استدر !

ورافقه فارس واحد الى القرية : أما الآخران فقد تركاهما عند المرعى وانطلقا صوب الطريق العام . فمشى غريغورى دون كلام . وحينما بلغ الطريق أبطأ خطاه وسأل حارسه :

— اسمع ! من أنت !

— سر ، سر ! بلا كلام ! ضع يديك وراء ظهرك ، أتسمعنى ؟

فأطاع غريغورى الأمر بصمت . لكنه لم يلبث أن عاود السؤال :

— مهما يكن الأمر ، من أنت ؟

— أورثوذكسى روسى !

— وأنا لست من «الشيعة القدامى» بأية حال !

— حسن ، تستطيع أن تغبط نفسك لأنك لست منهم !

— الى أين تأخذنى ؟

— الى القائد . سر ، هيا ، هيا ، أيها الأفعى ، والا فاننى . . .

ونخس الرجل غريغورى برأس سيفه . فلسع فولاذه الحاد البارد رقبته العارية فيما بين ياقة معطفه وطاقيته الفرو ، واتقد ، كالشرارة ، فى داخله ، لحظة ، شعور بالرعب ، تلاه غيظ كظيم فرفع ياقته ، وقال خلل أسنانه المصكوكة ، مستديراً نصف استدارة ليحدج ببصره فى حارسه :

— لا تلعب دور الأحمق ، أتسمعنى ؟ والا فقد انتزع هذا الشىء منك . . .

— هيا امش ، أيها الحثالة ، ولا تفه بكلمة ! سأنتزعك أنت ! ضع يديك وراء ظهرك !

فمضى غريغورى بضع خطوات صامتاً ، ثم قال :

— انا هادئ بدون شتائمك . يا لك من قذر !

— لا تنظر الى الخلف !

— لا أنظر الى الخلف .

— اخرس وأسرع !

فتساءل غريغورى وهو ينفض ندف الثلج العالق بأهداب عينيه :

— لعلك تتمنى أن اركض ؟

ومن غير أن يجيب الحارس ، همز حصانه . فدفع صدر الحصان المبلل بالعرق ورطوبة الليل ، ظهر غريغورى . وخشخش حافر الحصان فى الثلج الذائب بجانب قدمه .

فصرخ غريغورى وهو يدفع صدر الحصان بيده :

— كف عن هذا !

فرفع الحارس سيفه الى مستوى رأسه وقال فى لهجة هادئة :

— امش ، يا نغل العواهر ، ولا تتكلم ، والا فسأقضى عليك قبل الوصول الى مكان . ان يدى سريعة فى مثل هذه الأمور ! اخرس ، ولا كلمة أخرى !

مضيا صامتين حتى بلغا القرية . وعند أول فناء أوقف الحارس حصانه وقال :

— أدخل من البوابة !

فدخل غريغورى عبر بوابة كانت مفتوحة على مصراعيها . وفى قلب الفناء وقع نظره على دار فسيحة ذات سقوف حديدية . وكانت خيل تزنخر وتجتر فى صخب تحت افاريز مأوى . وكان

ستة رجال مسلحين أو أكثر واقفين بلا عمل فى السقيفة . أغمد الحارس سيفه وقال فيما كان يترجل :

— أدخل الى الدار ، عبر الممر ، ثم الى أول باب الى اليسار . هيا ولا تتلفت ! كل مرة يتعين علىّ أن أقول هذا لك ؟

صعد غريغورى درجات السقيفة على مهل . كان رجل يقف عند الحاجز ، مرتدياً معطفاً طويلاً من معاطف الخيالة ومعتمراً قبعة من قبعات رجال الجيش الأحمر . فتساءل :

— اصطدت واحداً ، اذن ؟

فرد حارس غريغورى بصوته الأجش المألوف :

— أجل . اصطدناه بالقرب من الطاحونة الهوائية .

— من تراه . . . سكرتير مجموعة الحزب ؟

— الشيطان يدرى ! خنزير ما ، ولكننا سرعان ما سنكتشف هويته !

فحدث غريغورى نفسه ، متعمداً التلكؤ فى السقيفة ومحاولاً استجماع شتات أفكاره : «اما أن تكون هذه عصابة بيضاء ، أو أفراداً من «تشيكا» فيشنسكايا يحاولون أن يلعبوا لعبة ذكية فيتظاهرون بأنهم من البيض . لقد وقعت فى الفخ ، كأى بليد !»

كان أول رجل وقع عليه نظره حينما فتح الباب هو فومين . كان جالساً الى منضدة يحيط به عدد من الرجال ببزات عسكرية ، جميعهم غرباء على غريغورى . وكانت ثمة معاطف ثقيلة وفروات ملقاة على السرير فى كومة مخبوصة ، وقربينات مكومة بجانب المصطبة ، وعلى المصطبة نفسها خليط من السيوف وأكياس الخراطيش وخرج السروج . وكانت رائحة عرق الخيل النفاذة تنبعث من الرجال والمعاطف والعدة جميعاً .

خلع غريغورى طاقيته الفرو وتمتم بتحية خفيضة الصوت . فهتف فومين :

— ميليخوف ! حسن ، أى وأيم الحق أن السهب واسع ، لكنما الدرب ضيق . اذن فقد جمعنا القدر ثانية ! من أين نبعت ؟ اخلع معطفك ، تعال واجلس .

وقام فومين عن المنضدة ، وتقدم من غريغورى مـاداً يده :

— ماذا كنت تفعل متسكعاً فى هذه الديار ؟

— قدمت الى القرية لقضاء عمل .

فحدق فومين الى غريغورى مستفهماً :

— أى عمل ؟ انها لمسيرة طويلة من قريتك الى هنا . قل الحقيقة ! كنت متخفيا هنا ، أليس كذلك ؟

فأجاب غريغورى ، مبتسما رغماً عنه :

— هذه هى كل الحقيقة .

— ولكن أين أمسك بك أولادى ؟

— خارج القرية .

— أين كنت ذاهباً ؟

— كنت أتبع أنفى !

فحدق فومين ثانية الى عينى غريغورى وابتسم :

— أستطيع أن أستنتج بأنك تعتقد أننا ألقينا القبض عليك لنرسلك الى فيشنسكايا ؟ كلا ، أيها الأخ ، لم يعد هذا دربنا . فلا تخش شيئاً ! لقد نفضنا أيدينا من خدمة السلطة السوفييتية . لم نستطع أن نستقر فى العيش معها .

وقال قوزاقى كهل ، كان يدخن الى جانب الموقد ، بصوت عميق :

— لقد حصلنا على طلاق منها .

فانفجر أحد الرجال الجالسين الى المنضدة فى ضحك مدو .

سأل فومين غريغورى :

— ألم تسمع بشىء عنى ؟

— كلا .

— حسن ، اجلس الى المنضدة وستتحدث . حساء كرنب ولحماً لضيفنا !

لم يصدق غريغورى حرفا مما قاله فومين . خلع معطفه وجلس ، وهو لا يزال شاحب الوجه ، متحفظا . وأراد أن يدخن ، فتذكر أنه لم يكن لديه تبغ خلال اليومين الأخيرين .

فسأل فومين :

— هل لديك ما يمكن تدخينه ؟

قدّم فومين ، فى الحال ، علبة سكائره الجلدية . ولم تفته ملاحظة يدى غريغورى ترتعشان فيما كان يتناول سيكارة ، فابتسم فومين ثانية من تحت شاربه الأحمر المجعد .

— لقد انتفضنا ضد السلطة السوفييتية . . . اننا مع الشعب ضد تجميع الحبوب وضد القوميساريين . لقد استغفلونا زمناً طويلاً ، أما الآن فنحن الذين سنستغفلهم . فهمت ، يا ميليخوف ؟

لم يقل غريغورى شيئاً . لبث يدخن ، يجر أنفاسا سريعة من سيكارته وشرع رأسه يدور ، وصعد شعور بالغثيان الى بلعومه . لقد عاش خلال الشهر الماضى على طعام شحيح ولم يشعر الا الآن كم أمسى ضعيفا . فأطفا سيكارته ، وشرع يلتهم الطعام فى شره وفى غضون ذلك قص عليه فومين باختصار وقائع الانتفاضة والأيام الأولى من تسكعهم فى أرجاء الاقليم ، واصفاً تسكعهم هذا ، بأسلوب فخم ، بأنه سلسلة من «الغارات» . فاستمع اليه غريغورى صامتاً ، وهو يزدرد الخبز ولحم الضأن الدهين نصف المسلوق يكاد لا يمضغه .

قال فومين وهو يضحك ضحكة عطوفاً :

— لكنك أمسيت هزيل البنية رغم أنك كنت فى ضيافة آخرين !

فقاق غريغورى وحمحم قائلا :

— لم أعش مع حماة تطعمني .

— هذا واضح . كل ما شئت ، احش نفسك بقدر ما تستطيع . لسنا مضيفين بخلاء .

— شكراً والآن ، أحب أن أدخن .

وتناول غريغورى السيكارة التى قدمت له ، ثم مضى الى وعاء على المصطبة ، وبكوز خشبى سكب بعضاً من مائه . كان بارداً كالثلج ، مالح الطعم بعض الشىء . كرع كوزين مليئين ، ثم جلس يتمتع بتدخين سيكارته .

استأنف فومين قصته وهو يجلس الى جوار غريغورى :

— ليس ترحيب القوزاق بنا حاراً جداً ! لقد تلقوا خضة موجعة خلال انتفاضة العام الماضى . ومع ذلك ، فقد انضم الينا بعض المتطوعين . حوالى أربعين رجلاً . ولكن ما هذا الذى نسعى نحن اليه . الذى نسعى اليه هو اثارة الاقليم برمته ، والحصول على مساعدة الأقاليم المجاورة ، الحوبر وأوست-مدفديتسا . وآنذاك ، سيجمعنا بالحكومة السوفييتية حديث من قلب الى قلب .

وعلى المنضدة ، كان حوار صاخب يجرى بين الرجال . وفيما كان غريغورى يستمع الى فومين جعل يسترق النظر الى رفاق فومين ، يتفحصهم بامعان . لم يكن بينهم وجه مألوف . وكان غريغورى لا يزال غير مصدق فومين ، وظن أنه كان يلعب دور الداهية ، فلبث غريغورى صامتا . غير أنه لم يستطع أن

يصبر على ذلك طيلة الوقت . فسأل فومين ، وهو يقاوم نعاسه .

— اذا كنت جادا فى جميع ما تقول ، أيها الرفيق فومين ، فما الذى تسعى اليه ؟ أن تشعل حرباً جديدة ؟

— سبق لى أن اخبرتك عن هذا !

— تريد تغيير الحكومة ؟

— اجل .

— وأى شكل من الحكومات تريد أن تقيم بدلا عنها ؟

— حكومة قوزاقية من لدنا .

— حكومة أتمانات ؟

— حسن ، سننتظر بعض الوقت قبل الحديث عن الأتمانات ! الحكومة التى يختارها الشعب هى التى ستقيم . على أن هذا ليس بالأمر المستعجل ، ثم اننى لا أفهم فى السياسة . مهمتى هى القضاء على القوميساريين والشيوعيين ، وسيخبرك كابارين ، رئيس هيئة أركانى ، بجميع ما يخص الحكومة . انه عقلى المفكر بقدر ما يتعلق الأمر بذلك . انه رجل ذكى ومثقف .

ومال فومين على غريغورى وهمس فى أذنه :

— كان ضابطا سابقا برتبة نقيب ركن فى الجيش القيصرى ! شخص ذكى ! انه الآن نائم فى الغرفة الأخرى . صحته ليست على ما يرام ، ولعل ذلك راجع الى عدم اعتياده على هذا النمط من الحياة . لقد قطعنا مسيرات طويلة .

فجأة ، انبعث من ناحية السقيفة ضجيج ، ووقع أقدام ، ثم أنين ، وقعقعة خفيفة ، ثم صرخة مكتومة :

— لقنه درساً !

وانقطع الحديث الدائر حول المنضدة فى الحال . نظر فومين ناحية الباب فى ترقب . فتح فجأة على مصراعيه . وتدفقت

الى داخل الغرفة غمامة بيضاء من البخار . واندفع رجل طويل القامة حاسر الرأس يرتدى سترة خاكية ملبدة وقد دفعته الى داخل الغرفة ضربة قوية سددت الى ظهره ، وقطع عدة خطوات سريعة متعثرة وخبط كتفه خبطة قوية على حافة الموقد . وانبعث هتاف مرح من ناحية السقيفة قبل أن يصفق الباب :

— هاكم رجلاً آخر !

فقام فومين وسوّى حزام قمصلته . وتساءل فى لهجة متكبرة :

— من أنت ؟

فمد الرجل ذو السترة الملبدة الشعر ، وهو لا يزال يلهث ، وحاول أن يلوى كتفيه فقطب جبينه متألماً . كان قد ضرب على عموده الفقرى بشىء ثقيل ، لعله عقب بندقية .

— ألا تستطيع أن تتكلم ؟ هل أضعت لسانك ؟ سألتك ، من أنت ؟

— جندى من الجيش الأحمر .

— فى أية وحدة ؟

— كتيبة تجميع الحبوب الثانية عشرة .

فصاح أحد الرجال المتحلقين حول المنضدة مبتسماً :

— ها ، ها ، لقطة بديعة !

واستأنف فومين الاستجواب :

— ماذا كنتم تفعلون هنا ؟

— كنا نعتزم الدفاع عن . . . لقد أرسلنا . . .

— بلا ريب ! كم عدد من كان فى القرية ؟

— أربعة عشر .

— أين الآخرون ؟

فلم يجب جندى الجيش الأحمر . لقد وجد صعوبة فى

فتح شفتيه . وانبعثت بقبقة من بلعومه ، وسال خيط رفيع من الدم من الزاوية اليسرى لفمه وعلى ذقنه . فمسح شفتيه بيديه ثم نظر الى راحته ومسحها على بنطلونه . وقال فى صوت مغرغر وهو يبلع دمه :

— هذا فعل خنازيركم . . . لقد أصابوا رئتى . . .

فقال قوزاقى جسيم الجرم فى لهجة هازلة ، وهو يقوم عن المائدة ويغمز للآخرين بعينيه :

— لا عليك ! سنشفيك !

فعاود فومين السؤال :

— أين بقيتكم ؟

— ذهبوا الى يلانسكايا مع قافلة العربات .

— ومن أين أنت ؟ فى أية مقاطعة ولدت ؟

فنظر الرجل الى فومين بعينين زرقاوين ملتهبتين ، وبصق على الأرض كتلة من الدم ، وأجاب بصوت جهير صاف :

— من مقاطعة بسكوف .

فقال فومين بازدراء :

— بسكوف ، موسكو . . . نحن نعرف رهطكم ! لقد قطعتم مسافة بعيدة لتستولوا على حبوب الآخرين ، يا ولدى ! حسن ، كفى كلاما ! ماذا سنفعل بك ، ها ؟

— يجب أن تطلقوا سراحى .

— أنت من الصنف الساذج ، يا ولدى ! أم ، لعلنا سنطلق سراحه حقا ، ما رأيكم أيها الأولاد ؟

واستدار فومين نحو الرجال المتحلقين حول المنضدة وهو يبتسم من تحت شاربه . فرأى غريغورى ، الذى كان يراقب المشهد عن كثب ، الوجوه السمر الملفوحة تشع بابتسامات مدركة

صامتة . وقال أحدهم :

— يمكنه أن يخدم معنا شهرين أو نحوهما ثم نطلق سراحه ليمضى الى زوجته .

فتساءل فومين ، محاولاً ، عبثاً ، أن يخفى ابتسامته :

— ربما ستخدم معنا ؟ سنعطيك حصاناً وسرجاً ، وستحصّل بدلاً من جزمتك اللبادية جزمة جديدة مقبولة لتلائم ربلتى الساقين . . . ان قادتكم لا يجهزونكم تجهيزاً حسناً . أتسمى هذا حذاء ؟ الثلج يذوب فى كل مكان ، وأنت تتجول بجزمة لبادية ! هل تنضم الينا ؟

فزعق أحد القوزاق ، بنطق مثغثغ ، مقلدا دور الأبله :

— انه فلاح . لم يمتط ظهر حصان فى حياته !

لم يجب جندى الجيش الأحمر . مال بظهره على الموقد ، وجعل يجيل بصره حوله بعينين غدتا صافيتين متلامعتين . وكان العبوس يعلو جبينه ألماً ، بين أونة وأخرى ، وينفرج فمه قليلاً حينما يشق عليه جر نفسه .

كرر فومين سؤاله :

— هل تنضم الينا ، أم ماذا ؟

— ولكن من أنتم ؟

— من نحن ؟

ورفع فومين حاجبيه مستغرباً ومسد عذاريه براحته :

— نحن المحاربون من أجل الكادحين . اننا ضد التنكيل الذى يمارسه القوميسارية والشيوعيون ، ذلك نحن .

وآنذاك ، رأى غريغورى ابتسامة ترتسم على وجه الرجل . واتسعت ابتسامة الأسير ، كاشفة عن أسنان ملطخة بالدم ، وقال وكأنه قد تلقى المفاجأة بسرور :

— اذا ، أنتم . . . كنت أسائل نفسى عمن يمكن أن تكونوا .

على أن فى صوته كانت نغمة جعلت جميع من فى الغرفة يصيخ السمع :

— اذا ، تسمون أنفسكم محاربين من أجل الشعب ؟ أى نعم ! أما فى لغتنا ، فأنتم لا أكثر من قطاع طرق . وتريدوننى أن أخدمكم ؟ حسن ، لا بد لى من القول بأن لكم روح نكتة لا بأس بها .

فخزر فومين عينيه وقاطعه بخشونة :

— أستطيع أن أرى أنك ثرثار قليلاً ! شيوعى ؟

— لا ، بالطبع لا . أنا غير حزبى .

— لا يبدو عليك ذلك .

— الحق ما أقول ، غير حزبى .

فسعل فومين واستدار صوب المنضدة :

— يا تشوماكوف ، تخلص منه !

فقال الأسير فى هدوء :

— ليس فى قتلى مكسب ما . ثم ، ليس لديك مبرر .

وكان الجواب الوحيد هو الصمت . نهض تشوماكوف عن المنضدة ، وهو يمسد شعره الأسحم الأملس ، وكان قوزاقياً وسيماً متين البنية ، يرتدى صديريا جلدياً انكليزياً . فقال فى لهجة جريئة ، فيما تناول سيفه من الكومة الملقاة على المصطبة وفحص نصله بابهامه :

— لقد سئمت من هذه الشغلة !

فأشار عليه فومين قائلاً :

— ليس هناك ما يدعوك لأداتها بنفسك . كلّف به للأولاد الموجودين فى الفناء .

فأجال تشوماكوف نظرة باردة على الأسير من رأسه الى أخمص قدمه ، وقال له :

— هيا ، تقدمنى ، يا ولدى !

فتحامل جندى الجيش الأحمر على نفسه وخطا من موقفه بجانب الموقد ، محدودب الكتفين ، واتجه على مهل ناحية الباب ، مخلّفا على الأرض وراءه آثار جزمته اللبادية المبللة .

فقال تشوماكوف فى حنق مفتعل فيما كان يسير وراء الأسير :

— على الأقل ، لو مسحت جزمتك قبل دخولك ! تدخل الى هنا ، موسخاً الأرضية . . . يا لك من حيوان قذر ، أيها الأخ !

وهتف فومين وراءهما :

— أطلب منهم أن يأخذوه الى داخل الزقاق أو الى ساحة درس الحبوب . لا تفعلوها بالقرب من الدار والا فسيتكدر أهل البيت .

ثم مضى ناحية غريغورى وجلس الى جانبه ، وقال متسائلاً :

— نحن نحاكمهم على نحو سريع ، أليس كذلك ؟

فرد غريغورى : متحاشياً النظر الى عينيه :

— بلى .

فأطلق فومين زفرة :

— لا يمكن تفادى ذلك . هى ذى الحال التى لا بد منها فى الوقت الحاضر .

وكان على وشك أن يقول شيئاً آخر ، ولكن وقع أقدام انبعث من ناحية الممر ، وصراخ أحدهم ، ولعلعة اطلاقة واحدة .

فزعق فومين فى صوت غاضب :

— بحق الجحيم ، ماذا يفعلون فى الخارج ؟

وقفز أحد الرجال الجالسين الى المنضدة وفتح الباب بركلة من قدمه . وصاح وسط العتمة :

— ماذا يجرى هناك ؟

فجاء تشوماكوف وروى ما حدث فى اهتمام جلى :

— تكشف عن دهاء كبير ، ذاك الشيطان ! قفز من الدرجة العليا وركض . فاضطررت الى تبذير رصاصة عليه . ويقوم الأولاد الآن بالاجهاز عليه فى الخارج . . .

— أخبرهم أن يجروه خارج الفناء الى الزقاق .

— أخبرتهم بذلك فعلاً ، يا ياكوف يفيموفتش .

وخيم على الغرفة صمت بعض الوقت . ثم قال أحدهم متسائلاً ، وهو يكبح تثاؤبه :

— كيف هو الجو فى الخارج ، يا تشوماكوف ؟ هل سيصحو؟

— السماء غائمة .

— اذا أمطرت ، فسيزيل المطر آخر ما بقى من الثلج .

— ولماذا تريدها أن تمطر ؟

— لا أريدها أن تمطر . أنا لا أحب التخبط فى الوحل .

مضى غريغورى الى السرير والتقط طاقيته . فسأله فومين :

— أين ذاهب ؟

— لأجر نفساً من الهواء .

خرج الى درجات عتبة السقيفة . كان القمر يشع ، خافتاً ، خلل الغيوم . وكانت ساحة الفناء الفسيح ، وسقوف المآوى ، والذؤابات الجرد لأشجار الحور ، والخيل المغطاة بمراشحها وهى واقفة عند أعمدة الربط ، كانت جميعا مضاءة بضوء منتصف

الليل الشاحب ، الأزرق ، فى زرقة الحمام . وعلى مبعدة عدة خطوات من السقيفة ، كان جندى الجيش الأحمر مسجى ، ورأسه فى بركة من ماء الذوبان ينبعث منها لألأ باهت . وكان ثلاثة قوزاق منحنين عليه ، وهم يتحدثون فى هدوء فيما كانوا يفعلون شيئاً به .

قال أحدهم فى لهجة مغتاظة :

— انه لا يزال يتنفس ، أى والله ! لماذا ضربته هكذا ، أيها الشيطان الأهوج ؟ قلت لك أضربه على رأسه . آه ، يا نفاية !

فرد القوزاقى ذو الصوت الأجش ، وكان هو الرجل الذى اصطحب غريغورى نفسه :

— سيفطس ! سيلفظ فواقاً آخر ثم يفطس ! لكن ، ارفع رأسه قليلاً ، هيا ! أنا لا أستطيع أن أنزع معطفه على هذا النحو . ارفعه من شعره . نعم ، هكذا ! والآن ، ابق ممسكاً به .

ثم سمع غريغورى صوت الارتطام بالماء . ثم قام أحد القوزاق المنحنين على الأسير . وانبعثت حمحمة من القوزاقى ذى الصوت الأجش الذى كان جالسا القرفصاء ، فيما كان يسحب السترة الملبدة من على الجثة . وبعد برهة من الوقت قال .

— لدى يدّ خفيفة ، ولهذا لم يعطس عطسته الأخيرة فى الحال . حينما كنت فى بيتى ، واذا حدث أن كنا ننحر خنزيرا — ارفعه ، لا تدعه يسقط ! أوه ، اللعنة ! وكما كنت أقول . . . كنت أشرع فى نحر الخنزير ، فأضربه ضربة خاطفة خلل بلعومه ، واصل بالسكين أنبوب رقبته ، وحتى آنئذ ، يقوم الحيوان اللعين ويسير فى الفناء . ويظل يسير ويسير وقتاً

ليس بالقصير بعد ذلك ! ينزف منه الدم ، لكنه يظل حيّاً . اذا ، فلا بد أن لدى يداً خفيفة . حسن الآن ، أتركه يسقط . . . ألا يزال يتنفس ؟ لا أظنك صادقاً ! كل هذا وقد شطرت له رقبته شطرين تقريباً !

نشر الرجل الثالث سترة جندى الجيش الأحمر على ذراعه الممدودة وقال :

— لطخنا الجانب الأيسر بالدم . . . انه يلتصق بيدى ! أف ، يا للقذارة !

فقال الرجل ذو الصوت الأجش وهو يعود الى جلسته القرفصاء :

— سيزول . انه ليس زيتاً ، سيزول بالمسح أو بالغسل على أية حال . ليس هذا مهماً .

وتساءل القوزاقى الأول برماً :

— والآن ، ماذا ستفعل : أتنوى خلع بنطلونه كذلك ؟

فردّ عليه صاحب الصوت الأجش بقوة :

— اذا كنت مستعجلاً أو تريد أن تذهب الى الخيل ، اذهب وسنستطيع تدبير أمورنا بدونك . لن نترك مثل هذه الأشياء الفاخرة للتلف .

استدار غريغورى على عقبيه وعاد الى داخل الدار . فاستقبله قومين بنظرة سريعة فاحصة وقام على قدميه ، وقال مقترحاً :

— لنذهب الى الغرفة الثانية ونتحدث . الضجيج هنا أكثر من اللازم .

كانت الغرفة الواسعة المدفأة تفوح برائحة الفئران وبذور القنب . كان رجل أميل الى القماءة متمدداً على السرير ، نائماً وهو فى قمصلته الخاكية . كان شعره أشعث ، وقد اشتبك به زغب . كان راقدا وخده على وسادة قذرة جرداء ، والمصباح

المدلى من السقف يضيء وجهه الشاحب الذى طالت لحيته .

أيقظه فومين قائلاً :

— انهض ، يا كابارين ! لدينا ضيف . هوذا غريغورى ميليخوف ، صديق من أصدقائنا ، وآمر سرية سابق .

فدلى كابارين ساقيه فوق حافة السرير ، ودعك وجهه بيديه ، ونهض . صافح يد غريغورى ، منحنياً له بعض الشيء :

— سعيد جداً بك . أنا النقيب الركن كابارين .

وقدّم فومين كرسياً لغريغورى ، وجلس هو على صندوق . وكان لا بد أنه قد أدرك الأثر السيئ الذى تركه مصرع الأسير فى نفس غريغورى ، اذ قال :

— يجب ألا تظن أننا نعامل جميع أسرانا بهذه الخشونة . كان هذا الشخص أحد أفراد مفرزة من مفارز تجميع الحبوب . ولن ندع أمثال هؤلاء الرجال ينجون من أيدينا ، ولا القوميساريين . . . على أننا نبقى على حياة غيرهم . أمس ، أسرنا ثلاثة من رجال الميليشيا . أخذنا خيلهم وسروجهم وعدتهم ، ثم أطلقنا سراحهم . ما الفائدة من قتلهم ؟

لم يجب غريغورى . كان مشغولاً بأفكاره هو ، وقد وضع يديه على ركبتيه ، وكان صوت فومين يتناهى اليه وكأنه فى حلم .

مضى فومين يقول :

— . . . وهكذا ، فاننا نحارب على هذه الصورة فى الوقت الحاضر . بيد أننا نعتقد أننا لا بد سنفلح فى حمل القوزاق على الثورة . ان السلطة السوفييتية لا يمكن لها أن تعيش . كل الدلائل تشير الى أن هنالك حرباً تدور رحاها الآن فى كل مكان . انتفاضات فى كل مكان ، فى سيبيريا وفى أوكرانيا ، بل حتى فى بتروغراد . لقد أعلن الأسطول برمته العصيان فى تلك القلعة . . . ماذا تدعى ؟

فساعده كابارين بقوله :

— كرونستادت .

فرفع غريغورى رأسه ، ونظر الى فومين بعينين خاويتين ، كان شرودهما جلياً ، ثم حوّل نظرته الى كابارين .

مدّ فومين علبة سكائره اليه :

— خذ سيكارة . أجل ، تمّ الاستيلاء على بتروغراد وهم الآن يقتربون من موسكو . انها الحالة نفسها فى كل مكان . وليس هناك مبرر لأن نظل نياماً ! سنحرض القوزاق ، نطيح بالحكم السوفييتى ، واذا قدم «الكاديت» لنا أى دعم ، فستكون شغلتنا رائعة . ليقم رجالهم المثقفون حكومة ونحن نساعدهم .

وصمت لحظة ، ثم سأل :

— ما رأيك ، يا ميليخوف ؟ اذا شق «الكاديت» طريقهم من البحر الأسود وانضممنا اليهم ، فسيعترفون بفضلنا لأننا كنا أول من انتفض فى مؤخرة العدو ، ألن يفعلوا ذلك ؟ كابارين يقول انهم سيفعلون بالتأكيد . مثلاً ، انهم لن يحاسبونى لقيامى ، على رأس الكتيبة الثامنة والعشرين ، بالتخلى عن الجبهة فى عام ١٩١٨ ، ثم بخدمة الحكومة السوفييتية سنتين ؟

فحدّث غريغورى نفسه ، وهو يبتسم رغم ارادته :

اذا ، فهذا هو هدفك ! انك لأحمق ، انما أحمق خبيث !

انتظر فومين جواب غريغورى . وكان من الجلى أن جوابه يهمه بشكل عميق .

قال غريغورى مترددا :

— سيستغرق هذا وقتاً طويلاً .

فقال فومين موافقاً فى الحال :

— بالطبع ، بالطبع . سنرى أفضل فيما بعد . أما الآن ، فيجب أن نعمل ، يجب أن نقضى على الشيوعيين فى مؤخرة جبهتهم . لن ندعهم يعرفون طعم السلام بأى شكل كان ! يحسبون أن بمقدورهم مطاردتنا بوضع مشاتهم فى عربات الشحن . فليجربوا . فبينما ترسل الخيالة لمساعدتهم نكون قد قلبنا الاقليم عن آخره رأساً على عقب .

فحدق غريغورى فى قدميه ، متفكراً . واستأذن كابارين وتمدد على السرير . وقال وهو يبتسم ابتسامة واهنة :

— أنا أتعب كثيراً . نحن نقطع مسيرات جنونية ولا ننام الا قليلاً .

نهض فومين ووضع يده على كتف غريغورى قائلاً :

— حان وقت ذهابنا الى الفراش أيضاً . لقد كنت عاقلاً ، يا ميليخوف ، حينما استمعت الى نصيحتى ذلك اليوم فى فيشنسكايا . لو لم تختف لقضوا عليك . . . لكنت مسجى على التلال الرملية خارج فيشنسكايا ، وأظافرك تتعفن . تستطيع أن تعتبر كلامى هذا حقيقة . حسن ، ماذا قررت ؟ تكلم ، ثم لنذهب لننام .

— عم أتكلم ؟

— هل ستنضم الينا ، أم ماذا ؟ أنت لا تستطيع أن تقضى كل حياتك مختفياً فى بيوت الآخرين .

كان غريغورى يتوقع هذا السؤال . والآن ، عليه أن يتخذ قراره : اما أن يظل يهيم على وجهه بين قرية وأخرى ، يعيش حياة الجوع والتشرد ، يأكل الحنين قلبه ، الى أن يفشى أحد مضيفيه بأمره لدى السلطات ، واما أن يذهب الى الدائرة السياسية ويسلم نفسه ، أو أن ينضم الى فومين .

واتخذ قراره . رفع غريغورى وجهه وحدق الى وجه فومين مباشرة ، لأول مرة فى ذلك المساء ، وقال وهو يلوى شفتيه فى ابتسامة :

— أمامى مجال للاختيار بقدر ما هو أمام البطل فى القصة الخرافية : اذا ذهبت بحصانك الى اليسار فقدت الحصان ، واذا ذهبت الى اليمين ستُقتل أنت . أما أنا فأمامى ثلاثة طرق ، وليس بينها طريق سالك . . .

— اتخذ قرارك بلا قصص خرافية . سنروى القصص الخرافية فيما بعد .

— لا مكان لى أذهب اليه ، ولهذا فقد اتخذت قرارى فعلاً

— حسن ،

— سأنضم الى عصابتك .

فعقد فومين حاجبيه متضايقاً وجعل يقضم شاربه :

— لا تستعمل هذه الكلمة بعد الآن ! لماذا تسميها عصابة ؟ هذه هى التسمية التى يطلقها الشيوعيون علينا ، أما أنت فلا يجدر بك أن تستعملها . اننا ، ببساطة ، رجال أعلنوا الثورة على السلطة . مختصر مفيد !

لم يدم تضايقه الا برهة . كان بادى السرور بقرار غريغورى ، ولم يستطع أن يكتم تلك الحقيقة . فقال وهو يفرك يديه :

— هوذا رجل آخر ينضم الى صفوفنا ! أتسمعنى ، أيها النقيب الركن ؟ سنعطيك امرة رعيل ، يا ميليخوف ، واذا لم تشأ أن تقود رعيلاً فيمكنك أن تكون فى هيئة الأركان مع كابارين . سأعطيك حصانى ، فلدىّ آخر احتياطى .

مع اقتراب الفجر ، تثلج الجو قليلاً . فغشى البرك جليد أزرق بلون الحمام . وغدا الثلج قاسياً يخشخش اذ يتكسر . وكانت سنابك الخيل تترك آثاراً دائرية الشكل ، مفتتة ، على البساط الثلجي الحبيبي ، وكانت الأرض الجرداء والعشب الميت عليها منذ السنة الماضية ، حيث كان ذوبان اليوم السابق قد أكل الثلج من فوقها ، لا تحمل من آثار حوافر الخيل الا باهتها ، وترسل وقعاً أجوف تحت ضرباتها .

اصطفت عصابة فومين فى طابور خارج القرية . وعلى مسافة بعيدة ، فى الطريق ، كانت دورية الاستطلاع المتقدمة ، والمتكونة من ستة فرسان ، ترى بين الحين والحين .

قال فومين مبتسماً وهو يقترب على حصانه من غريغورى :

— هوذا جيشى ! باستطاعتنا أن نحطم الشيطان نفسه بمثل هؤلاء الأولاد !

فأجال غريغورى بصره فى الطابور ، وقال فى سريرته نادماً :

— لو كنت وجيشك قد اشتبكتم فى معركة مع سريتنا ، سرية بوديونى ، لكنا قد أحلناكم كومة من عظام فى غضون نصف ساعة !

أشار فومين بسوطه وسأل :

— ما رأيك بهم ؟

فأجاب غريغورى بلهجة جافة :

— لا بأس بهم لقتل الأسرى وسلب الموتى ، ولكننى لا أدرى كيف سيكونون فى القتال .

فاستدار فومين على سرجه ، موليا ظهره للريح ، وأشعل سيكارة وقال :

— ستسنح لك فرصة رؤيتهم فى القتال أيضاً . ان أغلب رجالى من الجنود النظاميين ، ولن يخذلوك .

كانت ست عربات ، من النوع الذى يجره حصانان ، محملة بالعتاد والتجهيزات ، موضوعة فى وسط الطابور . انطلق فومين الى المقدمة وأصدر الايعاز بالتحرك . وحينما بلغوا المرتفع ، اقترب من غريغورى ثانية وقال :

— حسن ، كيف هو حصانى ؟ يعجبك ؟

— انه حصان طيب .

لبثا يسيران بعض الوقت صامتين ، ركاباً لركاب ، ثم تساءل غريغورى :

— أتنوى المرور بتتارسكى ؟

— تحب أن ترى أهلك ؟

— أود أن أزورهم .

— قد نفعل ذلك . فى الوقت الحاضر ، أنوى التوجه الى «التشير» ، لخض القوزاق هناك خضة خفيفة .

غير أن القوزاق لم يكونوا راغبين كثيراً فى «خضة» من هذا القبيل . لقد اقتنع غريغورى بهذه الحقيقة منذ أيامه القليلة الأولى مع العصابة . كان فومين ، حينما يحتلون قرية أو مركز منطقة ، يصدر أوامره الى المواطنين لعقد اجتماع . وكان هو من يقوم بالقاء الخطاب عادة ، وان كان كابارين يأخذ مكانه فى بعض الأحيان . كانا يناشدان القوزاق أن يحملوا السلاح ، ويتحدثان عن «الأعباء» التى وضعتها السلطة السوفييتية على كواهل مزارعى الحبوب ، وعن «الخراب الشامل الذى سينجم حتما

اذا لم يتم اسقاط الحكومة السوفييتية» . كان كلام فومين أقل التزاماً بقواعد اللغة والتسلسل المنطقى من كلام كابارين ، انما أكثر شمولاً وبلغة أقرب الى فهم القوزاق . وكان ينهى خطابه ، فى العادة ، بعبارات معينة مستظهرة غيباً :

— من اليوم فصاعداً ، سنحرركم من تجميع الحبوب . لا ترسلوا حبوبا بعد اليوم الى نقاط التجميع . لقد آن الأوان لتتوقفوا عن اطعام التنابلة الحمر . لقد سمنوا بحبوبكم ، لكنهم لن يعيشوا بعد اليوم على أكتاف الآخرين . أنتم شعب حر . سلحوا أنفسكم وادعموا حكومتنا . هورا * ، أيها القوزاق !

فيسمّر القوزاق أعينهم فى الأرض وهم صامتون صمتاً كثيباً . أما النسوة ، فكن يطلقن العنان لألسنتهن . وكانت تنبعث من صفوفهن المكتظة صيحات وأسئلة لاذعة :

— حكومتكم تبدو لا بأس بها ، ولكن هل جئتمونا بشىء من الصابون ؟

— أين تحتفظون بحكومتكم ، أفى خرج سروجكم ؟

— ولكن ، على حبوب من تعيشون أنتم ؟

— أظن أنكم ستنتقلون بعد قليل ، من فناء الى فناء مستجدين ؟

— لطيف منكم أن تطلبوا منا ألا ننقل حبوبنا الى نقاط التجميع . ولكن ، أنتم اليوم هنا ، وغداً أين ؟ لن نعثر عليكم حتى لو بحثنا عنكم بكلاب سلوقية ، بينما سنتحمل نحن المسؤولية .

— لن ندعكم تأخذون أزوجنا . قاتلوا بأنفسكم !

---

* صيحة النصر أو الاستحسان . **المترجمون** .

وكانت النسوة تزعق بالكثير غير هذا فى غمرة هياجهن العظيم . ففى خلال سنوات الحرب تفتحت أعينهن تماماً ، وغدون يخشين من حرب جديدة ، فتشبثن بأزواجهن بعناد اليائس المستميت .

كان فومين يستمع الى صيحاتهن غير المفهومة بلا مبالاة . كان يعرف قيمتها . فكان ينتظر الى أن يعود الهدوء فيلتفت ناحية الرجال . وآنذاك ، كان هؤلاء يجيبون فى اختصار ورصانة :

— لا تجبرنا ، أيها الرفيق فومين . لقد قاتلنا بما فيه الكفاية .

— لقد جربناها . انتفضنا فى عام ١٩١٩ .

— لا نملك ما ننتفض به . ولا معنى فى الانتفاض . لا حاجة بنا اليه فى الوقت الراهن .

— هذا أوان البذر ، لا القتال .

وذات يوم ، هتف أحدهم من صفوف الحشد الخلفية :

— انك تنطق كلاماً معسولاً الآن ! ولكن أين كنت فى عام ١٩١٩ حينما قمنا بالانتفاضة ؟ لقد غيرت فكرك فى وقت متأخر ، يا فومين !

فرأى غريغورى سحنة فومين تتغير غير أنه حافظ على زمام نفسه ولم يجب .

خلال الأسبوع الأول ، كان فومين يصغى بهدوء تامّ الى اعتراضات القوزاق أثناء الاجتماعات والى رفضهم المقتضب لدعم عملياته ولم تستطع حتى صيحات النسوة ولعناتهن أن تخل باتزانه . فكان يقول بلهجة متغطرسة وهو يبتسم تحت شاربه :

— حسن ، سنرتب كل شىء لكم !

على أنه حينما اقتنع أن غالبية القوزاق كانوا لا يكنّون له

المودّة ، تغير موقفه ، كلياً ، تجاه الذين كانوا يتكلمون أثناء الاجتماعات . وأصبح الآن يلقى خطابه دون أن يترجل عن حصانه ، ولم يعد يناقش بقدر ما كان يتوعد . بيد أن النتيجة كانت واحدة : كان الرجال الذين كانوا موضع أمله فى الدعم والاسناد يستمعون اليه فى صمت ، وبالصمت ذاته يتفرقون .

وحدث فى احدى القرى بعد أن ألقى فومين كلمته ، أن ردت عليه أرملة قوزاقية بكلمة . كانت امرأة هائلة الجسم ، متينة البنية ، ضخمة العظام ، وحينما تكلمت ، هدرت بصوت كصوت الرجال وجعلت تلوّح بذراعيها كما يفعلون . وكان وجهها العريض ، المليء ببثور الجدرى ، طافحاً بالعزم الهائج ، وكانت شفتاها الكبيرتان الغليظتان العبوسان تلتويان ، طوال الوقت ، فى تكشيرة مزدرية ، وبدت ، وهى تشير بيدها الحمراء المنتفخة نحو فومين ، الذى تسمّر على سرجه كالصخر ، وكأنها تبصق بالكلمات اللاسعة :

— لماذا تثير القلاقل هنا ؟ أين تريد أن تسوق قوزاقنا ، أالى جحر ؟ ألم ترمّل هذه الحرب اللعينة الكفاية من نسائنا ؟ ألم تيتّم الكفاية من أطفالنا ؟ أتريد أن تستنزل مصائب جديدة على رؤوسنا ؟ أنظروا الى المحرر القيصرى ، هذا ، الذى طلع علينا من قرية روبزنى ؟ عليك أن تصلح من أمر بيتك وأن تكف عن التدمير ، وبعدها تستطيع أن تعلمنا كيف نعيش وأية حكومة نقبل . ذلك لأن زوجتك نفسها لا تستطيع ، فى بيتك نفسه ، أن تحرر رقبتها من الطوق ، ونحن أدرى بذلك ! لكنك نفشت شاربك وجعلت تتمخطر على حصان ، وتثير القلق فى نفوس الناس . فى حين أن بيتك نفسه كان سينهار منذ أمد بعيد لو لم تمسكه الريح . لعمرى ، أنك معلم ممتاز ! فيم سكوتك ، يا عقدة الزنجيل ؟ هل ما أقوله كذب ؟

فسرت ضحكات خافتة بين الحشد ، خشخشت قليلاً ، مثل هبوب الريح ، ثم تلاشت وامتدت أصابع يد فومين اليسرى ، الموضوعة على قربوس السرج ، الى العنان وأمسكت به . وقتم لون وجهه بغضب كظيم . الا أنه ظل صامتاً ، محاولاً أن يهتدى الى طريقة تحفظ له كرامته للخروج من الموقف المحرج .

واستأنفت الأرملة كلامها فى حماسة ، وقد استبد بها الانفعال الآن تماماً :

— ثم ، ما هى هذه الحكومة ، حكومتك ، التى تريد أن تدعمها ؟

ووضعت ذراعيها على خصرها وأخذت تقترب ، ببطء ، من فومين مؤرجحة ردفيها الواسعين . ففسح الحشد لها طريقاً ، وهم يكتمون ابتساماتهم ويخفضون أعينهم الضاحكة وأفسحوا المجال لحلقة ، مثلما يفعلون لحلقة رقص ، وهم يتدافعون .

وقالت الأرملة فى صوتها العميق :

— حكومتكم لن تبقى لحظة بعد ذهابكم . انها تنسحب وراءكم ولا تعيش أكثر من ساعة ، مطلقاً ، فى مكان واحد . واليوم على حصانك ، وغداً على بطنك فى الوحل» ، هو ذا أنت ، وحكومتك مثلك .

نخس فومين جنبى حصانه بعقبيه ومضى به مخترقاً الحشد . فتراجع الناس فى كل اتجاه . لم تبق سوى الأرملة فى وسط حلقة كبيرة . لقد رأت الكثير فى حياتها ، ولهذا لبثت تحدق بهدوء الى أسنان حصان فومين المكشرة والى وجه فومين الأبيض المتهيج .

اتجه بحصانه نحوها ثم رفع سوطه عالياً فوقها :

— اخرسي ، أيتها الحدأة الرقطاء ! علام تقومين بالتحريض هنا ؟

كان خطم الحيوان ، وقد شده العنان الى أعلى فتعرت الأسنان فيه ، مخيماً على رأس المرأة الجسور . وطارت كتلة من الزبد ، ذات لون أخضر شاحب ، من الشكيمة وسقطت على عصابة رأسها السوداء ، ومنها انداحت على خدها . فمسحتها بيدها وتراجعت خطوة الى وراء .

وصاحت وهى تحدج فومين بعينين جاحظتين تتقدان هيجاناً :

— اذن ، فمن حقك أنت أن تتكلم ، أما نحن فلا .

لم يضربها فومين . لكنه هدر قائلاً وهو يلوح بسوطه :

— أنت أيتها الحثالة البلشفية ! لسوف أقتلع بالسوط كل الغباء الذى فيك ! لسوف تربطين بتنورتك نفسها وتضربين بقضبان الدحس ! سيعيدك ذلك الى صوابك فى أقل من لمح البصر !

وتراجعت الأرملة بضع خطوات أخرى ثم ، وفى حركة غير متوقعة ، أولت فومين ظهرها وانحنت الى الأرض ثم رفعت تنورتها من الخلف . وهتفت :

— ألم تر شيئاً مثل هذا من قبل ، يا أنيكا المحارب ؟

ثم أقامت نفسها بحفة مدهشة واستدارت لتواجه فومين من جديد :

— أنا ؟ تضربنى بالسوط ؟ ان منخارك يطفح بالمخاط !

فقذف فومين بصقة حانقة وسحب العنان للسيطرة على حصانه المتراجع . وقال فى صوت عال :

— أغلقى فمك ، أيتها الفرس العاقر ! يا كتلة اللحم الهائلة !

وأدار حصانه محاولاً ، عبثاً ، أن يبدو صارم السيماء .

وسرت خلل الحشد همهمة ضاحكة . وهنا هرع أحد رجال فومين نحو المرأة ، لينقذ شرف قائده المهان ، وهو يؤرجح عقب قربينته . لكن قوزاقيا بدينا ، يفوقه طولاً برأس أو رأسين ، حمى المرأة بكتفيه العريضين وقال بلهجة هادئة ، ولكنها منذرة بالويل :

— لا تمسها !

وتقدم ثلاثة قرويين آخرين أيضاً بسرعة ودفعوا المرأة الى وراء . وهمس أحدهم ، وكان فتى ذا شعر منتصب ، الى رجل فومين :

— من الذى تستهدف بقربينتك ، ها ؟ لا أسهل من ضرب امرأة . اذهب الى الحقول وأرنا شجاعتك هناك ، فنحن نستطيع كلنا أن نكون شجعاناً فى أفنية دورنا الخلفية !

مضى فومين على حصانه متمهلاً حتى بلغ السياج ، ثم قام على ركابيه ، وصاح موجهاً كلامه الى القوزاق المتفرقين ببطء :

— أيها القوزاق ، فكروا فى الأمر ملياً ! اننا نطلب ذلك منكم بلهجة لطيفة الآن ، غير أننا عائدون بعد أسبوع ، وآنذاك ستكون لهجتنا مختلفة !

ولسبب ما ، تحول مزاجه الى ميل نحو المرح ، فهتف وهو يضحك ويمسك بزمام حصانه الراقص :

— لسنا جبناء ! أنتم لا تستطيعون اخافتنا بما لنسائكم من — (وهنا ذكر بعض التعابير لا توافق عليها الرقابة) — لقد رأيناها طافحات ببثور الجدرى ، وشتى أصناف البثور الأخرى . سنعود ، واذا لم ينضم أحد الى وحدتنا طوعاً ، فسنجند جميع القوزاق الشباب بالقوة . افهموا هذا ! ليس لدينا الوقت الكافى لعناقكم والتمعن فى عيونكم !

وكان الحشد قد توقف قليلاً ، فانبعثت من بين صفوفه

أصوات ضحك وحوار حار . ثم اصدر فومين أمره ، وهو لا يزال يبتسم :

— الى الخيل !

ومضى غريغورى الى رعيله على حصانه ، وقد غدا وجهه أرجوانى اللون لفرط اختناقه بالضحك المكبوت .

واصلت وحدة فومين سيرها الشاق على الطريق الموحل حتى بلغت قمة الرابية ، ثم اختفت القرية غير المضيافة عن الأنظار . لكن غريغورى ظل يبتسم من حين لآخر وهو يحدث نفسه :

— انه لشىء حسن أن نحب ، نحن معشر القوزاق ، التمازح فيما بيننا . ان المرح يعيش بين ظهرانينا أكثر من الحزن . والله ، لو كانت الحياة جميعها جداً ، لشنقت نفسى منذ زمن بعيد .

ولبث مزاجه المنشرح معه وقتاً طويلاً ، ولم يحدث الا عند نقطة توقفهم التالية أن شرع يوقن ، والقلق والمرارة يمضّانه ، أنهم لن يفلحوا فى تحريض القوزاق على الثورة ، وأن جميع خطط فومين كانت ستؤدى الى كارثة محتومة .

١٣

قدم الربيع . غدت أشعة الشمس تحمل دفئا أكثر . وشرع الثلج يذوب فى المنحدرات الجنوبية من التلال ، وعند الظهيرة ، كانت الأرض ، وقد تصدأت بأعشاب السنة الماضية ، تزفر ضباباً ليلكياً شفافاً . وفى المواضع الدافئة ، وعلى الروابى ، وتحت الجلاميد المدفونة حتى النصف فى التربة الرملية ، بزغت النبتات الأولى لعشب العسل ، رقيقة ، لامعة الاخضرار . كانت

الأراضى المحروثة معراة . ومن الطرق الشتائية المهجورة ، هاجرت غربان القبط متجهة صوب ساحات درس الحبوب وحقول القمح الشتائى المغمورة بمياه الذوبان . وفى الاخاديد والوهاد ، كان الثلج مسجى ، أزرق اللون ، مندى حتى السطح ، ومن هذه المواضع ، كان برد قارس لا يزال ينبعث . أما فى الوديان ، فقد شرعت الجداول غير المرئية تدندن من تحت الثلج . وفى ممرات الغابات ، طفقت أغصان أشجار الحور تبسط خضرة يانعة رقيقة لا تكاد ترى .

كان موسم العمل يقدم ، وعصابة فومين تضمحل باستمرار مع مرور الأيام . بعد كل توقف للمبيت ، كان رجلان أو ثلاثة يختفون ، وذات صباح اختفى نصف رعيل تقريباً : فقد مضى ثمانية رجال ، مع خيلهم وعدتهم ، الى فيشنسكايا ليسلموا أنفسهم . لقد حان أوان الحراثة والبذر . كانت الأرض تناديهم ، تدعو القوزاق الى العمل ، واذ اقتنع العديد من رجال فومين بعدم جدوى هذا النضال ، جعلوا ينسلون من العصابة ويذهبون صوب قراهم . ولم يبق سوى الضوارى الذين لم يكن فى مقدورهم العودة مهما كانت الظروف ، رجال كانت الجرائم التى ارتكبوها ضد الحكم السوفييتى أكبر من أن يأملوا باعفائهم من تبعاتها .

وفى الأيام الأولى من نيسان ، لم يكن تحت امرة فومين أكثر من ستة وثمانين حامل سيف . أما غريغورى فقد كان لا يزال ضمن هؤلاء . كانت الشجاعة تعوزه للذهاب الى قريته . كان مقتنعاً كل الاقتناع بأن قضية فومين خاسرة ، وأن العصابة لا بد آيلة الى التشتت آجلاً أو عاجلاً . وكان يدرك أنهم سيقضى عليهم ، حتى آخر رجل ، فى أول صدام جدى مع خيالة نظامية من الجيش الأحمر . لكنه ، مع ذلك ، بقى تحت

لواء فومين ، آملاً فى سره أن يظل معه على صورة ما حتى يحل الصيف . وآنذاك يلتقى له أفضل حصانين فى الوحدة وينطلق بهما ليلاً الى تتارسكى ، ومن ثمة تصحبه أكسينيا صوب الجنوب .

كان سهب الدون واسعا ، فسيحاً ، فيه الكثير من المسالك المنفردة . وفى الصيف تكون جميع الطرقات مفتوحة ويصبح ايجاد ملجأ ميسورا فى كل مكان . وعزم ، وهو يتصور خطته القادمة ، على التخلى عن الحصانين فى مكان ما ، متخذاً طريقه ، مع أكسينيا ، سيراً على الأقدام نحو الكوبان ، ثم الى التلال القفقاسية السفيحة ، بعيدا عن دياره الأصلية ، ليعيش هناك خلال هذه الفترة العصيبة . وبدا لناظره ان ذلك هو طريق الخلاص الوحيد .

قرر فومين ، بناء على مشورة كابارين ، عبور الدون الى ضفته اليسرى قبل أن يتكسر الجليد ، آملاً أن يستطيع النجاة من المطاردة ، عند الضرورة ، فى الغابات التى تكثر فى اقليم الخوبر .

عبرت العصابة الدون فى موضع يقع على مبعدة من قرية ريبنى . كان الجليد قد انجرف مع الماء فى الأماكن التى كان التيار يندفع فيها سريعاً . وتحت شمس نيسان الرائقة ، كان الماء يتلألأ وكأنه مغطى بحراشف فضية ، أما حيث كان المسلك الشتائى يرتفع ثلجه المداس الى علو قدمين أو نحوهما فوق مستوى الجليد ، فقد كان الدون لا يزال متجمدا صلبا . فوضع رجال العصابة أغصان اسفندان على الحافة المكسورة ، وساقوا الخيل ، فرادى ، عبر النهر الى الضفة الثانية . ومن ثمة ، أرسلوا دورية استطلاعية لتسبقهم ، وتحركوا ميممين صوب منطقة يلانسكايا .

فى اليوم التالى ، صادف أن رأى غريغورى قرويـــــاً

من أهالى تتارسكى ، وكان عجوزاً أعور فى طريقه الى غريازنوفسكى لزيارة أقارب له فيها والتقى بالعصابة على مبعدة يسيرة من القرية . فانتحى غريغورى بالعجوز جانباً وسأله :

— هل طفلاى حيان وعلى ما يرام ، أيها الجد ؟

— ليحفظهما الله ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، انهما حيان وعلى ما يرام .

— أريد أن أطلب منك شيئاً هاماً ، أيها الجد . بلغهما وشقيقتى ، يفدوكيا بانتلاييفنا ، تحية حارة منى ، وبلغ تحياتى الى بروخور زيكوف ، وقل لأكسينيا أستاخوفا أن تتوقع مجيئى عما قريب . ولكن لا تقل لأحد غيرهم أنك قد رأيتنى ، هل ستفعل ذلك ؟

— سأفعل ذلك ، سأفعل ذلك . لا تخش شيئاً ، سأخبرهم بجميع ما قلت .

— ما هى أخبار القرية ؟

— لا شىء البتة . كل شىء فيها كما كان فى السابق .

— ألا يزال كوشيفوى رئيسا للجنة الثورية ؟

— بلى . لا يزال الرئيس .

— لعله لم يؤذ عائلتى بشكل ما ، ها ؟

— لم أسمع بشىء عن ذلك ، يعني أنه لا يمسّهم ، ثم ، ما الذى يدعوه لذلك ؟ انهم غير مسؤولين عنك .

— ماذا يقول الناس عنى فى القرية ؟

فتمخط العجوز ، وقضى وقتاً طويلاً يمسح شاربه ولحيته بمنديله الأحمر ، ثم أجاب متململا :

— يعلم الله . . . يقولون مختلف الأقوال ، كل ما يخطر على بالهم . هل ستتصالح مع الحكومة السوفييتية عما قريب ؟

ماذا كان باستطاعة غريغورى أن يجيب ؟ شد العنان على حصانه الذى كان ينافح للحاق بالوحدة ، وابتسم وقال :

— لا أدرى ، أيها الجد ، ليس لدى ما أقوله الآن .

— وكيف ذلك ؟ لقد حاربنا الشركس ، وحاربنا الأتراك ، ثم تصالحنا . أما أنتم ، أنتم كلكم شعبنا وأهلنا ، ومع ذلك لا تستطيعون أن تتوصلوا الى اتفاق فيما بينكم . . . لا خير فى ذلك ، يا غريغورى بانتلاييفتش ، صدقنى لا خير فى ذلك ! ان الله الرحيم يرى كل شىء ولن يغفر لكم ما أنتم فاعلون ، تذكر كلامى هذا . أسألك ، أمن الممكن للروس ، وهم مؤمنون حقيقيون ، أن يظلوا يقتتلون فيما بينهم الى ما لانهاية له ؟ كان بامكانكم أن تحاربوا فترة قصيرة . . . ولكن ، ها قد مضت أربع سنوات وأنتم ممسكون بخناق بعض . فكما يرى عقلى العجوز ، لقد آن الأوان لوضع حدّ لذلك !

ودّع غريغورى العجوز وانطلق ليلحق برعيله . أما الرجل فلبث واقفاً ، متكئاً على عصاه ، يفرك محجر عينه الفارغ بكمه . وبعينه القوية الواحدة ظل ينظر الى غريغورى ، متمعناً باعجاب فى هيئته البديعة ، وقال هامساً :

— انه قوزاقى طيب ! له هيئة فاخرة ، ومع ذلك ، فهو أفّاق متشرد . لقد أضاع سبيله . الحق ، كان عليه أن يحارب الشركس ، ولكن أنظر أى طريق اختار ؟ لماذا ، بحق كل الطواعين ، يهتمون بالحكومة ؟ بم يفكر هؤلاء القوزاق الشباب ؟ لا معنى فى توقع أى خير يأتى على يدى غريشا . كانت عشيرته كلها من الأفاقين المتشردين . والده المرحوم ، بانتلاى ، كان مغزولا من النسج ذاته ، وأتذكر جده بروكوفى . . . هو الآخر كان تفاحة مرة الطعم ، وليس كائناً

بشرياً . ولكن ماذا يدور بخلد القوزاق الآخرين . . . غفرانك يا رب ، لكننى لا أفهم .

* * *

لم يعد فومين ، عند احتلال قرية ما ، يدعو مواطنيها الى عقد اجتماع . لقد أقنعته التجربة أن وسائل الدعاية كانت بلا جدوى . وكان لديه ما يشغله للابقاء على رجاله هو ، وليس استمالة آخرين . وأمسى كثيبا مقلا فى الكلام ، وما لبث أن اكتشف العزاء فى الفودكا . كانت حفلات السكر تقام كلما صادف أن قضى ليلة فى قرية . وكان رجاله يشربون أيضاً ، مترسمين خطى أتمانهم . كان الضبط والنظام يضمحلان . وتكررت حوادث النهب والسلب . كانت بيوت الموظفين السوفييت ، الذين كانوا يتوارون عن الأنظار كلما قدمت العصابة ، تجرد من كل ما يمكن نقله على ظهور الخيل . وكانت خرج الكثير من الرجال محشوة الى حدّ لا يصدق . وذات يوم ، لاحظ غريغورى رجلاً فى رعيله يحمل ماكنة خياطة يدوية . كان قد علق الأعنة على قربوس السرج وحمل الماكنة تحت ذراعه الأيسر . ولم يفلح غريغورى فى جعل القوزاقى يتخلى عن غنيمته الا باللجوء الى استعمال السوط معه . وفى ذلك المساء ، كان لغريغورى حديث حاد مع فومين . كانا منفردين فى الغرفة : فومين جالس الى المائدة ، ووجهه منتفخ من أثر الشرب ، فيما كان غريغورى يقطع الغرفة جيئة وذهاباً بخطوات واسعة .

فقال فومين غضباً :

— اجلس ، لا تتأرجح أمام عينى .

ومن غير أن يعير غريغورى كلامه أى اهتمام ، استمر

يخطو عبر الغرفة الصغيرة لوقت طويل . ثم قال أخيراً :

— لقد نلت الكفاية من هذا ، يا فومين ! ضع حدا لهذا النهب والسكر .

— هل رأيت حلماً مزعجاً ليلة أمس ؟

— النكات مرة أخرى . . . بدأ الناس يتحدثون عنا بالسوء .

فقال فومين على مضض :

— أنت تدرى ، مثلما أدرى أنا ، أننى لا أستطيع شيئاً مع الأولاد .

— لكنك لا تحاول شيئاً معهم أساساً !

— حسن ، لست أنت بمعلمى . والناس ، لا يستحقون أن يؤبه لهم بأية حال . اننا نقاسى من أجلهم ، أولاء الخنازير ، لكنهم . . . سأعتنى بنفسى ، وهذا كاف .

— انك لا تعتنى حتى بنفسك بصورة حسنة ! لم يعد عندك وقت قط للتفكير ، كل ذلك بسبب من انكبابك الدائم على الشرب . انك لم تعرف الصحو منذ أربعة أيام ، والكل يشرب أيضاً . انهم يشربون حتى حينما يكونون فى الواجب فى نقطة أمامية ، وفى الليل أيضاً ما الذى تستهدفه ؟ أتريد أن نقع فى الفخ فى احدى القرى ونباد فيما نحن سكارى ؟

فقال فومين مكشرا :

— أتحسب أننا سنتجنب هذه النهاية ؟ لا بد أن نموت فى يوم من الأيام . الجرة متعودة على جلب الماء ، لكنها تنكسر فى النهاية . أتعرف هذا ؟

— اذن ، لنذهب الى فيشنكايا غداً ونرفع أيدينا قائلين : — خذونا ، لقد استسلمنا !

— كلا ، سنظل نتمتع بالحياة لفترة أخرى . . .

فتوقف غريغورى ازاء المنضدة مباعداً ما بين ساقيه ، وقال فى هدوء :

— ان لم تسترجع النظام الى المراتب وتضع نهاية لهذا النهب والشرب ، فسأتركك واصحب نصف الرجال معى .

فرد عليه فومين متوعداً :

— حاول ذلك !

— لن يستدعى الأمر كبير محاولة !

فصاح فومين ووضع يده على جراب مسدسه :

— كف . . . كف عن تهديدى !

فأسرع غريغورى يقول ، وقد شحب وجهه وكاد يستل سيفه :

— لا تضع مخلبك على مسدسك ، أنا أستطيع أن أبلغك بسيفى عبر المائدة قبل ذلك !

فوضع فومين يديه على المائدة وابتسم :

— لماذا تنق برأسى ؟ رأسى ، بحالته الراهنة ، سينفجر . ثم تأتينى بكلامك السخيف . ضع سيفك الى غمده . ألا أستطيع أن أتمازح معك ، اذا ؟ يا لك من متزمت ! تماماً ، مثل صبية فى السادسة عشرة . . .

— لقد قلت ماذا أريد ، فأدخله فى رأسك واحفظه فيه ! لسنا جميعاً ذوى مزاج شبيه لمزاجك .

— اعرف ذلك .

— اعرفه وتذكره ! عليك أن تصدر الأوامر غدا بتفريغ جميع الخرج ! نحن قوة من الخيالة وليس قافلة أمتعة أنقر ذلك على رؤوسهم ! ويسمون أنفسهم مناضلين من أجل الشعب ! لقد حملوا انفسهم بالأسلاب وراحوا يتاجرون بها فى القرى مثل الباعة المتجولين تماماً ! اننى أشعر ذلك ! ما الذى جعلنى ،

بحق الشيطان ، انضم اليكم ؟

بصق غريغورى على الأرض ، وقد شحب وجهه غضبا وبرما ، واستدار نحو النافذة . انفجر فومين ضاحكا وقال :

— اننا لم نتعرض لضغط من الخيالة بعد . حينما يتعرض ذئب ملىء البطن الى مطاردة فانه يقذف الى الخارج أثناء عدوه بكل ما كان قد أكل . وسيتخلص أوباشى من كل شىء اذا ما تعرضنا الى مطاردة جدية . حسن ، ميليخوف ، لا تنفعل ، سأهتم بالأمر . الحقيقة هى كالاتى : لقد انقبض صدرى بعض الشىء ، فكان أن أرخيت العنان قليلاً . لكننى ساعيدهم الى صوابهم ! اننا لا نستطيع شطر الوحدة ، بل يجب أن نشرب كأس الشقاء معاً .

لم يستطيعا ان يتما حديثهما ، اذ دخلت ربة الدار الى الغرفة حاملة صحنا من حساء الكرنب يتصاعد منه البخار ، فتدفق شوماكوف وثلة من القوزاق وراءها .

بيد ان الحديث أعطى مفعوله . ففى الصباح التالى ، أصدر فومين أمراً يقضى بتفريغ جميع الرحال والاخراج وحرص على أن يقف بنفسه على تنفيذ الأمر . وفى أثناء عملية تفتيش الخرج ، حاول احد النشالين العريقين فى مثل هذه الأفعال أن يقاوم ولم يشأ أن يتخلّى عن غنائمه ، فأطلق فومين الرصاص عليه حيث كان واقفاً فى الصفوف ، وصرعه .

فقال فى لهجة هادئة ، دافعا الجثة بجزمته :

— ابعدوا من هنا هذه الجيفة !

وأضاف رافعاً صوته ومجيلاً بصره فى الرجال من حوله :

— لقد نلنا الكفاية من هذا السلب والنهب ، يا أبناء الزنى ! لم يكن هذا هو السبب الذى حرضتكم على الثورة ضد

الحكم السوفييتى من أجله ، بامكانكم أن تجردوا عدواً ميتاً من كل ما تريدونه وحتى من سرواله الداخلى القذر اذا تحملتم ذلك . ولكن يجب عليكم ألاّ تمسوا عوائلهم . لا تحارب النساء . وكل من يحاول ذلك معى سيلقى نفس المعاملة التى لقيها هذا التافه .

فارتفعت همهمة خفيضة فى الصفوف ، ثم تلاشت .

وبدا أن النظام قد استعيد . وقضت العصابة يومين أو ثلاثة تحوم على الضفة اليسرى للدون ، تلتحم مع جماعات صغيرة من مفارز الدفاع المحلى ، وتقضى عليها .

حينما بلغوا منطقة شوميلنسكايا ، اقترح كابارين أن يواصلوا السير الى أراضى مقاطعة فورونيج واحتج بأن فى مكنتهم ان يركنوا الى الحصول على تأييد واسع النطاق من الأهالى الذين كانوا قد تمردوا فى الآونة الأخيرة ، على الحكومة السوفييتية . لكن ، حينما أعلن فومين هذه الخطة على القوزاق هبوا جميعا قائلين :

— لن نذهب خارج حدود اقليمنا .

وعقدت اجتماعات بين أفراد العصابة . وأضطروا الى تغيير القرار . ومضت العصابة تتراجع شرقاً بصورة مستمرة ، أربعة أيام على التوالى ، متفادية الاشتباك مع قوة من الخيالة كانت تتعقّبهم طوال الطريق من منطقة كازانسكايا .

لم يكن من اليسير اخفاء آثار مسيرتهم . ففى كل مكان ، كانت أشغال فصل الربيع فى الحقول قائمة على قدم وساق ، والناس يعملون حتى فى الأجزاء القصية من السهب . كانت العصابة تتراجع خلال ليالى الربيع الدامسة ، لكنها كانت لا تكاد تتوقف فى الصباح لاطعام الخيل حتى تظهر دورية استطلاع

من الخيالة معادية من موضع ليس ببعيد ، ويشرع مدفع رشاش خفيف يلعلع ، فيهرع رجال فومين الى ربط أحزمة السروج . وفى مكان خارج قرية ملنيكوف فى منطقة فيشنسكايا ، أفلح فومين فى خداع العدو بمناورة ماهرة والتخلص من مطاردته . وعلم من تقارير دورياته الاستطلاعية أن قوزاقياً ذكياً ثابت العزم ، من منطقة بوكانوفسكايا ، كان على رأس قوة الخيالة الحمراء . وعلم كذلك أن عدد أفراد هذه القوة كان ضعف تعداد عصابته ، وأنها كانت مجهزة بستة مدافع رشاشة خفيفة وخيل جديدة لم تتعبها مسيرات طويلة . فاستلزمت جميع هذه الظروف تجنب أى اشتباك معها حتى يستطيع رجاله أن ينالوا قسطاً من الراحة ، وبعد ذلك ، اذا سنحت الفرصة ، ينقضّ على صفوف الخيالة الحمراء ، ليس فى معركة مفتوحة بل فى هجوم مباغت ، فيتخلص من ملاحقتهم الموصولة . وبهذه الطريقة ، لعله يستطيع الحصول على مدافع رشاشة ورصاص بنادق على حساب العدو . ولكن ثبت أن حساباته كانت مغلوطة . وتأكدت مخاوف غريغورى فى الثامن عشر من نيسان . كان فومين وغالبية الأفراد قد أفرطوا كثيراً فى الشرب فى المساء السابق . وعند الفجر غادروا القرية التى كانوا قد توقفوا فيها . لم يكن أى منهم قد نال أى قسط من النوم ، الا لماما ، خلال الليل . فغدا العديد منهم يغفون وهم على سروجهم . وفى حوال الساعة التاسعة صباحاً توقفوا عند مشارف احدى الغابات القريبة من قرية أوزوكين . فأمر فومين باقامة الحراسة واطعام الخيل شوفاناً .

كانت ريح قوية تهب من الشرق . وخيمت سحائب ، بنية اللون ، من الغبار الرملى على الأفق ، مغلفة السهب بعتمة لم تستطع الشمس أن تنفذ خلالها . وكانت الريح تنتش أطراف

معاطف الرجال الثقيلة ، وأعراف الخيل وذيولها فأولت الخيل للريح ظهورها والتجأت بالقرب من أجمات زعرور برى متناثرة حول حافة الغابة . وأخذت أعين الرجال تدمع من الغبار الرملى الواخز ، وأمست الرؤية صعبة حتى الى مسافات قصيرة .

مسح غريغورى باعتناء خطم حصانه وعينيه ، وعلق سلّة الشوفان على رقبته ، ومضى الى كابارين الذى كان يطعم حصانه شوفانا وضعه على طية معطفه الثقيل .

قال غريغورى ، وهو يشير الى الغابة بسوطه :

— يا للمكان الذى اخترته للتوقف !

فهز كبارين كتفيه ، وقال :

— أخبرت ذلك الأحمق بهذا ، ولكن لا أحد يستطيع مناقشته .

— كان يجب أن نتوقف فى السهب أو فى ضواحى قرية .

— أتعتقد أن من المتوقع أن نتعرض الى هجوم من ناحية الغابة ؟

— أجل ، هذا اعتقادى .

— العدو بعيد عنا .

— ما أدراك ، فقد يكون قريباً . انهم ليسوا مشاة .

— الغابة جرداء . سنراهم ان جاءوا .

— ليس هناك من سيراهم . الجميع ، تقريبا ، نيام . وأخشى أن يكون الحراس نياماً ، أيضاً .

— انهم ليسوا فى حالة مناسبة تسمح لهم بالصمود فى أعقاب حفلة شراب الليلة الماضية . لن تستطيع أن توقظهم الآن !

وقطّب كابارين جبينه ، كمن يعتصره ألم حاد ، واستأنف كلامه فى صوت خفيض :

— سوف يكون مصيرنا الضياع مع قائد كهذا . انه فارغ مثل قنينة ، وغبى بشكل لا يصدق . لماذا لا تريد أن تتسلم منه امرة الوحدة ؟ القوزاق يحترمونك . ولسوف يتبعونك طواعية .

فأجاب غريغورى فى لهجة جافة :

— لا أريد . لست سوى ضيف عابر هنا .

ومضى صوب حصانه ، والندم يخامره لهذا الاعتراف غير الحاذر الذى أفلت من بين شفته .

ألقى كاباربن ببقية الشوفان من معطفه على الأرض وأسرع يلحق بغريغورى . وقال وهو يكسر عسلوجاً من الشوك ويسحق بأصابعه براعمه المنتفخة المتراصة :

— أتعلم ، يا ميليخوف ، أنا لا أظن أننا سنظل صامدين مدة طويلة ، إن لم ننضم إلى قوة مناهضة للحكم السوفياتى ، كبيرة . . . الى لواء «ماسلاك» ، مثلاً . انه يحوم الآن في مكان ما في جنوب الاقليم . يجب أن ننفذ اليه والا فان مصيرنا سيؤول الى مجزرة شاملة تحل بنا ذات يوم في هذه الديار !

— هذا أوان الفيضان . لن يكون في استطاعتنا عبور الدون .

— ليس الآن . ولكن ، حينما ينخفض الماء ، علينا أن نتراجع . ألا توافقني ؟

فأجاب غريغورى بعد برهة تفكير :

— أنت على حق . يجب أن نرحل عن هذه المنطقة . لا جدوى في التسكع هنا .

وشرع كاباربن يتكلم في حماسة . فأطنب في الحديث حول نقطة أن آمالهم في الحصول على دعم السكان لم يكن لها ما يبررها ، وأن عليهم في الوقت الحاضر أن يقنعوا فومين

بعدم جدوى التجوال اللاهادف في أرجاء الاقليم ، بل أن يتخذ قراراً للانضمام الى قوة أخرى .

سئم غريغورى من الاستماع الى ثرثرته . فلبث مسمراً عينيه على حصانه ، وما ان فرغت السلة ، حتى رفعها عن رقبة الحصان وأرجع العنان الى مكانه وشد أحزمة السرج .

قال كاباربن :

— لن نستأنف سيرنا قبل مضي وقت طويل . فلا حاجة بك الى كل هذا الاستعجال .

فرد غريغورى :

— يحسن بك أن تذهب وتعد حصانك ، فلن يتسع لك الوقت لاسراجه فيما بعد !

فتفرّس كاباربن فيه بنظرة حادة ، ثم مضى الى حصانه الذى كان يقف على مقربة من صف عربات الشحن .

اتجه غريغورى نحو فومين وهو يقود حصانه من عنانه . كان الآمر مستلقياً على عباءته مادا ساقيه المتباعدتين ، وهو يقضم ، متكاسلاً ، جناح دجاجة مسلوقة . تحرك قليلاً واشار لغريغورى بالجلوس الى جانبه :

— اجلس هنا وخذ راحتك .

فقال غريغورى :

— يجب أن نرحل من هنا ، فليس الوقت وقت راحة .

— سنستأنف المسير بعد أن ننتهي من اطعام الخيل .

— يمكننا أن نطعمها فيما بعد .

— فيم استعجالك هذا ؟

وقذف فومين العظمة المنهوشة بعيداً ، ومسح يديه بعباءته .

— سيصطادوننا هنا . انه خير مكان لذلك .

— كيف يتسنى لهم ذلك ، بحق الشيطان ؟ لقد جاءت الدورية تواً ، وأخبروني أنهم لم يروا نفساً واحدة على التل . لا بد أنهم قد فقدوا آثارنا والا لكانوا في أعقابنا الآن . ليس لنا ان نتوقع أى هجوم من منطقة بوكانوفسكايا . إن القوميسار العسكرى فيها ولد محارب شجاع ولكنه لا يملك قوة كبيرة تحت امرته . والاحتمال ضعيف في خروجه لمجابهتنا . سنأخذ قسطاً طيباً من الراحة ، وننتظر حتى تفتر شدة الريح ، ثم ننطلق من جديد . اجلس وتناول شيئاً من الدجاج . فيم وقوفك فوق رأسي هكذا ؟ يبدو لي أنك قد أمسيت جباناً ، يا ميليخوف . لن ينقضي وقت طويل حتى تشرع في المضي وراء كل أجمة تصادفك ، هكذا . . .

ورسم بيده شبه دائرة كبيرة وأطلق ضحكة .

ابتعد غريغورى عنه وهو يطلق سباباً مقذعاً . ربط حصانه الى أجمة ، واستلقى بجانبها مغطياً وجهه من الريح بطرف معطفه الثقيل .

وعلى تهويمة صفير الريح وخشخشة العشب الطويل الجاف المائل فوقه ، أخذته سنة من النوم .

اعاده قائماً على قدميه صوت لعلعة طويلة من نيران مدفع رشاش . وقبل أن تتوقف اللعلعة كان غريغورى قد حلّ حصانه من مربطه . وعلت صيحة فومين فوق جميع الاصوات :

— الى الخيل !

وفي هذه اللحظة ، شرع مدفعان رشاشان ، أو ثلاثة ، يتأتئان من الغابة الى اليمين . وفيما امتطى غريغورى حصانه ، قدر الموقف بنظرة واحدة . الى يمين على حافة الغابة ، كان حوالي خمسين رجلاً من رجال الجيش الأحمر يتقدمون الهجوم ،

لا تكاد العين تراهم خلل سحائب الغبار ، قاطعين بذلك خط الرجعة الى التلال . وكانت السيوف تتلألأ فوق رؤوسهم ، بلون مائل الى الزرقة مألوف ، وسط ضوء الشمس الكابي . وعلى ربوة كثيرة الأجمات في الغابة ، كانت مدافع رشاشة تطلق نيرانها ، مفرغة قرصاً اثر قرص في سرعة محمومة . والى الشمال ، كان حوالي نصف سرية من رجال الجيش الأحمر كذلك يتقدمون على الخيل بلا هتاف ، يلوح رجاله بسيوفهم وهم مندفعون لاحكام حلقة التطويق . ولم يبق الا مخرج واحد : النفاذ خلال الصف الرفيع من الرجال المهاجمين من ناحية الشمال ، ثم التراجع باتجاه الدون . فهتف غريغورى لفومين :

— اتبعني ! — وأطلق العنان لحصانه ، مستلاً سيفه .

وحينما كان قد قطع حوالى أربعين ياردة ، ألقى نظرة الى الوراء : كان فومين وكابارين وتشوماكوف وعدة رجال آخرين يتبعونه في هذب جنوني على مبعدة حوالي عشرين ياردة وراءه . آنذاك ، توقفت المدافع الرشاشة من ناحية الغابة . لم يكن سوى المدفع الرشاش القائم في أقصى اليمين يلعلع في صليات قصيرة غاضبة باتجاه رجال فومين المتكومين حول عربات الشحن . ثم توقف ذلك المدفع الرشاش الأخير أيضاً . فأدرك غريغورى أن المهاجمين قد انقضوا على المضرب ، وأن الرجال الذين تخلفوا هناك كانوا يحصدون بالسيوف . أدرك ذلك من الصرخات اليائسة المنبعثة من ناحيتهم ومن الطلقات القليلة التي أطلقها المدافعون . على أنه لم يكن لديه متسع من الوقت للالتفات الى الخلف . وفيما كان حصانه منطلقاً به تجاه سيل الرجال المتقدمين نحوه ، اختار رجله : كان جندياً ، في فروة قصيرة ، يرمح باتجاهه على صهوة حصان أشهب ليس بالسريع جداً .

وفي لحظة خاطفة ، كما في ومضة برق ، لمح غريغورى الحصان ، بصدره الأبيض المبقع بالزبد ، وراكبه ، بوجهه الفتي الأحمر الملتهب حماساً ، ومن ورائهما السهب الفسيح الكئيب يمتد بعيداً صوب الدون . وفي اللحظة التالية ، كان عليه أن يتفادى ضربة وأن يدير سيفه . وحينما أصبح غريغورى على مبعدة عشر ياردات تقريباً عن الراكب ، مال بجسمه ميلاناً حاداً ناحية اليسار . فالتقطت أذنه صفير السيف القاطع فوق رأسه ، ثم هب قائماً على السرج ومس رأس الرجل برأس سيفه تماماً فيما كان يجتازه . لم تكد يده تحس بقوة الضربة ، ولكن حينما نظر وراءه رأى الرجل ينحني وينزلق ، ببطء ، من على السرج ، ورأى سيلاً ثخيناً من الدماء على ظهر فروته الصفراء . وتباطأ عدو الحصان الأشهب حتى أمسى خبباً ، وهو يعدو متجانباً ، وكأنه يخاف ظله ، ورأسه مشرئب في الهواء .

انكفأ غريغورى على رقبة حصانه ، وبحركة غريزية ، أخفض سيفه . وراح الرصاص يصفر ، في صوت رفيع حاد ، من فوق رأسه . وأخذت أذنا الحصان ترتعشان فيما التصقتا برأسه ، وقد علت ذؤابتيهما حبات من العرق . ولم يكن غريغورى يستمع الى غير صفير الرصاص النفاذ الذى كان يطلق عليه من الخلف ولهاث حصانه العنيف . القى نظرة ثانية الى وراء ، فرأى فومين وتشوماكوف ، أما كابارين فكان على مسافة تناهز مائة ياردة وراءهما ، وعلى مسافة أخرى منه كان رجل واحد من الرعيل الثاني ، هو ستيرليادنيكوف الأعرج ، يشق طريقه ملتحماً مع جنديين انطلقا يهاجمانه . أما جميع الثمانية أو التسعة رجال الذين هربوا في أعقاب فومين ، فقد حصدوا بالسيوف . وكانت الخيل ، بلا راكبيها ، تلوذ بالفرار في جميع الاتجاهات ،

وذيولها تلوح في مهب الريح ، فيلحقها رجال الجيش الأحمر ويمسكون بها . سوى حصان واحد ، كميت طويل السيقان ، يعود الى أحد رجال فومين ، فقد كان يهذب الى جانب كابارين ، يزنخر ويجر سيده الصريع الذى لم يكن قد أفلح في تخليص قدمه من الركاب أثناء سقوطه .

وفي الجانب الآخر من الربوة الرملية أوقف غريغورى حصانه وقفز من على السرج ، وأرجع سيفه الى غمده . وفي ثوان معدودات استطاع أن يجعل حصانه ينبطح ، وهي خدعة كان قد أتقنها في غضون أسبوع واحد . ومن وراء هذه الدريئة ، أطلق رصاص مشط بندقيته كله ، بيد أن تهديفه كان متعجلاً غير ثابت ، فلم يفلح الا برصاصته الأخيرة في اسقاط حصان من تحت جندى أحمر . ولكن هذه الرصاصة مكنت الرجل الخامس من رجال فومين من التخلص من المطاردة .

هتف فومين حينما حاذى غريغورى :

— اركب ! لسوف يصيبونك !

* * *

كانت الهزيمة شاملة . فمن أصل مجموع العصابة ، لم ينج سوى خمسة رجال . وظل هؤلاء يطاردون حتى قرية أنتونوفسكي ، ولم يتوقف تعقبهم الا أن اختفى الهاربون داخل الغابة المحيطة بالقرية .

وطيلة ذلك الانطلاق الجنوني ، لم يفه أى من الرجال الخمسة بكلمة .

وحينما بلغوا نهيراً صغيراً ، انكفأ حصان كابارين ، ولم يستطيعوا اقامته على سيقانه ثانية . وكانت الخيول الأخرى تترنح

تحت الآخرين ، لا تكاد تقوى على تحريك سيقانها ، وهى تنث على الأرض كتلاً بيضاء ثخينة من الزبد .

قال غريغورى ، وهو يترجل ، ومن غير أن ينظر الى فومين :

— يجدر بك أن تكون راعياً للغنم ، لا آمر وحدة !

فنزل فومين من على سرجه ، منزلقاً ، ومن غير أن ينبس ببنت شفة ، وشرع يحل سرجه لكنه مضى دون أن يرفع السرج . وجلس على نتوء ترابي مغطى بنبات البطارس . وقال وهو يجيل حوله عينين وجلتين :

— حسن ، سنضطر الى التخلى عن الخيول .

فتساءل تشوماكوف :

— وبعدها ؟

— وبعدها نتخذ طريقنا سيراً على الأقدام الى الجانب الآخر من الدون .

— الى أين ؟

— سنتوقف في الغابة حتى حلول الليل ، ثم نعبر الدون ونختفي في الوقت الحاضر في روبزني . لدى أقارب كثيرون فيها .

فهتف كابارين في حنق شديد :

— فكرة خرقاء أخرى ! ألا تظن أنهم سيبحثون عنك هناك ؟ هوذا المكان الذى يتوقعونك فيه ، بالضبط ما الذى تلجأ الى استخدامه حينما تفكر ؟

فتساءل فومين ، في لهجة حائرة :

— حسن ، فالى أين نذهب ؟

أخرج غريغورى الرصاص وقطعة من الخبز من خرجي سرجه ، وقال :

— أتنوون اضاعة الكثير من الوقت في أحاديثكم ؟ هيا !

اربطوا الخيل ، ارفعوا السروج عنها ، وتحركوا حالاً ، والا فسيظفر بنا الحمر حتى في هذه الغابة . .

فقذف تشوماكوف سوطه على الأرض ، وداس عليه بقدمه في الوحل ، وقال في صوت راعش :

— اذن ، سنسير على أقدامنا الآن ! وأصحابنا جميعاً قضي عليهم ! يا أم الرب ، ما كان أقسى الضربة التى أنزلوها بنا ! لم أحسب أنني سأنجو اليوم حياً . . . لقد حدّق الموت الى عيني .

وبلا كلام ، رفعوا السروج عن خيلهم وربطوها معاً الى أجمة حور رومي ، ومضوا في طريقهم حدر الدون ، فرادى ، كل في أعقاب الآخر ، مثل الذئاب ، وهم يحملون سروجهم على أذرعهم ، حريصين كلما كان ذلك ممكناً ، على اتخاذ طريق الحشائش الكثيفة .

١٤

في الربيع ، حينما يفيض الدون على ضفتيه ، ويغمر الماء جميع المروج المنخفضة ، هناك ، مقابل قرية روبزني ، لسان صغير ممتد من الضفة اليسرى العالية ، يظل مرتفعاً فوق الماء ، حافاً .

ويستطيع المرء أن يرى هذه الجزيرة من مسافة بعيدة ، من تلال شواطئ الدون ، تغطيها غابة كثيفة من أشجار الصفصاف والبلوط اليانعة ، وأجمات صفصاف السلال ، منتشرة ، زرقاء بلون الحمام .

وفي الصيف ، تلتف الكروم البرية على الأشجار حتى تبلغ تيجانها ، وتمتد على الأرض ، من تحتها ، أجمات توت

الندى ، شائكة منيعة . ويزحف اللبلاب ، شاحب الزرقة ، ويلتف على الأجمات . وفي المسالك القليلة ، ينمو الحشيش كثيفاً طويلاً ، وقد غذته التربة الغنية بعطائها الكريم ، حتى ينوف على قامة رجل طولاً .

وفي الصيف ، حتى في الظهيرة ، يكون داخل الغابة هادئاً ، مضيئاً وبارداً . وليس سوى عصافير الصفّير تشوش السكون ، والوقاويق تتبارى فيما بينها في عدّ ما تبقى من سني انسان ما . أما في الشتاء ، فتظل الغابة مهجورة تماماً ، جرداء ، يطبق عليها سكون الموتى . وتنتصب الحواف المسننة لذؤابات الأشجار سوداء قاتمة ازاء سماء الشتاء الكالحة . وليس غير جراء الذئاب تجد لها ملجأ آمناً في الأدغال ، عاماً بعد عام ، تقضي أيامها مستلقية على بقايا النباتات المثقلة بالثلج .

في هذه الجزيرة ، اتخذ فومين وغريغوري ميليخوف ، والآخرون الذين كانوا قد نجوا من المجزرة التي حلت بالعصابة ، مقراً لهم عاشوا فيه بأحسن ما استطاعوا ، يطعمون الفتات الذى كان ابن عم فومين يجلبها لهم بقارب ليلاً . كان الطعام شحيحاً لا يشبع ، بيد أنهم كانوا ينامون ملء جفونهم ، ورؤوسهم على حنوات سروجهم . كانوا يتناوبون على الحراسة خلال الليل ، لا يشعلون ناراً مخافة أن يكتشف انسان مخبأهم .

كان تيار مياه الفيضان يتجه جنوباً ، غاسلاً حوافى الجزيرة ، ويهدر متوعداً فيما كان يقتحم حاجز أشجار الحور العتيقة التي كانت تقف في طريقه ، ثم يهمهم في تهويمة منغمة ، مؤرجحاً ذؤابات الأجمات الغريقة .

سرعان ما اعتاد غريغوري على صوت الماء الموصول ينبعث على مقربة منه . كان يتمدد ، ساعات طوالاً ، بجانب الجرف

الناتئ ويحدق بصره في الامتداد المائي الشاسع ، وفي ننوءات تلال شواطئ الدون الكلسية ، ملفعة بضبابة ليلكية مشمسة . هناك ، وراء تلك الضبابة ، كانت قريته . . . أكسينيا . . . وطفلاه . والى ثمة ، كانت أفكاره الكئيبة تحلق . فيلتهب الحنين ، لحظة ، في صدره ويأكله أكلاً فيما يتذكر أحباءه ، ثم تمور موجة من الحقد العقيم ضد ميخائيل . بيد أنه كان يخمد هذه المشاعر ويحاول ألا ينظر الى تلال شواطئ الدون . لم تكن هناك جدوى في افلات العنان لأفكاره التعيسة . كانت الحياة حزينة بما فيه الكفاية على وضعها الراهن . ولقد شرع ، منذ مدة خلت ، يحسّ بألم في صدره كان من العنف بحيث بدا له في بعض الأحيان أن شيئاً ما قد اخترق قلبه ، فلم يعد يخفق بل يتدفق دماً . وجلي أن جراحه ، ومشقات الحرب والتيفوس قد تركت آثارها : اذ كان يحس دائماً بضربات قلبه اللجوج . وكان الألم الممزق في صدره ، تحت الحلمة اليسرى ، يغدو في بعض الأحيان حاداً الى حد لا يطاق ، بحيث تجف شفتاه ويصعب عليه زفر أنّة موجعة . بيد أنه اكتشف طريقة أكيدة للتخلص من الألم : كان يستلقي واضعاً جنبه الأيسر على التراب الندى ، أو يبلل قميصه بماء بارد . ثم يشرع الألم في الزوال ، بطيئاً ، متلكئاً بعض الشيء — كما كان يبدو .

غدت الأيام لطيفة هادئة . ولم يحدث الاّ في فترات متباعدة أن كانت غمائم بيض صغيرة تطفو عبر السماء الصاحية ، تدفعها ريح عالية ، فتنزلق صورها ، مثل سرب من البجع ، على مياه الفيضان . ثم تختفي حينما تمس الشاطئ البعيد .

كان ممتعاً التحديق الى التيار السريع يمور غاضباً على امتداد الجرف ، والاصغاء الى آلاف الأصوات المنبعثة من

الماء ، وألا يفكر المرء بأيما شيء ، أن يحاول ألا يفكر بأيما شيء يبتعث الألم . كان يمضي ساعات محدقاً الى دوامة التيار ، لا تستقر نزواتها على حال قط . كانت الموجات تغير أشكالها على الدوام . وحيث كان التيار يجرى هيّنا ، يحمل على سطحه سيقان القصب والأوراق المتغضنة وكتلا من الحشيش اقتلعت من جذورها ، كانت دوامة ، تدور دوراناً ساحراً ، تظهر على السطح فتمتص ، في شره ، كل عائم يقع في متناول دورانها . وبعد ذلك بقليل ، تختفي الدوامة نفسها ، فيبقبق الماء محلها ويدور في حلقات عكرة ، قاذفاً الى السطح جذراً أسود الطرف من جذور البردى ، حيناً ، وورقة بلوط مفلوقة ، حيناً آخر ، وفي آونة أخرى حزمة من القش قدمت من حيث لا يدرى أحد .

وفي الأماسي ، كان الشفق الأحمر ، بلون الكرز ، يتوهج في الغرب . ويرتفع القمر من وراء شجرة حور سامقة ، فينتشر ضوؤه على الدون ، شعلة بيضاء باردة تتخللها ظلال وبقع سود حيث يتموج الماء في مهب الريح . وفي الليل ، كانت نداءات أسراب لا حصر لها من الاوز الطائر صوب الشمال تنبعث ، موصولة ، فوق الجزيرة ، مختلطة بهمهمة الماء . وكانت طيور ، ناعمة البال لا يضايقها أحد ، كثيراً ما تحط في الجانب الشرقي من الجزيرة . وفوق المياه المتخلفة ، خلل الغابة المغمورة ، كان ذكر الصنصن يطلق نداءاته متحدياً ، والبط يتصايح ، والاوز يوقوق في هدوء ويجيب بعضه بعضاً . وفي ذات يوم ، كان غريغورى متجهاً ناحية الجرف ، دون أن يندّ عنه صوت ، فاذا به يلقى سرباً كبيراً من البجع في موضع ليس ببعيد عن الجزيرة . كانت الشمس لم تشرق بعد . وكان ألق الصباح يخفق ، ملتمعاً ، الى الوراء من حاجز الغابة . وبدا الماء ،

وهو يعكس ضوء الألق ، ورديا . وقد أدارت طيور البجع الكبيرة الجليلة رؤوسها صوب مطلع الشمس فبدت ، هي الأخرى ، مخضبة باللون الوردى . واذ بلغت أسماعها خشخشة من ناحية الجرف ، هبت تطير ، مطلقة نداء جهيراً ، كصوت البوق ، وحينما ارتفعت فوق الغابة انبهرت عينا غريغورى بالألق العجيب لريشها الثلجي .

كان فومين والآخرون يقتلون الوقت ، كل على سجيته . كان ستيرلياديكوف الدؤوب يعمل من الصباح حتى الليل على رتق الملابس واصلاح الجزم وتنظيف أسلحته تنظيفاً دقيقاً ، وهو يضع ساقه العرجاء ، في غضون ذلك ، في وضع مريح . اما كابارين ، الذى لم تتحسن صحته مع نومه ليلاً على الأرض الرطبة ، فقد كان يقضي أياماً بطولها مستلقياً في الشمس ، يسعل سعالاً جافاً ويتلفع حتى رأسه بفروته . في حين كان فومين وتشوماكوف لا ينقطعان عن لعب القمار بورق عادى من صنع محلي . أما غريغورى فكان يتجول في أرجاء الجزيرة أو يجلس القرفصاء الى جانب الماء ساعات طويلة . كانوا لا يتحدثون فيما بينهم الا لماماً — فلقد قالوا ، منذ أمد ، كل ما كان يجب أن يقال — ولم يكونوا يجتمعون الا عند وجبات الطعام وفي المساء عند انتظارهم وصول ابن عم فومين . كان السأم قد استبدّ بهم ، وطوال مكوثهم في الجزيرة لم يحدث الا مرة واحدة فقط أن رأى غريغورى تشوماكوف وستيرلياديكوف يستشعران انشراحاً مفاجئاً فيشرعان يتصارعان . جعلا يتخابطان مدة طويلة في الرمل الأبيض الخشن . وبدا جلياً ان ستيرلياديكوف كان الأقوى ، بيد أن تشوماكوف كان أكثر خفة . كانا يتصارعان وقد وضع كل منهما ذراعيه حول خصر الآخر ، وكتفاهما مدفوعان

الى أمام ، وكل منهما يراقب ساقي خصمه في حذر . وغدا وجهاهما شاحبين جامدين ، من الاجهاد ، وأنفاسهما مختلجة عنيفة . لبث غريغورى يراقب المصارعة في اهتمام . واختار نشوماكوف اللحظة المناسبة ، فأسقط نفسه ، بغتة ، على ظهره ساحباً خصمه معه ، وبحركة من ساقيه المطويتين قـــذف بستيرليادنيكوف من فوق رأسه . وبعدها بثانية كان تشوماكوف ، كالسنور خفة ومرونة ، منبطحاً فوق ستيرليادنيكوف وهو يضغط على الرمل لوحي كتفيه ، فيما جأر الثاني وهو يلهث ويضحك :

— لكنك تلجأ الى الغش . لم نتفق على أن في مقدور كل منا أن يقذف الآخر من فوق رأسه .

فقال فومين :

— لقد كنتما مثل ديكين فتيين من ديكة القتال . ولكن ، يكفي هذا الآن ، والا فسيتخذ عراككما طابع الجد .

بيد أنه لم يكن في نيتهما العراك قط . بل جلسا على الرمل ، متوادّين ، متشابكي الذراعين ، وانطلق تشوماكوف ينشد أغنية في صوت جهير غليظ ، انما لطيف . فالتـــقط ستيرليادنيكوف الأغنية بصوته الصادح الرفيع ، وشرعا يغنيان معاً في توافق وأداء جيد غير متوقع .

الا أن ستيرليادنيكوف ، على حين غرة ، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه : فوثب واقفاً وطفق يرقص وهو يطق أصابعه ويرفس الرمل بساقه العرجاء . وتناول تشوماكوف سيفه ، ومن غير أن يتوقف عن الغناء ، حفر به حفرة صغيرة وقال :

— تمهل قليلاً ، أيها الشيطان الأعرج ! إن إحدى ساقيك أقصر من الثانية ، فلا تستطيع أن ترقص بالشكل اللائق على أرض مستوية . . . فإما أن ترقص على أرض منحدرة أو

تضع ساقك الأطول في حفرة والأخرى خارجها . ضع ساقك السليمة في هذه الحفرة ، ثم ارقص ، وسترى كم ستكون النتيجة مجدية . والآن ، هيا بنا !

فمسح ستيرليادنيكوف العرق من جبينه ، وبكل طاعة وضع ساقه السليمة فى الحفرة التي كان تشوماكوف قد أعدها . وقال :

— لكنك على حق ، انها تجعل الأمر أسهل ، حقاً .

فانطلق تشوماكوف ، وهو يلهث بالضحك يصفق بيديه ، وبدأ يغني في سرعة كبيرة ، وشرع ستيرليادنيكوف يرقص بخفة ، وقد علا وجهه ذات التعبير الجاد الذى يعلو وجوه جميع الراقصين ، وجرب حتى أن يجلس القرفصاء على ردفيه ويركل بساقيه . . .

تتالت الأيام ، يشبه واحدها الآخر شبها تاماً . كانوا ، اذا حل الظلام ، ينتظرون مقدم ابن عم فومين ، نافدى الصبر ، فيجتمع خمستهم على الجرف ، لا يتحدثون الا بأصـــوات خافتة ، ويدخنون مخبئين جمرات سكائرهم تحت أطـــراف معاطفهم .

اتخذوا قراراً بالمكوث أسبوعاً آخر في الجزيرة ، يعبرون بعده الدون ليلاً الى ضفته اليمنى ، فيخطفون خيلاً وينطلقون ناحية الجنوب . كان الشائعات تقول ان عصابة ماسلاك كانت لا تزال في جهة ما في جنوب الاقليم .

استحث فومين أقرباءه على اكتشاف المكان الذى يستطيع أن يحصل فيه على خيل لائقة ، وطلب منهم أن يحيطوه علماً ، كل يوم ، بجميع ما كان يحدث في المنطقة .

فجاءته الأنباء مطمئنة : كان البحث عن فومين يدور في الجانب الأيسر من الدون ، وعلى الرغم من قيام رجال الجيش

الأحمر بزيارة روبزني ، الا أنهم لم يلبثوا أن غادروها ثانية بعد تفتيشهم دار فومين .

اقترح تشوماكوف ذات يوم بعد الفطور قائلاً :

— يجب أن نرحل من هنا بسرعة ! ما هي ، بحق الجحيم ، فائدة الالتصاق بهذا المكان ؟ لنرحل غداً .

فقال فومين :

— يجب أن نعرف موضوع الخيل أولاً . فيم الاستعجال ؟ لو أنهم كانوا يطعموننا بشكل أفضل ، وحسب ، لما تخليت عن هذه الحياة المريحة حتى الشتاء . أنظر حواليك ، ما أجمل المكان ! سنأخذ قسطاً طيباً من الراحة ثم نستأنف رحيلنا . دعهم ينقبون عنا ، نحن لن نسمح لهم باصطيادنا بهذه السهولة ! لقد حطمونا بسبب من غبائي ، اعترف بذلك ، ولا شك أن ذلك شيء مؤسف ، ولكنه ليس كل شيء . لسوف نجمع مزيداً من الرجال من جديد . وحالما نمتطي الخيل ، سنقوم بجولة في القرى القريبة ، وما ان يمضي أسبوع حتى يكون نصف سرية قد تجمع لدينا ، ومن الجائز سرية بكاملها . سنحصل على ما نحتاج من الرجال ، وسترى ذلك .

فقال كابارين محنقاً :

— هراء ! غطرسة متعجرفة ! لقد خذلنا القوزاق . لم يتبعونا ، ولن يتبعونا . يجب أن تكون لدينا الشجاعة الكافية لمواجهة الحقائق ، عيناً بعين ، وألا نخدع أنفسنا بآمال سخيفة .

— ولماذا لا يتبعوننا ؟

— حسن ، لم يتبعونا في المرة الأولى ، فلن يفعلوا ذلك الآن .

فرد عليه فومين في لهجة متحدية :

— سنرى ! لن ألقي سلاحي !

فقال كابارين في ملال :

— ذلك كله كلام فارغ !

صرخ فومين محتداً :

— يا ذا الرأس الشيطاني ! لماذا تقوم بنشر الفزع هنا ؟ انك أسوأ من الجرجير المر بدموعك ! اذاً ، لماذا قمت بالانتفاض ؟ لماذا انضممت ، اذا كانت مصارينك ضعيفة الى هذا الحد ؟ كنت أنت الذى تستحثني لبدء الانتفاضة ، أما الآن فانك تريد أن تخرج منها زحفاً على الأربع ، أليس لديك ما تقول ؟

فزعق كابارين كالمجنون :

— ليس لدىّ ما أقوله لك ، وتستطيع أن تذهب الى الشيطان ، أيها الأحمق !

وانصرف وهو يرتعش ، ويلف جسمه بفروته ، ويرفع ياقة معطفه .

فرفر فومين قائلاً :

— هؤلاء ، أهل الحسب والنسب ، رقيقو الاهاب دائماً ! حالما يحدث أى شيء ينفضون ايديهم وينتهى أمرهم .

ولبثوا جالسين في صمت بعض الوقت ، يصغون الى هدير الماء ، قوياً موصولاً . اطارت فوقهم بطة ، يلاحقها ذكران من ذكور البط ، مرسلين صياحاً زاعقاً . وانحدر سرب من الزرازير ، يثرثر في انفعال وتصخاب ، حدر الموضع المكشوف ، ولكن ما ان شعرت بوجود الرجال حتى انطلقت ثانية الى أعلى ، مثنيّات مثل ضفيرة سوداء .

عاد كابارين بعد برهة من الوقت ، وقال وهو ينظر الى فومين بعينين ترمشان بشدة :

— أريد أن أذهب الى القرية هذه الليلة .

— لماذا ؟

— سؤال غريب ! ألا ترى أنني أصبت بقشعريرة قوية ولا أكاد أقف على قدمي ؟

فسأله فومين في هدوء ثابت :

— طيب ، ثم ماذا ؟ أتحسب أنك ستتخلص من قشعريرتك في القرية ؟

— يجب أن أمضي بضع ليال على الأقل في مكان دافىء .

فقال فومين بلهجة قاطعة :

— لن تذهب الى أى مكان !

— ماذا ، هل يتوجب علي أن أفنى هنا ؟

— افعل ما يحلو لك .

— ولكن ، لماذا لا أستطيع الذهاب ؟ ان في قضاء هذه الليالي نائماً في البرد فنائي المحتّم .

— هب أنهم ألقوا القبض عليك في القرية ؟ هل خطر هذا ببالك ؟ آنذاك ، سيقضون علينا جميعاً . أتحسب أنني لا أعرفك ؟ ستشي بنا في أول استجواب . وستفعل ذلك حتى قبل استجوابك ، ستشي بنا وأنت في الطريق الى فيشنسكايا .

فانفجر تشوماكوف ضاحكاً وهزّ رأسه استحساناً . كان متفقاً مع فومين كلية . بيد أن كابارين قال في عناد :

— يجب أن أذهب . تخميناتك الألمعية لن تجعلني أغير رأيي .

— لكنني قلت لك أن تظل قابعاً في هدوء في الوقت الحاضر .

— ولكن ، ألا تدرك ، يا ياكوف يفيموفتش ، أنني لا

أستطيع الاستمرار على حياة الحيوانات هذه مدة أطول ؟ انني مصاب بذات الجنب ، بل — ربما — بذات الرئة .

— ستتغلب على مرضك . ستنام في الشمس وتشفى .

فأعلن كابارين رأيه في لهجة حادّة :

— مهما يكن الأمر ، فانا ذاهب اليوم . لا حق لك باعاقتي . سأذهب مهما كلف الأمر .

فحدق فومين اليه ، وخزر عينيه متشككاً ، ثم قام على قدميه وقال وهو يغمز لتشوماكوف :

— يبدو لي ، يا كابارين ، ان المرض قد أصابك فعلاً . . . لا بد أن درجة حرارتك مرتفعة . . . دعني أتبين ما اذا كان رأسك ساخناً !

وتقدّم بضع خطوات تجاه كابارين ، مادا يده .

وكان واضحاً أن كابارين قد لاحظ السحنة المنفرة على وجه فومين ، اذ تراجع وصرخ :

— ابتعد عني !

— لا تصرخ ! لماذا تثير كل هذا الصخب ؟ انا لا أريد سوى أن أتبين حرارتك ، ماذا دهاك ؟

وخطا نحو كابارين وأمسك به من بلعومه ، وحمحم في صوت غليظ وهو يجاهد لالقاء كابارين أرضاً :

— تريد أن تسلم نفسك ، أيها الخنزير القذر ؟

ولم يستطع غريغورى أن يفصلهما الا بمشقة ، وكان عليه أن يبذل كل قوته في سبيل ذلك .

بعد العشاء ، اقترب كابارين من غريغورى فيما كان يعلق بعض الملابس المغسولة على أجمة ، وقال :

— أحب أن أكلمك على انفراد . . . لنجلس .

وجلسا على جذع مطروح لشجرة حور علته آثار التعفن .

قال كاباربن ، وسط سعاله الجاف :

— ما رأيك في تصرف ذلك البليد ؟ انا مخلص في امتناني لك لتدخلك . لقد تصرفت تصرفاً نبيلاً ، كما يتعين على ضابط . لكن هذا وضع فظيع ! أنا لا أستطيع تحمل المزيد . نحن نعيش كالحيوانات . . . كم يوماً مضى علينا مذ أكلنا طعاماً ساخناً ؟ ثم ، هذا النوم على الأرض الرطبة . . . لقد أصبت بقشعريرة ، وجنبي يؤلمني ألماً فظيعاً . لا بد أنني أصبت بذات الرئة . انا بحاجة ماسة الى الجلوس عند نار ، الى النوم في غرفة دافئة ، الى تغيير ملابسي الداخلية . انا أحلم بقمصان نظيفة جديدة ، وبأغطية سرير . . . كلا ، لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال !

فابتسم غريغورى وسأله :

— تريد القتال محاطاً بوسائل الراحة ؟

فأجاب كاباربن متحمساً :

— اسمع : أى صنف من الحروب هذه ؟ هذه ليست حرباً ، بل عملية لا حدّ لها من التشرد ، وقتل أفراد من الشغيلة السوفيات ، ثم الفرار . كانت حرباً لو ساندنا الشعب ، لو اندلعت انتفاضة . أتسمي هذه حرباً . . . كلا ، هذه ليست حرباً !

— ليس ثمة شيء آخر نستطيع أن نفعله . لعلك تريدنا أن نستسلم ، ها ؟

— أنت على حق ، ولكن ما الذى نحن فاعلون ؟

فهز غريغورى كتفيه . وأفصح ، بالكلام ، عن الفكرة التي كثيراً ما كانت تراوده فيما كان يستلقي في هذا الموضع أو ذاك من الجزيرة :

— ان حرية هزيلة خير من سجن جيد . أنت لا شك تعرف

القول المأثور : سجن عتيد ، لكنه لا يسر غير الشيطان !

كان كاباربن يرسم بغصن رسوماً على الرمل . وبعد فترة سكوت طويلة ، قال :

— ليس علينا ، بالضرورة ، أن نستسلم ، بل علينا أن نجد أنماطاً جديدة من الكفاح ضد الشيوعيين . يجب أن نبيد هذه الحثالة الكريهة . انت رجل مثقف . . .

فقال غريغورى متضاحكاً :

— لماذا تظن ذلك ؟ عجباً ، فأنا لا أكاد أستطيع أن ألفظ هذه الكلمة بصورة صحيحة .

— أنت ضابط .

— بالصدفة !

— كلا ، دع المزاح جانباً . أنت ضابط . وخالطت مجتمع الضباط ، ورأيت رجالاً حقيقيين . انك لست حديث نعمة سوفياتيا مثل فومين ، ويجب عليك أن تدرك بأن من الجنون بقاءنا هنا . انه بمثابة الانتحار . لقد كان هو سبب الضربة القاصمة التي نزلت بنا في الغابة ، واذا ظللنا نسلم مصائرنا بيده فانه سيكرر الشيء نفسه أكثر من مرة . انه ، بكل بساطة ، صعلوك ، علاوة على أنه أحمق صخاب ! سيقضى علينا لو بقينا معه .

فتساءل غريغورى :

— اذن ، فأنت لا تريد الاستسلام ، بل ترك فومين ؟ أين ستذهب ؟ أتنضم الى ماسلاك ؟

— كلا . ليس هذا الا مغامراً آخر ، سوى أنه على نطاق أوسع . ان لي وجهة نظر مغايرة في مجموع الأمر الآن . يجب ألا نذهب الى ماسلاك . . .

— الى أين ، اذا ؟

— الى فيشنسكايا .

فهزّ غريغورى كتفيه متضايقاً :

— انا أسمي هذا بعثرة نقود جيدة على ما هو ردىء . هذا لا يعجبني .

فحدق كابارين اليه بعينين متوهجتين :

— انت لم تفهمني ، يا ميليخوف . هل أستطيع أن أثق بك ؟

— كلية .

— أتعدني بكلمة شرف من ضابط ؟

— أعدك بكلمة شرف من قوزاقي .

فألقى كابارين نظرة في اتجاه فومين وتشوماكوف ، وقال مخفضاً صوته بالرغم من أنهما كانا على مسافة بعيدة منهما بحيث لم يكن في مستطاعهما سماع الحديث .

— انا أعرف علاقتك بفومين والآخرين . انت جسم غريب بينهم ، مثلما أنا كذلك بالضبط . لا تهمني الأسباب التي حدت بك الى الوقوف ضد الحكم السوفياتي ، واذا لم أخطىء الفهم فان ذلك بسبب من ماضيك ومن خشيتك من الاعتقال ، أليس كذلك ؟

— لقد قلت ، قبل لحظة ان الأسباب لا تهمك .

— نعم ، نعم ، كان ذلك من باب ذكر الشيء بالشيء . والآن ، لأقل بضع كلمات عني أنا . في السابق ، كنت ضابطاً وعضواً في الحزب الاشتراكي–الثورى ، لكنني — فيما بعد — أعدت النظر في معتقداتي السياسية بشكل تام . . . الملكية وحدها تستطيع انقاذ روسيا . الملكية وحدها والعناية الالهية نفسها تشير الى هذا الطريق لبلادنا . ان شعار الحكومة السوفياتية هو المطرقة والمنجل

«مولوت» و«سرب» • أليس كذلك ؟

وبالغصن الذى بيده ، خط كابارين كلمتي «مولوت» و«سرب» على الرمل ، ثم سمّر عينيه على وجه غريغورى ، وقال :

— والآن ، اقرأ كلا من هاتين الكلمتين بصورة معكوسة . هل فعلت ؟ أفهمت ؟ ليس الا «برستولوم» •• ، ليس الا «بواسطة العرش» ، سيقضى على الثورة والحكم السوفياتي . أتدرى ؟ لقد تملكتني رهبة صوفية حينما اكتشفت ذلك . جعلت أرتعش ، لأن ذلك — اذا شئت أن نضعها بهذه الصورة — كان اصبع الرب يشير الى نهاية متاعبنا . . .

وسكت كابارين ، وهو يلهث لفرط الانفعال . وكانت عيناه تنمّان عن شيء من الجنون فيما كان يحدّق الى غريغورى . غير أن غريغورى لم يرتعش مطلقاً أو يستشعر أى رعب صوفي وهو يستمع الى اكتشاف كابارين الموحى به . كانت نظرته الى الأشياء أكثر رصانة والتصاقاً بالواقع ، ولهذا رد عليه بقوله :

— ليس ذلك بالاصبع . هل كنت في الجبهة خلال الحرب الألمانية ؟

فوجىء كابارين بالسؤال ، ولم يجب في الحال .

— ولكن ، لماذا تسأل ؟ كلا ، لم أكن في الجبهة فعلاً .

— اذن ، أين كنت طيلة الحرب ؟ في المؤخرة ؟

— نعم .

— طيلة الوقت ؟

• فى اللغة الروسية تعني كلمة «مولوت» المطرقة ، و«سرب» المنجل . **المترجمون** .

•• «برستولوم» : بواسطة العرش . **المترجمون** .

— أجل ، أعني ، ليس طيلة الوقت ، بل تقريباً كله . ولكن ، لماذا تسأل ؟

— حسن ، لقد كنت أنا في الجبهة ، بصورة مستمرة ، منذ عام ١٩١٤ حتى يومنا هذا ، فيما عدا فترات قليلة . أما بالنسبة لاصبعك . . . كيف يمكن أن يكون ذلك اصبع الرب بينما الرب نفسه غير موجود ؟ لقد طلقت الاعتقاد بهذا الهراء منذ أمد بعيد . فمنذ عام ١٩١٥ ، حينما وقعت عيني على الحرب لأول مرة ، وأنا أعتقد أن الله غير موجود ، غير موجود على الاطلاق ! لأنه ، لو كان موجوداً ، ما كان ليدع الناس يفعلون ما هم فاعلون ! لقد تخلصنا ، نحن رجال الصفوف الأمامية ، من الله ، وهو الآن لا ينفع سوى النساء والكهول . فليجدوا فيه العزاء . ليس ثمة اصبع ، ولن يمكن أن تكون هناك ملكية . لقد وضع الشعب لهذه حدّاً ، مرة ، والى الأبد . أما هذه اللعبة التي تلعبها ، هذا اللف والدوران بالأحرف ، ما هذا — اذا سمحت لي — الا أحجية من أحاجي الأطفال لا أكثر . وأنا لا أفهم ما الذى ترمي اليه من اخباري بكل هذا . عليك أن تتحدث ببساطة ووضوح أكثر . أنا لم أتعلم في أكاديمية حربية ، ولست بالمثقف الكبير ، رغم أنني ضابط .

وختم غريغورى كلامه ونبرة ندم جلية تشوب صوته :

— لو كنت تلقيت تعليماً أفضل ، ربما ما كنت لأجلس معك هنا في هذه الجزيرة ، مثل ذئب يحاصره الفيضان .

فأسرع كابارين يقول :

— هذا لا يهم . لا يهم أن تكون مؤمناً بالله أو غير مؤمن به . ذلك من شأن معتقدك الخاص ، يخص ضميرك . وليس مهماً ، أدنى أهمية ، أن تكون ملكياً أو مؤيداً للجمعية

الدستورية ، أو مجرد قوزاقي يحارب من أجل الحكم الذاتي . المهم ، فعلاً ، هو أننا متحدّون في موقف واحد ازاء الحكم السوفياتي . هل توافقني ؟

— استمر .

— لقد عقدنا آمالنا على قيام القوزاق بانتفاضة شاملة ، أليس كذلك ؟ لقد ثبت أن آمالنا تلك لم يكن لها ما يبررها . والآن ، علينا أن نجد مخرجاً . نحن نستطيع أن نواصل القتال ضد الشيوعيين ، وليس بقيادة فومين وحده ! المهم ، الآن ، هو أن ننقذ حياتنا نحن ، وهذا هو ما يحدوني الى أن أقترح عليك عقد تحالف فيما بيننا ، نحن الاثنين .

— أى نوع من التحالف ؟ وضدّ من ؟

— ضد فومين .

— لم أفهمك .

وظهر الانفعال على كابارين جلياً ، وأخذ يلهث لهاثاً عنيفاً فيما واصل كلامه :

— المسألة كلها في غاية البساطة . انني أدعوك لكي تكون شريكي . سنقوم أنت وأنا ، بقتل هؤلاء الثلاثة ، ثم نذهب الى فيشنسكايا ، أتفهمني ؟ ذلك سينقذنا . ان هذه الخدمة التي سنقدمها الى الحكومة السوفياتية ستنقذنا من العقاب . سنعيش . أتفهمني ؟ سنعيش . ستنقذ حياتنا . ومن تحصيل الحاصل القول اننا ، متى سنحت الفرصة ، سنحارب ضد الشيوعيين من جديد . ولكن ذلك سيكون حينما تكون الشغلة مضبوطة ، وليست مغامرة من المغامرات ، كهذه التي نقوم بها مع الصعلوك فومين . هل توافقني ؟ تذكر أن هذه هي الطريقة الوحيدة للخروج من ورطتنا اليائسة الحالية ، وهي طريقة رائعة .

فتساءل غريغورى :

— ولكن كيف يتم التنفيذ ؟

وفي داخله ، كان غريغورى يرتعد من شدة الغيظ ، بيد أنه حاول بكل جهده أن يخفي الشعور الذى كان قد تملكه .

— لقد فكرت بكل شيء : سنفعلها ليلاً ، بالسلاح الأبيض . ثم يأتي القوزاقي الذى يزودنا بالطعام ، في الليلة التالية ، فنعبر النهر ، وهذا هو كل شيء . انها بسيطة بشكل رائع ، لا تستدعي أى دهاء قط .

فقال غريغورى ، مبتسماً ، في بشاشة مصطنعة :

— يبدو أنها حسنة ! ولكن ، قل لي يا كابارين ، حينما أردت أن تذهب الى القرية ابتغاء للدفء هذا الصباح . . . هل كنت تنوى الذهاب الى فيشنسكايا ؟ هل أصاب فومين في حدسه ؟

فتفرس كابارين ، عن كثب ، في وجه غريغورى المبتسم في ودّ ، ورد على ابتسامته بابتسامة موهنة يشوبها شيء من الحرج ، وقال :

— سأخبرك بصراحة : كانت تلك نيتي فعلاً ، كما تعلم ، متى كان الأمر يتعلق بالمصير لا يأبه المرء كثيراً للطريقة التي يتبعها .

— اذن ، كنت ستشي بنا ؟

فأجاب كابارين مقراً :

— نعم . لكنني كنت سأحاول تجنيبك ، شخصياً ، أية متاعب في حالة القاء القبض عليك هنا ، في هذه الجزيرة .

— ولكن ، لماذا لم تقتلنا جميعاً بنفسك ؟ كان ذلك من اليسير فعله في الليل .

— كانت هناك مخاطرة في ذلك : ففيما أعالج أمر احد منكم ، يكون الآخرون . . .

فقال غريغورى في لهجة مكبوحة الجماح ، وهو ينتش مسدسه من جرابه :

— ارم أسلحتك ! ارم أسلحتك على الأرض والاّ رميتك في الحال ! سأنهض الآن ، وسأحجبك كي لا يراك فومين ، ثم ترمي مسدسك عند قدمي . حسن ؟ لا تفكر باطلاق النار ! سأصرعك عند أول بادرة منك .

فلبث كابارين في مكانه لا يتحرك وقد شحب وجهه شحوب الموتى . وقال في همس ، لا يكاد يحرك شفتيه :

— لا تقتلني !

— لن أفعل . لكنني سآخذ أسلحتك .

— ستشي بي . . .

وانحدرت الدموع على خدى كابارين الأشعرين . فعبس وجه غريغورى نفوراً وشفقة ، وقال رافعاً صوته :

— ارم مسدسك ! لن أشي بك ، رغم أنه يجب علي أن أفعل ذلك . عجباً ، يا لك من جبان ! جبان خسيس !

فألقى كابارين مسدسه عند قدمي غريغورى .

— وماذا عن مسدسك البراوننغ ؟ سلمه . انه في جيب الصدر في قمصلتك .

فألقى كابارين البراوننغ المتألق المطلي بالنيكل ، وغطى وجهه بيديه . واخذ جسمه يختض بالنشيج .

فقال غريغورى في لهجة حادة وهو يحاول جهده كي يكبح جماح رغبته في تسديد ضربة لكابارين :

— كفّ عن ذلك ، يا حثالة !

— ستشي بي ! قد قُضي علي . . .

— قلت لك لن أشي بك . ولكن ، حالما نغادر هذه

الجزيرة تستطيع أن تذهب الى حيث يحلو لك ! لا أحد يرغب في صنفك ! يمكنك أن تعثر لنفسك على ملجأ .

فرفع كابارين يديه على وجهه . كان منظره مرعباً ، بخديه النديين المزرقين وعينيه المتورمتين ، وفكّه الأسفل المرتعش .

وقال متأتئاً :

— اذاً لماذا . . . لماذا جرّدتني من السلاح ؟

فأجاب غريغورى على مضض :

— كي لا تطلق النار علّي من الخلف . كل شيء متوقع من رجال مثلك . . . رجال مثقفين ! هذا ، وجلست تحدثني عن الاصبع ، وعن القيصر ، وعن الله . . . يا لك من مخلوق خبيث !

وبدون أن يلقي غريغورى نظرة على كابارين ، كرّ عائداً الى حيث كان الآخرون ، وهو يقذف البصاق الغزير الذى كان يملأ فمه ، المرة تلو المرة .

كان ستيرلياديكوف يصفر صفيراً خافتاً فيما كان يرتق شقاً في سرجه بخيط مشمع . أما فومين وتشوماكوف فكانا مضطجعين على مرشحة حصان يلعبان الورق كالعادة .

القى فومين نظرة سريعة على غريغورى ، وتساءل :

— ماذا كان يقول لك ؟ كنتما تتحدثان ؟

— كان يشكو من الحياة . . . لا شيء غير ثرثـــرة كثيرة . .

حافظ غريغورى على وعده ، فلم يش بكابارين . لكنه انتهز فرصة مناسبة ، في ذلك المساء ، وانتزع الترباس من بندقية كابارين وأخفاه . وقال في سريرته فيما كان يستلقي :

— يعلم الشيطان ماذا يمكن أن يحاول فعله في الليل .

في الصباح التالي ، أيقظه فومين ، وسأله في لهجة هادئة وهو ينحني عليه :

— هل أخذت أسلحة كابارين منه ؟

— ماذا ؟ أية أسلحة ؟

ورفع غريغورى نفسه على مرفقه ، وهو يمطّي كتفيه متألماً . كان معطفه الثقيل وطاقيته الفرو وجزمته كلها منداة بالرطوبة التي حلت مع شروق الشمس ، فأحس بالبرد حتى العظام .

— لم نستطع أن نعثر على أسلحته . هل أخذتها ؟ هيا ، استيقظ ، يا ميليخوف !

— ماذا ، أجل ، أخذتها . ولكن ، ماذا حدث ؟

فابتعد فومين دون كلام . نهض غريغورى ونفض معطفه . كان تشوماكوف على مبعدة يعد الفطور : غسل الصحن الوحيد الذى كان في حوزتهم ، ثم قطّع رغيف الخبز ، وهو يضعه على صدره ، أربع قطع متساوية ، وصب في الصحن لبنا من قارورة ، ورفع بصره الى غريغورى وهو يفتت قطعة مسلوقة ، سلقاً قوياً ، من عصيد الدخن .

— لقد تأخرت في نومك هذا الصباح ، يا ميليخوف ! أنظر الى أين صعدت الشمس .

فقال ستيرلياديكوف ، فيما كان يمسح الملاعق الخشبية بطرف معطفه بعد غسلها :

— الرجل ذو الضمير الحي ينام قرير العين دائماً . بينما كابارين لم يغمض له جفن طوال الليل ، بل ظلّ يتقلّب ويتثنى . . .

فابتسم فومين وهو ينظر الى غريغورى .

واقترح تشوماكوف قائلاً :

— اجلسوا وتناولوا فطوركم ، يا قطاع الطرق !

ومن غير أن ينتظر الآخرين ، شرع يشرب اللبن بملعقته ، ثم قضم زهاء نصف قطعته من الخبز . التقط غريغورى ملعقته وتساءل ، وهو يتفرس في الآخرين :

— أين كابارين ؟

فواصل فومين وستيرلياديكوف الأكل في صمت ، أما تشوماكوف فانه سمّر نظره على غريغورى ، لكنه لم يقل شيئاً ، هو الآخر .

تساءل غريغورى ثانية ، على الرغم من أن شكاً غامضاً ساوره حول ما كان قد حدث خلال الليل :

— أين ذهب كابارين ؟

فأجاب تشوماكوف مبتسماً ابتسامة وقور :

— كابارين ، الآن ، على مبعدة كبيرة . انه عائم باتجاه روستوف وأحسب أنه يتطاوح في مكان ما حوالي أوست–خوبرسكايا . ها هى فروته معلقة ثمة ، أنظر . . .

فتساءل غريغورى ، وهو يلقي نظرة على فروة كابارين :

— هل قتلتموه حقاً ؟

لم يكن لسؤاله معنى . كان كل شيء جلياً ، الا أنه مع ذلك توجه بالسؤال اليهم . في البدء ، لم يجبه أحد ، فكرر السؤال . وآنذاك قال تشوماكوف :

— عجباً ، قتلناه طبعاً .

وأسبل أهدابه على عينيه الماديتين الأنثويتين :

— أنا الذى قتلته . هذا عملي ، هذه الأيام ، أن أقتل الناس . . .

فتفرس فيه غريغورى عن كثب . كان وجه تشوماكوف الأحمر النظيف هادئاً ، يكاد يكون مبتهجاً ، وكان عذاراه الأشقران

الأملسان بارزين على وجهه الملفوح في تناقض مع لون حاجبيه الأغمق وشعره الممشط تمشيطاً حسناً . لقد كان ذا وسامة أصيلة ومظهر معتدل ، جلاد عصابة فومين المكرم هذا ! وضع ملعقته على القماش المشمع ، ومسح شاربه بظهر يده ، وقال :

— يمكنك أن تكون شاكراً لياكوف يفيموفتش ، يا ميليخوف ! كان هو الذى أنقذ روحك ولولاه لكنت تعوم مع كابارين في الدون ، في هذه اللحظة . . .

— لماذا ؟

فقال تشوماكوف على مهل ، وهو يفصل ما بين كلمة وأخرى :

— كان واضحاً أن كابارين أزمع تسليم نفسه وقد تحدث اليك طويلاً أمس . حسن . ففكرنا ، نحن وياكوف يفيموفتش ، في تخليصه من هذه الخطيئة . هل أستطيع أن أخبره بكل شيء ؟

ونظر الى فومين مستفهماً . فهزّ فومين رأسه ايجاباً ، واستأنف تشوماكوف قصته ، وهو يهرس حبات هريس الدخن السيئ الطبخ :

— هيأت هراوة من خشب البلوط مساء البارحة ، وقلت لياكوف يفيموفتش : «سأصفي حسابهما معاً ، كابارين وميليخوف ، خلال الليل .

بيد أنه قال : «اقض على كابارين ، لا تمس ميليخوف» . وهكذا ، كان هذا ما اتفقنا عليه . راقبت كابارين الى أن نام ، وسمعتك تشخر . حسن ، زحفت اليه وأنزلت الهراوة على رأسه . ولم يرفس تقيبنا الركن ، حتى بساقيه . انما تمدد على طوله بصورة بديعة وأسلم الروح ، لا أكثر . فتشناه بهدوء ، ثم رفعناه من يديه ورجليه ، وحملناه الى الجرف وقذفناه في الماء . أما أنت فقد كنت غارقاً في النوم لا تدرى شيئاً عن الأمر . كان الموت واقفاً على

مقربة منك ليلة أمس ، يا ميليخوف ! كان يقف فوق رأسك تماماً ! وعلى الرغم من أن ياكوف يفيموفتش قال انك يجب ألا تُمس ، فانني قلت في نفسي : «ماذا يمكن أن يكونا قد تحدثا عنه أمس ؟ انها شغلة سيئة حينما يشرع اثنان ، من بين خمسة ، يختليان ويتحدثان سراً» . زحفت نحوك عازماً على قتلك بالسيف ، لأنني فكرت : «هب أنني ضربته بالهراوة انه شيطان قوى ! وقد يثب قائماً ويبدأ يصب حمم ناره ، اذا لم أقض عليه بضربة واحدة» . بيد أن فومين أوقفني ثانية . اقترب مني وقال هامساً : «لا تمسه ، انه واحد منا ، وبامكاننا أن نثق به» . حسن ، تباحثنا في الأمر ، ثم لم نستطع أن نستنتج ما حدث لأسلحة كابارين . وهكذا تركتك في سلام . لقد كنت نائماً ملء جفونك ! لم يخطر ببالك ما الذى كان معلقاً فوقك !

فقال غريغورى في لهجة هادئة :

— كنت ستقتلني بلا ذنب ، أيها الأحمق ! لم أكن متآمراً مع كابارين .

— ولكن كيف حدث أن أصبحت أسلحته في حوزتك ؟

فابتسم غريغورى وقال :

— أخذت منه مسدسيه أمس ، ثم أخذت ترباس بندقيته في المساء وأخفيته تحت مرشحة خيل .

ومضى يقصّ عليهم ما دار بينه وبين كابارين ، ومشاريع النقيب الركن .

فسأله فومين ممتعضاً :

— ولكن ، لمَ لم تقل شيئاً عن ذلك أمس ؟

فاعترف غريغورى بصراحة :

— لقد شعرت بالشفقة عليه ، ذلك الشيطان الممخاط !

فهتف تشوماكوف ، وقد علت وجهه سيماء الذهول الحقيقي :

— آه يا ميليخوف ، يا ميليخوف ! ضع شفقتك حيث وضعت ترباس بندقية كابارين ! أدفنها تحت مرشحة خيل ، لأنها لن تنفعك بشيء !

فرد عليه غريغورى ببرود :

— لا تعلمني ! أنا أعرف شغلي !

— لماذا يتعين علي أن أعلمك ؟ ولكن ، هب أنني ، نتيجة لشفقتك ، أرسلتك الى العالم الآخر ليلة أمس ، لا لذنب قط ، فماذا كانت النتيجة يمكن أن تكون ؟

فأجاب غريغورى في صوت هادئ بعد برهة تفكير :

— كان في ذلك الخلاص .

وأضاف قائلاً ، لنفسه أكثر مما للآخرين :

— في وضح النهار ، يشق على المرء مواجهة موته . أما حينما يكون نائماً ، فلا بد أنه أمر يسير . . .

١٥

ذات ليلة في أواخر نيسان ، عبروا الدون في قارب . وكان في انتظارهم على الضفة خارج روبرني قوزاقي شاب يدعى ألكساندر كوشيليف ، من قرية نيزنه-كريفسكايا .

قال الشاب فيما كان يحيي فومين :

— انا ذاهب معكم ، يا ياكوف يفيموفتش . لقد سئمت هذه الحياة التي أقضيها في القرية .

فلكز فومين غريغورى وهمس له :

— أرأيت ؟ قلت لك ذلك . ها نحن لم نكد نبتعد عن

الجزيرة حتى شرع الناس . . . ها هم أولاء ! انه أحد معارفي قوزاقي محارب ! هذه بشارة خير . ستبدأ الأمور بالحركة !

كان فومين يبتسم في رضى ، كما نم عن ذلك صوته . وكان سروره جلياً بمقدم رفيق جديد لهم . قد عمل نجاحهم في عبور النهر وواقع التحاق رجل آخر بهم على الفور عمل على رفع معنوياته واطلاق آمال جدية على أجنحة من التفاؤل .

وقال في نغمة راضية ، وهو يفحص ويتحسس عدة كوشيليف وسط الظلام :

— اذن ، فبالاضافة الى البندقية والمسدس ، لديك سيف ومنظار ميدان ؟ دونك قوزاقياً ! تستطيع ان ترى في الحال أنه قوزاقي حقيقي وليس هجيناً !

قدم ابن عم فومين على عربة يجرها حصان صغير جداً ، حتى بلغ الضفة . وقال في صوت خفيض :

— ضعوا السروج في العربة ، واسرعوا بحق المسيح ، فالليل يعدو وأمامنا طريق طويل .

كان شديد الانفعال والقلق ، فلبث يستحث فومين على الاسراع . بيد أن فومين ، وقد ابتعد عن الجزيرة وأحس تحت قدميه بأرض قريته الثابتة ، ما كان ليحجم عن العروج على بيته لقضاء ساعة او نحوها فيه وزيارة بعض معارفه من أهل القرية . . .

قبيل الفجر ، انتقوا أفضل الخيل من مجموعة منها كانت على مقربة من قرية ياكودني ، وأسرجوها . وقال تشوماكوف للشيخ الذى كان يسوسها :

— لا تقلق على الخيل ، أيها الجد . انها لا تستحق أن تذكر بكلمة طيبة ، ونحن لن نستخدمها الا لمسافة قصيرة . وحالما نعثر على خيل أفضل منها سنرسلها ثانية الى أصحابها . اذا سألك

شخص من أخذ الخيل ، قل انها ميليشيا من كروسنوكوتسكايا . وليذهب أصحابها الى هناك . اننا نطارد عصابة ، ويمكنك أن تقول لهم هذا .

حينما بلغوا الطريق الرئيسية ، ودعوا ابن عم فومين ، ثم انحرفوا الى اليسار ، وانطلقوا ، خمستهم جميعاً ، في خبب سريع متخذين لهم اتجاهاً جنوبياً غربياً . كانت هناك شائعات تقول ان عصابة ماسلاك قد ظهرت على مقربة من قصبة مشكوفسكايا في غضون اليوم أو اليومين الماضيين . وفي ذلك الاتجاه سار فومين ، مصمماً على الانضمام الى ماسلاك .

* * *

ظلوا يحومون ثلاثة أيام ، بحثاً عن عصابة ماسلاك ، فوق مسالك السهب على الضفة اليمنى للدون ، متجنبين جميع القرى والقصبات الكبيرة . وفي القرى الأوكرانية الواقعة في أطراف أراضي قصبة كاركينسكايا ، استبدلوا دوابهم القميئة الهزيلة بخيول أوكرانية سريعة مُرَبية .

في صباح اليوم الرابع ، وكانوا على مبعدة يسيرة من احدى القرى ، لاحظ غريغوري ، قبل الآخرين ، طابوراً من الخيالة ماضياً عبر فتحة قصية ما بين التلال . كان ما يقل عن سريتين قادمتين ، فيما كانت في مقدمة وأجنحة كل منهما مفارز استطلاع صغيرة .

فوضع فومين منظار الميدان على عينيه ، وقال :

— اما ماسلاك ، أو . . .

فقال تشوماكوف مزدرياً :

— اما مطر أو ثلج . اما هذا أو ذاك . ألق نظرة أفضل ، يا ياكوف يفيموفتش ، لأنهم اذا كانوا حمراً وجب علينا أن نستدير على اعقابنا ، ونطير !

فتساءل فومين مغتاظاً :

— ولكن كيف يتسنى لك ، بحق الشيطان ، أن تحكم وأنت على هذه المسافة ؟

فهتف ستيرلياديكوف :

— أنظروا ! لقد رأونا . تلك دورية قادمة صوبنا .

كان على صواب ، فقد رأوهم . اذ استدارت الدورية الراكبة في جناح الطابور الأيمن ، وخبت ناحيتهم . فأسرع فومين يدس منظاره في حقيبته على عجل ، بيد أن غريغوري مال من على سرجه ، وهو يبتسم ، وأمسك بلجام حصان فومين .

— لا تتعجل ! دعهم يقتربون . ليسوا سوى اثني عشر . سنلقي عليهم نظرة فاحصة ثم يمكننا أن ننطلق هذياً اذا دعت الضرورة . لدينا خيل ناشطة ، مِمَّ تخاف ؟ الق نظرة خلل منظارك .

ظل الفرسان الاثنا عشر يقتربون في ثبات ، وهم يزدادون كبراً شيئاً فشيئاً مع كل لحظة . وغدت هياكلهم بارزة الآن ازاء خلفية خضراء من أشجار باسقة تغطي التل .

ليث غريغوري والآخرون معلقي الأبصار في فومين ، نافدي الصبر . كانت يداه ترتجفان قليلاً وهما ممسكتان بالمنظار . وكان يحدق بشدة بحيث انحدرت دمعة على خده المواجه للشمس .

وأخيراً هتف في صوت غليظ :

— انهم حمر ! استطيع أن أرى النجوم على قبعاتهم !

وأدار حصانه .

انطلقوا يهذبون . ولعلعت ، بين حين وحين ، رصاصات من خلفهم ولبث غريغوري يهذب ، مسافة فرستين أو نحوهما ، محاذياً فومين ، متلفتاً الى الخلف بين الفينة والأخرى .

وقال ، مطلقاً ضحكة مزدرية :

— حسن ، لقد انضممنا اليهم حقاً !

ولكن فومين كان صامتاً كئيباً . وصاح تشوماكوف وهو يجر زمام حصانه جراً قليلاً :

— يجب أن نتحاشى القرى . لنتجه صوب سهب فيشنسكايا ، انه أكثر توحداً .

وما هي الا بضعة فرسخات أخرى في هذب جنوني كهذا ، وستنفق الخيل . كان عرق مزبد يغطي أعناقها المشرئبة وظهرت طيات عميقة في خواصرها .

فقال غريغوري في لهجة آمرة :

— يجب أن نبطئ ! هيا ، خففوا السرعة !

من بين الفرسان الاثني عشر ، لم يبق سوى تسعة : كان الآخرون قد تخلوا عن المطاردة . وقاس غريغوري بعينيه المسافة التي تفصل ما بينهم ، وهتف :

— قفوا ! لنرمهم بصلية أو صليتين !

فأبطأ الخمسة خيلهم الى خبب ، ثم انحدروا الى الأرض ، ونزعوا بنادقهم من على أكتافهم .

— امسكوا بأعنتكم ! سددوا بنادقكم على الرجل الراكب في أقصى اليسار . ارموا !

فأطلق كل منهم مشطاً من الرصاص ، وصرعوا حصاناً من تحت رجل من الحمر ، ثم استأنفوا الهرب من وجه المطاردة ، التي اعتراها الفتور . كانت الطلقات تأتي بين آونة وأخرى من مسافة

بعيدة وراءهم ، وأخيراً تخلى الجنود عن المطاردة كلياً .

قال ستيرلياديكوف ، مشيراً بسوطه الى بركة بدت في السهب ، من بعيد ، مثل رقعة زرقاء :

— يجب أن نسقى الخيل . هناك بركة .

وجعلوا الآن يمضون في مسيرة سريعة ، متفحصين باحتراس كل أخدود أو وهدة يمرون بها ، محاولين التستر في تعرجات السهب غير المستوية .

وأوردوا خيلهم وانطلقوا ثانية ، أولاً في سير هين ، ثم في خبب . وعند الظهر توقفوا لاطعام الخيل في اخدود عميق كان يمتد قاطعاً السهب . أمر فومين كوشيليف بالتسلق ، على قدميه ، الى رابية قريبة حيث يستطيع الانبطاح والمراقبة . وكان عليه ، في حالة ظهور فرسان في أية نقطة من السهب ، أن يعطي انذاراً وأن يهرع في الحال نحو الخيل .

عقل غريغورى حصانه ، وتركه ليرعى الكلأ ، واستلقى هو في موضع ، ليس ببعيد عن الحصان ، انتقاه يابساً على منحدر الأخدود .

هنا ، في الجانب المشمس من الاخدود ، كان العشب اليانع أطول وأكثف . لم تستطع الأنفاس الرقيقة للتربة السوداء المستدفئة بحرارة الشمس أن تخنق العطر الأكثر رقة لأزهار بنفسج السهب الذاوية . كانت نامية على امتداد من أرض مراحة مهجورة ، تبزغ من بين سيقان يابسة لبرسيم أيل ، منتشرة في تشكيلة ثرة الألوان فوق حواف عارضة حقلية قديمة . وكان عيونها الزرق الصافية ، كعيون الأطفال ، تطل على العالم خلل عشب السنة الفائتة الذاوى ، حتى على الأرض البكر الصلدة كحجر الصوان . لقد عاشت زهور البنفسج ما كتب لها من الحياة في هذا السهب المتوحد الفسيح . وفي

محلها على منحدر الأخدود كانت أزهار خزامى ، رائعة اللمعان ، قد ارتفعت ، مشرئبة بكؤوسها القرمزية والبيضاء والصفراء نحو الشمس ، فيما كانت الريح تمزج عطور الأزهار المتنوعة وتحملها بعيداً حدر السهب .

وعلى صخور المنحدر الشمالي القائمة ، كان الثلج لا يزال ثمة ، ألواحاً مقطعة ، تظلله الحوافى وتنبعث منه الرطوبة . كانت برودة ترتفع من الثلج ، بيد أن هذه لم تكن الا لتسجلب عطر أزهار البنفسج الذاوية ، موهناً حزيناً ، مثل ذكرى شيء عزيز انقضى منذ زمان طويل .

استلقى غريغورى ممدداً ساقيه ، مستنداً على مرفقيه ، وهو يتطلع بعينين نهمتين ، الى السهب المغلف بضبابة شمسية ، والى الروابي القائمة كالحراس ، تبدو لازوردية على امتداد حيد قصي ، والى السراب البراق المنساب فوق أطراف السهب . أغمض عينيه لحظة ، فتناهت الى سمعه أناشيد القبرات القريبة والبعيدة ، وزنخرة الخيل الراعية ووقع حوافرها وجلجلة شكائمها ، وهمس الريح خلل العشب اليانع . فانتابه شعور غريب من الاستسلام والوداعة فيما ضغط جسمه على الأرض الخشنة . كان شعوراً قد ألفه منذ أمد بعيد . كان يخامره دائماً بعد أن يكون قد عانى تجربة مؤرقة ، وكان في هذه الأوقات يبدو وكأنه يرى الى كل الأشياء بمنظار جديد ، كأن سمعه يصبح أشد ارهافاً وبصره أكثر قوة . ويغدو ، غب حالات الانفعال هذه ، كلّ ما كان في السابق يمر دون أن يلاحظه ، مثيراً لاهتمامه .

وبالاستمتاع ذاته ، جعل يراقب صقر سنونو يطير طيراناً مائلاً ، صافراً ، وهو يطارد بعض الطيور الصغيرة ، والزحف البطيء لخنفساء سوداء كانت تشق طريقها ، بجهد جهيد ، بين مرفقيه ، والتأرجح

الرقيق لزهرة خزامى حمراء بلون الدم ، تخفق في مهب الريح متألقة بجمالها البكر البراق . كانت زهرة الخزامى نامية على مقربة منه تماماً ، على حافة جحر متهدم من جحور السولق . لم يكن ليحتاج الى أكثر من مدّ يده لاقتطافها . غير أنه لبث متمدداً دون أن يتحرك ، وهو يتأمل ، في انتشاء صامت ، الزهرة والأوراق المتصلبة التي كانت تحتفظ بين طياتها بقطرات من ندى الصباح ، تضمها في حنو وغيرة . ثم حول عينيه ، ولبث وقتاً طويلاً ، يراقب — شارداً — نسراً يحوم في الأفق ، فوق مدينة ميتة من روابي السولق .

بعد ذلك بحوالي ساعتين ، امتطوا خيولهم ثانية مزمعين بلوغ قرى منطقة يلانسكايا المألوفة قبل حلول الليل .

من المحتمل أن دورية الجيش الأحمر قد أبلغت الدوريات الأخرى عن حركاتهم بواسطة الهاتف . فبينما كانوا متوجهين صوب مستوطن كامنكا ، استقبلهم اطلاق رصاص من موضع عبر احد الجداول . فجعل أزيز الرصاص المتتابع فومين يميل جانباً . فانطلقوا هذباً ، تحت وطأة النيران ، ملتفين حول مشارف المستوطن ، واتخذوا طريقهم ، مسرعين ، صوب مراعي الخيل في منطقة فيشنسكايا . وبعد أن اجتازوا مستوطناً آخر ، حاولت قوة صغيرة من رجال الميليشيا أن تقطع عليهم الطريق . فقال فومين مقترحاً :

— سنجتازهم من ناحية اليسار .

الا أن غريغوري قال في تصميم :

— سنهاجمهم . انهم تسعة فقط ونحن خمسة . سنخترقهم !

وأيده تشوماكوف وستيرليادنيكوف .

فاستلوا سيوفهم ، وحملوا خيلهم على الانطلاق بأقصى سرعتها . ففتح رجال الميليشيا ناراً سريعة ، من غير أن يترجلوا عن خيلهم ، ثم هذبوا جانباً متفادين الهجوم . فقال كوشيليف متهكماً :

— انهم رهط هزيل ! شاطرون في كتابة التقارير ، لكنهم لا يريدون الاشتباك في قتال جاد !

واتخذ فومين والآخرون وجهة الشرق في تراجعهم يردون على نار رجال الميليشيا كلما شرع هؤلاء في الضغط عليهم . كانوا لائذين بالفرار مثل ذئاب تطاردها كلاب البوروزوى ، لا يكرون عن مطارديهم الا من حين الى حين ، ولا يكادون يتوقفون . وحدث أثناء تبادل اطلاق نار ، ذات مرة ، أن أصيب ستيرليادنيكوف بجرح . اخترقت الرصاصة عضلة ساقه اليسرى ، ساحقة العظم . فندت عنه أنّة ألم ، وقال شاحب الوجه :

— أصابوني في الساق . . . الساق نفسها ، ساقي العرجاء . . . اى خنازير هم ، ها ؟

فأطلق تشوماكوف ضحكة بأعلى صوته ، وهو يقذف نفسه الى وراء . ولبث يضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع . وكان لا يزال يختض بالضحك حتى حينما أعان ستيرليادنيكوف على تثبيته على حصانه .

— حسن ، كيف تسنى لهم أن يختاروا هذه الساق ؟ لا بد أنهم سددوا طلقاتهم اليها عمداً حين رأوا شخصاً أعرج يتقافز هنا وهناك وحسبوا أن بمستطاعهم أن يصطادوك اذا أصابوا تلك الساق . أوه ، ستيرليادنيكوف ! أوه ، سأموت من الضحك ! ستكون ساقك أقصر من السابق بمقدار الربع . والآن ، كيف سيتسنى لك أن ترقص ؟ سيتعين علي أن أحفر حفرة أعمق من تلك بقدمين لتناسب ساقك .

فقال ستيرليادنيكوف ، وهو يتلوى من الألم :

— اخرس ، أيها البليد ! ليس لدى وقت لك الآن ! اخرس ، بحق المسيح !

وبعد ذلك بحوالي نصف ساعة ، وبينما كانوا ماضين حذر

أخدود من الأخاديد التي لا حصر لها ، قال :

— لنتوقف ونأخذ قسطاً قليلاً من الراحة . . . يجب أن أوقف النزيف ، فقد امتلأت جزمتي بالدم .

توقفوا . أمسك غريغوري بالخيل . . . وظل فومين وكوشيليف يطلقان النار ، بين فترة وأخرى ، على رجال الميليشيا الذين كانوا يحومون على مبعدة . وساعد تشوماكوف ستيرليادنيكوف في خلع جزمته .

قال تشوماكوف ، عاقداً حاجبيه ، فيما كان يسكب السائل القرمزى من الجزمة على الأرض :

— لكنك فقدت كمية كبيرة من الدم ، لا جدال في ذلك !

همّ بشق بنطلون ستيرليادنيكوف الذى تنقّع بالدم وصار يفوح به ، لكن ستيرليادنيكوف لم يدعه يفعل ذلك . وقال :

— انه بنطلون جيد ، فلا ضرورة لاتلافه .

وضع راحتيه على الأرض ورفع ساقه المصابة ، قائلاً :

— اسحبه ، ولكن برفق !

وتساءل تشوماكوف وهو ينبش في جيوبه :

— ألديك بعض الضماد ؟

— ولأى غرض أحتاج الى الضمادات ، بحق الشيطان ؟ سأدبر حالي بدونها .

ألقى نظرة فاحصة على الجراح ، ثم أخرج بأسنانه رصاصة من غلافها ، وصب بارودها في راحته . ثم مزجه مزجاً قوياً بشيء من التراب بعد أن بلله ببصاقه . ثم جصص كلا ثقبي الجرح بهذا المرهم ، وقال في نغمة راضية :

— هذا علاج مجرب . سيجف الجرح ويلتئم في غضون يومين أو نحوهما .

لم يتوقفوا ثانية الا بعد أن بلغوا نهر تشير . أما رجال الميليشيا

فقد ظلوا في أعقابهم ، مبقين على مسافة مناسبة فيما بينهم ، لا يطلقون النار عليهم الا في فترات متقطعة . وكان فومين كثيرا ما يلتفت الى الخلف ويقول :

— انهم يحافظون على مسافة فيما بيننا بحيث لا نغيب عن أنظارهم . . . أم تراهم يتوقعون مجيء تعزيزات ؟ انهم لا يبقون على هذه المسافة وراءنا بلا سبب قوى .

عبروا نهر تشير عند مخاضة بالقرب من احدى القرى ومضوا في مسيرة هينة صعد منحدر أحد التلال . كان الانهاك قد هدّ حيل الخيل . وأفلحت ، بشكل ما ، في النزول خبباً حدر التل ، ولكن الرجال اضطروا أن يقودوها من أعنتها صعد التل التالي ، وجعلوا في غضون ذلك يمشطون بقع الزبد المرتعشة من جوانبها وأكفالها .

كان قلق فومين في محله : فعلى مسافة خمسة فرستات أو نحوها من احدى القرى تسلم زمام المطاردة سبعة رجال ممتطين خيلاً ناشطة سريعة الحركة .

فقال كوشيليف مكتئباً :

— اذا استمروا على تسليمنا من يد الى يد على هذا النحو ، قضي علينا .

مضوا عبر السهب ، متجاهلين المسالك ، ومتناوبين في اطلاق النار نحو مطارديهم . كان اثنان منهم ينبطحان على الأعشاب ويطلقان عليهم النار في حين يواصل الآخرون المضي فيقطعون زهاء خمسمائة ياردة ثم يترجلون عن خيلهم ويفتحون النار على العدو ، فيما يمتطي الاثنان الآخران حصانيهما ويقطعان ألف ياردة ثم ينبطحان ويستعدان لاطلاق النار . فقتلوا أو اصابوا بجراح بالغة أحد رجال الميليشيا وصرعوا الحصان من تحت رجل آخر . وما لبث

حصان تشوماكوف أن قتل من تحته فجعل يعدو الى جانب كوشيليف ، ممسكاً بالركاب .

استطالت الظلال . وغاصت الشمس في اتجاه الغرب . أشار غريغورى عليهم ألا يتفرقوا ، فواصلوا مسيرتهم معاً في خطو بطيء . وظل تشوماكوف يمشي الى جانبهم . وما هي الا فترة قصيرة غب ذلك حتى وقعت أعينهم على عربة يجرها حصانان عند حافة أحد التلال ، فيمموا صوب الطريق . وما ان رآهم سائق العربة ، وكان قوزاقياً كهلاً ملتحياً ، حتى هوى بالسوط على حصانيه يطلقهما في خبب . الا أن الرصاصات التي انطلقت ناحيته أجبرته عـــلى التوقف .

فحمحم كوشيليف خلل أسنانه :

ـــ سأصرع هذا القذر بسيفي ! سيتعلم متى يهرب !

وانطلق يسبقهم وهو يلفح حصانه بالسوط لفحاً جنونياً . بيد أن فومين صاح به محذراً :

ـــ لا تلمسه ، يا ساشا ، انا أمنعك !

وهتف الى الكهل وهم لا يزالون على مبعدة منه :

ـــ حل حصانيك ، أيها الجد ، أتسمعني ؟ حلهما ما دمت حياً !

وقاموا ، بأنفسهم ، بحل الأعنة عن الحصانين ، دون أن يعيروا توسلات العجوز ودموعه أى اهتمام ، ورفعوا الزمام والطوقين من عليهما ، ثم أسرجوهما على عجل .

وتوسل العجوز اليهم باكياً :

ـــ أتركوا لي حصاناً على الأقل من خيلكم ، بالمقابل .

فقال له كوشيليف :

ـــ احرص على ألا تقلع لكمة لك أسنانك ، أيها الشيطان

العجوز ! اننا بحاجة الى الخيل . أشكر الله على أننا أبقينا على حياتك .

امتطى فومين وتشوماكوف الحصانين الجديدين . ولكن سرعان ما انضم ثلاثة فرسان آخرين الى الستة الذين كانوا يتعقبونهم . فقال فومين :

ـــ يجب أن نسبقهم بمسافة كبيرة ! هيا ، يا أولاد ! اذا أفلحنا في الوصول الى أخاديد كريفسكي قبل حلول الليل ، نجونا .

ولفح حصانه بسوطه وانطلق هذياً أمامهم . ومن ناحيته اليسرى ، كان يقود حصاناً ثانياً بعنان قصير . ومن تحت سنابك الخيل كانت رؤوس أزهار الخزامى القرمزية تتطاير في جميع الاتجاهات مثل قطرات كبيرة من الدم . نظر غريغورى ، الذى كان ماضياً في أعقاب فومين ، الى هذا النثار القرمزى وأغمض عينيه . ولسبب ما شعر بدوار ، وبالألم الحادّ يعتصر قلبه .

كانت الخيل تعدو وهي على شفير الانهاك التام . وقد أنهك الرجال أيضاً لفرط ركوبهم الموصول والجوع . كان ستيرلياديكوف يتأرجح على سرجه ، وقد استحال وجهه أبيض كالكتّان . كان قد فقد كمية كبيرة من دمه ، وكان يتألم من شدّة العطش والغثيان . فأكل قطعة صغيرة من الخبز اليابس ، الا أنه سرعان ما استفرغها .

في غبشة المغرب ، وعلى مسافة يسيرة من قرية كريفسكي ، اندسوا خلل مجموعة من الخيل كانت عائدة من السهب ، وأطلقوا بضع رصاصات أخيرة على مطارديهم ، وحينذاك أدركوا ، والفرح يداخلهم ، ان هؤلاء قد توقفوا عن المطاردة . كان الفرسان التسعة قد تجمعوا في البعيد ، ليتداولوا في الموقف ، ثم كروا راجعين .

* * *

أمضوا يومين في قرية كريفسكي ، في ضيافة أحد معارف فومين . كان رب الدار ميسور الحال فاستقبلهم استقبالاً حاراً . وضعت الخيل داخل مأوى معتم ، وأطعمت شوفاناً أكثر مما تستطيع أكله ، وما إن انصرم اليوم الثاني حتى استعادت ما فقدته خلال العدو الجنوني . وتناوب الرجال على حراسة الخيل ، وناموا على أرضية مأوى للتبن ، لطيف البرودة ، مزين ببيوت العنكبوت ، وأكلوا حتى الامتلاء ليعوضوا عن أيام شبه الجوع التي كانوا قد عرفوها في الجزيرة .

كان في مكنتهم أن يغادروا القرية في اليوم التالي ، بيد أن ستيرليادنيكوف أعاقهم . كان جرحه قد ساء حالاً ، واصطبغت أطرافه بلون أحمر نارى ، وما إن حلّ المساء حتى تورمت ساقه وغاب عن وعيه . كان العطش يمضه . وكان طوال الليلة كلما عاد اليه وعيه طلب ماء وشرب منه في نهم . فشرب خلال تلك الليلة سطلاً ، تقريباً ، غير أنه لم يستطع أن ينهض حتى بمساعدة الآخرين ، وكانت كل حركة تسبب له ألماً فظيعاً . وكان يتبول دون أن ينهض ، ولبث يئن ويتوجع بصورة متواصلة . ونقلوه الى ركن بعيد من اركان المأوى ، حتى لا يسمع أحد انينه ولكن ذلك لم ينفع فقد كان أنينه ينبعث في بعض الأحيان ، عالياً جداً ، وحينما يفقد وعيه يهذى بصوت مرتفع .

واضطروا الى ان يتناوبوا على العناية به . كانوا يسقونه ماء ، ويبللون جبينه الملتهب ، ويغطون فمه بأيديهم أو بطاقية رأس حينما يشرع بالأنين أو الهذيان بصوت مرتفع .

في نهاية اليوم الثاني ، عاد اليه وعيه وقال ان حالته قد تحسنت . وسأل تشوماكوف وهو يشير اليه بأصبعه :

— متى سترحلون من هنا ؟

— الليلة .

— انا راحل معكم أيضاً . لا تتركوني هنا ، بحب المسيح !

فقال فومين بصوت خافت :

— كيف يمكنك أن تذهب الى أى مكان ؟ انت لا تستطيع حتى الحراك .

— ألا أستطيع ؟ أنظر !

وبجهد جهيد رفع نفسه نصف رفعة ، ثم هوى ثانية في الحال . والتهب وجهه وتفصد جبينه حبات صغيرة من العرق . قال تشوماكوف في لهجة عازمة :

— سنأخذك معنا . سنأخذك ، أرجوك لا تخف ! وامسح دموعك ، فلست بامرأة !

فهمس ستيرليادنيكوف في هدوء :

— هذا عرق .

ونكس طاقيته على عينيه .

— سيكون من دواعي سرورنا أن نتركك هنا ، الا أن رب الدار لن يوافق . لا تكتئب ، يا فاسيلي . سيلتئم جرح ساقك ، وستصارع ، أنت وأنا ، ثانية ونرقص رقصة القوزاق معاً . لماذا تيأس هذا اليأس ؟ هذا ، لو أن جرحك خطير . . . لكنه لا شيء !

نطق تشوماكوف ، الفظ المتوحش في معاملته مع الآخرين ، بهذه الكلمات في لهجة من الرقة والاخلاص بحيث لم يستطع غريغورى الا أن يحدق اليه مذهولاً .

غادروا القرية قبيل طلوع الفجر . استطاعوا ، ببذل شيء من الجهد ، أن يضعوا ستيرليادنيكوف على السرج ، بيد أنه لم يستطع أن يثبت عليه ، فكان يميل الى هذا الجانب تارة والى

الآخر تارة ثانية . فحاذاه تشوماكوف ولفّ ذراعه حول خصره .

فهمس فومين وهو يقترب من غريغورى ويهزّ رأسه متأسفاً :

— يا له من حمل ثقيل ! سيتوجب علينا أن نتركه في مكان ما .

— أتعني أن نجهز عليه ؟

— طيب ، وما هو الحل الآخر ؟ نتفرج عليه ؟ اين نذهب به ؟

مضوا في سير هين بعضاً من الوقت دون كلام . ثم حلّ غريغورى محل تشوماكوف في اسناد ستيرليادنيكوف ، ثم حلّ كوشيليف مكانه .

ارتفعت الشمس . ومن تحتهم ، كانت الضبابة لا تزال تتدحرج فوق الدون ، أما على التلال فقد كانت أبعاد السهب واضحة جداً ، لامعة شديدة اللمعان ، وكانت قبة السماء تشتد زرقة ، مع كل لحظة تمر ، في حين تجمدت في السماء غمامات ريشية صغيرة . وكان العشب مغطى بندى ثقيل ، مسجى عليه مثل ديباج فضي ، ولكن حيثما كانت الخيل تمر ارتسم فوقه مسلك داكن اللون منساب . ولم تكن سوى القبرات تفسد السكون العظيم الجليل الذى غلف السهب .

قال ستيرليادنيكوف بهدوء متطاوحاً مع حركة خطى الحصان مرنحًا رأسه :

— أواه ، الأمر شاق !

فقاطعه فومين :

— اخرس ! مداراتك ايضا ليست سهلة علينا .

وعلى مسافة ليست ببعيدة عن طريق «هتمان» العام ، هب حبارى من تحت حوافر الخيل ، فأيقظ خفيف الأجنحة

ستيرليادنيكوف من شروده . فندّ عنه نداء متوسل :

— اخواني ، أنزلوني من على الحصان .

فرفعه كوشيليف وتشوماكوف في اعتناء من على السرج ومدداه على العشب الرطب . وقال تشوماكوف ، مقرفصاً الى جانبه :

— دعنا نلقي نظرة على ساقك . والآن ، فك أزرار بنطلونك !

كانت ساق ستيرليادنيكوف متورمة بشكل مريع ، وقد تمطى الجلد بقوة بحيث لم يبق أى أثر للغضون عليه ، وملأت الساق المتورمة كل حيز البنطلون الواسع . كان الجلد ، حتى ردفه ، مغطى ببقع مخملية الملمس . كما ظهرت بقع مماثلة ، ولكنها بلون أخف ، على بطنه السمراء الضامرة . وكانت تنبعث رائحة عفنة كريهة من الجرح ومن الدم ، بني اللون ، المتيبس على بنطلونه . فسد تشوماكوف منخريه وعقد حاجبيه ، ولم يكد يستطيع كبح الغثيان الذى صعد الى بلعومه فيما كان يفحص ساق صديقه . ثم تطلع الى أجفان ستيرليادنيكوف الزرقاء المسبلة ، وتبادل النظرات مع فومين وقال :

— يبدو كأن الآكلة شرعت تأكل الساق . . . أجل ! انك في وضع سيء ، يا فاسيلي ستيرليادنيكوف ! وضع سيء جداً ، في الواقع ! آه ، يا فاسيا ، لماذا حدث هذا لك بالذات ؟

كان ستيرليادنيكوف يجر أنفاساً لاهثة سريعة ، ولم ينبس بكلمة . ترجل فومين وغريغورى عن حصانيهما في وقت واحد ، وكأن ايعازاً قد صدر اليهما ، واقتربا من الرجل الجريح من الناحية المواجهة لمهب الريح . لبث ساكناً فترة من الزمن ، ثم جلس مسنداً نفسه بيديه ونظر اليهم بعينين محتقنتين بالدم ، صارمتين في استسلامهما .

— يا اخوتي ، سلموني للموت . . . لم أعد روحاً حياً في

هذه الدنيا ، أبداً . . . لقد أنهكت ، ولم يعد لدىّ مزيد من القوة . . .

وتمدد على ظهره وأغمض عينيه . كان فومين والآخرون يتوقعون مثل هذا الطلب . فغمز فومين لكوشيليف ، باقتضاب ، وأشاح بوجهه . فلم يعارض كوشيليف ، بل خطف البندقية من على كتفه ، وحزر ، أكثر مما سمع ، كلمة «أطلق !» من شفتي تشوماكوف الذى تنحى جانباً . غير أن ستيرليادنيكوف فتح عينيه ثانية ، وقال في لهجة ثابتة :

— أطلق النار هنا ! . . .

ورفع يده وأشار بأصبعه الى جسر أنفه :

— . . . لكي ينطفىء الضياء في الحال . . . اذا صادف أن ذهبتم الى قريتي ، أخبروا زوجتي كيف حدث الأمر . . . أخبروها ألا تنتظرني .

وبدا كوشيليف أنه ظل يعالج ترباس بندقيته وقتاً طويلاً بشكل مثير للشك ، فتسنى لستيرليادنيكوف أن يضيف قائلاً ، وهو يسبل أجفانه :

— ليس لدىّ سوى الزوجة . . . لا أطفال . . . ولدت طفلاً ، لكنه ولد ميتاً . . . ولم تلد غيره .

مرتين رفع كوشيليف البندقية وأنزلها ثانية ، ووجهه يزداد شحوباً . فدفعه تشوماكوف ، محتدم الغيظ ، بكتفه وانتزع البندقية من يديه . وصرخ في صوت مبحوح : «اذا كنت لا تستطيع ذلك ، فلا تأخذ المهمة على عاتقك ، أيها الجرو !» . وخلع طاقيته ومسد شعره .

فصاح فومين مستحثاً ، وهو يضع قدمه في الركاب : «أسرع» . فقال تشوماكوف ببطء وهدوء ، وهو يشهق بالكلمات التي أراد قولها :

— يا فاسيلي ، وداعاً ، واغفر لي واغفر لنا جميعاً ، بحب المسيح ! سنلتقي ثانية في الآخرة ، وهناك سيحكمون علينا . . . سنخبر زوجتك بما طلبت .

ولبث تشوماكوف ينتظر جواباً ، بيد أن ستيرليادنيكوف كان صامتاً ، وكان وجهه يزداد شحوباً فيما كان ينتظر مصرعه . ولم تكن سوى أهدابه الكالحة من أثر الشمس تخفق ، وكأنها في مهب الريح ، وأصابع يده اليسرى تتحرك بهدوء وكأنه كان يحاول ، لسبب ما ، أن يزرر قمصلته .

لقد رأت عين غريغورى عدداً كبيراً من حالات الموت ، الا أنه لم يقف ليشهد موت ستيرليادنيكوف . أسرع يبتعد ، جاراً حصانه من زمامه جراً عنيفاً . ولبث ينتظر الطلقة بذات الاحساس الذى كان سيشعر به لو أن الرصاصة كانت تستهدف رأسه هو لبث ينتظر الطلقة ، وقلبه يعد كل ثانية تمر . وحينما انطلقت القرقعة الحادة المفاجئة من خلفه ، تراخت ركبتاه من تحته ، وكاد ألا يستطيع كبح جماح حصانه المتراجع .

ظلوا زهاء ساعتين ماضين على خيلهم يغلفهم الصمت . وحينما توقفوا ، كان تشوماكوف أول من قطع حبل الصمت . قال بصوت أجش وهو يغطي عينيه براحته :

— لماذا أطلقت الرصاص عليه ، بحق الشيطان ؟ كان علينا أن نتركه في السهب لا أن أحمّل روحي وزر خطيئة . أستطيع أن أراه الآن ماثلاً أمام عيني . . .

فتساءل فومين :

— ألن تعتاد على ذلك ، أبداً ؟ مع كل الرجال الذين صرعت ، لا زلت غير قادر على الاعتياد ؟ قلبك ليس بالقلب ، بل كتلة من الحديد الصدىء . . .

فشحب وجه تشوماكوف ، وحدج فومين بنظرة هائجة . وقال في لهجة هادئة :

— لا تتحرش بي الآن ، يا ياكوف يفيموفتش ! لا تستفزني ، والا فسأزهق روحك . أجل ، حتى أنت . وبمنتهى السهولة ، أيضاً !

فقال فومين بلهجة مراضاة :

— ولماذا يتوجب عليّ أن أتحرش بك ؟ لديّ الكفاية من المتاعب بدونك !

واستلقى على ظهره ، مضيقاً عينيه تحت أشعة الشمس وممدداً جسمه في دعة وارتياح .

١٦

على عكس ما توقعه غريغورى ، انضم خلال الأيام العشرة التالية أكثر من أربعين قوزاقياً الى عصابة فومين . كانوا عبارة عن بقايا عصابات صغيرة شتى تفرقت تحت ضربات القوات الحمراء . كانوا قد فقدوا زعماءهم فجعلوا يتسكعون في أرجاء الاقليم بلا هدف ، ولهذا انضموا الى فومين طواعية وبكل سرور . لم يكن يهمهم مع من يخدمون ومن يقتلون ، طالما كان في مكنتهم أن يحيوا حياة بدوية طلقة ويسلبوا جميع من يقع في براثنهم . كانوا زمرة من الشقاة . وذات يوم قال فومين لغريغورى فيما كان ينظر اليهم :

— حسن ، يا ميليخوف ، الذين انضموا الينا حثالة لا رجال . مجرمون يستحقون الشنق ، منتقون بصورة خاصة لحبل المشنقة !

على أن فومين كان لا يزال ، في صميم قلبه ، يعتبر نفسه «مناضلاً في سبيل الشعب الكادح» ، وكان لا يزال يقول ، وان كان ذلك في مناسبات أقل من السابق :

— نحن محررو القوزاق .

وظل يرفض ، بعناد ، التخلي عن أكثر الآمال استحالة . وشرع من جديد يغض الطرف عن عمليات السلب والنهب التي كان يرتكبها رفقاؤه في السلاح ، معتبراً ذلك كله شراً لا بدّ منه ويتعين عليه قبوله وأنه ، بمرور الزمن ، سيخلص نفسه من السلابين ، ويغدو إن آجلاً أو عاجلاً ، قائداً حقيقياً لقوات المتمردين وليس أتماناً لعصابة صغيرة بائسة من قطاع الطرق .

غير أن تشوماكوف لم يتردد قط في اطلاق صفة «قطاع الطرق» على جميع رجال فومين ، وكان يجادل ، حتى بح صوته ، محاولاً اقناع فومين بأن فومين ، نفسه ، لم يكن سوى قاطع طريق على نطاق أوسع . وحينما كانا ينفردان ، كانت المناقشات الحادة كثيراً ما تحتدم بينهما . كان فومين يصرخ ، ووجهه يزرق غضباً :

— انا مناضل عقائدى ضد الحكم السوفياتي ! وانت تطلق علي من الصفات ما لا يعرف الا الشيطان ! ألا تدرك ، أيها الأحمق ، أنني أناضل من أجل عقيدة ؟

فيجيبه تشوماكوف :

— لا تحاول أن تستغفلني ! لا تحاول أن تذر الرماد في عيني ! لست بالطفل ! عقائدى ، أف ! انك قاطع طريق بالفطرة ، لا أكثر ! ولماذا تخشى هذه الكلمة هكذا ؟ أنا لا أهتم بها قط .

— لأنها كلمة مهينة ، يا حثالة قذر اللسان ! لقد انتفضت

ضد الحكومة ، ورفعت السلاح في وجهها . وهذا لن يجعل مني قاطع طريق .

— هذا ، بالضبط ، ما يجعل منك قاطع طريق ، لأنك تحارب ضد الحكومة . قطاع الطرق كانوا ضد الحكومات دائماً ، منذ بدء الأزل . مهما كانت صفة الحكومة السوفياتية فهي حكومة ، وهي قائمة منذ سنة ١٩١٧ ، وكل من يعمل ضدها قاطع طريق .

— يا لدماغك ! وماذا عن الجنرال كراسنوف ، أو دنيكين ؟ هل كانا قاطعي طريق أيضاً ؟

— طيب ، ما الذى كانا اذن ؟ كانا قاطعي طريق ، سوى أنهما كانا يحملان شارات على الكتف . وليست الشارات على جانب كبير من الأهمية . أنا وأنت نستطيع أن نضعهما على أكتافنا . . .

فهوى فومين بقبضته على المائدة ، وبصق ، وحينما لم يستطع أن يقدم أية حجج مقنعة ، قطع حبل النقاش غير المجدى . لم يكن ثمة فائدة ترتجى من النقاش مع تشوماكوف .

كان أغلبية الذين انضموا الى العصابة مجهزين بملابس وأسلحة تجهيزاً ممتازاً . وكان لدى جميعهم تقريباً خيول جيدة معتادة على قطع المسيرات الطويلة وقادرة على قطع مائة فرست في اليوم ، في يسر . وكان لبعضهم حصانان : واحد للركوب والآخر لقيادته الى جانبه . واذا دعت الضرورة ، كان في مكنة الراكب أن يقطع حوالي مائتي فرست في اليوم ، وذلك عن طريق استبدال حصان بآخر ، متيحاً فرصة للراحة لكل منهما بالتناوب .

ذات يوم ، قال فومين لغريغورى :

— لو كان لكل منا حصانان في البداية ، لما استطاعت كل الأبالسة أن تصطادنا . ليس مسموحاً للميليشيا أو لرجال الجيش

الأحمر الاستيلاء على خيل الناس ، وهم أنفسهم يتحيرون من فعل ذلك . أما نحن ، فنستطيع أن نفعل ما نشاء . يجب أن نحصل على حصان احتياطي لكل رجل من رجالنا ، وآنذاك لن يستطيعوا اصطيادنا قط . يقول الشيوخ ان التتار كانوا يشنون غاراتهم بهذه الطريقة ، كل بحصانين ، وأحياناً بثلاثة منها . من يقدر أن يصطاد راكباً كهذا ! ونحن ، علينا أن نفعل الشيء نفسه . ان هذه الحكمة التتارية تستهويني بقوة .

وسرعان ما استولوا على مزيد من الخيل ، ومرت فترة غدا تعقبهم ، أمراً متعذراً بالفعل . كانت الميليشيا الراكبة ، التي كانت قد شُكلت حديثاً في فيشنسكايا ، تحاول عبثاً اللحاق بهم . لقد مكنت الخيول الاحتياطية قوة فومين الصغيرة عددياً من سبق العدو بمسافات طويلة ، متفادين بذلك أى صدام خطر معها .

ومع ذلك ، ففي أواسط أيار ، أفلحت قوة يبلغ تعدادها أربعة أضعاف العصابة في حصر وحدة فومين ازاء الدون في موضع ليس ببعيد عن قرية بوبروفسكي في منطقة أوست–خوبرسكايا . الا أن العصابة استطاعت ، بعد قتال قصير ، أن تنفذ خلل الحصار وتتراجع بمحاذاة ضفة النهر ، خاسرة ثمانية رجال ما بين قتيل وجريح . وفي أعقاب هذه المعركة بمدة قصيرة ، طلب فومين من غريغورى أن يتسلم منصب رئيس هيئة الأركان .

— انا بحاجة الى شخص مثقف ، لكي نستطيع اجراء تحركاتنا وفقاً لخطة ، وخريطة ، والا فقد يحاصروننا ثانية ، ذات يوم ، ويزعزعون صفوفنا من جديد . تسلم هذا المنصب ، يا غريغورى بانتلاييفتش .

فأجاب غريغورى في لهجة نكدة :

— أنت لا تحتاج الى هيئة أركان لاصطياد رجال ميليشيا أو قطع رؤوسهم .

— يجب أن تكون لكل وحدة هيئة أركانها . لا تهرف في الكلام !

— اعط المنصب لتشوماكوف اذا كنت لا تستطيع الحياة بدون هيئة أركان .

— ولكن ، لماذا لا تريده أنت ؟

— ليست لديّ أية فكرة عما يعنيه هذا المنصب .

— وهل لتشوماكوف مثل هذه الفكرة ؟

— كلا ، ليست لديه ، هو الآخر .

— اذن ، فلماذا تقترحه ، بحق جهنم ؟ أنت ضابط ، ولا بد أن يكون لديك مفهوم ، تكتيك ومعرفة مختلف الاشياء الاخرى .

فقال غريغورى في لهجة لوذعية :

— كنت ضابطاً بقدر ما أنت آمر وحدة الآن . ولا يهمنا سوى تكتيك واحد : أن نحوم في السهب وأن نبقي عيوننا مفتوحة .

فخزر فومين غريغورى وقال متوعداً بأصبعه :

— أستطيع أن أرى كل ما في داخلك ! تحاول دائماً أن تبقى في الظل ، ها ؟ تريد أن تبتعد عن الأضواء ؟ لن ينقذك هذا ، أيها الأخ ! سيان أن تكون آمر رعيل أو رئيساً لهيئة أركان . اتحسب أنهم سيعطونك «تنزيلات» اذا ظفروا بك ؟ حسبك أن تنتظر لترى !

فقال غريغورى ، مسمراً عينيه على عقدة مقبض سيفه :

— ليس فكرى منصرفاً الى ذلك قط . انت مخطىء لكنني لا أريد أن أتسلم عملاً لا أعرف عنه شيئاً .

فقال فومين ، ثائر الأعصاب :

— طيب ، اذا كنت لا ترغب ، فليس هناك ما يلزمك .

سندبر أمورنا بصورة من الصور بدونك .

كانت الحال قد تغيرت في الاقليم تغيراً كلياً ، فبوابات القوزاق الموسرين التي كانت تفتح على مضاريعها لاستقبال فومين واستضافته ، غدت الآن موصدة في وجهه ، وحينما كانت العصابة تصل الى قرية كان أرباب تلك البيوت يتفرقون في البساتين والحدائق ليختبئوا فيها . كانت أحكام المحكمة العرفية الثورية ، التي كانت قد وصلت الى فيشنسكايا ، صارمة بحق عدد كبير من القوزاق ممن كانوا قد استضافوا فومين في السابق . وسرت أخبار تلك الأحكام في أرجاء المناطق بسرعة ، فتركت في الحال أثرها على أولئك الذين كانوا قد عبّروا بصراحة في السابق عن موقفهم الودّى تجاه العصابات .

قام فومين بجولة خلال جميع مناطق الدون الأعلى استغرقت أسبوعين . وأصبح تعداد العصابة الآن ما يناهز مائة وثلاثين من حاملي السيوف ، ولم تعد تطاردها ثلة من الفرسان جرى تجميعها على عجل بل عدة سرايا من كتيبة الخيالة الثالثة عشرة ، التي كانت قد نُقلت من الجبهة الجنوبية .

كان العديد من الذين انضموا الى فومين مؤخراً قد قدموا من مناطق نائية . وقد وجدوا طريقهم الى الدون سالكين دروباً ملتوية . كان بعضهم قد فرّ ، منفرداً ، من مجموعات السجناء ، أو من السجون ، أو من معسكرات الأسرى . غير أن غالبيتهم كانت تتألف من جماعة تعد بضع عشرات من الخيالة كانت قد انفصلت عن ماسلاك ، وكذلك من بقايا عصابة كوروتشكين المشتتة . ولم يعارض رجال ماسلاك في تفريقهم وتوزيعهم على الرعائل المختلفة ، الا أن رجال كوروتشكين لم يقبلوا بتشتيتهم ، بل كونوا رعيلاً منفصلاً بصورة تامة ، متكتلين ومنعزلين ، الى حدّ ما ، عن بقية أفراد

العصابة . كانوا ينتظمون في مجموعة واحدة ، سواء أثناء المعارك أو عند العسكرة في الخلاء ، واذا ما نهبوا حانوتاً تعاونياً أو مستودعاً كانوا يفرغون جميع الغنائم في الصندوق المشترك للرعيل ثم يوزعونها بالتساوى ، مع التقيد الحرفي بمبدأ المساواة .

وبانضمام عدد من قوزاق «التيريك» و«الكوبان» بستراتهم الشركسية الخلقة ، الى عصابة فومين ، وكذلك «كالميكيين» و«لاتفي» ، يحتذى جزمة صيد عالية تصعد الى فخذيه ، وخمسة بحارة فوضويين يرتدون صديريات مخططة ويحملون أكياس البحارة الكالحة ، غدت العصابة خليطاً ذا ألوان أشد تنافراً من السابق .

وذات يوم ، سأل تشوماكوف فومين ، مشيراً بعينيه الى الطابور المتنافر :

— حسن ، ألا تزال تصرّ على أنك لست آمراً لمجموعة من قطاع الطرق ، ماذا تسمي هؤلا اذن ؟ مناضلين من أجل المبادئ؟ لا يعوزنا الا قسيس بدون جبة وبضعة خنازير بالبنطلونات ، وآنذاك ستكون لدينا مجموعة كاملة من القديسين المباركين !

فتجاهل فومين هذا التعليق . كان همه الأوحد أن يجمع حوله أكبر عدد ممكن من الرجال . لم يكن يأخذ أيما شيء بعين الاعتبار عند قبول المتطوعين . كان هو الذى يقوم باستجواب كل رجل يفصح عن رغبته للخدمة تحت امرته ، فكان يقول باقتضاب :

— أنت لائق . سآخذك . اذهب الى رئيس هيئة أركاني ، تشوماكوف . سينسبك الى أحد الرعائل ويعطيك الأسلحة .

وحدث في احدى قرى منطقة ميكولينسكايا أن جيء الى فومين بفتى حسن الهندام ، مجعد الشعر ، أسمر البشرة . فأعلن عن رغبته في الانضمام الى العصابة . ولدى استجوابه ، علم فومين أنه كان من أهالي روستوف ، وانه كان قد صدر عليه حكم مؤخراً

لارتكابه جريمة السرقة مع استعمال السلاح ، غير أنه استطاع أن يهرب من سجن روستوف ، وحينما سمع بفومين اتخذ طريقه صوب منطقة الدون الأعلى .

سأله فومين :

— من أى عنصر أنت ؟ أرمني أم بلغارى ؟

فأجاب الصبي وقد بدا عليه بعض الحرج :

— انا يهودى .

فالتجم لسان فومين ازاء هذا الاقرار المذهل ، ولبث صامتاً بعضاً من الوقت . لم يعرف ماذا عليه أن يفعل في مثل هذه الحالة غير المتوقعة .

تمعّن في الأمر قليلاً ، ثم أطلق زفرة عميقة وقال :

— طيب ، اذا كنت يهودياً فأنت يهودى . اننا لا نشمخ بأنوفنا حتى على هذه الأشياء . الذى يعنينا هو زيادة رجل آخر . ولكن ، هل تستطيع ركوب الخيل ؟ كلا ، ستتعلم . سنعطيك فرساً صغيرة كل الصغر لتبدأ بها ، ثم ستتعلم . اذهب الى تشوماكوف ، وسينسبك الى رعيلك .

بعد ذلك ببضع دقائق ، قدم تشوماكوف منطلقاً على حصانه ، وصاح في صوت هائج وهو يجر زمام حصانه :

— أنت مجنون أم لعلك تمزح ؟ فيم ، بحق الشيطان ، أرسلت الي بيهودى ؟ لن أقبله ! ليذهب الى أركان الأرض الأربعة !

فقال فومين بهدوء :

— خذه ، خذه ، ستزداد به واحداً !

الا أن تشوماكوف أرغى وأزبد ، وزمجر قائلاً :

— لن آخذه ! سأقتله ، لكن لن آخذه ! ان القوزاق سيثيرون

عراكاً بسبب ذلك . اذهب أنت وتحدث اليهم بنفسك .

وبينما كانا يتصايحان ويتشاتمان أمسك القوزاق بالفتى اليهودى وشرعوا يجردونه من قميصه المطرز وبنطلونه القماشي . وقال أحد القوزاق وهو يجرب القميص عليه :

— أترى تلك الأجمة العتيقة هناك ، وراء القرية ؟ أركض اليها خبباً وانبطح . ستظل منبطحاً هناك الى أن نغادر هذا المكان ، وحينما نبتعد تستطيع أن تنهض وتذهب حيثما يحلو لك . اياك أن تقترب منا ثانية والا فسنقتلك . يحسن بك أن تعود الى روستوف ، الى ماماتك ! ليس القتال من شأنك كيهودى . لقد علمكم البارى عزّ وجلّ أن تتاجروا ، لا أن تحاربوا . إننا نستطيع تدبير هذه الشغلة بدونكم !

لم يُقبل اليهودى . الا أن القوزاق ، في اليوم نفسه ، ألحقوا بالرعيل الثانى وسط هدير من الضحك أبله يدعى باشا معروفا فى جميع قرى المنطقة . قبضوا عليه في السهب ، وجيء به الى القرية ، وألبس بزة كانت قد نزعت من جندى قتيل من جنود الجيش الأحمر . وعلمه القوزاق كيفية استعمال البندقية وقضوا وقتاً طويلاً في تعليمه كيفية الضرب بالسيف .

كان غريغورى في طريقه الى حصانيه المربوطين عند عمود المرابط ، ولكن حين لاحظ الحشد المتجمع ، عرّج عليهم ليرى ما كان يحدث . وحينما انطلق هدير من الضحكات ، أسرع خطاه ، ثم تناهى الى سمعه ، خلل السكون المفاجيء الذى أعقب موجة الضحك ، صوت أحدهم يقول في لهجة رصينة تنبيهية :

— كلا ، ليس هكذا ، يا باشا ! من يستعمل سيفه على هذا النحو ؟ تستطيع أن تقطع الخشب بهذه الطريقة ، لا رأس

انسان . يجب أن تفعل هكذا ، أترى ؟ حينما تظفر به ، أصدر اليه أمراً بالركوع على ركبتيه ، والا فستجد صعوبة في ضربه بالسيف وهو واقف . . . حاول ألا تنفذ الضربة الى الداخل ، بل أن تشق بسيفك جرحاً مائلاً . . .

كان المعتوه واقفاً وقفة استعداد ، يحيط به أفراد العصابة ، ممسكاً بقوة بمقبض سيفه المسلول . استمع الى الارشادات وهو يبتسم ويضيق عينيه الرماديتين الجاحظتين ، في حالة تنم عن منتهى السعادة ، وزاويتا فمه تقطران ، كالحصان ، فتاتاً مزبداً من الطعام ، واللعاب يسيل غزيراً على لحيته النحاسية ومنها على صدره . لعق شفتيه القذرتين وقال لاثغاً :

— فهمته كله ، يا عزيزى . . . سأفعل كما تقول بالضبط . . . اجعل عبد الله يركع على ركبتيه واقطع رقبته قطعاً . لقد أعطيتموني بنطلوناً وقميصاً وجزمة . سوى أنني لا أملك سترة . هلا أعطيتموني سترة ، وآنذاك سأفعل ما يسركم ! سأحاول ذلك بكل قوتي !

فقال أحد القوزاق مقترحاً :

— اقتل قوميساراً ، وآنذاك ستحصل على سترة . ولكن ، هلا أخبرتنا كيف تزوجت في العام الماضي ؟

فومض رعب حيواني في عيني المعتوه الجاحظتين العكرتين . وأطلق سيلاً من السباب ، ثم شرع يقص عليهم قصة وسط هدير من الضحك . كان المنظر منفراً الى حد جعل غريغورى يرتعد ويسرع في الابتعاد عنهم . وقال في سريرته ، وهو يستشعر كراهية مريرة لنفسه وللحياة القذرة التي كان يحياها :

— وبزمرة كهؤلاء ، ربطت مصيرى !

استلقى على الأرض الى جانب مرابط الخيل ، محاولاً أن يصم أذنيه عن سماع صيحات المعتوه وضحكات القوزاق المرعدة ،

وحدّث نفسه ، وهو ينظر الى حصانيه الممرعين ويلاحظ حالتهما الممتازة :

— سأرحل غداً ، لقد آن الأوان !

وشرع يعدّ العدة ، في حذر وامعان ، لترك العصابة . كان قد انتزع وثائق باسم أوشاكوف من قتيل من رجال الميليشيا وخاطها في بطانة معطفه الثقيل . وكان في غضون الأسبوعين الفائتين يعدّ حصانيه للهذب السريع القصير . كان يوردهما الماء في مواعيد منتظمة ، ويعتني بهما باهتمام أكثر حتى من عنايته السابقة بخيله العسكرية ، ويحصل لهما على الحبوب أثناء الليل ، بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة . وبدا حصاناه في حال أفضل من حال بقية الخيل كلها . وغدا اهابهما الأملس يشع في الشمس مثل فضة قفقاسية مطعمة بالثل .

كان بامكانه أن يثق بقدرته على النجاة من أية مطاردة ، ومثل هذين الحصانين في حوزته . قام ومضى الى كوخ قريب . وبلهجة مؤدبة قال لعجوز كانت جالسة على عتبة مخـــزن للغلال :

— ألديك منجل ، يا جدتي ؟

— كان لدينا منجل ، فعلاً ، في مكان ما ، ولكن يعلم الله أين هو الآن . لأي غرض تريده ؟

— أردت أن أقطع به اكلاً أخضر لحصاني من حديقتك ، هل تسمحين لي ؟

ففكرت العجوز ثم قالت :

— متى ستنزلون من أعناقنا ؟ لا شيء سوى اعطونا هذا واعطونا ذاك . زمرة تأتي طالبة الحبوب ، وأخرى تأتي لتنزع كل ما تقع عليه عينها . لن أعطيك المنجل !

— عجباً ، ألا تستطيعين أن تتنازلي عن شيء من الحشائش ، أيتها العجوز ؟

— أتحسب أن مزيداً من الحشائش سينمو في البقاع الجرداء ؟ ما الذى سأطعم البقرة به ؟

— أليست هناك أية حشائش في السهب ؟

— حسن اذن ، اذهب الى السهب واقطعها ، يا نسرى العزيز ! هناك الكثير منها في السهب .

فقال غريغورى مغتاظاً :

— يحسن بك أن تدعيني آخذ المنجل ، يا جدة . سأقطع قليلاً من الحشائش ويمكنك أن تأخذى بقيتها . أما اذا أطلقنا خيلنا في الحديقة فستأخذها كلها .

فصوبت العجوز الى غريغورى نظرة قاسية ، ثم أشاحت بوجهها عنه :

— اذهب وخذه بنفسك . لا بد أنه معلق في المأوى .

عثر غريغورى على منجل عتيق مكسور في المأوى . وحينما كان يمر بالعجوز ، التقطت أذنه همهمتها بوضوح :

— لا نازلة تنزل على رؤوسكم ، لعنة الله عليكم .

كان ذلك شيئاً اعتاد عليه . فقد مضى أجل طويل مذ عرف موقف القوزاق تجاه العصابة . وقال في سريرته : «وهم على حق» فيما كان يحش الحشائش بالمنجل ، محاولاً أن يكون حشه نظيفاً لا يترك حواف دون حش . «فيم ، بحق الشيطان ، حاجتهم الينا ؟ لا يحتاج الينا أحد . اننا نعيق الجميع عن العيش والعمل بسلام ، يجب أن يوضع حد لهذا ، ولقد آن الأوان لذلك !»

وقف الى جانب الحصانين ، وهو مستغرق في أفكاره ، يراقبهما يلتقطان ، في شهية قوية ، لمّات الحشيش اليانع الطرى

بشفاههما المخملية السوداء . أيقظه من تأملاته صوت فتي عميق :

— يا له من حصان بديع ! انه بجعة حقيقية !

فنظر غريغورى باتجاه المتكلم . كان قوزاقياً شاباً ، لم يكن قد التحق بالعصابة الا مؤخراً ، يتفرس في حصان غريغورى الأشهب ويهز رأسه مسروراً . دار حول الحصان عدة دورات وهو يتطلع اليه في اعجاب ويطق لسانه . وتساءل :

— أهو حصانك ؟

فرد غريغورى بفظاظة :

— لماذا ؟ لماذا تريد أن تعرف ؟

— دعنا نتبادل ! لديّ كميت من أصائل الدون النقية . يستطيع أن يجتاز أية عقبة ، وهو جرىء . انك لن تصدق كم هو جرىء ! انه مثل البرق .

فقال غريغورى ببرود :

— اذهب الى الشيطان !

فخلد الفتى الى الصمت دقيقة أو دقيقتين ، ثم أطلق زفرة مرة واقتعد الأرض على مسافة قريبة . لبث يحدق الى الأشهب مدة طويلة ، ثم قال :

— أتعرف أن به ضيق نفس !

غير أن غريغورى جعل يلوك قشة بين أسنانه في صمت . وبدأ يستشعر ميلاً نحو هذا الفتى الغرّ .

وتساءل الصبي في لهجة هادئة ، وهو ينظر الى غريغورى بعينين متوسلتين :

— ألن تقايض ، أيها العم ؟

— كلا ، لن أقايض حتى لو أضفت نفسك الى حصانك .

— ولكن ، أين حصلت عليه ؟

— اخترعته بنفسي .

— أوه ، بلا مزاح ، قل الصدق !

— بالطريقة الاعتيادية : ولدته فرس !

فقال الفتى في نغمة مستاءة :

— لا جدوى من الكلام مع مثل هذا الأحمق .

وانصرف .

ترامت القرية أمام ناظرى غريغورى خالية ، كأنها مسلوبة الحياة . لم يقع بصره على انسان ، خلا رجال فومين . كانت ثمة عربة مهجورة في زقاق ، وخشبة تقطيع في أحد الأفنية وفأس أغرزت في الخشبة على عجل ، ولوح كشط بعضه ، وثيران مرسونة تكلأ ، في استرخاء ، العشب النجيل في وسط الشارع ، وسطل مقلوب الى جانب محور البئر . . . كانت كل تلك الأشياء تفصح عن أن حياة القرية الهادئة قد أخلّ بها على نحو غير متوقع ، وأن القرويين قد تركوا أعمالهم ناقصة وتواروا عن الأنظار منذ زمن .

كان غريغورى قد رأى اقفرارا مشابها وعلامات هروب عاجل كهذه حينما كانت كتائب القوزاق تزحف داخل بروسيا الشرقية . وها قد عاش لكي تقع عينه على هذه الأشياء في بلاده هو . لقد لقي العبوس ذاته ونظرات الحقد نفسها في استقبال الألمان لهم آنذاك ، وها هو يعاني التجربة ثانية ولكن مع قوزاق الدون الأعلى . وتذكر حديثه مع المرأة العجوز ، فأجال نظرة أسيانة حوله وهو يفك زر ياقة قميصه . كان ذلك الألم اللعين ينهش قلبه من جديد .

كانت الشمس تحرق الأرض . وفي الزقاق ، علقت رائحة هامدة ، رائحة الغبار وعشب الاوز وعرق الخيل . وفي البساتين فوق أشجار الصفصاف الباسقة وقد تناثرت عليها عشش مهلهلة ، كانت الزيغان تنعب . وكان جدول صغير من جداول السهب ، تغذيه

ينابيع في مكان ما في قمة أخدود ، ينساب بطيئاً عبر القرية ، شاطرها شطرين . وعلى جانبيه ، كانت أفنية دور القوزاق الواسعة تنحدر صوب الماء تغطيها بساتين كثيفة متراصة ، بأشجار الكرز مظللة شبابيك الأكواخ ، وأشجار التفاح بأغصانها المتينة مادة نحو الشمس أوراقها الخضر وعناقيد فاكهتها اليانعة .

نظر غريغوري ، بعينين عكرتين ، صوب الفناء الذى تكاثف عليه الطلح الخشن ، والى الكوخ بأباجوراته الصفراء وسقفه المغطى بالقش ، والى رافعة البئر العالية . كانت ثمة جمجمة حصان ، كالحة من أثر المطر ، معلقة الى جانب ساحة درس الحبوب على أحد أعمدة سياج الاسفندان العتيق ، وقد تثاءب محجراً العينين في الجمجمة عن فراغ أسود . وكانت نبتة من القرع قد التفت على العمود نفسه ، متسلقة بشكل حلزوني نحو النور . وكانت قد بلغت قمة العمود فتشبثت شعيراتها الصغيرة بأسنان جمجمة الحصان ونتوءاتها . وكان طرفها الطليق قد امتد ، بحثاً عما يستند اليه ، الى غصن من أجمة آس برى قائمة في موضع ليس ببعيد .

هل كان قد رأى ذلك كله في حلم ، أم في طفولته البعيدة ؟ واذ اعتصرته نوبة من الحنين الجارف ، استلقى على صدره تحت السياج ، وغطى وجهه براحتيه ، ولم ينهض الا حينما بلغ أذنيه الهتاف الممدود البعيد :

— الى الخيول !

في تلك الليلة ، خرج عن الطابور ، أثناء مسيرة العصابة ، كمن أراد أن يسوى وضع سرجه ، ثم لبث واقفاً يستمع الى قعقعة السنابك المتلاشية . ثم ، وثب الى سرجه وانطلق يهذب بحصانيه متخذاً اتجاهاً الى يمين الطريق .

ظلّ يستحثّ حصانيه خمسة فرسخات بدون توقف ، ثم أبطأ

العدو حتى أمسى سيراً هيناً ، وأصاخ سمعه . هل كان ثمة صوت لمطاردة من ورائه ؟ كان كل شيء ساكناً في السهب . لم تكن سوى طيور الشنقب تتنادى فيما بينها ، في حزن ، فوق الحفر الرملية ، ومن بعيد ، بعيد جداً ، تناهى نباح كلب .

كانت السماء السوداء مرشوشة بنثار ذهبي من النجوم المتلألئة . وعلى السهب ، كان الهدوء مخيماً ، وثمة نسيم محمل برائحة أشجار الشيح القوية المألوفة انتصب غريغوري على سرجه وتنفس ملء رئتيه الصعداء . . .

١٧

ظلّ يعدو عدواً جنونياً بحصانيه حتى بلغ ، قبل طلوع الفجر بمدة طويلة ، المرج الذى يمتد أمام تتارسكي . وفي موضع تحت القرية ، حيث يكون مجرى الدون ضحلاً ، خلع ملابسه وجزمته وربطها مع أسلحته الى رأسي حصانيه ، ثم وضع كيس الرصاص بين أسنانه وشرع يعبر النهر مع حصانيه . فاذا بالماء يلسعه ببرودة لا تطاق . وفي محاولة للحفاظ على دفء جسمه ، جعل يجذف بذراعه اليمنى جذفاً سريعاً ، ممسكاً بالعنانين بيده اليسرى ، ومستحثاً بهدوء الحصانين المحمحمين المزنخرين .

بلغ الشاطئ وارتدى ملابسه بسرعة وشد سيور السرجين ، وجعل الحصانين يهذبان بسرعة ، ابتغاء للدفء في اتجاه القرية . وعمل معطفه الثقيل المبلل ، وأطراف السرجين المنقعة ، وقميصه الرطب على بث قشعريرة في بدنه وأخذت أسنانه تصطك ، وسرت رجفة حدر ظهره ، وأصبح جسمه كله يرتعد . ولكن ، ما لبث العدو السريع أن أعاد اليه دفئه ، وحينما اقترب من القرية أبطأ سرعة الحصانين الى سير هيّن ، وهو يتلفت حواليه ويصيخ سمعه . قرر

أن يترك الحصانين داخل أحد الأخاديد . فانحدر الى قعر الأخدود على صخر المنحدر الرخو . وأخذت الصخور ترسل قعقعة جافة تحت سنابك الحصانين ، وقدحت شرارات من ضربات حدواتهما الحديدية على الصخر .

ربط الحصانين الى شجرة غرغاج ذاوية كان يعرفها منذ صغره ، واتجه الى القرية سيراً على قدميه .

ثم لاح دار آل ميليخوف العتيق ، ومجموعة أشجار التفاح العتماء ، ورافعة البئر مشرئبة الى أعلى تشير الى نجمة الدب الأكبر . فاذا تنفسه يغدو لهاثاً لفرط الانفعال الذى غمره ، وانحدر صوب النهر يزحف ، في احتراس ، خلل سياج الاسفندان لفناء آل استاخوف ، ثم مضى حتى بلغ النافذة مفتوحة الأباجورات . لم يستطع أن يسمع شيئاً خلا وجيب قلبه وصوت فوران الدم في رأسه . طرق اطار النافذة طرقاً خفيفاً ، كان من الخفوت بحيث لم يكد ، هو نفسه ، يسمعه . قدمت أكسينيا في هدوء الى النافذة وتطلعت خلالها . فرآها تشد يديها على صدرها وسمع شهقة خفيفة تفلت من شفتيها . أشار اليها أن تفتح الشباك ، ونزع البندقية من على كتفه . فتحت الشباك على مصراعيه . فقال لها همساً :

— هدوء ! كيف حالك ؟ لا تفتحي الباب ، سأدخل خلال النافذة . — وقف على طنف حائط البيت . فاحتوت رقبته بذراعيها العاريين . وجعلت هاتان الذراعان العزيزتان الغاليتان ترتعشان وترتجفان ، حتى أن ارتعاشهما سرى اليه هو .

فتأتأ قائلاً في همس لا يكاد يسمع :

— أكسينيا . . . مهلاً . . . خذى البندقية .

وأمسك بمقبض سيفه ودلف الى الداخل فوق عتبة النافذة . أراد أن يحتضنها ، لكنها هوت في اعياء على ركبتيها أمامه ،

وطوقت ساقيه بذراعيها وضغطت وجهها على معطفه المبلل . كان بدنها كله يختض بالنشيج . فأنهضها ، وأجلسها على المصطبة . فمالت عليه ، دافنة وجهها فى صدره ، وكانت صامتة ، تختلج آناً بعد آن ، وهي تعض طية معطفه كي تخنق نشيجها وتتفادى ايقاظ الطفلين .

وهكذا بدا أنها هي الأخرى ، رغم قوتها ، قد هدّتها آلام المقاساة . لقد كانت حياتها ، أيضاً ، مريرة خلال هذه الأشهر المنصرمة . مسد الشعر المنحدر على ظهرها ، ومسد جبينها الملتهب ، المبلل بالعرق . تركها تبكي كفايتها ، ثم سألها :

— هل الطفلان بخير ؟

— أجل .

— ودونيا ؟

— دونيا أيضاً بخير . . . وعلى ما يرام .

— هل ميخائيل في داره ؟ ولكن ، مهلاً لحظة ! كفي عن البكاء ، أرجوك ، فقد تبلل قميصي كله بدموعك . . . أكسينيا ! حبيبتي ، هذا كاف ! لا وقت لدينا للدموع ، وقتنا قصير . . . هل ميخائيل في القرية ؟

فمسحت أكسينيا دموعها وضمت خدى غريغورى براحتيها المبللتين . وقالت في هدوء ، وهي تبتسم خلل دموعها ، وعيناها مسمرتان على حبيبها :

— لن أبكي بعد . . . كلا ، لن أبكي بعد . . . ميخائيل ليس في تتارسكي . انه في فيشنسكايا منذ شهرين ، يخدم في احدى الوحدات العسكرية . تعال الق نظرة على الطفلين . أوه ، نحن لم نتوقع مجيئك ، ولم يكن لدينا أمل . . .

كان ميشاتكا وبوليوشكا نائمين في الفراش : وأذرعهما وسيقانهما

ممدودة في شتى الاتجاهات . فانحنى غريغورى فوقهما ، ولبث واقفاً بعض الوقت . ثم ابتعد على رؤوس أصابعه وجلس الى جانب أكسينيا صامتاً .

سألته في همس ملتهب :

— ماذا عنك ؟ كيف تمكنت من المجيء ؟ وأين كنت طوال هذه المدة ؟ ولكن ، افرض أنك وقعت في أيديهم ؟

— جئت في طلبك . لا أظن أنني سأقع في أيديهم . هل تأتين ؟

— الى أين ؟

— معي . لقد تركت العصابة . كنت مع فومين ، هل سمعت بذلك ؟

— نعم . ولكن ، أين أستطيع أن أذهب معك ؟

— الى الجنوب . الى الكوبان ، أو أبعد منه . سندبر معيشتنا وطعامنا بشكل أو بآخر . أستطيع أن أقوم بأيما عمل . يداى بحاجة الى العمل . لا الى القتال لقد كنت أعاني من قلبي خلال هذه الشهور الفائتة . . . لكننا سنتحدث عن هذا فيما بعد .

— وماذا عن الطفلين ؟

— طيب ، سنتركهما مع دونيا . ثم ننظر في الأمر فيما بعد . سنأخذهما معنا أيضاً فيما بعد . حسن ؟ هل ستأتين ؟

— غريشا . . . غريشا الأعز . . .

— لا يا عزيزتي ! بلا دموع ! كفى ! نستطيع أن نبكي فيما بعد . سيكون لدينا متسع كبير من الوقت لذلك . . . استعدى . لدىّ حصانان ينتظراني في أحد الأخاديد . حسن ، هل ستأتين ؟

فقالت على حين غرة ، بصوت عال :

— عجباً ، ماذا ظننت ؟

ثم ضغطت يدها على شفتيها ، في حركة وجلة . وألقت نظرة على الطفلين . ثم كررت سؤالها همساً :

— ماذا ظننت ؟ هل حياتي كثيرة الحلاوة وأنا في توحدى مع نفسي ؟ سأذهب ، يا غريشا ، يا حبيبي . سأذهب مشياً على القدمين ، سأزحف زحفاً وراءك ، لكن لن أبقى وحيدة هنا أكثر مما بقيت ، لا أستطيع أن أحيا بدونك . . . اقتلني ، لكن لا تتركني ثانية .

وشدته اليها بقوة . فقبّلها واختلس نظرة صوب النافذة . ان ليالي الصيف قصيرة . يجب أن يسرعا .

تساءلت أكسينيا :

— لعلك تود أن تتمدد قليلاً ؟

فهتف مذهولاً :

— ما الذى يدور في خلدك ؟ سيطلع الفجر عما قريب . يجب أن نرحل . ارتدى ثيابك واذهبي لاستدعاء دونيا . سنحدثها بالأمر . يجب أن نصل الى وادى سوخوى قبل انقضاء الظلام . سنمضي النهار في الغابة ونستأنف رحيلنا في الليل . أتستطيعين ركوب حصان ؟

— رباه ، سأدبر أمرى على ظهر حصان على نحو ما ، وبسرور ! أنا أتساءل طوال الوقت ما اذا كان ذلك حلماً . كثيراً ما أحلم بك . . . وفي كل مرة أراك مختلفاً .

مشطت شعرها على عجل ، ممسكة دبابيس الشعر بين أسنانها ، وتحدثت في صوت كان من الخفوت بحيث لم يستطع غريغورى ، الا بصعوبة ، أن يتبين ما كانت تقول . ارتدت ملابسها بسرعة ومضت نحو الباب . ثم سألته :

— أتريد أن أوقظ الطفلين ؟ يمكنك أن تلقي نظرة عليهما .

فقال غريغوري في عزم :

— كلا ، لا تفعلي !

أخرج كيس التبغ من طاقيته وشرع يلف سيكارته . ولكن ما ان خرجت أكسينيا حتى هرع الى السرير وطبع على الطفلين قبلتين طويلتين . وآنذاك ، تذكر ناتاليا والكثير من ماضي حياته السيئة الطالع ، وانفجرت دموعه .

قالت دونيا وهي تعبر العتبة :

— تحيات ، يا أخي ! اذا ، عدت ؟ مهما تحوم في أرجاء السهب . . .

وانفجرت تتأسى :

— لقد عاش الطفلان ليريا والدهما . . . تيتما وأبوهما على قيد الحياة .

فعانقها غريغوري وقال بلهجة صارمة :

— هدوء ! ستوقظين الطفلين . كفي عن ذلك كلية ، يا أختي ! لقد سمعته جميعاً من قبل . لديّ ما يكفيني من أخزاني ودموعي أنا . أنا لم أطلبك لسماع ذلك . هل ستأخذين الطفلين وترعين شؤونهما ؟

— ولكن ، الى أين ذاهب ؟

— راحل ، ومصطحب أكسينيا معي . هل ستأخذين الطفلين في عهدتك ؟ سأجد عملاً ، وآنذاك آخذهما .

— عجباً ، وماذا يجب علي أن أفعل غير أن آخذهما لديّ ؟ ما دمنا ذاهبين معاً ، فسآخذهما ، لا يمكن أن يتركا في الشارع ، وليس من الممكن أن تقذف بهما تحت رحمة غرباء .

فقبّلها غريغوري بلا كلام ، وقال :

— الك مني أعظم شكرى ، يا أختي . كنت أعرف أنك لن ترفضي .

واقتعدت الصندوق وتساءلت :

— متى رحيلكما ؟ الآن ؟

— أجل

— ولكن ، ماذا بشأن الدار ؟ والحقل ؟

فأجابت أكسينيا مترددة :

— افعلي ما يحلو لك . ليسكن فيه شخص ما أو افعلي ما شئت . خذى لك ما يتبقى من الملابس والموجودات .

وتساءلت دونيا :

— ماذا عساى أقول للناس ؟ سيسألون أين ذهبتما ، فماذا أقول لهم ؟

فقال غريغوري :

— قولي انك لا تعرفين شيئاً ، وهذا كل ما في الأمر .

ثم التفت صوب أكسينيا :

— أسرعي ، يا أكسينيا ! لا تأخذى الكثير معك . سترة سميكة ، تنورتين أو ثلاثاً ، وأكثر ما تستطيعين من البياضات ، وطعاماً لوجبة أو وجبتين ، فقط .

كان الفجر قد بدأ يتبلج حينما ودع غريغوري وأكسينيا دونيا وقبّلا الطفلين اللذين كانا لا يزالان نائمين ، ثم خرجا الى السقيفة . انحدرا صوب الدون واتخذا طريقهما بمحاذاة الضفة نحو الأخدود .

— خرجنا ، ذات مرة ، أنت وأنا ، الى ياكودنويه مثل خروجنا اليوم تماماً . سوى أنك كنت يومذاك تحملين صرة أكبر ، وكنا أصغر سناً . . .

فألقت أكسينيا نظرة من طرف عينيها نحو غريغوري ، والبهجة تغمرها ، وقالت :

— بيد أنني أخشى دائماً أن أكتشف أنني في حلم . أعطني

يدك ، دعني ألمسها ، والا فلن أصدق عيني .

وأطلقت ضحكة خافتة ، وهي تشد صدرها الى كتفه فيما تسير .

ورأى عينيها تترقرقان بالدموع وتتألقان بالسعادة ، ووجنتيها شاحبتين في غبشة الصباح الباكر . فابتسم متعاطفاً وقال في سريرته :

— لقد استعدت وخرجت وكأنها ذاهبة للقيام بزيارة أحد ، تماماً . . . لا شيء يخيفها . انها فتاة رائعة !

قالت ، وكأنها تجيب على أفكاره :

— أترى أى صنف من النساء أنا . . . صفرت لي ، فعدوت ، كالكلبة ، أتبعك . هو حبي وشوقي ، يا غريشا ، ما يشدني اليك بكل هذا الاحكام . . . لست آسفة الا على الطفلين ، أما على نفسي فلن أقول «آهاً» واحدة . سأظل أتبعك الى كل مكان ، حتى الموت .

صهل الحصانان حينما سمعا وقع أقدامهما . كان الفجر ينبلج بسرعة . وكان شريط ضيق من السماء ، في الأفق الشرقي ، قد اتشح بلون وردى ، وضبابة ترتفع من مياه الدون .

حل غريغورى الحصانين وأعان أكسينيا على ارتقاء السرج . ثم تبين أن سيور الركابين كانت طويلة بالنسبة لساقيها . فاستشعر غريغورى حنقاً من نفسه لأنه لم ينتبه الى ذلك في حينه . ثم قصر السيور ، وامتطى الحصان الثاني .

— ظلي ورائي ، يا أكسينيا . حينما نخرج من الأخدود ، سننطلق في هذب سريع . لن يرعبك ذلك كثيراً . لا ترخي العنان ، فالحصان الذى تمتطين لا يحب ذلك . واحرصي على ركبتيك ! انه يصبح ميالاً للعبث في بعض الأحيان ، فيحاول أن ينال ركبتيك بأسنانه . حسن ، لنمض !

كان وادى سوخوى على مبعدة ثمانية فرسخات تقريبا . وسرعان ما قطعاها واقتربا من الغابة مع شروق الشمس . وعند طرفها ترجل غريغورى وساعد أكسينيا على النزول .

قال مبتسماً :

— والآن ، كيف وجدت الأمر ؟ ركوب الخيل صعب حينما لا يكون المرء معتاداً عليه ، أليس كذلك ؟

فألقت أكسينيا ، متضرجة الوجه من أثر العدو ، نظرة خاطفة عليه من عينيها السوداوين ، وقالت :

— انه شيء لطيف ! أفضل من السير على الأقدام . سوى أن ساقي . . . (وابتسمت محرجة) . . . استدر ، يا غريشا ، لأنني أريد أن ألقي عليهما نظرة . ثمة شيء ما يقرص جلدى . . . لا بد أنه قد تآكل .

فقال لها مطمئناً :

— هذا لا أهمية له ، وسيزول عما قريب . تمشي قليلاً ، فساقاك ترتجفان ، كما يبدو .

وخزر بعينيه وقال في لهجة رقيقة متماجنة :

— انك قوزاقية بديعة !

عثر على منفسح صغير عند رأس الودى تماماً ، وقال :

— سيكون هذا مضربنا . خذى راحتك ، يا أكسينيا .

رفع السرجين عن الحصانين ، وعقلهما ، ثم وضع السرجين وأسلحته تحت أجمة . كان ثمة ندى غزير ثقيل مسجى على الحشيش ، وبدا الحشيش من تحت الندى أزرق بلون الحمام . أما المنحدر ، حيث كانت غبشة الصباح الباكر لا تزال كامنة ، فقد كان موشحا بزرقة داكنة . وكان النحل الرفّاف غافياً على كؤوس الأزهار نصف المفتحة ، والقبرات تصدح فوق السهب . أما في حقول

القمح ، وبين أعشاب السهب الفواحة ، فقد كانت طيور السمان تطلق النداء :

— هذا أوان النوم ! هذا أوان النوم !

وعلى مقربة من شجيرة بلوط ، داس غريغورى الأعشاب واضطجع واضعاً رأسه على سرج . واستماله الى النوم تزمير طيور السمان العالي ، وتهويدة القبرات والريح الدافئة المنحدرة من وراء الدون ، من رمال لم تبترد خلال الليل . ليفعل الآخرون ما يحلو لهم ، أما بالنسبة لغريغورى ، الذى لم يكن قد ذاق طعم النوم عدة ليال متتالية ، فقد كان ذاك أوان النوم . أغرته طيور السمان ، وحينما غلبه النعاس أغمض عينيه . أما أكسينيا ، فقد جلست الى جانبه صامتة ، تقطع بشفتيها أوراق التويج البنفسجية لزهرة ما ، وهي مستغرقة في التفكير .

تساءلت في هدوء ، وهي تلمس بساق الزهرة وجنتي غريغورى المغطاتين بالزغب :

— غريشا ، أتعتقد أنهم لا يعثرون علينا هنا ؟

فأيقظ نفسه ، بصعوبة ، من اغفاءته ، وقال في صوت مبحوح :

— ليس ثمة انسان في السهب . هذا فصل التراخي . سأنام ، يا أكسينيا ، وأنت راقبي الحصانين . . . ويمكنك بعد ذلك أن تنامي . انني منهك القوى من قلة النوم . منذ أربعة أيام . . . حسن ، سنتحدث فيما بعد .

— نم ، يا حبيبي . نم هنيئاً !

وانحنت عليه ، وأزاحت في رفق خصلة من الشعر عن جبهته ، ولمست شفتيه بشفتيها لمساً رقيقاً . وهمست :

— يا عزيزى ، غريشا ، يا حبيبي ، ما أكثر الشيب الذى

علاك ! اذا ، فأنت سائر نحو شيخوختك ؟ مع أنه لم يمض وقت طويل منذ أن كنت صبياً . . .

ونظرت الى وجهه وعلى فمها ابتسامة أسيانة موهنة .

نام ، مفتوح الفم قليلاً ، وهو يجر أنفاسا منتظمة . كانت أهدابه السود ، وقد كلح لون ذؤاباتها من أثر الشمس ، تخفق هيناً ، وشفته العليا تتحرك كاشفة عن أسنانه البيض المتراصة . نظرت اليه ثانية عن كثب ، ولم تلاحظ الا لحظتئذ كم كان قد تغير خلال هذه الشهور القليلة من فراقهما . كان ثمة تعبير قاس ، يكاد يكون وحشياً ، في الغضون الأفقية العميقة ما بين حاجبيه ، وفي ثنيات فمه ، وعظمتي وجنتيه البارزتين . ولأول مرة خطرت فى ذهنها أنه لا بد أن يكون فظيعاً أثناء المعارك ، ممتطياً الحصان ومستلاً السيف . أخفضت بصرها ، وحدقت الى يديه الجسيمتين المعقدتين ، ولسبب ما أطلقت من صدرها زفرة .

بعد ذلك بقليل ، قامت في هدوء وعبرت المنفسح ، رافعة تنورتها الى أعلى لتنأى بها عن الحشيش الندى ، خشية البلل . وفي مكان ليس ببعيد ، كان جدول صغير يخر ويدندن فوق الصخور. فجثمت أمام مجرى الماء ، الذى كانت تحده جلاميد مسطحة علتها طحالب باهتة الخضرة ، وشربت من ماء الينابيع البارد ، واغتسلت ، ثم مسحت بعصابة رأسها وجهها المتضرج بالدم . كانت ثمة ابتسامة هادئة لا تذوى على شفتيها ، وكانت عيناها تتلامعان بالبهجة . هو ذا غريغورى معها من جديد ! ومن جديد ، أشار المجهول لها نحو سعادة قصيرة العمر . كم ذرفت أكسينيا من دموع خلال ليالي السهاد ، كم ناءت بأحزان خلال الأشهر القليلة الماضية ! في الأمس كانت في الحديقة ، وكانت النسوة يعزفن البطاطس في الحدائق القريبة ويغنين أغنية حزينة . واعتصر الألم

قلبها بعنف وهي تتسمع الى الأغنية طواعية :

عد الى البيت ، أيها الاوز الأشهب ، عد الى البيت ،
انتهى أوان التطواف ، انتهى أوانه ،
انتهى أوان بكائي ،
بكاء امرأة وحيدة .

هكذا انطلق صوت امرأة ، عالي النبرة ، تغني ، نادبة حياتها التعيسة ، فاذا بأكسينيا تفقد زمام نفسها ، وانبجست الدموع من عينيها . حاولت أن تتلمس النسيان في العمل ، لتخنق به الحنين الذى يضج داخل قلبها . بيد أن الدموع غلّفت عينيها ، وتساقطت على أوراق البطاطس الخضر ، وعلى يديها العاجزتين ، فلم تعد ترى شيئاً أو تستطيع فعل شيء . فقذفت المعزقة واستلقت على الأرض ، دافنة وجهها في يديها ، تاركة الدموع تنساب على هواها .

أجل ، بالأمس ، فقط ، كانت تلعن حياتها ، وكان كل ما حولها يبدو كالحاً كئيباً مثل نهار غائم . أما اليوم ، فقد بدت الدنيا متهللة ، لماعة ، مثلما تبدو غب هطول امطار غزيرة . وقالت تحدث نفسها ، وهي تحدق في شرود الى أوراق البلوط المتغضنة ، تتوهج تحت أشعة الشروق المائلة :

نحن ، أيضا ، سنجد لنا مكانا في هذه الحياة .

كانت أزاهير بهيجة المنظر ، حلوة العطر ، نامية الى جانب الأجمات ، في نور الشمس الحار . فقطفت أكسينيا باقة كبيرة منها ، ثم جلست ، في حذر ، على مقربة من غريغورى ، واذ تذكرت أيام صباها شرعت تنسج اكليلاً . وجاء الاكليل جميلاً جداً . فلبثت جالسة تتمعن فيه باعجاب ، ثم دست فيه عدة أزهار وردية من أزهار عليق الكلب ، ووضعته بجانب رأس غريغورى .

حوالي الساعة التاسعة ، أيقظ صهيل الحصانين غريغورى ، فقام فزعاً ويده تتلمس أسلحته ، فقالت أكسينيا في لهجة هادئة :

— لا أحد هنا . ما الذى يخيفك ؟

فدعك عينيه وابتسم ابتسامة وسنانة :

— لقد تعلمت أن أحيا مثل الأرنب . ينام المرء ، ويظل حتى في نومه يحدق بعين واحدة ويجفل لكل صوت . . . سيمضي وقت طويل قبل أن أتخلص من هذه العادة ، يا فتاتي . هل نمت مدة طويلة ؟

— ألا أتود أن تنام أكثر ؟

— يجب أن أنام أياماً بكاملها لأعوض عن السهر الطويل . يحسن أن نتناول فطورنا . ثمة خبز وسكين في خرجي السرج . أخرجيهما ، وسأذهب لأورد الحصانين .

ثم نهض وخلع معطفه الثقيل ومطّ كتفيه . كانت أشعة الشمس قد غدت حارة ، وكانت الريح تعبث بأوراق الأشجار ، فتنبعث منها خشخشة تغطي على همهمة الجدول الرقيقة .

مضى صوب الماء ، وأقام سداً صغيراً بالأحجار والأغصان ، ثم حفر بسيفه شيئاً من التراب وردم به الفواصل بين الاحجار . ثم احضر الحصانين وتركهما يردان من الحفرة ، ثم رفع الشكيمتين عنهما وأطلقهما للكلأ ثانية .

قالت أكسينيا أثناء تناولهما الفطور :

— الى أين سنذهب بعد هذا ؟

— الى موروزوفسكي . سنركب الحصانين حتى بلاتوف ، ومنها نواصل رحلتنا سيراً على الأقدام .

— وماذا عن الحصانين ؟

— سنتركهما في مكان ما .

— ذلك مؤسف ، يا غريغورى . انهما حصانان جيدان . والمرء لن يمل النظر الى الأشهب . هل يتعين علينا حقاً تركهما ؟ أين حصلت عليهما ؟

فقال غريغورى وهو يبتسم في غير انشراح :

— أين حصلت عليهما . . . لقد سلبتهما من أوكراني .

وبعد فترة صمت ، قال :

— أسفنا أم لم نأسف ، علينا أن نتركهما ونمضي . ليس من شأننا أن نتاجر بالخيول الآن .

— ولكن ، لماذا تصطحب بندقيتك معك ؟ ما جدواها لك ؟ عسى الله ألا يجعل أحداً يرانا ، والا فانها كفيلة باستجلاب المتاعب علينا .

— من ذا سيرانا في الليل ؟ أنا أحتفظ بها احتياطاً . أشعر بالضياع بدونها . حينما نترك الحصانين ، سأترك البندقية أيضاً . لن أحتاج اليها أنذاك .

بعد الفطور ، اضطجعا على معطفه الثقيل . ظل يحاول ، عبثاً مقاومة النعاس ، فيما راحت أكسينيا ، وقد ارتفقت الأرض ، تحدثه عن الحياة التي عاشتها في غيابه وعن الآلام التي كابدتها خلال الأشهر الأخيرة . كان يسمع صوتها الهادئ خلل نعاسه الغالب دون أن يقوى على فتح أجفانه . وفي بعض الأحيان ، كان صوتها يغيب عنه تماماً ، فينحسر مبتعداً ، وتخفت همهمته ، ثم يتلاشى كلية . فينتفض ويصحو ، ثم لا يلبث بمد برهة وجيزة أن يغمض عينيه كرة ثانية . كان تعبه أشد من رغبته وارادته .

— . . . كانا يلوبان شوقاً اليك ، ويسألان : — أين بابا ؟ — كنت أبذل قصارى معهما ، باللطف والعطف في غالب الأحيان . وأصبحا شديدى التعلق بي ، ولم يعودا يزوران دونيا كثيراً ، بوليوشكا

هادئة ورقيقة . صنعت لها دمى من خرق فكانت تجلس معها تحت المائدة ، تشغل نفسها بها . لكن ، حدث ذات يوم أن جاء ميشاتكا يركض من الشارع وبدنه كله يرتجف . سألته :

— ما بك ؟

فانفجر يبكي ، يذرف دموعاً مرة !

— الأولاد لا يريدون أن يلعبوا معي ، يقولون ان بابا قاطع طريق . هل صحيح أنه قاطع طريق ، يا مامي ؟ من هم قطاع الطرق ؟

فقلت له :

— بابا ليس قاطع طريق أبداً . انه مجرد . . . غير محظوظ .

لكنه ظل يلحف علي بالأسئلة : لماذا هو غير محظوظ ، وما معنى «غير محظوظ» ؟ لم أستطع أن أفسرها له قط . كانا ، هما ، اللذان بدآ بتسميتي «ماما» ، يا غريشا . لا تظن أنني علمتهما ذلك . أما ميخائيل فقد كان لطيفاً معهما . . . عطوفاً جداً . لكنه ، ما كان ليكلمني ، بل كان يدير لي ظهره أو يجتازني بلا اهتمام . بيد أنه جلب لهما سكراً من فييشنسكايا أكثر من مرة . أما بروخور فقد كان دائم الحزن عليك . كان يقول :

— ها قد فقدنا رجلاً طيباً .

جاء في الأسبوع الماضي وظل يتحدث عنك الى أن سالت الدموع من عينيه . . . أجروا تفتيشاً في بيتي ، بحثاً عن أسلحة ، تحت الأفاريز ، في القبو ، وفي كل مكان .

أغفى غريغورى قبل أن يتم سماع قصتها حتى النهاية . كانت أوراق شجرة غرغاج غضة تخشخش من فوقه في مهب الريح ، وومضات من الضوء صفراء اللون تنزلق عبر وجهه . لبثت أكسينيا تقبل عينيه المغمضتين ، وقتاً طويلاً ، ثم أغفت هي الأخرى ووجنتها

على ذراع غريغورى ، تبتسم حتى في نومها .

• • •

غادرا وادى سوخوى في ساعة متأخرة من الليل ، حينما كان القمر قد أطل . وبعد ساعتين ، انحرفا عن أحد المرتفعات ويمما حدر نهر تشير . كانت طيور الصفرد تتنادى في المروج ، والضفادع تنق في الغدران المقصوصبة ، ومن بعيد كان طير الواق يعول عويلاً مبحوحاً .

وبمحاذاة ضفة النهر ، امتدت غابات من البساتين ، جليلة منيعة وسط الضباب .

توقف غريغورى عند نقطة ليست ببعيدة عن جسر صغير . كان سكون قرين بمنتصف الليل يلفع القرية . همز حصانه بعقبيه واستدار جانباً . لم يثق في مثل هذا السكون ، وكان يخشاه . فخاضا النهير عند ضاحية القرية ، وكانا قد دخلا زقاقا ضيقاً تواً حينما هب رجل من حفرة ، ومن ورائه ثلاثة رجال آخرين .

— قف ! من هناك ؟

فجفل غريغورى ازاء تلك الصيحة وكأن ضربة قد سددت اليه ، وسحب العنان . سيطر على نفسه في الحال ، وهتف :

— صديق !

وأدار حصانه بحدة واستطاع أن يهمس لأكسينيا : الى الخلف ! اتبعيني !

تقدم نحوهما ، في صمت وبلا عجل ، رجال النقطة الأمامية الأربعة المعسكرون في خفارة الليل لحراسة مفرزة تجميع حبوب ، وتوقف أحدهما ليشعل سيكارة ، قادحاً عود ثقاب .

فأنزل غريغورى سوطه بقوة على حصان أكسينيا . فأقعى الحصان ثم انطلق يهذب . وهذب غريغورى خلفه ، وهو ينحني فوق رقبة حصانه . أعقب ذلك سكون استمر عدة ثوان خانقة ، ثم لعلعت صلية خشنة تهدر صدى ، واخترقت الظلام حزم متفجرة من النار . والتقطت أذنا غريغورى صفير الرصاص والهتاف الممدود :

— الى السلاح !

حينما قطعا زهاء مائتي ياردة بعيداً عن النهر ، لحق غريغورى بالحصان الأشهب الذى كان منطلقاً في اندفاع كاسح ، وهتف لأكسينيا حينما حاذاها :

— انحني أكثر ، أكسينيا ! انحني أكثر !

بيد أنها سحبت العنان ، وارتمت الى الخلف ثم مالت نحو السقوط الى الجانب . فأفلح غريغورى في اسنادها ، ولولاه لسقطت على الأرض .

سألها بصوت أجش :

— هل أصبت ؟ أين أصابوك ؟ تكلمي !

لم تجب . بل تعلقت بذراعه أكثر فأكثر . فشدها اليه فيما كانا لا يزالان منطلقين . وهمس لها وهو يشهق :

— اكراماً لله ! كلمة فقط ! ماذا جرى ؟

ولكن لم تند كلمة أو أنة عن أكسينيا الصامتة .

على مسافة فرستين تقريباً خارج القرية ، حاد عن الطريق بحدة ، واتجه صوب أخدود حيث ترجل ، ورفع أكسينيا عن الحصان ، وأسجاها برفق على الأرض .

خلع سترتها السميكة ، وشق قميصها القطني الخفيف وثوبها في موضع صدرها ، ومدّ يده متلمساً الجرح . كانت الرصاصة قد اخترقت جسدها عبر لوح الكتف الأيسر ، مهشمة العظم ونافذة

في اتجاه مائل تحت عظم رقبتها الأيمن . ويبدين مرتعشتين ، أخرج ضماد الميدان وقميصاً داخلياً نظيفا من خرج سرجه ثم رفع أكسينيا ووضع ركبته تحت ظهرها . وشرع يضمد الجرح محاولاً أن يوقف الدم المنبجس من تحت عظم الرقبة . وسرعان ما قتم لون قطع القميص والضماد وتنقع . كان الدم يسيل حتى من فمها نصف المفتوح ، وكان يبقبق ويغرغر في بلعومها . وأدرك ، والرعب يخدر أوصاله ، أن كل شيء قد انتهى وأن أفظع ما يمكن أن يحدث في حياته قد حدث فعلاً .

اتخذ طريقه ، في احتراس وهو يحمل أكسينيا على ذراعيه ، حدر الجرف المائل ، حدر مسلك صغير داسته الأقدام وسط أعشاب تناثر عليها سفرس المروج ، متجهاً الى داخل الأخدود . كان رأسها المدلى ملقى على كتفه . سمعها تصفر ، وتنشج بأنفاسها ، وأحس بالدم الحار يغادر جسدها ويتدفق من فمها على صدره . وتبعه الحصانان نحو الأخدود ، وشرعا يلوكان العشب النضير ، وهما يزنخران ويجلجلان بشكيمتيهما .

ماتت وهي على ذراعيه ، قبيل الفجر بقليل . لم تستعد وعيها . قبّل ، في صمت ، شفتيها اللتين كانتا باردتين مالحتين من أثر الدم ، ثم أنزلها ، برفق ، على العشب ، واستقام واقفاً . وأحس بقوة مجهولة تلطمه على صدره ، فهوى على الأرض . بيد أنه وثب على قدميه في الحال ، وقد استبد به الرعب . لكنه هوى ثانية ، فارتطم رأسه الحاسر على احدى الصخور ارتطاماً مؤلماً . ثم ، ومن غير أن يقوم من على ركبتيه ، استل سيفه من غمده وشرع يحفر به قبراً . كانت الأرض رطبة هشة . عمل بسرعة كبيرة ، غير أن شعوراً خانقاً كان يطوّق بلعومه بشدة ، ولكي يستطيع أن يجر أنفاسه بيسر أكثر فتح قميصه عند الرقبة . فانحدرت طراوة

الصباح الباكر ، باردة ، الى صدره العرق ، وآنئذ لم يجد كبير مشقة في العمل . جرف التراب من الحفرة بيديه وقبعته ، دون أن يستريح لحظة ، ولكن ، فيما كان يحفر قبراً الى عمق خصره ، انقضى وقت طويل .

دفن غريغورى أكسينيا ، تحت ضوء الصباح الساطع ، وحينما أسجاها في القبر ، طوى ذراعيها بجلدهما القاتم الشاحبتين شحوب الموت ، فوق صدرها وغطى وجهها بعصابة رأسها ، كي لا يملأ التراب عينيها الزجاجيتين نصف المفتوحتين فيما كانتا تحدقان الى السماء بلا حراك . ثم ودعها ، وفي نفسه ايمان راسخ أن فراقهما لن يطول .

رص براحتيه ، في عناية وحرص ، الطين الأصفر الرطب فوق ربوة القبر ، ولبث وقتاً طويلاً جاثياً على ركبتيه الى جانب القبر ، رأسه مطأطأ ، وبدنه يتأرجح قليلاً .

الآن ، لم يعد لديه ما يدعوه الى الاستعجال . لقد انتهى كل شيء .

ارتفعت الشمس فوق الأخدود خلل سديم ريح لاهبة تهب من ناحية الشرق . فلألأت أشعتها شعر غريغورى الأشيب ، وانحدرت على وجهه الشاحب والجامد على نحو مريع . وفجأة ، وكمن يستيقظ من نوم خانق ، رفع رأسه ، فرأى من فوقه السماء السوداء وقرص الشمس الباهر .

١٨

في أوائل الربيع ، حينما يتلاشى الثلج ، ويشرع بالجفاف العشب الذى كان مدفوناً تحته خلال الشتاء ، تندلع النيران في

السهب . تتطاير لهباً ، كالجداول ، تدفعها الريح ، وتلتهم في شره أعشاب الساقية الجافة ، تتواثب سيقان العوسج السامقة وتنحدر عبر ذؤابات أشجار الشيح البنية ، وتنتشر في الوهاد . وفي أعقاب ذلك ، تتعلق في جو السهب رائحة حريفة لاسعة ، رائحة الأرض المحروقة المشققة . وفي أرجاء السهب الأخرى ، ينمو العشب الجديد أخضر رائعاً ، وتخفق قبرات لا حصر لها في السماء اللازوردية ، ويقتات الاوز المهاجر على الحشائش النامية ، وتجد طيور الحبارى لها مستقراً لفصل الصيف وتبني فيه أعشاشها . أما حيثما تمر نيران السهب ، فان الأرض المحروقة الميتة تستحيل سوداء منذرة بالشؤم . فلا طيور تعشش فيها ، ولا حيوانات تأتيها ، وليس سوى الريح ، خفيفة مجنحة ، تحمل الرماد الأزرق بلون الحمام والغبار الحريف القاتم بعيداً ، بعيداً في مرامي السهب .

وكالسهب الذى شوطته النيران ، استحالت حياة غريغورى سوداء كذلك . لقد حرم من كل ما كان عزيزاً على فؤاده . لقد انتزع الموت المتجبر كل شيء منه ، حطم كل شيء . لم يبق سوى الطفلين . لكنه ظل متشبثاً بالأرض ، بأصابع متشنجة ، وكأن حياته المحطمة كانت حقاً ذات قيمة له وللآخرين .

بعد أن دفن أكسينيا ، ظل ثلاثة أيام يهيم على وجهه في أرجاء السهب . لكنه لم يتجه الى قريته أو الى فيشنسكايا ليسلم نفسه . وفي اليوم الرابع ، ترك الحصانين في احدى قرى منطقة أوست–خوبرسكايا ، وعبر الدون وضرب سيراً على القدمين في اتجاه غابة سلاشتشفسكي البلوطية ، وهي الغابة التي نزلت عند طرفها أول ضربة قاصمة على عصابة فومين في نيسان الماضي . وحتى في ذلك الوقت ، في نيسان ، كان غريغورى قد سمع بأن هاربين من الخدمة العسكرية قد اتخذوا تلك الغابة لهم ملجأ ومستقراً .

فمضى اليهم ، اذ لم يستشعر أيما رغبة للعودة الى صفوف عصابة فومين .

لبث عدة أيام يتسكع في أرجاء الغابة الواسعة . كان الجوع يمضه ، الا أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على اللجوء الى أى مستوطن بشرى . فلقد فقد ، مع موت أكسينيا ، ذكاءه الفطرى وجرأته السابقة . كان صوت انكسار غصن ، أو حفيف أشجار الغابة ، أو صرخة طير ليلي ، كفيلاً باشاعة الرعب والهلع في قلبه . وظل يعتاش على فاكهة الشليك البرى الفجة ، وعلى نباتات الفطر البرية الصغيرة وأوراق أجمات البندق ، فأمسى نحيلاً شديد النحول . وفي نهاية اليوم الخامس عثر عليه الهاربون في الغابة واقتادوه الى حفيرتهم .

كانوا سبعة وكانوا جميعاً رجالاً من القرى المحلية استقروا في الغابة خلال خريف السنة السابقة هرباً من التجنيد . كانوا يعيشون في حفيرتهم الفسيحة حياة مريحة كحياة البيوت ، لا يكاد ينقصهم شيء . وفي الليل كانوا كثيراً ما يذهبون لزيارة عوائلهم ، ثم يعودون محملين بالفطائر والدخن والخبز والدقيق والبطاطس . ولم تكن تصادفهم مشقة في الحصول على اللحم لسلقه ، طالما كان ثمة خروف يسرقونه من هذه القرية حيناً ، ومن تلك حيناً آخر . عرف أحد الهاربين غريغورى ، وكان قد خدم في كتيبة القوزاق الثانية عشرة ، فقبلوه بين ظهرانيهم دون كبير ضجيج .

* * *

ضاع منه حساب الأيام التي لا تنتهي ولا ينتهي عذابها . لبث يعيش ، بشكل أو بآخر ، في الغابة حتى تشرين الأول ،

ولكن حين حل موسم الأمطار الخريفية وفي أعقابه الطقس البارد ، استيقظ في داخله شوق قوى ، على نحو غير مسبوق وغير متوقع ، الى طفليه ، الى قريته الأصلية .

وفي سبيل ازجاء الوقت ، كان يظل أياماً بطولها جالساً على سريره الخشبي ، يحفر ملاعق من الخشب ويقعّر صحوناً ويشكل بصورة حاذقة أشكالاً بشرية وحيوانات من الخشب الطرى . كان يحاول ألا يفكر بشيء وألا يدع أشواقه السامة تجد طريقها الى قلبه . فكان يفلح في ذلك خلال النهار ، أما في ليالي الشتاء الطويلة فقد كان الشوق الذى تستثيره الذكريات يغمره ويستبد به أى مستبد . فكان يتقلب ويتثنى ساعات طويلة ممضة على سريره الخشبي دون أن يستطيع النوم . كان الآخرون الذين يقطنون معه في الحفيرة لا يسمعون منه كلمة شكوى خلال النهار ، أما في الليل فقد كان كثيراً ما يستيقظ وهو يرتجف ، ثم يمرر يده على وجهه فيلفى وجنتيه ولحيته ، التي لم يحلقها منذ ستة أشهر ، مبللة بالدمع .

كان كثيراً ما يرى في الحلم طفليه ، وأكسينيا ، وأمه ، وجميع احبائه الآخرين الذين لم يعودوا على قيد الحياة . كانت كل حياته مسجاة في الماضي ، بيد أن الماضي بدا مثل اغفاءة وجيزة ، قلقة . وكان غالباً ما يحدث نفسه :

— حسبي أن أرى الأماكن القديمة مرة أخرى وأن أكحل عيني بمرأى الطفلين ، ثم ، فلأمت !

ذات يوم في أوائل الربيع ، قدم تشوماكوف بصورة غير متوقعة . كان مبللاً حتى خصره ، مرحاً ناشطاً كالسابق . وبعد أن جفف ملابسه ازاء النار ، وتدفأ ، جلس على السرير الخشبي بجانب غريغورى .

— لقد قمنا بكثير من التجوال ، يا ميليخوف ، بعد أن تركتنا . أوشكنا أن نبلغ استراخان ، وكنا في سهب الكالميك . . . لقد طفنا في أرجاء العالم الفسيح ! أما الدماء التي سفحناها . . . فحدث ولا حرج ! أخذ الحمر زوجة ياكوف يفيموفتش رهينة وصادروا أملاكه ، فجن جنونه وأصدر أوامره بوجوب قتل كل من خدم الحكومة السوفياتية . فبدأنا نقتلهم عن بكرة أبيهم : مدرسين ، أطباء ، مرشدين زراعيين . . . الشيطان يعلم من لم نقتله !

ثم أضاف متنهداً ، وهو لا يزال يرتعش من البرد :

— أما الآن ، فقد قضوا علينا ، والى الأبد . أنزلوا ضربتهم الأولى بنا بالقرب من تيشانسكايا ، ثم بالقرب من سولومني قبل أسبوع . طوقونا من ثلاثة جوانب ، أثناء الليل . ولم يتركوا لنا منفذاً سوى صعد أحد التلال ، وهناك كان الثلج يصل الى بطون الخيل ارتفاعاً . فتحوا نيران مدافعهم الرشاشة علينا مع الفجر . وكانت تلك بداية النهاية . حصدونا حصداً بالمدافع الرشاشة . لم يفلح في النجاة الا ابن فومين الشاب وأنا ، فقط . كان ، أعني فومين ، قد شرع يصطحب ولده دافيدكا معه منذ الخريف . ياكوف يفيموفتش قتل . . . رأيته يقتل بأم عيني . أصابته الرصاصة الأولى في ساقه وحطمت رضفته ، وسحجت الثانية رأسه . سقط ثلاث مرات من على حصانه . فكنا نتوقف ونلتقطه ونضعه على سرجه ، ليمضي مسافة قصيرة ثم يهوى ثانية . أصابت الرصاصة الثالثة منه مقتلاً . . . في داخله تماماً . وآنذاك اضطررنا الى تركه . وبعد أن كنت قد قطعت بعض المسافة ألقيت نظرة الى وراء فاذا بفارسين يعملان فيه السيف حيث كان ملقى . . .

فقال غريغورى في غير اهتمام :

— حسن ، كانت هذه النهاية محتمة .

أمضى تشوماكوف الليلة في الحفيرة ، وفي الصباح ودعهم . وآنذاك سأله غريغوري :

— الى أين ذاهب ؟

فأجاب تشوماكوف مبتسماً :

— بحثا عن حياة ميسورة . لعلك تود أن تأتي معي ؟

— كلا . اذهب بمفردك .

فقال تشوماكوف ساخراً :

— أنت على صواب . ما كان بامكاني أن أعيش معك . مهنتك حفر الأقداح والملاعق وليس هذا طريقي .

ثم خلع قبعته وانحنى قائلاً :

— ليحفظكم الله ، أيها الشقاة المسالمون ! شكراً لضيافتكم وايوائكم اياى . عسى الله أن يمنحكم حياة مرحة ، لأن حياتكم كئيبة جداً هنا ! انكم تعيشون هنا تعبثون بابهامات أصابعكم ، يوماً في أعقاب يوم ، فهل تسمون هذه حياة ؟

بعد رحيل تشوماكوف ، ظل غريغوري أسبوعاً آخر في الغابة ، ثم استعد هو نفسه للرحيل . فسأله أحد الهاربين :

— ذاهب الى أهلك ؟

ولأول مرة خلال مدة مكوثه في الحفيرة ، ابتسم غريغوري ابتسامة واهنة جداً ، وقال :

— نعم ، ذاهب الى أهلي .

— عليك أن تنتظر حتى الربيع . ستعلن الحكومة عفوا بمناسبة الأول من أيار ، وآنذاك نذهب جميعاً الى أهالينا .

فقال غريغوري :

— كلا . لا أستطيع الانتظار .

وودعهم .

في الصباح التالي ، بلغ الدون مقابل تتارسكي . فوقف يحدق الى فناء بيته ، ووجهه يشحب لفرط انفعال الفرحة . ثم أنزل بندقيته من على كتفه ، وأخرج مزق القنب التي كان يستعملها لتنظيفها ، وكذلك قنينة زيت المكائن الصغيرة ، ولسبب ما عدّ رصاصاته . كانت لديه ستة أمشاط وست وعشرون رصاصة مفردة .

تحت الجرف ، كان الجليد قد انحسر عن الحافة ، والماء الأخضر شبه الشفاف يضرب ويكسر الجليد الابرى على امتداد الضفة . ألقى غريغوري بندقيته ومسدسه في الدون ، ثم سكب الرصاص بعدهما ومسح يديه بطرف معطفه الثقيل مسحاً شاملاً .

عبر الدون ، من موضع تحت القرية ، فوق جليد آذار الأزرق ، نصف الذائب ، كثير الحفر ، ومضى بخطوات واسعة صوب بيته . وحينما كان لما يزل على مبعدة منه ، رأى ميشاتكا على المنحدر المؤدى الى المرسى ، فما كاد يستطيع أن يكبح جماح رغبته في الجرى نحو الصبي .

كان ميشاتكا يكسر الدلاديل الجليدية المتدلية من احدى الصخور ، ويقذفها بعيداً ، ويسمر عينيه على الشظايا الزرق وهي تتدحرج حدر المنحدر .

مضى غريغوري حتى بلغ المنحدر ، ونادى على ابنه بصوت مبحوح ونفس لاهث :

— ميشاتكا ! ولدى الصغير !

فألقى ميشاتكا عليه نظرة مرتعبة ، ثم أخفض بصره . لقد حزر أن هذا الرجل الملتحي ، ذا المنظر المريع ، كان أباه .

كل الكلمات الرقيقة العطوف التى كان غريغوري يهمس بها ، كلما كان يتذكر طفليه في الغابة ليلة اثر ليلة ، اختفت من ذاكرته الآن . فجثا على ركبتيه وجعل يقبّل يدى ولده الورديتين الصغيرتين

الباردتين دون أن يستطيع أن ينطق بغير هذه الكلمات ، وبصوت مختنق :

— ولدى الصغير . . . ولدى الصغير . . .

ثم رفعه على ذراعيه . وسأله ، وهو يتفرس في وجهه ، في نهم ، بعينين ناضبتين ، تلتهبان افتتاناً :

— كيف حال الجميع ؟ كيف حال عمتك ، وبوليوشكا . . . هل هم جميعاً بخير ؟

فأجاب ميشاتكا وهو لا يزال ينظر الى أبيه :

— عمتي دونيا بخير ، لكن بوليوشكا ماتت في الخريف . . . بمرض الخناق . والعم ميخائيل في الخدمة . . .

إذن ، ان ذلك الشيء الصغير الذى ظل غريغورى يتحرق اليه شوقاً ، عبر ليال عديدة لم يعرف فيها النوم ، يتحقق : اذ ها هو واقف عند بوابة بيته ، حاملاً ولده بين ذراعيه .

كان هذا كل ما تركته له الحياة ، كل ما كان يواشجه لفترة قصيرة أخرى ، بالأرض وبالعالم الفسيح الذى ترامى متألقاً تحت أشعة الشمس الفاترة .

محتويات

الجزء السابع

٣

الجزء الثامن

٤٤٧